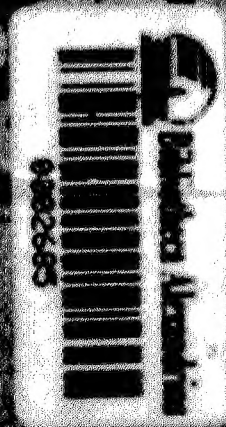


الحضارة الإسلامية

مُقَارَنَة

بالحضارة الغربية

الدكتور توفيق يوسف الواعى



• ١٩٤



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية

الخطبة الإسلامية
مقارنة
بالحضارة الغربية

« هذا الكتاب في الأصل رسالة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه)
من كلية أصول الدين » — جامعة الأزهر — .

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

مدار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م. المنصورة

التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المجاورة لكلية الآداب - عمارة الوفاء
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠ - تلکس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



الحضرة الإسلامية مُقَارَنَةُ بالحضرة الغربية

الدكتور توفيق يوسف الواعى

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نستعينه ونستعديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .
وأصلى وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله إمام الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد :

فلقد كان من رحمة الله بالمسلمين خاصة ، والبشرية عامة ، أن أرسل فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

كما كان من فضله ومنه أن هدانا إلى الطريق المستقيم والصراط القويم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، فسار عليه القاصدون ، فهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد ، واعتصموا به ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . فنشأت على هذا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . كانوا فى التاريخ مثلاً رواداً وأئمة . وصدق الله ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾^(١) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾^(٢) .

(١) الأنبياء — ٧٣ .

(٢) السجدة — ٢٤ .

ولقد ظهر على مدار التاريخ رواد للحضارة الحقّة ، وأئمة للسلوك الإنساني والريادة البشرية الرحيمة ، فكانوا بمثابة الظلال الوارفة التي ترتاح في جنباتها الإنسانية ، والنسائم الندية التي تبهج الأرواح والقلوب . وهؤلاء كانت لهم نفحات علوية وهدايات ربانية وإنخاءات إلهية ، وقد كان أصدق مُثل على هذا الطريق هم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم بإحسان . كما ظهر في حقب من الأزمان صنف آخر سام الناس الهوان والخسف ، وأذلهم بالقهر والظلم والبغى ، وكان تأثيرهم في البشرية كالنار في الهشيم ، وكالبواب في الأعمى ، وإن صاحبهم عمران وعلم أو تقدم وفن . ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصّب عليك ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴿ (١)

وبرغم أن هذه الفترات التاريخية ظهرت بعض معالمها ، فإنها لم تلق العناية والاهتمام ، أو قل لم تلق القبول والاطمئنان في هذا العصر . وقد يكون السبب أن حضارة اليوم هي المثال المتكرر للصنف الثانى ، الذى ظهر على مدار التاريخ ، وانساح في الأرض يستعبد الناس ويقهرهم ، ويعبدهم للطاغوت ، ويسلبهم الإنسانية والإرادة ، تارة بقهر الجيوش ، وأخرى بقهر الشهوات والغرائز وسيطرة البطون . وكان لزاماً أن يظهر جانب الحق ، ويسطع نور الحقيقة ، خاصة وأن حضارة الإسلام هي المثال المتكرر للصنف الأول ، أو قل المثال الجامع للحضارة الإنسانية الحقّة .

وكان لزاماً أن يرد الناس عن الباطل ، وأن تُفتح بحضارة الإسلام قلوب غلف وعمى وآذان صم . وأن يزهى الباطل بأضواء الحق وأنوار الهداية ، وتفيق الإنسانية من غفوتها وأحزانها مرددة قوله تعالى ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ (٢) الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴿ (٣)

(١) الفجر — ٦ إلى ١٤ .

(٢) فاطر / ٣٤

(٣) الأعراف / ٤٣

أهمية الموضوع ودواعى اختياره :

الحضارة الإسلامية اليوم هى موضوع الساعة لأسباب معينة منها !

١ — صحوة الأمم الإسلامية اليوم تحتاج إلى هوية وإلى تأصيل ، لأن كل أمة تريد أن تنهض أو تتقدم لابد أن تغرس في تربتها ، وتزرع في أرضها ، وتستقى من نبعها ، حتى تكون النبتة آمنة بإسقة تؤثى أكلها لأهلها وذويها ، وتحمل نكهتهم ، وتصطبغ بلونهم . أما أن ترضع أمة لبان أخرى فإنها تكون ابنة لها من الرضاع ، أما أن تنزود أمة بفتات غيرها وتنهل من ثقافتها وتسربل بزيتها فإنها ولابد أن تكون ذليلاً أو تابعا مقلداً أو محاكيا ، تفقد الطعم واللون والرائحة ، وتظل ترسف في أغلال التبعية والاستعمار ، وإن نصبت لها رايات وحددت لها حدود ، لهذا كان لزاما علينا أن نلتفت إلى تربتنا وحضارتنا وتراثنا وثقافتنا وعقيدتنا وتقاليدينا ، لترشد العزمة وتسلم الخطوة ، وتنضج الثمرة ، وخاصة إذا كانت تربتنا جيدة ، وحضارتنا فريدة ، وتراثنا راشداً ، وثقافتنا عزيزة ، وعقيدتنا دافعة ، وتقاليدينا عريقة قديمة .

وإذا أردنا أن نصف الحضارات اليوم نجد أن لكل حضارة روحا تسرى فيها ، وطابعا عاما يميزها ، ومظاهر معينة تتجلى فيها . وكلها مستجدة من تصور أهلها للوجود والكون والحياة والقيم . ومن تكوينهم كأمة لها خصائصها الحسية والمعنوية ، ومن شعورها بذاتها ورسالتها في الحياة ، ومن ظروف حياة أفرادها ومكانهم في التاريخ . والأمم تتشابه وقد تتباين في روحها ومواهبها وبعض أعمالها ، ولكن حضارتها تتشكل بعوامل ترجع إلى طبيعة الأمة وظروفها ، ونحن حين تأملنا ودَرسنا الحضارات الكبرى التي وجدت على الساحة الأرضية في الأزمنة المختلفة وجدنا أنفسنا نقف أمام تنوع لا حدود له من الألوان والأشكال المختلفة ، وما ذلك إلا لاختلاف الطبائع والنفوس ، مادامت تلك الحضارات لم يجمعها عقد واحد أو مصدر واحد يعلم طبائع النفوس ومدخلها وأهواءها وشهواتها وأشواقها وتطلعاتها . ولهذا كانت الحضارة ذات المصدر الإلهي دائما أبدا جامعة للإنسانية على صراط مستقيم قويم . هذا وقد تربت الأمة الإسلامية من قديم على تلك الحضارة الجامعة الرائقة الصافية ، التي يمكن أن تجتمع عليها الإنسانية من جديد ، لأن الله جمع فيها طبائع الإنسان من كل لون

وجنس وقبيل وصدق الله ﷻ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴿١﴾

ولهذا كان الواجب على المسلمين واجبا ذا شقين : الأول : إحياء النفس ، والثاني : إحياء الغير . ولايستطيع إنسان أن يتصور مدى الضياع والهوان إذا تخلى المسلمون عن حضارتهم وبعثوا عن ثقافتهم وتراثهم . ويتضاعف هذا الشعور عند الإنسان حتى لايستطيع أن يتخيل حجمه وبعده إذا رأى المسلمين أتباعا لغيرهم ، مقلدين غارقين في أوهام غيرهم ، والحقيقة بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

٢ — تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية بسبب التهديد المستمر بالفناء والزوال المعلق فوق هامتها ، وذلك لفقدانها للقيم التي يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية في ظلها نموا سليما وترقى ترقيا صحيحا . وهذا واضح كل الوضوح في العالم الغربي الذي أفلس في هذا المجال إفلاسا ذريعا ، فلم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من قيم ، بل لم يعد لديه ما يقنع ضميره باستحقاقه للوجود . ولهذا وقف العقلاء وقفة تأمل فيما يشاهدونه هذه الأيام من آثار الغرب فيما يسمونه « حضارة » « وثقافة » ؛ فوجدوا إغراقا في الاقتصاديات ، واستعبادا للماكينات وسباقا إلى الإلكترونيات ، وازورارا عن القلب والجواهر والروح في الإنسان . ووجدوا مواكب حاشدة من الصور تلاحقنا بها السينما والصحف والإذاعة والتلفاز تجعل الناس تجرى وتلهث إلى غير غاية ، وتعيش على هامش أنفسها ، وكأنما أضحى مثلها الأعلى أن تقيم في نكد وصراع وتمزق .

فباسم الحضارة والثقافة أهدرت الآدمية والناطقة في الناس وباسم العقل — بعد أن ابتذلوه — نددوا بما هو روحى وأبدى ، وسخروا من الأديان والقيم .

وباسم الحضارة والتقدم صنعت الحضارة أسلحة القهر والدمار ، واستبعدت الشعوب ونهبت الثروات .

(١) الشورى ١٣ .

ولهذا وقف الكل متلفتاً إلى منقذ منتظر ، وإلى مخلص يسعفه من هذه اللوثة ، فناسب أن يقدم له الغوث في حضارة الإسلام التي أنقذت البشرية قبل ذلك ، وأخرجتها من الظلمات إلى النور ، وهى اليوم مستعدة كما بدأت أول الشوط تعيده ، وكما أسعدت أوله تهنىء آخره . وإن غدا لناظره قريب .

٣ — ليس غير حضارة الإسلام دواء أو شفاء ، فقد ظهرت الحقيقة جلية للعيان ، وخلت الساحة تماماً من المبادئ والقيم التي تستطيع أن تنقذ البشرية من هدهتها ، وتلفت الكل وتعلق الآمال بالرسالة الخاتمة ، لما أحسوا فيها من حيوية واستقامة وسمو يتمثل في :

- أ — حضارة تقوم باسم الله بأسلوب إنسانى وعمل بشرى .
- ب — نظام يبنى على القيم العليا والحق والخير والجمال .
- ج — حضارة البقاء والدوام والأصالة .
- د — حضارة متفتحة تقبل كل الثمرات الروحية والعقلية والمادية لعناصر كل حضارة صحيحة ، وهذا هو سر تجدها .
- هـ — حضارة التيسير ونفى العسر ونفى الإعنت .
- و — حضارة عالمية إنسانية تبنى على وحدة الشعوب ، لاتفرق بين جنس وجنس ، ولون وآخر .
- ز — حضارة الحرية فى العقيدة والعبادة .
- و — حضارة العلم وحب المعرفة والحكمة .

لهذا وغيره ناسب أن تلقى هذه الحضارة من بنينا وكل محب للإنسانية العناية والرعاية ، بالدعوة إليها ، والعمل على نشرها والإفادة منها .

٤ — اختلط مفهوم الحضارة والتبس بكثير من الدعاوى والأباطيل ، حتى أطلق على كل ما يناقض الحضارة . فقل مثلًا للعرى وفقدان القيم حضارة ، وقيل لاختراع المهلكات والمفسدات حضارة .

فناسب أن توضع الأمور فى نصابها ، وأن تجلى الحقائق وتضبط المسميات ،

حتى يستبين الرشد من الغي .

٥— إظهار جهود المسلمين العلمية والثقافية والحضارية ، تلك التي كان لها الفضل الأول على البشرية والإنسانية ، وكانت المعلم والمثقف الذي تتلمذ عليه كل باحث عن معرفة أو كشف أو اختراع . وإن كانت غاية المسلمين وهدفهم العلمي هو إسعاد البشرية وسلام الإنسانية ، وهدف غيرهم هو النفع المادى الأنانى الذائق ، والقهر والتسلط والإفساد .

٦— دراسة العوامل الحضارية والمؤثرة في حركة التاريخ البشرى والحضارى ، للاستفادة من خطوات الأمم الناهضة ، وتجنب المزالق المهلكة في دروب الشعوب الهاوية .

٧— دراسة الأجناس والبيئات البشرية المختلفة ، وصلتها بالتقدم والتأخر والصعود والنقص ، وبيان وجه الحق في الادعاءات الجائرة التي يتذرع بها الناس للتأله على الناس واستعبادهم وظلمهم وقهرهم .

٨ — دراسة التحديات الحضارية وآثارها ومستقبلها على الإنسان وما تحتاجه منها البشرية وما ترفضه .

لهذا وغيره مما اشتمل عليه البحث اخترت هذا الموضوع ، لعل الله أن ينفع به آمين .

دكتور / توفيق يوسف الواعى

الباب التمهيدي

الحضارة والإنسان والتفسير الحضاري للتاريخ وكيفية قيام الحضارات

**الفصل الأول : الحضارة والإنسان وتأثير
الجنس والبيئة**

**الفصل الثاني : التفسير الحضاري للتاريخ
وكيفية قيام الحضارات**

**الفصل الثالث : التحرك الحضاري وكيفية
قيام الحضارات**

الفصل الأول

الحضارة والإنسان وتأثير الجنس والبيئة

المبحث الأول

تعريف الحضارة لغة وبيان ما يقاربها من ألفاظ ومصطلحات

يحسن بنا قبل أن نتكلم في الحضارة بوجه عام ، والحضارة الإسلامية بوجه خاص أن نعرف الحضارة ، وأن نصور ماهيتها ، لأن معرفة الشيء فرع عن تصوره ، والموضوع وإن كان متعدد الجوانب ، قد خاض لجته كثير من علماء الاجتماع والتاريخ والدراسات الإنسانية ، وغرق فيه كثير من أدعياء التقدم والمدنية والريادة ، وكان لكل وجهة هو موليا ، فمنهم الباحث المخلص ، ومنهم المتعصب المغرور ، ومنهم الحاقد المضلل ، ومنهم الجاهل الأعمى ، ومنهم حاطب الليل ، ولكن الحقيقة دائما تعلو على الأباطيل ، والشمس دائما تبدد كل الظلمات .

تعريف الحضارة :

الحضارة في اللغة العربية ، من الفعل « حضر » على وزن قعد ، يقال حضر الغائب حضورا قدم من غيبته ، وحضرت الصلاة فهي حاضرة ، والأصل حضر وقت الصلاة ، و « الحَضَر » بفتحيتين خلاف البدو ، والنسبة إليه « حضري » أقام بالحضر ، و « الحضارة » بفتح الحاء وكسرها : سكون الحضر ، والحَضَر والحَضْرَة والحاضرة : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ^(١).

وبهذا المعنى استعملها القطامي الشاعر في قوله — مفتخرا ببداوة قومه ،

(١) المصباح المنير ولسان العرب مادة « حضر » .

مستخفا بساكنى القرى والمدن - .

(١)

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا ؟!

وهكذا أخذت الكلمة في العربية من دلالة (٢) مكانية ، وإن كانت قد تطورت هذه الدلالة المكانية « الإقامة في الحضر » التي وردت في أصل استعمال هذه الكلمة ، إلى ما يستتبع هذه الإقامة غالبا من التعاون ، والتآزر ، وحسن الخلق ، ورقة الحاشية وتبادل الأفكار والمعلومات في كل ناحية من نواحي الحياة ، من صناعة وعلوم وثقافة وقانون ، وعزز هذا التحول ابن خلدون حين قال : الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران ، زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة ، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة ، تفاوت غير منحصر (٣) ثم بين ابن خلدون (٤) أن الحضارة لا تظهر إلا في المدن والقرى ، وأنها غاية العمران ، وأنها تتصل « بالتفنن في الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه » هذا شيء مما ورد حول كلمة « الحضارة » عند العرب قديما ، وأتت به المعاجم العربية في معنى الكلمة .

المصطلحات ذات الصلة في المعاجم العربية .

ورد في المعاجم العربية مصطلحات أخرى لها مدلولها الاجتماعي والعلمي المشابه لكلمة الحضارة عند العرب ، يحسن بنا أن نتعرض لها في شيء من الإيجاز .

١ - الوبر والمدن :

ومعناها الصوف والطين ، فالوبر : هو الصوف التي تصنع منه خيام البدو

(١) المصدر السابق .

(٢) المقدمة لابن خلدون ص ١٦٨ ط التجارية القاهرة .

(٣) المقدمة لابن خلدون ص ١٦٨ التجارية — القاهرة .

(٤) ابن خلدون ١٣٣٢ — ١٤٠١ م مؤرخ وفيلسوف اجتماعي عربي مسلم مشهور ، ينتهى نسبه إلى وائل بن حجر ، من عرب اليمن ، أقامت أسرته في تونس حيث ولد ونشأ وتعلم بها ، تنقل في بلاد المغرب والأندلس ، ثم أقام بتملسان وشرع في تأليف تاريخه ، عاد إلى تونس ، ومنها انتقل إلى مصر ، واتصل بسلطانها برقوق =

في الصحراء ، يكون رمزا على البداوة ودلالة على أصحابه ، فإذا أطلقت الكلمة ، كانت مرادفة لكلمة البداوة ، وعلامة على أهل البداية ، حيث يكون الوبر « أى الصوف » من لوازم حياتهم ومعيشتهم في سكناتهم في البادية في تلك الخيام المصنوعة من الصوف

والمدر : هو الطين الذى تبنى به مساكن الحضر في المدن والقرى رمزا للحضارة ، ودلالة على ساكني هذه المدن وقاطني تلك القرى ، الذين يستقرون في بناء يكون في حاضرة معينة ، فإذا قيل أهل المدر ، كان معناه أهل الحواضر والقرى والمدن . يقال : فلان سيد مدرته . أى قريته . ومثل كلمة الوبر والمدر أيضا كلمتا (الحدر والحجر) .

فالحدر ، هى الأرض التى لاينى عليها ، وهى تطلق على أهل البادية ، لأنهم هم الذين يسكنونها ولا يبنون عليها ، « والحجر » يشير إلى المدن ، أى التى تبنى بالحجارة ويكون فيها المساكن الجامعة ، التى تتكون منها الحواضر ، فالحجر على هذا يشير إلى أهل الحضر وسكان القرى والمدن^(١) .

٢ — المدنية :

وكلمة المدنية تشير في استعمالاتها عند كثير من الباحثين إلى معنى مرادف للحضارة . وتشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني « فالمدنية ووزنها فعيلة » المصر الجامع ، لأنها من مدن ، والجمع « مدن » و « مدائن » ، ويقال مدن بالمكان أقام به^(٢) ، ولهذا يميل كثير من الباحثين إلى جعل كلمة مدنية مرادفة لكلمة « الحضارة »

= فوله قضاء المالكية ، حجج إلى مكة سنة ١٣٨٧ ، ورافق جيش المماليك الذى أنفذ لصد زحف التتار ، ثم انقطع للتدريس و التأليف ، فأتم كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وله المقدمة المعروفة ، وهو أول من تكلم في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ٢ / ٢٢١ .

(٢) المصباح المنير ، ولسان العرب في مادة — م د ن —

وهو ميل له وجاهته لغة .

٣ — الثقافة :

الثقافة في اللغة « هي التهذيب والصقل والحدق يقال : ثقِف الشيء ثقافاً وثقوفة حدقه ، ورجل ثقِف ، ثقِف ، ثقِف : حاذق فهم .

ويقال : ثقِف الرمح : أى قَوِّمَهُ وسواه ، وثَقَّفْتَهُ ، بالثَّقِيف ، أقمت المعوج منه » (١)

وهو بهذا ليس له ارتباط بالمعنى المكاني ، بل تطلق الثقافة في اللغة العربية على معانى التقويم ، والحدق ، والتكيف ، والتهذيب ، الذى قد يكون له ارتباط بإقامة الناس في المدن والحوضر والقرى .

٤ — النهضة :

النهضة من نهض ، يقال : « نهض عن مكانه ينهض ، نهوضاً ، ارتفع عنه ، ونهض إلى العدو أسرع إليه ، ونهضت إلى فلان وله نهوضاً ونهضاً : تحركت إليه بالقيام ، ونهضه إلى كذا ، أى حركه ، والجمع نهضات ، وأنهضته للأمر بالألف أقمته إليه » (٢) .

وهى في العربية بهذا المعنى ليس لها ارتباط مكاني ، بل تدل على الحركة والارتفاع ، ولما منع كذلك أن يكون لها دلالة معنوية ، ويكون لها ارتباط بالنهوض والتقدم الذى يلزم أهل الحواضر والمدن غالباً .

أصل كلمة الحضارة عند الأوربيين :

وإذا انتقلنا من العربية إلى اللغات الغربية لنرى أصل الكلمة عندهم ومأخذها ومدلولها ، وجدنا أن ثمة لفظتين رئيسيتين* تستعملان للدلالة على معنى الحضارة :

(١) المصباح المنير ، ولسان العرب ، وتاج العروض في مادة — ثقِف .

(٢) المصباح المنير ولسان العرب في مادة — نهض — .

* شاع استعمال كلمة رئيسية والصواب رئيسة فتقول الأعضاء الرئيسة القلب والدماغ والكبد والأنثيان . قاموس محيط . الناشر .

Culture و Civilization، ولكل منهما تاريخ طويل متشعب وألوان مختلفة من الدلالة ونلاحظ أن أصل كلمة Culture مأخوذة من اللاتينية Culture من فعل Colere بمعنى حرث أو غمى ، وقد كانت هذه الكلمة اللاتينية في العصور القديمة والوسطى تطلق على تنمية الأرض ومحصولاتها ، ومع أن شيشارون استعملها بالمعنى المجازي مراعيًا الفلسفة Cultura mertis أى فلاحه العقل (تنميته) ، فإن هذا المعنى ظل نادرًا في اللغة اللاتينية ، وفي أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل في الإنكليزية والفرنسية بمدلولها المادى والعقلى ، مع إضافة الشيء المقصود تنميته .

La Culture du blé-La culture des arts. ومثلها في الإنكليزية ، فلما كان القرن الثامن عشر أخذ الكتاب الفرنسيون كوفلتر وأقرانه يطلقون هذه اللفظة إجمالاً وبدون أداة تعريف أو إضافة إلى شيء معين ، وغدت Culture بهذا المعنى المطلق يقصد بها تنمية العقل والذوق ، ثم انتقلت إلى حصيلة هذه العملية ، أى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التى نعبّر عنها بالعربية بلفظ الثقافة ، أما في الإنكليزية فإن أول نص تستعمل فيه هذه الكلمة بما يشبه هذا المعنى يعود حسب معجم إكسفورد إلى عام ١٨٠٥م ، ولا يزال هذا المعنى هو أحد معانيها السائدة في اللغة الغربية ، وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الألمانية من الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر بشكل Cultur ثم Kulture ، وانتقل معها معناها الأخير « أى الإنماء العقلى والأدبى وحصيلة هذا الإنماء » ثم أخذ معناها يتطور عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين ، ويتجلى عن دلالات الإنماء أو التحسين الفردى ، ويتحول إلى أحوال الأكوان بمجموعها ، وبرز هذا المعنى الأخير في أواسط القرن التاسع عشر عند (٢) المؤرخ والعالم الألماني « جستنان كلمن » الذى يعتبر مؤسس علم الأنثروبولوجيا

(١) فولتير ، فرانسوا ١٦٩٤ — ١٧٧٨ . فيلسوف مفكر فرنسى ، نشأ في باريس ، وتعلم في كلية لويس الأكبر اليسوعية ، كان حر الفكر ، سجن في الباستيل أحد عشر شهراً ، رحل إلى إنجلترا . ألف كتاباً عن جان دارك ، ثم أصبح مؤرخ البلاط الملكى ، وعضو الأكاديمية الفرنسية ، جمعت آثاره في سبعين مجلداً ، ونشرت بعد وفاته . دعا إلى الإصلاح ، وكان حر الفكر ، رفض رجال الدين دفنه في باريس ، ولم ينقل حسمانه إلى سنة ١٧٩١ ، ودفن في مقبرة العظماء .

(٢) الأنثروبولوجيا ، إحدى فروع العلم التى تهتم بدراسة الأجناس البشرية ، سواء الموجود منها الآن ، أو التى =

الحديث ، وغدت هذه اللفظة ، تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها ، في مجتمع من المجتمعات ، وهذا هو أصل المعنى الاصطلاحي الذي تحويه كلمة Culture اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وانتقل هذا المعنى من Klemn إلى العالم الأنثروبولوجي الإنجليزي E.B.Tylar ، الذي كان أول من استعمله باللغة الإنكليزية عام ١٨٧١م ، ومنه تسرب إلى الأوساط العلمية الأنكلوسكسونية ، ثم انتشرت بصفة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وغدا هذا المعنى الاصطلاحي مفهوما أساسيا في هذين العلمين في ألمانيا وأمريكا ، ولكنه لم يصادف مثل هذا الرواج في انكلترا وفرنسه ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يرتكز بعد ارتكازه الأخير ، ولم ينف عن كلمة Culture معانيها السابقة .

الثقافة عند الأوروبيين :

يستخدم الغربيون في التعبير عن كلمة الثقافة لفظة Culture المستعملة في الحضارة ، ولا تزال تستعمل هذه الكلمة في الفرنسية والإنكليزية ولغات أخرى ، بمعنى الثقافة الفردية والثقافة بوجه عام ، بل عاد إليها في العلوم الطبية والتطبيقات الصناعية معناها الأصلي ، أى عملية إنماء الأشياء المادية كالجراثيم والآلىء بالزرع والتصنيع .

ومنهم من يذهب إلى أن كلمة الحضارة ينبغي أن تكون ترجمة لكلمة Civilization والثقافة لكلمة Culture

= اختفت مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية كذلك ، والخلاصة : هى علم الإنسان الذى يدرس نواحي النوع الإنسانى وكل العواهر ، من حيث تعلقها بالإنسان ، وتنقسم ثلاثة أقسام

- ١ — الطبيعية ، وتدرس تطور الإنسان والحفريات . الخ .
- ٢ — الاجتماعية ، وتدرس النظم الاجتماعية المختلفة .
- ٣ — الثقافية ، وتدرس ثقافة الإنسان والشعوب .

المدينة والأصل الذي اشتقت منه عند الأوربيين

استعمل الأوربيون كلمة Civilization أو Civilisation الإنكليزية في

المدينة ، وقد اشتقتا من اللاتينية من Civis ، أى المدنية أو المواطن في المدينة ، ثم أخذت تستعمل مجازاً ، وقد عنت في بادئ الأمر شأن مرادفتها Culture ، لاصبغة المصدر ، للدلالة على العملية ذاتها ، لا على النتيجة الحاصلة منها ، ثم تطورت لتعبر عن هذه النتيجة ، أى عن حالة الرقي والتقدم في الأفراد والمجتمعات ، وكان استعمالها بهذا المعنى أقدم في الفرنسية منه في الإنكليزية ، وما لبثت هذه الكلمة أن انتشرت في اللغات الأوربية إلى اليوم ، حيث تستعمل بمعنى الحضارة ، أو الكيان الحضارى^(١).

وقد حاول ول ديورانت أن يربط بين أصل كلمة المدنية Civilisation وعلاقتها بالتهذيب ورقة المعاملة Civility . وعنده أن ذلك ضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن ، وهم الذين صاغوا حكمة المدنية ، وذلك أنه يتجمع فى المدينة ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوايغ العقول ، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة فى المدينة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ، ويتلاقى فيها التجار والصناع حيث يتبادلون السلع والأفكار ، فتتلاقح العقول ، ويرهف الذكاء ، وتستثار فيه قوته على الخلق والإبداع^(٢) .

إيضاح :

بعد إن استعرضنا أصل الكلمة فى العربية والأوربية ، وتتبعنا مسارها ومسار ما يقاربها من مصطلحات ، يلاحظ الباحث بغير جهد أو كبير عناء ، أن الكلمة

(١) مقدمات ومباحث فى حضارة الإسلام والعرب — عمر رضا كحالة ص ٦ مطبعة الحجاز بدمشق ، وفى فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ط دار النهضة بيروت ، والتعبير الحضارى وتنمية المجتمع للدكتور محى الدين صابر سرس الليان ص ٤١ ، ط ١٩٦٢ ، وفى معركة الحضارة قسطنطين زريق ص ١٥ ط دار العلم للملايين .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٧ دار النهضة .

مستحدثة وأن جميع الحضارات التي تقدمت الحضارة الحديثة ، لم يرد فيها هذا المصطلح أو تلك الكلمة بهذا الإطلاق المستعمل الآن ، وإنما عبر عن الحضارة سلباً أو إيجاباً : مثل : القوة ، والعمران ، وإثارة الأرض . ووصف مظاهر ذلك من براعة وهندسة ومعمار . فنرى القرآن الكريم يتكلم على أهل القرى الذين تقدموا وملكوا أسباب القوة والحضارة والمنعة ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَّاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾^(١)

ونرى الإسكندر ، أو ذا القرنين الذى طوف فى المشارق والمغارب ، وبهر العالم وقت ذاك ، بما ملك وسخر من علم وهندسة وفن ، يبنى سدا حضاريا ، توفرت فى هندسته الخبرة والعلم والعبقرية ، يصف القرآن ذلك كله بالقوة ، ويطلب ذو القرنين من القوم أن يعينوه بها لا بالمال ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾^(٢) ثم نرى آثار هذه القوة وهذا التقدم فى قوله تعالى ﴿ أَتُونِي زُرَّ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾^(٣) ونحن نرى فى عملية البناء هذه من مظاهر التقدم والخبرة « التكنولوجيا » كما يسمونها ، ما يجعلنا نقدر هذا العمل الضخم . وإذا انتقلنا إلى حضارة سبأ نجد أنه لم يرد لكلمة الحضارة ذكر ، بل استعملت أيضا كلمة القوة التى هى من نتاج الحضارة ، جاء ذلك على لسان القوم فى معرض الحديث عن استعدادهم لمقابلة سليمان « نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾^(٤) .

ونجد القرآن يحدث كذلك عن أصحاب الحضارات الزائلة التى فسدت وانتكست بفعل أبنائها وطغيانهم ، رغم أنهم بلغوا من التقدم والإنتاج والعمران الشيء

(١) محمد — ١٣ .

(٢) الكهف — ٩٥ .

(٣) الكهف — ٩٦ — ٩٧ .

(٤) النمل — ٣٣ .

الكثير ، فيقول ملفتا إلى ذلك ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴾^(١) ، ويقول تعالى في قارون والقرون التي قبله ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ﴾^(٢)

ونرى القرآن يتكلم على حضارة عاد فيقول : ﴿ أَتَنْبِئُونَ بِكُلِّ آيَةٍ تُعْبَثُونَ ،
وَتَنْخَلِدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَاتٍ
وَعُيُونٍ ﴾^(٣) . ثم يقول لهم رسولهم بعد ذلك ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾^(٤)

فيصف هود عليه السلام ما هم عليه من تقدم وحضارة بالقوة ، ويطلب منهم
المحافظة عليها بالاستقامة حتى يزيدهم الله قوة على قوتهم .

وإذا تتبعنا ماكتب عن الحضارات القديمة وما عثر عليه من آثار لانجد فيه
استعمالا لكلمة « حضارة » رغم أن تلك الحضارات بلغت مكانة كبيرة في العلم
والفن والتقدم في شتى نواحي الحياة ، وقد اختلفت أزمنة وأمكنة ومناهج .

فكلمة « الحضارة » المستعملة اليوم كلمة « محدثة » وإطلاق جديد ، وتعبير
مخترع ، جاء بعد تلك الحضارات السابقة ، إذن فهو قد أطلق واستعمل في
التعبير عن الحضارة الحديثة ، وسحب على ما سبق من تقدم وازدهار للأمم السابقة ،
ثم التمس بعد ذلك اشتقاق للكلمة عربى وأوربى .

(١) الروم — ٩ .

(٢) القصص — ٧٨ .

(٣) الشعراء — ١٢٨ إلى ١٣٤ .

(٤) هود — ٥٢ .

والحقيقة أن الاشتقاق العربى أقرب من الاشتقاق الأوربى ، لأن الاشتقاق العربى أخذ من الحضرة والمدن ، دلالة على أن أهل هذه الحواضر والمدن ، هم أصحاب العقول الحضرية والثقافية وأقدر من غيرهم على الاختراع والتقدم فى المجالات المختلفة ، سميت الحضارة إلى أهل الحضرة والمدن لهذا المعنى .

أما فى أصل الاشتقاق الأوربى ، فإن الكلمة تنسب إلى الحرث والزراعة ، وهو يعنى الريف وفلاحة الأرض ، وهذا يخالف الاشتقاق العربى ويتعد عنه وعن أهل المدن والحضر ، ولعل هذا هو ما جعل بعض الأوربيين ينجح إلى القول بأن المراد حرث العقل لا حرث الزرع ، ولا يخفى ما فى هذا من تكلف . ثم نرى بعد ذلك أن الأوربيين يرجعون إلى مجازة الاشتقاق العربى ، ولعل هذا وجد بعد اتصافهم بعلوم العرب ، فيطلقون اسم Civilisation المشتقة من الكلمة اللاتينية Civis ، أى المدينى أو المواطن فى المدينة على الحضارة ، ويجعلونها أصلاً من أصولها ، ومرادفة لكلمة Culture ، التى تعنى الحرث والزراعة والريف . وكأنهم بهذا قد توسعوا فى إطلاق الكلمة ، فأطلقوها على أهل الريف وأهل المدن ، فشملت الاشتقاق العربى وزيادة . (وعندى) ما كان أغنى الباحثين عن هذا العناء ، بأن يقولوا إن الكلمة حديثة ، لاصطلاح حديث اتفق عليه ، شأنه فى ذلك شأن مصطلحات الحضارة الحديثة التى أطلقت على العلوم وعلى المخترعات الكثيرة التى سميت بأسماء مختلفة ، ودخلت القواميس بأسماء جديدة ، وشقت طريقاً فى الاستعمال اللفظى والكتابى بثبات وثقة ، وهذا عندى أولى من أن تكون الكلمة كطفل غير شرعى يبحث له عن أصل ويتلمس له شهادة ميلاد لمعرفة نسبه وإثبات هويته .



المبحث الثانى

التعريف الاصطلاحي للحضارة وما يقاربها

لم يتفق الباحثون فى التاريخ ، ولا علماء الاجتماع والحضارة ، على تعريف معين للحضارة ، وإنما اختلفت تعريفاتهم تبعاً لاختلاف أقطارهم ومذاهبهم ، فمنهم من يراها عقيدة وخلقا وسلوكا يوفر للإنسان السعادة والرفاهة ، ومنهم من يضم إلى ذلك عناصر أخرى من ازدهار اقتصادى ، وسبق عمرانى ، وتقدم صناعى ، ونظام اجتماعى وتشريعى . ومنهم من يهدم ذلك كله ، ويعتبرها الإباحية المطلقة ، والسلطة القاهرة ، والقوة الباطشة ، وسنعرض بإيجاز غير مغل لجملة من هذه التعريفات ذات الاتجاهات المختلفة ، ونجمل النظر فيها حتى نكون على بينة منها .

الاتجاه الأول :

ونسماه الاتجاه العام ، الذى يعرف الحضارة بأنها جهد البشر فى شتى الميادين ويجعلها شاملة ومحيطة بكثير من جوانب الحياة .

تعريف ول ديورانت :

يعرف ول ديورانت الحضارة بقوله « هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافى بعناصر أربعة :

- | | |
|--------------------------|--|
| ١ — الموارد الاقتصادية . | ٣ — العقائد الخلقية . |
| ٢ — النظم السياسية . | ٤ — متابعة العلوم والفنون . ^(١) |

(١) نشأة الحضارة لول ديورانت تعريب د — زكى نجيب ١ / ٩ ط لجنة التأليف والترجمة .

تعريف تيولر :

يعرف العالم الإنجليزي تيولر الحضارة بمعناها « الاثنوغرافى » الواسع بقوله :
« هى : ذلك الكيان المعقد الذى يضم المعرفة ، والمعتقدات ، والفنون ، والآداب ،
والقوانين ، والعادات ، وجميع القدرات والتقاليد الأخرى التى يكتسبها الإنسان
بصفته عضواً فى المجتمع »^(١)

تعريف لارف لنتون :

يعرف الدكتور رالف لنتون الحضارة بقوله : « هى مجموعة منظمة من
الاستجابات التى تعلمها الأفراد ، وأصبحت من مميزات المجتمع »^(٢)

تعريف الحورائى :

يعرف يوسف الحورائى أهم مظاهر الحضارة بقوله : « هى عقائد دينية ،
وازدهار اقتصادى ، وإنجازات إنشائية وفنية ، وأنظمة تشريعية ، وتضامن اجتماعى
وفق تقاليد وعادات موحدة ، أو قوى حربية »^(٣)

تعريف الدكتور محمد محمد حسين :

يعرف الدكتور محمد محمد حسين الحضارة ، بأنها كل ما ينشئه الإنسان فى
كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه ، عقلا ، وخلقا — مادة — وروحا —
دنيا — ودينا »^(٤)

(١) فى معركة الحضارة لقسطنطين ربيق ص ٣٤ ط دار العلم للملايين ، فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور
عفت الشرفاوى ص ١١ ط دار النهضة العربية ببيروت .

(٢) شجرة الحضارة للدكتور رالف لنتون ترجمة أحمد فخرى ١ / ٦٥ ط الأنجلو المصرية .

(٣) الإنسان والحضارة يوسف الحورائى ص ١٤ ط المكتبة العصرية بيروت . كاتب معاصر سورى الجنسية .

(٤) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٤ ط المكتب الإسلامى بيروت سورى كاتب
معاصر

تعريف الدكتور أحمد شلبى :

يعرف الدكتور أحمد شلبى الحضارة بأنها « الإنجازات التى تُحقق للبشرية أو حققها البشرية من خلق وسلوك ومعارف » (١)

تعريف الدكتور حسين مؤنس :

يعرف الدكتور حسين مؤنس الحضارة فى مفهومها العام بقوله : هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية (٢)

إيضاح :

بعد هذا العرض من التعريفات التى تتوافق فى اتجاه واحد ، يتبين لنا أن مفهوم الحضارة عند علماء هذا الاتجاه ، مفهوم عام ، يتناول كل قدرات الإنسان العقلية والنفسية والعملية ، المتجهة نحو الرق والتقدم فى جميع مجالات الحياة ، فترى ول ديورانت يجعل الإنتاج الثقافى بعناصره الأربعة — الموارد الاقتصادية ، والسياسية والخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون — هو الحضارة ، وهذه العناصر هى خلاصة قدرات الإنسان فى الحياة وعوامل تقدمه .

ثم يأتى تيلر Tylar ويمشى على نفس الاتجاه ، فيجعل الحضارة هى الفنون ،

(١) الحضارة الإسلامية ، للدكتور أحمد شلبى ١ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية . معاصر ، دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبودج ، أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة ، له العديد من المؤلفات ، منها موسوعة الأديان وموسوعة التاريخ الإسلامى وموسوعة الحضارة الإسلامية .

(٢) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ١٣ ط الكويت أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة سابقا . مدير معهد الدراسات الإسلامية مدرهد — ١٩٥٧ رئيس تحرير مجلة الهلال ، له العديد من المؤلفات والبحوث العلمية باللغات الأوربية والعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية — معاصر .

والآداب ، والقوانين ، والعادات ، وجميع قدرات الإنسان ، والتقاليد المكتسبة من المجتمع الذى يعيش فيه . فيضم كل نشاط للإنسان وكل قدراته ؛ بل وعاداته القديمة والحديثة فى التعريف .

ويأتى الدكتور رالف لنتون ليكمل الحضارة هى استجابات الإنسان التى تعلمها وأصبحت من مميزات مجتمع معين ، يعيشه هذا الإنسان بكل مافيه وبكل طاقاته ، ثم نرى من جاء بعدهم من الباحثين العرب الذين أوردنا طائفة من تعريفاتهم ، تسير فى نفس الاتجاه الذى سار فيه من ذكرنا من الغربيين بل لعلها مقتسبة من أفكارهم أو مترجمة عن تعريفاتهم .

الاتجاه الثانى :

وهو مانسميه بالاتجاه الإنسانى ، أو الاتجاه الروحى ، أى الذى يبحث فى حضارة الإنسان نفسه ، داخليا ، وعقليا ، وسلوكيا ، وخلقيا ، فهو يقيم الإنسان نفسه بغير ماحوله ، بصرف النظر عما يستعمل أو يسكن أو يصنع ، وإذا نظر إلى ماحوله فإنما ينظر إليه بمقدار خدمته للإنسان ، وإسعاده لحياته ، وتقديره لمبادئه ، وسنعرض لطائفة من تعريفات أصحاب هذا الاتجاه .

تعريف كلود دلماس :

يعرف كلود دلماس الحضارة بقوله : « هى تربية الضمير واستعمال الثقافة والعقل فى البحث عن الأفضل » ^(١)

^(٢)

تعريف غستاف لوبون :

يعرف الدكتور غستاف لوبون الحضارة بقوله : « هى نضوج الآراء والمبادئ »

(١) تاريخ الحضارة الأوربية تعريب توفيق وهبة ص ٥ — ٧ ط مكتبة الفكر الجامعى .

(٢) غستاف لوبون — ١٨٤١ — ١٩٣١ عالم نفس واجتماعى فرنسى ، كان متعصباً للعنصرية ، معروفاً بنزعته المضادة للديمقراطية ، ألف عددا من الكتب فى علم النفس الاجتماعى منها . روح الجماعة ، وفلسفة التاريخ ،

والمعتقدات وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل^(١)

تعريف ألكسيس كاريل^(٢):

يعرف الكسيس كاريل الحضارة: « بوجوب أن تتبع الأبحاث العقلية والروحية ، والعلوم الخادمة لسعادة الإنسان النفسية والخلقية والإنسانية »^(٣)

(٤)

تعريف مالك بن نبي :

يعرف مالك بن نبي الحضارة فيقول: « هي البحث الفكري والبحث الروحي . »^(٥)

(٦)

تعريف المودودي :

يعرف أبو الأعلى المودودي الحضارة فيقول: « هي تصور سليم للحياة الدنيا

والسبب النفسية لتطوير الأمم ، وهو من كتاب العرب الذين أنصموا الحضارة العربية ، وأشادوا بفضلها على الحضارة الأوربية ، عندما نقلت تراث اليونان ، وعندما وصعت تراثها الخاص — في كتابه « حضارة العرب » الذي ترجم للعربية .

(١) روح الجماعة ترجمة عادل زعيتير ص ١٧ ط دار المعرفة بمصر .

(٢) ولد الكسيس كاريل بالقرب من ليون بفرنسا عام ١٨٧٣ وحصل على إجازة الطب من هذه المدينة كما حصل على إجازة في العلوم من ديجون . مارس التدريس عدة سنوات ، رحل إلى الولايات المتحدة وتوظف في معهد روكفلر للأبحاث العلمية منح الدكتور كاريل جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة ، ألف أشهر كتبه « الإنسان ذلك المجهول » الذي استقبل بحماس عظيم . عندما نشر لأول مرة ومازال . توفي سنة ١٩٤٤ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول ص ٥٧ ط مؤسسة المعارف .

(٤) ولد مالك بن نبي عام ١٩٠٥ في مدينة قسنطينة في الجزائر ، تخرج من باريس عام ١٩٣٥ مهندسا كهربائيا ، اتجه نحو تحليل الأحداث وخاصة في الشرق والعالم المتحلف ، باعتبارها قضية حضارة . أصدر سلسلة من الكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة ، منها الظاهرة القرآنية ، شروط النهضة ، وجهة العالم الإسلامي ، لحا إلى القاهرة عام ١٩٥٦ ثم إلى الجزائر عام ١٩٦٣ وعين مديرا عاما للتعليم العالي . استقال عام ١٩٦٧ وتفرغ للعمل الفكري توفي سنة ١٩٧٣ .

(٥) شروط النهضة مالك بن نبي — ص ٣٣ ط دار الفكر بدمشق .

(٦) المودودي رعيم الحركة الإسلامية في باكستان والهند ، صاحب فهم ومدرسة إسلامية كبيرة ، تطالب بتحكيم كتاب الله ، وتوحيد المسلمين ، وإحياء حضارتهم وهو مفكر معاصر توفي سنة ١٩٧٨ م .

وغايتها في نظام اجتماعي ، يقود الإنسان إلى الرقي والإخاء والأمان» (١)

تعريف سيد قطب (٢):

يعرف الأستاذ سيد قطب الحضارة فيقول : « هي ماتهطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين ، النمو والترقي للعنصر الإنساني وللقيم الإنسانية وللحياة الإنسانية » (٣)

تعريف عفت الشرقاوى (٤):

يعرف الدكتور عفت الشرقاوى الحضارة بقوله : هي التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم التي ترسم للحياة غاية مثلى ومغزى روحيا عميقا ، متعاليا على متناقضات الزمان والمكان : (٥)

إيضاح :

بعد أن تعرضنا لطائفة من تعاريف هذا الاتجاه للحضارة ؛ نرى أنه ينظر إلى الإنسان على أنه إنسان ، وإلى الحضارة على أنها شئ من لوازم هذا الإنسان ، الإنسان صاحب الإحساس والمشاعر والعقل والثقافة ، والفرح والحزن والسعادة والشقاء ، الإنسان الذي سخر له كل شئ ، وكان سبب في عمارة كل شئ وإبداع كل شئ ، فإذا ارتقى هذا الإنسان ، وسمت مشاعره ، ورقت حواشيه ، واستنارت نفسه ، وهدأ ضميره ، واستقامت غرائزه ، ورشد خطوه ، واعتدل طريقه ، وسعدت أيامه ، كان ذلك هو الحضارة .

(١) الحضارة الإسلامية للمودى ص ٤ ، ٨ ط الطباعة العربية .

(٢) الأستاذ سيد قطب كاتب ومفكر إسلامي معاصر ، له مؤلفات إسلامية عدة منها في « في ظلال القرآن » « ومعالم في الطريق » ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام ، والتصوير الفني في القرآن وخلافه ، حكم عليه بالإعدام وأعدم سنة ١٩٦٦ .

(٣) المستقبل لهذا الدين ص ٥٦ ط الكويت .

(٤) الدكتور عفت الشرقاوى ، معاصر ، أستاذ بجامعة عين شمس وبيروت العربية .

(٥) فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور الشرقاوى ص ١٨ ط دار النهضة العربية بيروت .

فيكون الإنسان إذاً كالقلب بالنسبة للجسد الدنيوى ، إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، وكالروح بالنسبة للبدن ، إذا سعدت سعدت الدنيا فى عينه ، وإذا شقيت تعس الثقلان وأظلم المشرقان .

وأصحاب هذا الاتجاه ينظرون إلى الحضارة على أنها تصورات ومفاهيم وقيم تصلح لقيادة الإنسانية وسعادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترقى ، لا إلى عمارة شاهقة واختراع عجيب وجهاز معقد ، ولا إلى حدائق غناء وأرائك مبثوثة وفرش مبسطة ، فكل هذا فى نظرهم ليس هو الحضارة ، وليس هو الذى يقود الإنسانية إلى الحياة المستقرة والأمن المرتقب والإخاء المراد ، بل يكون وبالا عليها ومحققا لها ، إذا لم يصحبه سياج واقى من القيم ، ونور كاشف من التصورات والمبادئ الفاضلة ، وقد يكون هذا التقدم الصناعى والعمرانى أثرا من آثار حضارة الإنسان صاحب القيم ، فحينئذ تؤقأكلها ، وتعطى ثمارها شهدا يكون فيه سعادة للناس وشفاء لما فى الصدور .

الاتجاه الثالث :

هذا الاتجاه لا يتناول إلا الجانب المتترف من النشاط البشرى ، فيكون بهذا عكس الاتجاه الثانى وسنمثل له بتعريف ابن خلدون .

تعريف ابن خلدون للحضارة :

يعرف ابن خلدون الحضارة بقوله : « هى الترفن فى الترف ، واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيأة للمطابخ ، أو الملابس ، أو المباني ، أو الفرش ، أو الأواني ، ولسائر أحوال المنزل ، ويلزم لهذا التأنق صناعات كثيرة »^(١) ، ونسمى هذا الاتجاه بالاتجاه المنظور ، أو المستقرأ فى كثير من الحضارات السابقة والحاضرة ، حتى فى عصرنا الحديث الذى يعتبر أسباب الراحة والرفاهة والتأنق فى المراكب والملابس والمباني والفرش والأطعمة ، هو

(١) مقدمة اس خلدون بتعليق الدكتور عبد الواحد وائى ح ٢ ص ٨٧٦ ط لجنة البيان العربى .

الحضارة والتقدم ، وعند النظر إلى كثير من الحضارات السابقة نجد هذا المعنى وهذه الظاهرة واضحة جليلة ، وكذلك نجدها عند كثير من دارسي الحضارات الذين لا يذكرون شيئا عن الحضارة العقلية أو الخلقية ، بل يدور حديثهم عن الحضارات في فلك التقدم المادى والمظاهر العمرانية يلفتون الناس إلى ماشيده الأقدمون من مبان ، وما أقاموه من أهرامات ، وما نحتوه من تماثيل ، وما برعوا فيه من نقوش ، وما إلى ذلك ، ولا يشك أحد أن هذا الذى يدكرونه كان نتاج عقل منظم وحياة مستقرة ، ولكن الدارسين والمؤرخين لتلك الحضارات لا يلفتهم إلا ما لفت ابن خلدون من تلك المظاهر وهذه الأشكال والرسوم ، ولعل ابن خلدون ، كان يذكر بذلك عادات أهل الحضرة ، ولا يقصد بهذا التعريف للحضارة بالمعنى الذى ذهب إليه المحدثون فيما بعد ، وإنما كان يصف ما طبع إليه أهل المدن والحضر من عوايد واهتمامات ، وإطلاقات واصطلاحات ، ولا يعنى بذلك تعريف جوهر الحضارة الحقة ، وما جاء بعد كلامه هذا من فصول يؤيد تلك النظرة . وللأسف فإن تلك الاهتمامات الظاهرية للحضارة أخذ بها كثير من الناس فى العصر الحديث وعبروا عنها بالحضارة ، وشغفوا بها ، وهاموا بها حبا ، وهذا مما دعى الناس فى كثير من أحوالهم إلى أن يأخذوا بالقشور ويدعوا للباب ، ويهتموا بالمظهر ويهملوا المخبر ، وإن كان ذلك على حساب كثير من المبادئ والأخلاق والقيم ، وهذا الاتجاه يعد من الاتجاهات المادية للحضارة .

الاتجاه الرابع :

ونسماه الاتجاه الحيوانى أو العدوانى ، ولا أحب أن أقدم لهذا الاتجاه كثيرا ، إنما أترك لأصحابه أن يتكلموا عنه وأن يقدموه إلى الناس وإلى التاريخ .

تعريف كليسكليس وأتباعه ونيئتته وأتباعه :

يعتبر كليسكليس وأتباعه ونيئتته وأتباعه « أن الحضارة هى القضاء على العدل والأخلاق وترك العنان لطبيعتنا الحرة السافرة لتفعل ما تشاء ، ولو أدى ذلك إلى أن نسير على الجماجم فى سبيل تحقيق ذلك » ثم يزيّدون هذا التعريف وضوحا ، فيقولون « إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء لكى يقيدوا بها سلطان الأقوياء ،

فلنكن حربا على الأخلاق ، ويجب أن نحطم قيد العدل الظالم حسبما جاء في القانون الوضعي ، يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة ... يجب أن نكون كذلك في بنيتنا الطبيعية وفي قوتنا العقلية وفي مزاينا الخلقية ، يجب أن يكون لنا الجسارة فيما به نحييا حياة حرة سافرة في وضوح النهار ، إذا ما اقتضى ذلك أن نسير في طريق من الجماجم دون أن يتحرك ضميرنا بلام ، يجب أن تكون لنا قلوب قاسية ، يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم في وجه مصطلحات العالم ومصطلحات أخلاق القطيع »^(١).

وهذا الفكر واضح الآن ، وله حضارة ودعاة وجيوش وأساطيل وصحف وإعلام ، وهو الفكر الشيوعي ، الذي يعتبر الدين أفيون الشعوب ، والقوانين وجدت ليحكم بها الأقوياء الضعفاء ، والجنس كلاً مباح ، والشهوة متاع محبب ، والشرف كلمة يرددها الرجعيون المتزمتون ، الذين يجب أن يكونوا وقوداً للثورة ومعبراً للحضارة المرتقبة ، وأستطيع أن أقول بسهولة : إن هذا الفكر رافد من روافد فلسفة اللذة والشهوة التي سبقتها ، فإن أرسطس قد فلسف هذه اللذة وتلك الحرية الجامحة ، بقوله : « اللذة هي قاعدة الحياة »^(٢) ويعلل ذلك فيقول : « إن تحصيل اللذة الراهنة ، ضرورة نفسية نخضع لها قسراً عنا ، وإن الاعتراف بذلك خير من نكرانه ، لأننا باعترافنا وإدراكنا حقيقة كياننا نستطيع أن نرفه شيئا من وحدة ميولنا ، وأن ننظمها ونروضها على أن تتحول إلى فعل الخير على قدر المستطاع ، ذلك على الضد مما نكون إذا أهملنا الاعتراف بها ، ومضينا نقول : إن حكم الضمير كان للتهذيب ، من غير أن نعير الشهوة وأثرها في الحياة شيء »^(٣).

وعلى هذا يكون الفرق بين الفكر الأول والفكر الثاني هو الإصرار على تنفيذه

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة . أندريه كرش ص ٣٢ تعريف الدكتور عبد الحليم محمود وآخرين .

(٢) الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ٢ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية .

(٣) فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشقراوى ص ١٩ ط دار النهضة العربية بيروت .

بالقوة ، ولو أدى ذلك إلى الدمار ، والسير على الجماجم ، واستعمال القسوة إلى أبعد مدى .

وفي رأيي أن هذا يقلب اللذة إلى ألم ، ويحول الحياة إلى ليل أسود وغيوم داكنة مليئة بالصواعق والرمود ، التي تقضى على اللذة المقدرة ، بل على الإنسان نفسه والحياة من حوله ..

الألفاظ ذات الصلة بالتعريف الاصطلاحي :

بعد أن تعرضنا لتعريف الحضارة في الاصطلاح ، ورأينا وجوهه المختلفة التي ظهرت في سماء العصر على اختلاف المذاهب والنحل في ذلك ، يحسن بنا أن نتعرض للألفاظ ذات الصلة في الاصطلاح أيضا ، ليتضح المعنى وتستبين وجوه الاتفاق والاختلاف ، كما أوضحنا ذلك في التعريف الاشتقاق .

(١) المدنية

يعرف الدكتور أحمد شلبي المدنية بقوله :

« هي الرق في العلوم العلمية والتجريبية ، كالطب ، والهندسة ، والكيمياء ، والزراعة ، والصناعة ، والاختراع الآلى »

ثم فسر هذا التعريف فقال « وسمى الرق في هذه العلوم مدنية ، لارتباط الرق فيها بالمدنية »^(١) وعلى هذا فالمدنية تستهدف السيطرة على الطبيعة ، وإخضاع ظروف البيئة فيها للإنسان ، فالمدنية تعنى سيطرة الإنسان ، على الأشياء .

تعريف الدكتور عفت الشرقاوى :

يعرف الدكتور عفت الشرقاوى المدنية بقوله : « هي ما نستعمل ، أو هي ظاهرة اصطناعية تظهر في ازدهار الفنون الصناعية للمجتمع المتمدن ، أو هي

(١) الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ٢ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية .

خلاصة ما تطورت إليه الطاقة العقلية للإنسان ، ومدى قدرة هذه الطاقة على التحكم في طبيعة الأشياء»^(١)

وعلى هذا فالتعريفان المذكوران يحددان مجال المدنية في العلوم العلمية التجريبية ، التي تظهر وتزدهر في المجتمع ، ليسيّطرها الإنسان على الطبيعة ، ويخرج بهذه العلوم فنونا من المخترعات في شتى مجالات الحياة الدنيا ، ولكننا نلاحظ عند كثير من الباحثين أن لفظة المدنية في الاصطلاح مساوية للفظلة الحضارة ، وأن كل من اللفظتين يطلقان على مسمى واحد ، وهذا ما مال إليه الغربيون وكثير من العرب ، منهم الأستاذ محمد فريد وجدى .

تعريف الأستاذ محمد فريد وجدى :

يعرف الأستاذ محمد فريد وجدى المدنية فيقول : « للمدنية اليوم معنى أوسع مما مر من الزمان ، فقد عرفها العلماء الاجتماعيون بقولهم : هي الحالة الراقية التي توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم العالية والفنون الجميلة والصنائع المناسبة لهذه الحالة »^(٢) فاكسبت كلمة المدنية بذلك مدلولاً أعم من مدلولها اللغوي ، واعتبرت غاية تتدرج الأمم في الوصول إلى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، وقد قال الفلاسفة « الإنسان مدنى بطبعه » ، أى مفطور على التمدن والارتقاء. ثم يقول : وهذا الترقى المطرد في الإنسان سيهجم به لا محالة على حالة من الكمال لم يحلم بها السابقون المتقدمون ، ولا نعى بذلك الكمال زيادة وسائل متاعه المادى فقط ، ولكننا نعى به كمال أخلاقه ، وتمام ملكاته ، وبروز الإنسانية فيه بأجمل صورها أيضاً »^(٣).

وعلى هذا نجد أن الباحثين يختلفون في التعريف الاصطلاحي للمدنية على وجهين :

(١) فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٩ دار النهضة العربية بيروت .

(٢) دائرة معارف وجدى ج ٨ ص ٥٥٣ .

(٣) المصدر السابق ٨ / ٥٥٤ .

الأول : يطلقها على العلوم المادية التجريبية ، مثل الطب ، والهندسة ، والصناعة التي تخدم الإنسان ماديا وترفيها ، كما يقول الدكتور عفت الشرفاوى — المدنية هي مانستعمل ، والحضارة هي مانحن .

والإتجاه الثانى : يجعل كلمة المدنية مرادفة لكلمة الحضارة ، ويطلقها على العلوم النظرية والعملية والصناعية والسلوكية والفكرية والنفسية ، كما أشار إلى ذلك بوضوح الأستاذ محمد فريد وجدى .

والإتجاه الثانى قميل إليه النفس وترجحه ، للأسباب التالية :

١ — اشتقاق كلمة حضارة ومدنية مترادفان ، فالحضارة مشتقة من أهل الحضرة والمدن الذين يسكنون المدن والحواضر ، حيث يكونون أفقه عقلا وأكثر فهما وأحسن استعدادا للرق من غيرهم .

وكلمة مدنية مأخوذة من المدينة وسكانها ، ومن الحواضر كذلك ، حيث يطلق على المدينة حاضرة ، وعلى الحاضرة مدينة ، فاشتقاق الكلمتين متفق وموحد ، فلا داعى للتفريق بينهما اصطلاحا ، حيث إن مجال عملهما هو الرق والتقدم .

٢ — يستخدم الأوروبيون كلمة المدنية والحضارة بمعنى واحد فى أصل اشتقاقهما ؛ حيث يستعملون كلمة Civilisation بمعنى واحد للحضارة والمدنية ، ويعتبرون كلمة الحضارة والمدنية مترادفان ، دلالة على التقدم والترقى والحضارة . وحيث أن الكلمتين محدثتان ومقتبستان من أصل واحد عند الأوروبيين والعرب ؛ فلا داعى للتفريق بينهما بدون سبب يدعو إلى ذلك .

(٢) الثقافة :

يعرف ول ديورانت الثقافة والحضارة بتعريف واحد ، ويسوى بينهما فى المعنى ، فيقول : « الثقافة والحضارة : هى النظام الاجتماعى والتشريعى والخلقى والنشاط الثقافى »^(١)

(١) نشأة الحضارة ١ / ٩ هامش ترجمة زكى عيب ط لحة الترجمة والتأليف .

تعريف الدكتور أحمد شلبى :

يعرف الدكتور أحمد شلبى الثقافة بقوله : هى الرق فى الأفكار النظرية ، مثل القانون ، والسياسة ، والأخلاق ، والسلوك ^(١)

تعريف مالك بن نبي :

يعرف الأستاذ مالك بن نبي الثقافة بقوله : « هى مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يلقاها الفرد منذ ولادته » . ^(٢)

ثم يفسر هذا التعريف ويزيده وضوحا ، فيقول : فالثقافة على هذا هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ، ويعكس حضارة معينة ، ويتحرك فى نطاقه الإنسان المتحضر .

وهكذا يضم التعريف بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة ، أى معطيات الإنسان ومعطيات الجماعة ، مع أخذنا فى الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات فى كيان واحد ، تحدثه عملية التركيب التى تجربها الشرارة الروحية ، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات .

والذى يلاحظ فى التعريف الاصطلاحي للثقافة ، أن هناك رأيين ، يمثل كل منهما وجهها معينا :

الأول : للأوربيين وقد مثلنا لهم بول ديورانت ، يعتبرون الثقافة والحضارة بمعنى واحد ، ويستعملون لهما كلمة واحدة فى التعبير عن الكلمتين ، رغم اختلاف كل منهما فى أصل الاشتقاق Culture ، ويميل بعض الباحثين العرب ، وعلى الأخص علماء النفس إلى استعمال تلك الكلمة الإنجليزية فى التعبير عن الثقافة والحضارة أيضا .

الثانى : وأما الرأى الثانى فيفرق بين الثقافة والحضارة ، حيث يعتبر الثقافة هى الرقى فى الأفكار والأخلاق والقيم الاجتماعية ، التى يكتسبها الفرد من بيئته أو مجتمعه أو

(١) حضارة الإسلام لأحمد شلبى ٢ / ١٩ ط النهضة المصرية .

(٢) شروط النهضة مالك بن نبي ص ٨٣ ط دار الفكر دمشق .

دراسته في المجالات المختلفة .

وقد مثلنا لهذا الاتجاه بتعريف الدكتور أحمد شلبي ، والأستاذ مالك بن نبي ، وهذا الرأي مال إليه الباحثون من علماء الاجتماع العرب ، حيث أطلقوا الثقافة على الفكرى من الحضارة ، وفرقوا في استعمال الكلمة الأوربية المترجمة لكل من الحضارة والثقافة . فأطلقوا كلمة Culture على الثقافة ، وكلمة Civilisation على الحضارة ، ولا شك أن هذا الرأي يستند إلى واقعية الكلمة وصدق المدلول ؛ للأسباب الآتية :

١— قد رأينا في أصل كلمة الثقافة اللغوى ، أن الكلمة تتصل بمعنى من معانى التقويم ، والتكيف ، والتغيير النوعى ، والمعالجة التربوية ، وهذا المعنى الاصطلاحي الذى أوردناه في تعريف هذا الاتجاه يسير في نفس المسار ، فيعرف الثقافة بالتهذيب والرق وتحصيل الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية ، فيتوأكب المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوى ، ويكون سياجا من الدلالة على رسوخ الكلمة وتمكن معناها في اللغة والاصطلاح .

٢— الثقافة شئ ذهنى وعقلى يختص بالإنسان ؛ لالمادة والآلة والعمران والصناعة ، نعم قد تتصل بكل ذلك وتوجهه ، ولكنها تبقى من لوازم الإنسان ، وتكون ألصق به وبطباعه الشخصية من مدلول الحضارة .

٣— قد تختلف الثقافة من شخص إلى آخر في مجتمع واحد ، وفي مدينة واحدة ، بل في أسرة واحدة ، بينما لا يكون ذلك في الحضارة ، فالحضارة إطلاق عام ، إذا أطلق على الأفراد يراد به المجتمع كذلك .

٤— الثقافة بمعناها هذا لا تدخل في كل تعاريف الحضارة السابقة ، فتشارك في التعاريف التى تقترب فيها الروحية بالمادية ، أو تنفرد بالناحية الروحية ، وتبتعد عن التعاريف المادية الصرفة ، التى يراد بها الترف واللذة والسير مع الشهوات ، لأن هذه الحضارات غالبا ماتكون في غنى عن الثقافة والترقى الروحى .

(٣) النهضة :

أطلق العلماء والفلاسفة اسم النهضة على الرق والرفعة والعزة ، والتحرر من

الجهل ، والاستعمار ونبد التخلف الفكرى والمادى .

ويتبعنا للمواطن التى ذكر الباحثون فيها اسم النهضة ، وجدنا أنهم لم يتخطوا تلك المعانى التى ألحنا إليها ، وعلى هذا تكون النهضة أعم من الحضارة والمدنية والثقافة ، إذ تطلق النهضة على كل ذلك ، وزيادة على ذلك أشياء منها الكفاح ضد الظلم ، وضد العبودية ، وضد الذل والكسل والهوان .

ولهذا كثر استعمال مصطلح النهضة عند تحرير الشعوب ، واسترداد الأوطان ، وبعث الحريات ؛ لإرجاع الأمم إلى شخصيتها وبعثها من رقادها ، لتأخذ بأسباب القوة والمنعة والتقدم والحرية .

صلة الحضارة بالمفهوم الإسلامى :

لاشك أن نظرة الإسلام الحضارية ، نظرة متميزة ، تقوم على القيم والإخلاص والخصائص الإنسانية العليا التى ينفرد بها الإنسان عن الحيوان ، فمجتمع الإسلام يبنى على العقيدة ، لا على الجنس أو اللون ، عقيدة تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ، والعربى والرومى والحبشى والفارسى وسائر أجناس الأرض ، فى عبودية تامة لله سبحانه ، وخضوع لأوامره ، حيث تطوع العادات والتقاليد والأعراف والطبائع لتلك العبودية وليس معنى هذا أن المجتمع الإسلامى المتحضر يحتقر المادة ، وإنما يحترمها فى صورتها النظرية ؛ باعتبار أنها هى التى يتألف منها هذا الكون البديع الذى نعيش فيه ونتأثر به ، فى صورتها فى الإنتاج المادى « فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة فى الأرض . سخره الله لنا ، وأمرنا أن نعمل الفكر فيه ، ونسير فى الأرض لتحصيله والاستفادة منه » ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ ^(١) ، ولكن المسلم لا يعتبر هذا غايته ، ولا يتصوره القيمة العليا التى تستعبد الإنسان وتهدر كرامته وتبتلع حريته وتجعله خاضعا ذليلا فى كل ما يصدر عنه أو يتصرف فيه ، ولا تدخل فتغير أسلوبه وتبدد خلقه ، وتحرمه من القيم العليا والفضائل الحسنة ؛ لتحقيق شيئا أرضيا مثل الوفرة فى الإنتاج ، أو الرفاهية فى الطعام ، أو

(١) الأعراف — ٣٢ .

الأناقة في الملبس ، والراحة في المسكن ، والترف في المركب ؛ على حساب قيمه العليا . فينقلب الإنسان إلى شيء آخر غير الإنسان . قد ينقلب إلى حيوان ، وقد يكون أشر من: وأضل ، كما أشار القرآن بذلك ﴿ يَأْكُلُونَ كما تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾^(١) إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴿^(٢) وتأييدا لهذه النظرية نسمع مالك بن نبي يقول : « من المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهيلة على الفترة التي كانت قبل الإسلام ، ولم يشفع لهم شعر رائع وأدب فذ من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف ؛ لأن التراث الثقافي العربي لم يحو سوى الديباجة المشرقة الخالية من كل عنصر خلاق أو فكر عميق »^(٣)

فالتعريف الإسلامي للحضارة على هذا المعنى هو : القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان ، وتكون دافعا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به ؛ « لأن إنسانية الإنسان هي قيمته العليا في الحياة ، فيجب أن تكون موضع التكريم والاحترام ، وعقيدته هي ميزانه وقوته الدافعة وقانونه في نفسه وفي مجتمعه ، فيجب أن تكون موضع النظر والاعتبار ، وتصرفه في المادة التي هي من نعم الله يجب أن يكون على شكل يحقق الإفادة والنفع والهداية والشكر لواهب هذا الفضل والإحسان ، عندئذ يكون الإنسان متحضرا راقيا ، مشيدا لصرح من الاستقرار والسعادة والتقدم .

أما أن تكون المادة فقط في أى مجتمع هي قيمته العليا وقطب رحاه ، سواء كانت نظرية في مخيلته ، أو دراسة في ثقافته (كما في التفسير الماركسي للتاريخ) ، أو إنتاجا ماديا في حياته (كما في الحضارة المادية الحديثة) التي تعتبر الإنتاج المادى القيمة العليا التي تهدر في سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية العليا ؛ فإن هذا المجتمع لا يصبح أن يطلق عليه أنه مجتمع متحضر ، بل هو متخلف وفي أدنى صور التخلف .

(١) محمد — ١٢ .

(٢) الفرقان — ٤٤ .

(٣) شروط النهضة مالك بن نبي ص ٢٨ ط دار الفكر دمشق .

وقد تكلم القرآن الكريم على أمثال هذه المجتمعات الخاوية التي فرحت بالقيم المادية ، وعبثت بعد ذلك بكل شيء وكانت وبالاً على مجتمعاتها وعلى الإنسانية . ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَخْذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا الِإِذَى أَمْدُكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمْدُكُمْ بِأَعْلَامٍ وَبَيْنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنْ أُنْخِفَ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَارَأَ فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

وهكذا لابد من قيم تحرس المادة وتهيمن عليها ، حتى تسمى حضارة وتسلم من عبث العابثين .



(١) الشعراء (١٢٨ — ١٣٦) .

(٢) غافر — ٨٢ إلى ٨٥ .

المبحث الثالث

الحضارة والنزعة العنصرية

قد يسائل الباحث نفسه : هل الإنسان جنس من أصل واحد ينتمي إلى ذكر وأنثى ، أم إلى أجناس متعددة وأبواء مختلفة ، وإذا ثبت أن البشرية تنتمي إلى نسب واحد وأب معين ، فمعنى ذلك أنها متحدة الميول والخلقة والعقول والأفهام والصفات والغرائز ، وإذا اختلفت بعد ذلك فى شىء ، فإنما هو الاختلاف بين الأخ وأخيه فى اللون والعادة ، وبين المثقف والجاهل والمجرب والغر ، وهو اختلاف يرجع إلى عوامل معينة وأسباب معروفة ، إذا زالت هذه العوامل والأسباب تساوت البشرية فى أصلها ، وفى صفاتها ، وفى ثقافتها ، وفى تجاربها وعاداتها .

إذا فهل هذه الحقيقة الواضحة الجلية رآها الباحثون ووعاها العلماء وفطن إليها فقهاء الحضارة على مر التاريخ ؟ لننظر فى الأمر على ضوء مصابيح التاريخ وشعاع الوقائع والحوادث ، ونولى وجهنا نحو أنماط مختلفة من القطاعات المتعددة التى حفلت بها الأيام ، واستوعبتها السنين ، ونأخذ من كل مثلاً واحداً .

نأخذ مثلاً من حضارة الشرق القديمة ، ولتكن حضارة الفراعنة . فهل فهمت هذه الحضارة حقيقة الإنسان وهل نظر الفراعنة إلى الناس نظرة مساواة وأخوة ، أم أن الواقع غير ذلك ؟

يروى لنا القرآن الكريم أن فرعون ومجتمعه كان ذا ثلاثة مفاهيم ، أو ينقسم مجتمعه إلى ثلاث شعب .

الشعبة الأولى :

فرعون والبيت الفرعونى ، وهم طبقة الآلهة ، يدين الشعب لهم ، وتتوجه

الأمة إليهم ، لايسألون بل يسألون ، ولايعبدون بل يُعبدون . ونقرأ هذا في قوله تعالى : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (٢) . ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهتك ﴾ (٣)

الشعبة الثانية :

المصريون أهل البلاد الأصلية ، ولهم الصدارة والريادة ، وهم الجنس المفضل الممتاز على غيرهم من البشر .

الشعبة الثالثة :

غير المصريين من عبرانيين وغيرهم ، وهذه طبقة مستباحة مسخرة ، ليس لها حقوق أو واجبات ، وإنما هى طبقة ممتنة مستذلة ، ليس لحياتها قيمة ، ولا لإنسانيتها شرف أو احترام ، ونسمع القرآن يتحدث عن فرعون وعن تلك الشعبة أو هذه القطاعات ، فيقول : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾ (٤) ، فتوضح لنا الآية مكانة فرعون . بأنه علا فى الأرض ، أى ادعى الربوبية ، ونصب نفسه إلها على الناس ، ثم قسم الشعب إلى شيع وأقسام ، قسم يرضى عنه ، وقسم يستبيحه ويفعل به ما يشاء ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم .

أمم آسيا الوسطى :

أما الأمم فى آسيا الوسطى ، كالمغول ، والترك ، واليابانيين ، والهند ، والصين ، فقد كان يسود تلك البلاد ديانات متقاربة ، بين وثنية همجية ، وبين بوزية

(١) للزخرف : الآية (٥١) .

(٢) القصص : ٣٨ .

(٣) الأعراف : ١٢٧ .

(٤) القصص — ٤ .

فاسدة ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاما سياسيا راقيا ، ولناخذ الهند مثلا لشعوب شرق آسيا ، حيث كان نظام الطبقات شديد الضراوة بالغ القسوة ، يستهين بشرف الإنسان ، ويمتهن آدميته ، وكانت تحميه السلطة الدينية والمدنية ، قانونا رسميا ومرجعاً دينيا في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر »^(١) يقسم هذا القانون البلاد إلى أربع طبقات :

الطبقة الأولى : الممتازة ، وهي طبقة الكهنة ورجال الدين .

الطبقة الثانية : (شترى) رجال الحرب .

الطبقة الثالثة : (ويش) رجال الزراعة والتجارة .

الطبقة الرابعة : (شودر) رجال الخدمة .

ويقول (مينو)^(٢) مؤلف هذا القانون : « إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ، ويش من أفخذه ، والشودر من أرجله » ثم قال : « إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق ، وإن مافي العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر — من غير جريرة — ماشاءوا ، لأن العبد لا يملك شيئا وكل ماله لسيده » ، ثم يقول : من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزا ، فإن ذلك يؤدي البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ... وإذا رفسه في غضب قطعت رجله ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد ، أما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فاترا ، وكفارة قتل الكلب والقطعة والضفدعة والوزع والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء »^(٣).

ويلاحظ الباحث والمتأمل أن هذا القانون في بني جلدتهم ، وعند من يسمى

(١) قانون ارتضته البوذية وتعافت عليه وعملت به .

(٢) مينو : شخصية دينية اختلفت فيها الآراء ، فمنهم من يقول : إنه مصلح ، ومنهم من يقول : إنه نبي .

(٣) ماذا خسّر العالم بالخطا المسلمين — أبو الحسن الندوي ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

بالشعب ، فما بال غيرهم من الأجناس الأخرى ، كيف ياترى ؟ وإلى أى درجة تكون معاملتهم أو كرامتهم .

العنصرية عند الفلاسفة :

وإذا نظرنا إلى مجتمعات الفلاسفة ، ويمعنا وجهنا شطر بحوثهم وأقوالهم وفلسفتهم ، نجد أن العنصرية البغيضة كانت تسيطر على عقولهم وأفعالهم وأقوالهم ، رغم أنهم كانوا حكماء يشار إليهم بالبنان ، ولتضرب لذلك مثلاً بالمدرسة الأفلاطونية التى نظرت إلى الإنسان من زاوية عنصرية كريمة ، فقسمت البشر إلى صنفين : يونان عاقلين ، وبرابرة متوحشين ، كما تذهب إلى أن الطبيعة وهبت اليونانيين عقلاً ممتازاً ، أما غيرهم فهم مجردون من العقول والأفهام ، وعليهم خدمة هذا الصنف الممتاز .

ثم أوصت باستعمال الشدة مع هذه الأصناف من الخدم والعبيد ، ويدعو إلى مزيد من الصرامة ، وينعى على العهد الديمقراطي تسامحهم معهم^(١) ، وقد صار أرسطو على سنن أفلاطون فى تقسيم الأجناس ، كما يجرى على سنن أستاذه فى التمييز بين اليونانى وغير اليونانى . فيقول : إن الله خلق فصيلتين من الناس . فصيلة زودها بالعقل والإرادة ، وهى فصيلة اليونان ، وقد فطرها على هذا التكوين الكامل ؛ لتكون خليفة له فى أرضه وسيدة على سائر خلقه . وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشراً بالجسم ، وهؤلاء هم البرابرة ، أى ما عدا اليونان من بنى آدم ، وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقص ، ليكونوا عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ، فمن واجب اليونان إذاً أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزل التى خلقوا لها ، وهى منزلة الرق . وكل حرب يشنها اليونان لتحقيق هذه الغاية حرب مشروعة ، تنبعث من طبائع الأشياء ، ولا تستقيم الحياة الاجتماعية وشئون العمل فى نظر أرسطو إلا باسترقاق هؤلاء البرابرة ، فبفضل هذا الاسترقاق يتحقق توزيع الأعمال على الوجه الذى يتفق مع طبائع الأشياء^(٢) .

(١) جمهورية أفلاطون ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، والرق الدكتور الترماني ص ٢٠ .

(٢) انظر : قصة الملكية فى العالم ص ٧٢ ، والمجتمع الإسلامى ص ٧١ ، للدكتور على =

هذه هي نظرية الفلاسفة اليونانيين أصحاب الذكر والسمعة ، وأصل بناء الحضارة كما يقول القائلون ويتحدث المفتونون بالخيال عن الحقيقة ؛ وبالسراب عن الماء .

أصحاب الملل من أهل الكتاب

اما إذا توجه بنا البحث ، أو توجهنا به ، إلى الديانات والنحل والملل التي ذكر أصحابها أنها جاءت لخلاص الإنسانية وسعادة البشرية لنرى صدق تلك الدعوة وإخلاص هذه المقولة ؛ فإننا نرى غير ذلك . ولنضرب لذلك مثلاً باليهودية والمسيحية .

والحديث عن اليهودية حديث عن عنصرية بغیضة نتنة ، تدعو إلى الغشيان والاشتمزاز ، فهم يدعون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وعلى هذا فهم يستيحيون كل الشعوب دماء وأموالا ، وقد صرح القرآن بذلك حاكياً قولهم : ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾^(١)

ثم يقولون بما أن اليهود جزء من الله ، وذلك لقولهم : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾^(٢) كما أن الابن جزء من أبيه ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾^(٣) لذلك فإنه إذا ضرب أممي إسرائيلياً فالأممي يستحق الموت^(٤) ، وقد صور التلمود غير اليهود بأنهم حيوانات في صورة إنسان ، هم حمير وكلاب وخنازير ، بل الكلب أفضل منهم ؛ لأنه مصرح لليهودى في الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم الأجانب ، وخلق الله الأجنبى على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا لأجلهم ، ويعتبرون أنفسهم مساوين للعزة الإلهية^(٥).

= عبد الواحد وافي ، والرق ماضيه وحاضره للدكتور عبد السلام ترماني ص ٢٢ ط الكويت .

(١) آل عمران : آية : ٧٥ .

(٢) التوبة : ٣٠

(٣) المائدة ١٨

(٤) انظر : الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٥٠ .

(٥) المرجع السابق ص ١٥ .

وباليتهم يتحلون بعد ذلك بصفة الآلهة ، بل يأخذون صفة الأفاعي وأعمال الشياطين ، فنرى التلمود يقول : « إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر »^(١).

وقد جاء في التلمود أيضا « إن الله لا يغفر ذنبا ليهودي يرد إلى أمي ماله المفقود »^(٢). فهم على ذلك لا يرون قيمة لغير اليهودي ، ولا يعترفون به نفسا إلا للخدمة والاستعباد ، يرونه مستباح الدم مستباح المال ، يسعون إلى التخلص منه إذا سنحت الظروف ، وقد اعترف اليهود في كتابهم المسمى (سدحادرون) أن الأمباطور / مارك أويل / قتل جميع النصارى بناء على إيعاز من اليهود ، وأنه في سنة ٢١٤ بعد المسيح قتل اليهود مئتي ألف مسيحي في روما وكل نصارى قبرص ، وأنه بناء على رغبة اليهود قتل الأمباطور « ديو لكيسيين » جملة من المسيحيين ، ومن ضمنهم بابوات^(٣).

أما عن المسيحية ؛ فقد دعا السيد المسيح إلى المساواة بين الناس ، وأوصى أتباعه أن يعاملوا الناس بمثل ما يحبون أن يعاملوا به ، فكانت دعوته تصحيحا لليهودية الفاسدة ، وخروجاً على تلك العنصرية التي ذاق الناس منها الويلات ، وقد تفرق أتباعه في البلاد بهذه الدعوة ، واستبشر المستضعفون والفقراء بها خيرا ، ولكنه لم يستمر الأمر على هذا الحال ؛ بل جاء القديس بولس وأعلن في رسالته إلى روما اعترافه بالرق والخضوع للسلادة ، فقال : « لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيُدانون »^(٤).

ثم أعلنت المسيحية بعد ذلك أن المساواة التي تدعو إليها إنما هي المساواة في الروح لا في الجسد ؛ لأن الجسد قد خلق لهذه الحياة الدنيا ، وعليه أن يخضع

(١) التلمود ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) التلمود ص ٧٧ .

(٣) سدحادرون ص ٨٨ ، وحقيقة اليهود والمطامع اليهودية ص ٢١ محمد نمر الخطيب .

(٤) الإنجيل رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣ ، ٢٠١ .

لكل ذى سلطان ، وعليه أن يتحمل مايلقى من ألم وعذاب ، كما تحمل جسد المسيح^(١) . واستطاعت المسيحية بهذا اللغو أن تجمع بين النقيضين ، وظلت تتدرج في هذه التنازلات حتى اعترفت بالأفلاطونية وقررتها وفلسفتها دينيا ، فقام القديس أوغسطين ، ومن بعده القديس توما الأكويني ، بالتوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، فذهبا إلى أن الله قد خص بعض الناس بالرق ليكونوا محكومين ، وخص آخرين بالحرية ليكونوا حاكمين ، وقد خص الله الأرقاء بالوظائف الحقة في المجتمع ، وعوضهم عن احتقار الناس لهم بثواب الآخرة^(٢)

وعلى هذا نرى أن المسيحية تدرجت من نظرة المساواة والدعوة الصحيحة لوحدة الإنسانية ، تلك الدعوة التي مات في سبيلها دعاة كثيرون ، إلى إباحة الرق ، ثم ادعاء أن المساواة روحية لا جسدية ، ثم أخيرا إقرار الأراء الأفلاطونية التي تدعو إلى تفضيل الجنس والتفريق بين الناس وفلسفة ذلك دينيا ، فتدخل بذلك في عداد العنصرين ، وتسير في ركابهم ، تاركة ميدان الكفاح في سبيل الحق والعدل والمساواة ، وتكون بذلك قد تنكرت لتعاليم المسيح وحوارييه والذين تبعوه بإحسان ، حتى قضوا نحبهم في سبيل هذا الهدف النبيل والرسالة الكبرى ، التي كانت الإنسانية في شوق إليها ؛ لتستنشق عبير الإنسانية والرحمة والأمان .

العرب والنزعة العرقية :

اعتز العرب قديما بأنسابهم ، وافتخروا بقبائلهم وشمائلهم ، وكانت تعقد لذلك المساجلات والندوات ، وفي تاريخ العرب لمحات طيبة من الشجاعة والكرم والمرؤة والوفاء والرجولة ، ونعرض لذلك في جانب من حديث النعمان أمام كسرى حين قدم عليه ، وعنده وفود الروم ، والهند ، والصين ، فصار كل يفتخر بقومه وببلاده . فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى من ذلك فارس ولا غيرها . فقال النعمان مخاطبا كسرى ملك الفرس « وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة

(١) انظر : الرق ماضيه وحاضره ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

تقرنها بالعرب إلا فضلتها ! . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها .

فأما عزها ومنعتها ؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، غيرها من الأمم كل عزها الحجارة والطين وجزائر النجور .

وأما حسن جوهرها وألوانها ؛ فقد يعرف في ذلك فضلهم على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة .

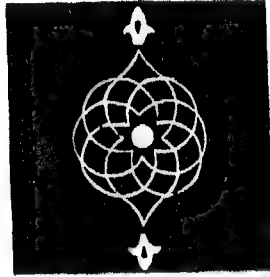
وأما أنسابها وأحسابها ؛ فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أوائلها ، حتى أن أحدهم يسأل عمن وراء أبيه دينا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمى آباءه ، فأما آباؤنا فأحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينسب إلى غير نسبه ، ولا عى إلى غير أبيه .

ثم يقول : وأما حكمة ألسنتهم ؛ فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال — وإبلاغهم في الصفات مالم يس لشيء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونسائهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبلهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها ؛ فإنهم متمسكون حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ، وينبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك رغبته

منه ؛ فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى^(١).

إلى غير ذلك من الصفات التي يفتخر بها العرب على غيرهم ، ويعتبرونهم دونهم في كل شيء ، وأنهم بلغوا المجد ، وارتفعوا فوق البشر ، وتعدت صفاتهم هذه ، حتى على خيولهم ومطاياهم ولباسهم ومعادنهم ومساكنهم ودياناتهم ، وأنشد الشعراء في الفخر والحرب والجود والبطولة الملاحم الطوال والمعلقات العظام التي يعرفها القاصي والداني^(٢).



(١) تمهيد في علم الاجتماع للياق ص ١٨١ ، ١٨٢ ، عن العقد الفريد ٢ / ٦ ، ٨٧ ط الترجمة والبشر .
 (٢) المصدر السابق نفس الصفحات .

المبحث الرابع

آراء المحدثين فى دور الجنس فى الحضارة

إذا نظرنا اليوم إلى العصر الحديث وإلى المجتمعات الحضارية ؛ هل سنجد نفس المفهوم وتلك النظرة القديمة ، أم نجد المفاهيم قد تبدلت وتغيرت وارتقت كما ارتقت العلوم والبحوث والمخترعات ، الواقع المؤسف أن الحال ظل هو الحال ، والنظرة ظلت هى النظرة ، لم تتغير أو تتبدل عند جمهور الباحثين وعلماء الاجتماع الغربيين ، والسبب فى ذلك أن الميول الإنسانية واحدة ، والشهوة البشرية متفقة ، فالنزاع الإنسانى مازال ممتدا ، وحب الذات والتعصب الأعمى والخواء الروحى ما برح متصلًا ومستمرًا ، والأنانية والتسلط والتعالى والبغى مازال هو السمة بين الماضى السحيق والحاضر الأليم .

ألف أرفوردو غوينو ١٨١٦ — ١٨٨٢ كتابه « بحث فى تفاوت العروق البشرية » فى أربع مجلدات ١٨٥٣ — ١٨٥٥ ، وحاول أن يشرح فيه أسباب رقى المجتمعات وتأخرها ، ويبرهن على نظريته ، ويرد على المخالفين له فى رأى . ويخلص فى نظريته تلك إلى أن الشعوب متفاوتة غير متساوية ، وبعضها أعلى من بعض ، فريق فيها فى القمة وفريق فى السفح ، والشعوب العالية هى التى التى تستطيع أن تتقدم وأن ترقى وتبنى الحضارات ، أما الشعوب المنحطة الواطئة فهى لا تستطيع فعل شئ أو القيام به ، وتحمل تبعاته ، ولا طاقة لها بالتقدم ، فالمعول إذاً على العرق ، والعروق متفاوتة فى القيمة والخصب ، وقد أرجع ذلك التفاوت إلى تفاوت أصولها . وكان غوينو من أوائل الذين تصوروا تعدد أصول العرق البشرى ، وبنى نظريته على فرضية خيالية ، وقرر فيها أن البشر لم ينشأوا من أب واحد أو أصل واحد ، بل من أجداد مختلفة وأصول متعددة . تنحصر تلك الأصول فى الأبيض ، والأصفر ، والأسود .

ثم اختلطت تلك العروق بعد ذلك ، ولكن الجنس الأبيض هو أعلى العروق ، وأرفعها ، وأكثرها مزايا ، وأقدرها على الإبداع والخلق والتقدم الحضارى ، ولا سيما فى الفرع الآرى ، إذ هو الذى أبدع وأسس جميع المدينات المعروفة فى تاريخ البشر .

رده على خصومه

ثم ابتداء غوبينو يرد على من يرجع أسباب التخلف إلى عوامل أخرى :

(١) التعصب الدينى :

يقول : إن التعصب الدينى لم يكن سببا فى تخلف الأمم .
فالإمبراطورية الأرتكية فى المكسيك كانت شديدة التعصب فى دياناتها ، حتى كانت تقدم القرابين البشرية إلى آلهتها دون أن يؤدى ذلك إلى انحطاطها أو ذهاب حضارتها .

(٢) الترف والأبهة :

يقول إن الطبقات العليا فى اليونان والرومان وفى بلاد فارس والبندقية وانكلترا وروسيا القيصرية عاشت مترفة منهكة فى الأبهة ، دون أن يفضى ذلك بها إلى الانحطاط أو ذهاب حضارتها .

(٣) القسوة والرذيلة :

يقول لم تكن بداية نهوض إسبارطة وروما وأمثالها من المجتمعات مقترنة بشيوع الفضيلة والشرف ، فقد كان الرومانيون الأوائل قساة متوحشين ، وكان الإسبارطيون ، وكذلك الفينيقيون ، لايتورعون عن اللصوصية والكذب والفساد . ولم يحل ذلك كله دون تقدمهم ورفيهم ، بل بالعكس قد نجد عند بعض المجتمعات التى تبدأ بالتأخر والانحطاط كثيرا من الشعائر الإنسانية ولطف العادات ، وتورعا عن القسوة وحب الرحمة ، ولم يمنعهم ذلك من الانحدار والانهيار ، ولقد انهارت فارس وصور وقرطاجة حين كان الدين فيها قويا وسلطانه مسيطرًا على النفوس ، ولم يمنعهم ذلك من الانحطاط والتدنى .

(٤) الاستعمار :

يرد فيقول : قد يفرض : على الشعوب حكم أجنبي فاسد منحل ، يركض وراء مصالحه ، لا يمثل الشعب ، ولا يعبر عن مصالحه وإرادته ، ولكن هذا لا يؤثر على حضارة الشعوب وتقدمها ، ولنضرب على ذلك مثلا بالصين فقد لبثت آلاف السنين والحكام فيها غرباء عن البلاد من أصل مغولي ، ومع ذلك فقد بقيت الصين ، واستمرت ، وازدهرت حضارتها في تلك الفترة ، وكذلك انكلترا احتلها النورمانديون سابقا ، وهم غرباء عنها فما انهارت ، والأمثلة على ذلك كثيرة تؤكد أن انحطاط المجتمعات ليس ناشئا عن انحطاط حكوماتهم الطبقية ، ولكن قد يكون هذا مساعدا عليه وليس عاملا رئيسا فيه ^(١).

(٢) ستوارت تشمبرلن :

من أبرز المقتفين لآراء غوبينو ؛ حيث يرى رأيه في تفاوت العروق بعضها على بعض تفاوتاً طبعياً بيئياً ، ويرتب العروق حسب اللون ، فيقول : إن أعلى العروق هو العرق الأبيض ، ولأسيما العرق الآري الذي ينتسب إليه اليونان والرومان في الماضي والتوتونيون ^(٣) في الحاضر ، وهو بهذا يشابه غوبينو كثيرا ، ويستشهد لذلك بمدنيات أربع قديمة ، قام بها الجنس الأبيض ، وكانت أصلا للمدنية الحديثة التي أقامها كذلك الجنس الأبيض . فيقول في كتابه « دعائم القرن العشرين » : إن أصول مدنيات أوروبا الحديثة أربع : المدنية اليونانية ، والمدنية الرومانية ، واليهودية ، والتوتونية ، فقد أخذت الحضارة الأوربية الحديثة عن اليونان الشعر والفن والفلسفة ، وعن الرومان الحقوق والسياسة والنظام وحق الوطن وقداصة الأسرة وقداصة الملكية

(١) انظر : تمهيد في علم الاجتماع للباي من ص ٢٨٥ إلى ص ٢٩١ الترجمة والمشر . بتصرف

(٢) هو اس الأميرال الإنكليزي ولم تشارلر تشمبرلن ، تنقذ ثقافة ألمانية ، ونحس بالحسية الألمانية سنة ١٩١٦ ، وكتب كتابه المشهور — دعائم القرن التاسع عشر بالألمانية سنة ١٨٩٩ ، وهو في كتابه هذا يبحث عن أصول مدنية أوروبا في القرن التاسع عشر .

(٣) ويعني بهم الألمان والسلت والسلاف وبقية عروق أوروبا الشمالية التي تحررت منها شعوب أوروبا الحالية وشعوب أمريكا الحديثة .

الفردية ، وعن اليهود الدين اليهودى والمسيحى ، هذا مع أمور أخرى ، بعضها طيب ، وبعضها سيئ ، أدخلها اليهود معهم عندما دخلوا فى تاريخ الغرب ، ثم استطاع التوتونيون أن ينشعوا بذلك التراث مدينتهم الطارفة فى القرن التاسع عشر .

ويرى تشمبرلن : أن اختلاط الشعوب أو العروق بعضها ببعض قد يؤدى فى بعض الأحيان إلى نتائج جيدة ، مخالفًا بذلك لرأى « غوبينو » الذى يعتبر أن هذا يؤدى إلى انحطاط وتأخر ، ويشترط تشمبرلن لذلك الاختلاط شروطا معينة حتى يؤدى الغرض الممتاز :

- ١ — أن تكون العناصر المختلطة عناصر ممتازة .
- ٢ — أن تتزوج فيما بينها .
- ٣ — الاصطفاء الصناعى « هو انتقاء السلالات الجيدة من هذه العناصر ؛ حتى تؤدى نسلا قويا .
- ٤ — اختلاط دماء هذه العناصر بعناصر عرقية ودماء جديدة مناسبة .
- ٥ — تمازج الدماء : تمازج هذه الدماء المعروفة هو الذى يؤدى أحيانا إلى خلق عرق جديد قادر على القيام بالحضارات .

دوبولاج :

دوّن دوبولاج آراءه عن الأجناس فى ثلاثة كتب هى :

- ١ — الاصطفاءات الاجتماعية سنة ١٨٩٦ م .
- ٢ — الآرى وتصرفه الاجتماعى سنة ١٨٩٩ م .
- ٣ — العرق والبيئة الاجتماعية سنة ١٩٠٩ م .

ودوبولاج لاينكر اختلاط العروق ، ولكنه مع هذا لا يمنع من وجود عروق ممتازة ومتفاوتة تفاوتًا يجعل بينها فروقا جوهرية ، تحمل خصائص معينة من الرق والتقدم ، تجعلها تستطيع حمل الحضارة ، ثم قسم الأجناس الراقية إلى ثلاثة أقسام ، بعضها أعلى من بعض .

الأول : العرق الآرى : وطوله ١٧٠ سم فما فوق ، مستطيل الرأس ، قرينته الرأسية ٨٦ فما تحت ، أشقر الشعر ، يحب العمل ، أقوى على كسب الثروة ، مقدم جرىء ، يحب الكفاح للكفاح لا للكسب .

العرق الثانى : هو الإنسان الألبى طوله ١٦٠ إلى ١٦٥ ، مستدير الرأس ، قرينته الرأسية ٨٥ أو أكثر ، لونه بنى أو إلى النصوص ، قنوع متبصر للغاية ، لا يترك الأمور للمصادفة ، على نصيب من الشجاعة ، ليس له استعداد حرى .

العرق الثالث : عرق البحر الأبيض المتوسط ، قامته قصيرة ، لونه قاتم ، قرينته الرأسية ٧٨ أسفل من العرق الألبى .

ويسير دوبلاج على هذا المنوال فى تعريفه للأجناس والعروق ، ويميل بطبيعة الحال إلى الجنس الذى هو منه ، وهو الجنس الآرى ، ويصفه بكل الصفات الشريفة التى فى مخيلة الإنسان حتى يجعل منه أسطورة ومثلا ساحقا فى نظر القارىء والباحث ، ولا ندرى على أى شىء يبنى تلك الملاحظة أو هذه النظرية ، أعلى الطول ، وقياس الرأس ، واللون ، والشعر الأشقر الذهبى ، والعيون الزرقاء والبدة الحسنة ، أم على الأماكن التى يقطنونها ، والبلاد التى يسكنونها ، والاصقاع التى يحلون فيها ؟ وهذا لا يقول به باحث منصف ، أو مفكر يحترم أسلوب البحث ومقدمات النتائج المسلمة ، ثم جاء بعده غالتون .

فرانسييس غالتون :

سار غالتون العالم الإنجليزى على نفس النهج الذى سار فيه القائلون بتفاوت العروق ، وبنى نظريته تلك على براهين يقول فيها : « بما أن الناس متفاوتون فى الذكاء والفطنة ؛ فكذلك الأجناس والجماعات والعروق ، فالفرق موجود بين الطبقات كما هو موجود بين الأفراد ، وقد أنتجت الطبقات الرفيعة من النوابع أكثر مما أنتجته الطبقات الوضيعة ، والفرق الطبقيّة بالوراثة أشد تعلقا منها بالبيئة الاجتماعية ، والعروق متفاوتة تفاوت الأفراد والطبقات .

النازية والعرق :

ظهرت هذه العنصرية في العصر الحديث ، وكان يمثلها زعيم النازية السياسي أودلف هتلر ١٨٨٩ — ١٩٤٥ .

ويلخص آراء هتلر وأفكاره وحياته كتابه المشهور « كفاحي » ، ولا يختلف هتلر عن سابقه في كيل المديح جزافا للعرق الآري وعبقريته ونبوغه ^(١).

فالدّم وحده عند هتلر هو القوة والنبوغ ، ولهذا يقول : « في الدّم وحده تكمن قوة الإنسان أو ضعفه ، والشعوب التي لا تعرف ، ولا تقدر دعائم العرقية ، حق معرفتها وحق قدرها ، ولا تحافظ على صفات عرقها ، لا تحتفظ بوحدة نفسيّتها » ففضيّة الدّم والعرق عند هتلر مفتاح تاريخ الإنسانية كله ، لذلك كان السهر على العرق والإشراف على الدّم كيلا يشوبه شائبة هو الغاية الأولى والمهمة المقدسة التي يجب أن يسهر عليها الشعب ، ويحافظ عليها ، وتحرسها الدولة . وانطلق كُتّاب النازية يفلسفون هذه النظرية ^(٢).

يقول روز نبرغ :

« وإذا كان في الدنيا مكان قطب الوجود كله فيه عاطفة الشرف فهو في الغرب الشمالي ، أى الجرماني . فالشرف مبدأ الجرمانية الذي يتركز عليه وجودها وقانونها ، الذي يتجلى في أساطيرها وعاداتها ، كما يتبدى في حياة الفرد شجاعة وإقداما وضبطا للنفس ، كما يربأ بها عن مواطن الذل والإشفاق والخضوع ، ثم يعدد (روز نبرغ) المساوئ التي جرتا الكنيسة والدين المسيحي على أوروبا ؛ حين دعا الدين إلى المحبة التي سرعان ما انقلبت إلى معنى الذل والخضوع والزهد ، ويعتبر الكنيسة وبالا على الجنس الجرماني ؛ باستغلالها الناس ، والتسلط عليهم ، وتعويدهم على الشعوذة والدجل ، ثم يسب الماسونية والماركسية التي ينعتها باليهودية . وخلاصة تمجيد النازية للعرق أنها تهيج للعرق الشمالي ، والغاية التي يقصدها وينشدها الداعون إلى ذلك هي خدمة الوطن الجرماني تحت لواء الشرف القومي ، بالاعتماد على

(١) ، (٢) انظر كتاب كفاحي حيث يمثل في مجمله نظريته العرقية والسياسية .

الأسطورة التى حلت بها روح العرق الشمالى .

ولقد عد « روز نبرغ » من مجرمى الحرب العالمية الثانية ، وقضت محكمة نور نبرغ عليه مثل سائرهم بالإعدام شنقا ، وأحرقت جثته ، وذرى رمادها بالطائرة فى الهواء (١) .

إيضاح ومناقشة

بعد هذا العرض لهذه الآراء والنزعات العنصرية التى كانت وما تزال سببا جوهريا فى شقاء العنصر الإنسانى وإضلاله على وجه المعمورة ، تلك الآراء التى اتخذها كل جبار عنيد سببا وسندا لإذلال الناس وقهرهم واستعبادهم واستباحة أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، تلك التى سادت فى عصور ظلام ونحس فى ليل عاصف طويل تمطى بصلبه على أقوام زغب الحواصل لأماء ولا ريش ، وأصبحت هذه الآراء بتزويق المستلطين كأنها حتمية تاريخية ووثيقة بشرية ، من تمرد عليها يتمرد على طبيعة الخلق ، وقانون الحياة وجاء من بعدهم وعلى أثرهم أحفاد لهم ، ورثوا هذه النزعة ، واستعملوا نفس الآراء ، ورددوا عين الأفكار ليحيطوا الشعوب بضغط نفسى وثقافى وحرى ، ويجهضوا عندهم كل فكر زكى ونفس أبية ، لا يرفعون رأسا ، ولا يحيطون بشيء علما .

وإذا أردنا أن نناقش هذا الادعاء الذى يفرد الجنس الأبيض بصنع الحضارة وإعلاء الثقافة ، نجد أن هذه الأوهام ادعاءات لاتقوم على أى أساس علمى ، وأن نظرية تميز جنس على جنس إنما هى تشويش وتزييف لحقائق التاريخ والعلم ، وقد أوجز لنا عالم الأجناس البشرية جوان كوماس ذلك بقوله : إن فكرة تقسيم البشرية إلى أقسام عنصرية منفصلة بعضها على بعض فكرة غير دقيقة ، لأنها مستندة . على مقدمات منطقية زائفة ، وخاصة نظرية الدم الخاصة بالوراثة ، والتى لايقبل زيفها عن زيف النظرية العنصرية نفسها . إن انتماء شخص إلى دم معين هو عبارة لامعنى لها ؛ حيث ثبت أنه ليس هناك علاقة مطلقة بين عوامل الوراثة وبين الدم ، بل إن هذه العناصر مستقلة وهى لاتتحد فحسب ؛ ولكنها تميل إلى أن تتميز ، وليست الوراثة

(١) انظر تمهيد علم الاجتماع ص ٣٣٦ إلى ٣٤٢ .

عبارة عن سائل يسير في الدم ، وليس صحيحا ما يقال من أن دم الأيوين يتحد في المولود (١)

العرق الآرى عند غوينو وأمثاله من العرقين يبدو غامض الصفات ، غير واضح الخصائص ، فهم يعتبرون أن اكتشافهم الذى يدل على أن أصل اللغة الأوربية واحد ، يعنى الاتحاد في العرق ، وهذا لا يترتب عليه تلك النتيجة ، فإننا نجد أن بعض الشعوب تتكلم لغة واحدة ، ومع هذا ليسوا من أصل واحد ، بل من أصول متفاوتة . ثم إن هناك علامات استفهام كثيرة حول أصل العرق الآرى وحول ماهيته . فلا يستطيع أحد أن يجيب على هذه الأسئلة التى تسأل عن أصل العرق هذا ، ومن أى الأنساب انحدر ، وما سبب تفوقه ، وما علامة ذلك . ولقد تخط هؤلاء العرقيون وساروا في كل اتجاه ؛ علَّهم يلتمسون من الأسباب الواهية ما يؤدي إلى نسبة من الاقناع ، فقالوا بالقرينة الراسية والطولية كما أوضحنا . فانهارت عندما تبين أن قبائل الإسكيمو والأقوام البدائية والعرق الأسود تكثر فيهم الرؤوس المستطيلة (القرينة الرأسية عند هؤلاء — ٧٥ ، ٧١) .

ولقد قام العالم الإحصائى الإيطالى نيشفورد بإحصاء على الطبقات الفقيرة والغنية ؛ فوجد أن الطبقات الفقيرة والغنية تتألف من الس المستطيلة والمستديرة معا على السواء ، دون أن تكون درجة الغنى أو الفقر تابعة لمقدار القرينة الرأسية^(٢) .

وكذلك عمد الدكتور برسوتر إلى مختلف الطبقات الاجتماعية ، ليجرى عليها التجربة نفسها ، وكان إجراء هذه التجربة على المجتمع الإنكليزى ، فوجد أن القرينة الرأسية بين الطبقات العالية من المصلحين والأشراف تتساوى مع طبقة المنحرفين والخالملين .

هذا وقد أجرى كارل بيرسون إحصاء على ألف مجاز من جامعة كمبرج وخمسمائة طالب ، فلم يجد أى علاقة بين لون الشعر ، ودرجة الذكاء ،^(٣) بل على

(١) المرجع السابق — ٣٥٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تمهيد علم الاجتماع للبابلسى ص ٣٥١ .

العكس وجد بعض العلماء فى ذرية بعض الأسر المشهورة بالانحراف والعته والبله ، بعض الأطفال شقر ، وبعضهم سمر ، وقد أجرى إحصاء للعباقر فى الجزر البريطانية ؛ ليعرف نسبة الشقر فيهم ، ونسبة السمر فكانت النتيجة مخيبة للآمال ، إذ وجد أن عدد العباقر — ٤٢٤ ، وكانت ألوانهم كالآتى :

٧١ — شقراً ، ٩٩ — كستناويا ، ٥٤ — وسطاً ، ٨٥ — قائماً ، ١١٥ — أسمر .

وهذا بلا شك دليل على عكس تلك النظرية التى تقصر العبقرية على اللون الأشقر . ولهذا نرى ولتر يقول : إنه جائز جداً أن أجناس البشرية الأكثر قدماً كانت كلها معتمة اللون أو سوداء . وأن الشقرة شئ جديد ، علينا ألا نفترض أن الكائنات الإنسانية فى المنطقة الآسيوية الشرقية كانت تتفرع من اتجاه واحد ، وأن جميع الكائنات الإنسانية فى أفريقيا كانت تتفرع فى اتجاه آخر^(١).

على أننا حينما نتساءل عن الدور الحضارى التاريخى المتقدم الذى قام به هذا الجنس ، نجد أن هذا الجنس على طول التاريخ وقف متفرجاً بل كان قليل التأثير بالحضارات التى جاورته ، وكان عالة عليها ، وقد أقر بهذا صاحب قصة الحضارة — ول ديورانت — حيث يقول : وقصارى القول : إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة لإنشاء ؛ لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة الفن والعلم ، تلك التى مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغائهم التجارة والحرب ، فإذا درسنا الشرق الأدنى ، وعظمتنا شأنه ؛ فإننا بذلك نعرف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد^(٢).

(١) معالم تاريخ الإنسانية ٥ — ج ، ولتر ١ / ١٢٥ تعريب عبد العزيز توفيق ط لجنة التأليف .

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت ٢ / ١٠ ترجمة بدران ط لجنة الترجمة والنشر .

ثم جاء بعد هؤلاء — أرنولد توينبى — ليهدم تلك النظرية ، ويهيل عليها التراب بطريقته الذكية فيقول : إن علماء الأجناس يقسمون الجنس الأبيض إلى أقسام على أساس نماذجهم الخلقية . ففيهم ذووا الرؤوس الطويلة ، وذووا الرؤوس المستديرة ، وفيهم الأبيض والأسمر ، إلى آخر هذه التنوعات .

وينتهى بهم الأمر إلى تقسيم الجنس الأبيض إلى ثلاث فصائل هي : النوردية — والألبية — والبحرية المتوسطة ، وسنقبل هذا التقسيم على علاته ، وسنحصى عدد الحضارات التي أسهمت فيها هذه الفصائل بأنصبة إيجابية .

فأما النورديون أى الشماليون ؛ فقد أسهموا في أربع حضارات — ربما خمس ، هي الهندية ، والهليلنية أى الأفريقية ، والغربية ، والروسية القائمة على المسيحية الأرثوذكسية ، وربما الخيشية .

وساهم الألبين في سبع حضارات وربما تسع — هي السومرية ، والخيشية ، والهليلنية ، والغربية ، والروسية ، وأصلها الذى انطلقت منه ، وهي الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، والحضارة الإيرانية ، وربما المصرية ، والميناوية .

وساهم الجنس البحرى المتوسط فى أحد عشر هى : المصرية ، والسومرية ، والمساوية ، والسرانية ، والهليلنية ، والإغريقية ، والغربية ، والمسيحية ، والأرثوذكسية ، والعربية ، والهابلية .

فأما الجنس الأسمر ويشمل الدراويدى الهندى وأهل الملايو ، ومنهم الجاديون ، أى الأندونيسيون ؛ فقد ساهم فى حضارتين : الهندية ، والهندولية ؛ ساهم الجنس الأصفر فى ثلاث الصينية ، وحضارتى الشرق الأقصى ، ووليدتها اليابانية .

أما الجنس الأسمر فلم يسهم إلى اليوم فى حضارة ما .

فالجنس الأبيض على هذا الإحصاء أسهم أكبر من غيره فى إنشاء الحضارات ، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أن هناك فصائل من البيض لم يسهموا فى أى حضارة ، وهي فى ذلك والجنس الأسود سواء .

وإذا كنا نستطيع أن نخرج بشيء إيجابي من هذا الإحصاء لخرجنا بأن نصف حضارتنا قامت بمشاركات أكثر من جنس واحد ، فكل من الحضارتين الغربية واليونانية ساهمت في إقامة صرحها ثلاثة أجناس ، وإذا نحن قسمنا الجنس الأصفر والأسمر إلى فضائل فرعية كما فعلنا مع الجنس الأبيض ؛ لأمكننا أن نخرج من ذلك بالقول بأن كل حضارتنا قامت بمساهمة أجناس مختلفة ، وأنا لا نجد جنسا مفردا قام وحده ببناء حضارة كاملة^(١)

وهذا يتضح أن توينبي يعارض هؤلاء العرقيين بالدليل والبرهان ، على أننا لانسلم له هذا الدليل الدكي ، وهذا البرهان المغلف .

فإنه ينسب إلى النوردين حضارات لم يثبت أنهم اشتركوا فيها ، أو قاموا عليها ، أو سمعوا بها إلا من المؤرخين في العصر الحديث ، فإن الغربيين كانوا يجهلون حضارة الهند ، ولا يعرفون عنها شيئا ، إلى أن جاء القرن السابع عشر وفتح الطريق إلى الهند مبشر هولندي اسمه إبراهيم بروجر ، ولكنه لم يهضم حضارتهم أو يستوعب مدنياتهم ، ووصف أهل الهند بالوثنية والخبث ، وألف كتابا أسماه « باب مفتوح إلى الوثنية الخبيثة سنة ١٦٥١ م وفي سنة ١٧٨٩ أى في القرن الثامن عشر ، بدأ سير وليم جوترسير حياته كعالم عظيم في شؤون الهند ، وأخذ يتفهم حضارتها^(٢) ويكتب عنها ويعرفها للأوروبيين .

فكيف إذا أثر الأوروبيون أو الجنس الآرى في هذه الحضارة ، أو اشتركوا فيها ، وقد كانوا لا يعرفون عنها شيئا ، وللحضارة الهندية خصائصها التي لم نجد منها شيئا في الحضارة الأوروبية .

ولهذا يقول أصحاب تاريخ الحضارة العام « لحضارة الهند خصائص استثنائية تميزها عن أى حضارة ، إذ هي لا تزال حية حتى أيامنا هذه ، دون أن تتخلى عن خصائصها التي عرفت بها من أوائل التاريخ^(٣) .

(١) مختصر دراسة التاريخ أرنولد توينبي ١ / ٩٠١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) قصة الحضارة ٣ / ٢٩١ ، وما بعدها .

(٣) تاريخ الحضارة العام ١ / ١٣٢ أندريه إيجار ، حانين أو بولية ط منشورات عويدات .

ثم بعد ذلك ينسب إليهم ساهموا في الحضارة الهيلينية ، وهذا لعمري غريب في التاريخ ، إذ الحضارة الهيلينية هي حضارة الإسكندر ، الذى بنى إمبراطوريته في الشرق ، الذى كان موطن فتحه العسكرى ، وأخذ منه كثيرا من تعاليمه وأخلاقه ، وقد كان الإسكندر تلميذا لأرسطو الذى رأيناه يدعو إلى العنصرية ، ولكن الإسكندر كان على خلاف ذلك ، وهذا بتأثير الشرق وأخلاق الشرق ، ولنسمع قول أصحاب تاريخ الحضارة العام في ذلك ، حيث يقولون : « للمرة الأولى في التاريخ يسير الإسكندر بأخلاق فريدة في الشرق ، في وحدة واحدة عظيمة في الحياة والأخلاق والأذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التى مالبت أن عادت إلى الظهور مرة أخرى ،^(١) وليس من ريب أن الإسكندر سار على النهج الشرقى في دياناته وأسلوبه ، حتى جعل نفسه معبودا . » فيقول تاريخ الحضارة « جرت محاولات رضى عنها الإسكندر في حياته وشجعها لإقامة عبادة لشخصه^(٢) »

ثم مالبت الإسكندر أن استوطن الشرق ، ومات في الشرق ، وقامت حضارته في الشرق ، على أيدي شرقيين ، ودفن في الإسكندرية في دلتا مصر ، وشيد له ضريح ضخم غدا مركزا لعبادته التى فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر . وكانت الأسكندرية محور حضارته ومركزها .

وعلى هذا المنوال سار أرنولد توينبى ، يجمع للآريين والألبين الحضارات . ويدعى اشتراكهم فيها ، حتى أنه ادعى للألبين الاشتراك في الحضارة المصرية ، وكأنه عكس الآية تماما وخالف صراحة ول ديورانت في تصريحه الذى قدمناه واعترف فيه أن الآريين لم يشيدوا شيئا من الحضارة ، إنما أخذوها عن بابل ومصر .

وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة لإنشاء ؛ لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، بل إنهم بددوها ، ولم يبنوا عليها ، بل كانوا كتعبيره الوارث المدلل المتلاف للذخيرة لم يتعب نفسه في اختراعها .

(١) المرجع السابق ١ / ٤٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٠ / ٤٣١ .

نعرات تصاحب الاستعمار

وهذه الآراء والادعاءات المغرورة تصاحب دائما الشعوب المتفوقة أو الغالبة ، ولا تعتبر الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى شيئا جديدا على هذا المنوال ، بل تعتبر كحمار الرحى ، يدور مع الغالب حيث دار ، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية فاق المستعمرون اليابانيون المستعمرين الغربيين ، عندما حلوا محلهم لفترة قصيرة ، وفي نفس الوقت بينما كان الناس في أمريكا الشمالية ينظرون إلى اليابانيين على أنهم شعب قدير ذكى نشط . إلا أنهم كانوا ينظرون إليهم تحت وطأة الحرب العالمية الثانية على أنهم شعب ماكر خائن ، ثم دارت الأيام ، وأصبحوا ينظرون إلى اليابانيين في الوقت الحاضر بالإعجاب بسبب مهارتهم في الإلكترونيات وغيرها .

وفي الهند كان الهنود الأمريكيون ينظرون إلى الوطنيين على أنهم شيء قدر غير متحضر ، وفي نفس الوقت كان المفكرون الهنود ينظرون إلى الأمريكيين باحتقار ، على أنهم أجلاف ماديون يعوزهم الفكر الحضارى .

وقد نجد عجبا إذ ننظر إلى هذا في الشعب الواحد ، فبعض الناس يظن أن بعض المدن أعلى من البعض الآخر ، بل بعض العائلات أحسن عرقا من بعض ، لأسباب واهية ، لأن منها ضابطا كبيرا ، أو موظفا محترما ، أو غنيا مرموقا ، أو شيئا من ذلك . ويعلق توماس باتريك مياليدى على هذه العادة بقوله : « إن هذه العادة القديمة ليست عادة تنتقل من مكان إلى مكان فحسب ، ولكنها قد تنشأ في نفس المكان .

ففي جزر الأنيتيل الكبرى ، بعد أن اكتشفت أمريكا بسنوات قليلة ، كان المستكشفون الأسبان يوفدون الجماعات ليتأكدوا ما إذا كان للوطنيين أرواح . بينما كان الوطنيون يقومون بإغراق الأسرى البيض ، ليتأكدوا ما إذا كان العفن سيصيب جثثهم أم لا .

إن هذا العجز عن تقبل هذا النوع الإنسانى وتقديره هو علامة على الوحشية البدائية ، قد يحصر إنسان في جماعة متشابهة معه ينظر إلى أعضاء قبيلتها المجاورة على

أنهم أقل منه ، وأقل من البشر ، وعلى أنهم متوحشون^(١)»

وهكذا تطل علينا الوحشية والبدائية في ثوب جديد فضفاض ، وفي كلام منمق يُقَعَّد له ويقول علماء وباحثون ، لا جهلة مغمورون ، باسم المدنية والثقافة والحضارة ، فيالها من مغالطة تستحق الانتباه والدراسة .

ولهذا ننظر إلى تدرج تلك الفكرة ، وإلى سيرها ، ومدها العنصرى ؛ فنجدها تصل إلى آماذ من التفكير عجيبة وعميقة ، تدل على مدى ما وصلت إليه من إهانة واستعباد ، يحدثنا عن ذلك ويفسره ميليدى ، بقوله^(٢) : إن للهوة التى تفصل الغرب عن غير الغرب أو الأبيض عن غير الأبيض جذورا ليست ذات صبغة تاريخية ودبلوماسية ولغوية فحسب ، بل إن لها صبغة اقتصادية وسياسية وروحية .

وبلغة الاقتصاد نقول : إن هناك قلقا من جهة المعونة الاقتصادية ، فهناك إحساس بأن المعونة الأمريكية الممنوحة إلى دول الشرق لا تقارن بمعونة مشروع مارشال^(٣) الضخمة ، وهنا يرد الغرب ويقول : إن البلاد المتقدمة يمكن أن تمتص المعونة بوعى أكثر من البلاد المتخلفة ، فضلا عن ذلك فهناك اختلاف فى المقاييس التى تستخدم فى توزيع المعونة ، فهى تعطى لدول الغرب على أساس الكفاية ، أما مع غير الغرب فإنها تقاس على أساس فقد جزء من الكرامة القومية .

إذاً فهذه النظرة العنصرية قصد منها فى الحقيقة الاستعباد والقهر لشعوب آمنة ، كل ذنبها أنها قصت أظافرها ، بينما تعهد غيرها بمخالبه . وألقت سلاحها ، بينما اخترع غيرها ما يهلك الحرث والنسل ، ونامت فترة ، ولكن الوحوش الكاسرة باتت تعد العدة بليل للفتك والصيد .

وفى ضوء هذه الحقيقة نرى أن أصحاب هذه النظريات يتعلقون بها ويتذكرونها على استحياء ، بعد ما ظهر لكل ذى عينين أن هذه الأفكار صدرت من عقول

(١) الحرب النفسية صلاح نصر ٢ / ٣٢٨ ، ٣٣٠ .

(٢) هامش الحروب النفسية ٢ / ٣٢١ .

(٣) فكرة عن مشروع مارشال ، وهو مشروع اقتصادى يهدف إلى رواج مخزون الصناعة الأمريكية فى الدول الغربية ، وفى نفس الوقت يكون مساعدة لها على صعوباتها الاقتصادية .

متعصبة متأثرة بالجهل أو الكره أو التعصب والغرور ، ولكن الأهم من هذا كله هو أن الشعوب الملونة هبت من رقادها ، وتقدمت نحو مستقبلها وحضارتها بخطى ثابتة وإصرار وحزم ، أرغمت الكثيرين على إعادة حسابات كثيرة معقدة ، رسمت على أساس استغلال طويل وغزو ثقافي واقتصادي متصل الحلقات لهذه الشعوب والأمل معقود عليها أن تقيم حضارة إنسانية حقيقية في ظل قيم سليمة بعيدة عن الإباحية والاستغلال والفتك والوحشية ، التي يصبح عليها العالم كل يوم ويمسى ؛ حتى يعيش كل إنسان مطمئن النفس ، هائى البال .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة ، وأن الإنسان هو الإنسان ، لا فرق بين آريه وغيره ، من أصل واحد ودم واحد ، وهذا ماخرج به بعض المؤرخين الغربيين في تلك الأيام بعد طول بحث وعظيم جهد ، وقد أرشدنا إليه قرآننا من قديم في آية واحدة تريح الإنسانية من تيه طويل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . (١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ . (٢)



(١) المحرات : آية : رقم : ١٣ .

(٢) النساء : آية : رقم : ١ .

البحث الخامس البيئة والإنسان - جغرافيا -

ظهرت نظرية علاقة الإنسان بالبيئة ، وأخذت مكانها بجانب نظرية الجنس السابقة ، وروجت لها نفس النزعة التي اعتنقها كثير من العنصريين ، وبلغت أوجها في غضون القرون الأخيرة في المجتمع الغربى ، الذى أراد أن يضغط على تأثير العامل العنصرى فى التاريخ والحضارة ، وأراد أن يظهر فضل أرضه ووطنه وبيئته ، كما أظهر فضل جنسه ، بطريقته المعهودة ، وهى اختراع المقدمات المسلمة ليستخلص منها النتائج التى ترضى غروره وتطلعه ، ووجدوا لذلك سنداً من غطرسة اليونان القديمة وتخيلاتهم وعنصريتهم ، حيث حاولوا أن يجلدوا تفسيراً للتباين الثقافى فيما يدور حولهم فى الموقع الجغرافى والتربة والمناخ ، يروى تونبى ملخص الآراء اليونانية فى رسالة عنهم ، عنوانها « تأثيرات الجو والماء والموقع » ، وترجع الرسالة إلى القرن الخامس الميلادى ، وحفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية ، وفيها يمكن تقسيم الأشكال البشرية إلى النوع الجبلى الغزير المياه ، والنوع ذى التربة الضعيفة عديمة المياه ، ونوع المراعى ذات المستنقعات ، ونوع السهول المستصلحة جيدة الصرف ، ونحيل أبدان سكان البلد الجبلى الصخرى والغزير المياه الموجود على ارتفاع كبير — حيث يكون مجال التقلبات الجوية الموسمية واسعاً — إلى ضخامة البنية التى تتفق مع مايلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال أما سكان الأراضى المنخفضة الحارة الرطبة التى تغطيها المروج المائية ، والتى هى أكثر تعرضاً فى العادة للرياح الحارة منها إلى الباردة ، والذين يشربون ماء فاتراً ؛ فإنهم — على العكس — ليسوا أقوياء البنية ، كما أنهم ليسوا نحافاً ، ولكنهم ضخام مترهلون ذوو شعور سوداء ، ولون الوجه أقرب إلى السواد منه إلى البياض ، وهم أميل إلى الغضب منهم إلى البرود ، وليست الشجاعة

والاحتمال من الصفات الأصلية في طبائعهم ، ولكن يتأق بها فيهم بفضل تطبيق النظم الفعالة ، أما سكان البلد غير المستوى وذى الرياح الجافة وذى المياه الغزيرة والموجودة على ارتفاع كبير ؛ فهم أقوياء البنية ، ويمتقنون النزعة الفردية ، وفي طبائعهم نوع من الجبن وسهولة الانقياد .

وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشرى يتغيران وفقا لطبيعة البلد^(١) وقد تأثر ابن خلدون بالفكر الهيلينى في نظرية أثر البيئة الجغرافية على الإنسان ، فنراه في مقدمته يفرد فصلا بعنوان « المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر » ، ويقصد ابن خلدون بالهواء المناخ ، ويقسم ابن خلدون الأرض المعمورة إلى سبعة أقاليم « الثانى والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير ، والأقاليم الثلاثة متوسطة ، ولهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل الحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصا بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ، ولم نقف على خير بعثة الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فنجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثانى والسادس والسابع ، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع الأحوال ، فبنائهم بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم ، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم . حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين ، يأكل بعضهم بعضا وكذلك الصقالية « الروسى »^(٢)

(١) مختصر دراسة التاريخ لتوبنى ١ / ٩٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٢) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد واى ١ / ٣٣٠ لجنة البيان العربى المقدمة ص ٨٢ ، ٨٣ ط دار التراث بيروت ، المقدمة الثالثة في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر .

ويذهب ابن خلدون إلى أبعد من ذلك ، في فصل في مقدمه ، عنوانه « أثر الهواء في أخلاق البشر » فيقول : « قدرأينا من خلق السودان على العموم : الخفة ، والطيش ، وكثرة الطرب ، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في وضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيوانى وتفشييه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، ثم يعزو هذه إلى طبيعة البلاد الحارة ، والبخار الناتج عن هذه الحرارة .

ثم يتعرض ابن خلدون لرأى المؤرخ المسعودى في هذا الشأن ، فيقول « وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأتى بشئ جديد أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف في العقل ، وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه » (١)

وهذا كما أننا كلام ظاهر الخطأ ، يعتمد على معرفة خاطئة بطبيعة الحياة والنفس البشرية وطبيعة الأحياء ، كما أنه يسير في نفس الاتجاه اليونانى ويتأثر به ، وقد رأينا مقدار اطلاع ابن خلدون على آثار اليونان في تصحيحه لرأى المسعودى ورده إلى أصوله التى استقى منها ، وهو الفكر اليونانى ، فكر جالينوس ، ويعقوب بن إسحق الكندى ، وهذا دلالة على أن الرجل متمكن في معرفة أخبار وأفكار هؤلاء الناس ، كما أنه يلاحظ : أن ابن خلدون لا ينفرد بهذا الخطأ ، بل كانت هذه هى معلومات أهل عصره بالطب والنفس وطبيعة الحياة .

ومن المعروف أن هذه الآراء كانت تعتمد على الظنون والفروض والاستنتاجات ، وكانت أشبه ماتكون بخيالات الفلاسفة منها بالحقائق العلمية .

رأى المحدثين

هذا وإن كان ابن خلدون وقع في هذا الخطأ الذى سندر عليه ونبينه إن شاء الله — لعذر أو لجهل بطبيعة الأشياء ، ولفساد الآراء في عصره ووقوعه في مصيدة

(١) المقدمة لابن خلدون تحقيق د — على عبد الواحد واى ١ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ ط لجنة الببائ العربى .

اليونان — فما هو إذن عذر رجل فيلسوف في عصر العلم والحضارة مثل برناردشو حينما يقول بهذا الرأي ، ويقع فيما وقع فيه غيره ، إذ يستبعد مزدريا فكرة العنصر الكلتي ، وعزا جميع الاختلافات بين الإنجليز والأيرلنديين إلى الاختلاف في مناخى جزيرتيهما (١) .

ونحن لانستبعد تأثير المناخ كلية ، ولكن الإنسان يستطيع أن يتغلب عليه إذا أراد بسهولة ويسر ، ولا يكون ذلك عائقا أمام حضارة أو ثقافة ونبوغ .

رأى وول ديورانت

ويرى وول ديورانت أن العوامل الجغرافية لها تأثير على نشاط الإنسان الحضارى ، فيقول « حرارة الأقطار الاستوائية وما يحتاج تلك الأقطار من طفيليات لاتقع تحت الحصر ، ولا تهيب للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض ، وماتعرف به من نضوج مبكر وانحلال مبكر ؛ من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التى هى قوام المدنية ، ويستنفذها جميعا فى إشباع الجوع وعملية التناسل ، حيث لاتذر للإنسان شيئا من الجهد ينفعه فى ميدان الفنون وجمال التفكير ، والمطر كذلك عامل ضرورى ، إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم من ضوء الشمس .

ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم ، فقد تقضى بالجفاف على أقطار ازدهرت يوما بال عمران ، مثل نينوى وبابل ، أو قد تسرع بالخطى نحو القوة والثراء ، بمدائس هى فيما يبدو للعين بعيدة عن الطريق الرئيسى للنقل والاتصال (٢) .

وهكذا نرى أن وول ديورانت يؤيد تأثير العامل الجغرافى وسلطان البيئة على الإنسان ، بحيث يكون سببا أصيلا فى قوامه الحضارى والثقافى ، تدفعه بيئة معينة إلى القمة بما لها من تأثير عليه فى ثقافته وحركته وفاعليته . وتجذبه إلى القاع أو إلى الهاوية بما

(١) هامش وتعليق مختصر دراسة التاريخ لتونى ١ / ٩٤ ط التأليف والنشر .

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت ١ / ٣ ، ٤ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ط التأليف والنشر .

تورثه من كسل وإهمال وشهوة وجموح ، تلفته عن الجد في أساسيات الحياة وكلياتها . وبالتالي عن التفكير والعمل الحضارى .

مناقشة وإيضاح :

بعد هذا العرض الذى قدمناه عن آراء القائلين بتأثير البيئة الجغرافية على الإنسان ، نرى أنه بلا شك أن البيئة لها تأثيرها فى الشكل الحضارى الذى يبنيه الإنسان ، وفى الطباع النفسية والجسدية له ، وأن الظروف الطبيعية لها أثر فى حفز همته إلى العمل والابتكار ، أو العكس ، فالبيئة المعتدلة الجو — مثلاً أهون للإنسان على التقدم من البيئة الحارة المناخ ، وأن البيئة الباردة تحفز على العمل والنشاط والسعى ، هذا شيء ملحوظ ، ومع هذا فإن الأجواء مهما بلغت من السوء فإنها لاتقضى على النشاط الذهنى أو تقلل من قيمته عند أصحاب العزائم والهمم ، أو عند وجود الرغبة فى عمل حضارى منظم وتربية أجيال قادرة على صنع شيء ذى قيمة معينة ، ولهذا نرى أن البيئة أو المناخ ليس هو باعث الحضارة أو هو معيقها ، والأدلة على هذا مشهورة ومستفيضة ، ففى بلاد الهند وأفريقيا المدارية والاستوائية ، وهى بلاد حارة المناخ فى جملتها قامت حضارات كبرى ذات صبغة قوية تتبع من ذات المجتمعات ، وظهر فى تلك البلاد رجال نوابغ يمتازون بنشاط ذهنى وبدنى متدفق ، أمثال يوسف ابن تاشفين ، ومنسى كنكن موسى ، ملك مالى سنة ١٣٣٧ ميلادية ، ومارى جاطه سنة ١٣١٢ وكان من حكام أفريقيا العظماء ، وقد رأينا فى التاريخ حضارات كبرى ظهرت فى وسط الصحراء العربية ، مثل حضارة ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأصحاب هذه الحضارات التى سخرت كل شيء فى سبيل تحقيق المزيد من الرفاه ، وبسطت قوتها على الجبال فنحتتها ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾^(١) ، أو على الأصقاع والممالك والعباد ﴿ إذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾^(٢) ، وأقاموا المصانع والمعامل ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾^(٣)

ولدينا فى التاريخ أكبر ظاهرة أيقظت العالم ونهته من رقاد طويل ، وطوفت فى

(١) الحجر / ٨٢ (٢) الشعراء / ١٣٠ (٣) الشعراء / ١٢٩

المشارك والمغارب بالحضارة والعدل والخلق ، هذه الظاهرة تضعف الثقة القديمة في نظرية البيئة وأثرها في الإنسان . فإن العرب قد نشأوا في صحراء تشبه الصحراء الأفريقية الكبرى في كل شيء ، وتشبه صحراء جولى في الصين ، فكيف أخرجوا هذا الجنس الذى ضرب المثل عاليا في كل شيء . المتميز في خصال الذكاء والشجاعة والقوة والتحمل وتفتح الذهن في الجاهلية ، حتى أنه استطاع أن ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام ، وأن يحمل تبعات الدعوة إليه ، وأن ينجح في ذلك إلى أبعد مدى يتصوره إنسان أو يطمح إليه بشر . بل كيف استطاع هذا الشعب أن يطور لغته حتى استطاعت أن تستوعب المعانى القرآنية ، وما ضاقت عن آى بها وعظمت ، وثقافة فيها ومخترعات ، في حين لم ينشأ في الصحراء الأفريقية التى تشبهها شيء ، وكذلك في الصحراء الصينية ، وعندما أتيح لسكان صحراء جولى من المغول أن يمتدوا خارج بلادهم كان امتدادهم همجيا ، وبلاء على الناس ، وهدما للحضارة ، وسفكا للدماء ، وسحقا للحريات ، وكان الغزو المغولى نكبة هزت ضمير العالم وقلبه ، وأوقفته على حافة همجية كئيبة حالكة السواد .

فكيف اتفقت الصحارى في المناخ والبيئة واختلفت في الجنس والعقل والحضارة والثقافة والخير .

أما ماقرره ابن خلدون واستدل به على تأثير البيئة في الإنسان سلبا وإيجابا ، فهو كلام غير دقيق ، يتناسى حقائق كثيرة عاشها التاريخ العربى ، ويعيشها العالم اليوم .

فابن خلدون يستدل على تأثير البيئة السلبى في السودان بطيشهم وميلهم إلى اللهو . ونقول في الرد على هذا ما أثبتناه من أن المناطق الحارة ظهر فيها كثير من الرجال والحضارات مابلق القمة ، وأن للطيش واللهو عوامل أخرى كثيرة ، فقد يأتي من الفراغ وفقدان الغاية ، كما كان في العصر الجاهلى ، تقوم الحروب ويسل السلاح لأتفه الأسباب ، حتى تأكل الأخضر واليابس ، وما حرب داحس والغبراء أو حرب البسوس بخافية على أحد ، وليست مجتمعات الإماماء والشرب والجنس والرقص والغناء بشيء خفى في دنيا الجاهلية العربية .

وقد يكون الباعث على ذلك الاعتداد بالنفس ومجازة الحد في الغرور والحمية ، وقد يكون لفراغ وتنفيس عن طاقة مكبوتة ، وقد يكون لبعد الثقافة وغياب التجربة وفقدان الدليل والمرشد، هذا ونحن نعيش اليوم موجات من الطيش تترى بعضها إثر بعض ، حارت في تفسيرها العقول السليمة والبحوث المتصلة ، فهل هذا من تأثير البيئة أو المناخ ، أم من ضياع النهج السليم والطريق المستقيم .

وينرى الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي توينبى لإبطال هذه النظرية ، فيضرب لذلك أمثلة أخرى كثيرة ، يستخرجها من استقرائه المتصل في الحضارات المختلفة ، وفي دراسة حال الشعوب المتنوعة ، ليدلل على أن البيئة وحدها لاتصنع الجماعة المتحضرة ، ويضيف أن بعض العلماء يذهب إلى أن حضارة الصين إنما هي من صنع وادى النهر الأصفر ، وكل حجتهم في ذلك أنها قامت في حوض هذا النهر ، ويقول : إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تنشأ في حوض نهر الدانوب حضارة مماثلة ، مع تشابه الظروف المناخية والطبيعية .

ولقد نشأت حضارة ألمانيا في بيئة استوائية عامرة بالزروع في جواتيمالا ، وهندوراس البريطانية التي تعرف اليوم باسم يلز ، ولكننا لا نجد حضارة أخرى مشابهة لها في حوض الأمزون والكنغو ، مع أن الظروف البيئية واحدة ، وإذا قيل : إن منطقة جواتيمالا تقع على خط عرض ١٥ شمالا في حين أن الأمزون والكنغو يقعان في المنطقة الاستوائية ؛ قلنا إنما نجد في نفس المنطقة الاستوائية عند كمبوديا حضارة زاهرة ، ولا تزال أثارها ظاهرة في موقع المنحكورات في قلب المنطقة الاستوائية ، وإن كانت الأبحاث الأركيولوجية قد دلت على أن حضارة المنحكورات إنما هي وليدة بعيدة للحضارة الهندية . ثم يختم توينبى كلامه قائلا « إنما نستطيع الاستمرار في هذه الدراسة إلى مدى بعيد ، ولكننا قلنا ما فيه الكفاية ؛ لنقنع القارىء بأن البيئة وحدها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسى لتلك الحركات الحضارية التى أيقظت الإنسانية من سباتها الراكد ، ورفعتها إلى مستوى المجتمعات البدائية ، ثم مضت بها في مناصرة الحضارة قدما خلال آلاف السنوات الستة الماضية . وعلى أية حال : فإنه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتى الآن قد قدما أو يمكن أن يقدم أى دليل عن سبب حدوث هذا التحول العظيم في التاريخ البشرى ، لا في أماكن معينة فحسب ؛ بل

أيضا في تواريخ معينة^(١).

ويظهر لنا بدليل توينبى فساد قول ديورانت ، وكذلك قام الدليل على خلاف ذلك بقيام الحضارات في بعض تلك المناطق دون بعض ، كما قامت حضارات في بعض الأماكن المعتدلة دون بعض ، والحقيقة أن تأثير الجنس أو البيئة على ثقافة الإنسان وعلى حضارته ضئيل جدا ؛ بحيث لا يعد عاملا من عوامل بعث الحضارة أو ركودها ، وإنما السبب يكمن في الإنسان نفسه كجنس أعطاه الله العقل ، وسخر له مافي الأرض ، وذلّلها له ، ليسعى عليها ويأكل من رزق ربه ، ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ (٢).

ونحن لا ننكر أن البيئة عامل مساعد ومناخ جيد للحضارات ، ولكننا لا نقول : إنها العامل الأساسي أو السبب الرئيسي ، كما يقول الآخرون ، وينسبون إليها أنها المحرك والدافع والعنصر الأصيل في بناء الحضارة ، فهدمون بذلك حقا من حقوق الإنسان وقيمة من قيمه .

ثم ماذا نقول في نظرية « التحدى » التي بنى عليها كثير من العلماء قيام الحضارات ، أليست ضد نظرية البيئة ، حيث تقول فحوى هذه النظرية : إن سبب وجود الحضارة هو وجود الإنسان في وضع غير ملائم ، فيضطر إلى إعمال فكره والتغلب على المصاعب ، فيقهرها ويذلّلها فيرتقى بذلك عقله ومخترعاته .

ولعلمهم يواكبون بذلك نظرية المناعة بالتلقيح الجرثومي ، الذي يعطيه الطبيب للمريض ، فيتدرب الجسم على الكفاح ومقاومة المرض فيقوى ويصح .

ومأخوذ أن نصل إليه هو أن نعطي صاحب الحضارة وهو الإنسان المقام الأول في بنائها ، وأنه سبب رفعته أو شقائه ، وهذا هو فحوى رسالات السماء ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (٣) ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٤) .

(٢) سبأ / ١٥ .

(١) مختصر التاريخ لتوينبى ١ / ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) الشورى : ٣٠ .

(٤) الروم : ٤١ .

الفصل الثانی

**والتفسير الحضاري للتاريخ
وكيفية قيام الحضارات**

المبحث الأول تعريف التاريخ

يتفق الباحثون والمؤرخون على اختلاف مشاربهم ومدارسهم في تعريف التاريخ بأنه : هو دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض من ظهور الإنسان على هذا الكوكب إلى يومنا هذا .

الميدان الفعلي للتاريخ :

وعلم التاريخ بهذا المعنى يستتبع الإحاطة الكافية بالخلق الإنسانى وظروفه من نواحي كثيرة ، من ناحية تاريخ الأرض نفسها ، بمائها وهوائها ونباتها وحيواناتها ومناخها ومناطقها الصالحة وغير الصالحة .

من ناحية بدء حياة الإنسان وتطورها وظروفها واستقرارها ، وما واجهته من متاعب ، وما تغلبت عليه من عقبات ، أو وقف أمامها من صعاب ، وما أثر فيها من حوادث ، وطوعته من عادات ، من ناحية نشاطه وعمله واستفادته وانتفاعه مما يسر له وأنشئ من أجله ، من ناحية علاقته ببنى جنسه سلماً أو حرباً ، تعاوناً أو شقاقاً ، وما يستتبع ذلك من قوانين بين الأفراد والجماعات والدول .

من ناحية الأزمنة التى قطعها الإنسان فى كل فترة من فترات حياته ، وكل مسيرة فى ركب الحضارة مرت على وجه الأرض صعوداً أو هبوطاً .

التاريخ بين عهدين :—

وقد كان التاريخ فى مفهومه قديماً يطلق على دراسة ما مضى وفات من الأحداث ، كقيام الدول وتعاقب الملوك على عروشها ، وما جد من أحداث جسام :

كالجروب ، والغارات ، والهجرات ، ونوازل الطبيعة : من فيضانات ، وزلازل ، وقحط ، وجذب ، ويسر ، ورخاء ، وما لا بد من ذكره ، ولا سبيل إلى إهمال أمره ، كما يقول المسعودى المؤرخ العربى الشهير .

وكانوا كذلك يلحقون بالتاريخ سير عظماء الرجال ونباء الأقسام ، من قادة ، وشعراء ، وفصحاء ، وبلغاء ، وما يؤثر عنهم من أعمال وأفعال وأقوال ، يعبر عنه هذا المؤرخ والعالم شمس الدين السخاوى فى كتابه المسمى « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، فيقول : ويلحق بالتاريخ ما يتفق من الحوادث ، والوقائع الجليلة ، من ظهور ملحة ، وتحديد فرض ، وخليفة ، ووزير ، وغزوة ، وملحمة ، وحرب ، وفتح بلد ، أو انتزاعه ممن تغلب عليه ، وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من الأمور الماضية ، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتى ، أو دُونها كبناء جامع ، أو مدرسة ، أو قنطرة ، أو رصيف ، أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، أو خفى سماوى ، كجراد ، وكسوف ، وخسوف ، أو أراضى كزلزلة ، أو حريق ، وسيل ، وطوفان ، وقحط ، وطاعون ، وموتان ، وغيرها من الكربات العظام والعجائب الجسم . والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ... بل عما كان فى العالم^(١) . وقد كان لا يعرف للتاريخ شئ حتى قبل الميلاد ، ثم بدأ بالخيالات والقصص ، ثم بتدوين الحوادث وأخبار الملوك والحروب والنوازل ، وقد ظل علم التاريخ على هذا المفهوم قرونا طويلة ، إلى أن جاء هيردوت فظهر هناك فرق قليل بين القصص والتاريخ ، ولكن ظل الخط الفاصل بين التاريخ والقصص والتخيل غير واضح طوال العصور القديمة والوسطى ، وظل المؤرخون الكبار منهم والصغار رواة أساطير للتسلية والمتعة أشبه بألف ليلة وليلة وغيرها ، وظل هذا كله يروى على أنه تاريخ ، وقد رأينا حتى فى تراثنا العربى أمثال المسعودى فى كتابه « أخبار الزمان ومن أباداة الحداث^(٢) » يروى أمثال

(١) السخاوى « الإعلان بالتوبيخ » عن الحضارة لحسين مؤنس / ٦٦ منسوب إلى د - د - صالح أحمد العلى فى ترجمته لكتاب فرانس روزنتال : تاريخ علم التاريخ عند المسلمين ط - بغداد سنة ١٩٣١ ص ٣٨٥ .

(٢) المسعودى المؤرخ هو على بن الحسين بن على أبو الحسن المسعودى من ذرية عبد الله بن مسعود . مؤرخ رحالة ، بحالة من أهل بغداد ، وأقام بمصر وتوفى بها سنة ٣٤٦ .

ذلك من الأفاصيص والحكايات ، ورغم أن المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » كان جيداً فى مؤلفه إلى حد الإعجاب ، حتى عد من عيون الكتب التاريخية فى المكتبة العربية ؛ إلا أنه رغم ذلك ظل التاريخ فى هذا المؤلف العظيم مختلطاً بالأساطير وغيرها .

وعلى هذا النحو سار كثير من المؤرخين العرب إلى أن جاء ابن خلدون ، فكان بحق علامة بارزة على طريق البحث التاريخى ، وكان من نتاج اطلاع الغرب على جهوده التاريخية أن تغيرت نظرتهم فيما يتعلق بنشأة العلوم الاجتماعية وتاريخ هذه النشأة ، « فقد كانوا يزعمون مثلاً أن فيكو Vico هو أول من بحث فى فلسفة التاريخ ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وأنه أقام دراسته لتطور الحضارة الإنسانية ، أى ما يسمونه « فلسفة التاريخ » على دعائم علمية قوية ، لا يذكر بجانبها ما اتخذوه فيكو أساساً لبحوثه » (١) .

والحقيقة أن علم التاريخ بدأ عند المسلمين مستقل الشخصية ، واضح الخصائص ؛ لأنه بدأ بأصول ثابتة صحيحة بعيدة عن الكذب والاختراع ، لأنه نشأ على الأصول التى نشأ عليها علم الحديث ، وهى الضبط والدقة والأمانة والصدق ، بدأ التاريخ بالسيرة النبوية ، وهى فى ذاتها أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وتقريراته ، ومغازيه ، وجهاده ، وتوجيهاته ﷺ ، وما صاحب ذلك من استحسان واستهجان وإرشاد ، وقد التزم ذلك الأخباريون الأوائل الذين مهدوا لكتابة السيرة ، أمثال أبان بن عثمان (٢) ، وعبيد بن شربه (٣) ، وعروة بن الزبير (٤) ، ثم جاء بعدهم موسى بن عقبة (٥) ، والواقدي ، ثم جاء محمد بن إسحاق (٦) المطلبى ، فكتب سيرة النبى ﷺ

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق د / عبد الواحد واى / ١ / ١٧٦ ، ١٨٠ .

(٢) أبان بن عثمان بن عفان الأموى أبو سعيد . مات سنة ١٠٥ .

(٣) عبيد بن شربه الجهمى ، راوية من المعمرين ، أدرك الطب ، عاش إلى أيام ابن مروان .

(٤) عروة بن الزبير بن العوام بن حويلد بن أسد بن عبد العزى توفى ٩٤ وقيل ٩٩ هـ .

(٥) موسى بن عقبة الأسدى المدنى من صغار التابعين توفى سنة ١٤١ .

(٦) هو ابن يسار المطلب من أقدم مؤرخى العرب .

ملتزموا الدقة والأمانة قدر ما استطاع ، فأخذ عن الثقات ، وعن الذين عايشوا هؤلاء الثقات وأخذوا عنهم .

ولكن كيف دخلت القصص والأساطير التي شابت علم التاريخ بعد ذلك عند المسلمين ؟ دخلت هذه في مؤلفات المسلمين من عند غيرهم ، وعن غير طريقهم من الأخبار التي لم يعايشوها ، ولم يكن عندهم منها علم أو دراية ، فاضطروا إلى أخذها من غيرهم من أهل الكتاب ، أصحاب الأساطير الملفقة ، والأخبار المزورة ، مع أن الرسول ﷺ شككهم في ذلك « أى في أخبار أهل الكتاب » ، وقال : « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم »^(١) ، ودخلت هذه الأساطير عن طريق المفسرين عند الكلام عن الأمم السابقة في القرآن الكريم ، وما ورد من أخبارهم ولم يجدوا تفصيل ذلك في القرآن الكريم ، فالتمسوا ذلك فيما روى عن الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى ، وفي الحكايات التي كان يتناولها الفرس والإغريق وغيرهم ممن دخلوا الإسلام ، وساعد على ذلك دخول طائفة من أهل الكتاب في الإسلام ، واشتغالهم بالعلوم الدينية ، فلما وجدوا ما اقتبسوه المسلمون من كتبهم وضعوا ما عندهم من رصيد ضخم من هذه الأساطير في التفاسير ، وسمى ذلك فيما بعد « بالإسرائيليات » ، وجاء من بعدهم من المفسرين طبقة أدركوا خطورة ذلك وحاولوا تنقية ما أحاط بهذه العلوم من غبش وظلام ، وأما عند الغرب ، فقد احتاج التاريخ عندهم إلى قرون طويلة لكي تظهر شخصيته ، ويستقل ، ويقدم علما كاملا له أصوله ومناهجه وقواعده .

هذا وسنلقى عليه الضوء بما يظهر ذلك فيما بعد ، والله الموفق .

العلاقة بين الماضي والمستقبل

وإذا كان التاريخ هو دراسة للتجربة الإنسانية في الماضي على هذا الكوكب ؛ فما علاقتنا به ، وما هي الحكمة من هذه الدراسة ؟ أفليس الماضي قد

(١) رواه البخارى في كتاب الشهادات ٢٩ تفسير ٢ / ١١ اعتصام — ٣٥ توحيد — ٥١ ، فتح البارى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، إخراج محب الدين الخطيب ٥ / ٢٩٢ ، ٨ / ١٧٠ ط دار المعرفة بيروت .

ولى بحيره وشره وعجره وبحره ، أو ليس الذى يقف على عقبات الماضى كالواقف على الأطلال الدارسة والرسوم البالية ، يناجها ولا ترد عليه ، ويخاطبها ولا تسمع منه ، لا يأخذ منها إلا الحسرة أو الشجن ، أفما كان الأولى به أن يستشرف للواقع ، ويسير فى ركب الحياة ونهرها الجارى وتيارها المتدفق ؟ .

نقول : نعم إن دراسة التاريخ هى دراسة للماضى ، وبحث فى التجربة الإنسانية الفاتنة ، ومعرفة للمستور منها ، ولكن هذا ليس كالأطلال ولا كالهشيم الذى تذروه الرياح ، وإنما هو كالجذر للشجرة الباسقة ، وكالتجربة للإنسان الحصيف ، وكالخبوء فى داخل النفس المطمئنة ، فتحقق معرفته ترشيدا لمستقبل الإنسانية ومعرفة لطبيعتها ، وفى هذا يقول الحق سبحانه ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ﴾ ^(١) وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ^(٢) فمن الاستفادة التى لاتبارى أن يدرس الإنسان التاريخ العام ، ويتتبع آيات الله فى الآفاق ، ويتدبر أحوال الأمم ، كيف تقوم ، وكيف تنهار ، وكيف تتقلب بين ازدهار وانحدار ، والله سبحانه وتعالى يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة ، وأن يكون لهم وعى حصيف يوجههم إلى الانتفاع بها والاستفادة منها ، فيقول ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ^(٣) يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسير فى الدنيا بعقل ، وأن نستفيد من معارف الآخرين ، وأن نأخذ تجاربهم ، ونخرج إلى الحياة مسلحين ، ومن التطواف المحمص والوعى هنا وهناك ، يعود الإنسان بثروة طائلة من الأفكار والآراء والوقائع ، ومن أجل ذلك يندب للإنسان عامة ، والمسلم خاصة ، السياحة الواسعة ، والرحلات الطويلة ، والضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، والعلم ،

(١) هود — ١٢٠ .

(٢) إبراهيم — ٤٥ .

(٣) الحج : ٤٦ .

والاستفادة ، والدراسة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ . هَذَا يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ وَهْدَى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١) ، ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾^(٢) وهكذا يدعو القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة ، ومعرفة علل فنائها ، وجوانب الخير والشر فيها ، حتى نتجنب مواطن الزلل التي أودت بالأولين ، وأطاحت بالمتقدمين ، وعصفت بهم ، ونكبت ديارهم ، وهدمت أوطانهم .

وما أصدق القائل العربى :

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

« وفى هذا يقول أرنست كاسيرر : إن الإنسان لا يستطيع أن يشكل صورة المستقبل دون أن يكون واعياً بظروفه الحاضرة وعمق ماضية . ويقول ليبنتز « يتراجع المرء كى يثب عالياً » ،^(٣) أى لابد للإنسان من الرجوع إلى الماضى ليقفز إلى المستقبل . ولقد صاغ هرقليطس هذه الحكمة للعالم المادى حين قال : « الصعود والنزول كلاهما شئ واحد »^(٤) ، أى أن الماضى والمستقبل شئ واحد ، ثم يقول أرنست : « التاريخ لا يتنبأ بالأحداث المقبلة ، وكل ما يستطيعه هو أن يفسر الماضى ، إلا أن الحياة الإنسانية نظام عضوى يفسر بعضه بعضاً ، وإذا فإن فهمنا جديداً للماضى يمنحنا فى الوقت نفسه استشرافاً جديداً للمستقبل ، وهذا بدوره يغدو حافظاً فى الحياة الفكرية والاجتماعية »^(٥)

(١) آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨ .

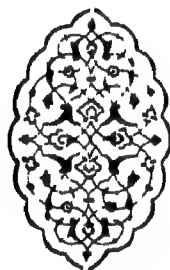
(٢) غافر : ٢١ .

(٣) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية أرنست ص ٢٠٥ ترجمة الدكتور إحسان عباس دار الأندلس ببيروت .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

والإنسان يخرج إلى الدنيا لا يرى المستقبل ، وإنما يرى الحاضر متصلا
بالماضى ، يقرأ فى والديه وفى أجداده وفى العادات الموروثة والعبادة القائمة والطقوس
المتداولة ، يقرأ كتب الماضين وأخبار الغابرين ، ويرى آثارهم وأعمالهم ، ويسمع
سيرهم وقصصهم ، ويعايش تراثهم ، فيُنقش على صفحته كثير من صداهم ورجع
أفكارهم ، ويجده مستعدا لذلك ، لأن فيه من دمائهم وعرقهم وموروثاتهم ، وهو
امتداد أصيل لهم ، يتغذى على لبنانهم ، وينهل من رحيقهم ، فإذا استطاع أن يدرس
تاريخهم ويعرف أفكارهم لينظر فيها ويمحصها ويذكرها بروح عصره ومصباح زمانه ؛
ثبتت جذوره ، وبسق فرعه ، وصلح ثمره ، وطاب جناه .



المبحث الثانى

حقيقة التاريخ ومصادره

التاريخ كحوادث وكإداة موجود قبل وجود الإنسان ، كما شرحنا وأبنا فى تعريف التاريخ ، ولكن مانسميه اليوم بالوعى التاريخى أو التدوين التاريخى معرفتنا به حديثة جدا ، وإن كانت قبل ذلك معلومة للقدماء من المصريين والآشوريين وغيرهم ، فإنهم كانوا يدونون تاريخهم وتاريخ حروبهم وحوادثهم على جدران معابدهم ومبانيهم بطرقهم الخاصة وفهمهم المعين للتاريخ ، ولكن هذه الكشف وهذه الأسرار لم تظهر لنا إلا حديثا ، ولم تُحَلَّ رموزها إلا قريبا ، عند ابتداء النهضة التاريخية والعلمية الحديثة . وفى هذا يقول أرنست كاسيرر (أمّا مانسميه « الوعى التاريخى » فإنه نتاج متأخر من نتائج المدنية الإنسانية ، وليس له وجود قبل عصر الكبار من المؤرخين اليونان ، بل حتى المفكرون الإغريق أنفسهم لم يكونوا يستطيعون أن يقدموا تحليلا فلسفيا للشكل المعين من الفكر التاريخى ، ولم يظهر مثل هذا التحليل حتى فى القرن الثامن عشر ، وتبلغ فكرة التاريخ دور نضجها أولا لدى فيكو وهردر ، ولما أدرك الإنسان مشكلة الزمن أول ما أدرك ، ولما لم يعد محصورا فى دائرة ضيقة من رغباته وحاجاته القريبة ، ولما بدأ يبحث عن أصل الأشياء ؛ عندئذ وجد أصلا أسطوريا ، ولم يجد أصلا تاريخيا ، واضطر أن يعكس العالم — أعنى العالم المادى والعالم الاجتماعى — على الماضى الأسطورى ؛ لكى يتمكن من فهمه ^(١) .

وحين بدأ المؤرخون فى كتابة التاريخ بدءوه بغير بحث أو رؤية أو أدلة علمية

(١) المرجع السابق ص ٢٩٥ .

ثابتة ، تحدد مضمون الأشياء ، وتظهر حقائقها ، بل اعتمدوا على السماع وعلى الخيال والقصص الخرافية المتداولة بينهم ، وفي هذا يقول أرنولد توينبي : « إن التاريخ مثله مثل الدراما والقصة — نشأ عن الأسطورة ، وهى شكل بدائى للفهم والإدراك ، لا يرسم الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال ، كما هو حادث فى الأقايصيص الخرافية التى يستمع إليها الأطفال ، أو فى الأحلام التى يتصورها الواعون من البالغين ، فلقد قيل عن الإلياذة مثلاً : إن أى إنسان يشرع فى قراءتها كتاريخ يجدها حافلة بالخيال ، فإذا شرع فى قراءتها كقصة خيالية يجدها بنفس المقدار حافلة بالتاريخ ، وتشبه جميع التواريخ الإلياذة من هذا القبيل ؛ بمعنى أنها لا تستطيع الاستغناء عن عنصر الخيال »^(١).

ويعتبر علماء التاريخ أن هيرودوت هو أبو التاريخ ، وأنه كان صاحب باع فى تدوين التاريخ ، عنه أخذ من بعده ، إلا أن هيرودوت كان كثير الخلط ، قليل الاكتراث بصحة الحوادث ، كثير الاستنتاج ، لا يستعمل من الوثائق شيئاً ، يعتمد على الخيال والسماع ، ولا يعتمد على الدراسة والبحث والترتيب . وفى هذا يقول غستاف لوبون :

« كان قدماء المؤرخين كهيرودوت قليلي الاكتراث بصحة الحوادث التاريخية ، وكان شأنهم مقتصرًا على الاستنتاج مما يسمعون من أقاصيص ، وكانت هذه الأقاصيص تتألف حصراً من ذكريات باقية فى ذاكرة الناس ، وليست الأحاديث عن الأزمنة التى عقت تلك أكثر صحة فى الغالب ، وإذا كنا لا نجادل فيها فذلك لأنها تلوح أقل بعداً عن الصواب ، وهؤلاء المؤرخون كانوا يعالجون التاريخ كخطباء ، إذاً فيرتبون الوقائع ترتيباً يسوغون به رأيهم ، وكانت هذه الأقاصيص الوهمية تؤلف استناداً إلى بضع قطع من الحقيقة تجمع مصادفة ، وإلى كثير من الخيال ، فتعدها الأجيال صحيحة بقوة التكرار ، ولم ينقض مبدأ التاريخ الروائى بانقضاء قدماء المؤرخين ، فقد عاش بعد جميع الانتقادات ، وقد ظل باقياً قوياً فى أيامنا »^(٢) ،

(١) مختصر دراسة التاريخ لأرنولد توينبي ١ / ٧٣ ط جامعة الدول العربية .

(٢) فلسفة التاريخ للدكتور غستاف لوبون ترجمة عادل زعير ص ٥٣ ، ٥٤ .

وكلام غُستاف لوبون يدل على أن التاريخ بدأ بالأساطير والأقاصيص ، ولم يتخلص منها ومن الخيال بعد ، رغم تقدم العلوم وتطور وسائل البحث واتساع حركة التنقيب عن المخلقات الحضارية والآثار البشرية التي تبين عن لغات سبقت ، وتكشف عن علوم تقدمت ، وصناعات تطورت ، وأفكار وشعوب سادت وارتقت . وليس هذا رأى غُستاف لوبون فقط ، وإنما هو رأى عام يعرفه كل من اشتغل بالتاريخ ، ولننظر إلى ما يقوله مؤرخ عظيم مثل — « يعقوب بركهارت » في مؤلفه عن قسطنطين الكبير ، أو عن مدينة عصر النهضة ، فإنه لم يزعم أنه قدم لنا وصفا علميا لتلك الحقبة ، ولم يتردد في أن يقول : « إن التاريخ أشد العلوم لاعلمية » ، ولقد كتب بركهارت يقول في إحدى رسائله « إن ما أحاول أن أبينه تاريخا ليس نتيجة نقد أو تأمل ، بل نتيجة خيال يريد أن يملأ الفجوات في الملاحظات ، وما يزال التاريخ في نظري شعرا إلى حد بعيد ، فهو سلسلة من أجمل المنظومات وأروعها .

وكان مومسن يذهب إلى هذا الرأى أيضا ، ولم يكن مومسن عبقرية علمية فحسب ، بل كان في الوقت نفسه من أعظم منظمي العمل العلمي ، فيقول « إن المؤرخ ربما كان ينتمى إلى صف الفنانين أكثر من انتمائه إلى طبقة العلماء »^(١).

يقول غُستاف لوبون — ضاربا مثلا للخلط التاريخي الذي كان يصاحب الأهواء — « كان المؤرخون يعدون الحقائق جميع الأوهام التي يرونها ، وقد كان عندهم من الاستعداد العجيب ما يستخرجون به من أى نص أبعد التفسير من الحقيقة ، وما يبينون به أدعى المستحيالات إلى الدهشة ، فقد كانوا يقولون إن محمدا كان كردينالا ، فغضب لعدم انتخابه بابا ، فصار ملحدا وأقام ديننا جديدا ، وأن يهوذا كان قد قتل أباه ليتزوج أمه »^(٢) وعلى هذا يكون التاريخ خاضعا خضوعا كبيرا لأفكار كتابه وميوههم ونزعاتهم ونحلهم ، يميل معها حيث تميل ، ويعتدل حيث

(١) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية كاستير ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ عن يعقوب بركهارت « الحبرية والحريية » ص ١٦٧ .

(٢) غُستاف لوبون فلسفة التاريخ ص ٦٨ .

تعتدل ، يرفعون من يشاءون ، ويخفضون من يريدون ، وينطقون من يحبون ، ويستكتون من يكرهون ، يفلسفون الأخطاء أحيانا ، ويغمطون الحسنات أحيانا أخرى ، ولا يطلب من أحدهم أى سند أو وثيقة أو دليل فى غالب الأحوال ، وفى هذا يقول العقاد فى كتابه « ساعة بين الكتب » : التاريخ رواية يخترعها كل كاتب من توليد خياله ، وينتحل لها الأسماء والأحلام ، من سير الناس وحوادث الأيام ، وكلما اتفق المؤرخون على رواية مسطورة كان ذلك أدعى إلى الشك فيها ، والتردد فى قبولها ؛ لأنه دليل الأخذ بالسماع والتسليم بغير مناقشة ، فأما إذا اختلفوا أو اضطربت أقوالهم بين الثناء والمذمة والترجيح والتضعيف ، فأنت إذا حيال التاريخ فى وابل من الفروض والآراء ، ومعضلة من الحقائق والشكوك ، ويحتاج المؤرخ إلى كل ما يحتاجه القاضى من الشهادات والأسانيد والبيانات ، وقد ينقض كل ذلك أكثر الحوادث التى يتصدى لها بالبحث والتقرير ، فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء ، ولكل عنصر من العناصر آفته ، تنطبق إليه بالزغل والارتباب ^(١) .

وعلى هذا يلزمنا إذاً بيان حجية التاريخ وصحة نسبته إلى العلوم ، وهل يصح أن يطلق عليه أنه علم كسائر العلوم ، أم أنه فرضيات وظنون يختلط فيها لون الإنسان وخياله ببعض الحقائق الرجراجة والممزقة .

حجية التاريخ :

إن العالم اليوم يبحث عن الحقائق ليستنتج منها ما يشاء لحاضره وغده ، وينتفع بما توحى إليه من فكر وثقافة وتجربة ، تثريه وتضيف جديدا إلى رصيده من المعرفة ، وتفتح أبوابا جديدة ، وآفاقا أرحب من الحضارة والتقدم والازدهار ، هو بحاجة إلى ملايين السنين هى عمر الإنسان على الأرض ؛ ليستفيد من هذا الكتاب المستور واللوح المحفوظ والتجربة الضخمة التى خاضتها الإنسانية ، بكل مافيه من عناء وكفاح ، بازلة فى سبيل ذلك العرق والدم والعمر . هو بحاجة إلى صوابها

(١) الإسلام والحضارة العربية — كرد على ص ٧ .

وخطئها ؛ ليتجنب العثرات ، ويتنحى المزالق ، ويستقيم على الطريق ، وكان يطمع في أن يتعلم ذلك من التاريخ ، ويستمد هذا من حوادثه ودروسه وعبره ، ولكن هذا يحتاج إلى كشف الحجب عن مظمور ولى وباد ، وبعث لرميم أدبر وانقضى .

ويظهر أن صعوبة إحياء الآثار كاستحالة إحياء الأعمار ، إلا بقدرة إله خالق ، ولكنه قد يستدل على ذلك بقانون العربى القديم « ابن ساعدة الإيادى » « البعرة تدل على البعير ، والقدم يدل على المسير » . نعم قد يستدل على ذلك بالنظر والبحث والتنقيب ومزيد من العلم ، ويؤيد هذا قول الحق سبحانه ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ ^(١).

وقد قال أحد الفلاسفة « تاريخ الأرض مكتوب على قشرتها » ، ولكننا اليوم أمامنا التاريخ بما فيه من حقائق ، وما فيه من أوهام ، فهل يعتمد عليه اليوم ، وهل يرقى إلى مصاف العلوم ، أم مازال بعد بحاجة إلى أن يرسخ قدمه بالحقائق والوثائق ، وقبل الحكم يجدر بنا أن نعرف ما هو العلم ، وماهى المعرفة ، وما هو الظن ، حتى نستطيع أن نلقى الضوء على التاريخ ونحكم عليه .

عرف العلماء العلم بقولهم : « العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به ، على سبيل الثقة واليقين وسكون النفس إليه وتلج الصدر به » ^(٢).

والمعرفة أخص من العلم لأنها علم بعين الشيء مفصلا ، والعلم يكون مجملا ومفصلا ، وقد يطلق العلم على المعرفة والمعرفة على العلم ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ^(٣) يعنى لا تعرفونهم الله يعرفهم ^(٣).

أما الظن : فهو خلاف اليقين والعلم ، حيث يجوز أن يكون المظنون على خلاف ما هو ظنه ، فلا يتحقق المظنون ، أما العلم فإنه يحقق المعلوم ، وقد جاء

(١) العنكبوت — ٢٠ .

(٢) المصباح المنير — فى المادة . الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكري ص ٧٣ ط دار الآفاق .

(٣) المصباح المنير فى المادة ، والفروق فى اللغة ص ٧٣ .

الظن في القرآن الكريم بمعنى الشك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾^(١) ، فيكون بهذا بعيدا عن العلم ، وتعريف العلم عربيا أخذ الغربيون ، حيث يعرف « كانت » العلم بقوله : « لانستطيع أن نطلق مصطلح « علم » بالمعنى الصحيح للكلمة إلا على مجموعة من المعرفة ، أصبحت درجة الصحة فيها يقينية »^(٢) .

وفي ضوء هذه التعريفات السابقة نستطيع أن نقول : إن التاريخ لم يرق بعد إلى الدرجة المعلومة اليقينية التي يطلق عليها أنها علم ، ولا نستطيع أن نتحدث إذاً عن شيء اسمه علم التاريخ ، لأن التاريخ على هذا يكون أقرب إلى الظن منه إلى العلم . وفي هذا يقول رينان « إن التاريخ مجموعة ظنون ، أو علم صغير سداه ولحمته من الفرضيات البعيدة ، وقالوا : إن كل امرئ يحاول أن يدمج في التاريخ أفكاره من طرف خفي ، وأن يتصور الحقيقة ويخلقها ، وذلك لقلة الوثائق التي تثبت على محك النظر ، وما زال البشر منذ عهد « توسيد » و « هيرودتس » يحاولون كتابة التاريخ ، وقلموا وصلوا إلى الحقائق لقلة معرفتهم باكتناهاها ، ورغم هذا يحاولون شرح الحقائق ومعرفتها وحفظها ، ليدخلوا شيئا ضئيلا كالخيال من العناصر التي تركها العالم في تاريخه السحيق . وكان « تاسيت » يحاول أن يضع نفسه فوق الحوادث وأن يحكم عليها . ويحاول « فونسكيو » و « هرر » أن يستخرجوا من نصوص التاريخ فلسفة ، وحاول رينان أن يوفق بين الحوادث ويكشف أسرارها الممكنة الظهور ، وأن يورد وقائعا ملموسة ذات وحدة .

يقول : « كار لايل » إن التاريخ مجموعة إشاعات ، ويقول « فولتير » إن التاريخ مجموعة أساطير قبلها الضعفاء »^(٣) .

وعلى هذا فلا يكون التاريخ علما بالمعنى المعروف ، وإنما يظل يفتقر إلى كثير

(١) المرجع السابق في المادة .

(٢) المبادئ الميتافيزيقية في العلم الطبيعي لكانت ، المقدمة ضمن مؤلفاته الكاملة نشرها « كاسيرر المجلد ٤ /

٣٧٠ عن مدخل إلى الفلسفة الإسلامية أرستت ص ١٤٢ .

(٣) التاريخ الإسلامي والحضارة العربية — كرد على ص ٥ .

من البحث والتدقيق ، حتى يؤيد بالحقائق ، ويتخلى عن الميول والأهواء والنزعات ، وإلى أن يصبح التاريخ علماً سيعمل يحتفظ بقسط من الاحترام ، على قدر ما بذل المؤرخون في سبيل معرفة الحقائق والاستفادة منها ، وبمواصلة البحث والتنقيب وإعمال الفكر مع اتباع أسلوب معين في الفهم والتمحيص والتجرد يستطيع الكشف التاريخي أن يتقدم خطوات ، وأن يؤدي غرضه المطلوب ، وأن يأخذ طريقه إلى جانب الأسرة العلمية من مختلف العلوم والفنون ، وإن كنا نستطيع أن نطلق عليه علماً باعتبار ما يؤول إليه ، أو باعتبار ماثبت في بعض جوانبه ، مما تؤيده الوثائق والتحريرات ، أو باعتبار الاصطلاح بين علمائه ، فتكون تسميته اصطلاحية ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

هذا وفي سبيل الخروج بالتاريخ من دائرة الخيال والميول الشخصي وضع العلماء شروطاً للبحث في التاريخ ، يستطيع الباحث على ضوئها أن يصل إلى نتائج سليمة في نظرهم ، أو قريب منها ، نعرض إليها في عجالة ؛ لتكون الرؤية التاريخية واضحة في نظر الباحث .

شروط البحث التاريخي :

بعد دراسة أسباب الخلط التاريخي ، وبعد إمعان النظر في المادة التاريخية والشرائح المكونة لها ؛ نقرر أنه لابد من اتباع أسباب معينة تعد في نظرنا قنوات لتسرب الحقائق ، ونوافذ تستطيع إيضاح الرؤية التاريخية ، وعدم استبدالها بظنون معينة ، وأفكار وخيالات وآراء ونحل ، تحمل لون أصحابها واتجاهاتهم المذهبية والعرفية والاجتماعية ، من هذه الأسباب :

(١) الحيادة والموضوعية ، بمعنى أن الإنسان يحاول أن يعرض المادة التاريخية بعيدة عن ميوله ولحلتها ، وإن كانت الحيادة التامة بالنسبة للإنسان أمراً عسير المنال ، فوقائع التاريخ التي يتناولها المؤرخ مثل : النصر ، والهزيمة ، والخديعة ، والاغتيال ، والحروب ، والفتن ، وما إلى ذلك ؛ لا يمكن وصفها بموضوعية مجردة تماماً ؛ لأن ميل المؤرخ أو نفوره الشخصي من طبقة أو فئة معينة من الناس تصبغ عمله بشيء

لأشعورى بالميل والرغبات ، فقد يكون المؤرخ ممن يعجبون بالأبطال ، ويقدرّون دورهم فى التاريخ ، وقد يكون المؤرخ ممن ينفرون من الدماء والعنف ، ويميل إلى السلم والدعة ، وقد يكون بخلاف ذلك ، فرغم اجتهاده وحيدته تراه يميل إلى إحساسه ، ويوجه الواقعة بشعوره .

وقد دعا الدكتور طه^(١) حسين مثل هذه الدعوى فى دراسة التاريخ العربى ، فرأى أنه : يجب علينا حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية ، وكل مشخصاتها ، وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل مايتصل بها ، وأن ننسى ما يضاف هذه العواطف القومية والدينية ، فيقول « يجب ألا نتقيد بشيء ، ولا ندعن لشيء إلا منهاج البحث العلمى الصحيح . ذلك أنا إذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها فسنضطر إلى المحاباة ، وإرضاء العواطف ، وستغل عقولنا بما لا يلائمها ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم ، وأن يتناولوا العلم على نحو مايتناوله المحدثون ، لا يتأثرون فى ذلك بقومية ، ولا عصبية ، ولا بما يتصل بهذا كله من الأهواء ؛ لتركو لنا أدبا غير الأدب الذى نجده بين أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذى نتكلفه الآن ، ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها »^(٢).

وقد سبق هؤلاء وأولئك العربى المسلم ابن خلدون فى التنبيه على تلك الحقيقة ، فيقول « ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته ، وله أسباب تقتضيه فمنها : التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال من الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر ، حتى تتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأى أو-نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمهيص ، فتقع فى قبول الكذب ونقله »^(٣).

(١) أديب وباحث ومفكر معاصر .

(٢) الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ٨٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون تحقيق د / على عبد الواحد والى ١ - ص ٢٦١ بتصرف .

إلا أن ابن خلدون لم يوافق هؤلاء الغربيين على ما ارتأوا من خلع النحل وغير ذلك ، وإنما كانت له نظرتة .

(٢) الثقة بالناقلين ، حيث يستمد المؤرخ مادته من نقلة متهمين ، أو ذاهلين ، أو لا تتوفر عندهم الخبرة الكافية في الفهم اللازم لفهم الحوادث .

وفي هذا يقول ابن خلدون : « ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضا : الثقة بالناقلين ، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح »^(١).

(٣) ومنها : الدهول عن المقاصد ، ويعد ابن خلدون الأسباب المؤدية إلى انحراف المؤرخين عن الحقيقة التاريخية ، ويذكر منها الدهول عن المقاصد ، ويقول « فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه ، فيقع في الكذب » ثم يستطرد في تعداد الأسباب التي تؤدي إلى الانحراف ، فيقول : ومنها توهم الصدق ، وهو كثير ، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين .

(٤) ومنها : الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع ؛ لأجل ما يداخلها من التلبس والتصنع ، فينقلها المخبر كما رآها ، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه .
(٥) ومنها : تقرب الناس في الأكثر لأصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقتها ، فالنفوس مولعة بحب الشناء ، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة .

(٦) ومنها أيضا : الجهل بطبائع الأحوال في العمران ، فإن كل حادثة من الحوادث ذاتا كان أو فعلا ، لابد له من طبيعة تخصه في ذاته ، وفيما يعرض ! من أحواله ، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب^(٢).

وابن خلدون في نظرتة هذه إلى التاريخ يدل على أنه صاحب علم واسع وباع

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٢ — ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٢ — ٢٧١ .

طويل في فهم الحوادث وطبيعة الأشياء ، وذلك أنه رأى كتب المؤرخين الذين سبقوه قد اشتملت على كثير من الأغلاط التي يجب أن يتخلص التاريخ من وزرها ، حتى يعطى صورة صادقة لأحوال المجتمعات ، من خلال بحوث وحوادث صادقة ، غير ملفقة ، ولا ملتصقة بأهواء الناس ونحلهم . وقد هداه بحثه وصدقه إلى أن يجد مخرجا لهذا العلم النافع ، فأخذ بعضا من قوانين علم الرجال عند المحدثين المسلمين ، وقد كانوا أصحاب خبرة ودربة في هذا الفن ، حيث يقول علماء الحديث في شروط الراوى بالعدالة والضبط والعقل ، وكثرة الغلط تنافى الضبط ، والالتزام يعارض العدالة ، وشرط العقل يرادف عن المحدثين مقدرة الراوى على التمييز ، فيندرج تحته البالغ تحملا وأداء ، والصبي المميز تحملا لا أداء^(١) ، ولنقاد الحديث اصطلاحات في التعديل والجرح على حسب أحوال الرواة في القوة والضعف .

وقد جعل ابن حجر هذه الاصطلاحات اثنتى عشرة مرتبة :

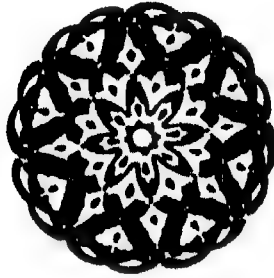
- ١ — الصحابة .
- ٢ — من أكد مدحه بأفعل التفضيل ، كأوثق الناس .
- ٣ — من أفرد بصفة ، كثقة .
- ٤ — من قصر عن قبله قليلا ، كصدوق أو لا بأس به .
- ٥ — من قصر عن قبله قليلا كصدوق سيئ الحفظ ، أو صدوق يهيم ، أو له أوهام ، أو يخطئ ، ويلحق بذلك أهل الأهواء والبدع .
- ٦ — مجهول الحال^(٢) وغير ذلك من الشروط التي تكون كالموازين في تقدير الرواة وأخبارهم ؛ ولهذا نرى أن روح شروط ابن خلدون مأخوذة عن علم الجرح ، والتعديل ، وأخلاق الرواة الذين يتحملون الأخبار ، وتؤخذ عنهم ، ويطمأن إليها وإلى صدقها وصحتها ، وقد أخذ الغرب عن ابن خلدون بعض تلك الشروط وصبغوها

(١) انظر الجامع لأخلاق الراوى ١ / ١٨ وحه ١ .

(٢) انظر في ذلك مقدمة تقريب التهذيب — الناعت الحديث ١١٨ — ١١٩ ، وتوضيح الأفكار ٢ / ٢٦١ —

٢٧١ ومقدمة الجرح والتعديل لأبى حاتم . بتصرف .

بأفكارهم ، وأخذ عنهم الدكتور طه حسين ، فكانت شروطاً إنشائية ، أو خيالية غير عملية ، إذ كيف يتجرد الإنسان من ميوله وطبيعته ، وعقيدته وقوميته ، كيف يكون هذا ؟ وما هو الدافع والباعث له على ذلك ؟ ومن الذى يراقبه ، ولا عقيدة ولا إيمان . أما شروط ابن خلدون ؛ فإنها شروط طبيعية مستطاعة ، حيث اشترط الصدق ، والأمانة ، والمعرفة ، وعدم الوهم ، والتجرد من الهوى المضل ، مع الدربة ، ومعرفة الأحوال ، ولم يشترط التجرد من العقيدة مادامت مستقيمة صالحة ، بل قد يكون دينه وأفعاله مراقباً فى أداء ما يتحمله ، وهى شروط أثبتت جدارتها فى نقل الأخبار صحيحة غير محرفة ، وطريق من طرق العلم اليقيني الصادق .



المبحث الثالث

التفسير الحضارى

لاشك أن الحضارة والتاريخ يرتبط كل منهما بالآخر ارتباط الروح بالجسد ، فلا يستطيع إنسان أن يتحدث عن الحضارة إلا إذا درس التاريخ وعرف ماهيته ، فالأدوات التي جربها الإنسان في صنع الحضارة والاختراعات التي استطاع بها الإنسان أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة استغرق إنشاؤها أزمنة متطاولة وظروفا عدة ، واشترك في اختراعها عقول وجماعات ، وكان لظهورها تأثير معين في عصور معينة على الأفراد ، وعلى الجماعة ، وعلى البيئة الإنسانية وعلى التفكير البشرى ، إن صناعة الخبز — مثلا — مرت بمراحل عدة وأزمنة متباعدة ، فعندما درس العلماء أحوال الأمم البدائية عرفت صفحات كانت مطوية من التاريخ ، فمن القبائل من كان يعرف القيمة الغذائية لسنابل القمح التي توجد في البرية ، فكان يأخذها ويأكلها كما هي ، ومنها من كان يزرعها ويحصدتها ويأكلها حبا ، ومنها من كانت تجرشه قبل أن تأكله ، وهناك من كانت تأكله دقيقا ، وهناك من وصلت إلى صناعته خبزا .

فلاشك أن هذا التطور أخذ زمنا وتفكيراً ، كما أن صناعة الخبز كانت تحتاج إلى صناعات خادمة لها ، فصنع الخبز كان يحتاج إلى أوعية وأواني ، وأحجار للطحن ، وخبرة في خلط الدقيق ، وتخميمه ، واستخدام النار ، وتطويرها ، وما إلى ذلك ، وكل ذلك يحتاج إلى وقت وأزمنة متطاولة وتفكير مستمر .

وظيفة العقل في التاريخ الحضارى :

ميز الله الإنسان بالعقل ، وعند إطلاق العقل يراد به النشاط الذى يؤديه عضو في تركيب الإنسان هو المخ ، والمخ عامل مشترك بين الإنسان والحيوان والطيور

وكثير من خلق الله ، ولكن يخ الإنسان امتاز بالعقل والتفكير والاختيار بين البديلات ، وهذا من خواص الإنسان وإكرام الله له ، وكلما زادت معرفة الإنسان وبحته وتنقيبه ؛ كان أقدر على فهم الأشياء ، وتمييز الضار منها من النافع ، والطيب من الخبيث ، وكان أكثر قدرة على الربط بين الظواهر الطبيعية والإنسانية ، وكلما مرت السنون والأيام أعطته التجربة والقدرة على استيعاب المنظورات والمعقولات والاستفادة منها ؛ لأن للذهن عضلات تقوى وتتعدد قدراتها واستعمالاتها بالمران والمراس ، شأنها في ذلك شأن أعضاء كالذراع أو اليد ، وهذا شيء يلحظ بالمنظور والمعقول ، فعندما نرى طفلا يحاول استخدام كفه وأصابعه في إمساك الأشياء والتصرف فيها نعلم أن التطور نفسه يكون في الذهن ، وأن ذهنه أيضا يقوم بعمله على هذا النحو من الضعف وقلة الضبط والإحكام ، وهذه الملاحظة تعطينا فكرة عن الأعصر المتطاوله التي احتاج إليها الإنسان حتى يتنبه ذهنه ، وتصحو قدراته ، ويستخدم إمكاناته في صنع الحضارة الإنسانية .

العنصر البشرى فى التاريخ الحضارى :

تعددت الآراء واختلفت فى تقدير عمر الإنسان على وجه الأرض ، وأقرب الآراء إلى العقل هو ما ذهب إليه المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبى — حيث قال : « إن أقدم آثار عثر عليها للإنسان ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة ، ولكن أكمل الهياكل العظمية الكاملة التى وجدناها ترجع إلى تسعة وأربعين ألف سنة ، أى فى الوقت الذى وصل فيه العصر الثلجى الأخير إلى ذروته ، وأخذ الثلج ينحسر إلى الشمال خلفا جماعات من البشر متشابهة فى صفاتها العامة فى نواحي شتى من الأرض ، مثل فرنسا ، وشبه جزيرة أيبيريا ، وطنجة ، وروديسيا (زيمبابوى) ، وأندونيسيا ، أى فى نطاق واسع من الأرض يدل على أن الإنسان كان موجودا فى نواحي الأرض جميعا قبل ذلك العصر الثلجى الأخير ، ثم طغى الثلج ، فقضى على البشر فى كثير من نواحي النصف الشمالى للكورة الأرضية ، فلم يبق منهم إلا بقايا متناثرة فى المواضع التى ذكرناها ، وفى نواحي أخرى غيرها ، فلما انحصر الثلج إلى الشمال أخذ البشر ينتشرون فى الأرض من جديد .

وهذه النماذج البشرية التى وجدناها تتشابه فى خصائصها البدنية العامة ، وتتشابه أيضا فى خصائصها العقلية ، بدلالة ماوجدنا مع هياكلها من أدوات «^(١)» وهذا العمر الطويل على ظهر الأرض كان حافلا بنتاج العقول من كل لون وفن ، ومن كل اختراع وبحث يحمل التاريخ خطواته ، منها ماظهر وانكشفت صفحته ، ومنها مايزال سرا إلى الآن مدفونا مع تلك العصور الخوالى . وهذه الاكتشافات المتتالية للهيكل الإنسانية فى العصور السحيقة وجدت كما رأينا أنها تتشابه فى الخصائص البدنية والعقلية بإنسان اليوم ، وبصفة عامة لم تتغير حياة الإنسان من ذلك الحين عما هى عليه اليوم ، وهذا يلغى تلك الآراء التى اشتط بها أصحابها فى أن الإنسان ينحدر من القردة العليا ، وكان من نتاج ذلك أن جمهرة علماء الغرب اليوم يجمعون على أن الإنسان جنس قائم بذاته ، ولا ينحدر من جنس آخر ، ويرفضون تلك النظريات التى بنيت على فروض معينة لايؤيدها الدليل . وخاصة حينما اعترضها حلقة مفقودة بين هذه القردة العليا وبين الإنسان الذى يتعد عنها بمراحل .

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الإنسان نزل إلى الأرض أو وجد فيها ، وليس عليها حضارة أو صنعة لأحد قبله ، ولكنه وجد مايقم أوده ويحفظ حياته من زرع وماء وضرع ، ثم بدأ يعمل ، ويستعمل فكره ، ويستخدم قوته فى معاشه ، واكتساب قوته بأى كيفية ، ومهمة التاريخ تتركز فى الكشف عنها ، وتحليلة حقيقتها ، وهى مهمة ثقيلة . وفى هذا يقول السير أرثر كيت (إن العصر الصناعى الذى نعيش فيه الآن لا يشمل إلا بضعة قرون ، ولا يمتد عصر الزراعة إلا بضعة آلاف من السنين . أما زمن العيش على الطبيعة الذى كان الإنسان يعتمد فيه على مايتساقط من موائدها فقد استغرق مئات الآلاف من السنين ، ولسنا نعرف مقدار هذا الزمن على وجه التحقيق ، ولكن الذين درسوا ما فى العالم من الشواهد لايشك أحد منهم فى أن هذا العهد من حياة الإنسان لايقبل مداه عن نصف مليون من السنين ، فهذا

(١) انظر فى ذلك : الحضارة لحسن مؤنس ص ١٧ ، ١٨ ، مختصر دراسة فى التاريخ ١ / ٨٦ توينبى .

العهد البعيد يمثل الفياق والقفار التى قطعها النوع البشرى فى أثناء مراحل التطور التى أوصلته إلى الأرض الموعودة ، أى إلى عهدنا الحاضر «^(١).

فرحلة الإنسان الحضارية عبر التاريخ طويلة مديدة ، تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب عن الآثار والشواهد التى تستنطق ، لتبين ما حدث فى هذه الحياة الغابرة ، وما ورثته لنا من تراث حضارى .



(١) تاريخ العالم السرحون اهاميرى ١ / ٣٢٤ .

المبحث الرابع

النظريات المطروحة لتفسير التاريخ

ظهرت نظريات كثيرة لتفسير التاريخ ، تدور حول فكرة تطبيق نهج العلوم الطبيعية على التاريخ ، من خضوع لقوانين تاريخية عامة تربط بين وقائع التاريخ ونشأتها ارتباطا عاليا ، يؤدي إلى ضرورة حتمية ، تبتعد عن الميول الشخصية والنفسية والعقائدية ، التي تؤثر على تدوين التاريخ والاستفادة منه .

— قانون العلية في التاريخ —

يقرر أصحاب قانون العلية التاريخية بأن مشكلة التاريخ ممكن حلها ، وما على المؤرخ إذا أراد أن يصل إلى الحقائق إلا أن يدرس علل الأشياء ، شأنه في ذلك شأن عالم الطبيعة والكيميائي الذي يتوصل من الظواهر إلى النتائج والقوانين الثابتة .

حيث أن قانون العلية في التاريخ يتضمن اعتبار الأعمال الإنسانية حقائق وثمرات ، لا بد من أن تعرف خصائصها ، وتكتشف عللها ، وأن تذهب في الطريق التي يذهب إليه العلوم الطبيعية ، مثل علم النبات ، وقد تأثر هؤلاء العلماء بالكشوف الطبيعية والعلوم التجريبية التي أدت إلى نتائج باهرة باستعمال قانون العلية .

فحاولوا تطبيق ذلك القانون على التاريخ ؛ ليتخلصوا من الأهواء والميول والنزعات التي أفسدت التاريخ ، وقد تزعم القول بهذا القانون المؤرخ الإنجليزي تين ، حيث يقول : « على المؤرخ أن يعمل كما يعمل العالم الطبيعي .. » ثم يقول : « لافرق بين أن تكون الحقائق مادية أو أخلاقية ، فإن لها جميعا عللا ، هناك علة

للطموح وللشجاعة وللصدق ، مثلما أن هناك علة للهضم وللحركة العضلية وللحرارة الحيوانية ، كذلك الفضيلة والرذيلة معلولتان نتاجان كالكبريتات والسكر ، ولكل ظاهرة مركبة وصلات تصلها بظواهر أخرى أبسط منها ، وتعلقها بها .

إذن فلنبحث عن الظواهر البسيطة في الخصائص الخلقية ، مثلما نبحث عنها في الخصائص المادية ، وفي كلتا الحالتين سنجد عللا كلية ثابتة شاهدة في كل لحظة وفي كل حالة ، تعمل دائما وفي كل مكان ، لايعترضها ضراب ، وتكون في النهاية سامية معصومة عن الخطأ ، لأن الحوادث التي تعترضها محدودة جزئية ، ولذلك تنتهي تلك الحوادث بالخضوع إلى تكرار قوتها المستمر البليد ، حتى أن المبنى العام للأشياء والملاحم العظمى للأحداث تكون من صنعها ، وتكون الأديان والفلسفات والشعر والصناعات وأجهزة المجتمع وأنظمة الأسر أثر من ميسمها ^(١) .

المعارضون على هذه النظرية :

واجهت نظرية العلية جملة من الاعتراضات ، وتصدى لها كثير من الباحثين بالنقد والتجريح ، فظهر بين عوارها ، وبعد فكرتها عن التطبيق ، حيث أنه لا بد لتقرير هذا القانون من الفصل بين الوقائع السابقة واللاحقة من ناحية ، وبين مجرى الأحداث والعوامل الأخرى من ناحية ثانية ، وهذا صعب للغاية ؛ لتعددتها وتشابكها ، مما يجعلها مستحيلة في مجال البحث التاريخي ، وأيضا فإن الأحداث التاريخية لا يمكن تصنيفها ، حتى يمكن استخدام العلاقات الثابتة بين مجموعات منها في استخراج قانون معين ، كما هو الحال في القوانين الطبيعية ، ومن ناحية أخرى تفتقد التجربة العملية حتى يمكن استخراج القوانين اللازمة .

ومن العلماء المنتقدين لهذه النظرية إدورد ماير ، حيث يقول : « لو سألنا أنفسنا أى الأحداث التي نعرفها تاريخي ؟ لكان جوابنا : تاريخي هو كل ذى أثر أو ما صار ذا أثر ، أما كل ذى أثر فإننا نختبره أولا في الحاضر الذي فيه نلاحظ الأثر

(١) تين « تاريخ الأدب الإنجليزي » المقدمة الإنجليزية ١ / ٦ وما يليها — عن كتاب مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسير ص ٣٢٦ ترجمة الدكتور إحسان عباس .

توا ، ولكننا نستطيع أن نمارسه أيضا في الماضي ، ففي كلتا الحالتين يكون أمام أعيننا كومة من حالات الوجود ، أى الآثار . والسؤال التاريخي هو : ما الذى أنتج هذه الآثار ؟ عندئذ فإن مانعه علة لذلك الأثر هو حادث تاريخي » (١)

(٢)

ويقول أيضا في ذلك جورج ماكولى ترمليان :

« وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرنا إلى العلم ، ألفينا أن نتائجه لا يمكن أن توازى في الأهمية نتائج العلم الطبيعي ، وهو لا يستطيع أيضا أن يصل بطرائقه ونتائجه إلى ما تمتاز به الاختبارات التى نجربها فى المعمل ، من دقة وثبوت ، فنحن نستطيع أن نحلل غازا أو خنفساء تحليللا كاملا نعجز عنه إذا تصدينا لثورة أو عهد من العهود ، وغاية مانستطيع أن نلم بهما إماما ناقصا ، لاينفذ إلى اللباب ، ولو كان المؤرخ من الضارين فى العلم بسهم وافر ، لأنه ليس فى مقدوره أن يستوثق إلا من واحد من بليون مما لا يحصى العدد من الحقائق المسببة أو المكونة للثورة أو العهد الذى يتعرض لتفسيرهما . وآية ذلك أن تحليلا علميا للثورة الفرنسية يقتضى فيما يقتضيه معرفة كل حدث دار فى غرب أوروبا من زمن بعيد ، يمتد عدة قرون فالتاريخ علم بمقدار ما تكون الروح التى تستهدها فى جميع الشواهد البعيدة كل البعد عن الكمال والتأليف بينها روح علمية ، وفيما عدا ذلك لايعود ينطبق قياس العلم الطبيعي على المؤرخ ، لأننا ندخل ميدانا آخر عندما نصل إلى التفسير واستخلاص النتائج » (٣)

والواقع أن مسار التاريخ ليس سلسلة من المصادفات التى يتعذر على الباحث تحليلها ، وإنما هو حوادث وأعمال وراءها حشد هائل من الغايات والمقاصد التى حملها أفراد وأمم ، وساروا بها نحو أهداف معينة ومرسومة .

ولكن هذه الأهداف والأعمال التى تحققت لم تكن نتاج أرض صماء أو جماد

(١) إدورد ماير « فى نظرية التاريخ ومنهجه سنة ١٩٠٢ ص ٣٦ والتى تلبها ، عن فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٣٣١ .

(٢) حرج ماكولى ترفليان : دكتور فى الأدب والقانون ومؤرخ من أبرز المؤرخين وأستاذ الكرسي الملكى للتاريخ الحديث بجامعة كامبردج ومؤلف تاريخ إنجليزي .

(٣) تاريخ العالم السيرجون ١٠ . هاسرتن ج ١ ص ٣ .

متحجر ، وإنما كانت ثمار طبائع مختلفة وقلوب حية ، تختلف من إنسان إلى آخر ، ومن صدر إلى صدر ، ومن زمان إلى سواه ، تحس فيها طبيعة الإنسان ، ونبض القلوب ، وفعل الحوادث والأيام ، فكل إنسان له قلب وإحساس وشعور يغير الآخر ، وكل يوم وكل عصر وكل بيئة تفتقر عن سواها ، وهذا كله لا ينسجم مع المادة في قانون واحد ، لأن المادة لا تتأثر من عصر إلى عصر ، ولا تتبدل من زمن لزمان ، وإنما ينطبق عليها القانون في كل حالاتها ، بخلاف الإنسان كما بينا ، والتاريخ مرتبط كما نعرف بالإنسان والزمان والبيئة ، ولهذا انتقد المثاليون فكرة الحتمية التاريخية التي تلتزم بالقوانين الكلية ، وقالوا : إذا كانت الطبيعة تخضع لعالم الحتمية فإن التاريخ هو عالم الحرية .

وبهذا نقول أن عليّة التاريخ ليست كعليّة المادة لازمة حتمية لا تتخلف ولا تتبدل ؛ وإنما نقول : إن عليّة التاريخ سببية مرتبطة بأسباب معينة ودوافع معروفة ، ولكنها دوافع إنسانية تختلف من إنسان إلى إنسان ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن زمان إلى آخر ، وليست مثل حتمية المادة وعليّة العلوم الطبيعية ، وإنما تظل هذه العليّة التاريخية عليها بصمات الأجيال وطبيعة الإنسان ، ونحن لا ننكر قيمة العليّة التاريخية ، إنما نحاول أن نفرق بين عليّة المادة ، وعليّة التاريخ . وسنبين مزيداً من هذا إن شاء الله تعالى .

التفسير الإحصائي :

ومثلما اتجه فريق الباحثين إلى منهج العليّة اتجه فريق آخر إلى المنهج الإحصائي ، وتنبأوا بأن مشكلة التاريخ ستحل على خير وجه من خلال الإحصائيات ، وقد اعتمدت دراسة الأخلاق قبل ذلك على مثل هذه الإحصائيات ، وقد دافع عن هذه النظرية جملة من العلماء ، على رأسهم « بكل » الذي تبنى هذه الفكرة ، ودافع عنها بقوة في مقدمة عامة صدر بها كتابه « تاريخ المدينة بانجلترا » (١٨٥٧) ، ولندع « بكل » يتكلم عن الفكرة التي يتزعمها ، فيقول « إن الإحصاء خير رد جامع ينقض ذلك الصنم الذي يسمونه « الإرادة الحرة » وإنه أصبحت لدينا أوسع معلومات إحصائية ، لاعتنا رغبات الإنسان

المادية فحسب ، بل عن انتماءاتهم الأخلاقية ، ثم قال : إننا نعرف نسبة الوفيات والزواج ونسبة الجرائم أيضا لدى أشد الشعوب تمدنا ، وقد جمعت هذه الحقائق وما شابهها ، وصنفت ، وهى جاهزة للاستعمال ، لقد تأخر علم التاريخ ولم يستطع أن ينافس الفيزياء والكمياء ، وما إلى ذلك ، إلا لأن المناهج الإحصائية ظلت طول العصور مغفلة مهملة ، ولم تكن تدرك أن كل حادثة — فى هذا المقام أيضا — مرتبطة بحادثة سابقة ربطا حتميا لا ينفصم ، وكل حادثة سابقة مرتبطة بحقيقة أسبق ، وأن العالم كله — العالم الأخلاق والمادى ، فهما فى هذا سريان — يشكل سلسلة ضرورية . قد يلعب فيها كل إنسان دوره ، ولكنه لا يستطيع أن يعين ماهية ذلك الدور بأى حال » فإذا رفضنا إذن العقيدة المتأفيريكية التى تؤمن بالإرادة الحرة ... أدى بنا ذلك إلى أن أعمال الناس مادامت تحتتمها السوابق التى تقدمت وجودهم وحدها ، فلا بد وأن يكون لها طابع الانسجام ، أعنى أنها تحت عوامل واحدة — بالضبط — لا بد من أن تتمخض — بالضبط — دائما عن نتائج واحدة «^(١)

نقض هذه النظرية :

وقد ناقش أرنست كاسيرر وغيره أصحاب هذا المنهج . وأثبتوا تجافيه للحقيقة ؛ لأنها إحصائيات لا تستند على مشيئة الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع . والحقيقة أن الإحصاء عون كبير وهام فى دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، وبعض الأعمال فى التاريخ أيضا ذات انسجام وانتظام ، ولكن التاريخ ليس قطعاً تعد وتحصى ، وحوادث لا صلة لها بالأفراد والنفوس والعادات والتقاليد والعقائد ، وإنما هو ذو ارتباط بالأفراد وميولهم ونفوسهم ، والمناهج الإحصائية لا علاقة لها بحال الأفراد ، وإنما تقصر نفسها على الظواهر الجماعية ، كما أن المناهج الإحصائية تفرض نفسها كعمل حتمية لبعض الأعمال ، فى حين أن الأعمال الإنسانية تكون اختيارية

(١) بكل « تاريخ المدينة بالإنجلترا » (نيويورك ١٨٥٨) ص ١٤ نقل عن فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

يمثل « بكل » فى الفكر التاريخي بالإنجلترا ما يمثله « لين » فى فرنسا ، فكلاهما من أنصار الطبيعه والمذهب الوضعى ، وكلاهما يطبق مذهب ومنهج كومت ، الذى كان يرى أن القوانين الطبيعية تعين تطور الجنس البشرى . مثلما أن هناك قانونا طبيعيا يعين سقوط الحجر .

لاجبرية ، فمثلا حالات الانتحار في المجتمع حالات اختيارية ، لظروف سابقة ، واختيار الإنسان لما يحبه من الأعمال شيء اختياري ، ثم إن نقل الوقائع السابقة في التاريخ عمل يحتاج إلى دقة بالغة ؛ حتى يمكن تصنيفه إحصائيا ، وهذه الدقة غير متوفرة في العصر التاريخي ، كما سبق لنا ورأينا في دراستنا للتاريخ .

وعلى افتراض توفر ذلك فإن الحوادث الإنسانية كثيرا ما ترتبط بخيوط عدة تحركها وتشرف عليها ، وهذه الخيوط غالبا ما تكون في العمق الإنساني ، وتختلف من حالة إلى حالة ، ومن شخص إلى آخر ، فكيف يمكن تصنيفها وهي بهذه الكيفية المعقدة .

التفسير السيكولوجي :

انتحى فريق من العلماء ناحية أخرى في تفسير التاريخ ، فوضعوه في قوانين عامة ليست قوانين الطبيعة ، وإنما هي قوانين سيكولوجية « أى نفسية » ، وقرروا أن الإنسان يسير من داخله بأشياء نفسية ، لا بظواهر خارجية ، وهذه الأعمال التي نراها لها جذور نفسية غائرة ، فإذا وفقنا إلى إيجاد قانون عام لا ينقض يسيطر على هذه الأفكار والمشاعر ، وحققنا لها نظاما محدد ؛ فقد نعتقد أننا وجدنا قبسا يهدي طريقنا إلى العالم التاريخي ، وإلى حل رموز كثيرة من الحوادث التاريخية التي تهم كل الإنسانية ، التي تريد أن تتعلم من التاريخ ، وتأخذ منه الدروس والعبر .

لمبرحت ونظرته للتاريخ :

وكان على رأس القائلين بهذا القانون النفسي « السيكولوجي » : كارل لمبرحت من المؤرخين المحدثين ، الذين أفاضوا في شرح هذه النظرية ، وضرب الأمثلة لها بالواقع المحسوس ، في كتابه « التاريخ الألماني » ذي الاثنى عشر مجلدا ، من حيث يرى لمبرحت « أن أحوال العقل الإنساني يتلو بعضها بعضا في نظام لا يتغير ، وهذا النظام يعين — دفعة واحدة — نسق الحضارة الإنسانية . ورفض لمبرحت قبول آراء النظرية الاقتصادية ، ويرى أن كل فعل اقتصادي ككل فعل عقل ، يعتمد على ظروف نفسية ، إلا أننا نحتاج إلى سيكولوجيا اجتماعية ، لاسيكولوجيا فردية ، أى سيكولوجيا تفسر التغيرات في العقل الاجتماعي ، وهذه

التغيرات مربوطة إلى خطة ثابتة صارمة ، وإذا فإن التاريخ لا يجب أن يكون دراسة أفراد . ويجب أن يتحرر من كل لون من ألوان عبادة الأبطال . ومشكلته الرئيسية تتصل بالعوامل الاجتماعية النفسية لا بالعوامل الفردية النفسية » (١).

وكان لمبرحت يعتقد أن لكل شيء في الطبيعة روحا ، وليست الروح قاصرة على الإنسان ، ويرسم خطوات للوصول إلى خطته ، فقال : « ننتقل من الروحانية إلى الرمزية ، فالأنموذجية ، فالعرفية ، فالفردية ، فالذاتية ، على التوالي ووصف هذه الخطة بأنها حتمية لا يدركها الوهن . وقد جرد هذه الخطة المستوحاة من التاريخ الألمانى ، وكتب يقول : « من المادة كلها نحصل على انطباع سيكولوجى عام يصرح إطلاقا بفكرة الوحدة ، تجريبية كانت أو تاريخية ، ويتطلبها ، ولا نحصل فحسب على فكرة الوحدة نفسها ، وكل الأحداث النفسية المشتركة في زمن ، ومنها النفس الفردى ، ومنها النفس الجماعى تتجه نحو تشابه مشترك » (٢).

ونحن نقول : إن هذه النظرية لا شك أنها تلمس الناحية النفسية التى تحرك الإنسان وتصوغ كثيرا من أعماله بألوانها المختلفة ، ونستطيع أن نقول : إن الناحية النفسية للإنسان هى وقود أعماله ، وبحرك أفعاله الظاهرة للعيان ، وهذا ما يعنيه « تين » حين يتساءل قائلا « حين ترمى الإنسان المرمى بعينيك فعن ماذا تفتش ؟ عن الإنسان غير المرمى ، وإنما الكلمات التى تقرر أذنك والإيماءات وحركات الرأس والملابس التى يلبسها والأعمال المنظورة من كل نوع ، إنما هذه جميعا تعبيرات لا غير ، ومن دونها ينبلج شيء هو نفس إنسان داخلى ، قد تخفى في إهاب إنسان خارجى ، والثانى يكشف عن الأول ، وكل تلك الأمور الخارجية طرق تؤدى إلى مركز تمشى فيها ، لكى تبلغ ذلك المركز لشيء آخر ، وهذا المركز هو الإنسان الحقيقى ، هذا العالم الداخلى مادة جديدة صالحة للمؤرخ » (٣).

(١) مدخل إلى فلسفة الحضارة — أرنست كاسير ص ٣٣٧ بتصرف .

(٢) « ما التاريخ » ؟ : ترجمة أندروز نيويورك ١٩٥٥ ط نكميلان ص ١٦٣ ، عن مدخل إلى فلسفة الحضارة أرنست كاسير ص ٣٣٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

ولكن بعد هذا العرض للنظرية النفسية ، ما حقيقتها ، وجدواها ؟ الواقع أن هذه النظرية مثل النظريات السابقة ، تدخل في متاهات لا يمكن ضبطها بقوانين مثل العلوم ، وإن كان المؤرخ يأخذ من كل منها ، ولكن حسب ما يتطلبه الفكر التاريخي ، لا يستطيع أحد من هؤلاء المؤرخين القائلين بالنظريات المختلفة في تفسير التاريخ إنكار أن الحقائق التاريخية لا تنتمي إلى النوع الذى تنتمي له الحقائق العلمية ، ومادام النوع قد اختلف وتباعد ؛ فكيف إذا ينتظمه قانون واحد ، إن حقائق التاريخ وثائق وآثار ، وهى ليست أموراً عادية فقط ، وإنما هى دلالات ورموز وإيحاءات كذلك ، وهذا العالم الرمزي يتأثر بالبيئة والزمان والمكان ، وليس على وتيرة واحدة ولهذا نجد أن الزمان قد يكون واحداً والحضارة فى البيئات مختلفة والعادات متنوعة ، ونرى فى الآثار حضارات تولع ببناء المقابر ، وأخرى ببناء الحصون والحدائق ، وكل حضارة لها مميزاتها ورموزها وتقاليدها ، ويتنوع هذا بتنوع الحضارات ، وليس معنى هذا أنه ليس هناك رابط واحد بينهم ، وإنما يستحيل أن يكونوا نسخة واحدة ، وبالتالي لا يجمعهم قانون واحد أو نظرية واحدة .

ومثل هذه التفسيرات سواء كانت متفقة أم مختلفة تتضمن بالضرورة عدداً من العناصر المتصلة بمعنى التاريخ ، حيث أنها لا تقف عند الوقائع الموضوعية والمعايير المنطقية المتصلة بفكرة العلية التى يقدمها المؤرخ ، وإنما تتجاوز ذلك إلى محاولة فهم المغزى العام لحركة التاريخ ، والنفوذ إلى باطن الأشياء ، وما يستتر خلفها ؛ للتساؤل عن القيم الإنسانية العملية التى تسيطر عليها ، فهذه التفسيرات ليست فى الحقيقة أشياء وهمية ، وإنما هى تتصل بفلسفة القيمة التاريخية لتبرير الإيمان بالتقدم والرفاهية والكمال والمساواة ، ولكن الحقيقة التى يلحظها كل مؤرخ أنه لا توجد حتى الآن نظرية علمية واحدة فى تفسير التاريخ ، وينبغى قبولها قبولاً تاماً لا مأخذ فيه ، كما تقبل النظريات العلمية فى مباحث الطبيعة ، لأن النظريات العلمية تقوم على أساس تجريبي دقيق تدرس فيه المواد كاملة . ولم يتوفر ذلك فى المادة التاريخية بعد ؛ لأسباب كثيرة منها : عدم تكامل الحلقات التاريخية المعتمدة على الوثائق الصحيحة ، ومنها : اختلاف الأهواء والنحل والمذاهب السياسية ، ومنها العواطف والميول الشخصية ، إذاً لابد من بحث آخر لتفسير التاريخ .

التفسير الواقعي للتاريخ الحضارى :

وإذا أردنا أن نكون واقعيين فى دراستنا للتاريخ الحضارى ؛ يجب أن نتبع مسار التاريخ بما يوافق مادته وطبيعته ، فالتاريخ هو دراسة حركة الكون ، وحركة الأرض ، وحركة الأحياء والناس على وجه الأرض ، وما تستتبعه هذه الحركة الدائبة من تحرك دائم ، منذ الأزل إلى الأبد ، وهو يشمل الحاضر والماضى والمستقبل جميعا ، وهذا التقسيم أمر نسبى ، أى بالنسبة إلى الإنسان فقط ، وأما بالنسبة إلى الزمن المطلق ؛ فأين هى الحدود التى تفصل بين ما نسميه بالماضى والحاضر والمستقبل ؟ فما هو ماض بالنسبة لنا كان حاضرا بالنسبة لمعاصريه ممن سبقونا ، وهو مستقبل بالنسبة إلى من كان قبلهم . وحاضرنا الذى نحن فيه ؛ إنما هو ماض بالنسبة لنا أنفسنا غدا ، والمستقبل الخافى وراء الغيب سيكون ماضيا بالنسبة لمن ينسأ الله فى أجله منا ، ولكل من يأتون بعدنا ، ولا سبيل لمن يريد أن يدرس حركة التاريخ فيما مضى إلا بأمور — الأول : المشاهدة ، الثانى : الرواية ، أو مايقوم مقامها ، الثالث : من وثائق صحيحة وآثار واضحة بينة .

الأول المشاهدة :

هى عين اليقين التى ليس يعوزها بيان ، فإذا شاهد الإنسان الحدث أو الواقع استطاع أن يصفه ، ويحيط بجوانبه ، ويحكم عليه بأدلة منطقية ومقدمات صحيحة ، وكما يقولون فما من راء كمن سمعا . ولهذا كان رأى المؤرخ المعاصر دائما محترما وموثقا ، يعول عليه ويؤخذ به ؛ لما له من رؤية للأحداث ومعاشية للوقائع — (وهذا مع اشتراط صفات معينة معروفة فى المؤرخ) .

وهذه المشاهدة وحركة تدوين التاريخ بالمشاهدة ما وجدت إلا فى العصر الحديث ، فى تلك الحضارة المتأخرة ، التى نهت العقول والأفكار ، وبحث فى كل فن ، وحققت فى كل علم ، وسارت فى كل درب ، حتى بلغت ما بلغت . أما فى العصور القديمة ، وحينما يوغل الإنسان فى القدم ؛ فإنه ينقطع التدوين بالمشاهدة ؛ لأن التاريخ علم جديد ، والبحث فيه عن الحقائق أسلوب متأخر فى النظرة إلى التاريخ ، كما ألحنا إلى ذلك قبل ، حيث كان التاريخ عبارة عن رواية الأساطير .

الثاني الرواية :

وهي طريقة جيدة من طرق الإثبات والتحقيق ، وتنظم وتمثل هذه الطريقة في رواية فرد عن فرد ، أو رواية فرد عن جماعة ، أو جماعة عن فرد ، أو جماعة عن جماعة ، في سلاسل مختلفة من القوة والضعف ، حسب شروط معينة معروفة مثبتة ، وخير من وضع ذلك وبينه وفصله علماء الحديث عند المسلمين ، وهذا ليس مجال بحثنا ، فمن أراد المزيد فعليه بكتب مصطلح الحديث وكتب الرجال ، وبالشروط الواجب اتباعها حتى تكون الأخبار موثقة .

وهذه الطريقة أطول عمرا من سابقتها ، حيث ينتقل الخبر من جيل إلى جيل ، ومن زمان إلى زمان حسب طول السلسلة وقصرها . وهذه الطريقة كان لها فضل كبير في إثبات كثير من الأحداث عند المسلمين وتلويها فيما بعد ، في عصور التدوين المزدهرة عند المسلمين ، وقد أدى هذا إلى حفظ كثير من الآثار والوقائع الصادقة بما لم يوجد في تاريخ أمة من الأمم أو ملة من الملل ، إلا أن فاعلية هذه الطريقة تكون محدودة بزمان معين ، وإن كانت أطول كثيرا من الطريقة الأولى ، ولكنه لابد وأن يتلقفها التدوين سريعا بعد عدة أجيال ؛ خوف ظهور الوهن في تلك السلاسل المثبتة للرواية ، وتعتبر هذه الطريقة مكملة للمشاهدة أو امتدادا لها .

الثالث : الآثار :

فإذا لم توجد مشاهدة للحوادث ومجرياتها وللحياة وتقلباتها ، وإذا لم تتحقق رواية للأخبار أو الحوادث وأسبابها وعللها وملابساتها ؛ لم يبق أمام المؤرخ إلا أن يبحث عن آثار أو وثائق ؛ لأننا ليس في وسعنا أن نعيد بناء ذلك الماضي ، ولا أن نوقظه في حياة جديدة ، وكل ما نستطيعه هو أن نتذكره ونمنحه وجودا مثاليا جديدا ، لا بالمشاهدة ولا بالرواية ، لأن المؤرخ لا يستطيع — كما أوضحنا — أن يواجه الأحداث نفسها ، ولا يستطيع أن يدخل في أشكال حياة سابقة ، إذا فليس لديه إلا طريق واحد ، وهو سبيل غير مباشر يوصله إلى ما يريد ، وهو الرجوع إلى المصادر الموصلة إلى الحقائق ، إلا أن هذه المصادر ليست أمورا مادية بالمعنى

المألوف لهذه الكلمة ، وإنما هى أشياء رمزية ، وعليه أن يقرأ هذه الرموز ، وكل حقيقة رمزية مهما تبدو بسيطة فلا يمكن أن تعين أو تفهم إلا بتحليل أولى للرموز ، ثم الوصول منها إلى الحقيقة ، والمواد الأولية المباشرة فى معرفة التاريخ وثائق وآثار ، لا أشياء وحوادث ، ولا نستطيع أن نسير إلى حقيقة تاريخية إلا إذا استنطقنا هذه الوثائق والآثار ، والآثار كثيرة ومتنوعة تؤدى كلها إلى معانى وأحداث معينة ، تستشف من هذه الآثار ، وتقرأ فى وجوه هذه المخلفات الرابضة فوق الأديم ، والراقدة تحت التراب .

المباني :

المباني من حيث قيمتها التاريخية كبيرة جدا ، حيث توحى بتاريخ عصرها ، وحوار حقبا ، وطبيعة هؤلاء المشيدين لها . وفى هذا يقول غستاف لوبون : « المباني من حيث بعض الحضارات هى المصدر الوحيد الذى يصحح به الماضى تقريبا ، فبفضل هذه الآثار الحجرية يعد اطلاقنا على المصريين والآشوريين والهندوس ، مثلا ، أفضل من اطلاقنا على أم ظهرت على مسرح العالم بعد هؤلاء بزمان طويل جدا . كالعوليين مثلا . ويكشف فن البناء أحيانا عن عناصر التاريخ التى لا تُحدث عنها الكتب ، وهكذا درست مباني الهند حيث هى فاستطعت أن أقرأ على النقوش البارزة علل زوال البهية فى شبه الجزيرة الكبرى ، والبهية ما اعتقدت حين ذلك الحين أنها مازالت بفعل الاضطهاد والعنف ، مع أنها توارت بانصهارها فى الديانات السابقة ، وتؤدى دراسة الآثار الفنية إلى تصحيح الآراء الكلاسيكية »^(١)

فإذا ما نظرنا إلى روائع البنائين والمصورين والنحاتين والصواغ فى تلك الأحقاب ؛ عرفنا الفرق بين العصور ، من حيث تقدمها العلمى والفنى ، وأدركنا مدى تعاملها مع عناصر الطبيعة والاستفادة من خصائصها ، وكيفية الإبداع فى الربط بينها ، وتوظيفها فيما يريد هذا الإنسان ويهوى ، وكل إبداع وراءه جهد وعلم وذوق يحدد كমে ومقدار الصعود والتدرج فى مراتب الإحسان والكمال — فمثلا —

(١) فلسفة التاريخ غستاف لوبون ١ / ١٠٠ ط دار المعارف

الأبنية الضخمة التي وجدت صامدة تقارع الزمان بعزم الجبابة وعناد الرواسي تدل على تمكن في علم الهندسة وفن البناء ، وخاصة ونحن نرى في عصرنا الحديث أن كثيرا من الأعمال الهندسية قد تنهدم على رءوس مشيديها ، قبل فراغهم منها ، أو مغادرتهم لها ، فإذا رأينا أبنية كالجبال تحطم الأجيال ، وتقهر العوادي ، رغم مرور خمسة آلاف سنة أو يزيد ؛ عرفنا مقدار ما بلغت هذه الأمة من تقدم في هذا الفن .

ولهذا نرى ، روجه غارودي يقول « قبور المصريين الضخمة توحى بالإعجاز من الناحية العلمية ، فقد حسبت أشكالها بدقة فائقة لا تسمح بإيلاج إبرة بين أية كتلة من أحجارها ، وقد آب « فيثاغورس » من رحلته إلى مصر وهو يحمل مبادئ الهندسة التي نقلها إلينا » (١)

الناحية الدينية :

كما يظهر من المباني حجم التقدم العمراني ، يظهر كذلك منها الناحية الدينية . فقد بنيت المعابد والهياكل الضخمة ، وشيدت المقابر الهائلة ، وحنطت الجثث الكثيرة ؛ رجاء حفظها ، ووضع عندها الطعام والشراب وما يلزمها الحياة أخرى ، كما وجدت رسوم لمحاكم إلهية وقوانين ربانية ، يحاسب على منوالها الإنسان أمام ربه ، كما وجدت صور كثيرة للآلهة المتعددة التي كانت تحكم الأقاليم ، ويختص كل إقليم منها بإله ، كما كانت تدون قدرة الآلهة وأعمالهم بأشكال ورسوم معبرة ، فمثلا يرسم الإله وهو يخلق إنسانا ، وبجانبه من يكتب رزقه وأجله ، كما عرف تطور فكرة العبادة عندهم ، إلى أن وصلت إلى عبادة الحيوانات ، فكانت ترسم الآلهة برءوس حيوانات وأجساد بشر ، فمثلا يشاهد الإله خنوم مرسوما برأس حيوان ، والإله توت برأس طائر يسمى « أبو منجل » ، فيعرف المؤرخ من هذه الرسوم والدلالات كيفية التدرج إلى عبادة الحيوان عندهم (٢)

(١) حوار الحضارات روجه غارودي ص ٢١ ط عويدات .

(٢) انظر تاريخ العالم محاضرات الدكتور ركوك ج ١ ص ٦٧٣ وما بعدها .

الكتابة والتدوين للحوادث عند القدماء : —

دون القدماء كثيرا من أخبارهم على جدران معابدهم ومقابرهم ، فدونوا الحروب والانتصارات ، كما سجلوا مواسمهم الزراعية وأعياد الحصاد والربيع وفيضان النيل وغير ذلك من أخبارهم العامة ، كما سجلوا وصايا الآلهة وقوانينهم الأخلاقية التي يسيرون عليها ويقدمونها ، وقد أخذت الكتابة عندهم أطواراً عدة ، ويبدو أن اكتشاف الكتابة أخذ فترة من الوقت حتى نضجت فكرتها ، وظهرت على نحو ما ، وقد بدأت الكتابة بالصور مثل تلك التي ما يزال يستعملها الهنود في أمريكا ، بل ومازال العالم إلى الآن يستعمل تلك الكتابة ، وهي في الحقيقة لغة عالمية يفهمها الجميع ، فوجد اليوم في جدول السكك الحديدية وعلى الطرق السريعة علامات في كثير من بلدان العالم بدل الكتابة ، للدلالة على مسميات يعرفها الجميع ، بدلا من تعدد الكتابة بلغات مختلفة ، ولوضوحها ولفتها للأنظار — فتدل علامة فنجان على أن في هذا المكان مقهى — أو بوفيه ، وتدل الشوكة والسكين على أن في هذا المكان مطعم ، وساعة التليفون على أن هناك تليفون أو تلغراف ، وظرف الخطاب على أن هناك بريد — والهلل على أن هنا مستشفى .

وما زالت الكتابة الصينية للآن تحمل كثيرا من هذه الرموز بدون خجل ، ويعتبرونها تراثا يجب أن يحافظ عليه ، ثم تدرجت هذه الكتابة الهيروغليفية إلى الهيرواطيقية ، ثم اشتقت منها كتابات أخرى كثيرة ، منها الكتابة المسمارية ، ثم تدرجت إلى الحروف الأبجدية ، وقد ظلت الكتابة القديمة تلامس إلى أن عثر على حجر رشيد ، واستطاع العالم « شنبليون » أن يفك رموز الكتابة الموجودة عليه بثلاث لغات ، فعرفت الكتابة الهيروغليفية ، وقد كانت منسية تماما ، مع أنه كان يتكلم بها مدة خمسة آلاف سنة ، أو ستة آلاف سنة ، وبعدها استطاع المؤرخون أن يعرفوا كثيرا من أخبار القدماء ، وكذلك أيضا ساعد فك كتابات « أشوكا » الشهيرة القريبة من أوائل التاريخ الميلادي على معرفة حقيقة حضارة الهند وعمرها ، التي كان يعزى إليها قدم أسطوري ، تبين أنها من أحدث حضارات التاريخ .

الوثائق المكتوبة :

« فقبل خمس وعشرين عاما وجدت بمصر بردية مصرية تحت أنقاض أحد البيوت ، وكانت تحتوى على كتابات عدة ، تبدو وكأنها ملاحظات محام أو كاتب عقود ، تدور حول عمله ، ولم يفكر أحد أن لها أهمية تاريخية ، إلى أن اكتشف فيما بعد نص آخر تحت الأول ، وبعد فحص دقيق تبين أنها بقايا من هزليات أربع ، كانت مجهولة حتى ذلك الحين ، من تأليف ميناندر ، عند ذلك تغيرت طبيعة ذلك النص ، وتغيرت قيمته ، وأصبح وثيقة تاريخية تحكى مرحلة هامة في تطور الأدب اليوناني (١) .

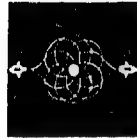
وهذه الوثائق أو هذه الآثار تظهر مدى ما تربط به الأمة من فكر وثقافة ، وتساعد الباحث على معرفة روح العصر ، والمؤثرات التي كانت تحركه في هذه الحقب البعيدة ، وتعينه كذلك على معرفة مزاج الأمة النفسى بدراسة القصص والأمثال والحكايات والروايات ، ولا ريب ، فإن أخلاق الشعب تظهر من خلال ما ينتج ، كما أنه وجد من الوثائق ما يكشف عن سلوكيات المجتمع وعمق العقيدة في نفسه ، فوجد في أحد الأضرحة الفرعونية تلك الشهادة دلالة على نظافة صاحب القبر ، « ولم أجعل أحدا يبيكى ، لم أسبب إيلام الناس » ونقرأ كذلك في كتاب الموتى « أعط الجوع خبزاً ، والعطاش ماء ، والعراة كساء ، إن الصالحين العادلين يتمتعون بنشوة الأرض وإن الخلود ليرتبط بالأخلاق » (٢)

وهكذا نرى أنه بدراسة ما خلفه القدماء نستطيع أن نفسر تاريخهم ، وأن نعرف أحوال حضارتهم ، وعلى أى أساس كانت ، وعلى أى فكر تقدمت ، وبأى علم سادت وتفوقت ، أو تأخرت وتدنت . إذاً لابد لمن أراد أن يفسر التاريخ أن يبدأ من هذه النقطة ، ومنها يبنى ما يشاء من نظريات وإحصاءات وعلل ، ولكن بدون ذلك يكون المؤرخ كالفيلسوف ، يعتمد على التخيل والبحث في الأمور الغيبية ،

(١) انظر فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٢٩٩ .

(٢) حوار الحضارات ، روجيه غارودي ص ٢١ ط عويدان .

وتكون بحوثه سبحات وأفكار ، لا يصح أن يطلق عليها علم أو تاريخ ، ولهذا يقول كاسيرر : « وعلى التاريخ أن يبدأ بالآثار ؛ لأنه لا يستطيع دونها أن يخطو خطوة واحدة ، وليس هذا إلا واجبا ابتدائيا أوليا ، ذلك أن على المؤرخ أن يتعلم كيف يقرأ ، أو يفسر وثائقه وعاداته باعتبار أنها رسائل حية من الماضي »^(١) إذا يكون الماضي بأسراره وغيبه هو حقلنا وميداننا الذى يجب أن يماط عنه اللثام بالوسائل المؤدية إلى كشف الحقيقة ، بالبراهين الصادقة التى لا تخضع للتخرس أو الظنون ، وهذه البراهين لا تكون إلا بما قدمنا ، لأن الحقيقة التاريخية معرفة بوثائق وآثار ، ولا نستطيع أن نكشف مكنونها إلا بواسطة تدخل من هذه المعلومات التى تستنطق الرجال والعصور بما كانت عليه من حضارة ورقى وفهم وعلم وثقافة وقانون ، وتعطينا تفسيراً سليماً وتوضيحاً بينا للتقدم العمرانى والهندسى والخلقى والفكرى فى الأزمنة المختلفة كما تهدينا إلى أسلوبهم فى الحياة ، وعقائدهم التى كانوا يدينون بها ونظمهم التجارية والصناعية ، وعادات تلك المجتمعات ، وقيمة الإنسان الاجتماعية ، وغير ذلك مما يبحث عنه اليوم فى الحضارات .



(١) فلسفة الحضارة الإنسانية كاسيرر ص ٣٠١ .

الفصل الثالث

التحرك الحضاري وكيفية قيام الحضارات

المبحث الأول

التحرك البشرى وخطوات هذا التحرك

إن وجود الإنسان على ظهر الأرض هو بلا شك — السبب الفعلى لاهتمامات الإنسان بهذا الكوكب، ووجود البشر من آماذ سحيقة على هذا الكوكب حقيقة ليس حولها جدال ، ولكن تحديد عمر الإنسان على هذا الكوكب وكيفية حياته الأولى أضحي مادة لكثير من النظريات والتقديرات والبحوث فى العصر الحديث ، وكلها تدور حول تساؤلات معينة هل الإنسان أصل بنفسه ، أو بينه وبين الحيوان نسب وبينه وبين القردة عرق ؟

وهل كان الإنسان متوحشا فاستؤنس ، وذاهلا فوهب العقل ، وغليظا ففرقت حاشيته ، وهمجيا فحسن خلقه وتهذبت سيرته ؟ خاض فى كل ذلك فريق من الباحثين ، واعتمد الخائضون فى ذلك أول الأمر على الخيال والأساطير ، ثم على الآثار والتنقيب ، والبحث فى المخلفات التى يعثر عليها عادة فى الكهوف وفى الآثار المدفونة والرسوم المنقوشة والعظام النخرة ، وحاول كل فريق أن يجد سنداً لما يقول ، واشتعلت هذه الحيرة فى أوساط غير المتدينين عامة وغير المسلمين خاصة ، ممن تتلاعب بهم الأهواء المغرضة تارة والكشوف المبتورة والأفكار الشاردة تارة أخرى .

ونحن لا نعارض علما نزيها وكشفا ظاهرا يحقق معرفة أكيدة بالدليل والبرهان ، وإنما نرد التخرصات التى تضع السم فى الدسم ، وتلبس الحق بالباطل ، وتستدل بذرة من الحقيقة على جبال من الأكاذيب ، وسنعرض لهذا التحرك البشرى بمفهوم

المؤرخين ، ولنا بعد ذلك عرض آخر في المفهوم الإسلامى لهذا التحرك ، على أننا في تعرضنا لهذا السرد التاريخى نسير في جانب الكشف والآثار ، ونتتبع مواطن البحث العلمى بالشواهد التى وجدت حتى الآن في الساحة العامة لتلك الحقب التاريخية ، باختصار شديد يؤدي إلى المطلوب إن شاء الله .

مواطن الإنسان الأول

إن عمر الإنسان على وجه الأرض لا يشكل سوى جزء بسيط جدا من الزمان ؛ إذا قيس بعمر الأرض نفسها ، ولا شك أن الأرض — حسب النظريات الموجودة — بعد انفصالها عن الشمس احتاجت إلى آمد طويلة حتى صلحت للحياة ، ثم بدأت الحياة على وجه الأرض ، ولكن كيف بدأت الحياة ، وما هو أصل الإنسان الأول، وكيف وجد هذا الإنسان ، أسئلة أجاب عليها الفكر الدينى الصحيح بسهولة ويسر ومن غير تعقيد ، فالإنسان الأول مخلوق لله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾^(١) نزل إلى الأرض ، وجعل الله له فيها معاش ، وأنبأ له فيها كل ما يحتاج ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾^(٢) ، ثم بعد ذلك أمر بالسعى والعمل ؛ ليكسب قوته ويدبر عيشه ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾^(٣) .

ولكن الفكر الرافض لهذه الحقيقة ، ظل حائرا لا يدري ماذا يفعل ، وليس له وسيلة غير عقله وأساطيره . فحاول أن يهتدى بطريقة العقل ، أو أن يقنع نفسه بنظرية ما ولا شيء غير النظرية ، لأن الحقيقة سحيقة القرار بعيدة الغور ، إلى أن ظهر تشارلس داروين وألف كتابه أصل الأنواع في عام ١٨٥٩ ، وحاول أن يتكلم في عملية التطور ، وجاء بفكره المعروف ، وتساءل الناس عن هذا الإنسان : أهو متطور من القرود العليا حقا ، أم هو مخلوق وأصل بذاته ؟ ثم تطور في شكله وخلق

(١) النساء : ١ .

(٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) الملك : ١٥ .

وحياته فيما بعد ، وخلق معه الحيوان والنبات في وقت واحد ، وانقسم الناس قسمين : قسم يقول كما يقول داروين ، يدفعه هوى في نفسه وميل جارف إلى تحطيم النظرة الدينية عند الكثيرين ، متمسكا بها كأنها الحق الذي لا مراء فيه ولا قول بعده . وقسم آخر أنكر ذلك على داروين ، وواجهه بالأدلة وبالواقع ، وكان الفيصل عند المتشككين في النظريتين هو البحث العلمى والكشوف التى يعثر عليها من مخلفات العصور القديمة . فهى إذا الطريقة الوحيدة المؤكدة في رأيهم على أن الإنسان كان حيوانا من العجماوات ، أو أنه مخلوق بأصل مختلف وطبيعة متميزة ، ولهذا السبب كان اكتشاف الحفريات البشرية بالغ الأثر في كشف هذا الغموض ، وتوالت الكشوف في أنحاء كثيرة « ففى الصين عثر على جمجمة في مغارة عند « تل التنين » ، سميت بإنسان بكين ، ومنذ ذلك اليوم من عام ١٩٢٩ أصبح إنسان بكين مشهورا ؛ لأنه واحد من أكثر الحفريات التى عثر عليها ، وحظيت بالدراسة على نطاق واسع ، ولقد دونت الكثير من الدراسات على شكل الجمجمة وحدها ومقاييسها ، وبعدها عثر على جمجمة قديمة قدم هذه الجمجمة في جزيرة جاوه باندونيسيا ، بل لقد عثر على ماهو أقدم في أفريقيا « أسترالوبيثيكس » ، وعن طريق الحساب تبين أن الإنسان عاش في هذه المناطق منذ ٦٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ سنة ، والجماجم التى عثر عليها تنتمى إلى أقدم الأنواع للإنسان الذى عاش على الأرض ، ويبدو من المناطق التى عثر عليها فيها أن الإنسان بدأ أول ما بدأ في هذه المناطق الأكثر دفئا في العالم ، ومن هذه الكشوف تبخرت الفكرة الداروانية ، وثبت أن الإنسان أصل بذاته من آماذ سحيقة لم تتغير ولم تتبدل ، برغم تباعد الدهور ومرور القرون » (١).

مسيرة الإنسان :

وجد الإنسان على ظهر الأرض وهى مهياة لاستقباله ، ففيها الماء والهواء والطعام من نبات وحيوان ، كما أن الإنسان رزق العقل ؛ لكى يعمل في إطعام نفسه

(١) نظرية دارون للأستاذ الكيلاني ص ١٦ وما بعدها وانظر تطور الإنسان للسير أرثر كيت في تاريخ العالم ١ / ١٤٩ ، انظر معالم تاريخ الإنسانية ١ / ٥٨ ولز ط لجنة التأليف تنصرف .

وحمايتها ، لأن الله ركبه على صورة لا تصلح حياته إلا بالغذاء ، فكان أول شيء يفكر فيه الإنسان على وجه الأرض هو الغذاء ، ثم فكر بعد ذلك في كل ما يخدم ذلك ويصلحه ويتعاون معه عليه ، وفي هذا يقول ابن خلدون مبينا ذلك « إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصلح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهذه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله . إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعيد وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة . من حداد ونجار وفاخوري ، هب أنه كان يأكل حبا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من ذلك ، من الزراعة والحصاد والدياس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى ، ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ، ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجات لأكثر منهم بأضعاف ، كذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان ، فقدره الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الإنسان ، وكذا قدرة الحمار والثور ، وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته ، وكما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعتة ما يصل إليه من عادية غيره . وجعل كذلك للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدة من سائر الحيوانات للدفاع : مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، والتراس النائبة عن البشترات الجاسية إلى غير ذلك^(١) .

(١) ابن خلدون المقدمة ١ / ٢٧٢ ط د - وافي .

وهكذا يسير الإنسان أول ما يسير في الأرض يقوده عقله لخدمة بطنه وحفظه نفسه ، ثم يخطو من البداوة إلى الحضارة شيئا فشيئا ، مستغلا مواهبه وما أودع الله فيه من قدرات ، وبفضل هذا الذهن حقق الإنسان اكتشافاته الأولى التي أدخلته ميدان الحضارة ، وفي الغالب تتم هذه الاكتشافات عن طريق المصادفة في الحياة اليومية ، ثم ينتبه لها الإنسان ، فاكتشاف الزراعة مثلا لابد أنه وجد عن طريق الصدفة والملاحظة ، حيث وجد الإنسان أن بعض ما يأكله يكون فيه نوع من البذر ، وبعد إلقائه على الأرض تبين أنه يخرج وينبت مثل أصله الأول ، ويخرج منه ثمر يؤكل أو حب يغرس مثل بذره الأول . وحدث ذلك وتكرر آلاف المرات ، فصار معرفة تستخدم بعد ذلك في الزراعة ، وكذلك بالنسبة لاكتشاف النار فقد كانت الأرض في الأعصر السحيقة ، قبل ملايين السنين ، كثيرة النيران من براكين وشهب متساقطة وحرائق مستعرة في الغابات ، فعرفها الإنسان واستعملها في الشتاء للدفء ، وطلبا للأنس في وحشة الليل ، لتريه ما يخشاه على نفسه في الظلام من وحش وغير ذلك ، ثم حدث احتراق حيوان فشم الإنسان رائحة طيبة ، وعندما تناول جسد هذا الحيوان المحترق ليأكله وجد أن اللحم قد طاب طعمه وسهل قضمه ، فتنبه إلى هذه الحقيقة ، وصار إذا صادف حيوانا ألقي به في النار قبل أكله ليطيب طعمه ، وفطن بعد هذا إلى فوائد النار ، فصار يحرص عليها ، واستخدمها في طهي الطعام ، وتليين المعادن وتشكيلها في الصورة التي يريد ، وعندما لانت له المعادن صنع الأواني واستخدمها في تسخين الماء ، وبتسخين الماء طيب الكثير من الأطعمة ، والدلالة على علاقة تسخين الماء بصنع الأواني ، أن الهنود الحمر مثلا برغم معرفتهم بقوة النار في تليين المعادن وتمكنهم من صنع الحراب والآلات القاطعة ورعوس السهام ؛ فإنهم لم يتوصلوا إلى صنع الأواني المعدنية ، ولهذا فإنهم لم يتوصلوا قط إلى تسخين المياه واستخدام ذلك في طهي الطعام . ثم توصل الإنسان بعد ذلك إلى صناعة النار من الشرر المتطاير من ارتطام بعض الأشياء الصلبة ببعض ، من حجارة وحديد ، واشتعال ما أصابه ذلك الشرر من هشيم ، وظهور النار ففطن لذلك ، وكرر هذا الفعل عمدا وتعلمه الناس ، وكانت للنار صناعات مثل صناعة الفخار والزجاج وغير ذلك ، فقد لاحظ الإنسان أن المكان الذي شب فيه نار وكان فيه

بعض الطين صلب ذلك الطين بعد خمود النار ، فعمد إلى الاستفادة من التجربة في صنع أشياء من الطين وحرقتها لتصير أواني ، وعرف كيف يصنع القدور والجرار بشتى أشكالها وصورها من الفخار ، واستخدمها في حياته من خزن الماء والطعام . فصار عند الإنسان رصيد ضخمة من التجارب ، وشيئا فشيئا ازدادت قدرته مع الأيام على الاستفادة من تجاربه ، وبتجمع كثير من الناس في مكان واحد صار كل يستفيد من ملاحظة الآخر وإبداعه ، ولاشك أن هذه الاكتشافات استلزمت آلاف السنين ، فقد قدر بعض المؤرخين عمر هذه الاكتشافات وما استغرقت من أزمنة فقال : إذا كان عمر الإنسان على وجه الأرض ثلاثة ملايين من السنين ، فقد انقضت منها مليون وتسعمائة ألف سنة وهو أسفل جبل الحضارة يكتشف هذه الاكتشافات الأولية ، من استخدام النار ، وصنع الفخار ، ومعالجة صيد الحيوان للتدثر بجلودها قبل أن يأخذ في الصعود إلى جبل الحضارة ، وأنفق تسعين ألف سنة أخرى قبل أن يجد طريقا مفتوحا للصعود المستمر ، فكأنه أنفق في الاستعداد للصعود والبحث عن الطريق تسعا وعشرين مرة قدر ما أنفق في السير الحضارى إلى اليوم .

دلالات المؤرخين في هذا الاستنتاج .

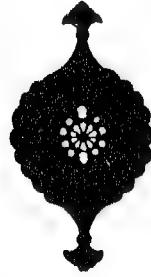
لاشك أن المؤرخين أمعنوا النظر في كثير من البحوث قبل هذا الاستنتاج العقلى الذى تخيلوه واقعا من ملايين السنين ، واستدلوا به على خطوات السير الحضارى للإنسان على وجه الأرض ، ولكن هذه التخيلات لم تنشأ في الواقع من فراغ ، فقد صرح كثير من المؤرخين أنه اعتمد في الدرجة الأولى على الكشف المتتالية للعصور الحجرية الأولى ، وعلى حالة بعض الشعوب التى ما تزال إلى اليوم في تأخر سحيق ، معزولة عن الحضارة ، وتتصل بسبب إلى الإنسان الأول في تفكيره وحالته وعاداته واستعمالاته اليومية وما يعتمد عليه في معيشتة وبقائه .

يقول السير أرثر كيت^(١) : « ومن حسن حظنا ونحن الذين نسعى إلى الكشف

(١) السير أرثر كيت أستاذ كرسى هنتر للتشريح بكلية الجراحين الملكية ومؤلف كتاب الصور القديمة « الإنسان والقومية والجنس » .. الخ .

عن تاريخ العالم وتاريخ سكانه أن النوع البشرى لا يتقدم كله معا ، فعندما كان أهل أوربا مقبلين على عهد الحضارة الصناعية كان أهالى تسمانيا وأستراليا وتيبراول وفويجو ، لا يكادون يخرجون من حضارة العصر الحجري القديم ، وفى وسعنا أن نهتدى بوصف الحياة التى شاهدها الكابتن كوك فى تسمانيا وأستراليا لمعرفة نوع الحياة التى كان يحياها أسلافنا فى أوربة منذ عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة ^(١).

وبهذا استطاع كثير من المؤرخين بعد بحوث واستطلاعات لهذه الشعوب البعيدة عن الحضارة فى الأماكن النائية ، وبعد الكشف الأثرية والبقايا والمخلفات للعصور السحيقة ؛ أن يكونوا فكرة عن الإنسان الأول وعن معاناته ، وعن حلقاته الحضارية فى كل ما يحيط به ، من مأكل ومسكن وملبس وعادة ، حتى بالغ بعضهم فرسم له صورا حية من التخيل والذاكرة فى جميع أوضاعه ، وقارنها بصور مماثلة من الشعوب المتأخرة حضاريا ؛ ليجعل ذلك لاصقا بالأذهان ، دالاً على هذا المسار الذى وضحوه وأخرجوه فكرا منظما ، ليأخذ شكل العلم المستقر .



(١) تاريخ العالم ١ / ٣٢٤ ط مكتبة النهضة المصرية .

البحث الثانى

الحياة الروحية فى التاريخ

عبد القدماء آلهة اعتقلوا فيها أنها تهيمن على حياتهم وأرزاقهم فى السلم والحرب ، ولم يظهر فى التاريخ القديم ذكر لمعبودات مثل ما ظهر عند قدماء المصريين ، وقد وصف الكاتب الإغريقى هيرودوت المصريين القدماء بأنهم أقوى البشر تمسكا بالدين ، لكنهم كانوا مشركين يعبدون آلهة عدة ، وكانوا يعتقدون أن هذه الآلهة تملك العالم ، وأنها ينبوع الرخاء الذى يعم مصر . لذلك فقد ظل الشعب ينفق الكثير من الوقت والجهد والمال فى بناء المعابد الرائعة ، والمقابر الفخمة ، وإقامة الطقوس الدينية والمهرجانات الإلهية ، لإرضاء الآلهة . وقد بلغ مجموع الآلهة المعبودة فى ذلك الزمن أكثر من ٢٠٠٠ إله ، بما فيها الآلهة الأجنبية التى كانت تجلب من سوريا وآشور وغيرها ، وقد وجدت بعض الآلهة فى الرسوم التى على المعابد وفى التماثيل برعوس بشر ، وبعضها برعوس حيوانات ، لكن بعض هذه الآلهة لم تكن فى أغلبها إلا أشكالاً مختلفة لآلهة أخرى ، وكان لكل إقليم آلهته المحلية ، ولكن عندما اتحدت مصر امتصت المعبودات المحلية أو امتزجت فى ديانة الدولة ، وكان مركزها فى عين شمس .

التوحيد :

وفى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حاول الملك اخناتون أن يبشر بالتوحيد « الإيمان بإله واحد » ، ولكنه لاقى مقاومة عنيفة من الكهنة الذين حرضوا عليه الناس ، وسالت فى سبيل ذلك دماء كثيرة ، ومات اخناتون ، وخلفه توت عنخ آمون ، ورجعوا إلى تعدد الآلهة ، وامتثل لعبادة الشمس توت عنخ آمون الصغير

لمشورة المقرين والأوصياء ، ورجع إلى عبادة الآلهة المصرية ، وسمى نفسه على اسم آمون أسمى المعبودات المصرية .

وقد عبدت مصر الشمس منذ الزمن المبكر ، وكان يرمز إليها « برع إله الشمس » ورب السماء والخلق ، وكان غالبا ما يصور رع برأس صقر وجسم طائر ، كرمز لقدرته على ارتياد السماء ، ولكن كان لرع أسماء عدة مقتبسة من بعض الآلهة المحلية مثل — حورس — آتون ، وهو إله الشمس الغاربة ، وآمون — إله الشمس في أقصى ارتفاعها — وكان رع وأسرته يكونون أسرة من تسع معبودات تسمى التاسوع ، ولقد ظلت تعبد هذه الآلهة حتى نهاية الحضارة المصرية ، وهذه الآلهة هي شو — إله الهواء ، وتغنت إله الضباب ، وجب إله الأرض ، ونوت — إله الليل ، وأبناؤهم أوزيريس ، وسيت ، وايزيس ، ونفتس .

عبادة الملوك :-

إن عبادة الملوك أخذت دورا بارزا عند القدماء ، وخاصة عند القدماء المصريين ، الذين تقمصتهم الآلهة المعبودة ، فكانوا هم ممثلين لها ، أو هي ممثلة فيهم ، من عبادهم عبدها وقام بحققها ، والقيام على خدمتهم قيام على خدمة الآلهة ، ولا ندرى كيف كانوا يتصورون أن الإله يموت أمام أعينهم ويدفن ويبنى له قبر ، ولكن يظهر أن فكرة الموت عندهم كانت تجوز على الآلهة كغيرهم من البشر ، أو أن أرواحهم كان تحل فيمن يأتي بعدهم ، ويتساءل ولز عن ذلك فيقول : « ولسنا ندرى كيف بلغ الملك عند المصريين هذه المنزلة ، فلم يكن أى ملك من ملوك سومر أو بابل أو آشور ليستطيع أن يحمل قومه على أن يقوموا له بما حمل بناء الأهرام العظام فراعين الأسرة الرابعة قومهم على أن يعملوه في تلك البنايات الشاحخة ، وليس بمستبعد أن كان الفراعنة الأوائل يعدون صورة جسدية لأقوى الأرباب سلطانا . ويجلس الرب البازي « حورس خلف رأس تمثال خفرع الضخمة ، على أن ملكا متأخرا مثل رمسيس الثالث « الأسرة العشرين » يمثل على ناووسه « وهو الآن بمدينة كامبيديج » حاملا الرموز المميزة الخاصة بالآلهة الثلاثة الكبرى للنظام الدينى المصرى ، متقلدا صولجانا « أوزيريس » رب النهار والبعث ، وواضعا على رأسه قرنى البقرة الربة

(هانور) ، هذا إلى قرص الشمس ، وريش أمون رع ، وهو لا يلبس هذه الرموز لمجرد لبسها كما كان يلبسها ملك بابل التقى رموز بعل ماردوك ، وإنما هو هذه الآلهة الثلاثة مجتمعة في شخص واحد ^(١) .

وكذلك كان الأمر عند اليونانيين ، كانت لهم آلهة متعددة ، لكنها تتصرف في العالم بما ينفع الناس أو يضرهم ، فإذا مررنا على عائلة الآلهة اليونانية نجدها كالاتى :

١ — جوبيتر : وهو أب الآلهة ، والملك الذى يحكم جميع الكائنات الحية ، يجلس على عرشه ، ويحمل في يده وميضاً من البرق المتعرج ، يدعى الصاعقة ، ويقف بجانبه نسر .

٢ — جونو أوهر — وهى زوجة زفس ، فهى إذن الملكة ، وهى تحمل في يدها صولجاناً ، وفى صحبتها الطاووس .

٣ — نيتون أبوسيدون ، ويحكم البحر ، ويستطيع أن يهيج البحر أو يسكنه .

٤ — أبولو — وهو أجمل الآلهة ، فهو إله الشمس والغناء والموسيقى ، وهو الذى يجعل الشمس تنير النهار .

٥ — مارس أو أوراس : وهو إله الحرب المرعب ، الذى يسر عند الحرب .

٦ — ماركورى أو هرمز : وهو رسول الآلهة ، وله أجنحة فى طاقيته وفى صندوقه .

٧ — منيرفا أو أثينا : وهى إلهة الحكمة .

٨ — فينس : وهى إلهة الحب والجمال ، فهى أجمل الإلهات ، كما أن أبولو هو أجمل الآلهة .

٩ — فستا : وهى إلهة البيت ، والموقد التى تحمى العائلة .

١٠ — زيريس : أوديمتر : وهى إلهة المزارعين ^(٢)

(١) معالم تاريخ الإنسانية لولز ١ / ٢٠٩ .

(٢) تاريخ العلم هليز ص ٥٨ بتصرف .

ومن الصعب على أى إنسان أن يتصور كيف كانت تعبد هذه الآلهة ، وكيف كان يتقرب إليها ، ولكن يظهر من هذا أن هذه المجتمعات كانت وثيقة الصلة بالروحانية ، وأنها كانت تؤمن بالغيب ، وهذه الروحانية وهذه العبادات لاشك أنها أورثت تلك الأمم أخلاقا معينة ، ورقابة للسلوك والتصرفات ، جعلتها تنهج نحو التقدم بثبات ، مكنها من صنع الكثير وعمل الكثير مما نشاهده من آثار وما خلفوه من تراث ثقافى وحضارى .

وكذلك كان الحال فى الهند والصين . حيث كانت الآلهة تمثل قوى الطبيعة الرئيسة المختلفة السماء ، والنار ، والضوء ، والرياح ، والماء ، والأرض ، وكل من هذه القوى كانوا يعتقدون فيها كشخص ، ويعطى له اسم ، فكان مثلا أوجنى إله النار ، وبراهما وفشنو ، وسيفا كانت تمثل الخلق والبقاء والفناء .

ويظهر من ذلك أن الديانات كانت متشابهة فى شتى الحضارات فى الزمن القديم ، ولها نفس الخواص ونفس العلاقة بالإنسان وبحياته ، وهذا الخضوع للآلهة والملوك وخوف الخروج على هذه القوى لا شك ولد قانونا يراعى ويحترم ويعمل به ويسار على منهجه ، وكل ذلك من ركائز الحضارة الإنسانية التى قادت ذلك الإنسان إلى رقة المعاملة وشفافية التفكير وإخلاص الضمير .



المبحث الثالث

العوامل المؤثرة فى قيام الحضارات

لابد فى قيام الحضارات من فكر لامع وعقل ناضج وإعداد نفسى وذهنى يتلاءم مع الحضارة المرتقبة ، يحمل بذرتها ويحتضن جنينها ، لأنه لابد لكل ضياء من شمس ، ولكل نور من قمر يبدد قتام الليل الطويل ، وغشاوة الحجب الكثيفة التى تحجب اتصال الفطرة بالفكرة ، ولقد عانت جميع الموجودات منذ ظهور الحياة على وجه الأرض سنة الولادة والنمو ، واقتضى تحول المادة الجامدة إلى مادة حية أكاداسا من الزمان ، وكان لابد من انقضاء ملايين السنين لخروج الأشكال النفسية والعقلية القادرة على استيعاب الأمور وترجمتها ، وجميع الاختراعات العظيمة مدينة لنمو الذكاء فقط . وكان لابد من ظهور عقول رائدة توجه طاقاتها للإبداع وريادة الأمم إلى استيعاب الحضارة ، وهؤلاء الرواد هم الذين يسميهم علماء الحضارة بأصحاب الوعى الحضارى .

وهذا الوعى الحضارى لا يشترط أن يوجد بالضرورة فى مخيلة كل فرد من أفراد الأمة ، أو يكون من لوازم الجماعة كلها حتى تتحرك للعمل الحضارى ، وإنما يكفى أن تكون هناك أقلية نابهة واعية ، تحمل ريادة العمل الحضارى ، وتقوم به ، وتوجه إليه ، وتقود الناس على دربه ، ولا يعرف التاريخ أمة من الأمم قامت بدور حضارى معين بغير تلك القلة الرائدة التى يطلق عليها المؤرخون « الصفوة » ، ويطلق عليها بالفرنسية « الإيليت » .

وقد انتقل إلى كل اللغات الأوربية ، ومعناه أصلا « الفئة المختارة » ، وقد تكلم المؤرخون كثيرا عن هذه الصفوة ، وعما تتحمله من أعباء ، وتقوم به من تضحيات ، وتعرض له من مخاطر في النفس والمال في سبيل قيامها بواجبها وتأديتها لرسالتها ، ووضعوها بين خيارين : إما أن يكون لديها القدر الكافي من الوعي والإرادة والقوة لإقصاء الفئات العائقة للحضارة وإزاحتها من طريق الأمة ، أو اتباع فئة مختارة أخرى حتى يتكون فيها القوة لذلك . وإما أن لا يكون لديها هذا القدر من الوعي ، فتجرها الفئة الفاسدة إلى التدهور والهلاك .

وقد تحدث عن هذه الصفوة أو الفئة المختارة وأهميتها بالنسبة للمسيرة الحضارية لكل أمة جميع من كتبوا في التاريخ وفلسفته في العصور الحديثة ، من جيانيا تستافيكو إلى أرنولد توينبي ، بل إنها كانت أسسا من أسس الفكر اليوناني ، الذين كانوا يرون أن الصفوة هم أهل العلم ، ويعتقدون أنهم أصلح الناس لقيادة الجماعات الإنسانية .. وحول هذه الصفوة نسمع حديث المؤرخ الإنجليزي « توينبي » يتكلم حول هذه الفئة المختارة ، فيقول : « لا بد لكل جماعة إنسانية من صفوة ، فئة قائدة لكي تتقدم وتحسن أحوالها ، ولا يتم تقدم إذا عدمتها الجماعة ، فكأنها ضرورة للتقدم والنهوض ، ولكنها ليست بالضرورة طبقة متماسكة ، فهي قد تتكون من رجال ذوى ملكات شتى : هذا في الحرب ، وذاك في السياسة ، وثالث في العلم ، ورابع في الشعر ، وما إلى ذلك . ثم يقول : إن مصير الجماعة كلها مرتبط دائما بهذه الصفوة وأحوالها ، فإذا ظلت على هذه الحال من القلق والحرص والسعى على الفتح والكشف والتجديد والإحساس بمسئوليتها عن الجماعة ؛ تكونت حولها جماعات من الناس يسرون في الطريق بعدهم ، واطردت مسيرة الجماعة ، وطال عمر صلاحها . فإذا أصاب الصفوة تصدع أو تدهور ، ففي حالات الهيئات الحاكمة لا تزال الجماعة بخير من الناحية السياسية مادامت هذه الجماعة متحدة أو متآلفة على الأقل ، وفي هذه الحالة لا تتأثر الجماعة كثيرا بما نزل بها من خطوب ؛ مادامت

صفوتها القائدة سليمة ، ولكن البلاء يأتي عندما تصاب هذه الصفوة أو تفسد أو يقع الشقاق بين أفرادها ، فتختلف كلمتها وتعجز عن القيادة ^(١) »

وإذا تركنا مايقوله توينبي إلى اشبنجلر نراه يقول : « تتولد الحضارة » الثقافة « في الوقت الذي تستيقظ عند فئة من الناس نفس قوية ، تنتشل نفسها من بين ثنايا الأحوال العقلية البدائية التي يتردى فيها جنس بشري ، فتجعله في طفولة دائمة ، عندئذ تتخذ هذه النفس شكلا من اللاصورية وكيانا محدودا متغيرا منبثقا عن اللانهاية والإصرار .

وتزدهر هذه النفس على أرض بلاد ذات حدود دقيقة ، تظل ملتصقة بها التصاق النبات ^(٢) »

المعاناة :

وهذه الصفوة المختارة التي تؤسس للحضارة ، وتحمل ضميرة التقدم ، وتحالّد الصعاب ؛ لابد من معرفة الدافع الحقيقي الذي قادها وحركها إلى هذا التقدم ، لأن كل حركة لابد لها من دافع يتسبب فيها ، ويكون وراءها ، وهو ما نسميه بالحرك . فهل هذا الدافع وذلك المحرك هو الجنس ، أو الظروف الجغرافية والمناخية ، أو هو غير ذلك . وواضح كما بينا قبل أن بدء الحضارات لم يكن نتيجة العوامل البيولوجية ، أو البيئية الجغرافية بمفردها ، وإنما هو نتيجة تفاعل بين الإنسان وبين الطبيعة في صراعه على الحياة والبقاء والرفاه ، نتيجة التحدى والاستجابة ، أو الفعل ورد الفعل ولقد قامت الحضارات الخمس الرئيسة نتيجة للتحدى والاستجابة ، وقد قام المؤرخون المحدثون بتتبع الحضارات ودراساتها وتحديد العوامل المحركة لها ، ومن هذه الدراسة التي أبدع فيها أوزفالد اشينجلر وأرنولد توينبي ، حيث

(١) الحضارة حسين مؤنس ص ١١٤ .

(٢) مختصر التاريخ توينبي ١ / ٣٥٢ ، ١٤٥ الى ٢٥٥ .

درس الأخير ما يقرب من إحدى وعشرين حضارة دراسة وافية ، وخرج من دراسته بأن حركة التاريخ لا تعود إلى البيئة الجغرافية ، ولا تعتمد على الأجناس ، وإنما هي نتيجة موقف الجماعة مما يقابله من تحديات ، ونوع ردها عليها ، أو استجابتها لها ^(١)؛ ثم يوضح ذلك توينبي فيقول : « إن الإنسان يتحرك للعمل الحضارى إذا وجد في ظروف تضطره إلى ذلك فإذا لم تضطره الظروف بقى على حاله ، فإذا فرضنا مثلاً أن المصريين الأقدميين عندما اقتربوا من حوض النيل ، فوجدوه سهلاً منبسطة تغطيه الأحراش والغابات الحافلة بالثمار وحيوان الصيد؛ لاستقروا هناك دون جهد ، وتابعوا حياتهم السهلة دون تفكير في تغيير ، وهنا ما كانت الحضارة المصرية القديمة لتقوم .

ولكن نرى أن ثمة جماعة استجابت لتحدى الجفاف بتغيير مواطنها ، وطريقة معيشتها معا ، وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر هو العمل ذو القوة الدافقة الذى خلق الحضارتين : المصرية والسومرية ، من بين ما ظهرها في المجتمعات البدائية التى تعيش في المراعى الأفراسية السائرة في طريق الزوال ، وتمثل هذا التغيير في تحويلها تحولاً شاملاً من جامعى طعام وصيادين إلى زراع ، فخاضوا مستنقعات الأدغال الموجودة في قرار الوادى ، وحولوها إلى مزارع وسدود ، وأحاطهم ذلك إلى قوة دافعة وتفكير مستمر وحضارة ساطعة ^(٢). وكذلك كان بدء الحضارة السومارية حيث تكاد المظاهر المادية لبدء كل من الحضارتين المصرية والسومرية تكون متحدة حيث أن جفاف أفراسيا قد ألزم آباء الحضارة السومرية بالدخول في صراع مع مستنقعات غابات الوادى الأدنى لدجلة والفرات ، وتحويلها إلى أرض شنعار ، وتكون حوض دجلة والفرات أسوة بحوض النيل ، وكذلك كان بدء الحضارة الصينية في الوادى الأدنى للنهر الأصفر ، حيث ألفينا استجابة من جانب الإنسان لتحديات صعبة من الأحوال الطبيعية والمناخية ، ربما كانت أشد عنفاً من كل من تحدى النهرين وتحدى النيل ،

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٢) انظر مختصر دراسة التاريخ ١١٦ / ١ وما بعدها .

حيث اجتمع مع هذا التحدى تحدى مناخى تتغير فيه الحرارة موسميا ، فى نهاية قصوى للحرارة فى الصيف ، إلى نهاية عظمى للبرودة فى الشتاء ، ومع هذا استطاع الشعب الصينى أن يتحدى ذلك ، وأن يبنى حضارة سامقة فى التاريخ ، وكذلك كان الشأن فى الحضارتين الماينية والأنديانية ، وعلى هذا المنوال سارت الحضارة المينوية ^(١).

وخلاصة هذا رأى أن صعوبة التربة والمناخ والتحدى هو الذى أطلق الشرارة الأولى لحضارة الشعوب ، ولعل هذا ترجمة المثل القائل « الحاجة أم الاختراع » ، حيث أن هذه البيئات شحذت همة الإنسان للعمل والاستفادة والابتكار ، ليتغلب على الصعاب التى تواجهه ، ويؤمن حياته وعيشه بطريقة ترضيه ، وتفتح له أبواب مايجب ويهوى ، فالزراعة صاحبها نشاط تجارى ، والنشاط التجارى صاحبها نشاط صناعى لأدوات نقل الحبوب من عربات وسفن وأكياس وصناعة للسفن ، وقد صاحبها ما يلزمها من صناعة الأقمشة للأشرعة وما إلى ذلك ، ثم صاحب زراعة الزيتون عصرو ومعرفة زيتة واستعمال آلات للعصر وأوانى للحفظ وقناديل يسرج من زيتها ، فنشطت صناعة الفخار ، وظلت العقول تتحرك حتى أسلمها ذلك إلى حضارة زاهرة وإنسان متحضر صناعيا وعقليا ونفسيا ^(٢).



(١) نشأة دولة مينوس فى جزيرة كريت ، وقد أقامت سلطانتها على بحر بايجه وازدهرت حضارتها ازدهارا يبنىء عنه بقايا القصور الملكية فى كريت .

(٢) انظر الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ١١٨ وما بعدها ومختصر التاريخ لتوينبى ١٤٥ / ١ إلى ٢٥٥ .

المبحث الرابع اتجاهات التحرك الحضارى

طرحت تصورات عدة من الباحثين حول التحرك الحضارى ، فبنى مثلاً أصحاب المنهج التأملى فى فلسفة التاريخ يعرضون لأنماط ثلاثة من الحركة ، يعتقدون أن التاريخ يسير على وفقها . أولها : التقدم الصاعد ، بمعنى أن التاريخ يتقدم فى مسار مستقيم صاعداً إلى الأمام لا يتدهور ولا ينتكس ، ثانياً : نظام الدورات الحضارية ، حيث أن الإنسانية تمر بدورات حضارية معينة ، سواء كانت هذه الدورات مقفلة أو يفضى بعضها إلى بعض . ثالثاً : عدم الالتزام بنمط معين ، هذا وسنعرض لكل اتجاه من هذا الاتجاهات الثلاث .

التقدم الصاعد :

برزت فكرة التقدم الصاعد فى أواخر القرن السابع عشر ، حين اشتد الجدل بين أنصار القديم والحديث من النقاد والأدباء ، فاتهم أنصار الحديث فى معرض الدفاع عن أنفسهم أنصار القديم بأنهم وهموا ووقعوا فى خطأ فادح بنظرهم إلى القدماء على أنهم أرجح عقلاً من المحدثين ، وهذا خطأ كبير لأن الإنسان يزداد مع الزمان خبرة ، وبالتالي يكون أكثر معرفة وأكبر عقلاً من القدماء ، وهكذا تمضى الإنسانية مع الزمن نحو التقدم والتكامل والازدهار ، وقد انتصر لهذه القضية بسكال وغيره ، والحقيقة أن فكرة هذه النظرية ترجع فى أصولها الأولى إلى آراء يكون وديكارت . وتتخلص هذه النظرية وحججها فى الآتى .

١ — إن التاريخ البشرى يمر فى مسار تقدمى ، تتطور خلاله معرفة الإنسان ، وتقترب شيئاً فشيئاً نحو الهدف النهائى للمجتمع البشرى ، وهو تحقيق

الحرية والكمال والسيطرة التامة على الطبيعة .

٢ — البشرية تسير في وضع تشعر فيه كل يوم بالتقدم ، حيث تكتشف في كل لحظة جديدا كان الآباء والأجداد عنه غافلون .

٣ — إن المجتمع كائن عضوى جماعى ، يخضع مثلما تخضع الظواهر المختلفة في الطبيعة والرياضة والأحياء لقوانين محدودة ، والمجتمع يقوم على قانون كلى عام ، وهو يتكون من ثلاث مراحل : اللاهوتية ، الميتافيزيقية ، الوضعية ، وهذه هى الديناميكية الاجتماعية التى يقوم عليها تقدم الإنسانية وتحركها .

٤ — ارتباط فكرة التطور بفكرة التقدم عند كثير من الباحثين ، وقد سار على ذلك دارون الذى اعتبر أن التطور والتقدم متساويان ، فقال : قد تبين أن الطبيعة تقدمية على غرار التاريخ .

المآخذ التى أخذت على هذه النظرية

١ — هاجمت نظرية التقدم الفكر الدينى ، باعتبار أنه ينتمى إلى القديم ، واعتبرت الروحانية لاهوتية قديمة كانت عند تخلف الإنسان ، تفسر له ما لا يستطيع فكره أن يستوعبه ، وقد تجاوز ذلك ، وفتح المغاليق ، وعرف لكل شئ سبب ، وبهذا تكون قد قضت على القوانين الخلقية والنفسية ، ومحت العقيدة من مجال الحضارة .

٢ — صارت هذه النظرية فيما بعد مظلة للمنحرفين عن المسار الصحيح في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، من أمثال دارون وماركس وإنجلز وغيرهم من الذين جعلوها تكة لأغراضهم .

٣ — خلطت هذه النظرية بين التقدم والتطور ، وكل منهم له مجاله الخاص ، حيث أن التطور ليس إلا تعديلا بيولوجيا فسيولوجيا ، يختص بالكائنات الحية ، وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي ، بينما نجد التقدم تمهيدا واعيا للوصول إلى أنماط جديدة في سلوك الفرد والمجتمع ، ومن هنا بدا تقدم الإنسانية أمرا حتميا محققا ، إذا

استطاعت أن تستفيد من الكشوف العلمية ، أما إذا لم تستطع أن تستفيد منها ، أو وجهتها إلى غير وجهتها ؛ فلربما تهلكها وتهلك نفسها ^(١) .

حركة النكوص والتدهور للتاريخ :-

عاش الناس المدنية في العصر الحديث ، ونظروا إلى مناهجها وأضوائها وزخارفها ومفاتها ، ولكن هل استراح الناس ، وهل ضاعت الجريمة ، ونعمت الإنسانية بالأمن والطمأنينة ، وتلاشى الظلم وزال القهر ، هل أشبعت البطون ووجد المحتاج ، هل سعدت النفوس واستقرت الأرواح وزالت العقد ، هل ساد الخلق ، وعمت الفضيلة ، وانتشر التراحم ، أم زاد القلق ، وانتشرت الجريمة ، وشقيت الإنسانية ، وكثر الظلم ، وزاد القهر ، وأرهقت النفس ، وتراكمت العقد ، وانطفأ مصباح الفضيلة ، وتوارت أنوار الأخلاق الحميدة ، بهذه النظرة الفاحصة والرؤية النافذة تأمل كثير من الباحثين في الحضارة التي بين أيدينا ، وكان مقياسهم في التقدم والتأخر شيئاً غير المباني والمخترعات وأدوات الزينة والرفاه . كان مقياسهم تقدم الإنسان بصفاته الإنسانية ، وراحته النفسية ، وحالته الاجتماعية ، ومكتسباته الخلقية ، فلما وجدوا أن نصيب الإنسان من هذه الحضارة هو نصيب سنار ، وأن الناس رجعوا من هذا التعب والنصب من هذه الحضارة بخفي حنين ، فقد تدهورت القيم الجمالية والأخلاقية بين الناس ، وكثرت الشرور والآثام ، وانتشرت الحروب المدمرة ، وكثر الاستعباد والقهر والبغى ، وغلبت شرعية الحيوان ودساتير الغاب على العصر ، نظروا إلى الحضارة نظرة تشاؤم وخيبة أمل وإزدراء ، وتحلى ذلك في أقوالهم وتحليلاتهم .

ولهذا يقول جيته : لقد صار الإنسان أكثر ذكاء ووعيا ، ولكنه لم يصير أكثر

(١) انظر في هذا في فلسفة التاريخ أحمد صبحي / ط مؤسسة الثقافة الجامعية ، والنقد في عصر التنوير ، ونازلي اسماعيل ط : دار النهضة ص ٤٣ وما يليها ، ومسيرة المجتمع بحث للدكتور عبد الجليل طاهر ، وما هو التاريخ ادوارد كار ص ١٠٨ ، وفي فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ط دار النهضة العربية بيروت ص ١٧١ وما يليها بتصرف .

سعادة أو أنبل خلقاً^(١) » ويعترض جورج سوريل على فلاسفة التقدم وأصحاب نظريات التصور السياسى والاجتماعى ، ويقول :

رجال من أمثال فوييه Fouillee مدلسين ذوى جرأة شديدة حين يدعون أنهم يدركون تزايد الإحساس بالكرامة الإنسانية والحرية الفردية بين الناس ، بتقديم الديمقراطية وانتشارها فيهم^(٢) »

ويقول إدوارد كرينتر : « إن المدنية مرض عارض وعلى جميع الأجناس البشرية أن تبرأ منه ، كما يبرأ الأطفال من مرض الحصبة أو السعال الديكى بعد عناء » .

ويقول ج — ب — شو : « إن المدنية لم تتقدم خطوة واحدة منذ عصر الحيشين » ثم يعلق على هذا متهمًا « إن القتل بالبندقية لا يقل إبلا ما عن القتل بسهم مسموم » ، ثم يدعو إلى الكف عن القول بالسيطرة على الطبيعة ، فيقول « هذا وهم يجب وينبغى أن نكف عنه ويضرب مثلاً بحالة الزوج فى أمريكا ، وما يتعرضون له من هوان قاتل : « إننا نستطيع أن نصف تلك الوحشية بأى شىء إلا أن ندعى أنها تمثل تقدماً فى تاريخ البشرية » ثم يقول تحت تأثير ما يرى من الحضارة « إنه من الأفضل لنا أن نتفق على أن الإنسان سوف يعود إلى وثنية وبدائية يوما ما ، على الرغم من كل ما مبر به من تطور ، وما قام به من ثورات اجتماعية — ما لم تنفخ طبيعته ذاتها . ذلك أن الإنسان مادام على حالته المعهودة ، فإنه من غير المتوقع أن تحقق الإنسانية أى تقدم أكثر مما عرفت ، ولهذا فإن من الأجدر بنا أن نكف عن الاعتقاد بأن الإنسان كما يوجد الآن جدير بأى تقدم . وهذه النزعة التى يسميها البعض تشاؤمية هى فى الحقيقة نزعة واقعية ، مبنية على كثير من الدراسة والمشاهدة التى أصبحت لا تخفى على أحد ، وقد ذاق الكل بأى لون مرارتها ، الشعوب التى تدعى متحضرة ، والشعوب التى تدعى نامية ، وتلك التى توصم بالتخلف ، وتوضع تحت الوصاية والتبعية . ونرى إلكسيس كاريل يقول :

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية وعفت للشرقاوى ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٠ .

« إن الإنسان غريب في العالم الذي ابتدعه .. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ؛ لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجمامد على علوم الحياة هى إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم المتمدنة هى الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها ، وحقيقة الأمر أن مدينتنا مثل المدينت التى سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدينة العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية^(١) ويعمل كاريل ذلك بالأدلة ، فيقول : « إننا نواجه مشاكل حضارية خطيرة ، تحتاج إلى حل سريع . إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى والتيفود ... الخ ، فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية .. فى بعض ولايات أمريكا يزداد عدد المجانين الذين يوحدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى . وكذلك الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذان فى الزيادة ، وهذا أكثر العناصر نشاطا فى حلب التعاسة للأفراد وتخطيط الأسر ، إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة فى الأمراض المعدية » ويخلص من هذا فيقول : إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ؛ لأنها لاتلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تتولد من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ؛ فإنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا^(٢) وشكلنا ، ويؤيد هذا شو ، حيث يقول : إن المدنية مرض ينشأ من بناء المجتمعات من

(١) الانساد ذلك المجهول ص ٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧ ، ٣٤ .

مواد عفنة ^(١) والحقيقة أن الحضارة الحاضرة برغم زخرفها وتقدمها الآلى قد قتلت كثيرا من القيم وانطلقت كالمارد يجوس خلال الأفكار والتصورات ، فأفسدتها كلها ، ومسخت الحياة مسخا كريها ، وردته إلى حيوانية ، وكانت ثقافتها ثقافة بعيدة كل البعد عن روح الإنسان وأخلاقياته ، فخرجت لنا — مثلا بالتفسير المادى للتاريخ ، وبطله ماركس الذى يفسر الحياة كلها من خلال بطن الإنسان وحيوانيته ، ثم بالتفسير الجنسى ، وبطله فرويد الذى تصور الإنسان حيوانا ممسوخا مشوها ، ينبع كله من طاقة واحدة ، هى طاقته الجنسية .

التفسير الجسمانى للمشاعر، وبطله وليم جيمس وأمثاله من التجريبيين الذين يفسرون الحياة كلها من خلال الجسم كالحیوان ، فالمشاعر والأفكار نشاط كهربائى وغدد وكمياء ، غدة الجنس تصنع المشاعر الجنسية ، غدة الأمومة تصنع مساعر الأمومة ، غدة الكظر تصنع الشجاعة ، إلى آخر هذه الأفكار ، وكل تفسير تتخيله قد يأتى إلى التفسير الإنسانى للإنسان ، الذى يسعد نفسه ، ويوافق فطرته ، ويسعد ذاته ، وينمى فيه مشاعر الصفاء والنقاء ، لهذا ولغيره من أمراض تلك الحضارة قال أصحاب فكرة النكوص ! إن الحضارة تنتكس وترتد على أعقابها ؛ للأسباب الآتية :-

- ١- أن الحضارة نظرت إلى العلوم المادية والجمادية ، ولم تنظر إلى علوم الإنسان ، حتى تخاطب فطرته ونفسه .
- ٢- تطور العلم اعتباطا ، من غير تخطيط ونظر فيما يعود على الإنسانية بالنفع أو يعود عليها بالضرر والشر والدمار .
- ٣- توجيه التعليم توجيها خاطئا ، حيث سار التعليم فى طريق آخر غير الطريق السوى ، ووجهت العقول الكبيرة إلى علوم الجماد ، ولم توجه إلى علوم الإنسان ، ولو وجهت إليه لأفادته ، وكانت سياجا للتقدم وراحة للإنسان .

(١) فلسفة الحضارة الاسلامية ص ١٨٠ .

٤ — ضياع الأخلاق في سبيل المادة ، وذبح الفضيلة في سبيل التقدم المزعوم الذى أدى إلى الاستهتار بالأديان والقيم الروحية .

٥ — استعمال المادة في الدمار وشقاء الإنسان ، وتوجيه الموارد إلى الحرب والفناء وترك الإنسان يتضور جوعا .

وهؤلاء الباحثون اتسمت آراؤهم بالحماس وقرع نواقيس الخطر وأجراس الإنذار ؛ ليلفتوا إلى ضياع الطريق الصحيح الذى يجب أن تفىء إليه الحضارة الحديثة ، حتى لاتقع فيما وقع فيه كثير من الحضارات قبل ذلك .



الدورات الحضارية للتاريخ

نظرية الدورات الحضارية هي إحدى النظريات التي قال بها كثير من فلاسفة التاريخ ، وكان رائدهم في القول بها ابن خلدون ، ثم قال بها بعد ذلك فيكو واشينجلر وتوينبي ، وغيرهم ، وتقوم تلك النظرية على القول بأن التاريخ يعيد نفسه في دورات حضارية ، وليس بالضرورة أن تتشابه تلك الدورات في الشكل والمظهر ، أو التفكير والثقافة ، وإن كان يجرى على كل منها الصعود والهبوط والانتكاس والتقدم ، ورغم كثرة القائلين بتلك النظرية ، فإن بينهم اختلافًا واضحًا في جزئيات تلك النظرية وأبعادها وتأثيرها في شتى نواحي المجتمع بصورة أو بأخرى ، وفحوى هذه النظرية أن الجماعات الحضارية أو المجتمعات المتقدمة تبدأ في التحلل والتفكك في كثير من الأحيان بانقسام في الصفوة أو الأقلية القائمة ، قد يكون لطمع ، أو وشاية ، أو بذخ ، أو ضعف ، أو خيانة ، أو بغير ذلك من الأسباب المحبطة للعقل المدبر والمفكر النشط ، ويتسع مدى هذا الانقسام حتى يتحول إلى حرب أهلية قد لا تكون حرب سلاح أو نزال ، وإنما تكون حرب دعاية وتوهين وإشاعة لفقدان الولاء ، وهذا يؤدي في النهاية إلى فقدان الترابط والثقة والتضحية والاحترام للجماعة ولقانونها ومقدساتها ، وتلاشى بذلك هيبة الأقلية القائمة ، بل قد تنزل في أعين الناس إلى درك المجرمين والخونة والعملاء ، فتكثر بذلك الغوغائية والهمجية ، وتضيع الأقدار ، ويكثر النفاق والعمالة ، ويختلط الحابل بالنابل ، ويذهل الناس عن جلائل الأمور ، ويتبعون سفاسفها ، وفي هذه الأجواء تكثر الانقلابات والثورات ، وتعم الجماعات ، وتنتشر البطالة والتصلع ، وتسمح هذه الأجواء بتدخل المغييرين والمحتلين ليجسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم تتكون بعد صفوة أخرى تحمل على كاهلها إزاحة هذا التخلف وتوقظ الناس من جديد ، حتى تنهض الأمة وتتقدم ، ويقوم طور جديد

لحضارة جديدة ، ثم لاتبث تلك الصفوة أن يحل بها مانحل بسابقتها ﴿١﴾ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴿١﴾

ابن خلدون والنظرية :

تأمل ابن خلدون في طبيعة الدول وأصول العمران البشرى فرأى أن الحضارة تتعاقب في الأمم على أربعة أطوار — الأول — طور البداوة ، والثاني : التحضر ، والثالث : الترف ، والرابع : التدهور . ويسمى ابن خلدون هذه الأطوار الأربعة : بانبا ، ومباشرا له ، ومقلدا ، وهادما ، وفي هذا يقول : « إن عمر الدولة كعمر الأشخاص ، وهو في الغالب لا يعدو ثلاثة أجيال .

الجيل الأول : لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد ، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني : تحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به ، وكسل الباقين عن السعى فيه ، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة ، فتتكس صورة العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ، ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول ، وباشروا أحوالهم ، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومرامهم في المدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية ، وإن ذهب منهم ماذهب ويكونون على رجاء من الأحوال التي كانت للجيل الأول ، أو على الظن من وجودها فيهم .

وأما الجيل الثالث : فينسبون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته بما انغمسوا فيه من النعيم ونضارة العيش ، فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان

(١) إبراهيم ٤٥ .

المحتاجين للمدافعة عنهم ، وتسقط العصية بالجملة ، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ، ويلبسون على الناس في الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها ، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ، فإذا جاء المطالب لهم لم يقوموا بمدافعتهم . فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ، ويستكثر من الموالي ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء ، حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حملت^(١) ، ثم تأتي أخرى ، ولكن لاتلبث حتى تسير على سنن الأولى وفي هذا نرى أن ابن خلدون يصف لنا تجاربه وملاحظاته على الأمم والشعوب ، ومعايشتها للحضارات وما كان من أمرها من بدء أحوالها ، ثم في ازدهارها ، ثم في انحطاطها وزوالها .

ونرى ابن خلدون يربط بين الحضارة والإنسان ، فحيث يجد الإنسان ويعمل ويطمح يكون الازدهار والتقدم ، وحيث يترف ويناع ويترهل ويتورم ويكسل يكون الزوال والاضمحلال ، وهذا مبنى على ما استقر وعلم ، وهذا الرأي صحيح في الجملة ، ولايضعف منه نقد بعض المحدثين الذين يقولون أن ابن خلدون بهذا يفضل البداوة على الحضارة والخشونة عن النعيم ، ويقولون أن معنى هذا تفضيل الجاهلية على الحضارة الإسلامية^(٢) . والحقيقة أن أصحاب هذا النقد لايدركون لكلام ابن خلدون معنى ، ولا يتصورون دائرته التي يعمل فيها ، ويخطون خبط عشواء ويختطبون بلبيل ، إن ابن خلدون لايفضل البداوة على الحضارة إلا في حالة واحدة ، في فقدان الرجولة والتحلل بالتخنس واستمراء الهوان والاستسلام للغالب ، ولم يتكلم ابن خلدون على البداوة في الجاهلية ولا في الإسلام حتى يدعى مدع أنه يفضل الجاهلية على الإسلام ، ولا أتصور كيف فهم من كلام ابن خلدون والرجل يضرب المثل بالبداوة على الرجولة والخشونة والشجاعة والترابط والصفات الفطرية ، وكان الأولى أن يقال إن ابن خلدون يفضل عصر الصحابة المتقشفين على عصور العباسيين مثلاً الذين لبسوا

(١) مقدمة ابن خلدون ٨٦ ، / ٢ تحقيق الدكتور عبد الواحد وافي طحمة البياد العرف .

(٢) انظر هذا : في فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٨٧ وما بعدها والحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٢ وما بعدها .

الحلل كالنساء ، وأغرقتهم الأموال ، وناموا في أحضان الجوارى الحسان ، وتقلدوا الجواهر والياقيات ، وسازروا على الفمارق وتركوا الناس جياعا ، والثغور فراغا ، والديار خرابا ، حتى هجم العدو على الديار وخربها ، وجرت دماء المسلمين أنهارا ، وصنعت من جماجمهم جبالا ، وأخذ الخليفة كالقطة الأليفة ، ومات ضربا بالنعال ، إن ابن خلدون شهد واقعا عايشه وأحس به إحسان الفاحص البصير ، وجاء بعده من قدر ذلك ، وصار على سننه ، واحترم افكاره ، هذه القضية قديمة مع الزمان ، وقد تكررت في التاريخ عشرات المرات ، فقد تحجرت حضارة مصر القديمة في نهاية عصر الدولة القديمة ، ثم عادت إلى الحياة بعد ذلك بثلاثة قرون على الأقل ، في صورة حضارة الدولة الوسطى ، ثم جمدت مرة ثانية عقب غزو الهكسوس ، لتبعث إلى الحياة مرة أخرى بعد نحو قرنين على يد أحمر ومن جاء بعده من الفراعنة في الدولة الحديثة ، ثم جمدت بعد الضربة الفارسية ، أى بعد غارة الفرس على مصر بقيادة تميزر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم بعثت أيام البطلمة ، ثم جمدت ، وبعثت في أيام المسيحية في القرن الثالث . ثم جمدت وبعثت مرة أخرى في ظل الإسلام من جديد . ومثال ذلك أيضا حضارة الصين « التي نشأت على أيدي أسرة شو في حوض النهر الأصفر في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم تحجرت ، وبعثت على أيدي منسى وأسرة تشين شى هوانج في التي وحدت الصين حوالى ٢٢١ قبل الميلاد ، وأتيحت الفرصة لحضارتها للسير من جديد ، ثم تحجرت ، وعادت إلى الحياة مرة أخرى على يد أسرة كوشان في العشرات الأولى من القرن المسيحي الأول ، ثم سكنت رباحها وجمدت ، حتى بعثت بفضل البوذية ، وقامت أسرة جديدة على أيدي أسرة تانج ثم تشين الثانية . وكذلك حضارة الهند انحلت عدة مرات ، واندثرت على أساسها ، وقامت حضارة الإسلام في الهند ، ثم الهند الحديثة اليوم ، وكذلك حضارة الأندية ، والأنتيك ، والمايا ، التي تلاشت تماما ، وذابت حضارتها في كيان الحضارة الغربية التي غزتها وقضت عليها ، وإن كنا نستثنى من ذلك حضارة الإسلام ؛ لأن أساسها ليس عنصرا بشريا يناله الضعف والبلى ، ولكن أساسه العقيدة ، وهى لاتزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال ، وأداتها اللغة العربية لغة القرآن ، وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع ، ويفضل الإسلام واللغة العربية ظلت حضارة

الإسلام حية ، لأن العقيدة لاتبلى مادام هناك من يؤمن بها ، أى أن عنصرى الحضارة والإسلام الأساسيين باقيان لاينال منها كـر الغداة ومر العشى وتعاقب الأجناس وتغير الظروف ^(١) . وهذا مبحث واسع سنعرض له .

فيكو :

ويأتى الفيلسوف الإيطالى فيكو ، الذى عاصر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وبرز فى التاريخ والاجتماع ، ويخرج على العالم بكتابه « العلم الجديد » ، مبينا أسباب التغير الحضارى الذى يحل بالمجتمعات البشرية ، وانتهى إلى القول بأن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والفناء ، لأن « من طبيعة الظواهر أن تحدث فى ظل ملابسات محدودة ، ووفقا لطريقة معينة ، فحيثما وجدت هذه الملابسات والظروف وجدت الظواهر ^(٢) » . ولكن نظرية التطور والانحدار عند فيكو تختلف عن الفكرة الخلدونية ، حيث تمر المجتمعات الإنسانية فى رأى فيكو بمراحل معينة من التطور ، الذى ينتهى إلى الانحلال أو البربرية ، لتبدأ من جديد مراحل أخرى أعلى درجة من سابقتها ، لينتهى التطور مرة أخرى إلى الانحلال ، وبذلك تتشابه الحلقات التاريخية عند فيكو ، ولهذا يدور التاريخ فى رأى فيكو فى حركة لولبية صاعدة ومتجددة على الدوام ، كحركة المتجه إلى قمة الجبل بالدوران الصاعد حوله ، بحيث تعلو كل دورة له ما يسبقها من دورات ، ولعل هذا هو الذى يميز نظرية فيكو عن النظريات التى تقول بالدورات الحضارية .

أوزولد اشبنجلر :

لهذا الفيلسوف تصور معين فى الدورات الحضارية : حيث يعتقد أن الحضارة كائن عضوى طبيعى ، ينشأ فينمو ، ثم يزدهر فيشيخ ، حتى يلحقها الفناء . فالحضارة عنده كائن حى يجرى عليه ما يجرى على الكائنات الحية من تطور

(١) انظر الحضارة لمؤنس ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٢) فى فلسفة الحضارة الاسلامية د. عفت الشرقاوى ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

طبيعي ، وقد عرض اشبنجلر هذا التصور البيولوجي للحضارة بتوسع في كتابه « انحلال الغرب » ، الذي عرف فيما بعد بعنوان « تدهور الحضارة الغربية » ، ومنهما يكن من مبالغة اشبنجلر في تشبيهه للحضارة بالكائن الحي ، من حيث نشأته ، ونموه ، وشيخوخته ، وفناؤه ، فإن هذا لا يدفعنا إلى الظن بأنه يبتعد في دراسة الحضارات عن الناحية الروحية المتحدة مع البيئة الطبيعية ، وإنما يقرر اشبنجلر في وضوح أن الحضارة عنده انبعاث روحي لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود ، فينعكس ذلك على ألوان نشاطهم المختلفة في الفن والدين والفلسفة والسياسة والحرب والاقتصاد . وبهذا يكون مفهوم كل جماعة متميزا عن غيره في مجال التعبير والانبعاث الروحي .

وأما ميلاد الحضارة عنده ؛ فإنه يتم كما يقرر اشبنجلر : في اللحظة التي فيها تستيقظ روح كبيرة ، وتفصل عن الحالة الروحية الأولى للطفولة الإنسانية الأبدية ، كما تفصل الصورة عما ليس له صورة ، وكما ينبثق الحد والبقاء عن اللامحدود والفناء ، وهي تنمو في تربة بيئة يمكن تحديدها تمام التحديد ، وتظل مرتبطة بها ارتباط النبتة بالأرض التي تنمو فيها^(١) » وبعد ميلاد الحضارة الجديدة تتبدل الأحوال الأولى ، وتحول الفوضى إلى نظام ، والخمول إلى عمل ، وتدخل الأفكار في مجال الإبداع والابتكار ، وتنتقل من دور التأخر إلى دور الفتوة ، ثم الشباب ، ثم دور الشيخوخة التي تفقد معها الحضارة القدرة على العطاء ، وتصبح كالشجرة الجرداء التي فقدت نصارتها ، ونضبت الحياة في أصولها وفروعها ، فتتخلى تدريجيا عن الإبداع والابتكار ، وتدخل في مرحلة الترف والاستهلاك ، وتحول الحضارة إلى مدنية ، وينعدم الابتكار الفني والعقلي والذهني ، ويكون بعد ذلك الموت . وفي هذا يقول اشبنجلر في تلك المرحلة « تموت الحضارة حينما تكون الروح قد حققت جميع ما بها من إمكانيات على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون ودول وعلوم ، ومن ثم تعود إلى الحالة الروحية الأولى^(٢) » وهكذا تتجلى فكرة اشبنجلر عن الدورات الحضارية . حيث تنمو

(١) اشبنجلر للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٧٢ .

وفلسفة الحضارة الإسلامية. للدكتور عفت الشرقاوي ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٢ لاشبنجلر فلسفة ص ٢٠١ .

الحضارة بفكر نابه ، ثم تجاهد هذه الأفكار حتى تضىء مصابيح الحضارة في الأفكار والنفوس والعقول ، ثم تزدهر تلك الحضارة ، ثم تنغمس في الترف والتعيم والدعة ، ثم بعد ذلك يأتي دور الموت والانحطاط والفناء . وهذا نفس الخط ونفس رأى ابن خلدون في جملته ، غير أن اشبنجler ربط فكرته بعالم الحيوان ، ولم يربطها بطبائع الناس وبالأجيال وطبائعها كما ربطها ابن خلدون ، ولم يربطها بالحلقات التاريخية كما ربطها فيكو بالحركة اللولبية الصاعدة كما قال ، وقد وقع اشبنجler في خطأ حتمية الكائن الحي ، ورتب ذلك من النتائج الحتمية اللازمة لفناء الحضارات وقيامها وفقاً لقانون الموت والحياة في عالم الطبيعة ، وإن كان الإطار العام للدورات الحضارية من حيث الارتفاع والانحدار ، والتحلل والترابط واحداً عند الجميع .

توينبى :-

يرى توينبى أن قيام الحضارات يعتمد على التحدى والاستجابة ، لأن الحضارات حصيلة تفاعل بين الصفوة وبين الظروف الصعبة التى تقدح زناد الفكر إلى العمل والإبداع ، ومصارعة الحياة للبقاء ، وتذليل العقبات ، فالظروف الصعبة لا السهلة هى التى تستثير الأمم لقيام الحضارات ، والسهولة علو للحضارة ، والترف ، مدعاة إلى ركود الفكر وبلادة الحس . وقد يكون التحدى من صعوبة الجو ، أو من وعورة البيئة ، وقد يكون من الضروريات الخارجية أو الداخلية ، فقد تمثل هزيمة صدمة قاسية لأمة تنهض دفاعاً عن كرامتها ، فتثار في المجتمع طاقات إبداعه الكامنة ، وتكون سبباً في حضارته ، وقد يكون التحدى من داخل المجتمع نفسه ، وفي هذه الحالة يكون المجتمع أشبه بالجسم الإنسانى الذى ابتلى بفقد عضو من أعضائه ، أو فساد ملكة من ملكاته ، فيكون ذلك سبباً في بحثه عن تعويض ما فقد ، فيلجأ إلى البراعة في استخدام ملكاته وقواه الكامنة ، فيبرز أقرانه في ميادين عدة ليعوض ما فاته .

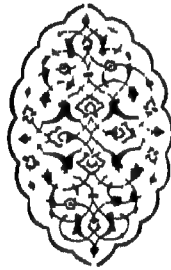
انهيار الحضارة وفكرته عن الدورات الحضارية :

إذا كانت الحضارة عند توينبى تنشأ من التحدى والاستجابة ، فكيف إذن

يفسر انهيارها وتكوصها . يذكر أن انهيار الحضارات إنما يقع بسبب قصور الطاقة الإبداعية في أقلية المجتمع « المعبر عنه بالصفوة » ، وهى الأقلية التى تتولى عادة قيادة أغليته العاجزة عن الإبداع ، وترتب على ذلك القصور بالضرورة عزوف هذه الأغلبية عن محاكاة الأقلية ، فتفتكك الوحدة الاجتماعية ، وقد ألقنا إلى ذلك قبل ، وقد تكلم توينبى عن ذلك فى فصول مطولة فى كتابه « مختصر دراسة التاريخ » ، وعرض لكثير من الآراء فى تحليل الحضارة ، وكر عليها بالنقد ، فليرجع إلى كتابه من أراد المزيد^(١) . وهكذا نجد أن مسيرة الحضارة عند المؤرخين بدأت بظهور الإنسان على وجه الأرض المهيأة أساساً لاستقباله بهوائها ومناخها وشمسها وقمرها وزرعها ومائها وترتها وغنائها ، وحينما ظهر الإنسان على وجه هذا الكوكب لم يجعل مثل الملائكة لا تأكل الطعام ولا تمشى فى الأسواق ، بل نزل أو جاء إلى الأرض بطبيعة محتاجة ، وبطن يريد أن يمتلئ ، ثم وهب عقلاً يميزه عن سائر الحيوانات التى على وجه الأرض ، وبوجود العقل ، وبترق هذا العقل ، وبطبيعة الإنسان المحتاجة وبرغبة ذلك الإنسان وغرائزه وشهواته تحركت الحضارة على وجه الأرض ، كما رأينا فى العرض السابق ، ولكن فكرة الإبداع الحضارى قد لا تتوافر لكثير من الناس ، أو قد يرضى بعض الناس بما لا يرضى به البعض الآخر . وقد تفاوتت الهمم وتباين الطموحات ، ولهذا وجدت صفوة من البشر ، لهم من الطموح ما ليس عند غيرهم ، ولهم من القدرة على الإبداع ما لايتوافر لسواهم ، فقادت تلك الصفوة الطموح أبناء جنسهم إلى الترقى والإبداع والحضارة ، إلا أنا وجدنا أن بعض الشعوب أو الأمم لم تستطع أن تخرج صفوة تقود أبناء جلدتها إلى الحضارة ، ووجدنا البعض الآخر على عكس ذلك ، فلا بد أن يكون هناك سبب أو أسباب أثارت تلك الأمم ، وصنعت صفوة معينة ، استطاعت أن تفعل ما فعلت ، فكانت هذه الأسباب فى التحدى والاستجابة ، ونتيجة ما كان يقابل الجماعة من تحديات ، استطاعت أن تحرك عقلاها ، وتسيطر على تلك التحديات ، فتكون عندها فكر وصناعة ، استطاعت أن تتحضر بها وأن تبدع وتنبغ .

(١) مختصر دراسة التاريخ ١ / ٤٠٧ الى ٤٠٩ والمرجع نفسه ٢ / ١٤١ إلى ٤٧١ .

ولكن هل سارت هذه الجماعات في خط الترقى صعوداً أم اعترضتها نكسات وانكسارات ، وكانت هناك آراء حول مسيرة تلك الحضارات ، فقال قوم بالتقدم المستمر ، وأن العقل الإنساني لم يرجع إلى الوراء بعدما ترك بداوته وجاهليته . وقال غيرهم عكس ذلك ، لما رأوا من كثرة المآسى التي خلقتها الحضارة الحديثة ، وكثرة الويلات التي أصابت الإنسانية بما لا يصيبها في عصورها المتقدمة ، وقال آخرون بالثورات الحضارية ، وهي أن الحضارة ظهرت عن بداوة وجاهلية بواسطة الرواد والتحديات ، ثم بعد ذلك انحل الرواد ، وضعف الخلق ، واستعملت الحضارة في غير موضعها ، فانتكست الحضارة ، وضعف الفكر ، ورجع الناس إلى التخلف والضعف ، ثم خضعوا لتحديات جديدة كونت روادا جددا ، فنهضوا وأبدعوا وسادوا ، وهكذا كلما نهضت حضارة نسي بنوها قوانين بقائها ، فانتكسوا ، ثم عملوا بعد ذلك فنهضوا ، ثم نسوا ، وهكذا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهذه الاجتهادات التي يرتاح إليها الفكر ، وإن كانت تحتاج إلى مزيد من التعديل والمراجعة والتغيير سنعرض له في فصول قادمة إن شاء الله تعالى .



الباب الأول

الفهم الإسلامى للحضارة و مناهجه وتفسيره للتاريخ

الفصل الأول : المفهوم الحضارى فى الإسلام
أسسه ومظهره

الفصل الثانى : المناهج العلمية التى قامت
عليها الحضارة الإسلامية

الفصل الثالث : التفسير الإسلامى للتاريخ
الحضارى

الفصل الأول

**المفهوم الحضاري في
الإسلام أسسه ومظاهره**

المبحث الأول تصور شامل للكون

تعريف الكون :

يحسن بنا في بداية بحثنا عن الكون أن نحدد مصدر اصطلاح « الكون » عند الباحثين على اختلاف نزعاتهم .

الكون في اللغة العربية :

الكون لغة : الحدث ، يقال : كان كونا و كينونة ، فالكاثر هو الحادث وحكى عن سيبويه أنا أعرف منذ كنت ، أى منذ خلقت ، ويقال : كونه فتكون ، أحدثه فحدث ، والله مكن الأشياء ، أى مخرجها من العلم^(١)

الكون في القرآن :

يشير القرآن الكريم إلى التكوين — بمعنى إخراج المعلوم من العلم إلى الوجود — صنعة الله تعالى — وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من أجزائه ، لوقت وجوده على حسب علمه وإرادته^(٢) ، ويشير القرآن إلى التكوين في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٣) ومعنى هذا أن الله يحكم بكون هذا الأمر فيكون .

الكون عند الصوفية :

يقول الجرجاني : ويرى أهل التحقيق ، أن الكون عبارة عن وجود العالم كله

(١) لسان العرب مادة « كون » .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى مادة التكوين .

(٣) الفصل بهامش الملل والنحل ٣ / ٥٢ ط القاهرة والآية من سورة مريم — ٣٥ .

من حيث هو عالم ، لا من حيث هو حق . ويقصد بأهل التحقيق الصوفية .^(١)
الكون عند الفلاسفة :

أما أهل النظر من الفلاسفة ، فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ،
وهو بمعنى الكون عندهم .^(٢)
الكون عند المتكلمين :

يرى المتكلمون أن الكون مرادف عندهم للوجود ، وقد يستخدم اصطلاح
« العالم » أيضا ويشار به إلى مجموع أجزاء الكون ، أى إلى مجموع المخلوقات^(٣) .
الكون عند أنشتين EINSHTEIN :

أما بالنسبة لنظرية النسبة عند أنشتين ؛ فالكون هو مجموع الأحداث المتميزة
بارتباطها الزماني والمكاني^(٤) .

فالكون بهذا المعنى الذى يمكن أن يستخلص من التعريفات السابقة ، هو
مجموع ما تكون بالإرادة الإلهية فى الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد
أن لم تكن موجودة .

الكون فى التفسير الأوروى :

ولهذه المعانى العربية فى تفسير الكون ما يماثلها فى التراث الفلسفى الأوروى ،
فإن لفظ « كون » Universum يشير إلى مجموع الأشياء ، أو مجموع ما يوجد فى
الزمان والمكان ، وعند الفيلسوف لينتزر أيضا ، هو جملة الأشياء الموجودة ، وإذا كان
ثمة عوالم يمكن أن توجد فى أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة ؛ فإنه يمكن اعتبارها جميعا عالما

(١) ، (٢) التعريفات للجرجاني مادة « الكون »

(٣) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوى مادة « كون » و « عالم » .

(٤) . (uniuers) . alande : vocabulaire Echnigue etcritiquede la philosophie Art

واحدًا ، أو إن شئت كونا 18, Theodicee وقد يطلق الكون مجازا على العالم المرتى
Lemondevisble أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الإسلاميون ، وقد يعتبر الكون
(Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم (monde) نسبيا :

Comte (A) Politpositive 1,348

التصور الإسلامى للكون

تقر البشرية بالفعل أو بالقوة أن هناك مديرا موجودا لهذا الكون العجيب ، كما
يقرر الكتاب العزيز ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَ اللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ^(١) ، وكذلك يقدم التصور الإسلامى أن هذا الموجود كله من خلق
الله تعالى ، اتجهت إرادته إلى كونه فكان ، ثم أودعه الله — سبحانه ، قوانينه التى
يعمل بها ويتحرك ، وتتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُذْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(٢) حركة محسوبة
ومقدرة تقديرا دقيقا ، لقوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ^(٣) ،
والإنسان جزء من هذا الكون المخلوق العريض الواسع ، مرتبط به ، يدرج عليه ،
ويعيش حياته يستنشق هواءه ، ويأكل نباته ، ويشرب مائه ، كما أنه خلق منه ويعود
إليه . فإما أن يكون الكون خلق له ، أو وجد هو لعمارتة ، أو كان كل لازمة
للآخر ، والتصور الإسلامى فى خلق الكون وخلق الإنسان وفى إظهار الحكمة من
ذلك واضح بين ، لم يترك شيئا لمناهة الشطحات والتصورات والخيالات ، كما كان
فى الماضى . ولم يقف جامدا أمام التساؤلات الحاضرة والمستقبلية التى من المتوقع أن
يتناولها المفكرون ، فبعد أن كان الناس فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن يوجهون
اهتمامهم الأساسى إلى الواقع المادى المشاهد وتطور الكائنات الحية على هذه الأرض ،
خصوصا بعد إعلان دارون نظريته فى التطور ، فإن الجيل المعاصر والأجيال التى

(١) الرعد ١٥ .

(٢) يس . ٤٠ .

(٣) الفرقان ٢ .

ستليه ستوجه اهتمامها إلى الكون الخارجى ، وستتسائل عن حدوده وأبعاده ، وإمكان وجود كائنات أخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجى يتناهى أو لايتناهى ، وهل هناك إمكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الأخرى ، وهل لا يوجد فى هذا الكون إلا الإنسان فقط ؟. صحيح أن مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدود إلا العلم ، ولكن فى هذا الجو العلمى الذى يبدد كثيرا من الخيالات المتخلفة ينشط كثير من الماديين مؤكدين للناس وجوب النظرة إلى كل تراث دينى على أنه لا مكان له فى هذا العصر ، وقد أدى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلى نوع من الصراع — الذى لا مبرر له — بين قيم تراثنا الدينى والحضارى ، والقيم الجديدة التى يؤكد عليها أولئك الدعاة ، ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا من جهل بطبيعة الإسلام ، ومن تقليد وانسياق بدون وعى وراء فلسفات العصر المادية التى كانت سببا فى ضياع كثير من الأهم ، ويجب أن يعلم أنه ليس من شروط التقدم العلمى أن يقتصر بالإلحاد ، كما أن الإلحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الأسئلة التى يثيرها العقل صرح بها أو أبطنها — هى : هل الإسلام متفق مع العلم روحا ومنهجاً ، وما هو مبلغ هذا الاتفاق ومظاهره ؟. وإذا كان العلم الحديث قد توصل فى مجالات شتى إلى تكوين صورة معينة بل ملموسة عن هذا الكون ، كما أثبت قدرة الإنسان على تسخير كثير من القوى فى الكون وتطويرها لمنفعته ، فألى أى حد تكون نظرة الإسلام إلى هذا المجال ، وهل هو معوق ، أو متفرج ، أم حافز ومشجع ، ثم يوجه آخرون أسئلة معدلة ، فيقولون : من المعلوم أن انفتاح آفاق المادة على مصراعيها وغرور الإنسان بها ولد فسادا وانحرافا فى استعمالها ، فما هى القيم الروحية التى أعدها الإسلام لتحد من أخطار ذلك .

علمية النظرة إلى الكون .

عندما يتأمل الباحث فى آيات الكتاب العزيز وينظر فى ثناياه نظرة متأنية فاحصة ، يجد أنها توجه العقل إلى استخدام منهج متكامل فى البحث فى الكون ، يتكون من عدة نقاط :—

١ — النظرة العلمية البحتة إلى الأشياء

فلا تأثر بعبادة ولا بتراث ولا بعقائد سابقة . وكثيرا ماتحدى القرآن هؤلاء الأصناف بالمهج العلمي والحجة والدليل ، لا بالعقائد الموروثة والأفكار السائدة . كقوله تعالى : — ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : — ﴿ إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ^(٤) . وإنما يريد القرآن من الإنسان أن لا يخطو خطوة إلا بالعلم ، خاصة وأنه قد وهب أدوات البحث والنظر . فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ ^(٥) وكانت هذه صيحة في وسط العالم وقت ذاك ، أيقظت الجاهلية التي كانت تؤله الكواكب وتعبد الأصنام ، فمن العرب من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت جِمْيَر تعبد الشمس ، وكنانة تعبد القمر ، وهناك قبائل كانت تتوجه بالعبادة إلى المشتري وإلى الشعرى وإلى عطارد ، فحول الإسلام تلك النظرة غير الواقعية إلى نظرة واقعية علمية فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٦)

٢ — محاربة الدجل العلمي

وقد حارب رسول الله ﷺ فيما حارب الدجل والعقائد الباطلة والتنجيم والكهانة

(١) البقرة ١٧٠ .

(٢) الأنعام ١٤٨ .

(٣) الأنعام ٢٢ .

(٤) البقرة ١٧٠ .

(٥) الإسراء ٣٦ .

(٦) فصلت : ٣٧ .

والعرافة ، وهي من مظاهر بدائية التفكير التي تتعارض مع العلم الصحيح ، فقد نبى رسول الله ﷺ نبيا صريحا عن إتيان الكهان وتصديق العرافين ، فقد سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ليسوا بشيء »^(١) ، وعن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « ومن أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »^(٢) . وقد كان الكهان والعرافون يزعمون لأنفسهم قدرة الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الأسرار . ومطالعة الغيب .

٣ — عدم الربط بين الظواهر الطبيعية والعالم .

ولعلنا نلاحظ في هذا مايدل كل عاقل ومفكر أن الإسلام لم يتهاون لحظة واحدة في نفى هذه الأباطيل والأوهام ، كما أنه نفى أى ربط بين ظواهر الطبيعة وحركات العوالم ونفع الناس وضرهم ، أو حياتهم وموتهم . فيوم توفى إبراهيم بن رسول الله ﷺ حدث كسوف للشمس ، ظنه الناس معجزة حدثت لهذه المناسبة ، فرد ذلك رسول الله ﷺ ونفاه ، وقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .^(٣)

٤ — الإرشاد إلى المنهج الصحيح في المعرفة

ومن ذلك رد القرآن على مؤهلة الكواكب من الصائبة بمثل هذه الآية التي تصور حال إبراهيم عليه السلام حين نظر إلى الكواكب ، واهتدى إلى وجود خالق له ، ورد على هؤلاء العابدين لهذه الأجرام والكواكب . ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيْ اِبْرٰهِيْمَ مَلَكُوْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأٰى كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّيْ ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَا

(١) هذا بعض حديث في صحيح مسلم — انظر مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ٤٩٤ ط الكويت .

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ١٤٩٦ ط الكويت وزارة الأوقاف .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم ، مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ٤٤٥ ط الكويت .

أُحِبُّ الْآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ : هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَقَدْ
لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ : هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَنَرَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْظُرُ إِلَى الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ نَظْرَةً
عِلْمِيَّةً ، عَلَى أَنَّهَا أَشْيَاءٌ مُسِيرَةٌ ، لِاتِّمْلِكُ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا ، فَضِلَّا عَنْ أَنَّهَا
تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَتَرْزُقُ ، وَمِنْ طَبِيعَةِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَقَرِّرُ الْأَصُولَ الْعَامَّةَ لِلدَّلَائِلِ
الْعَقْلِيَّةِ ، أَمَا تَفْصِيلَاتُهَا وَكُشْفُ قَوَانِينِهَا وَطُرُقُ اسْتِخْدَامِهَا فَهِيَ وَظِيفَةُ الْعَقْلِ
الْبَشَرِيِّ ، وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ غَيْرُ الْمَلُوثِ بِالْغَرَائِزِ الْمُنْحَرِفَةِ ، وَالْأَفْكَارُ الْعَلِيلَةُ
الشَّرُودُ .

خلق الكون : —

تكلم القرآن عن أكوان وعوالم خلقها الله سبحانه وتعالى قبل أن يعرف الناس شيئا
عن تلك الأكوان وهذه العوالم ، وقبل أن توجد المراسد والتحليلات الرياضية وغير
الرياضية ، فأخبرنا في أول سورة من القرآن وفي أول آية منها بعد البسملة بقوله :
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، تلك الكلمة التي فاجأت العرب ، حيث كانوا لا
يعلمون إلا عالما واحدا فقط ، وهو ما يشهدونه من أرض وسما وما بينهما ، والتمس
الناس تلك العوالم المتعددة ، وضرب المفسرون ذات اليمين وذات الشمال ، فمن
قائل : إنها عوالم الإنس والجن والملائكة ، ومن قائل : إنها عوالم الحيوان والنبات
والجماد ، إلى غير تلك الأقوال ، ولكن الحقيقة أن هذا يكون عالما واحدا ، أو هو
يكون ذلك العالم الذي نراه ولا يتعدد بتعدد أجزائه ، ثم جاء العصر الحديث فأظهر
عوالم متعددة بجانبها علمنا المشاهد وليس شيئا مذكورا ، فهناك المجرات الهائلة المترامية
الأطراف التي تعد بالملايين ، وإن كان العلم الحديث لم يهتد للآن في تلك العوالم إلى

(١) سورة الأنعام من الآية ٧٥ — ٧٩ .

أرض كأرضنا وحياة كحياتنا ، وإن كان العلم يعد ذلك ممكنا وغير مستحيل ، بل يعده أمرا راجحا ، وقد قرر ذلك كثير من العلماء المحدثين في هذا العصر ، أمثال الفلكي الإنجليزي الشهير سبنسر جونز ، الذي كتب عن الحياة في العوالم الأخرى وإمكانية ذلك^(١).

خلق السموات والأرض :

ثم تكلم القرآن على خلق السموات والأرض ، وفصل ذلك تفصيلا يرمز إلى كثير من الدلالات التي تنبه العقول إلى كثير من الحقائق التي يجب أن يبحثها الإنسان ، ليهتدى :

أولاً : إلى معرفة قدرة الخالق وإنعامه .

ثانيا : إلى مافيه من حقائق تكاد البشرية تفنى أعمارها وأوقاتها في البحث عن أسرارها ، ويهديها الله إليها رحمة منه ، ولتكون إشباعا لتلك الرغبات الإنسانية المتطلعة إلى معرفة المجهول . فقال تعالى : —

﴿ قُلْ أَتُنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِئِذٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٢) واليوم في الآية الكريمة عبارة عن الحقبة من الزمان ، حيث خلقت السموات والأرض وما كان هناك أيام لا شمس ولا قمر .

(١) انظر في ذلك « عوالم لا نهاية لها » للفلكي الملكي الإنجليزي هـ سبنسر جونز . فصل الحياة في العوالم الأخرى .

« والإسلام في عصر العلم » للأستاذ محمد أحمد العمراوى ص ٢٢٤ ط دار الإنسان .

(٢) سورة فصلت — ٩ — ١٢ .

واليوم في اللغة العربية ، يطلق على يوم الأسبوع ، ويطلق على الحقبة من الزمان ، كأيام العرب في حروبها على أن اليوم ، وإن أطلق في القرآن الكريم على اليوم العادي ؛ فقد أطلق على الحقبة أيضا كيوم بدر ويوم حنين ، وأطلق على أيام الله التي تبلغ ألف سنة ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾^(١)

وأطلق على خمسين ألف سنة ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾^(٢) وعلى الناظر في أيام الخلق في القرآن أن يعلم أنها تطلق على الحقب الزمنية ، لا على الأيام العادية ، وهذه الحقب الزمنية لا يستطيع أن يحدد مداها إلا العلم ، وقد يقال : إن يَوْمِي خلق الأرض ، عبارة عن طور الانفصال من الشمس والانطفاء والبرودة التي أعقبها تكثف البخار السابح حولها ، والطور الثاني : هو طور تجمد القشرة الأرضية ، ويبقى هناك طوران آخران عنتهما الآية بقولها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أى في تمام أربعة أيام ، يومان سابقان ، ويومان لاحقان ، فيكون الكل أربعة أيام . أشار إلى طور خلق الجبال بأنواعها ، ثم طور إعداد الأرض للحياة ، بخلق جميع العناصر اللازمة للحياة من هواء وماء وتربة ، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ ، ولا بركة بغير ماء ، ولا تقدير أقوات بغير خلق جميع العناصر اللازمة للزراعة والإعاشة والإنبات والنماء نباتيا وحيوانيا ، وفي الحكمة في التعبير بالأيام عن الأطوار يقول الأستاذ . الغمراوي « وفي التعبير عن الأطوار وأحقابها بالأيام إعجاز آخر نفساني ، له أهميته في تحقيق الهداية التي أنزل من أجلها القرآن ، ألا وهو صلاحية التعبير لأن يفهمه أهل الكتاب على الوجه الذي لا يعرفون غيره ، فلا يكذبون القرآن ، فيقف تكذيبهم حائلا دون دخول أحد منهم في الدعوة ، وعائقا لغيرهم من مشركي العرب الذين يثقون بعلم أهل الكتاب . والله وحده هو القادر أن يخاطب عباده في أسلوب يعبر عن الحقيقة الكونية لمن علمها ، ولا يصدم معتقد

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس في مادة يوم .

(٢) الحج — ٤٥ .

(٣) المعارج — ٤

من جهلها . وهذا تشريع عملي من الله أن تكون الدعوة إلى الله على وجه لا يكون فيه ما يصد الناس عن الدخول في دين الله ، وهو المبدأ الذي عبر عنه الرسول عليه السلام بقوله ما معناه « خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يُكذَّبَ الله ورسوله » ومن هنا كان قبوله ﷺ جواب الجارية حين سألتها « أين الله يا جارية ؟ » قالت : في السماء ، فقال لوليتها : « هي مؤمنة » . ومن هنا تبسمه ﷺ لقول الخبر الذي جاءه وقال ، فيما روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « إنا نجد يا محمد أن الله يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، والثرى على أصبع ، وثائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك » يقول ابن مسعود : فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجره ، تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) والخطأ في كلام الخبر واضح . فإن الأرضين تشمل طبعا كل ما عليها من شجر وماء وثرى وخلأق ، لكن الرسول لم يبين للخبير خطأه فينفر وينفر من وراءه ، وإنما تلتطف بعد أن تبسم فتلا عليه الآية الكريمة ، التي يدل صدرها على أن مقال الخبر هو دون مايليق بجلال الله سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ^(٢) .

ثم تكلم القرآن على خلق السماء بعد خلق الأرض : فقال سبحانه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وتقديم ذكر خلق الأرض على خلق السماء إما للاهتمام بها لعلاقتها المباشرة بالإنسان ، أو لأنها خلقت وكونت بعد الأرض فعلا ، و« ثم » للدلالة على التراخي في الآية ، بمعنى أن السماء كانت سديمية حين انفصلت الأرض عن شمسها في اليوم الأول ، أو الطور الأول من خلق الأرض ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ^(٣) .

(١) الزمر : ٦٧ .

(٢) الإسلام في عصر العلم الأستاذ الغمراوي ص ٢٤٨ .

(٣) الأنبياء — ٣٠ .

ودلت « ثم » على أن الأيام الثلاثة ، أو الأحقاب التي تحققت فيها صلاحية الأرض للإعاشة وتقدير أقواتها فيها ، لم تكن كافية لخروج السماء من السديمية الأولى إلا إلى الحالة الدخانية ، وهل كانت السموات دخانا قبل أن تتخلق بأمر الله سبع سموات ، يقابلها سبع أرضين كما نصت على ذلك الآية ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾^(١). كل أرض تقابلها وتعلوها شيء ، وهذا من العجائب العلمية في خلق السموات والأرض ، حيث يكتشف العلم في العصر الحديث أن السماء كانت يوما دخانا ، ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخانا يشاهدها الفلكيون بمراقبهم القوية اليوم في السماء وإن تكتل داخل أكثرها نجوما ، ويسمونها في العصر الحديث سدا ، سواء تكتل منها نجوم أم لم يتكتل بعد^(٢).

وبعد : فقد أفاض القرآن في الكلام على خلق السموات والأرض والكواكب والنجوم في كثير من آياته ، فقال ﴿ وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾^(٣) ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾^(٤) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾^(٥) ، ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾^(٦) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٧) . وكل هذه الآيات تشير إلى آفاق من المعرفة التي يجب أن يتدبرها الإنسان ، ويسير على هداها ، حتى يحصل له من العلم ما به سعادته وخيره في الدنيا والآخرة .

(١) سورة الطلاق — ١٢ .

(٢) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية للأستاذ حنفي محمود ص ٢٠٧ ، مقال الدكتور زغلول النجار في عالم الفكر الكويت ص ١١٤ .

(٣) اللذريات — ٤٧ .

(٤) عم ١٢ .

(٥) الفرقان ٦١ .

(٦) الواقعة — ٧٥ — ٧٦ .

(٧) الأنبياء — ٣٣ .

المبحث الثاني

المنهج الإسلامي في النظر إلى الكون

نظر المنهج الإسلامي إلى الكون نظرة منطقية واقعية ، فجعله مصدر الثقافة ، ذلك شيء يقرره الواقع نفسه ، فأبصارنا وأسماعنا تقع على هذا الكون ، ولا تقع على غيره ، تقع على الكون بكائناته المختلفة من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وتصاحبه في تطوراتها في ليله ونهاره وحره وبرده ، فتكتسب منه العلم والتجربة والخبرة ، وتتفاعل معه بما أودع الله في الإنسان من عقل وسمع وبصر وحس ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾^(١) ولما كان الكون مصدر ثقافة الإنسان دعانا الله ﷺ إلى النظر فيه ، والتفكير في آلائه ، فقال : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) . والآية طلب من الإنسان أن ينظر إلى الكون بحاستين : الأولى : الحواس الظاهرة ، والثانية : الحواس الباطنة ، وهي القلب والفكر ، وكما أن الرؤية بالبصر حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء ولها مقدمات ، هي تقلب الحدقة إلى جهة المرنى طلباً لتحصيل تلك الرؤية ، فكذلك الرؤية بالحواس الباطنة لها حالة مخصوصة من الانكشاف بتقلب الفهم وإعمال العقل. إذا فالنظرة الإسلامية تتكون من شيئين :

الأول : الإدراك الحسي :

ويتناول الرؤية العامة للأشياء ، ومظاهرها ، وتقلباتها ، وخواصها ، وهيكلها ،

(١) الحل — ٧٨ .

(٢) يونس — ١٠١ .

وما يؤثر فيها سلبي وإيجابا ، وأبعادها ، ومقاييسها ، وكمها ، وكيفها ، وهذه الأشياء التي تكون مقدمة لتفكر واستجلاء المكنون منها ، وتكون كالمادة بالنسبة لتكون الأشياء وإنشائها ، نلاحظ هذا في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ^(١) . وفي أمثال قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) فمشاهدة هذه الأشياء وملاحظتها تكون مادة لإعمال العقل واستجلاء ما وراء المشاهدة من أسرار .

الثاني : الإدراك العقلي :

وهو الإدراك الباطني والفكري ، وله خواص في استجلاء حقائق الأشياء ، منها : إدراك السببية بين الأشياء ، وتعرف بخاصية السببية ، وهي ملكة خطيرة ترى في الكائنات ارتباط كل كائن بمسبب أحدثه ، وهو ارتباط يدرك بالعقل لا بالحواس الظاهرة : فإذا أبصرت العين العادية شيئا ماله طول وعرض ولون وخواص معينة ، لم 'تقف عند هذا الحد ، وإنما تتعداه إلى دراسته ومعرفة مكوناته وكيفيته ، وظهور هذه المكونات إلى دنيا الواقع وما هي القوى التي وراء هذه الأشياء ، فحين يرى الإنسان بيتا جميلا وحديقة غناء يؤخذ بهذا الجمال الرائع والمنظر الساحر ، ثم لا يلبث أن يلاحظ دقة الصنع وهندسة البناء وروعة التنسيق ، ويتدرج من هذا إلى مقدرة المهندس وبراعة العامل الذي أخرجه .

ف نجد أن العين شاهدت ، ثم أسلمت ذلك إلى العقل ، الذي أدرك سبب تلك البراعة ، ومصدر هذا الجمال ، وهو المهندس والعامل الذي أنشأ هذا العمل وكان مصدرا لهذا الإتقان . إذن هذه الظاهرة ارتبطت بمسبب لها ، وهذا الارتباط علامة عقلية ، موجودة في الأشياء تلحظ بالعقل وتدرك بالفكر ، مؤداها الضروري البديهي أن الأشياء آثار أحدثها محدث ، ولم توجد نفسها من العدم . وهذا معيار فطري من معايير العقل التي يدرك بها حقائق الأشياء في الكون ، وليس كما يقول

(١) الرعد — ٢ .

(٢) الرعد — ٤ .

الماديين الحسيون مجرد وضع اكتسبه العقل من التجربة ؛ فإن الطفل الذى يسأل أباه من حفر البحر ، أو من خلق القمر والشمس ، لا تجربة عنده ، ومع هذا يدرك السببية ويسأل عنها ، ويتوافق إحساسه مع فكر المفكرين وتأمل الباحثين فى أن تلك الكائنات لم تخلق نفسها ، أو توجد خواصها وقوانينها ، ولم يكن لها فى ذلك إرادة فاعلة أو علم مسبق ، ولهذا بدا الكون ولا معنى له فى نظر الإنسان السوى إلا أنه صنع صانع وفعل حكيم ، وقد قادنا القرآن إلى درس عملى مع إبراهيم عليه السلام وقومه ، وكان ميدان هذا الدرس هو الكون بما فيه من نجومه وأقماره وشمسه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾^(١).

وخلص إبراهيم عليه السلام من الدرس بأن هذه العوالم لا تملك من أمرها شيئا ، فضلا عن أن تملكه لغيرها ، وأن لها خالقا مدبرا فاطرا ، يجب أن يوجه الناس وجوههم إليه ، وقد فعل هو ذلك ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢) وكثيرا ما نرى الآيات تغوص بنا فى أعماق الخلق ؛ لتوضح السببية فى الأشياء ، فتقول : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٣) . إن رؤية الكائنات متداولة بين الإيجاب والعدم ، وبين المحو والإعادة ، هى عين سلبيتها وافتقارها إلى موجد ، وهذا الموجد يجب أن يكون فى جلاله وقدرته أعظم من الموجود ، وفى هذا التساؤل وحول هذه المعانى يحدثنا القرآن ، فيقول : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾^(٤).

ويوضح القرآن أمر السببية ، وينزل بها إلى الحياة المعيشية ، والمخالطة اليومية ،

(١) الأنعام — ٧٥ .

(٢) الأنعام — ٧٩ .

(٣) العنكبوت ١٩ .

(٤) النمل — ٦٠ .

فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ ﴾ ^(١) . ويطلق القرآن بعد ذلك سؤالاً ليس له إلا إجابة واحدة فقط ، تقطع المعاذير ، وتقيم الحجة على الغافلين ، فيقول ، ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(٢) . إذن فالآية الكريمة تضع الجاحدين بين خيارين ليسألوا أنفسهم ، أخلقوا من غير شيء أبداً ، وهذا مستحيل عقلاً وواقعاً ومشاهدة ، أم هم خلقوا أنفسهم ، وخلقوا السموات والأرض والعوالم ، وجلبوا الأرزاق والأقوات ، وسيروا الكواكب والأجرام ، وأنزلوا الماء ، وجلبوا النماء ، لم يثبت ذلك لأحد من البشر أبداً ، ولم يدعيه لآل أو قال أو يقول به مخلوق ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقررها القرآن ، وهي أنهم جميعاً من خلق الله تعالى .

الحقائق المستفادة من هذه النظرة :

الحقيقة الأولى : أن الأشياء خلقت لغاية وحكمة ، ولم تأت باطلاً أو عبثاً .

الحقيقة الثانية : هذه العوالم وهذا الخلق : متقن الصنع ، متناسق المعالم ، مكتمل الأجزاء ، وثيق البنية .

الحقيقة الثالثة : هذه المخلوقات خير نافع محمود الأثر في كل حال .

أما أن الأشياء خلقت لغاية وحكمة ، ولم تأت باطلاً وعبثاً ، وهذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية من خلق الأشياء ؛ فلأن الله خلقها لنا لنفعا ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ، وخلقها على درجة من الإتقان والإحكام تفوق كل حصر . وصدق الله ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير

(١) الواقعة ٦٣ — ٧٢ .

(٢) الطور — ٣٥ .

من آياته ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي تَخْلُقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ثم مدح القرآن أولى الألباب ؛ لأنهم عرفوا أن الله خلق السموات والأرض والعوالم لحكمة وغاية ، فقالوا ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ : قال الفخر الرازي^(١) إن كل ما يفعله الله تعالى فهو إنما يفعله لغرض الإحسان إلى العبيد ، ولأجل الحكمة ، والمراد منها رعاية مصالح العباد ، ولو لم يخلق السموات والأرض لحكمة لكان خلقها باطلا ، وذلك ضد الآية وضد حكمته سبحانه^(٢) . وقد وضع القرآن هذا المعنى في آيات أخرى ، منها : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾^(٣) ، وقال في آية أخرى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٤) ثم قال ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ، فتعالى الله الملك الحق ﴾^(٥) ، أى فتعالى الملك الحق عن أن يكون فعله عبثا ، وإذا امتنع أن يكون عبثا فبأن يمتنع كونه باطلا أولى . وهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن أفعال الحق سبحانه وتعالى منزهة عن الوصف بالعبث واللعب والبطالان ، وإنما خلقت لغاية وحكمة نافعة للإنسان ، هادية له إلى جلال الحق وحكمته سبحانه وتعالى ، وهذه قضية عقلية يشهد العقل بصحتها ، كما يشهد باستحالة العبث والباطل في أفعاله سبحانه .

٢- وأما عن إتقان الخلق ، وتناسق الصنع ، وكونه واضح المعالم ، مكتمل الأجزاء ، وثيق البنية ؛ فلأنها ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾^(٦) . قال البيضاوى : أى أحكمه وسواه على ما ينبغي . وقال الشوكانى^(٧) . أتقن كل شيء : أحكمه .

(١) هو محمد بن عمر الحسن بن الحسين أبو عبد الله فخر الدين ، أصله من طبرستان ، ومولده في الرى ، ويقال له ابن خطيب الرى ، له مؤلفات كثيرة ، من أشهرها مفاتيح الغيب في التفسير ، وله كتاب الحصول في علم الأصول . وتوفى سنة ٦٦١ هـ في هراه .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٣٩ ط طهران ، وفتح القدير شوكانى ج ١ ص ٤١١ .

(٣) الأنبياء — ١٦ الدخان ٣٨ .

(٤) ص — ٢٧

(٥) المؤمنون — ١١٥ — ١١٦ .

(٦) النمل — ٨٨ . انظر تفسير البيضاوى في الآية .

(٧) هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصناعى ، ولد سنة ١١٧٣ هـ في بلدة هجرة شوكان ، =

يقال : رجل تقن : أى حاذق بالأشياء ، فالله سبحانه وتعالى صنع ما صنع مع إتقان كلى شىء .^(١)

ويظهر الإتيان في خصائص أربع : —

أ — تمام النظام .

ب — دقة التقدير .

ج — شدة الإحكام

د — إهداء كل شىء إلى وجهته .

أ — أما النظام : فإنه يبدو للمأمل ، ويظهر للناظر في نظام ذلك الكون العجيب ، في أرضه وسمائه ، في هوائه ومائه ، في زرعه وضرعه ۞ فليُنظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وربوتنا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم^(٢) ۞ فقدّر طعام الإنسان أن يمر بمراحل معينة من التجهيز والإعداد والتقدير والتنويع ، حتى يستطيع الإنسان أن يستوفي احتياجات جسده ، ويأخذ من كل بقدر معين ، ونأق إلى السماء فنجدها بناء محكما مزينا منسقا . وصدق الله ۞ هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب^(٣) ۞ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم^(٤) ۞ .

= وتوفى سنة ١٢٥٠ هـ ، تفقه على مذهب الإمام زيد ، وبرع فيه ، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه ، له مؤلفات مه : فتح القدير في التفسير ، ونيل الأوطار في الحديث ، له مؤلفات كثيرة منها المطبوع وغير المطبوع

رحمه الله رحمة واسعة

(١) فتح القدير ج ٢ ص ١٥٥ ط دار المعرفه .

(٢) غنص — ٢٤ — ٣٢ .

(٣) نوبس — ٥ .

(٤) نيس — ٣٧ — ٣٩ .

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون^(١) ﴿

وإذا أردنا أن ننظر إلى إحكام متناسق بين السماء والأرض وإلى وحدة شاملة متعاقبة فلننظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون^(٢) ﴾ نجد في الآية الكريمة نظاما فريدا ، يجمع بين دوران الأفلاك وجريان الفلك ، ونزول الماء ووجود النماء ، وبين تصريف الرياح وتسيير الدواب ، وتسخير كل هذا النظام فريدا عجيبا يؤدي دورا في الحياة في إحكام وطاعة وانقياد .

ب — وأما عن دقة التقدير ؛ فقد جاء القرآن بذلك ، ولفت إليه في كثير من آياته ، حتى يتنبه الإنسان لهذا الإبداع وذلك التقدير الفائق الذي عليه تقوم الحياة ، وليس للصدفة أو العفوية — كما يقول بعض الناس — دخل في هذا الترتيب والتنظيم المتمعن نقرأ قول الحق سبحانه ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون^(٣) ﴾ .

ولننظر إلى قوله تعالى ﴿ موزون ﴾ ، ونتخيل هذه الدقة في ترتيب الأمور ، وكأننا نرى مثاقيل الذر وهي توزن لتتسجم مع هذا النظام الساري في الحياة ، وصدق الله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا^(٤) ﴾ ، أى قدره بدرجة محكمة تامة دقيقة ، فجعل لكل كائن ما هو ضرورى لكيانه من الخلايا والذرات والعناصر بقدر معين ونسق معين ونظام مقدر ، بحيث إذا اختلفت النسبة فسد الشيء ، فلا يكون الهواء هواء ولا الثمار ثمارا ولا الإنسان إنسانا ولا الأجناس أجناسا ولا الأنواع مضطردة ،

(١) يس — ٣٧ — ٤٠ .

(٢) البقرة — ١٦٤ .

(٣) الحجر — ١٩ .

(٤) الفرقان : ٢ .

ف ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى (١) ﴾ .
فكل ميسر لما خلق له ، فلا الأسد يلد جملا ، ولا الثور يلد فيلا ، ولا الحمار يلد
إنسانا ، ولا الشاة تلد كلبا ، ولا التفاح يخرج برتقالا ، ولا الزيتون يخرج ثمرا ، وإنما
يكون كما قدر الله وأراد . وصدق الله ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا (٢) ﴾ ﴿ وكل
شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٣) ﴾ .

ج ، د أما الإحكام ودقة الأحكام ؛ فهذا واضح فى صفحة الكون ، وفى
شبكة النواميس المبنوثة فى الكون ، كيف تسير ، وكيف تعمل بنظام عجيب بغير
فساد أو فوضى ، وبغير عصيان أو تمرد ، ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال
لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين (٤) ﴾ .

ومن الإحكام ودقته اهتداء كل نسمة وكل خلية إلى وجهتها الخاصة بها ،
فخلايا الجسم كلها خلايا ، ولكن هناك خلية للعين ، وخلية لليد ، وخلية للأذن ،
وخلية للرجل . وتذهب كل خلية إلى موضعها المراد لها ، فلا خلية العين تذهب إلى
الرجل ، ولا خلية الأذن تذهب إلى العين ، ولكن كل يذهب إلى موطنه وموضعه ،
على ما قال سبحانه ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ (٥) فدودة القز
تخرج الحرير ، وتتجه النحلة إلى إخراج العسل فى العرش فى الجبال ، ﴿ وأوحى ربك
إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ (٦) وهكذا صنع
الله فى كل شىء وفى كل زمان .

وأما أن هذه المخلوقات خير كلها ومحمودة الأثر ومنزهة عن العبث ؛ فهذا
يشهد له العقل والواقع ، لأن العقول التى سلمت بحكمة الصانع وعلمه ورحمته تعلم
أن الخير والإحسان فى حكم الحكيم وفعل العليم ، وإن كان يحيل للإنسان فى بعض

(١) الأعلى ١ — ٣ .

(٢) الطلاق ٣ — ٣ .

(٣) الرعد ٨ — ٨ .

(٤) فصلت ١١ — ١١ .

(٥) طه ٥٠ — ٥٠ .

(٦) النحل ٦٨ / ٦٨ .

مظاهر الأفعال أنها على غير ذلك ، فعندما يسمع الإنسان الرعد مثلاً ، تحدثه نفسه مافائدة هذا الضجيج ، ويظل الإنسان زمناً ينسب ذلك إلى خرافات لا تغنى عن الحق شيئاً ، ثم يقرأ قول الحق سبحانه ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾^(١) ، فيعلم أن كلاً مسبح مطيع خاضع نافع ، ثم يعلم بعد ذلك عن طريق البحث أن الرعد سبباً في إنزال الغيث ، وسبب في الحياة والنماء ، والجودة ، ثم يمزج كثيراً من الأكسوجين والنيتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب إلى الحقول عن طريق المطر ، وتقدر الكمية التي تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة كل سنة مايقرب من خمسة أرتال لكل فدان من الأرض ، وهى تساوى ثلثائة رطل من نترات الصوديوم ، فنكتسب الأرض قوة وحياة ، وصدق الله ، ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾^(٢) وقوله ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ﴾^(٣) وقوله ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾^(٤) . وإذا نظر الإنسان إلى الحقيقير من الأشياء ، إذا نظر إلى الكلب مثلاً ، ثم يسأل نفسه : ما فائدة هذا الحيوان الذى لا يؤكل ولا يلمس ، ويضرب به المثل فى الحقارة ، ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾^(٥) ، ولكن بعد تفكير يجد أن هذا الشيء وهذا الحيوان الحقيقير خلقه الله لفائدة الحراسة والصيد ، وقد اكتشف الإنسان أن له حاسة معينة تستطيع بعد تدريبها أن تكشف عن الجرائم ، وتميز بين الروائح والآثار بشكل يدعو إلى العجب والدهشة ، ونجد أن جوانبه الخيرة هذه قد أشير إليها وأشير إليه فى قصة أصحاب الكهف ﴿ وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾^(٦) ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴿ فتعلم أن فى وجود الكلب معهم وجه من الوجوه يجب أن نفطن إليه . ويشير إلى هذا النفع فى جميع خلق الله كذلك قوله تعالى ﴿ هو الذى خلق

(١) الرعد : ١٣ .

(٢) الروم : ٥٠ .

(٣) الروم / ٢٤

(٤) الجاثية : ٥ .

(٥) الأعراف / ١٧٦ .

لكم مافى الأرض جميعا ﴿١﴾ ، فتشير الآية إلى صلاحية كل خلق الله لنفع الناس فى دينهم ودنياهم : قال الرغزنى ^(٢) فى تفسيرها « خلق مافى الأرض جميعا لأجلكم ولانتفاعكم به فى دينكم ودنياكم » .

طبيعة هذا النفع :

وإذا نظرنا إلى طبيعة نفع هذه المخلوقات ، نجد أن نفعها عام لا يختص به أحد دون أحد ، فهو إما ظاهر النفع كالشمس ، فإنها ترسل ضوءها لكل إنسان ، تدخل قصور الأغنياء ، كما أنها لا تحتجب عن أكواخ الفقراء ، فهي كالهواء يعطى لكل مستشقق ، ويدخل إلى رثة كل حى ، وكالماء والنار والكأ ينفع به الناس وينعمون به .

وإما أن يكون نفعه مستترا فيحتاج إلى إعمال فكر وبحث عقل فيفتح منه ما أغلق على الكثيرين وهذا النفع عام ليس محصورا ، فلا تختص به أمة دون أمة ولا جيل دون جيل ولا جنس دون جنس .

ثانيا : أن هذا النفع منقاد غير عصى ، فقد خلق الله كل كائن ولم يخلق له القدرة على إمساك نفعه ومنع خيره ، وإنما سخر للإنسان وانقاد ، وقدر فيه قانون تسخيره وما على الإنسان إلا أن يضع يده على مفاتيح هذا التسخير ، وأمامنا الآن الطيران بطائراته وصواريخه ، والفضاء الجوى كله قد أعطى نفعه لكل إنسان ، وخضع وما استعصى لما أديرت مفاتيح تسخيره ، ويزعم الإنسان أنه سخر الطبيعة ، والطبيعة مسخرة ، ولكنه كان لا يعلم قانون ذلك التسخير ، والطبيعة طيعة ، ولكنه كان يجهل هذه القيادة ، فلما استعمل عقله استطاع أن يركبها وأن يقودها تماما كما يعلم الإنسان كيف يفتح الخزينة ، ويدبر فيها مفتاحها ، أيزعم بعد ذلك أنه هو صانعها ومخترع تلك الأقفال أم أن هناك صانعا آخر غيره جعل لفتحها قانونا معيننا من عرفه

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) الرغزنى فى الآية

استطاع أن يأخذ خيره ، وصدق الله ﴿ وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾^(١)
﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾^(٢) ، ﴿ هو الذى جعل
لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ﴾^(٣) .

﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ،
وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ﴾^(٤) .

﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾^(٥) .
﴿ أو لم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ﴾^(٦) .

ثم قال الله للنحل :

﴿ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً ﴾^(٧)

وبعد ، فإن هذا المنهج القرآنى وهذه الفطرة الإسلامية للعالم وللخلق تدعو
إلى الالتفات والدهشة ، وتضع الإنسان أمام لوحة دراسية كبيرة ، تحفز فكره ،
وتنبه عقله ، وتجيش مداركه ، ليكشف هذه المغاليق ، وليستفيد من هذه
المخلوقات التى جعلها الله نعمة له ، ولا يقف أمام المجهول وقوف العاجز
الحائر ، لكنه يقف أمامها بمصباح فكره ونور بصيرته ، غير هيب ولا وجل ، وكلما
كشف سرا ووجد قانونا واهتدى إلى سبب وفطن إلى علة هتف من أعماقه
﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾^(٨) ، وتذكر قول ربه ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق
وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٩) .

(٨) المؤمنون ١٤ .

(٩) فصلت ٥٣ .

(١) يس — ٧٢ .

(٢) الجاثية ١٣ .

(٣) الملك — ١٥ .

(٤) إبراهيم — ٣٣ .

(٥) البقرة ١٦٤ .

(٦) النحل — ٧٩ .

(٧) النحل — ٦٩ .

التصور الإسلامى لخلق الحيوان :

إن تصور الإسلام لخلق الإنسان والحيوان ، وتسويته وإبداعه ، تصور ربانى بخصائص إلهية ، تصور إعتقادى موحى به من الله سبحانه وتعالى ، محصور فى هذا المصدر لا يستمد من تصور غيره ، وهذا يميزه عن التصورات البشرية والفلسفية التى ينشئها الفكر البشرى حول الحقيقة الإلهية ، أو الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة الإنسانية ، ويميزه كذلك عن المعتقدات التى تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية .

لقد بذل الجنس البشرى جهدا كبيرا لكى يعرف نفسه . ولكن بالرغم من أنه يملك كنزا من الملاحظة التى كدسها ، والركام الجبار المجمع من نتاج عقله من فلسفة وشعر وبحوث روحانية فى جميع الأزمان ، نجده لا يعرف من نفسه إلا جوانب سطحية فقط ؛ لأن كل واحد من البشر مكون من مواكب من الأشباح ، يسير فى وسطها حقائق مجهولة ، تغلف بظلام كثيف . وفطرة الإنسان قد كدرت بأهواء شتى فى عصور متلاحقة ، فأصبح كشفها للحقائق يحيم عليه قتامات المذاهب والآراء المتباينة ، وجنح كثير من العلماء إلى التعصب المادى ؛ ليواروا به كثيرا من عوراتهم ، وكلما ألحت عليهم فطرتهم بالتوجه نحو الحقيقة جذبهم ذلك التعصب إلى الهاوية — يقول السيد جيمس جينز (١) — فى كتابه « عالم الأسرار » ، « إن فى عقولنا الجديدة تعصبا يرجع التفسير المادى للحقائق » « ويلذكر شمامبرز » فى كتابه (الشهادة) حادثا كان من الممكن إن يصبح نقطة تحول فى حياته ، ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد دقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة ، لكن (شامبرز) طرد هذه الوسواس عن قلبه ، حتى لا يضطر أن يؤمن — منطقيا — بالذات التى أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة . ويقول الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا

(١) السير جيمس جينز عالم بريطانيا العظيم ، يعتبر ولاشك أعظم علماء العصر الحديث فى الفلك ، الأستاذ بجامعة كامبردج .

الحادث « إننى أعرف عددا كبيرا من أستاذتى فى الجامعة ، ومن رفقاء العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيميائية وطبيعية فى المعامل^(١) . وكتب السير آرثر كيث : يقول : إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخالق المباشر « وهذا مالا يمكن حتى أن أفكر فيه »^(٢) .

ونظرية الإسلام فى خلق الإنسان تصور ربانى يدعو إلى البحث والتدبر فى الأشياء ، لتستقر الأفهام والعقول ، وتتفق مع الفطرة فى معرفة الحقيقة ، وتؤمن بتلك المسلمات الربانية التى أشفت غليل الإنسان ، وأراحته من عناء طويل ، وفرغته لمهمته فى الأرض ، فالإنسان أصل بذاته خلق من الأرض ، ليدرج عليها ويعمرها ، تولى الله خلقه وتصويره وتعليمه وتوجيهه ، ووهبه ما به يستمر فى هذه الحياة ويميز فيها الخبيث من الطيب ، وتسير مع هذه الخطوط العريضة التى رسمت للإنسان طريق الوجود .

خلق الإنسان :

يحدثنا القرآن الكريم فى كثير من الآيات عن خلق الإنسان ، ويذكر مراحل هذا الخلق ومادته — وهى الماء والتراب ، والطين المكون منها ، فتارة يلقي الضوء على كل عنصر على حدة ، وتارة يجمع بينهما ، فيتكلم أولا : على أصل الكائنات الحية وهى الماء فيقول سبحانه .

﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾^(٣) ويقول ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾^(٤) وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا^(٥) ، ثم جعل

(١) الله يتجلى فى عصر العلم .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم

(٣) الأنبياء — ٣٠ .

(٤) النور : ٤٥ .

(٥) الفرقان — ٥٤ .

نسله من سلالة من ماء مهين ﴿١﴾ ثم ألقى القرآن الضوء على العنصر الثانى : وهو التراب فقال ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ (٢) ، ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٣) ، ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (٤) .

ثم على العنصرين بعد خلطهما ، فقال ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (٥) ، ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٦) .

فهذا هو الطور الأول للإنسان ، والإنسان هو الطور الأخير ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ؛ ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله ، ولنتأمل تلك النقطة البعيدة بين الطين والتراب والماء وهذا الإنسان ، والقرآن بعد هذا لا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل إلا بالقدر الذى يوضح مخلوقته لله ، لحكمة معينة ، أما نظرية النشوء والارتقاء فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء ؛ لوصول حلقات السلسلة بين الطين والإنسان ، وهى تخطئ. وتصيب فى هذه المحاولة . والفرق كبير بين الحقيقة القرآنية الواضحة وبين التخرص العلمى الذى ليس عليه دليل . والقرآن يعبر عن هذه الحقيقة باختصار فيقول ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (٧) .

أما كيفية تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما قلنا .

ومفرد الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة النظريات الأخرى أن القرآن يكرم الإنسان ، ويقرر أن فيه نفخة من روح الله ، وهى التى جعلت من سلالة الطين إنسانا ، ومنحته تلك الخصائص التى بها صار إنسانا ، وافترق بها عن الحيوان ، وأن الله تعالى تولى تسويته وتعديله وخلقه وتقويمه وتعليمه . ﴿ فإذا سويته

(٦) الرحمن — ١٤ .

(٧) السجدة — ٧ .

(١) السجدة — ٨ .

(٢) غافر — ٦٧ .

(٣) آل عمران — ٥٩ .

(٤) الروم — ٢٠ .

(٥) المؤمنون — ١٢ .

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين^(١) ، فدل ذلك على أن للإنسان كان جنسا وأصلا بنفسه ، وأن الله منحه تلك الخصائص التي صار بها إنسانا ، وهنا تفرق النظرة الإسلامية افتراقا كلياً عن نظرة الماديين .

ولكن هل آدم أول البشر أم كان هناك آدم قبل آدم ؟ .

يقول الأستاذ النجار في كتابه قصص الأنبياء « إن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم الذي نعرفه أبا للبشر ، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الذي نعرفه أبا البشر ، فالقول بوجود غيره مجازفة بلا برهان » ثم يقول : وهناك فريق من الناس يرجح أنه ليس أول نوعه ، ويستأنسون لذلك بقول الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، ويقولوا : إن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وأن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا ، ويعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجودين الآن ، ويرجع تاريخ وجودها إلى أزمان كثيرة تعد بعشرات الآف ومئات الآلاف من السنين^(٢) .

وحين نرجع إلى الأقوال الماثورة وآراء المفسرين فيما يدعيه بعض القائلين بأن الملائكة يستشهدون بآدم آخر كان قبل آدم عليه السلام ، أخذنا من قولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » فنرى الشوكاني في تفسيره فتح القدير يروى لنا جملة من الآثار تدل على أن الأرض كانت مأهولة قبل بنى آدم بالجان ، ففسدوا فيها ، ففاس الملائكة الخلق الآخر على الخلق الأول . « أخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : كان في الأرض قبل خلق آدم الجان فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء ، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنداً من الملائكة ، فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فلما قال الله ﷻ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، كما فعل أولئك الجان « وأخرج أبو حاتم عن ابن

(١) الحجر / ٢٩ ، ص / ٧٢

(٢) قصص الأنبياء للنجار — ص ١١ ، ١٢ وهو المرحوم عبد الوهاب النجار مدرس التاريخ الإسلامي بكلية

أصول الدين ، وناظر مدرسة عثمان ماهر باشا

عمر مثله ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله ، وأخرج ابن جرير وابن عساكر — عن ابن مسعود قريبا منه «^(١) وذكر ذلك القرطبي^(٢) وروى عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في الآية رأيا آخر قال : أعلمهم الله أنه إذا وجد في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فلذلك قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها . وفي الكلام حذف على مذهبه . والمعنى إلى جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ، فقالوا : أتجعل فيها الذي أعلمتنا إياه ، أم غيره^(٣) » والذي يظهر لنا بعد هذا من الأدلة أن آدم عليه السلام هو أبو البشر ، وأنه أول خلق الله من البشر ، وأن الذين يستدلون على أن هناك آدم قبل آدم الذي ذكر في القرآن ليس لهم دليل معتبر في هذا المجال ، ثم من الذي قدر لهم عمر آدم حتى يستقصروا عمره بالنسبة لعمر البشرية على وجه الأرض ؟ أوجدوا شهادة ميلاد موثقة في ذلك ، أم وجدوا قبر آدم عليه السلام ، ثم لم لا يكون آدم عليه السلام هو آدم الأول الذي يدعون «وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ آدَمَ الثَّانِي وَلَمْ يَذْكُرِ آدَمَ الْأَوَّلَ . وأما عن الكشف التي يتعللون بها يقولون : إنها تختلف عن أوصاف البشر الحاليين ، لم يسلم لجميع الباحثين بذلك ، ثم ماهي تلك الكشف ؟ هي جماجم ناقصة متحجرة أكملوها بتخييلاتهم ، وقالوا : إن جبهة الإنسان القديم أبرز قليلا من الجبهة الحالية ، وهل هذا فرق يدل على اختلاف النوع . إنه موجود الآن بين الأجناس المختلفة ، بل بين الجنس الواحد ، بل بين الأسرة الواحدة في بعض الأحيان ، ثم لماذا لا يكون هذا البروز والتواء في الحواجب والجبهة أتى من تغير الزمان ، وتقلص الأجسام ، بفعل عوامل التعرية ، وهم يقولون : إن الجبال نتجت من برودة قشرة الأرض وتصلبها ، أيقرون تصلبها في الجبال وتواءات تبلغ آلاف الأمتار ولا يقرنون تواء مليمترا واحدا في جبهة من ملايين السنين ، وأما عن استدلالهم بالآية ويقول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

(١) فتح القدير للشوكاني ١ / ٦٣ ط : دار المعرفة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن نوح الأنصاري الخزرجي ، كان مقره مية بن خصيب محافظة المنيا بمصر ، توفي ودفن بها سنة ٦٧١ ، له كتاب جامع أحكام القرآن في تفسير القرآن ، كان مالكي المذهب .

(٣) تفسير القرطبي ١ / ٢٣٥ ط دار الكتب المصرية ، الفخر الرازي ٢ / ١٧٠ .

نسبح بحمده ﴿١﴾ فقد أتينا فيه بأقوال المفسرين وبما أثر عن الصحابة ، وليس فيه شيء يشهد بوجود بشر قبل آدم عليه السلام ، ثم على فرض أن هناك بشرا قبل آدم عليه السلام وكان لهم تجربة سيئة وفساد ، كيف القرآن لم يذكر لنا شيئا عن ذلك ، ونحن بشر وهم بشر ، وقد قص الله علينا أخبار ما هو أبعد منهم قص علينا أخبار الملائكة ، وصفاتهم ، وقص علينا أخبار خلق السموات والأرض ، وتبهيئتها للمعاش ، وخلق الحيوان ، فقال سبحانه ﴿٢﴾ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴿٥﴾ ، ﴿٦﴾ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴿٧﴾ فأعطانا القرآن تصورا عن كل خلق ، وعن بدء كل خلق ، وبدء كل حياة ، والإنسان لا يخرج عن هذا النطاق ، فأخيرنا الله ببدء خلقه ، وقص علينا قصته فلا نذهب بعيدا بغير دليل مع الأهواء والفروض ، وندع الحق من ربنا سبحانه .

شمول التصور الإسلامي للكون

يقوم التصور الإسلامي للكون على أساس أن الوجود كله من خلق الله تعالى ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله سبحانه قوانينه التي يتحرك بها ، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتناسق بها حركته الكلية سواء ؛ لأن وراء هذا الكون مشيئة تدبره ، وقدر يجره ، وناموسا ينسقه . وهذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركتها جميعا ، فلا تصطدم ولا تختل ، ولا تتعارض . ولهذا أشعل الإسلام أحاسيس المسلم تجاه الكون وتجاه العوالم ، وأضاء فكره ، لينظر إلى الوجود نظرة شمول وعموم ، فقال سبحانه ﴿٨﴾ فلينظر الإنسان إلى

(١) البقرة / ٣٠

(٢) يس - ٧١ .

(٣) النحل - ٥ .

(٤) يس - ٣٦ .

طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبثنا فيها حبا وعنباً وقضباً ، وزيتونا ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ؛ متاعاً لكم ولأنعامكم ^(١) ﴿ ثم بعد أن لفته إلى طعامه لفته إلى نفسه ، فقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ^(٢) ﴾ . ثم بعد ذلك لفته إلى السماء ، وإلى الإبل ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ^(٣) ﴾ وبعد هذه الجولة من النظر في النفس والعالم ، وتفحص هذه الجوانب ، ليرى مدى الصلة بينه وبينها ، وعمق الروابط في قانونها المشترك المرتبط بالخالقية الموجهة والحركة لهذه الحياة كلها بما فيها ومن فيها . ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ! بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً . أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ! قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، أإله مع الله ! تعالى الله عما يشركون . أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ^(٤) ﴾ .

لوحة متكاملة متناسقة ، ليس بينها فصام ولا تنافر ، وإنما هي جسد واحد ، تدل على نظام واحد ، وإحكام واحد ، وخالق واحد ، تصل الإنسان بما حوله . فإذا أجال بصره ، وسرح طرفه ؛ رجع إليه بما يتجاذب مع فطرته ، ويتوافق مع طبيعته ،

(١) عبس — ٢٤ — ٣٢ .

(٢) الطارق ٥ — ٨ .

(٣) الغاشية ١٧ — ٢٢ .

(٤) المل ٦٠ — ٦٤ .

ويرضى أمله ، ويشبع نهمه . ويرى الأرض ساجدة ، والسماء مسبحة ، والجبال مؤوبة ، والطيور محمدة . ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾^(١) ، ﴿ وَيَسْبَحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾^(٢) ، ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّىْ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾^(٣) يرى الحياة تعانق الحياة ، ويرى الماء يسرى فى الزروع والثمار ، ويجرى فى الأنهار والأجساد ، وينساب فى الجداول والأزهار . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾^(٤) يرى ألوان الأزهار تتشابه بألوان الإنسان ، وتتماثل مع أصباغ الجبال والوهاد . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودَ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾^(٥) ، ﴿ وَمَا ذَرَأُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾^(٦) . يحس إخوانه العوالم له ، وحنوها عليه ، ومعانقتها له ، فالسحاب يجرى ، والماء ينزل ، والنبات يتزعرع ، والثمار تطيب ، والفواكه تجنى مسخرة لإسعاده . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلَفًا أُكْلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٧) ، وينظر إلى الأنعام تذلل وتركب ، وتطيب لحما ولبنا ، وتعطى غذاء ودفا ، فيراها مسلمة النفع عظيمة الخير ، لا تمنع شيئاً أو تدخر ، ولا تعصى أمراً أو تنمرد ﴿ وَالْأَنْعَامُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ﴾^(٨) .

(١) الإسراء — ٤٤ .

(٢) الرعد — ١٣ .

(٣) سبأ — ١٠ .

(٤) الأنبياء — ٣٠ .

(٥) فاطر ٢٧ .

(٦) النحل ١٣ .

(٧) الأنعام : ١٤١ .

(٨) النحل : ٦ .

﴿ أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾^(١) . ويشاهد البحار مسخرة فتحمل الفلك ، وتتبختر فيها الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام ويزرع فيها اللحم الطرى والغذاء الشهى ويستخرج منها الحلية البهية ، والزينة الشجية ، وتكون مياهها بردا بالنهار ، ودفعا بالليل ، ومصدرا للخير ، وراحة للنفس وصدق الله ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾^(٢) .

فترى القرآن يهز المسلم من أعماقه ليحرك فكره وحسه وقدراته ؛ ليفهم ما حوله ، ويتعرف على ما يحيط به ، فلا يسير مكبا على وجهه ، ولا منكسا على رأسه ، ولا متمردا على فطرته ممزقا لها ، بل هو صاحب قلب بصير وفكر ذكى ، يخالف بذلك غيره ممن أغلقوا نوافذ الإحساس بالعوالم ، وأوصدوا أبواب الشعور بالأكوان ، أخذوا وتمردوا وأعطوا وعموا ونودوا فصموا .

وصدق الله العظيم ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾^(٣) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾^(٤) .

(١) يس : ٧١ : ٧٣ .

(٢) النحل : ١٤ .

(٣) النحل : ٢٢ .

(٤) الأعراف : ١٧٩ .

المبحث الثالث

التصور الإسلامى للإنسان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة واقعية بديهية فطرية ، ومع أنها كذلك إلا أنها فريدة التصور ، غابت عن كل التصورات الحضارية السابقة ، شاملة الجوانب ، عميقة الجذور ، فينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه جسم وعقل وروح ، يعترف بخصائص كل ، ونوازع كل ، ويقدر مطالبه ، ويستجيب إليه استجابة صريحة مباشرة ، لا موارية فيها ، ولا إنكار ، فأما الجسم : فهو وشائج اللحم والدم ، وهو النوازع الفطرية ، وهو الشهوة الجامحة التى لا تهدأ ولا تكف ، وهو المطالبة بحفظ الحياة على الأرض ، بالمحافظة أولاً على ذاته ، والمحافظة بعد ذلك على النوع ، ولكل وسائله من طعام ، وشراب ، ومتاع ، وحب لذلك ، وسعى فى طلبه ، وكد فى تحصيله ، وحرص عليه ، وكساء ، ومساكن ، ورياش ، ومتاع ، وأما عن الشهوة : فوسيلتها النسل والإكثار وحفظ النوع .

وللحياة قانونها الخاص الذى يجعل نوازع الجسد من العنف والإلحاح بحيث يتعذر أو يستحيل — أحيانا — عدم الاستجابة إليها ، فلا يستطيع الإنسان أن يقاوم الإحساس بالجوع والعطش ، وإذا قاومه أحس أن الحياة تتسرب من بين جنبيه ، ولن يتيسر له أن يحافظ عليها إلا بالاستجابة لقانونها ، والإحساس الجنى لا يحتاج الإنسان فيه إلى التطرف مثل فرويد ، لكى يبين أصالته وعمق جذوره فى النفس البشرية ، وإنما هو واضح بغير هذا التطرف الخارج عن الفطرة والعقل ، وحكمته لذلك واضحة جلية ، لازمة لاستمرار حفظ الجنس والنوع ، وإذا فقد الإحساس الجنى فقد كل ذلك ، وقد نظم الحق سبحانه هذا الإحساس بالنسبة

إلى الرجل والمرأة فأعطى المرأة منه النصيب الأوفر ، والرغبة الأشد ، لأن نصيبها من تحمل عبء أكبر من الحمل والولادة والإرضاع ، فكانت رغبته أقوى ، وشهوتها أشد ، لتقاوم تلك الرغبة وهذه القوة تلك التبعات وهذه المشاق ، وصدق الله العظيم ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

أما العقل : فمهمته تبصرة الإنسان ومعاونته في الحصول على أفضل الطرق لإجابة النوازع الفطرية ، والاختيار بين البديلات ، والتغلب على العقبات التي قد تقف في سبيله ، والحفاظ على تلك الحياة في حسن ويسر على أحسن وجه وأوفق حال ، واختيار أفضل الطرق لهؤلاء ذلك الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢)

أما الروح : — وهي شيء علوى لا طينى ، ترتفع بالإنسان الفاضل ، فيسعد بها وتسعد به ، ومن قديم وروح الإنسان مصدر جدل طويل وشغل شاغل . وقد فصل في تلك القضية القرآن الكريم ردا على سؤال وجه لرسول الله ﷺ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣) ونحن لا نحب أن ندخل في جدل ميتافيزيقي ، وقد حسم القرآن القضية من قديم . وخلاصة القول أن إنكار الروح من المنكرين لا يقوم على أساس علمي صحيح ، وإنما هو مجرد تخريصات وأوهام تعارض ما يحس به الإنسان ويشعر به شعورا لا يستطيع إنكاره ، لأنه لو أنكره لأنكر حياته ووجوده وشعوره فالروح نفحة علوية ولطيفة ربانية ، تتصل بالروح الإلهية والأنوار القدسية ، لأنها نفحة من أسرار القدسية ، أودعها هذا المخلوق البشرى ، وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود ، والإنسان

(١) آل عمران — ١٤ .

(٢) الزمر — ١٨ .

(٣) الإسراء — ٨٥ .

لا يدبر هذا الكون فطاقته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيط ، وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ومهما يبدع الإنسان في الكون ويكتشف ، لكنه سيقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف — وهو الروح — لا يدري ماهو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين يكون ، إلا بقبس من التنزيل ويعلم الحكيم الخبير .

النشاط الحيوى للإنسان :

الإسلام يعترف بكل جوانب الإنسان ، ويساير النشاط الحيوى له ، ويوجهه ، حتى لا يطفى على النفس أو على الغير ، والإسلام بهذا يخالف المسيحية التى تبالغ في فرض القيود على النشاط الحيوى للإنسان ، فتنكر حق مزاوله الفرد لكثير من ألوان النشاط ، بل تنكر عليه مجرد الإحساس والرغبة فيه ، فحين نسمع ما يقول المسيح عليه السلام فيما يردده المسيحيون عنه : « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » ، أو يقول : « من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير »^(١) ، وننظر إلى الإسلام يقول في كتابه العزيز ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٢) ، ﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْخَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾^(٣) ، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾^(٤) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾^(٥) ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾^(٦) ، ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾^(٧) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾^(٨) . وبهذا

(١) انظر كتاب الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ / محمد قطب ص ٨٤ .

(٢) الأعراف — ٣٢ .

(٣) النحل — ٨ .

(٤) الأعراف — ٣١ .

(٥) البقرة — ١٧٢ .

(٦) المائدة — ٤ .

(٧) طه — ٨١ .

(٨) المائدة — ٨٧ .

نرى الإسلام صريحاً في الاعتراف بالطبيعة البشرية ، واحترام ميولها ونزعاتها ، ويقرر أنها جزء من طبيعته ، فنرى القرآن يفصل ذلك فيقول ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (١) ، ويقول ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢) .

وهذا شيء على جانب عظيم من الأهمية ، ويلفت النظر لكل باحث ويستوقف كل متأمل ، حيث إن الإسلام يصرف الشهوة والرغبة ويرضيها ، ويتفادى بذلك ما وقع فيه غيره من الكبت والاضطراب النفسى .

أما الكبت : فكما قرر علماء النفس التحليليون — وعلى رأسهم فرويد — : ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزى ، الذى تدفع إليه الطاقة الشهوية فى الإنسان ، « وإنما ينشأ الكبت من استقذار العمل الغريزى ، وعدم اعتراف الإنسان فى داخل نفسه بأنه يحق له أن يفكر فى إتيان هذا العمل ، أو يحس الرغبة فى إتيانه ، وذلك إطاعة للذات العليا التى تمثل سلطة الوالد أو الإله ... إلخ ، أى ، طاعة جبرية تحرم على الفرد هذا الإحساس » (٣) .

فالإسلام لا يدع مجالاً للكبت أو للعقد ، بل يأخذ الإنسان إلى فطرته ، ويشبع طبيعته بغير تفريط أو إرهاب ، حتى لا ينطلق مع شهواته إلى آخر مدى ، فيجنى على روحه ، ويخرج عن إنسانيته وأهدافه العليا ، وحتى لا يكون عبداً أسيراً للرغبة جامحة أو نزوة شرور ، تسلمه إلى خواء روحى وعذاب نفسى أخطر وأشد ، وأنكى وأضل .

التصور الحركى للإنسان .

يوجه الإسلام الحركة الإنسانية لتحقيق غايتها فى الحياة ، وتحقيق المقصود منها ، فأما عن تحقيق المقصود منها فما خلق الله هذه الأعضاء وهذه الحواس للإنسان إلا لحكمة يكون فيها إسعاده وعونه وتيسير أمره ، وقد جعلها الله نعماً

(١) آل عمران — ١٤ .

(٢) الكهف — ٤٦ .

(٣) كتاب الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب ص ٨٦ .

ذكر الإنسان بها ، ومنّة منّ بها عليه ، ولا تكون نعم الله وأفضاله هملاً من غير نفع أو غاية وهدف ، يذكر بذلك ربنا سبحانه فيقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) ، وفرق الله بين الجماد وبين الإنسان النافع بهذه الأعضاء ، وتلك الحواس ، فقال سبحانه في معرض بيان ذلك ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ^(٢) . إذاً فالحق سبحانه وتعالى خلق نعمه لينتفع بها ، وتؤدي غرض النعمة والمقصود منها ، ويكون ذلك بالعمل والإحسان والنفع . والذين يعطلون نعم الله ولا يستفيدون منها قوم آثمون جاحلون مضيعون .

وأما عن تحقيق غايتها في الحياة :

فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ ^(٣) ، ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ^(٤) ، ﴿ أَوْ لَمْ تُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ ^(٥) ، ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ ^(٦) ، فكان لابد أن يوجه الإسلام ذلك الإنسان إلى عمارة الأرض ، ولا تكون عمارتها إلا بالجد والعمل والسعي وطلب الرزق ، وجعل الله الدافع على هذا أمران ذكرهما في كتابه :—

الأمر الأول : في الأرض .

والأمر الثاني : في الإنسان .

وقد أجملها الحق سبحانه وتعالى في قوله « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولاً ، فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » ^(٧) ، وهذان الأمران سببان دافعان للإنسان إلى العمل وإلى بذل الجهد .

(١) الحل : ٧٨ .

(٢) الأعراف : ١٩٥ .

(٣) هود : ٦١ .

(٤) الملك : ٢٤ .

(٥) فاطر : ٣٧ .

(٦) فاطر : ١١ .

(٧) الملك : ١٥ .

أما عن الأمر الأول :-

وهو تذليل الأرض للسير فيها بالقدم ، وعلى الدواب ، وبالفلك التى تمخر عباب البحار ، والمذلة للزرع والجنى والحصاد . والمذلة للحياة فيها ، بما تحويه من هواء ، وماء ، وتربة تصلح للزراعة والإنبات ، فالله جعل الأرض ذلولاً بألاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة على ظهرها ، منها حجم الأرض ، وحجم الشمس والقمر ، وبعدهما عنها ، ودرجة حرارة الشمس ، وسماك القشرة الأرضية فلو كانت مثلاً القشرة الأرضية أكثر سمكاً بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى لما وجد الأكسوجين الذى بدونه تستحيل الحياة الحيوانية ، ولو أن حجم الأرض كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن ، لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت فى حجم القمر مثلاً ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلاً ، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما الحال فى القمر ، الذى لا يوجد فيه ماء ، ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه ، كما أنه يترتب عليه اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها ، وعلى العكس من ذلك إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى يتضاعف جاذبيتها الحالية ، وينكمش غلافها الجوى ويترتب على ذلك أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة ^(١).

وأما عن الأمر الثانى :

وهو السير فى الأرض الذى وجهنا الحق سبحانه إليه بقوله : ﴿ فامشوا فى مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ؛ فنرى الإسلام يوجهنا إلى الجد والسعى ، فمن مشى أكل ، ومن كان قادراً على المشى ولم يمش كان جديراً ألا يأكل ، فإن الله جعل للحياة قانوناً لا يخرق لأخرق أو كسول متواكل ، فمن سار على ذلك القانون سار على الإسلام ، فليس فى الإسلام رهبانية ، إنما هو عمل روحى فى

(١) الإسلام يتحدى — وحيد الدين نخاد ص ٩٠ — ط دار البحوث العلمية — الكويت — ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين — تنصرف .

الاتصال بالله ، ومادى فى السعى فى الحياة وطلب الحلال وعمارة الأرض ونفع الناس ، ونرى الآثار الإسلامية توضح ذلك ، فيقول القرآن الكريم : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (١) ، فمن سعى وانتشر فى الأرض مبتغيا رزق الله كان أهلا لأن ينال منه ، ولا تمنعه صلاته واتصاله بالله عن السعى وطلب الرزق بل هو مُقَوِّ له ودافع وقد روى أن عراك بن مالك — رضى الله عنه — كان إذا صلى الجمعة وانصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك ، وأنت خير الرازقين (٢) .

وقد روى أن عمر رضى الله عنه ، رأى بعد الصلاة قوما قابعين فى المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته ، وقال كلمته المشهورة « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . بل جعل الإسلام السعى على المعاش وطلب الحلال بالضرب فى الأرض ، شقيق الجهاد فى سبيل الله ، فقال سبحانه ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « ما من حال يأتيني عليها الموت — بعد الجهاد فى سبيل الله — أحب إلى من أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله » ثم تلا هذه الآية ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وإذا نظرنا إلى أحاديث رسول الله ﷺ نجدها توضح هذا وتدعو إليه فى شتى الجوانب ، ولنأخذ مثلا على ذلك فى بعض الجوانب — فمثلا فى التجارة والحث عليها يقول ﷺ « التاجر الصدوق مع النسيب والصديقين والشهداء » (٤) .

(١) الجمعة : ١٠ .

(٢) رواه ابن أبي هاشم ، وكتب التفسير فى سورة الجمعة عند تفسير الآية

(٣) المزل : ٢٠ .

(٤) رواه الترمذى والحاكم بإسناد حسن — تحفة الأحوذى ٤ / ٢٩٩ ، والحاكم ٢ / ٦ .

ويقول في الحث على الزراعة والغرس « مامن مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طيراً أو إنساناً أو بهيمة إلا كان له به صدقة »^(١).

ويقول في الحث على الصناعة والحرف « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »^(٢)، « ومن بات كالأمن طلب الحلال بات مغفوراً له »^(٣).

وكان على هذا سلف الأمة يقول الشيخ الشعرائي^(٤) — وهو من دعاة التصوف: « ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته مسبحة ، وأن يجعل النجار منشاره مسبحة » فيفضل الصناعة على العبادة مع الكسل ، بل يجعل الصناعة عبادة ، ويفضلها على الانقطاع للعبادة ؛ لأن نفع الصناعة يعود على المسلمين ، ويعف الناس ، ويكون ترجمة لأوامر الله في الأرض « وسئل إبراهيم النخعي^(٥) عن التاجر الصدوق : أهو أحب أم المتفرغ للعبادة ؟ ، فقال التاجر الصدوق أحب إلينى ، لأنه في جهاد : يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ، ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده .

جاء الإسلام بمفاهيم حضارية قلبت موازين الدنيا المغلوطة ، ورفعت من قيمة العمل والعاملين ، وقد كانت الدنيا آنذاك تعد الحرف والصناعات والعمل مهناً دنيئة حقيرة ، يُعزَّر بها صاحبها ، فجاء الإسلام فرفع من قيمة العمل أياً كان نوعه ، وأعلى من شأن العاملين ، وحقَّر من شأن البطالة ، وبين أن كسب الإنسان من عمله هو قيمته الحقيقية . روى البخارى عن الزبير بن العوام أن النبی ﷺ — قال : لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعه »^(٦)، وقال ﷺ « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من

(١) رواه البخارى فتح البارى ط السلفية ٥ / ٣ .

(٢) رواه البخارى فتح البارى ٤ / ٣٠٣ .

(٣) رواه ابن عساكر. عن أنس ورمز له السيوطى فى الجامع الصغير بعلامة الصحة .

(٤) ترجمة الشعرائى .

(٥) ترجمة إبراهيم النخعى .

(٦) رواه البخارى — ٤ / ٣٠٤ .

عمل يده « ^(١) وضرب الرسول ﷺ المثل بنفسه وبالأنبيا ، وأنهم لم يبعثوا عالة على أحد ، فقال ﷺ « ما بعث الله نبيا إلا ورعى الغنم ، قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أراعها على قراريط لأهل مكة » ^(٢) ، وذكر الحاكم من حديث ابن عباس « أن داود كان زرادا يصنع الزرد والدروع ، وكان آدم حراثا ، وكان نوحا نجارا ، وكان إدريس خياطا ، وكان موسى راعيا » ^(٣) .

وكان علماء المسلمين وأئمتهم يشتغلون بالحرف والصناعات ، وينفقون منها على أنفسهم ، ويعملون حتى يكونوا مثالا لغيرهم ، مطبقين لهدى الإسلام وتعاليمه ، وكثيرا ما كانوا ينسبون إلى تلك الحرف التي يجيدونها ويشتهرون بها ، ولا نزال نسمع ونقرأ أسماء البزار ، والقفال ، والزجاج ، والخراز ، والجصاص ، والخواص ، والخياط ، والصبان ، والقطان ، وغيرهم من الفقهاء والعلماء الأعلام ، والأفذاذ المتبحرين في شتى جوانب الثقافة الإسلامية والعربية وغيرها . وكانوا يسافرون في شتى البقاع ، ويخوضون شتى البحار ، ويقطعون جل الفيافي ، باحثين عن الرزق والخير ، يرددون قول القرآن الكريم ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ^(٤) ، وقوله سبحانه « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » ^(٥) ، ويسمعون قول الرسول ﷺ « سافروا تستغنوا » ^(٦) . بل نرى أكثر من ذلك وأدعى للعجب والتأمل ، يحضننا الإسلام على السياحة وعلى الهجرة لكل سبب مشروع ، وعمل يسعد الفرد والجماعة الإنسانية . فعن عبد الله بن عمر قال : « توفي رجل بالمدينة ممن وُلدوا فيها ، فصلى عليه رسول الله ﷺ — وقال : ليتته مات في غير مولده ! فقال رجل : ولم يارسول الله ؟ فقال : إن الرُّجُلَ إذا مات غريبا قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة » ^(٧) ، وفي رواية وقف رسول الله عليه وسلم على قبر رجل بالمدينة فقال « يَا لَهُ لَوْ مَاتَ غَرِيْبًا » .

(١) رواه البخاري ٤ / ٣٣ — فتح الباري .

(٢) رواه البخاري — فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

(٣) رواه الحاكم .

(٤) النساء — ١٠٠ .

(٥) المزمل — ٢٠ .

(٦) إرواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات كما قال المنذرى في الترغيب والترهيب .

(٧) أخرجه أحمد ٢ / ١٧٧ ، والنسائي ٤ / ٨٧ ، وابن ماجه (١٦١٤) وابن حبان ص ١٨٦ .

وقد انطلق المسلمون الأولون في فجاج الأرض ، ينشرون الفضل ، ويسعدون الناس ، ويلتمسون الرزق ، ويطلبون العلم ، ويجاهدون في سبيل الله ، وقد سئلت أم سلمة عن تفرق أولادها في شرق الأرض وغربها ، فمات هذا في جهة وذاك في أخرى ، فقالت : باعدت بينهم الهمم .

وهكذا ينظر الإسلام إلى الحركة الإسلامية نظرة دفع وترشيد لعمارة الكون والاستفادة من خيراته المبتوثة ، وكنوزه المكنونة ، لإسعاده وإصلاحه وإعلائه ، فهي تنسجم مع حركة العوالم وفعل الكائنات ، فكل شيء في حركة دائبة وعمل مستمر ، فوافق عمل الإنسان سير الكائنات ، وواكب هذه الحركة ، واستمد رشدًا من أرشد الكون ونظم العوالم ، فاتحد إيقاع الكائنات ونبض الإنسان ، وانسجمت دورات الفلك وخطو البشر في هذه الحياة .

والإنسان مع كل هذا لا تستعبده تلك الحركة ، ولا يكون أسيرًا لها ، أو خاضعاً لإيحاءاتها ، وإنما يعتنى بها ويرعاها ، لأنها نعمة من نعم الله عليه ، ولأنه مأمور بذلك ، ولأنها أسباب وطريق إلى نفع الناس ، وجلب الثواب ، ولأن بها عمارة هذا الكون الذي هو مستخلف فيه .

مبدأ التكريم الإنساني في التصور الإسلامي :-

يختلف التصور الإسلامي للإنسان عن تصور الماديين ونظرتهم إلى ذلك الإنسان ؛ حيث إن الماديين ينظرون إليه على أنه قبضة من تراب هذه الأرض ، أو قطعة من اللحم والدم والأعصاب والغدد والخلايا ، فما العقل إلا غدة معينة تعمل عملها ، وما التفكير إلا مادة أو إفرازات مخصوصة يخرجها المخ كما تفرز الكلية البول ، أو تستخلص الأمعاء العصارات المعروفة ، لا فرق بينه وبين أى كائن حي على وجه الأرض ، مثل : القردة ، والزواحف ، والحشرات . غاية أمره أنه تطور بمزور الزمن ، فاكسب صفات معينة ، أصبح بها إنساناً ، وكل تقييم له يدور في فلك المادة وما يتركب منها . وقيمة هذا الهيكل البشري لا تعدوا عندهم إلا أن تكون تركيبة حللها بعضهم فوجدوها :-

قدراً من الدهن : يكفي لصنع ٧ قطع من الصابون .

قدراً من الكربون : يكفي لصنع ٧ أقلام رصاص .

قدراً من الفسفور : يكفى لصنع رؤوس ١٢٠ مائة وعشرين عود ثقاب .
 قدراً من ملح المغنسيوم : يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .
 قدراً من الحديد : يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .
 قدراً من الجير : يكفى لتبييض بيت للدجاج .
 قدراً من الكبريت : يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .
 قدراً من الماء : يملأ برميلا سعة عشر جالونات .
 وهذه المواد تشتري من الأسواق بمبلغ من المال يساوى ستين أو سبعين قرشا مصرياً !! وتلك هى قيمة الإنسان المادية^(١)، أما الروح فشئ أغفله الماديون ، ولم يلتفت إليه الحسيون ، فلا اتصال بعالم علوى ، ولا ارتباط بسر إلهى ، إنما هى قتامة المادة وظلمة الطين وحياة الحيوان البهيمية ، التى لافرق فيها بين الإنسان وبين غيره من الأحياء . وهذا مما دعا بعض الماديين الملاحدة أن يقول : « هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لا نساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات ، ونحن لانريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك أيضا الحشرات ! والفرق بيننا وبين الحشرات هو التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى الحيوانات لا يفوق كثيرا فرق التفوق بين أدنى الحشرات وأرقى الحيوان ! » فهذا الباحث الحيوانى الطينى لا يستطيع أن يفرق بين نفسه وبين أى حشرة على وجه الأرض ، فالكمل عنده كائن مكون من جسد وحركة وإحساس ، غاية مافى الأمر أن الإنسان ترقى وتفوق بعض الشئ عن بنى جنسه من الحشرات ، وهذا فى نظره أمر طبيعى ينسحب على كل الأسرة الحيوانية ، حيث تتفاوت فيما بينها ، ويرتقى بعضها من البعض ارتقاء تفرضه الطبيعة . فالإنسان فى نظره — ومن على شاكلته من الماديين سفلى التكوين ، طينى النزعة ، لا يعرف الترقى إلى السماء ، ولا يملك مؤهلات السمو الروحى ، فالحيوانية إذأً لبه ولحمته وسداه ، وأصله وحياته وغايته ، لا ينفك عنها ، ولا تنفصل عنه ، فأى إنسان هذا ، وأى إحياء يعطيه هذا التصور ، وأى أثر يخلفه هذا الشعور ، وأى سوء أخطر من هذا على وجدان الإنسان ، أن يرى نفسه مخلوقا هابطا ،

(١) نظرات فى القرآن للأستاذ العزال .

حيوانيا — طينيا سافلا إلى هذا الحد ، وكيف يطلب من هذا الإنسان التطهر والاستعلاء والعفة والشرف والبعد عن الدنيا ، وكيف يستغرب منه الانحدار والإسفاف والتلوث ، وكل ما يوحى إليه ويوسوس له ويلقن به هو الهبوط والضعف والانتكاس إلى الحمأ المسنون ، والحق الواضح الذى لامرية فيه : أن طبيعة الإنسان السوى تريد أن تشعر بإنسانيتها ، وتحيا بخصائصها تريد أن تحس بكرامتها وذاتيتها . يريد الإنسان أن يشعر أن له وزنا وقيمة فى هذا الوجود ، وأن له غايته وهدفاً يسعى إليه ، وأن لحياته قيمة مميزة فى هذا الكون ، حتى يستطيع أن يهيمن عليه ، ويستخرج كنوزه ، ويسخر مافيه ، ويذل مناكبه . إن الفرد ينشد الكرامة ، وينشد معها القوة ... القوة تجاه الطبيعة وتجاه الأحداث ، القوة أمام الطغيان من الغير أو من الشهوات ، القوة على تحقيق الغايات وأداء الواجبات ، تعوض الفرد عن ضعفه الجسدى وعجزه الخلقى وقصوره الذاتى إزاء ما يصعب عليه تخطيه أو اجتيازه ، القوة إزاء الكوارث والنواب والعقبات والمجهول ، والقوة أمام الظلم والبغى والامتهان والاستعباد ، ومع هذا فالإنسان ينشد شيئا آخر ، لا يستطيع أن ينفك عنه ، أو يعيش بدونه لحظة واحدة . ينشد الطمأنينة والسعادة والسرور ، يريد أن يعيش حياته بالأمل المشرق ، يضىء له آفاق حياته ، يريد أن يتمتع بالأمن الداخلى ، يغمر جوانحه ، وبالرضى الذاتى يملأ عليه أقطار روحه ، وهذه أشياء لا يحملها الطين فى طياته ، ولا تحققها أخوة الإنسان للحشرات والهوام والقردة والخنازير ، وإنما يحققها شيء آخر . ماهو ؟ لنسمع إلى البروفسور « سيشوت » العالم الأمريكى والأستاذ بجامعة « بيل » فى كتابه « حياة الروح » ، حيث يقول : « مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موهلة فى القدم ، وهى طبيعة الإنسان المزدوجة الغريبة ، فالجانب المادى منه — وهو الجسد — يحيا وينمو ثم يموت ، ولكن شيئا لا تدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد ، وفى مقدور هذا الشيء أن يشعر وأن يفكر ، إنه ذلك الجانب الذى تتركز فيه خلاصة كيانه ، فالإنسان يبدو وكأنه كائنان : كائن مادى ، وكائن يقابله غير مادى ، ترى هل كل منهما حقيقى ؟ أو أن أحدهما لا يعدوا أن يكون وهما من الأوهام ! والضلال والانحراف

فى فهم الإنسان ، وتصور حقيقته ، إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين فى كيانہ ، أو نتيجة للفصل بينهما ، واعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر ^(١) .

فالإنسان مخلوق فذ فى هذا الكون ، غير مكرر فى جميع الخلائق التى عرفناها ، والتى يحدثنا الله عنها كذلك ولانراها ، فهو مخلوق بقدر ، ولم يوجد هكذا مصادفة ولاجزافاً ، ومخلوق لغاية ، فلم يخلق عبثاً ولاسدى ، يتميز بخصائص لاتوجد فى عالم الأحياء ، ولهذا لم يستطع الداروينون أن يثبتوا على نظريتهم ؛ بل تراجعوا عنها ، وظهرت بعدها مايسمى بالدارونية الحديثة ، وهكذا نرى « جوليان هكسلى » فى الدارونية الحديثة يتراجع عن كثير من الدارونية القديمة التى قررها « دارون » ، مضطراً أمام ضغط الحقائق الواقعية التى تحتم عليه ذلك ؛ إذ يعترف أن الإنسان « حيوان خاص » له خصائص ، لم تلاحظ فى أى حيوان آخر ، وأن لهذه الخصائص آثار متفردة كذلك ، ويصرح فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » بهذه الحقائق التى لايمكك التفلت منها ، فيقول أول خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً ، قدرته على التفكير التصورى ، ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة أهمها :—

نمو التقاليد المتزايدة الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية ، وأهم مظاهر ذلك مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عِدَد وآلات ، وإن العادات والتقاليد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة « البيولوجية » فى الوقت الحاضر ، خاصة أخرى من خواص الإنسان الفذة ، ثم يقول فى موطن آخر : والإنسان لامثيل له أيضاً كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ، وتجمعت فى أجناس وفصائل عديدة ، ومجموعات أكبر ، أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تندعت سلالات الإنسان فى حدود نوع واحد ^(٢) .

(١) الإسلام والحياة ص ٧٩ ط الدار السعودية للنشر .

(٢) من كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب — متفرقات منه .

ثم يقول : وأخيرا ، فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريق تطوره . وكذلك يقول العالم الأمريكى « كريسي موريسون » فى كتابه « العلم يدعو إلى الإيمان » إن القائلين بنظرية التطور « النشوء والارتقاء » لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة « الجينات » .^(١)

ثم يقول : لقد رأينا أن (الجينات) متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات فى خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية — وهى تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التى لكل شئ حى ، كما يلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة ، لا يمكن عبورها ، حتى أن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك ، والإنسان حيوان من مرتبة الطليعة^(٢)... ثم يقول : « ولقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره ولا يزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه بالروح ، وهو يرتقى فى بطاء ، ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة ، ثم يقول وإذا صح هذا التعليل — ويبدو أن المنطق الذى يسنده لا يمكن دحضه — فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التى لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكتسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل ، فعلى قدر مانعلم ، قد تولد عن عالمنا الصغير هذا أول جهاز مادى أضيف إليه قبس من نور الله ، وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، التى يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون فى اشتباكاتة ، ويشعر شعورا غامضا بعظمة الله ماثلة فى خلقه »^(٣)

الإسلام يمزق حجب الجهالة :

وجاء الإسلام فمزق حجب الجهالة عن تصور الملحدين والماديين للإنسان ، ذلك التصور الذى نزل به إلى الحضيض وقتل أشواق السمو والرق النفسى والروحى

(١) العلم يدعو إلى الإيمان — ص ١٤٥ ، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق — ص ١٤٢ .

(٣) العلم يدعو إلى الإيمان — ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ .

في ذلك الإنسان ، جاء الإسلام فكرم ذلك الإنسان ، وأظهر معدنه ، ورفع مكانته ، وأطلق تطلعاته إلى الآفاق العلوية ، وجعله سيد الأرض وخليفة عن الله سبحانه وتعالى ، وعهد إليه عمارة الأرض وصلاحها ، وذل العوالم وسخرها لتكون طوع أمره ، ورهن بنانه ، وقد ظهر هذا التكريم واضحا صريحا في كثير من آي الكتاب العزيز ، فأعلن الحق أنه خلقه بيده ، فقال الحق سبحانه مخاطبا إبليس : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ ^(١) ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له أشرف عنصر ، وهم الملائكة ، فقال تعالى مخاطبا الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ^(٢) ، وأعلن الحق سبحانه وتعالى تكريمه ، وتسخير الأشياء له ، وتفضيله على كثير من الخلق — فقال سبحانه في ذلك ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ^(٣) . والحمل في البر والبحر يعنى ويدل على تسخير النواميس ، وجعلها طبيعة وفق الحياة التي يعيشها ، وزود الإنسان بالاستعداد لهذا التسخير ، بالعقل الناضج والفكر السليم وإلا فكيف تكون الحياة إذا استعصى هذا التسخير ، وشرذ هذا التذليل ، وقابل هذا الإنسان الضعيف هياج الطبيعة بجورها وعواصفها وكوارثها وحملها ؟ وما كان هذا التطويع والتسخير إلا إكراما للإنسان وتفضيلا للمسخر له على المسخر ، ثم تأتى الآية بدليل آخر على هذا التفضيل والتكريم ، وهى عملية الرزق من الطيبات المذكورة فى الآية ، يقول تعالى ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ والرزق من الطيبات يقتضى ديناميكية معينة ، وعملا مبرجا من العوالم الخاضعة المنتجة لهذا الرزق الحسن ، تقتضى تبخير البحار بالشمس ، وحمل الهواء للبخار ، وتسيير السحاب بالرياح ، وتلقيحه ، ونزول الماء ، وإعداد التربة ، وتحرك الأرض وإخراج النبات ، وتغذيته ، وإخراج الشهى من الثمار والبديع من الأزهار ، كما يقتضى الرزق من الطيبات ، إيجاد الأنعام وتربيتها ، حتى تكون حمولة وفرشا ، وطعاما ،

(١) ص — ٧٥ .

(٢) ص — ٧٣ .

(٣) الإسراء — ٧٠ .

وشرابا ومتاعا ، ولقد لفتنا الحق سبحانه إلى ذلك في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾^(١) ثم تصرح الآية بتفضيل الإنسان على كثير من خلق الله ، فتقول ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ وعناصر هذا التفضيل وحيثياته كثيرة في القرآن والآثار الإسلامية ، قد ألحنا إلى شيء منها . ويكفى أن يكون خليفة عن الله في الأرض ، التي مهدت لأجله ، وجعلت فيها أقواتها وأرزاقها ، ويكفى أن يجعله مختارا طليقا ، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾^(٢) ، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾^(٣) ، فيما على نفسه ، له حرية الاتجاه وفردية التبعة ، خلقه في أحسن تقويم ، وصورة في أجمل هيئة ، خلقه لنفسه وخصه بعبوديته ، ولننظر لبعض الآثار الإلهية توضح ذلك : « ابن آدم خلقتك لنفسى ، و خلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لا تشغل بما خلقتك لك عما خلقتك له » ، « ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب » كما نسمع كثيرا من الآيات القرآنية توضح هذا الاهتمام الإلهى الكريم بالإنسان ، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾^(٥) ، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾^(٦) ويؤكد الرسول هذا المعنى في أحاديثه ، فيقول عن ربه سبحانه : « أنا عند ظن عبدي بى ، وأنا معه إذا ذكرنى : إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته

(١) يس — ٧٣ .

(٢) القيامة — ١٤ .

(٣) الكهف — ٢٩ .

(٤) البقرة — ١٨٦ .

(٥) البقرة — ١١٥ .

(٦) المجادلة — ٧ .

هرولة» (١). ومن تكريم الله له أن جعله سميعا بصيرا صاحب عقل ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ شرفه الله بالمعرفة ، وفضله بالعلم ، وباهى به الملائكة — وهى من أشرف خلق الله تعالى — يشير إلى هذا القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢).

فهم المسلمين لهذا المعنى :-

هذه نبذة قصيرة عن مكانة الإنسان كما رسمها القرآن ، وبينتها السنة النبوية . وقد أشاد بهذه المكانة وتأثر بها كل علماء الإسلام وأئمة فى مختلف البيئات والاختصاصات .

يقول الفقيه أبو بكر بن العربى « ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله تعالى خلقه حيا ، عالما ، قادرا ، متكلما ، سميعا ، بصيرا ، مدبرا ، حكيما .

ويشرح الإمام الغزالى ذلك ، ويبينه فى إحياء علوم الدين ، ويذكر أسباب محبة الله تعالى ، ويعدد منها —: المشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل ، وهى مناسبة باطنة ، المقصود منها : التشبيه بصفات الله سبحانه ، والله المثل الأعلى ، فيقول : « فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها ، بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل « تخلقوا بأخلاق الله » ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هي من الصفات الإلهية ، من العلم والبر والإحسان ، واللفظ ، وإفاضة الخير ، والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى » وهناك أمور

(١) رواه البخارى .

(٢) البقرة — ٣٠ — ٣٣ .

ذكر الغزالي أنها من خواص الآدمي ، فقال « وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي ، فهي التي يرمى إليها قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ^(١) . إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق ، وأوضح من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي ﴾ ^(٢) ، ولذلك أسجد له ملائكته ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ^(٤) ، إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة ... وإليه يرمز قوله ﷺ : إن الله خلق آدم على صورته ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا ، وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى للإنسان « مرضت فلم تعدني ! فقال : يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ، ولو عدته لوجدتني عنده » ^(٥) ، ومن ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي « لا يزال عدى يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ... » ^(٦) ويقول الإمام ابن القيم : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه ، بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلق له نفسه ، وخلق له كل شيء ، وخصه من معرفته ومحبته ، وقربه وأكرمه بما لم يعطه غيره ، وسخر له مافى سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته — الذين هم أهل قربه — ، استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته ... وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه ... فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات » ^(٧) .

(١) الإسراء — ٨٥

(٢) ص — ٧٢ .

(٣) ص ٢٦ .

(٤) البقرة — ٣٠ .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه البخاري — إحياء علوم الدين ٤ / ٣٢٧ ط المعرفة .

(٧) مدارج السالكين ح ١ ص ٢١٠ ، ط السعة المحمدية

وهكذا نرى أن فكرة تكريم الإنسان وتفضيله قد رسخت في عقول المسلمين ، وأصبحت من بدهيات الأشياء ، انطلاقاً من تعاليم دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم وسيرة سلفهم الصالح والتابعين لهم بإحسان ، وهذا مما أعطى للإنسانية عزاً وشرفاً . فالكينونة الإنسانية التي تنبثق من الطين ، والنفخة العلوية التي حلت فيه من روح الله سبحانه من آماذ وآفاق لا تحد هي التي فصلت بينه وبين غيره ، وجعلته مخلوقاً مميزاً ، يستعصى على العقل البشري فهم كنهه إلا بقيس من نور خالقه سبحانه . وصدق الله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أُنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾^(١) ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٢) وهذا الإنسان مع هذا يظل كائناً يؤلف كل فرد فيه بذاته عالماً فذا مفرداً ، لا مثيل له في سائر أفرادهِ . على كل ما يجمع أفراد الجنس كله من الخصائص الإنسانية المشتركة ، وهذا مما يزيد الأمر تعقيداً ، ويزيد دراسة الإنسان صعوبة .

وفي هذا يقول الدكتور كاريل :—

« إن الفردية جوهرية في الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم إذ أنها تنفذ إلى كل كيائنا وهي تجعل الذات حدثاً فريداً في تاريخ العالم . إنها تطبع الجسم والشعور ، كما تطبع كل مركب بطابعها الخاص ، وإن ظلت غير منظورة »^(٣).

منزلة الإنسان بين المد والجزر :

وتاريخ الإنسانية من قديم يتخبط في تصور الإنسان ، فتارة يعلى الإنسان حتى يصيره نداً للآلهة ، ففي الأساطير الإغريقية كان الإنسان نداً للآلهة ، ينازعها السلطة والمعرفة ، وإن كانت هي تبطش به وتقسوا عليه ، ولكنه لا يستسلم ، ولا يضعف ويدعن لها ، حتى في حالة انتصارها عليه ، ثم جاء بعد

(١) الحم — ٣٢ .

(٢) الملك — ١٤ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول — ص ٢٨١

ذلك العهد الرومانى ، فعبد الإنسان شهوته ، وانقلب على الآلهة ولم يسمح لها بالتدخل فى تصريف حياته الأرضية ، وإن كان يسمح لها بالتكهن على السنة الكهانة ، ويستيقظها كعرف اجتماعى لاضرر منه ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها فى إطلاقه من كل قيد ، وتارة يسفل به ، فيجعله خاضعا لعجل أو شجرة أو نار!!.

وجاءت النصرانية فانتكست بالإنسان ، ووسمته بالخطيئة ، ونكست رأسه بالذل ، مع أن النظرة النصرانية إلى الإنسان تحمل تكريم الله لهذا الجنس إلا أن خطيئة آدم — كما تصورها الكنيسة — قد دمغت الجنس كله بالإثم ، حتى جاء المخلص ابن الإنسان « المسيح » ، « الرب » ، « الابن » ، فكفر عن هذه الخطيئة ، ولكن هذا لم يرفع جبين الإنسان ، ولم يخلصه مما نزل به ، وكان عليه أن يكفر بالذل والهوان والتقصيف والعذاب طول حياته ، لكى يلحق بالمخلص ، ويتحد فيه ، وينال الغفران .

وفوق ذلك قد اعتبرت ميوله الفطرية رجسا ودنسا ، وعلاقاته الجنسية قدرا ووسخا ، وشعوره بذاته إثما وخطيئة . وكان لهذا رد فعل على الكنيسة ، وعلى التصورات والتعاليم الكنسية ، وعلى المفاهيم الدينية كلها بالإجمال ، فقامت الثورة على هذه الأوضاع ، ونظرت تلك الثورة إلى الإنسان نظرة جديدة ، وفتحت الآفاق أمام عقله وفكره ، وتدرج الغرب فى هذه النظرة إلى أن أله العقل فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ونسب إلى العقل كل شئ ، فهذا العالم الخارجى من خلق العقل وصنعه ، وللعقل حق السيطرة على جوانب الحياة ، ويقطع فيها برأيه ، ويشرق فيها ويغرب ، وله حرية العمل ، والإنسان هو السيد المطاع فى كل شئ .

ثم انتهت هذه الفترة ، وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة للإنسان ولعقله وكرامته ، إذ جاءت الفلسفة الوضعية تعلن أن المادة هى الإله ، فهى التى تنشئ هذا العقل ، وهى التى تطبع فى جسم الإنسان مآثره !!.

ثم جاء دارون بحيوانيته للإنسان ، وأخرج كتابه « أصل الأنواع » سنة

١٨٥٩ ، وجاء بعده كتابه « أصل الإنسان » في سنة ١٨٧٠ ، وفقد الإنسان بذلك التكريم ، وعاد حيوانا ككل حيوان آخر ، وهو وإن كان له السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤول به إلى قط أو فأر في يوم من الأيام ، ثم جاءت الضربة القاضية على يد « فرويد » من جانب ، و كارل ماركس من الجانب الآخر ، حيث يرد الأول دوافع الإنسان كلها إلى الجنس ، ويصوره غارقا فيه إلى الأذقان ، والثاني يرد تطورات التاريخ كلها إلى الاقتصاد ، ويصور الإنسان مخلوقا هزيعا سلبيا كالريشة في مهب الرياح أمام أداة الإنتاج .

وهكذا ظلت قيمة الإنسان تتأرجح بين التفريط والإفراط ، والصعود والهبوط ، ولم تلتزم جادة الاعتدال ، حتى جاء الإسلام ، فأعطى الإنسان ما قدره الله له ، وما تستقيم عليه فطرته ، ويكون به قوامه وقوام الحياة ، وعرفه بنفسه ، وأعلن رفعة ، وأعطاه من التكريم ما فاق به كثيرا من خلقه ، وصدق الله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١) ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٢) .

ثم أرشده إلى ما فيه صلاحه ، وأرسل له هداة مهتدين برسالات الله وكلماته ، رحمة منه ، وبرا ، وصيانة له ، ونصحا ، ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٣) ، ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

(١) التين — ٤ .

(٢) الإسراء — ٧٠ .

(٣) طه ١٢٣ — ١٢٤ .

(٤) البقرة — ٣٨ — ٣٩ .

المبحث الرابع التصور الاسلامى لغاية الحياة

ينظر الإسلام إلى نهر الحياة المتدفق بقلب مفتوح ، وصدر رحب ، وأمل باسم ، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وما من نظام في الكون إلا مسير ومنظم لراحة الإنسان وسعادته : ﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ۖ ﴾ ^(١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ^(٢) ، وفي الأرض قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ، صِنَوَاتٌ وَغَيْرُ صِنَوَاتٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۖ ﴾ ^(٣) ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَمَتُّعُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ

(١) ق — ١١ .

(٢) يس — ٧٢ .

(٣) الرعد — ٤ .

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١﴾.

يخرج الإنسان إلى الدنيا ، فيجدها مهادا ورغدا وخيرا ، تحضنه الحياة مع حضن أمه وأبيه ، وتره مع عطف والديه ، وتعطيه وتمنحه وتحنو عليه كما يفتح أعز الناس له ذراعيه ، ولا شك أن الإسلام يعطى الإنسان هذا التصور ، ليخرج إلى الحياة ومعه إحساس أن العوالم معه ، وليست عليه ، تساعد ، ولا تتعارض معه ، تعطيه ، ولا تأخذ منه ، في خدمته ، وليس في خدمتها ، مسخرة له ، وليس مسخرة لها ، فيشعر بالأمان والراحة والأمل ، ويعرف نعمة الله عليه ، فلا يتمزق وترتعد فرائضه ، وتتشعب به الدروب ، وتحتوشه الأوهام .

ثم يلقنه التصور الإسلامى ، أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، وأن هذه الخلافة تقتضى الهيمنة ، والعدل ، والإحسان ، والرحمة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإصلاح في الأرض ، والمحافظة على الحياة والأحياء ، والسير فيها بقانون الله المستخلف للإنسان .

ويلقنه التصور الإسلامى ، أن الحياة دائمة ، وإن بليت الأجساد ، وفنيت الأجسام ، موصولة بالهناء والصلاح لمن أصلحها وسار فيها بالخير والمحبة والإحسان . غاية الأمر أن للحياة مظهرين : مظهراً دنيوياً ومظهراً أخروياً ، والمظهر الأخروى ، كالنتيجة بالنسبة للحياة الدنيا ، وكالثمرة المجنية من الشجرة الأولى ، فما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة ، وحرث لحياة طويلة ، فإن أحسن فيها سعد في الحياتين ، وإن أساء شقى فيهما ، والإنسان يعيش في دنياه دائماً في زرع حسن ، وعمل طيب ، وطاعة لله؛ لينال ما يحب من غاية ، وما يطلب من هدف . وصدق الله ﷻ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا : خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلِلَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَلَنَنْعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﷻ (٢) وقد عبر عن ذلك التصور بعضهم بقوله:—

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبون له للنفساد

(١) السجل من ١٠ — ١٦ .

(٢) السجل : ٢٠ .

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

وعلى هذا فإن للإنسان في هذه الحياة غاية ومهمة ، بينها التصور الإسلامى فى وضوح وجلاء ، فالإنسان لم يخلق عبثا ، ولم يترك سدى ، وإنما خلق لغاية وحكمة ، ولم يخلق لنفسه ، ولم يخلق ليكون عبدا لعنصر من عناصر الكون ، ولم يخلق ليمرح ويتمتع كما تأكل الأنعام ، ويعيش فترة محدودة طالت أم قصرت ثم بعدها يبتلعه التراب ، وتأكله الهوام ، ويطويه النسيان ، وإنما خلق ليبقى طيب الذكر فى دنياه بحياته ، أو بعمله على لسان كل صالح ، وفى مخيلة كل تقى ، خلق ليعرف الله ويعبده ، ويكون خليفة فى أرضه ، ويحمل الأمانة الكبرى فى هذه الحياة القصيرة ، أمانة التكليف ومسئولية الإصلاح — خلق للحياة الباقية الراغبة ، التى ينالها بكفاح الصالحين ، وجهد العاملين ، وتضحية المتقين . وصدق الله ﷻ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﷻ** ^(١) **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﷻ** ^(٢) **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﷻ** ^(٣)

فيعلم المؤمن أن الدار الآخرة هى الحيوان ، وأن الاستعداد لها وظيفة العقلاء فى هذه الفترة الضيقة من أجالهم الدنيوية ، وتصور المسلم فى هذا يخالف تصور غيره الذين يأخذون عن الموت فكرة غامضة مقلوبة مشوهة ؛ حيث يظنونها ختاماً لمعنى الحياة ، وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس ، ينال الإنسان منها ما ينال الدواب النافقة والأطلال الدارسة تحت أكوام التراب وطبقات الثرى ، وإنما يعلم المؤمن أن الموت يومه طويلة ، كما أن النوم الذى نعرفه موة قصيرة ، وقد وضح القرآن هذا المعنى ، وحل الموت قسيما للنوم ، وجعل الحالتين أعراضا للأنفس ، لا تتأثر كثيرا بها — فقال تعالى : **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﷻ** ^(٤)

(١) الزحرف — ٧٢ .

(٢) آل عمران — ١٤٢ .

(٣) النساء — ١٢٤ .

(٤) الزمر — ٤٢ .

ولكن كانت الروح تفارق الحسد إلى حين فإن ذلك لا يعير من حقيقة الإنسان شيئا ، فالجسم كالثوب يكتسى الإنسان به ويعرى عنه ، ولا مدخل له في جوهره ، وبفهم المؤمن هذه الحقيقة أصبح لا يكثرث للدوت مادام في طاعة الله ، ولا يتهيب الإقبال عليه مادام في سبيله ، ولا تتوجس نفسه منه خيفة لما يعلم من جزاء وحياة كريمة ، جزاء طاعته لله ورضاه .

أما الماديون ؛ فإنهم يعيشون لدنياهم المحدودة ، يدورون حول أنفسهم فقط ، وحول أهوائهم وشهواتهم ، حول المتطلبات الجسدية والغرائز الحيوانية ، حول الجانب الحيواني المادي في الإنسان . يدورون حول أنفسهم كما يدور الحمار في الرحا . وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الغربيين في وصفه للوحوديين الذين تدور فلسفتهم حول تحقيق الإنسان لوجوده وذاته فحسب ، فقال : « إن الوجودى مثله مثل الكلب ، الذى يجرى دائما حول نفسه ، ليمسك بذيئه ، فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجرى » وذكروا هذا التشبيه بالمثل الذى ضربه القرآن للمسلمين عن المعرضين عن آيات الله وهديه ، الذين أخلدوا إلى الأرض وإلى حيوانيتهم : ﴿ وَاثُلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ . ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) . إذا ، فالمسلم يعيش حياته لغاية سامية ، وحياة موصولة ، وهدف نبيل ، خليفة عن الله ، يحقق منهجه في الأرض ، ويدعو إلى صراطه المستقيم ، حتى ينال السعادة الأبدية والنعيم المقيم ، يعتبر نفسه ملكا خالقه ، يعيش له ، ويموت في سبيله : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَشْرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣) المؤمن يعيش ليزرع الخير ، ويحمل الخير ، ويعلم الخير . يدعو ربه بما علمه رسوله « اللهم أحيني ما علمت الحياة خيرا لى ،

(١) الأعراف — ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) الأعراف — ١٦٢ — ١٦٣ .

(٣) البقرة — ٢٠٧ .

وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى « (١) » .

ولا يضجر من حياة ، ولا يتمنى الموت ، وحاله كله خير ، إن أصابه سراء فشكر كان ذلك خيراً له وإن أصابه ضراء فصبر كان ذلك خيراً له ، وهو لا يحب الحياة حب الجريص على متاعها الأدنى ، أو المتهافت العاشق للذائذها ، بل يحبها للعمل الصالح ، والقيام بحق الله ، والتزود من الخير ، وفى الحديث النبوى « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » (٢) ، « لا يتمنين أحدكم الموت ، ولا يدعوه به قبل أن يأتية ، وأنه إذا مات انقطع عمله ، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » (٣) « لا يتمنى أحدكم الموت : إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب » (٤) ، فإذا نزل به الموت أو دنا منه الأجل فهو قرير العين ، باسم الثغر ؛ لأنه يقربه من ربه ، « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (٥) ، وإذا دعى للشهادة ودنا فى سبيل الله أجله هتف من أعماقه : فزت ورب الكعبة ، فحينما أخذ المشركون فى مكة خبيبا ليصلبوه ؛ كان نشيده فى ساحة الموت .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلى ممرع

وكان خالد بن الوليد حينما يرسل إلى القائد من قواد الفرس أو الروم يختم رسالته بعد الدعوة إلى الإسلام والسلام ، بقوله وإلا .. رميتمكم بقوم يخبون الموت كما تخبون الحياة .

وبهذا تستقر نفس المسلم وتهدأ ، ولا تتمزق ولا تضجر ؛ لأنه آمن فى حياته ، آمن فى موته ، لا يشعر بوحدة فى نفسه ومعه الله سبحانه وتعالى حافظه وموجهه . أما المادى ، فإنه يشعر بالوحدة فى دنياه ، يكون قصير النظر ، قصير الأمل ، قصير

(١) رواه النسائى والحاكم — ٣ — ٥٤ — ٥٥ (١) ٥٢٤

(٢) رواه أحمد والترمذى ٥ / ٤٠ ، ٦ / ٦٢٢ بحسه .

(٣) رواه مسلم ٤ / ٢٠٦٥

(٤) رواه البخارى (١٣ / ٢٢٠) وأحمد ٢ / ٣٩

(٥) مصنف عنه فتح البارى ١١ / ٣٥٧ ، مسلم ٤ / ٢٠٦٥ .

الغاية ، يخاف الحياة ، ويخاف الموت ، يخاف مما هو كائن ، ويخاف مما سيكون ، يخاف الكوارث ، يخاف غدرات الحياة .

قال الفيلسوف الأخلاقي ابن مسكويه ^(١) : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وإن العالم سيبقى موجودا ، وليس هو بموجود فيه ، كما يظنه من يجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدري على أى شيء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات وهذه ظنون باطلة لاحقيقة لها ^(٢) وهذه الظنون هي التي تلازم الماديين ، أما المؤمنون فإن حياتهم مستقرة هائمة ، وهذا ما يأخذ بيدهم في الحياة ، ويفتح لهم آفاقها .



(١) ابن مسكويه هو : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، فيلسوف أخلاقي ، وكان قيما على مكتبة ابن العميد له كتاب « تحارب الأمم » ، يتضمن مل مادة تاريخية جيدة لاسيما فيما يتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية ، كان يتمذهب بمذهب أرسطو في الفلسفة ، وكان مذهبه في التربية أن يبدأ الإنسان بنفسه ، وكان يدعو إلى التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، أصله من الري وتوفي بها سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م — له مؤلفات كثيرة وكان من المعمرين

(٢) الإيمان والحياء ص ١٥٨ .

المبحث الخامس أسس الحضارة الإسلامية

تقوم الحضارة الإسلامية على أسس راسخة وعميقة ، تتمثل في رصيد ضخم من القيم الإنسانية التي لابد منها لقيادتها ، وهى مع هذا الرصيد الهائل من القيم لاتنكر الإبداع المادى فى الأرض ؛ لأنه يعد من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن وجد على ظهر الأرض ، ولكنها ترشده وتنفع فيه الحياة المطمئنة ، لتحقيق غاية الوجود الإنسانى فى الحياة ، لأن قضية التصور الإسلامى الكبرى والأساسية هى الإنسان ، وقضية وجوده فى هذا الكون ، وقضية علاقته بهذا الكون وما فيه ، وعلاقته بخالق هذه الأحياء ، وقضية علاقة الإنسان بالإنسان وسلوكه على وجه الأرض ، وقضية الخلافة وتحقيقها فى الأرض ويتحقق ذلك فى :

عقيدة واحدة إلهية ، تكون مصدر التجمع والتصور ، ومنبع الفكر ، ومنهج الحياة ، مؤثرة فى المبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم المجتمع المسلم ، أفرادا أو جماعات ، مع نظام مؤثر فى الأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التى تسود المجتمع ، وتؤلف ملامحه ، مع سيادة القيم الإنسانية ، لا الحيوانية ، واستعلاء الإنسان بقيمه على المادة وضغطها . ويعبر عن هذا فى العرف الإسلامى بالعقيدة والشريعة . عقيدة تنظم صلة الإنسان بالله ، وتعطيه قيمة معينة ، وشريعة تنظم الحياة الاجتماعية حسب هداية الله سبحانه ، وليبيان هذه الأسس وتلك الركائز ، نعرض للعقيدة ، والنظام الاجتماعى بإيجاز حتى نكون على ذكر منهما :

أ — العقيدة :

الأساس الأول الذى يقوم عليه التصور الإسلامى للحضارة الإنسانية هو العقيدة .

هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، هو العبودية لله وحده دون سواه ، والاعتراف بالخالقية والسلطان له سبحانه ، وتنزيهه عن الشريك ويتمثل ذلك في التصور والإدراك البشرى ، من تلقى الإنسان لحقائق العقيدة من مصدرها الربانى الذى يتكيف به الإنسان فى إدراكه لحقيقة ربه ، ولجلاله ، ولحقيقة الكون الذى يعيش فيه غيبته وشهوده ، ولحقيقة الحياة التى يعيشها ، ولحقيقة الإنسان نفسه ، ومن ثم تصبح عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قاعدة لمنهج كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بخلافها ، فأركان الإسلام من مقتضياتها ، صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، وحدود ، وتعازير ، وحلال وحرام ، وسلوك ، وأخلاق ، والاعتراف بالعقيدة والدينونة لله رب العالمين ، يقتضى الطاعة لله وحده ، والتسليم لحكمه دون سواه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ^(١) ... وللعقيدة عطاءات معينة منها :

١- السمو الإنسانى :

هذه العقيدة تعطى — أول ما تعطى — الطهارة فى أسمى معانيها ، وأجمل صورها . الطهارة من الشهوات ، فلا تستنزله شهوة ، ولا تطوعه غريزة شرود ، بل تعطيه عقيدته قوة يستعصى بها على أى هوى أو نزوة ، فلا يضعف ، ولا يستكين لعواصف الشهوات وإغراءات المادة وقد يضعف أمام ذلك الكثيرون ، رغم ما أوتوا من علم ، وما بلغوا من حضارة .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون ﴾ ^(٢)

وتعطيه كذلك كرامة يجالده به عبودية الإنسان للإنسان ، وتسلب الطواغيت على حياته ودينه ، فلا يتخذ ربا إلا الله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون

(١) الأنعام — ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) الحانية — ٢٣ .

الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿١﴾ ، ﴿٢﴾ اتخذوا أبحارهم ورحبانهم أربابا من دون الله ﴿٣﴾ تعطيه سموا في التفكير ، فلا يكون أسيرا لرواسب ماضية ونحل منحرفة ، وقد كان هذا دأب الجاهلين قبل ﴿٤﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴿٥﴾ لأن العقيدة تُعلمه أن يكون مع الحق الذي قام عليه الدليل ، وأثبتته النظر والبحث ﴿٦﴾ ولا تقف مالميس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴿٧﴾ . الإسراء ٢٦

٢- التصور الحقيقي للأشياء

تبعث العقيدة في نفوس أصحابها التصور الحقيقي لقيم الأشياء ، فلا ينطلق عليها غيبش الدعايات وبهرج الشبهات ، فإن من يعرف ربه يعرف قيمة نفسه ، ويعرف قيمة إيمانه ، ويعلم تسخير العوالم له ، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد الله ، وكلهم من خيره يرزقون ، فلا تزلف لأحد إذا ؛ لأن الكل مخلوق ، والكل محتاج إلى عطف الله ورضاه ، وإذا استعان صاحب العقيدة فإنما يستعين بالله ، وإذا طلب فليطلب من الله ، ويعلم كذلك أن الضر والنفع من الله . وصدق رسول الله ﷺ في تعليم ذلك لابن عباس : ﴿٨﴾ إذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لا يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ﴿٩﴾ فالنافع في الحقيقة والضرار هو الله سبحانه وتعالى ، فكل ملتجئ إلى غير الله في عباد أو خوف ضر ؛ فهو ضال . وصدق الله ﴿١٠﴾ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴿١١﴾ وكذلك الذين يدعون ابتغاء النصر والنفع ، ويرجون منهم المساعدة والعون ، عاجزون في الحقيقة عن نصره أنفسهم ، وجلب الخير لها : ﴿١٢﴾ لا يستطيعون

(١) آل عمران — ٦٤ .

(٢) التوبة — ٣١ .

(٣) القرة — ١٧٠ .

(٤) الترمذى وأحمد .

(٥) الأعراف — ١٩٤ .

وإنما القوة الحقيقية والنفع المحض إنما هو من الله سبحانه ﴿ أن القوة لله جميعا ﴾ (٢)، ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٣)، ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ (٤)، ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (٥) بهذه الآيات والأحاديث يزداد المؤمن قربا من ربه ، ويزداد مع هذا شموخه وعلو همته ؛ لأنه يركن ظهره إلى ركن شديد ، وحصن حصين ، فيثق في نفسه وفي خطوه ، ويستطيع أن ينفذ الخير ويقف بجانب الحق ، ولا يطأطأء هامته ، أو يحنى صلبه إلا لله سبحانه فيزداد عزة على عزة ، ورجولة فوق رجولة بعقيدته وإيمانه ، ويستطيع بها أن يواجه الدنيا ، ويقارع الخطوب ، فلا يتوه خطوه أو يضل طريقه .

٣- الرجاء وطمأنينة القلب

كم تبعث العقائد في نفوس أصحابها الرجاء في الله وطمأنينة القلب ، وصدق الله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ﴾ (٦) يرى الإيمان القلب على كيفية نفسية ، قائمة على الثقة بالله والرجاء فيه ، فهو في كل حال يتغلب على اليأس والقنوط ؛ لأن له من إيمانه كنز من الآمال الصادقة ، لا ينفد ولا يزول ، ولا يزال يزوده برصيد غير منقطع من قوة القلب وطمأنينة الروح ، ويلقى في روعه أنه — ولو طرد من كل باب من أبواب الدنيا ، وتقطعت به الأسباب الظاهرة ، وفارقت الوسائل المادية المعلنة — فإن الله لن يتخلى عنه ، وهو غير خاذله ، فعليه أن يتذرع بالصبر والجلد والثقة ، حتى يأتيه نصر الله وهو مطلع عليه ، ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي

(١) الأعراف ١٩٧ .

(٢) البقرة — ١٦٥ .

(٣) الذاريات — ٥٨ .

(٤) يونس — ١٠٧ .

(٥) آل عمران — ١٢٦ .

(٦) التغابن — ١١ .

لعلهم يرشدون ﴿١﴾ فرحة الله واسعة ، وهى قريبة من المؤمنين الصابرين المحسنين لكل أمر ، الساعين فى كل خير ، العاملين فى كل درب . وصدق الله ﴿٢﴾ ورحمته وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴿٣﴾ فلا يساور المؤمن العامل المجتهد الصابر شك فى أن الله سبحانه وتعالى محقق رجاءه ، فيبعد اليأس والقنوط عن نفسه وفكره ، لأنه مع الله وفى معينه ، وقد حذر الله من اليأس الذى يناق الإيمان به سبحانه ، ويتخالف طبيعة المؤمن ، ﴿٤﴾ إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴿٥﴾ . لا يأس من انتصار المؤمن ، ولا يأس من تفريج كربه ، ولا يأس من عدو ، ولا يأس من ذنب ، ولا يأس من خطيئة أو ذلة ، ﴿٦﴾ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا ﴿٧﴾ ، ﴿٨﴾ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴿٩﴾ . فإذا احتوشه ذنب أو تغلب عليه شيطان أو أغرته شهوة ، فلا يكون أسيرا لها طول حياته ، أو مقيدا بها طول عمره ، بل يستغفر الله ، وينطلق ب طريقه ، ويذكر الله ، ويستعين به ، ويتقرب إليه فإن فيه النجاة : ﴿١٠﴾ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴿١١﴾ ، ﴿١٢﴾ وإن جندنا لهم الغالبون ﴿١٣﴾ ، ﴿١٤﴾ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿١٥﴾ وهكذا فإن الإيمان إذا دخل القلوب أغناها وأسعدها ، وهداها إلى طريق الصواب ، وأعطاها مالا تجده فى سواه ، وزرع فيها ثقة بغير حدود ، وأعطاها طاقة كأنها شعاع الشمس أو هدير الرعود . وقد رأينا القلة المؤمنة فى ميادين عدة قارعت الخطوب وتغلبت عليها . تغلب إيمان صهيب وبلال على جبروت أمية بن خلف وأبى جهل وعتاة المشركين ،

(١) البقرة - ١٨٦ .

(٢) الأعراف - ١٥٦ .

(٣) يوسف - ٨٧ .

(٤) النساء - ١١٠ .

(٥) الزمر - ٥٣ .

(٦) الرعد - ٣٨ .

(٧) الصافات - ١٧٣ .

(٨) الحج - ٤٠ .

كما تغلبت امرأة فرعون — وهى امرأة وحيدة — على جبروت فرعون وجنوده ، ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ﴾ ^(١) تغلب على العادة المستهجنة والطباع الملتوية والنفس الأمارة بالسوء ، ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتركبوا حتى أتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ ^(٢) ونجد هذا واضحا فى نساء الرسول ﷺ لما خيرهن القرآن الكريم بين متاع النفوس وزهرة الحياة ، وحياة الجد والكفاح ، فقال ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا ، وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجرا عظيما ﴾ ^(٣) فلما قرأ نساء الرسول ذلك قلن :- نختار الله ورسوله والدار الآخرة ، فانتصرت أنفسهن على زخرف الحياة وشهوات النفس بنفس مطمئنة قوية ، وكذلك الإيمان طمأنينة إلى الخير وثقة وهداية .

٤- الجرأة والشجاعة :

تعطى العقيدة صاحبها صفات نفسية غامرة كريمة بغير حدود ، من هذه الصفات الجرأة ، والشجاعة ، والبسالة النادرة . الشجاعة فى كل ميدان من ميادين الحياة ، الشجاعة فى مواجهة النفس ، والتغلب على ثقل الحيوانية ، ولهذا نرى كثيرين من أصحاب العقائد ضربوا أروع الأمثلة فى الاستقامة والقُدوة بعد تاريخ طويل فى الجهالة وحب العرض واتباع الشهوات ، واستطاعوا أن يفرضوا الاستقامة ، وأن يعلموا الشعوب الهداية والرجولة ، ونبت الانحراف ومداواة النفوس ، ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ ^(٤) وأن يؤثروا الثواب الآجل على المتاع العاجل .

(١) التحريم — ١١ .

(٢) التوبة — ٢٤ .

(٣) الأحزاب — ٢٩ .

(٤) الكهف — ٤٦ .

الشجاعة في مواجهة الشدائد : فأصحاب العقيدة لا يخافون الموت ، ويعلمون أنه حق لا مريّة فيه ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ ^(١) فإن عاشوا عاشوا كراما ، وإن ماتوا فإلى جنة يرزقون فيها ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ ^(٢) وماله لا يكون شجاعا وقد أعد الله له ما أعد من الثواب والجزاء ، واشترى منه نفسه وماله بالجنة : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ ^(٣) وأصحاب العقائد مع هذا يعلمون أن لكل نفس أجل ، لا تتقدم عنه أو تتأخر ، ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ ^(٤) ، وأن الاحتراز من الموت إذا هم القضاء غير وارد ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ ^(٥)

ولهذا كان الرجل من أصحاب العقائد يقابل عشرة من غيره ، وإذا نزلت منزلته يكون باثنين — ﴿ يأياها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ^(٦) لأنهم يشبتون حين يفر غيرهم ، ويرابطون عندما تطير قلوب سواهم شعاعا ، ولهذا نرى القرآن يحكى موقف اختبار فيه فئتان : فئة مؤمنة ، وأخرى منافقة ، فى غزوة الأحزاب ، فيقول عن موقف المنافقين الذين خلت قلوبهم من العقيدة : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة

(١) الجمعة : ٨ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ — ١٧٠ .

(٣) التوبة : ١١١ .

(٤) آل عمران : ١٤٥ .

(٥) آل عمران : ١٥٤ .

(٦) الأنفال : ٦٥ — ٦٦ .

حداد ﴿١﴾، ويقول عن المؤمنين ﴿٢﴾ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴿٣﴾ وليس هذا لقوم دون قوم ، أو لفئة مؤمنة معينة إنما هو قانون عام من قديم يجرى على سننه أصحاب العقائد وصدق الله ﴿٤﴾ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ﴿٥﴾

٥- الإحاطة والشمول

هما تعطيه العقيدة الإسلامية للمسلم : الإحاطة والشمول ؛ حيث تعترف العقيدة الإسلامية بالكتب السماوية كلها ، حيث يأمر الإسلام بالإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله ، وكما أنه لا بد للإنسان إذا أراد لنفسه الإسلام ، أن يؤمن بكل واحد من الأنبياء والرسل ، وكذلك لابد له من الإيمان بكل كتاب أنزله على رسله ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿٦﴾ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿١٣﴾ وقد ورد في القرآن أسماء بعض الكتب السماوية صراحة ، وورد

(١) الأحزاب : ١٩ .

(٢) الأحزاب — ٢٢ .

(٣) البقرة — ٢٤٩ .

(٤) البقرة — ٤ — ٥ .

(٥) البقرة — ٢٨٥ .

(٦) البقرة — ١٣٦ .

(٧) غافر — ٧٠ ، ٧٢ .

فيه الأمر بالإيمان بها ، والثناء عليها ، ووصفت التوراة بالهدى ، والنور ، والفرقان ، والضياء ، والإمام ، والرحمة (القصص : ٤٣ — المائدة : ٤٤ — الأنبياء : ٤٨ — الأحقاق : ١٢ —) . ووصف الإنجيل بالنور ، والهدى ، والموعظة : (المائدة : ٤٦) إذن ؛ فمن أصول الإسلام أن يؤمن المسلم بالكتب السماوية ، وبالرسالات المنزلة من عند الله ، جملة بالكتب غير المصرح بها ، وتفصيلا بالكتب المصرح بها ، فما من أمة في الأرض إلا وقد جاءها رسول وكتاب ، ومن إحاطة الإسلام وشموله أنه جمع شرائع الأمم السابقة وتعاليمها ، وصاغها دستورا قويا لأمة الخلافة والشهادة ، ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ (١) .

ومن إحاطة الإسلام وشموله ، وبيانه لجوانب الحياة ، صغيرها وكبيرها ، ما صلح منها وما فسد ، من طعام وشراب ، فأحل الطيب وحرم الخبيث ، ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ (٢) ، ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ، وبين وجهة الأعمال ما رشد وما شرد ، وما استقام وما اعوج ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةَ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةَ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، ﴿ من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ (٣) ، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ (٤) ، ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٥) . فبين الإسلام أن الأعمال هي قوام المسلم ، وهي ميزان بها يصعد ، وبها يهوى ، وبها يسود في الأرض ، وبها يضيع من قدمه الطريق ، ويختلط

(١) الشورى — ١٣ .

(٢) المائدة — ٤ .

(٣) النساء — ١٢٤ .

(٤) النور — ٥٥ .

(٥) ص — ٢٨ .

عليه الدروب ، وبها يحاسب عند ربه ، وبها ينال الثواب والعقاب . ثم بين الهداية المضیة والرشاد السامی ، فأرسل رسله ، وبعث أنبياءه ، وأنزل الكتاب بالحق والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ﴿١﴾ كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿٢﴾ . ﴿١﴾ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴿٢﴾ . وتولت هذه الهداية الإنسان صغيرا وكبيرا وقبل أن يولد ، وواكبت خطوة في حياته غلوه ورواحه ، وليله ونهاره ، وصباحه ومساءه ، تشد من أزره وترفع من همته ، وتعديل من خطوه ، حتى يؤدي دوره في الحياة ، ويعيشها سعيدة عزيزة في مرضات ربه سبحانه ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى بعد ذلك ، في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر . ومن مظاهر الإحاطة والشمول . الدعوة العامة لجميع البشر ، وعدم التمييز بين جنس وجنس ، ولون ولون ، وفقير وغنى ، بل الكل أمام الله سواء ، والدين لهؤلاء جميعا . والرسول ﷺ بعث للناس كلهم : ﴿ قل يأياها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٣) ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٤) ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥) ، ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٦) ، ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (٧) . وبهذا يظهر لكل ذى عينين أن دعوة الإسلام ليست دعوة محدودة ، جاءت قصرا على فئة معينة تدعى ادعاء معينا ، وإنما جاءت غير

(١) البقرة — ١١٣ .

(٢) آل عمران — ١٦٤ .

(٣) الأعراف — ١٥٨ .

(٤) سبأ — ٢٨ .

(٥) الأنبياء — ١٠٧ .

(٦) الفرقان — ١ .

(٧) الأحزاب — ٤٠ .

محدودة بزمان ولا بمكان ، ولا بنوع أو جنس ، لتضع الأخوة العامة في الخلق ، وفي العقيدة ، وفي السلوك والوجهة . وتضع المؤمنين بها عند مسئوليتهم ، وأمام ما تحملوه من هدى ونور ، ليبلغوه للناس ويشيعوه في الأرض طريقا مستقيما ، وعقيدة لكل القلوب والنفوس ، تأخذ الناس إلى خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ . وعقيدة الإسلام بهذا تخالف بعض الديانات والنحل المختلفة ، التي تعتبر الديانة قصرا عليها ، وأن الله فضلهم على الخلق ، وخصهم دون غيرهم بما لم يعطه أحدا من العالمين ، ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ .^(١) وفرق كبير بين هذا المفهوم المنحرف الأناني ، وبين المفهوم السوي الحاني الكريم : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(٢) . إن التصور الإسلامي للإنسانية يمهّد لسلام دائم بينها ، وتعاون متمر على المعروف والخير في طريقها ، كما يبدد سحب الأحقاد والكراهية والتعالى والظلم من سمائها ، ويوجهها إلى الحب والإحاء .

ب — النظام الاجتماعي

الأساس الثاني للحضارة الإسلامية هو : النظام الاجتماعي المتكامل ، الذي جاء به الإسلام ، وصنع به الحياة الإسلامية ، وهو نظام رباني ، اختاره الله للبشرية ؛ لينظموا حياتهم عليه ، وليحييهم به حياة طيبة ، ويسعدهم به في الدنيا والآخرة ، لا تتداخل معه أهواء البشر الشاردة أو أنظارهم القاصرة ، وإنما هو وحى إلهي رائق ينظم حياة الناس وينسقها ، كما ينظم حركة العوالم ويهندسها ، ويسعد حياة البشر ويهينها ، كما يخرج أزهار الربيع ويهيجها ، لأن صنعة الخالق في الجماد أقل منها في الإنسان ، ولطفه ورأفته بالناس أكثر وأفضل وأعظم منها في غيره ، وهذا ما يقتضى تكريمه وتفضيله ، ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾^(٣) ، فناسب

(١) المائة — ١٨ .

(٢) المحرات — ١٣ .

(٣) الإسراء — ٧٠ .

أن يكون نظام الحياة الاجتماعية في الوحي الإلهي مواكبا لهذا التفضيل والتكريم ، ومن أهم أسس هذا النظام:—

١— المساواة بين البشر

يقيم الإسلام المجتمعات الإسلامية على قاعدة مهمة مستقيمة ، هي : المساواة النامة بين البشر ، ويقرر المساواة على إطلاقها ، فلا قيود ولا استثناءات ، وإنما مساواة تامة بين الأفراد ، ومساواة تامة بين الجماعات ، ومساواة تامة بين الأجناس ، ومساواة كاملة بين الحاكمين والمحكومين ، لا فضل لرجل على رجل ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لعربي على عجمي ، وذلك لقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ^(١) ، قومية عالمية ، ووحدة إنسانية متكاملة ، تكون جماعة دولية ، تمحى فيها الامتيازات القائمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية . ومن المحال أن تكون حضارة إنسانية عالمية إلا بتحقيق ذلك ، لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد ، ومن جانب آخر تطهرها من كل ما قد يكون فيها من الميول المتناقضة ، والنظام الإسلامي بهذا يقطع الطريق على النظام الطبقي وما يصاحبه من تظالم اجتماعي ، ويفتح الطريق أمام كل فرد لنيل ما يصلح له وبذل ما يقدر عليه من جهود ، موقنا أنه سينال أجره ، وينجى ثمرة جهاده ، وقد كانت هذه المبادئ التي اعتنقها المجتمع الإسلامي منذ نشأته ثورة اجتماعية هائلة ، بدلت الأوضاع الاجتماعية ، ووضعت الآصار عن المستضعفين ، بعد أن قاست البشرية منذ فجر التاريخ من التفاوت والنظام الاجتماعي ، ما جعلها ترزح تحت نير العبودية والاستغلال أزمنة متطاولة ، وأحقابا عديدة ، وكانت قضية المساواة — بل حتى تصورها — حلما يبرق كالسراب ، ثم يتوارى عن أعين اللاهئين الحيارى ، فقد استعبد الإنسان أخاه الإنسان ، وشرع لذلك القوانين التي تمنع الترقى والسمو والتطلع إلى آفاق الكرامة ، وحتى الفلاسفة المثاليون قبل الإسلام من أمثال أرسطو وغيره من الذين حاولوا بناء مجتمعاتهم بالعقل والحكمة وقعوا في مصيدة الاسترفاق والفوارق بين الطبقات ، فقال أرسطو : « إن الله

(١) المحررات — ١٣ .

خلق فصيلتين من الأناس ، فصيلة زودها بالعقل والإرادة ، وهى اليونان ، وقد فطرها على هذا التقويم الكامل ، لتكون خليفته فى أرضه ، وسيدة على سائر خلقه ، وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا بالجسم ، وهؤلاء هم البرابرة ، أى ماعدا اليونان من بنى آدم ، وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقص ، ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ^(١) . وإذا كان هذا قول الحكماء والعقلاء وزعماء الإصلاح قبل ذلك ، فماذا يكون قول غيرهم من الحكام والعامه ، فضلا عن قول المؤلفين من الزعماء ، فالبون شاسع بين فكر الإنسان وهداية الله ، وبين تصور البشر وعدل الخالق سبحانه ، ولهذا نجد أن المفهوم الإسلامى يحمل هذه السمة ، وينطلق من هذه الرحمة ، ويصطبغ بهذا العدل ، أخرج ابن عبد الحكم عن أنس رضى الله عنه أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين عائد بك من الظلم ، قال عمر : عذت معاذا ، قال : سايقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو رضى الله عنهما يأمره بالقدوم ، ويقدم بابنه معه ، فقدم فقال عمر : أين المصرى ، خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين قال أنس : فضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثم قال عمر للمصرى : ضع على صلعة عمرو ، فقال ياأمير المؤمنين : إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد استقدت منه ، فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، فقال : ياأمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى ^(٢) . نعم هذا عدل الشرائع وهداية السماء ، لا أدران البشر وخطرات الجاهلية رجل يضرب بسوط فى مصر بعيدا عن المدينة بآلاف الأميال ، يرسل عمر إلى استدعاء من ضربه وإن كان ابن الخليفة ، ويحضر أباه الوالى كذلك ، ويقتص منه أمام الجميع ، ويؤنب والده الوالى ، ويرى الجميع أن عدل الإسلام ومساواته لا يفرق بين أمير وسوقة ، أو فقير وحقير ، وغنى وعظيم ؛ لأن الكل أمام الله سواء ، ومن هذا المنطلق سار الناس بطاقتهم إلى المجد ، لا يعترضهم جهل أو غرور أو

(١) قصة الملكية فى العالم — الدكتور على عبد الواحد وائى ص ٧٢ .

(٢) حياة الصحابة ٢ / ٢٣٥ ط دار القلم .

تسلط ، تتساوى المناكب ، وتصطف الأقدام ، ويسعى الكل ، يعليه عمله ، ويرفعه جهده ، أو يوبقه كسله ، ويقعده ضرره ، ولهذا نرى أن المجتمع الإسلامي برزت فيه طاقات جبارة ، لولاه ما كان لها في الحياة شأن أو ذكر . لقي عمر بن الخطاب رضى الله عنه نافعا ، وقد قدم للحج ، وكان قد استعمله على مكة ، فقال : من استعملت على أهل الوادى ، فقال : « عند الرحمن بن أبزى » مولى من موالينا ، فسأله عن حاله ، فقال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفقه والفرائض . فسُرَّ عمر رضى الله عنه ، وقال : أما إن نبيكم قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب قوما ويضع آخرين .

وكان « عطاء بن أبى رباح » مولى لبنى فهر ، تولى أمناء مكة ، وكان ينادى منادى الخليفة الأموى فى موسم الحج : « لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، وكان على دمامته وسواد شكله وعنصره غير العربى يتصدر أرفع مركز شعبى بين الناس ، وكان طاووس بن كيسان — وهو فارسى — لا يبالي أن يوبخ الخلفاء فى مجال التذكير والإرشاد ، وكانوا يتلمسون رضاه ، وكانت قلوبهم تفيض هيبة له وإحلالا ، وسارت جنازته يوما فوق رؤوس عربية مسلمة مطاطة ، وكان « واصل بن عطاء » المعتزلى مولى لبنى ضبه ، وكان صدرا فى الأدب واللغة والعلوم .^(١) وهكذا انقلب التفاضل بين الناس من الجنس واللون والقبيلة إلى المكتسبات الإرادية ، والأعمال النافعة ، والجهد المبذول فى سبيل ارتقاء الإنسان ، من علم نافع ، وفكر ناب ، وخصائص مميزة تؤهل صاحبها لذلك .

تفاوت الناس

ولا شك أن الناس تتفاوت قدراتهم وخصائصهم ، فلا بد أن تتفاوت أوضاعهم تبعاً لذلك ، وهذا شرط طبيعى لتحمل المسؤوليات فى الحياة ، وإعطاء القوامه من يستحقها ويستطيع القيام عليها ، وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾^(٢) وهذا الأمر كما يكون بين الرجال ، يكون بين الرجال والنساء ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم

(١) معالم الحضارة لعلوان ص ٢٣

(٢) الرحمن — ٣٢

على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليماً ^(١) . هذا في مجال الأعمال . أما في مجال المعاملة والحقوق والكرامة والعدل والحرية والأخلاق والإنسانيات والروابط الأدبية والعبادات والشعائر فالكل سواء .

٢- العدالة المطلقة

جاء الإسلام لينشئ أمة ، وينظم مجتمعا ، ويبني عالما ، ويقيم نظاما ، جاء دعوة عالمية إنسانية ، لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة القومية والعصبية والأخوية ، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الأفراد والجماعات ، واطمئنان الأشخاص والأُمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود ، جاء بالعدل ، الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود أو البغض ، ولا تبدل مجارة للصهر أو النسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ؛ إنما تكيل بمكيال واحد ، وجاءت آيات العدل في القرآن حول هذه المعاني قاطعة آمرة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ^(٢) ، والعدل على ماقرره العلماء في هذا الوطن هو فصل الحكومة على مافى كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ ، لا الحكم بالرأى المجرد والهوى ، فإن ذلك ليس من الحق في شيء ، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله ، فلا بأس بإعمال الرأى والاجتهاد حسب قواعد الشرع ومقاصده ، من أناس بلغوا درجة الاجتهاد ، وأما الحاكم الذي لا يدرى بحكم الله ورسوله ، ولا بما هو أقرب إليهما فهو لا يدرى ماهو العدل ؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءت ، فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله ^(٣)

(١) النساء — ٣٢ .

(٢) النساء — ٥٨ .

(٣) فتح القادير للشوكاني ١ / ٤٨٠ ط المعرفة .

وجوب العدل :

وقد ذكر الفخر الرازي ، إجماع العلماء على وجوب الحكم بالحق على الحاكم فقال « اجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل : قال تعالى ﴿ وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾^(١) ، والتقدير : إن الله يأمركم إذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، وقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾^(٢) ، وقال ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾^(٤) وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت ، وإذا استرحمت رحمت » ، وعن الحسن قال : إن الله أخذ على الحكام ثلاثا : أن لا يتبعوا الهوى ، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا ، ثم قرأ : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية ، وقرأ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾^(٥) ومما يدل على وجوب العدل الآيات الواردة في مذمة الظلم ، قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾^(٦) ، وقال عليه الصلاة والسلام « يُتَادَى مُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيُّنَ الظَّالِمَةِ وَأَيْنَ أَعْوَانُ الظَّالِمَةِ ، فَيُجْمَعُونَ كُلُّهُمْ حَتَّى مِنْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا ، أَوْ لَاقَ لَهُمْ دَوَاةً ، فَيُجْمَعُونَ وَيُلْقَوْنَ فِي النَّارِ » وقال تعالى أيضا : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٧) وقال ﴿ فَنُفِثَهُمْ سَوْفًا حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾^{(٨) (٩)}

أقسام العدالة

والعدالة ذات شعب :

أولها — العدالة الذاتية أو النفسية :

وهي عدالة تنبع أولا من ذات الإنسان ، بأن يقدر كل إنسان لنفسه من

-
- | | | |
|---------------------|--------------------|-------------------------------------|
| (١) النساء / ٥٨ . | (٤) ص / ٢٦ . | (٧) إبراهيم — ٤٢ . |
| (٢) السجدة / ٩٠ . | (٥) المائدة / ٤٤ . | (٨) النمل — ٥٢ . |
| (٣) الأنعام / ١٥٢ . | (٦) الصافات / ٢٢ . | (٩) الفخر الرازي ١٠ / ١٤١ ط طهران . |

الحقوق بمقدار ما يقدره غيره ، على ألا يزيد على الناس في حق ، وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب ، وهذه العدالة تقوى الأواصر بين الجماعة وتزرع الحب بينهم ، وهذه العدالة هي التي عنها الرسول ﷺ بقوله « وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) ، وقوله عليه السلام « عَامِلِ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ » ويتمثل ذلك حتى في النظر ، وحتى في التحية بين المسلمين ، ينبغي أن يلاحظ المسلم ذلك ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾^(٢) ومن أجل هذه اللمسات من العدل فتحت الأرض والنفوس والقلوب أبوابها للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا ما جعلهم يقودون موكب الحضارة الإنسانية الصاعد إلى المجد بغير تيه ، أو شرود أو انحراف إلى الهاوية .

ثانيها — العدالة القانونية :

وأول ما يطالعنا في العدالة القانونية هو: المساواة في القانون ، فلا يكون هناك قانون للأشراف وآخر لغيرهم ، أو يكون قانون المبيض وآخر للملونين ، وأن يكون هناك حصانة لأحد ولا يكون ذلك للآخر ، وقد ابتليت أمم كثيرة بمتل هذه العلل التي نفاها الإسلام ، وأثبت المساواة في العدالة ، أو عدالة المساواة والأمثلة لذلك في التراث الإسلامي كثيرة . ومما يروى في ذلك أن قريش أتهمت المرأة المخزومية التي سرقت ، وقد اعتزم النبي ﷺ أن يقطع يدها لتكرار السرقة منها ، ولأن حد الله يجب أن يقام ، ولا يحابي أحد لجأه ، فوسطوا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ليشفع في ذلك ، فغضب رسول الله ﷺ ، وقال له لائما : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ! » ثم وقف خطيباً وقال : « ما بال أقوام يتشفعون في حد من حدود الله ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم

(١) البخاري باب الإيمان ٧ .

(٢) النساء / ٨٦ .

الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١) . وما لرسول الله ﷺ لا يفعل ذلك وتعاليم القرآن صريحة واضحة تأمر بالعدل ، وتحض عليه ، لا تفرق بين قريب وبعيد ، ولا بين غنى وفقير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾^(٤) وقد تحرى المسلمون العدل فى القضاء ، ورسوموا أول قانون للنزاهة والعفة والمساواة بين الخصمين فى كل شىء ، فى المجلس ، وفى النظرة ، والإشارة ، والالتفاتة ، ولقد كان عمر رضى الله عنه يأمر قضاة بالتسوية بين الخصوم فى المجلس والنظر والإشارة والإقبال ، ولقد قال فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى « سَوِّ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِى مَجْلِسِكَ وَإِشَارَتِكَ وَإِقْبَالِكَ ، حَتَّى لَا يَبْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ، وَلَا يَطْمَعَ قَوًى فِى حَيْفِكَ »^(٥) وهذا مبدأ فريد فى العدالة المطلقة ، فتح الآفاق أمام عدالة إنسانية أراحت الإنسانية من حيف وجور شديد ، ووضعت اللمسات الأخيرة للكرامة الإنسانية والأمان الاجتماعى المنشود .

جرائم الضعفاء

جاء الإسلام بمبدأ عجيب فى التنظيم القانونى ، لم يَسْمُ إليه إلى الآن قانون فى الأرض ، فأكثر القوانين — وإن كان يسير على أساس المساواة القانونية — عند التطبيق نراه يتجه إلى تصغير جرائم الكبراء ، وتكبير جرائم الضعفاء ، فأكثر القوانين لاتفرض أن رئيس الدولة يرتكب جريمة ، ولذلك لا تنص على عقوبة خاصة بجرائمه ، وهذه القوانين كانت إلى عهد قريب تذكر عن الملوك أن ذاتهم مصونه لاتمس ، ومن

(١) رواه مسلم ٥ / ١١٤ حدود المختصر ٢٧٩ .

(٢) النساء — ١٣٥

(٣) الأنعام — ٥٢

(٤) المائدة — ٨

(٥) المجتمع الإنسانى أنى رهرة ص ١٢١

المطبقين للقانون من كان يصرح بقوله إذا تحدث عن الملك « الذات المقدسة » ، وحتى في البلاد التي زالت منها الملكية لا تزال متأثرة بهذه القوانين ، ويظهر هذا التأثير في الواقع ذاته ، والمنطلق الذي يحاط به هذا الرئيس وبطانته ، والسلطات التي تخول له ، والقوانين التي يتحكم فيها ، ويصدرها ، ويأمر بتنفيذها .

وهذا يخالف التصور الإسلامي والنظرة القانونية في الإسلام ، فقد أجمع الفقهاء على أن الجرائم التي توجب القصاص لافرق فيها بين الراعي والرعية ، ولا بين الحاكم والمحكوم ، وأن هذا ينطبق على الجميع ، وإذا ارتكب الخليفة ما يوجب الحد كأن يشرب خمرًا أو يزنّي وجب عليه الحد ، وهذا رأى جمهور العلماء وفوق هذا فقد جاء القرآن بتخفيف العقوبة حال الضعف وحال الامتهان ؛ لأن ضعف الضعيف وامتهانه يسهل عليه ارتكاب الجريمة ، والجريمة مهانة ، وحيث كانت المهانة كانت معها سهولة الجريمة ، فالجريمة تسهل على المهين وتصعب على الكريم ، وذلك المبدأ هو ماقرره القرآن الكريم من عقوبة العبيد بالنسبة لعقوبة الأحرار ، فإنه جعل عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر ، فإذا زنى العبد جلد خمسين جلدة ، وإذا زنى الحر جلد مائة جلدة ، وإذا شرب العبد الخمر جلد أربعين ، وإذا شرب الحر جلد ثمانين ، وإذا رمى العبد امرأة بالزنى من غير بينة يجلد أربعين ، بينما يجلد الحر في هذه الحال ثمانين جلدة ، والجريمة تسير مع الصغر والكبر سيرا طريديا ولا تسير سيرا عكسيا ، وهذا المبدأ يراعى أحوال وظروف الجريمة ، وفوق ذلك فهو يشدد على الكبير الذى ينظر إليه الناس ، يقتدى به ، فإذا علم الناس أن الكبير يرتكب الفحشاء سهلت على من دونه ، واقتدوا به ، وشاعت الفاحشة في الذين آمنوا ، أما الضعيف فإنه لا يقلده أحد ، وينال ازدراء الناس بما يرتكب ويقترف ويبين القرآن الكريم الحكم في العقوبة للإماء ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ^(١) ، فقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات تجعل الواحدة — ولو كانت متزوجة — أضعف من مقاومة الإغراء والوقوع في الخطيئة ، فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة ، ولم يعفها نهائيا من العقوبة بل جعل الأمر وسطا ، وكما بينا فإن الإسلام خالف جميع القوانين في ذلك ،

(١) النساء — ٢٥ .

وجاء بنظرية إنسانية جديدة ، يجب أن تلتفت إليها الإنسانية ، وأن يدرسها الفقهاء والمشرعون ، فالإسلام لم يجعل من الخطأ درجة الرقيق سببا في مضاعفة العقوبة ، كما كانت تفعله القوانين البشرية السائدة في الأرض كلها ، تفرق بين الطبقات المنحطة والراقية ، وبين الوضعاء والأشراف ، تخفف عن الأشراف والطبقات الراقية ، وتقسو على الضعفاء . فالقانون الروماني الشهير يشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة ، فيقول : « من يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته — إن كان من بيئة كريمة — مصادرة نصف ماله ، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض »^(١) وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه « منو » ، وهو القانون المعروف باسم « منو شاستر » ، أن البرهمن إن استحق القتل فلا يجوز للحاكم أن يخلق رأسه ، أما غيره فيقتل !! وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمن يدا أو عصا ليطش به قطعت يده... الخ^(٢) وكذلك كان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وما تزال القوانين الحديثة تغفر للسادة مالا تغفره للضعفاء الملونين ، وما تزال التفرقة العنصرية تعمل عملها في وسط المدينة الحديثة التي تدعى التقدم والحرية ، ولكن الإسلام فوق أنه يسوى بين الناس ، إلا أنه يلاحظ الواقع والحالة التي يكون عليها ضعف الضعفاء وامتهان المهنتين ، فيخفف عنهم ، ويمسح على قلوبهم ، ويأخذ بيدهم ، ويقدر ما هم عليه .

ثالثها العدالة الاجتماعية :

من العدالة الاجتماعية أن تراعى المواهب ، فيمكن كل ذي موهبة أن يعمل بمقدار طاقته ، وتبياً له الفرص ليستفيد ويفيد ، والإنسانية تعلق دائما بسيادة النابيين وجهد الموهوبين فيها . فإذا عطلت تلك المواهب ، وقيدت هذه السواعد ، انحدرت الأمم إلى هاوية سحيقة ، وساد الجهل ، وحرمت الأمة من كل ابتكار ، فدائما الجيوش تقودها أفراد ، والاختراعات تبرز في عقول أفراد ، والحكمة تأتي أفراداً ، وصدق الرسول ﷺ « النَّاسُ كَأَيْلٍ مَّائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً »^(٣) ، فمن العدالة

(١) مدونة حوستينيك ترجمة عبد العزيز فهمي .

(٢) مادا خسر العالم بالخطايا المسلمين للدوى ص ٥٩ ط دار القلم

(٣) مسلم ٧ / ١٩٢ فضائل الصحابة ، مختصر ٤٦٧ ، أحمد ٣ / ٧ ترمذى أداب ٨٣ .

الاجتماعية أن يفسح لكل مجال تظهر فيه تلك المواهب لتؤدي ضريبة هذا النبوغ ، ويظهر خير الله على أيدي عباده الذين منحهم فضله ، ولهذا كان المعطل لهذه المواهب مضيقاً لنعمة الله سبحانه ، وخائن للإنسانية . قال رسول الله ﷺ « من اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَايَةِ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى اللَّهُ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ » ^(١) ومن العدالة الاجتماعية أن يعان الضعيف ، ويسد عجز العاجز عن العمل ، بتسهيل أسباب الحياة له ، فإن كان هناك شيوخ أفقدهم ثقل السنين القدرة على الكفاح ، ونساء ضعفن عن أن يعملن بسبب أنوثتهن ، ويتامى فقدوا العائل ، ومرضى بأمراض مزمنة يعوقهم المرض عن أن يكدحوا في الحياة ، فمن العدل أن يعطوا مايكفيهم ويسعدهم في هذه الحياة ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ : لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ .. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ^(٢) ، ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّنِّ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَغْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ^(٥) ، ﴿ فَبِالْعَدَالَةِ الْجَامِعَةِ تَعْمُ الْأُخُوَّةُ وَتَسُودُ الْحُبَّةُ ، وَيَعْمُ السَّلَامُ وَالْأَمْنُ وَالطَّمَانِينَةُ .

٣ — الحرية :

يقيم التصور الإسلامى المجتمع على أساس الحرية فى أجل معانيها ، وأسمى مقاصدها ، وأروع مظاهرها . من هذه الحريات

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد — الترغيب والترهيب ٣ / ٤٦٢ .

(٢) متفق عليه البخارى ٣ / ٩٠ فتح البارى ٥ / ٧٠ ، ٤ / ٣٧ مسلم ١ / ٣٩٩ نووى ٦ / ١٦٠ .

(٣) الماعون — ٢ — ٣ .

(٤) الصحن — ١١ .

(٥) النذريات — ١٩ .

(٦) الماعون — ٢٥ .

حرية الاعتقاد :

يقرر الإسلام حرية الاعتقاد ، ويجعل لكل إنسان الحق في أن يعتقد من العقائد ما يشاء ، وليس لأحد أن يجبره على ترك عقيدته ، أو اعتناق عقيدة أخرى ، ولو كانت هذه هي عقيدة الإسلام . وذلك واضح في قوله تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) وقوله ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾^(٤) ونفى الإكراه هنا ، معبر عنه بنفى الجنس ، كما يقول النحويون ، أى : لا إكراه ، أى نفى جنس الإكراه ، ونفى كونه موجودا ابتداء ، بل مستبعد من عالم الوجود والوقوع ، والنفى للجنس أحق إيقاعا ، وأكد دلالة على النفي ، والإسلام — وهو أرق تصور للوجود والحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا جدال أو مرأ — هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى يأمر أتباعه بتقرير هذا المبدأ ، وأنهم لا بد أن يلتزموا به ، ويمتنعوا من إكراه أحد على هذا الدين ، فكيف بالمذاهب الأرضية والنظم القاصرة المتعسفة ، وهى تفرض فرضا بسلطان العسف ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ، فإما أن يعتنق مذهب الدولة وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرفه ويرعاه ، وإما أن يتعرض للقهر والموت بشتى الوسائل والأسباب ، ولا ولا يخفى على كل منصف ما يقرره الإسلام فى هذا المبدأ الذى يتجلى فيه تكريم الإنسان ، واحترام إرادته ومشاعره ، وترك حريته لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ، وهذا هو أخص خصائص التحرر الإنسانى .

(١) البقرة — ٢٥٦ .

(٢) يونس — ٩٩ .

(٣) الغاشية — ١٨ .

(٤) النور — ٥٤ .

حرية الفكر :

كما يقرر الإسلام حرية الفكر والتفكر ، ويحض الناس على التأمل والتفكر في كل شيء ، ولقد قامت الدعوة الإسلامية على تنبيه الفكر ، وإذكاء العقل ، وحث الناس على التأمل والتفكر في كل شيء ، ولقد قامت الدعوة الإسلامية على تنبيه الفكر ، وإذكاء العقل ، وحث الناس على التأمل والبحث ، واستجلاء الحقائق ، والنظر إلى ما وراء الأشياء ، وإلى غايتها ، ولهذا نرى دعوة القرآن إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، وفي خلق أنفسهم وفيما حولهم مما تقع عليه أبصارهم ، أو تسمعه آذانهم ؛ ليصلوا من وراء ذلك كله إلى معرفة الخالق ، وليستطيعوا أن يميزوا بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ونصوص القرآن كثيرة في هذا المجال من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرٍ مُطَهَّرٍ وَفِرَادَى ثَمَرٍ مُتَفَكَّرٍ ۝ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ (٣) ، وقوله تعالى ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُعْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝ (٥) إن الفكر في الإنسان هو حياته وهو كرامته وهو دينه وطريقه إلى ربه سبحانه ، ولأمر ما يقول الله عنه ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ؛ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝ (٦) ، ويقول القرآن مصورا أحاديث أهل جهنم . ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (٧) .

(١) سبأ — ٤٦ .

(٢) الروم — ٨ .

(٣) الداريات — ٢٠ — ٢١ .

(٤) يونس — ١٠١ .

(٥) آل عمران — ٧ .

(٦) إبراهيم — ٥٢ .

(٧) الملك — ١٠ .

حرية القول :

كما يقرر الإسلام حرية القول ، ويجعلها حقاً لكل إنسان ، بل قد يكون على الإنسان أن يستعمل حرية القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورد الأمر إلى نصابه ، وتنقية المجتمع مما يصيبه من أمراض اجتماعية وخلقية ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (١) ، بل قد يحتم الإسلام على المرء أن ينطق بالحق إذا سكت الناس ، ويجار به إذا توارت الأصوات ، وخفتت الألفاظ ، وكممت الأفواه ، وذلك نراه في قول الرسول ﷺ « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » (٢) وقوله ﷺ « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » (٣) « سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ » (٤) كما نهى الإسلام المسلم عن تحقير نفسه بأسره لرأيه وكتمه لفكره ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُحَقِّرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يُحَقِّرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ ؟ » قال : « يَرَى أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ مَقَالًا ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ خَشْيَةُ النَّاسِ فَيَقُولُ : فَإِيَّايَ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَى » (٥) ويعجب الإنسان إذ يرى تعاليم الإسلام هي التي تحض الإنسان على إبداء رأيه وإظهار فكره ، وتنهيه أن يتخاذل أو يستكين أو يغمض عينيه أو يطمس بصيرته ، ويرى بعد ذلك بعض الأديان والنحل تطلب عكس هذا ، فتقول « اعصب عينيك وسر وأنت أعمى » ، ثم تقول « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، وحتى دعاة الحرية الذين يطنطنون بها ، وتجرى بها أنهار الصحف ، وتشع بها نبضات الأثير ، لا

(١) آل عمران — ١٠٤ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود والترمذي ، حسن .

(٤) أخرجه الترمذي والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٥) رواه ابن ماجه ورواه ثقات .

يخرجون فى الحقيقة كثيرا عن هذا الإطار . وهذا ما عبر عنه أحد رواد الفكر الاشتراكى الفرنسى فى القرن التاسع عشر عندما قال : « لقد قيل للناس إنهم أحرار ، لكنهم أحرار ليفعلوا ماذا ؟ إن للناس حقوقا أساسية لا يمكن انتزاعها ، ولكن لم يتوافر للناس حق العمل من أجل الخير » ، أعطوا الحرية فى الشيء التافه فكانت كلاما ، ولقد عبر عن هذا المفهوم نفسه (أناتول فرانس) قائلا : لقد كان للناس حرية النوم تحت جسور باريس ،^(١) وقد أشار المربون والفلاسفة ودعاة الحرية إلى وجهات نظر متباينة حول تربية الشخصية الحرة ، فرأى « هيجل » أن تكون الحرية عن طريق استبعاد الذات ، ورأى « ميل » أن تكون الحرية من أجل الفردية ، ورأى « ديوى » أن الحرية تتم عن طريق التعاون ، ورأى « روسو » أن الطبيعة وحدها خير معلم ، ولنسمع إليه يقول « إذا كسر طفلك زجاج النافذة فدعه يتألم من البرد ، وإذا خالفك وخرج تحت المطر وتبللت ثيابه فدعه يمرض ، وبالاختصار ، دع الطبيعة تربي طفلك وفق قوانينها ونواميسها »^(٢)

وإذا نظرنا إلى بعض هذه الأقوال يظهر لنا من أول وهلة أن من يقول إن الطبيعة وحدها هى خير معلم يعبر عن قول مرفوض عقلا ، إذ ربما يأخذ الإنسان من الحياة بعض التجارب ، ولكن أن يترك الإنسان نفسه للطبيعة ، التى هى مجموعة من الفرائز والأهواء ، تسخر نفسه وجسمه معا لإشباع حاجته العضويه ، وأطماعه المادية ، وعرائزه الحيوانية ، ويقول الإنسان : إنها تربية ، هذا مالا يقول به سوى ، وأما ما نلاحظه من تضارب فى أقوال « هيجل » ، وميل ، وديوى ، وروسو ؛ فهو نتيجة طبيعية للفردية التى ينطلق فيها هذا التفكير ، فليس عندهم قاعدة اجتماعية صلبة ، أو أرضية دينية رصينة ، يبنى عليها تربية مستقرة سامية ، ولهذا جاءت متضاربة على هذا النحو ، لا تشفى غليلا ، ولا توضح طريقا ، أو تسعف محتاجا .

(١) معجزة الإسلام التربوية للدكتور محمد أحمد السيد ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

أما التربية الإسلامية فترتكز على دعامتين :

الأولى : الحرية في الأهواء ، فالإنسان يكون حرا في أن يمارس حريته بشرط أن يكون سيد نفسه ، فلا تستبد به أهواؤه ، أو تستعبده شهواته .

الثانية : عدم تعارضها مع الصالح العام ، فلا تتعارض حرية الفرد مع حق المجتمع بكامله ، فالإنسان حر ، ولكنه مسؤول في الوقت نفسه عن خير المجموع والصالح العام ، ويعنى هذا أن الحرية الإسلامية ترتكز على قطبين ، أحدهما شخصي ، والثاني اجتماعي ، والعامل المهيمن على ذلك كله هو الأسوة الحسنة ، وخير الناس ، ورضاء الله سبحانه .

ولقد تجلّى لنا ذلك في مثل ضربه رسول الله ﷺ لنا ؛ ليحدد تلك الأسس في حديثه القائل « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا في سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا ، ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » ،^(١) فتصور الإسلام عن الحرية ليس هو الحرية المتسببة ، ولكنه الحرية التي تبنى الإنسان والمجتمع ، وتنفع الناس ولا تدمرهم ، ولهذا رأيانهم يستعملون تلك الحرية في التقويم والإصلاح والنفع : يقف أحدهم أمام الحاكم بكل قوة ليقول له « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » ، والخليفة لم يغضب ، بل حمد الله على ظهور تلك الحرية وبروزها في الأمة فقال : « الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه »

٤ — الأخوة

ويقوم التصور الإسلامى للمجتمع على أساس متين من الأخوة ، وإخوة الإسلام تعمل في دائرتين .

(١) البخارى والترمذى . البخارى مظلّم ٣ / ١٠٢ ، ترمذى . متن — ١٣ .

الدائرة الأولى : —

الأخوة الإنسانية العامة : المتمثلة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ^(١) وهذه الدائرة تتبنى الحياة الجماعية التي تنتفى فيها عبودية البشر للبشر ، كما يتعد فيها الصراع العنصرى البغيض ، الذى ذاقت البشرية منه ماذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة تفريقا فى اللون والعنصر والجنس ، كما يتلاشى الاستعباد الطبقي والحزبى ، الذى يقطع الأُمم ، ويفرق الهمم ، ويؤسس العداوات . ولو تذكر الناس هذا التصور القرآنى وهذه الحقيقة لتضاءلت فى حسهم كل الفوارق المصطنعة والطارئة التى نشأت فى حياتهم ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وما كان يجوز أن تطغى على مودة الأرحام وحققها فى الرعاية وصلة النفس وحققها فى المودة والأخوة والسلام .

الدائرة الثانية : — وتتكون من دائرتين . الأولى :

دائرة الأخوة الإيمانية المتمثلة فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ^(٤) ، ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٥) ، ويقول الرسول ﷺ مؤكدا هذا المعنى « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ »

(١) النساء — ١ .

(٢) المحررات — ١٠ .

(٣) آل عمران — ١٠٣ .

(٤) التوبة — ١١ .

(٥) الحشر — ١٠ .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) .

والدائرة الثانية هي دائرة التجمع على المبدأ ، والدعوة إلى الخير ، وحمل لواء الطهر ، وركيزة الحضارة الإنسانية وتحمل تبعاتها ، فكان لابد إذاً من قيام جماعة تتلاقى على الإيمان بالله ، والأخوة على هذا الإيمان ؛ لتقوى على الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاها ضرورة من ضرورات هذا الدور الذى تقوم به الأمة المسلمة ، والتى اختارها الله للقومة عليه فى الأرض ، وحمل لوائه ، والدعوة إليه ، وتحقيقه ؛ لتسعد البشرية ، وتحيا حياة جديدة بالاحترام والتقدير ، كما أراد الله لها وصلة الدائرة الثانية بالدائرة الأولى : أن الدائرة الأولى تشعر التجمع المؤمن أنهم لا يفضلون غيرهم إلا بدرجة الإيمان والدعوة إليه ، وأن الدعوة إلى الإيمان يجب أن يلاحظ فيها عنصر الأخوة ، لا عنصر الاستعباد والتعالى والبغى والقهر والظلم ، فإن الرحم موصولة ، والإنسانية تسائل الجميع ، وتحاسبه بالأخوة العامة .

٥ — الاتحاد والتعاون

بعد أن أقام الإسلام المجتمع الإسلامى على أساس الأخوة ، أوجب على المسلمين الاتحاد والالتفاف حول راية القرآن ، وحول غاية واحدة ، وحرم عليهم الفرقة ، فقال جل شأنه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ (٤) وأوصى القرآن المؤمنين إن تنازعوا فى شىء أن يردوه إلى الله والرسول ، أى أن يردوه إلى قانون عام ، للتحاكم إليه ، وسماع حكمه ، والنزول على أمره ، والاختلاف من طبيعة

(١) أخرجه البخارى ومسلم وقد تقدم فى ص ٢٣١

(٢) آل عمران — ١٠٣ .

(٣) الأنفال — ٤٦ .

(٤) آل عمران — ١٠٥ .

البشر ، وليس عيباً أن يختلفوا وتتعدد آراؤهم ، وإنما العيب أن يورث هذا الاختلاف عداوة تزرع الأحقاد ، وتقطع أوصال الجماعة المؤمنة ، وتلهيها عن غايتها التي تسعى إليها ، وتعمل على تحقيقها ، ولهذا ردهم القرآن إلى عاصم من هذا الزلل ، فقال : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) .

والمجتمع الإسلامي لا يسعى إلى الخير أفراداً ، وإنما تتوافر فيه الجهود ، وتجتمع فيه العزائم ، وتتعانق عليه السواعد ، ويتعاون على البر والتقوى ، لاتقاء المحارم ، ومحاربة المنكرات والمفاسد ، وبند الإثم والعدوان ، وصيانة بناء المجتمع الإسلامي من كل الأمراض الاجتماعية ، التي تؤدي بالجماعات إلى التحلل والفناء ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٣) ، وأمة متحدة متعاونة يستحيل أن يداخلها وهن ، أو يختلط بغايتها ضعف ، أو تعرف الهزيمة ، كما يستحيل أن تقاوم في معركة أو تغالب في عقيدة ، أو تبارز في فكر ، وهذا هو ما كانت عليه الأمة المسلمة ، وما تكون عليه كل أمة تسير على طريقها وتنهج نهجها . والقرآن حتى في مواطن اليأس وساحات النزال يأمر بإصلاح ذات البين وتألف القلوب : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، ولقد أخذ المسلمون درساً قاسياً في أحد ، وكان سبب ذلك العصيان والفرقة ، حيث تلقوا ضربة ولطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً ، وردتهم إلى المدينة يعانون من مرارة الهزيمة وشماتة الأعداء . وقد وضع القرآن لهم أسباب هذا الابتلاء فقال ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ، وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (٥) ، وظل القرآن يعلم الصاحب المؤمن ،

(١) النساء — ٥٩ .

(٢) آل عمران — ١٠٤ .

(٣) المائدة — ٢ .

(٤) الأنفال — ١ .

(٥) آل عمران — ١٥٢ .

ويدرب عباد الرحمن ، وينقى جند الله ، حتى ذهب حظ الشيطان من نفوسهم ، وتعهدهم رسول الله بالنعيم ، التي تكون تراثا ضخما للأمة ، تحفظ حرمتها ، وتصون بيضتها ، وتعلو كرامتها إن سارت عليه إلى آخر الدهر ، فيقول الرسول ﷺ : « ستكون هنات وهنات . فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع ، فأضربوه بالسيف كائنا من كان » ^(١) إن الإسلام حريص على سلامة أمتة ، وحفظ كيائها ، وهو لذلك يطفىء بقوة بوادر الخلاف ، ويحسم بجد مقدمات الشقاق ، فيد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ في النار . ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ ^(٢) والإنسان صاحب اللب يدرك — لأول وهلة — أن تعاليم هذه القوة ، وعقيدة هذا العمق ، وثقافة بتلك الوضاعة ، تستطيع أن تأخذ بيد البشرية إلى خير يسعدها ، وفلاح يرشدها إلى ما تهوى وتحب .

٦ — الأخلاق والفضائل .

إذا أراد الإنسان أن يتعرف على الجانب الخلقى في الحضارة الإسلامية يجد منظومة درية شاهدة تبعد أن تسامى ، وترتفع أن تبارى ، أضوا من الشمس ، وأطهر من الثلج ، وأنقى من البرد ، فهي ليست تلك الأخلاق المجردة التي انحرفت بالفلاسفة وبعض مفاهيم الحياة الأخرى عن الحياة الواقعية للبشر ، وابتعدت عنها ، وحلقت بهم في سماء مثاليات جوفاء من القيم الواقعية التي تفرزها الحياة الاجتماعية والاقتصادية في واقع الحياة البشرية ، كما أنها ليست الحيوانية البهيمية الشاردة التي نزلت بالإنسان إلى الحضيض ، وجرت به إلى أسفل سافلين ، واتبعت نفسه هواها إن التعاليم الإسلامية في الفضائل والأخلاق جاءت لتنقل البشرية خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، فليست الأخلاق في التصور الإسلامي من مواد الترف ، أو من نافلة القول والعمل التي يمكن الاستغناء عنها ، بل هي أصل الحياة الإسلامية وشعبها التي تكون صرح المجتمع الإسلامي . ولو أحصينا أقوال صاحب الرسالة وأي الكتاب الكريم في التحلى بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسفر جامع ، لا يعرف مثله لأمة من الأمم وشعب من الشعوب وقد التزم ذلك

(١) أخرجه مسلم ٦ / ٢٢ مختصر ص ٣٣٤ .

(٢) النساء — ١١٥ .

صاحب الرسالة وصحبه حتى كان مثلاً في ذلك ، حتى قال القرآن فيه ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾^(١) ووصفه بالخلق العظيم والنفس النبيل فقال ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾^(٢) ، وقال ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﴾^(٣) ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾^(٤) وأما عن التوجيهات الأخلاقية لصاحب الرسالة فهي كثيرة ، تبين أصالة هذه الفضائل وصلتها العميقة بالعقيدة الإسلامية ، عن أسامة بن شريك قال : كنا نجلس عند النبي ﷺ كأن على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله تعالى قال : « أحسنهم خلقاً »^(٥) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً »^(٦) وعن أبي الدرداء رضى الله عنه أن النبي صلى الله قال ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يسهل الفاحش البذيء^(٧) وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال : « تقوى الله وحسن الخلق » ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج »^(٨) وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون . قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفهبون ؟ قال : المتكبرون »^(٩) وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه

(١) الأحزاب — ٢١ .

(٢) القلم — ٤ .

(٣) آل عمران — ١٥٩ .

(٤) التوبة — ١٢٨ .

(٥) الطبراني ورواته محتج بهم في الصحيح وابن حبان في صحيحه متفق عليه .

(٦) متفق عليه

(٧) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٨) رواه الترمذى وقال : حديث صحيح .

(٩) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

خلقه ^(١) » جمعت الأخلاق الإسلامية من الفضل لصاحبها ما رفعه إلى الآفاق عند الله وعند رسول الله وعند الناس ، فقد رأينا الأحاديث الصحيحة تضيف عليه من الصفات الكثير :

- ١ — من أحب العباد إلى الله تبارك وتعالى :
- ٢ — من أحب الناس إلى رسول الله ، وأكثرهم قربا منه يوم القيامة .
- ٣ — الخلق أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة .
- ٤ — أكثر ما يدخل الناس الجنة ، ويبعدهم عن النار ، وعن عذاب الله سبحانه .
- ٥ — من خيار الناس في الدنيا .
- ٦ — الخلق حسب المؤمن الذي يفتخر به ، ونسبه الذي يحرص عليه ، وأصله الذي يرفعه بين الناس والحقيقة أن الأخلاق والفضائل الإسلامية تكون منظومات وبروتوكولات ، شخصية ، واجتماعية وعامية « شعبية » ، كما يسمون ، وتضيف على المجتمع مسحة من الطهر والجلال والكمال والقوة ، وتحلق بالناس في أجواء من الأخوة الربانية والكرامة الإنسانية .

إيضاح :

نظر الإسلام إلى الحياة بمفهوم جديد رباني صحيح ، يدرّب الإنسان على استعمال ما وهبه الله إياه من حواس وطاقات وتصورات ، يعتمد في نظره هذا البحث والنظر والتقصي في طبائع الأشياء ومكوناتها ، وفي خواصها وتطوراتها ، في خلقها ونشأتها ، في إبداعها وجمالها وعطائها ، في تناسقها وبهائها . ولفت الإنسان إلى كل ذلك بوجدانه وروحه وفطرته ، لينظر إلى ما وراء ذلك من حكمة وغاية ؛ لينظر إلى الحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن ذهنه أو تفارق خياله ، ولا للحظة واحدة ، وهي أن هذه المخلوقات وتلك الحياة من خلق باري ، وصنع حكيم ، وتعريف قدير ، وأن هذا الإنسان وجد فيها ضاحك رسالة وحامل أمانة ، ومبلغ وحى ومنفذ تعاليم ، عابد غير معبود ، شاكر وليس بكافر ، نافع وليس بضرار ، بحياة

(١) رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

محدودة ، وعمر موقوت ، وعمل ملحوظ ، وفعل مجزى به ، ولهذا فهو محسوب خطوه ، معلود أنفاسه ، مرصود قوله ، مكتوب سعيه ، يفهم السعادة بمعنى آخر ، يفهمها في رضا ربه ، يعرفها في فعل الخيرات ، وعمل الطاعات ، وتحصيل القربات ، تزوده من تقواه قبل متاعه ، ومن إيمانه قبل عرضه ، ومن قيمه قبل بطنه ، لا يقعد عن الطيبات ، فما خلقت إلا له ، وما جاءت إلا لمتاعه ، فيبينه وبين الخبث حجاب ، والمنكر ستار ، يعمل للدنيا كأنه خالد لا يموت ، ويجتهد لآخرته كأنه يموت للحظة ويفنى لنوره ، ونظر الإسلام إلى الإنسان نظرتين : نظرة تكريم ، ونظرة تقييم . أما نظرة التكريم ، فقد أعطاه فيها كل ما به كرامته ، حفظه من كل ظلم وبغى وعن ، وجعله ببيان الرب ، وتولى رزقه وعطاءه وتوجيهه وإرشاده ، أطلق حريته ، واحترم إرادته ، وأجاب دعوته .

وأما نظرة التقييم ، فقد نظر إليه بمعيار خلقه ونفعه وعطاءه وإيمانه ، ونظر إلى المجتمعات بمنظار ما فيها من قيم ، من مساواة ، وعدالة ، وحرية ، وأخوة ، واتحاد ، وتعاون ، وفضائل ، فإذا كملت هذه الأوصاف ، ووجدت هذه النماذج كان الإنسان متحضرا ، وكان المجتمع كذلك . وإذا فقدت كان المجتمع غير متحضر ، وكان الإنسان فيه غير حضارى ، وإن رفل في النعيم وطار في الفضاء ؛ لأن الإسلام يبحث عن حضارة الإنسان ورقيه ، لا عن زخرفته البناء وعلوه ، يبحث أولا عن سعادة المكرم لا زخرفة المسخر ، لأنه منطقي في نظرتة ، واقعي في حكمه .



الفصل الثاني

**المناهج العلمية التي
قامت عليها الحضارة
الإسلامية**

المبحث الأول تعريف المنهج وتحديد معنى الكلمة

التعريف في العربية :

عرفت معاجم اللغة ومجامعها الكلمة ، فقال الجوهري في الصحاح : المنهج والمنهاج والنهج . هو الطريق الواضح . يقال أنهج الطريق : أى استبان ، وصار نهجا واضحا بينا .

قال يزيد بن الخذاق العبدى

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت سبل المسالك والهدى قعدى

أى : تعين وتقوى ، ونهجت الطريق إذا أبنته وأوضحته . يقال : اعمل على ما نهجته لك ، وفلان يستنهج سبيل فلان ، أى يسلك مسلكه .

وعرف مجمع اللغة العربية بالقاهرة تلك الكلمة بقوله : « المنهج هو خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ، ويتتبعها للوصول إلى نتيجة » (١) .

التعريف في غير العربية :

أصل كلمة المنهج في اليونانية تطلق على البحث أو النظر أو المعرفة ، وقد استعملها أفلاطون (٢) بهذا المعنى ، وترجم هذا المعنى إلى الفرنسية . methode ، وإلى

(١) الصحاح في اللغة والعلوم — إعداد نديم مرعشلى ، أسامة مرعشلى ط دار الحضارة العربية فى مادة — نهج —

(٢) أفلاطون — هو فيلسوف يونانى عاش ٤٢٧ — ٣٤٧ قبل الميلاد ، تعلم على سقراط ، وتأثر كثيرا بتعاليم فيثاغورث وبالنظام الأسارى وسقراط ، تعد فلسفة أفلاطون نموذج للمذهب المثالى ، وكانت نزعة أفلاطون =

الإنجليزية method، والمعنى الأصلى أصبح بعد الترجمة يدل على الطريق أو المنهج المؤدى إلى خطوات منظمة ، يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ، ليؤدى هذا إلى الغرض المطلوب .

ولم يأخذ معناه الاصطلاحي الحالى ، أى بمعنى أنه طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة فى العلم ، إلا ابتداء من عصر النهضة الأوربية ، فى القرن السابع عشر ، فقد تمت الخطوة الحاسمة فى سبيل تكوين المنهج ، فقام بىكون فى كتابه « الأورغانون الجديد سنة ١٦٢٠ بصياغة قواعد المنهج التجريبي ، وديكارت^(١) حاول أن يكتشف المنهج المؤدى إلى حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم ، وألف فى ذلك كتاب « مقال فى المنهج » سنة ١٦٣٧ ، وأتى أصحاب « منطق بور رويال » فى (الطبعة الأولى سنة ١٦٦٢) ، فعنوا بتحديد المنهج بكل وضوح ، وعرفوا المنهج بأنه « التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين ، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين ، حين نكون بها عارفين »^(٢).

فثمة إذن نوعان من المنهج : الأول : للكشف عن الحقيقة ، ويسمى التحليل أو منهج الحل ، ويمكن أن يدعى أيضا منهج الابتكار أو الاختراع .

والثانى : وهو الخاص ، بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها — ويسمى بمنهج التأليف ، ولكنه مع هذا التعريف لوحظ أنه عنى بالمنهج الرياضى الاستدلالي دون المنهج التجريبي ، ولكنه بعد ذلك عدل التعريف ، ليشتمل على المنهج التجريبي ، فصار معناه : الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة فى العلوم ،

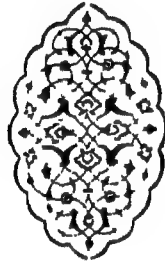
= السياسية تدفعه دوما إلى التفكير فى إصلاح المجتمع وإعداد الحاكّم الصالح ، وكانت التربية موضوعاً أساسياً فى فلسفته ، وقد تأثر بأفلاطون كثير من أصحاب الفكر من العرب وغيرهم .

(١) ديكارت رينيه — ١٥٩٦ — ١٦٥٠ — فيلسوف فرنسى وعالم رياضى ، تعلم فى المدرسة اليسوعية ، وأقام بهولندا للبحث والتأمل ، ابتكر الهندسة التحليلية ، يسمى بأبى الفلسفة الحديثة ، وقواعد ديكارت للبحث عن الحقيقة كانت أساساً للتربية الحديثة التى تهدف إلى تدريب العقل على التفكير المنظم الحر .

(٢) انظر مناهج البحث العلمى عبد الرحمن بدوى ص ٣ ، ٤ ، ٥ ط دار النهضة العربية ١٩٦٨ .

بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحديد عملياته ، حتى يصل إلى نتيجة معلومة ^(١)

وأصل اشتقاق الكلمة سواء كان في العربية أو الأوربية ينطلق من الوضوح والاستبانة ، وهو بهذا المعنى يدخل في التعريف الاصطلاحي الذي جاء بعد ذلك ، حيث أن التعريف الاصطلاحي يقصد به الوضوح والكشف عن الحقيقة ، وقد أخذ الاصطلاح من كلمة لم تبتعد كثيرا عن المعنى المراد ، الذي قصد به فيما بعد إثباته حقائق العلوم المختلفة والاستفادة منها ، كما هو الحال في العلوم الحديثة اليوم .



(١) المرجع السابق ص ٥ .

المبحث الثانى

أساس المناهج فى الحضارة الإسلامية

لا شك أن المنهج كما رأينا هو : البرنامج الذى يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة ، وقد يكون مرسوما بطريقة تأملية ، أو ربانية مقصودة ، وقد يكون نوعا من السير الطبيعى للعقل ، لم تحد أصوله سابقا ، ذلك أن الإنسان فى تفكيره قد ينظم أفكاره ويرتبها فيما بينها حتى تتأدى إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه ، على نحو طبيعى تلقائى ، فهذا منهج أيضا ، ولكنه منهج تلقائى . وقد تُحدد أسس هذا المنهج وتنظم أفكاره وترتب خطواته شريعة من الشرائع ، أو عقيدة من العقائد ، تؤدي إلى غرض معين وهدف مقصود ، وإذا كان المنهج كما علمنا هو : البرنامج الموصل إلى نتيجة معلومة ؛ فإن من الممكن أن نفهم المنهج بمعنى عام ، فتدخل تحته كل طرق تؤدي إلى غرض معلوم نريد تحصيله . فثمة على هذا الاعتبار منهج للتعليم ، ومنهج للتربية ، ومنهج للسلوك ، ومنهج للقراءة ، ومنهج للحياة ، ومنهج للدراسات على اختلافها ، ومنهج للوصول إلى نتائج مادية كما هو الحال فى العلوم العملية ، وفى الطب مثلا يوجد منهجان : وقائى من الجراثيم وغيرها ، ومنهج علاجي من الجراثيم والأمراض ، وإذا علمنا ذلك حق لنا أن نقول ما هى أسس المناهج الإسلامية للحضارة .

أساس هذه المناهج

الربانية :

المناهج الإسلامية المختلفة تتركز على قاعدة إيمانية ، تمت جذورها إلى أعماق الحياة الإنسانية جميعها ، تتغلغل فى العقيدة ، وتسرى فى الأخلاق ، وتختلط بالمادة ، وتظهر فى شؤون الحياة ، ولا ريب أن المجتمع المسلم له غاية فى الحياة ، كما له مثل

وقيم ، وأخلاق ومقاييس في المجتمع ، وأهداف خاصة ، ومزاج نفسى ، منبعث من عقائده وموروثاته ، كما أنه ينظر إلى كل شئ بمنظار معين ، ينظر إلى الإنسان برؤية ، وينظر إلى الحيوان برؤية أخرى ، وإلى الجماد بغير ذلك ، ثم يركز على الإنسان ، في حياته وفي سلوكه وفي غايته ، وفي هدفه ، فيحرر طاقاته كلها فكرية وعملية ، من الظنون والأوهام والخرافات والأهواء ، كما يخلصه من الجهل والعبودية لغير الله ، ومن سلطان الاستبداد والطغيان والشهوات ، ثم وجه الإسلام الفكر البشرى إلى ما ينفعه وصرفه عما يهلكه ويبدد طاقاته بغير نفع أو فائدة ، أبعد عن دوامة البحث وراء الطبيعة « عالم الغيب » ، وقدم له منهاجاً كاملاً يرضى أشواقه النفسية وحاجاته الروحية . وذلك حتى يفرغ لمهمته في بناء الحياة ، وتعمير الكون ، وتحقيق العدل والإخاء الإنسانى .

في مجال العقيدة ، ركز المنهج الإسلامى على هذه القضية ؛ لأنها قضية وجوده ، وقضية حياته ، ومصيره ؛ قضية علاقته بهذا الكون وبالأحياء فيه ، قضية تعامله مع هذه الكائنات والعوامل في هذه الحياة وما بعد الحياة ، فليست هذه العقيدة تصورات نظرية أو فلسفية ، تقوم على الفروض والشطحات ، أو على التصورات والتخيلات التى تتعامل مع الأفكار والظنون ، وإنما تتعامل مع واقع الإنسان ، ومع المجتمعات الواقعية القائمة ، فلا بد أن يكون للمسلم ارتباط معين مع ربه ، يشعر فيه ببر هذا الرباط ، كما يشعر فيه بطلاوة تلك العقيدة ، كما لابد أن يحس أن لهذا الاعتقاد مجال في حياته اليومية ، يكون له سلطان على نفسه بهذه العقيدة ، وعلى مجتمعه ، وعلى مسيرة الحياة في محيطه ، على تفكيره على سلوكه ، على ثقافته ، ولهذا كانت الأقوال بغير الأفعال في مجال الاعتقاد جريمة ومقت وبنفاق : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(١) ، ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٢) . فلا بد إذن من شعور واقعى قوى ، ينطلق بالفرد فيعيش به الواقع والحياة ، ولهذا استغرق زرع العقيدة في نفوس الرعيل الأول ثلاثة عشر عاماً في مكة ، كانت فترة عصيبة لاقت فيها الأهوال والمحن

(١) الصف / ٢ - ٣ .

(٢) المنافقون / ١ .

والشدائد والإحزن ، في كل يوم وكل قبيلة وكل مكان من المجتمع الجاهلي في مكة ، والصحب المؤمن والعقيدة الشابة ترسخ يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، إلى أن أصبحت كيان الفرد وحياته ، وبنت تلك العقيدة رجالاً خاض الإسلام بهم العالم ، وباعوا في سبيل عقائدهم الحياة الدنيا وزينتها ، إرضاء لربهم ، وحبا في عقائدهم .

ولهذا كان منهاج التربية العقائدية متأنياً واقعياً ، ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾^(١) ، ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾^(٢) .

وكان نبع هذه العقيدة رباني بحت ، كان هو القرآن والذكر الحكيم ، الذي يستقى منه الرعيل الأول ويتخرجون عليه ، رغم الحضارات التي كانت تجوب المعمورة آنذاك ، كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها على بضع خطوات ، وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ، ومنطقها ، وفلسفتها ، وفنها ، وكتبها ، وقوانينها ، التي ما تزال تنهل منه أوروبا وما يزال ينبوعها في التفكير والأسلوب حتى اليوم ، وكانت هناك على أطراف الجزيرة حضارة الفرس ، وسلطانها ، وتراثها ، وفنها ، وشعرها ، وأساطيرها ، وعقائدها ، ونظم حكمها ، وكانت هناك حضارة المصريين ، وآثارهم ، وفنهم ، وحضارة الهند ، والصين ، وما بلغت من لفت للأنظار ، وسحر للألباب ، وضغط على العقول ، وكل حضارة من هذه الحضارات بلغت من قوة الجند ووسطوة السلطان ومن العمارة وزخرف الحياة ما فغر الأفواه وسحر العقول وجبر الألباب ، حتى تغنى الشعراء والخطباء والبلغاء بمباهجهم وما آثرهم ومجالسهم ، وتمنى الكل أن يكون من خدامهم أو صنائعهم ، وكانوا إذا غضبوا روعت الدنيا ، وإذا رضوا تبسم الزمان ، وضحككت الأيام ، وانسحب هذا على صنائعهم وخدامهم ، فاكتمسوا من هيبتهم هيبة ، ومن قوتهم قوة .
وندل على بعض ذلك بمحادثة طريفة لأحد صنائع الفرس ، وهو النعمان بن المنذر ، مع شاعر العرب الفحل النابغة الذبياني ، فقد كان النابغة مقرباً من النعمان ، فغضب عليه ، وفر من النعمان وضاعت عليه الدنيا بما رحبت ، وأظلم الكون في عينيه ، ولم يجد مجيراً من النعمان ومن غضبه ، وظل يمدحه بقصائده حتى ملأ الدنيا ، يترضاه ويستعطفه ، وقد

(٢) القيامة ١٦ — ١٩ .

(١) الإسراء — ١٦١ .

وصف حيرته تلك بقوله « وإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع » . ووصف مهانة الخائف الذليل الذي عبد نفسه وهو حر ، وخطأ نفسه وهو برىء بقوله .

فبت كأن العائدات فرشني لى هراسا به يعلى فراش ويقشب
ثم يقول :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب
إلى أن يقول :

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب

هذا كان من خوف صنعة الفرس ، فما بالك بالفرس أو الروم . ومما يلفت النظر ويدعو إلى التفكير كيف لم يقلد المسلمون هذه الحضارات ، ودائما يولع الناس بالنظر إلى القوى ، وتقليد المهاب ، ومجارات صاحب السطوة ، ومما يدعو إلى العجب أن الحضارة الوليدة والإيمان الغض ، يعيب تلك الحضارات ، ويدعوها إلى التسليم ، ورفع الأيدي ، ونبد الأوهام ، والدخول فى دين الله . نرى ذلك فى كتب رسول الله ﷺ وسلم إليهم .

أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي^(١) برسالة إلى هرقل عظيم الروم : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين ، ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾^(٢) ويرسل الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي^(٣) إلى كسرى ، فذهب إليه عبد الله ، وأعطاه رسالة

(١) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فصالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج الكلبي صاحب رسول الله ﷺ ، وكان جبريل ينزل على صورته أحيانا ، أسد الغابة ٢ / ١٥٨ .

(٢) فتح الباري بشرح البخارى ١ / ٣٢ ، ٣٣ والآية من سورة آل عمران — ٦٤ .

(٣) عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم ، يكنى أبا حذافة ، أسلم قديما ، وصحب رسول =

رسول الله ، ولم يقبل أن يعطيها غيره ، ونصها « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجحوس^(١) . وهكذا نجد أن الإسلام برهانيته أراد أن يعبد الناس لربهم ، وأن يصلهم بخالقهم ، وأن يتركوا تلك الأوهام والأهواء التي أهلكتهم ، وإن سموها ثقافة أو حضارة أو مدنية ، أو أيا من الأسماء التي برزت وتبرز على سطح الأفكار الإنسانية المتقبلة .

ثم يلفت الإنسان ويسترعى انتباهه تلك الديانات التي كانت سائدة في الأرض وقتذاك : من يهودية ، ونصرانية ، وصابئة ، وقد كانت تعيش في قلب الجزيرة ، ولها كهنتها ، وسدنتها ، وكتبها ، وثقافتها ، ودندناتها ، وتعاويذها ، لِمَ لَمْ يأخذ عنهم الإسلام ، وتعرف من معينهم العقيدة الإسلامية أليس موسى نبيا ، وعيسى نبيا ، ومحمد نبياً ؟ وَلِمَ لَمْ يخرج محمد ﷺ كما خرج عيسى وأنبياء بنى إسرائيل داعياً ونبياً بالتوراة مبعوثاً عليها ، فلم يكن هناك إذن فقر في الحضارات العالمية والثقافات المحيطة ، حتى يلتفت المسلمون إلى كتاب جديد ونهج جديد ، وإنما كان ذلك لأن الحضارات السائدة والثقافات الموجودة كانت أوهاما ، وأهواء ، ومظالم ، واستعبادا لقوى الإنسان وكرامته ، وكانت الديانات والنحل الموجودة قد ضلت الطريق ، وحادت عن الغاية ، وحرقت الهدى ، وسارت في نفس الطريق الذي سار فيه المفسدون الضالون الجاهلون ، فاقتضى ذلك أن يرجع الناس إلى النبع الإلهي الصافي ، وإلى الشفاء الناجع ، وأن ينبذ الناس تلك الخرافات والأرجاس ، وأن يقصر الصحب المؤمن على هذا النهج المقصود ، والتصميم المرسوم ، والطريق الواضح ، حتى يتخرج جيل رباني كريم يملك طاقة إيمانية لو وزنت بأهل الأرض لرجحتهم ،

= الله ﷺ ، وأرسله بكتابه إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وكان في عبد الله دعاية ، توفي في خلافة عثمان رضي

الله عنه ، أسد الغابة ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ .

(١) أسد الغابة ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ .

ويُبدل على هذا غضب الرسول ﷺ ، وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة من التوراة ، وقوله له : « إنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى » كان المقصود إذن تربية جيل خالص القلب . خالص العقل ، خالص التصور ، خالص الشعور ، خالص التكوين ، من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يوضحه ويفصله القرآن الكريم . وكان المقصود ، أن يكون هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعرفها ، وعاداتها ، وروابطها ؛ فقد كان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية إن كان جاهليا ، وكل رجزه وهزجه ونفته ودندنته وما يعتقد ويقدر إن كان كتابيا ، ويقف من كل ذلك موقف المستريب التائب النادم ، الذى يرجو غفران الله وتوبته على ما فرط منه وبدر من سعيه وعمله ، ثم يقبل على الإيمان ، لا يرفع صوتا ، ولا يجهر بلفظ ، لأنه في محراب الوحي ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (١).

شمول الربانية لعالم الغيب :

إن تصور الإسلام للألوهية والوجود الكوني وللحياة وللإنسان ولواقعه في الحياة ، تصور شامل كامل ، واقعي إيجابي ، فإن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي ، وكذلك النظام الحيوي ، والواقع المعاش ، لا يختلف في لزميته عن سابقه ، فالعقيدة هي آصرة التجمع الأساسية في المجتمع ، وهي صادرة من إله واحد ، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر ، وليست نسيج أرباب أرضيين ، أو تأليف آلهة أدبية ، تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، وقهر الإنسان ، واغتصاب ماله وحرية وكرامته ، فالعقيدة في المنهاج الإسلامى ، نور كاشف يصل الإنسان بربه ، كما تعطيه تصورا كاملا عن خالقه وعن صفاته ، وجودا ، وخلقا ، وإبداعا ، وإنعاما ، وتفضلا ، ليعرف قدرته ويميز موضع قدمه : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن

(١) الحجرات / ٢ .

أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى ﴿١﴾، ﴿٢﴾ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴿٣﴾ ومعرفة هذه الأسماء تعطى تصورا لمعرفة صفاته سبحانه ، وما يجب على الإنسان إزاء هذه الصفات ، وهذه الأسماء ودلالاتها ، فمن كان منها على ذكر كان دائما في معية الربانية ، روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة » .

إن حقيقة الذات الإلهية لا يمكن للعقول معرفتها ، أو إدراك كنهها ، لأنها لا تحيط بها الفكرة ، أو تدركها النظرة ، فلا يستطيع البشر مهما بلغوا من الذكاء وقوة الإدراك وكثرة الوسائل أن يحيطوا بشيء منها ، وصدق الله ﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ فكان لابد من وحى إلهى يهدى الضال ، ويرشد الحيران ، أما إذا تركت العقول والأفهام ، بغير علم صحيح ، أو فهم مستقيم ، فإنها تتمزق وتختار ، وتتخرص وتتخيل ، ويجول في إدراكاتها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، وبعد ذلك تسقط في شباك شياطين الإنس والجن ، كما أن هناك أشياء لا يستطيع أن يدركها الإنسان ، ومع هذا تشغل حيزا كبيرا في تفكيره ، وقد يعتبرها غير المؤمن متاهات ، أو طلاس ، يجب كشف غموضها ، أو يعلم عنها شيئا ، وقد يفنى عمره دون أن يعرف شيئا من حقيقتها : مثل الملائكة ، والجن ، والروح ، والقضاء والقدر ، وهى أشياء يسمع عنها ويخالطها ، وقد يحس بوقعها ، فناسب لاستقرار النفس وهدهد الروح أن توضح ، ويعلم الصحيح من خبرها ، فوضحت العقيدة ذلك ، وأبانت أنهم من خلق الله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ^(٤) أعلمهم الله بخلق آدم ، ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ^(٥) . وأخبرنا أنهم ينزلون إلى الأرض بأمره سبحانه : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ،

(٤) التحريم — ٩ .

(٥) البقرة — ٣٠ .

(١) الإسراء — ١١٠ .

(٢) الأعراف — ١٨٠ .

(٣) سورة الأنعام — ١٠٣ .

وما كان ربك نسياً ﴿١﴾. ينزلون بالبشرى تارة ، وبغيرها أخرى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى . قالوا سلاما قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ ﴿٢﴾ وأنهم يتفاوتون ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ ﴿٣﴾ . عملهم التسييح لله سبحانه ، ويحملون عرشه : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ ﴿٤﴾ رفقاء في الجنة ، أو خزنة النار : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ ﴿٥﴾ ينزلون بالوحي : ﴿ قل من كان عدواً للجبريل فإنه نزل به على قلبك ﴾ ﴿٦﴾ .

كما أخبرنا عن الجن — فقال في طبيعتهم ، ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ ﴿ وأنهم كالبشر ، منهم الصالح ، ومنهم الطالح : ﴿ وأتانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ ﴿٨﴾ وأنهم مكلفون كالبشر ﴿ يامعشر الجن والإنسي ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشغلوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ﴿٩﴾ وأن الرسول ﷺ أرسل إليهم ، وسمعوا منه : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروهم قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ ﴿١٠﴾ لا يعلمون الغيب : ﴿ فلما خر تبئت الجن أن لولا كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ ﴿١١﴾ .

(١) مريم — ٦٤ .

(٢) هود — ٦٩ — ٧١ .

(٣) الصافات — ١٦٥ .

(٤) الحاقة — ١٧ .

(٥) المدثر — ٣١ .

(٦) البقرة — ٩٧ .

(٧) الحجر — ٢٧ .

(٨) الجن — ١١ .

(٩) الأنعام — ١٣٠ .

(١٠) الأحقاف — ٢٩ .

(١١) سبأ — ١٤ .

كما أخبرنا الحق عن الشيطان وحزبه ، وعن قصته مع آدم عليه السلام ، وعن عصيانه وتمرده ، وأنه عدو للإنسان : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (١) .

وأخبرنا عن الروح ، فعلمنا أن روح المؤمن طيبة كريمة ، وروح الكافر خبيثة لعينة ، وأن الأولى منعمة في برزخها ، وأن الثانية شقية فيه ، وأنها سر من أسرار الله سبحانه ، أخبرنا القرآن أن الإنسان مكون من مادة وروح : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) .

هذا في الخلق الأول .

أما في الخلق الثاني ؛ فإن الروح تنفخ في الجنين في بطن أمه عند مائة وعشرين يوما : فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قال حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ » (٣) وإن تلك الروح تفارق الجسد عند الموت : ﴿ فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٤) فلما الشهداء والصالحون ، فأرواحهم منعمة راضية : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء » يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » (٥) وأما القدر ، فقد أبان الحق سبحانه أن علمه سبق به ، وأن ذلك مسطور في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

(١) فاطر — ٦ .

(٢) ص — ٧١ .

(٣) بعض حديث رواه مسلم .

(٤) الزمر — ٤٢ .

(٥) أخرجه أحمد .

آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١﴾ .

وليس معنى سبق علم الله به أن الإنسان مجبر ، فإن العلم انكشاف ، وليس تدخلا في إرادة البشر ، فيما يتعلق بالأمور التكليفية ، أما في غيرها فهو مسير حسب قضاء الله وقدره وحكمته ، كالموت والحياة وغير ذلك . كما أن القدر : يعطى الإنسان الثقة والقوة ، يعطى الإنسان الثقة في أن كل شيء في الوجود يسير حسب حكمة عليا ، فإذا مسه الضر فلا يجزع ، وإن مسه الخير فلا يفرح ، فالكل إلى قدر مقدور ، وإذا برىء الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرج والبطر عند التوفيق والنجاح ، كان إنسانا سويا .

ربانية الشريعة :

وإما كون مناهج الشريعة ربانية ، فهي كذلك في الحقيقة في كل رسالة من عند الله تبارك وتعالى ، ولكن شريعة الإسلام امتازت بأنها جامعة ، راقية ، غضة ، حية ، كما هي من فم الوحي لا تغيير ولا تبديل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) وقد بعث الرسول ﷺ على شريعة تنظم شئون الحياة كلها : ﴿ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٢) . وأمر باتباعها وعدم الحيدة عنها : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) . وقد سمى القرآن من يُحِلُّ ويحرم بغير شرع الله ربا أخذ صفة الألوهية ، فقال في شأن النصاري ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) فقال عدى بن حاتم الطائي : ما كنا نعبدهم يارسول الله ، فقال الرسول ﷺ : أليسوا كانوا يُعْبَدُونَ لَكُمْ وَيُحَرِّمُونَ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ (٥) . والنصاري ما كانوا يتقدمون

(١) الحديد ٢٢ — ٢٣ .

(٢) الشورى — ٣ .

(٣) الأنعام — ٣٨ .

(٤) الحائية — ١٨ .

(٥) التوبة — ٣١ .

(٦) الترمذى في أبواب التفسير .

للأخبار والرهبان بالشعائر التعبدية ، وما كانوا يعتقدون ألوهيتهم ، إنما كانوا فقط يعرفون لهم بالحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله ، ولهذا جاء القرآن صريحاً في اتباع شرع الله وعدم الحيدة عنه ، وعد من يلجأ إلى غيره في عداد الكافرين بالله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (١) . ويقول في الذين يتحاكمون أو تميل نفوسهم إلى غيره ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ إلى أن يقول : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٢) . ويقرر ويأتي الرسول مشرعاً بعد القرآن ، ليحدد معالم الشريعة وبينها ويفسرها : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٣) . ودائماً أبدا نجد أمور الشريعة تقتن بأمر العقيدة الربانية ، ولا تنفصم عنها ، بل يكمل كل منهما الآخر ، ويكون عوناً له ، وتثبيتاً لأركانه ، ويأخذ بعضه بحجز بعض ، ونجد القرآن يوضح ذلك ويقرن كلا بالآخر ، فيقول ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٤) . وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال والجهاد ، وتجعلها كلاً لا يتجزأ ، ووحدة لا تنفصم ، الإيمان هو محرك النفس ، وباعث الهمم إلى الخير ، فإذا لم تبعث هذه الهمم ، أو توقد تلك العزائم ، كان هذا دلالة على ضعف الإيمان ، أو تلاشيهِ . والآية تعطى خلاصة واضحة للتصور الإسلامى ، ولبادئ المنهج الإسلامى المتكامل ، التى لا يستقيم بدونها إسلام ، إذ لابد أن تقتن العقيدة بالعمل لمبادئ تلك العقيدة . وبمبادئ تلك

(١) المائدة — ٤٤ .

(٢) النساء — ٦٠ — ٦٥ .

(٣) الحشر — ٧ .

(٤) البقرة — ١٧٧ .

العقيدة ، لابد وأن تكون ربانية ، موجه إليها من السماء ، من آفاق عالية ، يرفع الله الناس إليها ، ويرسم لهم طريقها واضحا بعيدا عن أهواء الناس وشهواتهم . ينبع أساسا في كل خطوة من خطواته من العقيدة والتقوى ، فترى القرآن يتكلم عن القصاص ، وهو أمر من أمور تنظيم الحياة ومنع الجريمة ، ويتكلم عن الوصية عند الموت ، ثم عن شعيرة الصوم ، وشعيرة الاعتكاف ، وغيره ، ويصل كل ذلك بالتقوى التي هي الأساس ، ففي التعقيب على القصاص ترد الإشارة إلى التقوى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) وفي التعقيب على الوصية : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) . وفي التعقيب على الصيام : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(٣) . ثم ترد الإشارة بعد الصيام إلى الاعتكاف : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ^(٤) . ثم ترد الإشارة في الطعام إلى التقوى ، ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾ ^(٥) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٦) ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(٧) . ثم ترد الإشارة إلى التقوى في المعاملات وفي التحذير من الربا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ^(٨) ، ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ^(٩) . وترد الإشارة إلى التقوى في الجهاد والحرب والغلبة

(١) البقرة — ١٧٩

(٢) البقرة — ١٨٠ .

(٣) البقرة — ١٨٣ .

(٤) البقرة — ١٨٧ .

(٥) المائدة — ٩٣

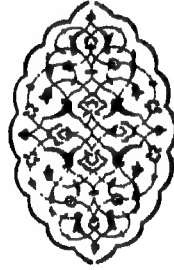
(٦) الأعراف — ٩٦

(٧) الطلاق — ٢ .

(٨) البقرة — ٢٧٨ .

(٩) آل عمران — ١٣٠ .

على الأعداء : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَاتُّمَّ أَذِلَّةٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) ، ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) . كما ترد التقوى في العدل : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ^(٥) . فَنَرَى أَنَّ الريانية تُحْكَمُ كُلُّ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَقُومُ الْمُسْلِمُ بِهَا ، وَيَعِيشُ فِي جَوْهَا ، فَلَا يَنْطَلِقُ إِلَّا مِنْهَا ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ مَعِينِهَا ، لِتَكُونَ طَاهِرَةً خَالِصَةً تَتَرَى الْمُجْتَمَعَ ، وَتَرْكِيهِ ، وَتَرْفَعُهُ نَفْسًا وَرُوحًا وَمَادَّةً وَحَيَاةً .



(١) آل عمران — ١٢٥ .

(٢) آل عمران — ١٢٣ .

(٣) آل عمران — ٢٠٠ .

(٤) المائدة — ٨ .

(٥) المائدة — ٢ .

المبحث الثالث المناهج العلمية للشريعة

اعتمدت الشريعة في مناهجها العلمية على مصدرين : المصدر النقلى ،
والمصدر العقلى . وهذا الأخير يدور فى الحقيقة فى فلك المصدر الأول .

المصدر النقلى —

مصدر الأحكام فى الشريعة الإسلامية هو الوحي من الله سبحانه ،
والرسول ﷺ مبلغ لشرع الله سبحانه ، فإذا أطلق على الرسول ﷺ لفظ
الشارع ؛ فإنه باعتبار أن هذه الأحكام لا تعرف لنا إلا عن طريقه ﷺ ، أما
تسمية عمل المجتهد — كما فعل الشاطبى فى بعض المواطن — تشريعاً ؛ فهو
من قبيل التسامح والتساهل ، لأن المجتهد باجتهاده ما هو إلا كاشف مظهر
لحكم الله . وفى هذا يقول الشيخ السنهورى حول هذا المعنى : إن الدليل
الحقيقى ، والمصدر الوحيد للتشريع الإسلامى ، والفقه الإسلامى بأجمعه ،
هو : الوحي الإلهى ، وإن مرد الإجماع والقياس إليه ، وإن المصادر الأخرى
ليست مصادر خارجة عن الأربعة — الكتاب ، السنة ، والإجماع ،
والقياس^(١) .

المصادر النقلية الموحى بها :

١ — القرآن : وهو اللفظ العربى ، المنزل على محمد ﷺ ، المنقول

(١) راجع إرشاد الفحول ص ٢٤٥ ، ومقدمة الجزء الأول من موسوعة الفقه الإسلامى فى القاهرة ص ١٧ ، ١٩ .

إلينا بالتواتر ، والمبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس ، والمجموع بين دفتي المصحف ، المعجز ، المتحدى به . وقد حوى القرآن من المعارف والأحكام والمناهج الخلقية والتربوية ما عجزت عن الإتيان بمثله الإنس والجن ، وفوق ذلك حوى من القصص والعبر ، والأخبار والحوادث ما بصر البشرية بماضيها وحاضرها . كما ذكر كثيرا من الآيات الكونية والخلقية ، فبهر العقول ، وحير الألباب . كما تعرض لأسرار الخلق ، وتطور الأجنة ، والإحياء والإماتة ، والزروع والنبات ، والسحاب والماء ، وأسرار الأرض والسماء ، ودوران الأفلاك والكواكب ، وفتح الآفاق أمام العقول ، وحثها على البحث والنظر .

— منهج القرآن في بيان الأحكام —

— والأحكام التي جاء بها القرآن متنوعة — ، منها : الأحكام والعقائد التي توجه ناحية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويستتبعها الكلام على كثير من الآيات الكونية التي تظهر جلال الله وقدرته وصفاته ، ومنها : ما يتعلق بخلق الإنسان وتكوينه ، ومنها : الأحكام الوجدانية ، التي تعمل على تهذيب النفوس ، وتقويم الخلق ، وإلى ما ينبغي أن يتحلى به الإنسان ، ومنها : الأحكام العملية ، التي تتعلق بما يصدر عن المكلفين من أقوال وأفعال ، التي تتعلق بعلاقاتهم بالله ، أو بعلاقاتهم ببعض ، أفرادا وجماعات في السلم والحرب .

ويستعمل القرآن في منهجه — الترغيب والترهيب — والثواب والعقاب ، في الدنيا والآخرة ، كما يستعمل التنبيه ، وإيقاظ العقل ، واستدرا العواطف ، وإثارة النخوة ، وسوء العاقبة ، من أمثال قوله تعالى — ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ^(١) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا

(١) الطارق — ٥ .

عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾ ، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ﴿٢﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَثْخَنَتْهُمُ قَشْدُوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ﴿٣﴾ ، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ﴿٤﴾ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ﴿٥﴾ ، ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿٦﴾ . وهكذا فإن أساليب القرآن التكليفية متنوعة ، حسب الأحوال والمواقف والأعمال .

٢ — السنة :

السنة بيان للقرآن ، وتفصيل لمجمله ، وتوضيح لمبهمه ، فهي والقرآن متلازمان ، وهي منه في جملة ما بمنزلة المذكورة التفسيرية للقانون ، وقد عرفها الأصوليون بقولهم : ما صدر عن الرسول ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير .
أنواعها :

ومن تعريف السنة التي ذكرناه يبين لنا أنها ثلاثة أنواع .

سنة قولية :

وهي ما يعبر عنها الأصوليون ، بالحديث أو الخبر ، من كل ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من أقوال تتعلق بتشريع الأحكام ، مثل قوله ﷺ « نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْ أَحَدِيْنَا ، فَحَفِظَهُ وَبَلَّغَهُ غَيْرُهُ ، قُرْبٌ حَامِلٌ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ : ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَمَنَاصِحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ ، وَلِزُومُ

(١) النساء — ٩ .

(٢) المائدة — ٣٨ .

(٣) محمد — ٤ .

(٤) البور — ٢ .

(٥) النور — ١٩ .

(٦) المحل — ١٢٦ .

الجماعة فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ» (١).

سنة فعلية :

وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ من أفعال ، بقصد التشريع ، مثل : وضوئه ، وصلاته ، وحجه ، وقطعه يد السارق اليمنى ، ومثل ما روى عنه أنه حجز على معاذ ماله ، وباعه عليه في دين كان عليه ، ونحو ذلك .

سنة تقريرية :

وهي أن يسكت النبي ﷺ عن إنكار فعل أو قول صدر في حضوره أو غيبته وعلم به ، أو يوافق عليه ويظهر استحسانه ، مثل ما روى أن النبي قدم المدينة وأهلها يَسْلِفُونَ في الثمار السنة والسنتين . والرطب ينقطع فأقرهم على ذلك .

٣ - شرع من قبلنا :

شرع الله سبحانه قبل شريعة الإسلام شرائع أخرى ، تناولت أحكاما ، جاء ذكر بعضها في القرآن والسنة (٢).

منها : ما نسخته شريعتنا وأبطلت حكمه ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ، أَوِ الْحَوَايَا ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ (٣). وقول الرسول ﷺ : « أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي » (٤).

ومنها : ما أمرنا باتباعه ، كقول القرآن : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ .. ﴾ (٥) ورأى الجمهور أن شرع من قبلنا حجة علينا إذا لم يرد

(١) رواه الترمذى وأحمد وإسحق عن ابن مسعود . وقال العزيمى : صحيح الإسناد ، العزيمى ٣ / ٣٨٣ .

(٢) راجع في ذلك فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت مطبوع مع المستصفي للقرال ٢ / ١٨٣ / ١٨٤ .

(٣) سورة الأنعام — ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن حابر بن عبد الله وهو جزء من حديث ، أنظر الجامع الصغير ١ /

٢٤٧ .

(٥) البقرة — ١٨٣ .

ما يلغيه ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ الْفَسْ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ﴾ (١) ، فإن الآية تفيد أن حكم التوراة هو هذا ، وقرر الجمهور الاستدلال بها على ثبوت القصاص بين المسلم والذمي ، وبين الرجل والمرأة .

المصادر غير النقلية للشرعة :

هناك بعض المصادر يستند إليها الفقهاء ، أو بعضهم ، في استنباط الأحكام ، ويعتبرونها مصدرا لهم في الأخذ والاستنباط .

١ — الإجماع :

الإجماع هو : المصدر الثالث من المصادر المتفق على أصل حجيتها عند جمهرة المسلمين ، وقد اختلفوا في تعريفه تبعا لاختلاف مفهومه عند كل ، فهو عند جمهرة الأصوليين : اتفاق مجتهدى الأمة الإسلامية في عصر من العصور بعد عصر الرسالة على حكم شرعى عفى . ومن العلماء من يرى أن الإجماع يتحقق باتفاق أكثر المجتهدين ، ويرى مالك أن الإجماع يتحقق باتفاق فقهاء المدينة ، ونقل عن أحمد بن حنبل القول بإجماع الخلفاء الأربعة .

شروط الإجماع :

لا بد لتحقيق الإجماع عند جمهرة الأصوليين أمور .

١ — أن يكون الإجماع بعد وفاة الرسول ﷺ ، إذ في حياته يكون هو مصدر التشريع بالوحي .

٢ — أن يجتمع المجتهدون في الأمة الإسلامية على رأى ، فلو أجمع غير المجتهدين على رأى لا يكون إجماعا .

٣ — أن يتفق جميع المجتهدين فلا يشذ عنهم أحد .

٤ — أن يكون ما أجمعوا عليه حكما شرعيا قابلا للاجتهاد ، مثل ما يتعلق

(١) سورة المائدة — ٤٠ .

بالحل والحرمة ، والصحة والبطلان ، مما لم يرد فيه نص قطعى الثبوت والدلالة .

٢ - قول الصحابى :

والصحابى الذى يبحث فى حجية قوله هو : من آمن برسول الله قبل فتح الحديبية ، والتقى به ، وغزا مع المسلمين غزوة أو أكثر ، واشتهر بالفقه والفتوى ، وتوافرت لديه الملكة الفقهية . وإن كان من الأصوليين من قال : إنه من لقى النبى ﷺ مؤمناً ، وطالت صحبته ، حتى أصبح يطلق عليه اسم الصحاب فى عرف الناس^(١) . قول الصحابى حين يقول : كنا نفعل كذا ، ونقول كذا فى زمن الرسول ﷺ ، أو وهو بيننا ، أو فينا ، ونحو ذلك ، فإنه يعتبر سنة فى الحقيقة رواها الصحابى . وقد خالف فى حجيته بعض الفقهاء^(٢) .

٣ - العرف :

العرف والعادة : هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ، أو ما يعتاده الناس ذوو الطباع السليمة فى أهل قطر إسلامى ، بشرط ألا يخالف نصاً شرعياً^(٣) .

وقد يكون العرف عملياً ، وهو ما جرى عليه عمل الناس فى حياتهم ، وتعارفوه فى تصرفاتهم ، وقد يكون قولياً ، كتقيد لفظ الدابة بذوات الأربع . مع أن الأصل اللغوى لها : كل ما يدب على الأرض . وقد اعتبر الفقهاء العرف الصحيح فى الجملة ، وأخذوا به كدليل يرجع إليه لمعرفة الأحكام الفقهية ؛ إذا أعوزها النص ، ويجب على المجتهد مراعاته . ومن أقوالهم « المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً » .

المصادر العقلية للشرعة :

الأدلة العقلية فى مصادر الشريعة الإسلامية كثيرة ومتنوعة ، نشير إليها إشارة

(١) انظر كتاب أصول الفقه لخلاف ص ٩٤ الطبعة التاسعة .

(٢) إرشاد الفحول للشوكانى - ٢٢٦ ، وكشف الأسرار للردوى ص ٩٢٧ ، المستصفى للغزالى ١ / ٢٦٠ .

أعلام الموقعين ٤ / ١٤٠ ، الموافقات للشاطى ٤ / ٤١ .

(٣) المستصفى ١ / ١٧ ، والموافقات ٢ / ١٧٩ ، ١٩٩ .

في هذا المجال ؛ لنبرهن على أن الشريعة الإسلامية مرنة تساهل كل زمان ومكان ، لأنها جاءت لكل زمان ومكان ، ترعى مصالح الناس وأحوالهم ، لتصلحها وتركيها وتطهرها ، لأنها جاءت لإسعاد الناس في الدنيا ، ورفع الحرج والعنت عنهم ، ومن هذه الأدلة العقلية : القياس ، والاستحسان والاستصلاح ، واستصحاب الأصل ، وسد الذرائع ، والاستقراء ، والاستدلال ، والأخذ بأقل ما قيل ، ونفى الحكم لنفي الدليل ، والإباحة الأصلية ، ودلالة الإبهام ، ونكتفى بتعريف كل .

١ - القياس :

عرف الأصوليون القياس بأنه : تسوية واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد نص بحكمها في الحكم الذي ورد به نص ، لتساوى الواقعتين في علة الحكم^(١). والقياس هو أول طريق يلجأ إليه المجتهد للتعرف على حكم الشرع فيما لم يرد به نص خاص . وهو أوضح طرق الاستنباط وأقواها ، ومثل ذلك ما ورد في الحديث : « لا يرث القاتل » ، فإذا تبين أن قصد الشارع منع الوارث القاتل من الميراث لتعجله الإرث قبل أوانه — ثم عرضت مسألة أخرى — وهي قتل الموصى له للموصى ، فمنع كذلك من أخذ الوصية لتعجله الوصية قبل أوانها ، ولا نطبق العلة عليه في الواقعة الأولى .

٢ - الاستحسان :

وقد عرفه الكرخي من الحنفية وابن رشد من المالكية والطوفي من الحنابلة وغيرهم ، وأجمع تعريف له هو : « العدول عن حكم اقتضاه دليل شرعي في واقعة إلى حكم آخر فيها ، لدليل شرعي اقتضى هذا العدول » . وهذا الدليل الشرعي المقتضى هو سند الاستحسان^(٢). مثال ذلك عند الحنفية سؤر سباع الطير كالصقر والنسر والغراب والحدأة نجس قياساً ، طاهر استحساناً ، فالقياس إعطاؤه حكم سباع البهائم كالذئب والفهد ، لأن الكل غير مأكول اللحم ، والاستحسان قياسها

(١) المستصفي للعرالي — ١ / ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) المستصفي للعرالي ١ / ٢٧٤ والأحكام للآمدي ٤ / ٢١١ ، كشف الأسرار للبردوي ٤ / ١١٢٤ التوضيح =

بالإنسان لأنه لا يؤكل لحمه ، وسؤره طاهر ، ووجه الاستحسان أن سباع الطير تشرب بمنقارها وهو عظم طاهر ، أما سباع البهائم فتشرب بلسانها المختلط بلعابها المتولد من لحمها ، .

٣ - الاستصلاح :

وهو في اصطلاح الأصوليين : « تشريع الحكم في واقعة لا نص فيها ولا إجماع ، بناء على مراعاة المصلحة المرسله ، لأن الشرع لم يأت فيها بدليل اعتبارها أو إلغائها ، ولم يتركه العلماء على عواهنه ، وإنما جعلوا له ضوابط تطلب في الكتب المتخصصة ^(١) .

٤ - الاستصحاب :

عرفه الأصوليون بتعريفات كثيرة ، ترجع في جملتها إلى معنى استبقاء حكم ثبت في الزمن الماضي على ما كان ، واعتباره موجودا مستمرا ، إلى أن يوجد دليل يغيره . فكل أمر علم وجوده ، ثم حصل شك في عذم وجوده ، حكم ببقائه استصحابا للأصل والعكس . فمن علم أنه متوضئ ثم شك في طرؤه الحدث على وضوئه فإنه يحكم بطهارته وبقاء وضوئه ، استصحابا للأصل ، إذ اليقين لا يزول بمجرد الشك . وذلك بخلاف من شك أنه توضحاً أم لا ، حيث يلزمه هنا الوضوء ومن شك في طلاق زوجته ؛ فإن الحل يلزمه حتى يعلم خلافه ^(٢) .

٥ - سد الذرائع :

عرفه علماء الأصول بقولهم : ما يتوصل به إلى شيء ممنوع مشتمل على

= لصدر الشريعة ٣ / ٢ التحرير وشرحه لكمال ٤ / ٧٨ — مصادر التشريع الإسلامي لعبد الوهاب خلاف ص ٧١ .

(١) انظر رسالة الطوفي طبع مطبعة الأزهر سنة ١٩٦٦ ، وإرشاد الفحول ص ٢٤٢ الطبعة الأولى ، الاعتصام ٢ / ١١١ الموافقات للشاطبي ٢ / ٨٠ ، أعلام الموقعين ١ / ١٩٦ ، ٣ / ١٤ ، ٢٢ .

(٢) المستصفى للغزالي ١ / ٢١٧ ، التحرير وشرحه ٤ / ١٧٦ ، إرشاد الفحول ٢٣٧ الأحكام للآمدي ٤ / ٢٨٥ ط دار الكتب تاريخ التشريع الإسلامي لسلام مذكور ٢٦٥ ط الثانية ، موسوعة الفقه المجلس الأعلى ٧ / ٦٧

مفسدة . يقول ابن قيم الجوزية « الذريعة ما كان وسيلة وطريقة إلى شيء »^(١) . ويلاحظ في الذريعة أن فيها معنى كونها وسيلة مفضية إلى المقصود بالحكم ، كما أنه لا يلزم في الذريعة المفضية إلى مفسدة أن يكون وجود هذه المفسدة متوقفاً عليها هي . فالزنا حرام منهي عنه ، والنظر إلى عورة الأجنبية حرام أيضاً ؛ لأنه يؤدي إلى الفاحشة ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾^(٢) ؛ إذ مثل هذا وسيلة إلى الافتتان بالمرأة ، وإن كان الافتتان بها لا يتوقف على ذلك الفعل . ومن أراد المزيد فعليه بكتب الأصول .

٦ — الاستقراء :

ويعرفه المناطقه بقوهم : تتبع الجزئيات المتشابهة لاستنباط أمر كلي منها ، ومثلوا له بقوهم : كل إنسان يحرك فكاه الأسفل عند المضغ ، إلخ . ثم يقسمونه قسمين : ناقص إذا كان غير مستوعب لجميع الجزئيات ، وتام وهو ما تتبع فيه جميع الجزئيات . ويعرفه الأصوليون بقوهم — الاستدلال بثبوت الحكم في الجزئيات على ثبوته للقاعدة الكلية^(٣) .

مرونة مصادر الشريعة :

مما قدمنا يتبين لنا أن مصادر الشريعة السمحة مرنة ، تأخذ بالنصوص القرآنية التي جاءت بكلليات المصالح ودرء المفسدات ، وجاءت السنة فبينت ووضحت وفسرت في رحمة ويسر من غير حرج ولا ضرر ولا إعنات نصوص الكتاب وفصلته . ثم أخذت الشريعة بشرع من قبلنا ، مما أقره الكتاب والسنة ، ثم أقر الإسلام الاجتهاد العقلي على طريق تلك النصوص ، وفي ظل هذه المبادئ الكلية ، وفي إطار مصالح الناس وحاجياتهم ، بحيث لا تصادم لهم عرفاً صحيحاً ولا عادة سليمة .

(١) أعلام الموقعين ج ٣ / ١٤٧ ، الموافقات للشاطبي ٤ / ١١٣ .

(٢) سورة النور — ٣١ .

(٣) نهاية السؤل شرح المنهاج ١ / ١٢٠ ، ٣ / ١٣٠ .

ونستطيع أن نلخص أسباب المرونة فيما يأتي :

١ — النصوص التشريعية التي وردت في القرآن ، ليست دلالتها مقصورة على الأحكام التي تفهم من ألفاظها وعباراتها ، بل هي تدل أيضا على أحكام تفهم من روحها ومعقولها ، ولهذا قسمت دلالتها إلى : دلالة النص ، ودلالة المفهوم .

٢ — النصوص التشريعية التي وردت في القرآن جاءت مقرونة بعلمها ، وليست أحكاما مجردة عن علمها ، والمصالح التي شرعت لها .

٣ — المبادئ التشريعية التي شرعت أحكامها في فروع القوانين المختلفة من مدنية وجنائية وغيرها جاءت عامة ، وقوانين تشريعية كلية ؛ لتكون هادية للمجتهدين في التشريع بما يحقق مصالح الناس .

٤ — قررت السنة أنه لا ضرر ولا ضرار ، كقوله عليه السلام « يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » وقول الرسول « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رَحْمَتُهُ ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ » ، وقوله ﷺ « الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلَّا شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا » ، وقوله ﷺ « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيُكْفِرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ » .

٥ — العمل بالقياس والاستحسان والاستصلاح والعرف وغيره من الأمور العقلية التي اعتمد عليها الفقهاء في التشريع والاجتهاد ، جعل الشريعة الإسلامية جديدة دائما ، تأخذ كل يوم من نبع الكتاب والسنة ، والعقل المؤمن الملتزم بمصالح الناس لا بالأهواء والأضاليل والشطحات التي لا يضبطها ضابط أو برهان .

مقاصد الشريعة :

مما هو معلوم أن الشريعة قصدت من مناهجها ، ومن تشريع الأحكام : تحقيق مصالح الناس الضرورية ، والحاجية ، والتحسينية .

فالأموال الضرورية :

ترجع إلى رعاية خمسة أشياء ؛ الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال .

الدين : — فالدين هو : مجموعة العقائد ، والعبادات ، والأحكام ، والقوانين التي شرعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس برههم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، كما شرع لحفظها ومن العدوان عليها : الجهاد ، وعقوبة الارتداد ، وعقوبة الابتداء ، وغير ذلك .

النفس : — وشرع الإسلام لها الزواج للتوالد والتناسل وبقاء النوع ، وشرع لحفظها ما يقيم أودها من طعام وشراب ومسكن وملبس ، ولصيانتها القصاص والدية والكفارات ، ودفع الضرر عنها ، وعدم تعرضها للتهلكة .

العقل : — وشرع لحفظه تحريم الخمر وكل مسكر ، وعقاب من يشربها أو ييسرها .
العرض : — وشرع لحفظ العرض حد الزنا ، وحد القذف .

المال : — وشرع الإسلام لتحصيله وكسبه ؛ إيجاب السعى ، وإباحة المعاملات التجارية ، والمضاربة ، وشرع لحفظه حد السرقة ، وتحريم الغش ، والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وضمان تلف مال الغير ، والحجر على السفية ، وتحريم الربا .
ومن هذا يتبين أن الإسلام أحاط الفرد من كل جوانبه وحافظ عليه ورعاه .

الأموال الحاجية :

الأموال الحاجية هي التي ترفع الحرج عنهم ، وتخفف عليهم أعباءهم ، وتيسر عليهم الحياة وقد رفع الإسلام الحرج في تكاليفه ، فشرع الرخص تخفيفا عن المكلف ، فأباح الفطر في رمضان للمسافر ، ولمن كان مريضا ، وكذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر ، والتميم ، وغير ذلك من الرخص في العبادات وفي المعاملات ، شرع كثيرا من أنواع العقود والتصرفات التي تقتضيها حاجات الناس ، كأنواع البيوع ، والإيجارات ، والشركات والمضاربات ، والسلم ، والاستصناع ، والمزارة ، والمساقاة .

كما شرع الطلاق لتفريج الكرب عند الزوجين ، كما أحل الصيد ، وأحل الشارع ميتة البحر ، وجعل الدية على العاقلة ، والآيات الكثيرة لدفع الحرج تشير إلى ذلك كقوله تعالى ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ ^(١) وقوله سبحانه ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٢) ، وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٣) ، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ^(٤) .

الأمر التحسينية :

شرع الإسلام أموراً تحسينية ، ترجع إلى كل ما يحمل حالهم ، ويجعلها على وفاق ماتقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق . شرع ذلك في كل أبواب العبادات والمعاملات والعقوبات ، حتى تكون على مستوى من القبول النفسى والجمالى ، وتعود الناس أحسن العادات ، وترشدهم إلى أحسن المناهج وأقومها . ففي العبادات شرعت الطهارة للبدن والثوب والمكان وستر العورة ، وندب أخذ الزينة والتجمل والتعطر ، وكذلك في كل عبادة شرعت لها آداب معينة تحفظها ، وتحيط سياجها بالرعاية والجمال : ﴿ تَخَذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ^(٥) ، ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ ^(٦) ، ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ^(٧) ، ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ ^(٨) ، وفي المعاملات : حرم الإسلام الغش ، والتدليس ، والتغدير ، والإسراف ، والتعامل فى النجس ، وفي العقوبات : حرم فى الجهاد قتل الرهبان ، والصبيان ، والنساء ، ونهى عن المثلة والغدر .

(١) المائدة — ٦

(٢) الحج — ٧٨ .

(٣) البقرة — ١٨٥

(٤) النساء — ٢٨ .

(٥) الأعراف — ٣١ .

(٦) الحل — ٨ .

(٧) المدثر — ٤ .

(٨) التوبة — ١٠٨ .

إيضاح :

بالنظرة البديهية إلى المنهاج الإسلامى نجد أنه نظر إلى واقع الحياة الإنسانية من ناحيتين .

الأولى : تنظيمها العام الشامل .

الثانية : تنظيمها للجهد البشرى .

فمن ناحية تنظيمها العام — قدم الإسلام المنهج الكامل والشامل ، الذى أحاط بكل دقائق الحياة بقانون محيط ، سليم المنبع ، ربانى المصدر ، يتعد عن الأهواء الشخصية والنزعات النفسية والمظالم البشرية ، والتسلطات الإنسانية ، ويتمشى مع العقل السليم الصحيح المتجرد عن الأطماع والشهوات الجامحة ، وقد راعى هذا المنهج حفظ ضرورات الناس وحاجياتهم ، وأسعدهم ، وجمل حياتهم بالجمال الحقيقى والسعادة الكريمة ، فحفظ النفس والأمة من الضياع والتناحر ، وأبعدها عن المظالم والقهر بعدل السماء ، وهداية الرسول ، وفهم الأتقياء ، وجهد الصالحين ، فأحيا موات القلوب ، وبعث همم النفوس ، وأنشأ الحضارة الحقة التى ينعم الناس فيها بالأمن ، ويطعم الناس فيها من جوع ، ويرجع الناس إخوة من ذكر وأنثى ، فتشرق الأرض بنور ربها ، ويدخلون فى السلم كافة ، ويزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

نظرة المنهج إلى الجهد البشرى :

المنهاج الإسلامية فى أمور الدنيا فجرت طاقات الإنسان العقلية والفكرية ، وأعطته الحرية المطلقة فى التحرك على صعيد تلك الحياة ، وهذا مايمثل فى قول رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ » وعن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : مررت مع رسول الله ﷺ يقوم على رؤوس النخل ، فقال مايصنع هؤلاء ؟ فقالوا : « يُلْقَحُونَهُ : يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيُلْقَحُ » ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا أَظُنُّ يُعْنَى ذَلِكَ شَيْئًا ، قَالَ : فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : « إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا ، فَلَا تُؤَاخِذُونِي

بالظنّ ، ولكنّ إذا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ عَنِ اللَّهِ فَخُذُوا بِهِ ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عز وجل »^(١) وفي رواية ذكرها النووي عند شرح الحديث « إذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ مُسْلِمٍ ، وَهَذَا عَلَى مَا نَرَى أُعْطِيَ اسْتِقْلَالِيَةً لِلْعَقْلِ وَالتَّفَكُّيرِ وَالتَّجَرُّبَةِ وَالبَحْثِ عَنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَرْتَقِي بِالأَشْيَاءِ وَبِالحَيَاةِ المَادِيَةِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ، وَلَكِنَّهُ مَعَ هَذَا أَحَاطَ كُلُّ ذَلِكَ بِالرِّبَايَةِ ، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ لِلْإِفْسَادِ ، كَمَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الرِّبَا وَالنَّفَاقِ ، وَيُوجِبُهُ كَذَلِكَ إِلَى مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَيُسَعِّدُهُمْ ، حَتَّى تَصْلَحَ الْحَيَاةُ لِلْإِنْسَانِ ، وَيُسَلِّمَ لَهُ نَتَاجَ فِكْرِهِ وَعَقْلِهِ ، وَلَا يَكُونُ عَرَضَةً لِلضِّيَاعِ وَالْإِحْبَاطِ ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾^(٢) ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾^(٣) ، وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾^(٤) أَمَّا أَصْحَابُ الْأَعْمَالِ الشَّارِدَةِ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، الْجَانِحَةِ إِلَى الْإِفْسَادِ وَالضَّلَالِ ، فَقَدْ حَذَرَهُمُ الْإِسْلَامُ تَحْذِيرًا شَدِيدًا ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَخَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٥) ، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾^(٦) ، ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾^(٧) ، ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾^(٨) وَهَذَا نَرَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تَسِيرُ وَفَقَ قَانُونِ رَبَانِي ، وَتَوْجِيهِ إلهي ، يَحْكُمُ تَصَرُّفَاتِ الْإِنْسَانِ ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ .

(١) رواه مسلم .

(٢) طه — ١١٢ .

(٣) الأنبياء — ٩٤ .

(٤) الأنعام — ١٣٢ .

(٥) هود — ١٦ .

(٦) العنكبوت — ٤ .

(٧) الفرقان — ٢٣ .

(٨) البقرة — ١٦٧ .

هدف المناهج الإسلامية :

وتهدف المناهج الإسلامية في جملتها إلى الوصول إلى الحق ، وإسعاد الناس ، كما تهدف إلى استغلال كل طاقة وهبها الله للإنسان وزوده بها ، وانتفاع بكل ما خلق الله في الأرض ، وأودع فيها من خير ورزق ، واستثمار ذلك فيما يعود عليه بالبر والمعروف ، ومعرفة المنعم والمتفضل ، وشكره سبحانه ، والمناهج الإسلامية بابتعادها عن الأوهام والتخرصات والافتراضات بغير دليل أو علم ، بعدت بذلك عن الجدال العقيم ، والحوار المنهك الذي لا طائل تحته . ينبه القرآن إلى ذلك فيقول : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(١) ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(٢) ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾^(٣) ، ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(٤) ولهذا كانت المناهج الإسلامية دائما تهدف إلى الاستفادة من العلم ومن المعرفة ، وإلى كل ما يوصل إلى الحق ، ويكشف أسرار المخلوقات لعقل الإنسان وبصره وبصيرته .

سياج هذه المناهج :

وهذه الأهداف والمناهج تحاط بسياج من الأخلاقيات والسلوكيات ، والعلاقات المعينة ، التي تحفظ هذه المناهج عن الانحراف ، حتى تؤدي غرضها ، وتعمل عملها .

فالوصول إلى الحق مثلا يكون بطريق مشروع ، وبأخلاقيات سليمة ، فنجد مثلا الوصول إلى الحق عند المدين المعسر لا يكون بخراب بيته ، وتشتيت أطفاله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

(١) آل عمران — ١٦ .

(٢) الأنعام — ١٤٤ .

(٣) الحج — ٨ .

(٤) الروم — ٢٩ .

كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ﴿١﴾ يقول البيضاوى فى تفسير هذه الآية : « أى وإن وقع غيرم فى عسرة فالحكم نظرة ، أو فعليكم نظرة ، أو فليكن نظرة ، وهى الإنظار .. وأن تصدقوا — أى الإبراء — خير لكم ، أى أكثر ثوابا من الإنظار » (٢) ، كما أن المدين يجب عليه أن يودى الحق إن كان معه من غير تأخير ، ولهذا ورد فى الحديث « لئى الواجد ظلم ، يُجَلَّ عِرْضَه وَغُفَوْبَتَه » (٣) . كما أن للنية دخلا كبيرا فى الأعمال ، وفى النظرة إلى صلاحها فى المنهج الإسلامى : « إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » (٤) . وتعلق مجلة الأحكام العدلية على التكييف القانونى لهذه القاعدة بقولها : « إن الصورة الحسية التى توجد فى الخارج لأى أمر من الأمور ، لا تؤخذ حكما شرعيا بالاستناد إلى محسوسياتها فقط ، بل للانضمام للمقصد والغرض الذى هو الحامل — الباعث — على إيقاع تلك الصورة وأحداثها » (٥) ، كما أنه قد ينهى الإسلام صاحب الحق مثلا عن أن يستعمل حقه أو ملكه فى الإضرار بالناس ، أو يمنعه عن الناس إن كانوا يحتاجون إليه : كما ورد فى النهى عن الاحتكار لقول رسول الله ﷺ « لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ » (٦) . والنهى عن بيع حاضر لباد « لا يبيع حاضر لباد » (٧) .

وقد نهى الإسلام عن الفساد باسم التقدم أو العلم أو الحضارة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (٩) .

(١) البقرة — ٢٨١ .

(٢) البيضاوى ص ٦٣ .

(٣) أبو داود فى سننه وأحمد فى المسند . انظر معالم السنن للخطاى .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) شرح الأدلة على مجلة الأحكام العدلية ١ / ٨ .

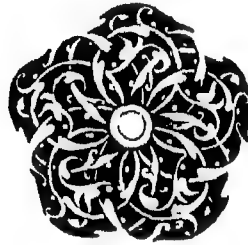
(٦) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . الترغيب والترهيب ٢ / ٥٨٢ .

(٧) أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه .

(٨) البقرة — ١١ .

(٩) المؤمنون — ٧١ .

النَّاسَ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿١﴾ ، ﴿٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٣﴾ وَلِهَذَا فَإِنَّ المقاصد التي تحيط بها الشريعة الإسلامية والمناهج العلمية والسلوكية والإنسانية تعصمها من الفساد والزلل ، وتفرض على الباحث المخلص والعالم الواعي أن يطهر فؤاده ، ويبيض صحائفه ، ويبضئ كلماته ، حتى تناسب تلك المقاصد والغايات الربانية السامية .



(١) البقرة — ٢٠٥ .

(٢) المائدة — ٧٧ .

المبحث الرابع مناهج التلقى

للمناهج الإسلامية خطوات سارت عليها ، سواء كانت هذه الخطوات في مناهج التلقى عن الوحي أو عن المعصوم ، رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة العدول ، أو ما يستنبط من هذه المصادر المعتمدة ، التي سار على نهجها المجتمع الإسلامي في بناء ذاته ، نفسيا ، واجتماعيا ، وحضاريا . كما أن هذه الخطوات فتحت أفقا جديدة أمام العقل المسلم ، وأمام المفكر المؤمن ، نظر منها إلى الحياة على أنها مخلوقة لخالق ، وأنها صنعة صانع ، قدر فيها أوقاتها ، وأودع فيها أرزاقها ، وبث فيها من كل دابة ، فنمت نظرية السببية والخالقية في نفس من خلقت له هذه الأرضية ، ومهدت له هذه العوالم ، فانبعثت من هذه الدلالات مناهج تجريبية ، فتحت آفاق الأسرار ، ونوافذ المعرفة على كنوز هذه الحياة ، وخزائن هذه الأرض .

١ — مناهج التلقى عن الوحي :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ؛ ليفرق بين الحق والباطل ، ويبين للعالمين كيف تكون الحياة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ^(١) ، فكان كما حدث الحق سبحانه مباركاً طيباً : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ^(٢) ، شافيا من كل

(١) الفرقان — ١ .

(٢) الأنبياء — ٥٠ .

شروء ، مبرئاً من كل علة: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾^(٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ولهذا أمر المؤمنون باتباعه ، وعدم مخالفة أمره ، والسير على سنته ، .. ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾^(٤) ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾^(٥) ، ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٦) فبالغ المسلمون في الحرص عليه ، فحفظوه في الصدور ، وكتبوه في الرقاع ، وعرفوا أسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتولوا بيانه ومعرفة أحكامه فأما عن حفظهم له في الصدور ، فقد كانوا يتلقفونه من فم رسول الله ﷺ .

الجمع الأول في عهد أبي بكر :

كان الأمر لا يقف عند الحفظ من رسول الله ، أو من الصحابة ، فقد كان للرسول ﷺ كتاب للوحى ، ما أن تنزل الآيات حتى تكتب في الرقاع ، لتسجيلها حال نزولها بإملاء رسول الله ﷺ ، وما توفي رسول الله ﷺ إلا والقرآن قد كمل نزوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٧) ثم جددت أمور بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وجرت حوادث في عهد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ، فعجل أبو بكر رضى الله عنه في جمع القرآن من الجريد والرقاع واللخاف والأديم ، وجعله في قراطيس ، وهذا كان أول جمع للقرآن ، وكلف بهذا الجمع كتاب الوحى ،

(١) الإسراء — ٨٢ .

(٢) فصلت — ٤٤ .

(٣) يونس — ٥٧ .

(٤) الأنعام — ١٥٣ .

(٥) الأنعام — ١٥٣ .

(٦) يونس — ١٠٩ .

(٧) المائدة — ٣ .

برئاسة زيد بن ثابت ، على أن يستعين بمن شاء من الصحابة ، ومن الحفاظ للقرآن الكريم ، ثم حفظت الصحف التي جمعت عند أبي بكر ، حتى مات ، ثم عند عمر حتى مات ، ثم عند حفصة بنت عمر .

جمع عثمان وكتابة المصاحف :

إلى أن جاء عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، واتسعت رقعة الأمصار الإسلامية ، واقتضت الحاجة أن تنسخ مصاحف ، وترسل إلى الأمصار ، حتى لا يختلف الناس فى القرآن ، فأرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول زمن أبي بكر رضى الله عنه ، كما ضم إليه بعض الصحابة كسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وعبد الله بن الزبير ، وأمرهم بنسخ الصحف فى المصاحف ، فنسخت عدة نسخ من القرآن ، فبل أربعة مصاحف ، وقيل : خمسة ، وقيل : سبعة ، ووزعت على الأمصار ، ومازال المصحف بالرسم العثماني يتداوله المسلمون إلى اليوم ، من غير تبديل أو تحريف ، حتى فى رسم الكتابة ، ومازال كتاب الله مع هذا تحفظه الأمة عن ظهر قلب ، جيلا بعد جيل ، ليكون محفوظا فى الصدور ، موثقا بالكتابة ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وصدق الله ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وهكذا أخذت الأمة منهج الحياة من الوحى راقيا عذبا فراتا سائغا شرابه ، لاتحريف فيه ولا عوج .

٢ — منهج التلقى عن المعصوم :

تلقى المسلمون عن رسول الله ﷺ ، قوله وفعله وتقريره ، وسمى ذلك عند المسلمين بعلم الحديث ، وهو اسم من التحديث (٢) ، أو الإخبار ، كما فى

(١) الحجر — ٩ .

(٢) انظر — هدية العارفين ١ / ٢٢٩ . وإيضاح المكنون ١ / ٢٥١ ، ٣٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ ^(٢) قال شيخ الإسلام ابن حجر في شرح البخارى : « المراد بالحديث فى عرف الشرع ما أضيف إلى النبى ﷺ » ^(٣) ، فصار اسم الحديث علما على قول الرسول ﷺ ، وفعله ، وتقريره ، أما السنة : فهى — فى الأصل — ليست مساوية للحديث ، فإنها — تبعا لمعناها اللغوى — كانت تطلق على الطريق الدينية التى سلكها النبى ﷺ فى سيرته المطهرة ، لأن معنى السنة لغة : الطريقة ، وعلى هذا فإذا كان الحديث عاما يشمل قول النبى ﷺ وفعله : فالسنة خاصة بأعمال النبى عليه السلام ^(٤) ومن هذا تفريق بعض الباحثين بين علماء الحديث ، وعلماء السنة ، كقول عبد الرحمن بن مهدى : سفيان الثورى إمام فى الحديث ، والأوزاعى إمام فى السنة ، وليس بإمام فى الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعا ^(٥) .

ولكن أكثر المحدثين على أن الحديث والسنة مترادفان ، أطلقت السنة فى كثير من المواطن على غير ما أطلق الحديث عليه ، وهل السنة فى الحقيقة إلا الطريقة النبوية التى كان الرسول ﷺ ، يؤيدها بأقواله وأفعاله ، وهل يدور كلاهما إلا حول محور واحد ، ينتهى أخيرا إلى النبى ﷺ فى أقواله المؤيدة لأعماله ، وفى أعماله المؤكدة لأقواله ، وقد تلقى المسلمون سنة رسول الله ﷺ بحب وشوق وإخلاص ؛ لأنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وأنه الهادى إلى صراط مستقيم ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(٦) وأنه الأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة ، والخلق الكامل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ

(١) الطور — ٣٤ .

(٢) الزمر — ٢٣ .

(٣) انظر تدریب الراوى شرح تقريب النوى للسيوطى ص ٤ ط مصر ٣٧ .

(٤) انظر الفهرست لابن النديم — ٢٣٠ ط فوجل سنة ١٨٧١ ، ١٨٧٢ م .

(٥) انظر الزرقانى على الموطأ ١ / ٤ .

(٦) الشورى — ٥٢ .

كثيراً ﴿١﴾، ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ (٢) وأن اتباعه ﷺ طاعة لله وحب له : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (٣)، وانتهى العلماء المحققون إلى أن الحديث الصحيح حجة على جميع الأمة ، وأيدوا رأيهم هذا بالآيات القرآنية ، التي تفرض على المؤمنين اتباع الرسول ، والتسليم لحكمه ، وهذا أمر بدهى لا يحتاج فى بيانه إلى كبير جهد . وقد انتهر العلماء كل جاهل عن هذه الحقيقة ، وردوه إلى الصواب ، يرى عبد الرحمن بن يزيد رجلاً محرماً فى موسم الحج قد ارتدى ثوباً مخيطاً ، فيرشده إلى نزع ثيابه ، والأخذ بسنة النبى ﷺ فى لباس الإحرام ، فيقول الرجل لعبد الرحمن : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى . فلا يرى عبد الرحمن خيراً من أن يقرأ عليه قول الله : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (٤) . ويصلى الإمام طاووس بعد العصر ركعتين ، فيقول له الصحابى الجليل ابن عباس : اتركهما . فيجيبه طاووس بأن الرسول عليه السلام ، إنما نهى عنها مخافة أن تتخذ سنة ، ولكن ابن عباس يصصر على النهى ، ويؤكد لطاووس أن ليس له الخيار فيما جاء به الرسول ، مستنداً إلى الآية الكريمة ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (٥) . وهذا هو ما جعل عمران بن حصين يرمى رجلاً بالغفلة الشديدة ، لقوله مثل هذا ، وقال له مؤنباً : إنك امرؤ أحمق !! أتجد فى كتاب الله ركعات الظهر أربعاً ، لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم سرد له بعض أحكام الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وما أشبه ذلك من أركان الإسلام وفرائضه . ثم قال للرجل : أتجد هذا كله مفسراً فى كتاب الله ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وأجمله ، وإنما فسرتة السنة ، ووضحته ، وبينته (٦) . ولهذا حفظت الصحابة سنة نبيهم فى الصدور ، ومن آمن منهم التباس السنة بالقرآن ،

(١) الأحزاب — ٢١ .

(٢) القلم / ٤ .

(٣) آل عمران — ٣١ ، ٢٥ .

(٤) الحشر — ٧ . جامع بيان العلم (لابن عبد البر) ٢ / ١٨٨ .

(٥) الموافقات للشاطبى ٤ / ٢٥ .

(٦) جامع بيان العلم ٢ / ١٩١ الموافقات ٤ / ٢٦ .

وكتب ما سمعه من رسول الله بعد إذنه ، وكان الرسول ﷺ قد نهى عن كتابة الأحاديث ، ولا سيما إذا كتب هذا في صحيفة واحدة مع القرآن ، مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته ﷺ بالقرآن ^(١) ، وقال : لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمححه ، وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ^(٢) . وظل الحال على هذا المنوال في عصر الخلفاء الراشدين ، ولم يتغير الحال كثيرا ، فأبو بكر رضوان الله عليه يجمع بعض الأحاديث ، ثم يحرقها ^(٣) . وهذا عمر بن الخطاب لا يلبث أن يعدل عن كتابة السنة بعد أن عزم على تدوينها ، « عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن ، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، ثم عدل عن ذلك » ^(٤) وجاء عصر التابعين ، فمنهم من كان متشددا في المنع ، منهم عبيدة بن عمرو السلماني المرادى ٧٢ هـ ، وإبراهيم بن يزيد التيمي ٩٢ هـ ، وجابر بن زيد ٩٣ هـ ، وإبراهيم النخعي — ٩٦ هـ — ، لقربهم من عصر الصحابة . وما تزال الأخبار عن الخلفاء بمنعه مستفيضة ^(٥) ثم جاءت بعدهم طبقة بدأت تستسيغ التدوين ، منهم سعيد بن جبير — ٩٥ هـ ، الذي بالغ في الحرص على التدوين ^(٦) ، وسعيد بن المسيب ١٠٥ هـ ، وعبد الرحمن بن حرملة .

ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز — ١٠١ هـ ، فأمر رسميا بالشروع في تدوين الحديث كما هو المشهور ، فأرسل إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمر يأمره « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة ، فاكتبه ، فإنني قد خفت دروس العلم ، وذهاب

(١) معالم السنن للخطابي ٤ / ١٨٤ .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ٢٢٩ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٥ ط ٣ (١٩٥٥) حيدرآباد .

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي للدكتور العش ط دمشق ص ٥٠ ، جامع بيان العلم لابن عبد الر ط المنيرة ١ / ٦٤ ، طبقات ابن سعد ٣ / ١ ص ٣٣ ط لندن .

(٥) جامع بيان العلم ١ / ١٧ والمراجع السابقة .

(٦) جامع بيان العلم ١ / ٧٢ ، تقييد العلم ص ١٠٣ .

أهله»^(١). ثم كتب بعد ذلك إلى أهل الآفاق ، وإلى عماله في الأمصار بمثل ذلك^(٢). ثم بعد ذلك هبَّ الناس في طلب الحديث ، ورحلوا في سبيل ذلك إلى الأمصار والبلاد المتباعدة ، ليجمعوه ممن سمعوه من الصحابة الذين سمعوه من رسول الله ﷺ ، أو من التابعين وتابع التابعين .

شروط منهج التلقي عن الرسول :

لم يأخذ المحدثون الأمر على عواهنه ، وإنما كانت لهم شروط معينة في التلقي عن رسول الله ﷺ ، وكان لهم منهج معين صار فيما بعد مقياساً عاماً ، وقواعد متعارفاً عليها في توثيق الأخبار والحوادث العامة ، التي ساهمت في ترشيد الباحث المسلم في بحثه عن الحق والصواب ، وقللت من الاعتماد على الظنون والأوهام بغير دليل ملموس ، أو خطوات مؤكدة تؤدي إلى نتائج منطقية وسليمة ، وبقدر ما تكون المناهج تسير في طريق صحيح راشد تكون النتائج إيجابية سليمة في أى علم من العلوم ، فمن منهجهم في هذا التلقي شرط في المتلقى ، وشروط في المتلقي ، « شروط في السماع ، وشروط في الراوى » .

شروط الراوى :

جعل المحدثون للراوى شروطاً لا بد منها لقبول الرواية عنه ، فلو فقدوها أو فقد بعضها ردت روايته ، وترك حديثه ، وهى : العقل ، والضبط ، والعدالة ، والإسلام ، فكثرة الغلط تنافي الضبط ، والافتقار في الحديث يعارض العدالة ، أما الإسلام والعقل : فأمران بديهيان لا بد منهما ، والمقصود بعدالة الراوى ، استقامته التامة في شئون الدين ، وسلامته من الفسق كله وخوارم المروءة . وقد عرف الخطيب البغدادي العدل بأنه « من عرف بأداء فرائضه

(١) طبقات بن سعد ٢ / ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٤ لمحمد بن جعفر الكتاني ط دمشق .

ولزوم ما أمر به ، وتوقى ما نهى عنه وتجنب الفواحش المسقطه ، وتحرى الحق والواجب فى أفعاله ومعاملاته ، والتوقى فى لفظه لها يثلم الدين والمروءة . فمن كانت هذه حالته فهو الموصوف بأنه عدل فى دينه ، ومعروف بالصدق فى حديثه «^(١)» .

والمقصود بضبط الراوى :

سماعه للرواية كما يجب ، وفهمه لها فهما دقيقا ، وحفظه لها حفظا كاملا ، لاتردد فيه ، وثباته على ذلك كله من وقت السماع إلى وقت الأداء ، وإن كان المحدثون يفرقون بين قديم حديث الرجل وجديده ، فقد يضعف ضبط الرجل فى أواخر أيامه ، فيقال فيه تغير بآخرة ، ويعرف ضبط الراوى بموافقة الثقات المتقنين الضابطین إذا اعتبر حديثه بحديثهم ، فإن وافقهم فى روايتهم غالبا — ولو من حيث المعنى — فضابط ، — ولا تضر المخالفات النادرة — ، وإلا اختل ضبطه ، ولم يحتج بحديثه ^(٢) . وقد حذر عبد الله بن المبارك من كتابة الحديث أو سماعه عن غلاط لا يرجع ، وكذاب ، وصاحب بدعة وهوى يدعو إلى بدعته ، ورجل لا يحفظ فيحدث من حفظه ^(٣) .

شروط التحمل :

وصور هذا التحمل ثمانية : السماع ، والقراءة ، والإجازة ، والمنولة ، والمكاتبة ، والإعلام ، والوصية ، والوجادة .

١ — أعلاها السماع ، وهو أن يسمع المتحمل من لفظ شيخه ، سواء أحدثه الشيخ من كتاب يقرؤه أم من محفوظاته ، وسواء أأمل عليه أم لم يمل عليه . وقد

(١) الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادي ٨٠ ط دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد ١٣٥٧ هـ .

(٢) تدريب الراوى شرح التقريب للنوى (للسيوطى) / ١١٠ ط مصر ١٣٦٧ هـ .

(٣) الكفاية ١٤٣ ويراجع فى هذه الصفحة أقوال العلماء فى ترك الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالبا فى روايته .

اصطلحوا على أن ألفاظ حدثنا أو أخبرنا ، أو أنبأنا ، أو ذكر لنا ، أو قال لنا تفيد معنى التحديث^(١).

٢- **القراءة** — وهى قراءة التلميذ على الشيخ حفظاً من قلبه ، أو من كتاب ينظر منه ، ويقول التلميذ عند الأداء حدثنا الشيخ قراءة عليه ، « أو » أخبرنا قراءة عليه ، أو سمعت من الشيخ قراءة عليه ، بذكر هذا القيد الأخير إلزاماً ، لأن عدم ذكره يوهم السماع .

٣- **الإجازة** ، وهى إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ، ولو لم يسمعها منه ، ولم يقرأها عليه ، وهذه الإجازة بصرف النظر عن المعترضين عليها من أمثال ابن حزم ؛ فإنها مقبولة ، وقد اعتمدها الجمهور دون تردد ، وهى فى الواقع تؤدى إلى صحة التحمل^(٢).

٤- **المناولة** — وهى أن يعطى الشيخ تلميذه كتاباً أو حديثاً مكتوباً ، ليقوم بأدائه وروايته عنه . وتكون مناولة مع الإجازة — كأن يقول له الشيخ قد ملكتك إياه ، وأجزتك بروايته فخذ منى ، واروه عنى .

٥- **المكاتبة** ، وهى أن يكتب بخطه ، أو يكلف غيره بأن يكتب عنه بعض حديثه لشخص حاضر بين يديه ، يتلقى عنه العلم ، أو لشخص غائب عنه ، ترسل الكتابة إليه^(٣) .

٦- **الإعلام** — وهو إعلام الشيخ تلميذه بأن هذا الكتاب أو هذا الحديث من مروياته ، أو من سماعه من فلان ، من غير أن يصرح بإجازته له فى أدائه ، وجاز ذلك إذا كانت الثقة بالشيخ متوفرة . لأن الثقة تمنعه من أن يعلم تلميذه بما ليس من مروياته ، وقد منع كثير من المحدثين الرواية بالإعلام إن صرح الشيخ لتلميذه بعدم سماحه له بالرواية عنه^(٤).

(١) التدريب — ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق — ١٣١ — ١٣٢ .

(٣) الباعث الحديث — ١٣٨ .

(٤) انظر تدريب الراوى ١٤٨ ، الباحث الحديث ١٤٠ .

٧- الوصية — وهى تصريح الشيخ عند سفره ، أو على فراش موته بأن يوصى لفلان بكتاب معين ، كان يرويه ، وهى صورة نادرة من صور التحمل ، وحول الوصية كلام ، ليس هذا مجاله فى هذه العجالة .

٨- الوجدادة — وهى أن يجد الشخص حديثاً بخط شيخ كان قد لقيه فألف خطه ، وعرفه ، ووثق به أو ألم بلغته ، ولكنه استيقن أن هذا الخطوط صحيح النسبة إليه ، وكذلك إذا وجد بعض الأحاديث فى كتب مشهورة لمؤلفين مشهورين . فللشخص الذى تقع يده على شيء من هذا أن يرويه عن الشيخ على سبيل الحكاية ، ويقول : وجدت بخط فلان ، أو يغلب على ظنى أنه خط فلان ، أو وجدت بخط ألى مثلما كان يصنع عبد الله بن أحمد بن حنبل^(١)

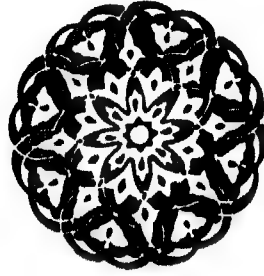
وقد اقتضى هذا ظهور علوم الحديث التى تخدم هذا المنهج ، مثل علم الجرح والتعديل ، وعلم رجال الحديث ، وعلم مختلف الحديث ، وعلم علل الحديث ، وعلم غريب الحديث ، وعلم الناسخ والمنسوخ . وصنف فى الحديث كتب تفاوتت درجاتها فى الصحة والترتيب والتبويب ، كما اقتضى هذا تقسيم الحديث من حيث الصحة والحسن والضعف ، على حسب القواعد المرعية فى هذا الفن .

منهج الدراسات المختلفة :

وكما قلت فقد أثر هذا المنهج المتكامل الصحيح على المعارف الإسلامية — فنرى أن عنصر التوثيق دخل تلك المعارف والعلوم ، فنرى الفتوحات رويت كذلك بالروايات ، ونرى الآثار رويت كذلك بالأسانيد ، ونرى الحوادث رويت كذلك بالسلاسل وننظر فى ذلك مصنف ابن أبى شيبه ، ومصنف عبد الرزاق ونرى تاريخ الطبرى والواقدي وغيرهم فى كل فن . وهذا ما أعطى قيمة للعلوم الإسلامية والحوادث والأخبار ، وجعل الباحث الإسلامى ينظر عمن يأخذ علومه ومعارفه ، وجعله يتعود البحث والتصنيف والترتيب والتبويب والتعليق ، لهذا نرى قيمة ما أخرج من علوم تطابق الواقع ، ولا يداخلها التحريف إلا قليلا ، ونجد أن الغرب فى كثير

(١) انظر التدهيب — ١٤٨ .

من أبحاثه يعتمد على كتب الإسلاميين وعلى علمهم ، في الرحلات وأخبار الأمم ،
وعادات الشعوب ، وأحوالهم ، وحوادثهم ، وأخبار الاعتماد على العلماء المسلمين في
الرحلات والعلوم معروفة ومعلومة ، مما سنعرض له فيما بعد إن شاء الله تعالى .



المبحث الخامس المناهج المادية

طبيعة المناهج العلمية في الحضارات السابقة :

كانت طبيعة المناهج العلمية في الحضارات السابقة مخالفة لما عليه تلك العلوم اليوم ، فأسلوب المناهج العلمية عند اليونان وغيرهم كان أسلوب الجدل اللفظي العقيم ، والتخيلات العقلية ، فقد برع مفكروا ذلك العصر في إقامة الحجج والبراهين اللفظية الخالصة ، وتلاعبوا بالاستدلالات الشكلية ، والمغالطات التي تتخذ في ظاهرها صبغة منطقية ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أى منهج في البحث يعين على معرفة مباشرة ، فالألفاظ كانت عندهم حاجزا يحجب الواقع ، والاستدلال الوحيد المعروف عندهم هو قياس الجديد على القديم ، أى على ماهو معروف من قبل . ومن هنا فإن كتبهم كانت كلها دعما لمعارف قديمة ، أما الكشف الجديد ؛ فلم يكن من المتوقع أن يسعى إليه عصر يؤمن بأن المعرفة كلها قد اكتملت في عصر من العصور الماضية . وهذا الاهتمام المفرط بالحجج اللفظية الخالصة — والاعتقاد بأنك إذا استطعت أن تثبت « بالكلام البحث » شيئا كنت السابق والفائز — شيء لا يؤدي إلى نتيجة مرجوة ، وكانت هذه سمة العلم في العالم وقت ذلك ، إذ كان العالم كله يفهم العلم من خلال معانٍ كيفية ، ذات أصل فلسفي بحث ، كأن يقال مثلا : إن هذا الشيء موجود بالفعل أو بالقوة ، أو أنه مادة أو صورة ، وهذه المادة حارة أو باردة ، ثقيلة أو خفيفة . دون أية محاولة لتطبيق الرياضيات التي كانت قد أحرزت تقدما كبيرا في الظواهر الطبيعية لاستخلاص قوانينها ، بل كانوا يتصورون أن باستطاعتهم حل مشكلات العالم الكبرى بالتأمل النظري وحده ، وأنهم قادرون على فهم ما وراء الطبيعة باستخدام مجموعة من الاستدلالات اللفظية التي يتلاعبون بها

ببراعة كبراة السحرة ، ويظنون أن ما توصلهم إليه هذه الألاعيب اللفظية لا بد أن يكون حقيقة واقعة ، وقد كان تقسيم العلوم عندهم إلى علوم عليا ، وعلوم دنيا ، أو علوم شريفة ، وعلوم وضيعة بحسب قرب العلوم من المنهج العقلي الصرف ، فالفلك مثلا علم رفيع ، لأنه يبحث في كائنات علوية وهى الأفلاك ، والرياضيات علم رفيع ، لأنها لا تحتاج في ممارستها وتعلمها إلا إلى العقل وحده ، والكيمياء — مثلا — علم وضيع ؛ لأنه يبحث في المواد وتفاعلاتها ، بل لم يعتبروه علما على الإطلاق ، ولكن اعتبروه حرفة وصناعة دنيا ، وكانت العلوم محصورة عندهم في سبعة ، أولها اللاهوت ، والفلسفة ، والمنطق ، وتسمى الثالث . وأربعة تسمى الرابع ، وتشمل معارف نظرية أقل من الأولى ، مثل اللغة ، والقانون ، والموسيقى ، أما مانسميه اليوم من علوم ، مثل الطب ، والفيزياء ، والكيمياء ، والهندسة ، والميكانيكا ، فكانت تسمى في رأيهم حرف وصناعات ، ولم يكن صاحبها أو المشتغل بها والعالم بأسرارها يعد من العلماء ، بل من أصحاب الحرف ، وكان أصحاب هذه الصناعات أو الحرف غير جديرين بالاحترام أو التقدير ، وعلى هذا لم يكن لعلم مثل الكيمياء مثلا ، الذى يبحث في المواد وتفاعلاتها ، لم يكن من الممكن أن يظهر بين اليونانيين ؛ لأن موضوعه غير جدير — في نظرهم — باهتمام العالم أو الشريف ، وعلى هذا ، فما بالنا بعلم الجيولوجيا ، أو علم الحشرات ، أو الجراثيم ، أظن أن المشتغل بهذه العلوم كان سيحق عليه اللعنة ، ومثل هذه التفرقة بين العلوم ومراتبها ، كان من الضروري أن تغلق العقل والتفكير عن كل تقدم ، وأن تأتى بنتائج سيئة للغاية ، وأن تخلق طبقة من أصحاب الأبراج العاجية والعاطلين والمدجلين ، الذين كانوا يجلسون وليس لهم عمل إلا التلاعب بالأفكار والأفهام ، بغير ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم .

وهكذا ألحق الفكر اليونانى ضررا بالغاً بمفهوم العلم ، استغرق جهدا كبيرا لإزالته ، ووضع لبنات جديدة بدلا عنه ، ولهذا نرى أن الإسلام حرم الجدل ، والسفسطة ، والتلاعب بالألفاظ ، وتعالى اللسان ، والقول بدون عمل ، والسير فيما لا ينفع الناس ، فضلا عن التفرير بهم واستعبادهم . فى المقابل نجد الديانات التى ظهرت فى جنبات تلك الحضارة تهدم العلم هدمًا ، وتعتبره حرامًا ، بل معارضة لقانون

الله في الكون والناس ، تقول صاحبة كتاب شمس العرب تسطع على الغرب : بينما يبحث الإسلام على العلم وعلى أخذ الحكمة ولو من غير شفاه المسلمين ، نجد المسيحية تروى عن ربها فتقول : يقول الرب ، « إن علم الدنيا غباء » ، ويتساءل بولس الرسول ، فيقول كلاماً على النقيض من علم المسلمين : « يوجد مكتوب » — « أى في كلام الرب » — « أريد أن أهدم حكمة الحكماء ، وأحطم عقل العقلاء » ، « إن الغباء الموجود في الوجود اختار الله » ، « وهذا يسئ إلى الحكماء » (١).

— الانطلاقة الإسلامية العلمية —

أما انطلاق المسلمين إلى الآفاق العلمية ؛ فإنه ينبعث من أعماق عقائدية ، وتفكير حضارى سليم ، يختلف عن غيره من الثقافات اختلافاً كبيراً . فقد ظهر الإسلام في جزيرة العرب ، في أعماق الصحراء ، بعيداً عن الحضارات والمدن والعلوم والحرف والصناعات التي كانت تقوم عليها الأمم المرموقة في ذلك الوقت من الزمان ، ولم يكن عند العرب في ذلك الزمان علم ولا علوم ولا فلسفة ولا فلاسفة ، اللهم إلا بعض الشعراء والخطباء ، الذين ظهروا ونبغوا بحكم تفاخرهم ودفاعهم عن قبائلهم وعشائرتهم ، فلما ظهر الإسلام في هذه المنطقة ، وسط هذه المنطقة ، وسط هذه الرمال الجرداء ، والعقول الصماء ، فجّر فيها ينابيع الحكمة ، وأجرى بها أنهار العلوم والآداب ، وأحيا عقولها وأفهامها وبصائرهما بعد همود وموت ، كما عبر عن ذلك القرآن : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ، ليس بخارج منها ﴾ (٢) ونزل القرآن على المؤمنين فدعا إلى العلم الشامل ، ودعا إلى البحث والنظر والتأمل في الكون ، ودراسة كل شيء ، دعا إلى البحث عن حقائق الأشياء مادية ومعنوية ، وأمر الناس بأن يدرسوا كل شيء دراسة بحث وتعمق : الأرض وتركيبها ، وما فيها من معادن ، وما ينبت عليها من زرع ،

(١) شمس العرب تسطع على الغرب للدكتور سيجريد هونكه ص ٢٧٤ ط النهضة العربية .

(٢) الأنعام — ١٢٢ .

ويتضمن ذلك كل ما يدخل الآن في نطاق العلم ، من فيزياء ، وكيمياء ، رياضيات ، ونبات ، وحيوان ، وفلك ، وطب ، وصيدلة ، وهندسة ، إلى جانب العلوم النظرية المعروفة ، إلى جانب أن الإسلام اعتبر العلم فريضة ، كما اعتبره جهادا في سبيل الله سبحانه ، فعن رسول الله ﷺ « من جاء مسجدي هذا ، لم يأت به إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى » ،^(١) واعتبره سبيلا إلى الآخرة لقوله ﷺ « من سلك طريقا يلتمس فيه علما : سهل الله له طريقا إلى الجنة » ،^(٢) وأعلى رتبة طالب العلم إلى درجة أن الملائكة تخضع له : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل » ،^(٣) كما أشاد القرآن بالعلماء ، ورفع شأنهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »^(٤) « إنما يخشى الله من عباده العلماء »^(٥) .

المنهج التجريبي :

إن أعظم ما يمكن أن يفخر به العلم الإسلامي في عصر ازدهاره ، هو أنه أضاف بالتدريج إلى مفهوم العلم معنى جديدا ، لم يكن يلقي اهتماما عند اليونانيين ، وهو استخدام العلم في كشف أسرار العالم الطبيعي ، وقهر الإنسان للمادة ، والسيطرة عليها ، واستخدام المسلمون الرياضة في حل المشكلات الواقعية التي تواجه الإنسان ، وبرعوا في علوم المادة ، واخترعوا علوماً مساعدة لذلك ، فمثلا برعوا في استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب ، الذي يمكن تطبيقه في حياة الناس اليومية ، وكان اختراعهم للجبر ، وتفوقهم في الهندسة التحليلية ، وابتكارهم لحساب المثلثات ، إيذانا بعصر جديد ، تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي ، وعلى هذا فقد وضحت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج

(١) أخرجه ابن ماجة بإسناد حسن ، وله سند من حديث الترمذى « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى بإسناد حسن « جامع الأصول » .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة وابن حبان صحيح الإسناد « الترغيب والترهيب » .

(٤) آل عمران — ١٨ .

(٥) فاطر — ٢٨ .

التجريبى ، بما يقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة ، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات ، ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض .

حقيقة المنهج التجريبى وخطواته :

كان لزاما علينا بعد أن أئحنا إلى دور المسلمين فى وضع أصول المنهج التجريبى ، أن نتحدث عن تعريف هذا المنهج ، وعن ماهية خطواته ، والفرق بينه وبين المنهج الاستدلالى المعروف ، حتى تتضح معالم المنهج بالحقائق لا بالألفاظ .

فالمنهج التجريبى بمعنى عام : هو المنهج المستخدم حين نبدأ من وقائع خارجة عن العقل ، سواء أكانت خارجة عن النفس إطلاقا ، أم باطنة فيه . « والمراد بأنها خارجة عن العقل ، أى عن الاستدلال الرياضى ، « فالمنهج التجريبى موضوعه الوقائع الخارجية ، لا المخلوقات العقلية ، والمنهج التجريبى على هذا يخالف المنهج الاستدلالى الذى موضوعه المخلوقات العقلية .

— خطوات المنهج التجريبى —

للمنهج التجريبى خطوات ثلاث : الأولى : الوصف والتعريف . فعالم النبات ينظر فى أنواع النبات المختلفة ، وأوصاف الأوراق التى يحملها كل نبات ، والأزهار الخاصة بذوات الأزهار ، كما ينظر إلى غذاء كل نبات ، وبعد أن ينظر العالم إلى النبات من هذه النواحي وغيرها يصنفها ويقسمها إلى أسر وفصائل تتفق فى الصفات والفصائل .

الخطوة الثانية : لا تقف عند المشاهدة والوصف — كما هو الحال فى الخطوة الأولى — بل تنتقل منها إلى بيان الروابط ، وافتراض تفسير لتلك الروابط ، ثم امتحان صحة هذا الافتراض ؛ بإجراء التجارب المختلفة على هذا الفرض حتى يثبت صحته

الخطوة الثالثة : إذا ما انتهينا عن طريق التجربة إلى وضع قوانين معينة ، أتينا بخطوة ثالثة ، هى : خطوة تنظيم هذه القوانين الجزئية ، لكى تدخل فى نطاق أعم ، بأن تصبح مبادئ عامة كلية ، فالملاحظة والفرض والتجريب هى إذا الفقرات الثلاث

المكونة لسلسلة المنهج التجريبي ، ولنوضح ذلك بالأمثال — فجليليو كيف توصل إلى قانون سقوط الأجسام : بدأ جليليو بملاحظة سقوط الأجسام ، وازدياد سرعة سقوط الجسم كلما قطع مسافة أطول ، فحاول أن يفسر هذه الظاهرة ، فافتراض أن زيادة السرعة نشأت من زيادة المسافة المقطوعة ، ولكنه وجد أن الفرض يؤدي إلى تناقض مع كثير من الوقائع ، فاستبدل به فرضاً آخر ، وهو أن تكون نسبة السرعة سائرة مع الزمن ، ثم أجرى تجربة على هذا أثبت فيها ذلك ، وأثبت التماثل بين السرعة والزمن ، فإذا نظرنا إلى المنهج الذى سلكه جليليو من أجل وضع هذا القانون ، وجدنا أن الخطوة الأولى هى أنه ابتداءً من ظواهر مشاهدة ، ثم تلا هذه الخطوة بخطوة ثانية ، هى افتراض أمر معين يكون قانوناً ، ثم أجرى تجربته ، وأثبت القانون^(١) ، ودرج المسلمون على ذلك فى علمهم ، فلم يقتنعوا إلا بالتجربة العلمية ، فى أبسط الأشياء ، وفى أعقدها ، فترى عندما شرع السلطان عضد الدولة فى بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الفخر الرازى اختيار أنسب مكان وأصح ، فاستدعى الرازى بعض غلمانه ، وأعطاهم قطعاً من اللحم ، وأمرهم بتعليقها فى أماكن متفرقة من نواحي بغداد ، ثم مر بعد وقت على قطع اللحم المعلقة ، واختار المكان الذى لم تتغير فيه قطع اللحم بسرعة ، ولم يعترها التلف ، فبنى فيه المستشفى ونرى بهذه التجربة البسيطة أن الفخر الرازى اختار المكان الصحى ، الخالى نسبياً من الجراثيم والأجواء الفاسدة . ولقد أدرك الحسن بن الهيثم الخطأ الذى وقع فيه العالمان بطليموس وأبقليد . فقد قال كل منهما أن العين ترسل أشعة بصرية على الأشياء المراد رؤيتها ، فأعلن ابن الهيثم خطأ تلك النظرية بعد ملاحظته وتجربته .

وقال إن العين لا ترسل شعاعاً ، وإن هذا الشعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية ، ولكن العكس هو الصحيح ، فإن الأجسام المرئية هى التى ترسل الأشعة إلى العين ، وإن عدسة العين هى التى تستقبل تلك الأشعة فترى بها الأشياء .

(١) انظر مباحث البحث العلمى عبد الرحمن بدوى — ١٢٧ — ١٢٨ ط دار النهضة .

وهذا لأن ابن الهيثم جلس في حجرة مظلمة فلم يرى شيئا ، فسقط شعاع على بعض مافي الحجرة ، فرأى ذلك الشيء الذي سقط عليه الشعاع فقط . إذا لو كانت العين هى التى ترسل الأشعة لرأينا الأشياء في الظلام ، ولكننا لانراها إلا إذا وقع عليها الضوء ، وانعكست منها الأشعة ، وأكمل تجاربه ، وأخرج القانون ^(١) ومن الحقائق التى عرفها المسلمون على طريق المنهج التجريبي أن المكتبات والمختبرات والمعامل والآلات كانت وسائل للدرس والبحث والاستفادة إلى آفاق أوسع ، ومجالات أرحب . فقد يطلع المرء على علوم الأولين والآخرين ، ويبقى مع ذلك جامدا عاجزا عن التفكير والاستنباط والإبداع ، فيظل ببغاء يردد ما يقرأ ، ويقرأ ما يلقى إليه ، غير قادر على الارتقاء إلى درجة أعلى أو أرفع ، ولكن العرب بعد أن كانوا تلامذة يقرأون علوم الأولين ويبحثون فيها — وإن كان هذا البحث بعقل مفتوح — لم يلبثوا أن تعدوا تلك المرحلة إلى التحقيق والابتكار والتجربة ، ولم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، وأسرع في التقديم ومعرفة الحقيقة من آلاف الكتب والرسائل وهذا مافهمه المسلمون بذكائهم ، بينما ظلت أوروبا في القرون الوسطى ألف عام إلى أن اهتموا إلى تلك الحقيقة على يد بيكن ^(٢) — الذى اطلع على علوم العرب ، ولولا ذلك لظلت عقولهم مغلقة إلى اليوم . وفى هذا يقول غستاف لوبون ^(٣) — « إن أول من قام بالتجربة والترصد في الغرب هو بيكن . ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأى مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولا سيما همبولد . العالم الشهير الذى بنى بحوثه على التجربة ، ثم قال : إن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجات العلوم قال : إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبا . وقال مسيو سيديو : إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد

(١) شمس العرب تسطع على الغرب

(٢) بيكن . فريسي . فيلسوف وأديب إنجليزي . ولد بلندن ، له مقالات رائعة ، من أرواح تراث الأدب .

(٣) غسناف لوبون . عالم نفس واجتماعى فرسى . كان متعصا للعصرية ، وهو من الكتاب الغربيين الذين ألفوا عن الإسلام والحضارة العربية ، له في ذلك كتاب حصار العرب .

في البداية هو روحها الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها .

فكان استخراج المجهول من المعلوم ، والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من العلولات ، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة . مبادئ قال بها أساتذة من العرب ، والعرب في القرن التاسع الميلادي كانوا حائزين لهذا المنهج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل ، للوصول إلى أجمل الاكتشافات ، فمناهج العرب قائم على التجربة والترصد ، وأما درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى العلم ، فقد صارت عليه أوروبا في القرون الوسطى والفرق بين النهجين أساسى ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق^(١) .

ونلخص من هذا أمور :

١— إن العرب هم أول من استعمل المنهج التجريبي ، واستخرج المجهول من المعلوم ، واستنبط العلل من العلولات ، ولم يسلموا أبداً إلا بما يثبت بالتجربة والترصد .

٢— فحصوا تراث الأغريق العلمى ، الذى انتقل إلى البيزنطيين وغيرهم ، فلم يستفيدوا منه ، أو يمحصوه ، فلما آل إلى العرب خلقوه خلقاً آخر ، وأبانوا مافيه من ريف ، وما فيه من علم يستحق التطوير .

٣— اعتماد العرب على المنهج التجريبي منح مؤلفاتهم دقة وإبداعاً وثقة فتحت آفاقاً بعيدة في العلم .

٤— كانت هذه الآفاق الجديدة التى وصلت إليها العرب سبباً في فتح كنوز الأرض وخيرها على العالم .

آثار التبعاليم الإسلامية في المنهج التجريبي^(٢) :

لقد كان الاتجاه الذى يجمع بين النظرية والنطيق أمراً طبعياً في حضارة المسلمين

(١) حصار العرب عشتاف لوبون — ص ٥٢٨ ط عيسى الحلى .

(٢) المرجع السابق — ١٠٨ — ١٠٩ .

التي قامت على الجمع بين الدين والدنيا ، وارتكزت على شعار : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وبالفعل كانت تعاليم الإسلام تؤكد على هذا المعنى ، بقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ^(١) هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ^(٢) وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم ، المنهج الذى يعلق قلب الإنسان بالآخرة ، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ، ويكلفه إياه تكليفا ، وقد خلق الله طبيبات الحياة ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، والمسلم بهذا يحقق المنهج المتعادل المتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه ذلك من الارتقاء الروحى الدائم ، من خلال حياته الطبيعية ، التى لاحرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

وقد حدثوا أن عمر بن الخطاب رأى قوما قابعين فى ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة ، فسألهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون على الله . فعلاهم بالدرّة ونهرهم ، وقال : لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله يقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) والمؤمن دائما يسخر الدنيا لنفسه ، ولا يسخر نفسه للدنيا ، أو يتخذها ربا من دون الله وقد كان من الصحابة رضوان الله عليهم زارعا وصناعا وتجارا وحرفيين ، يعملون فى الدنيا بجد وعرق وإحسان ، وقد قال رسول الله وهم يسمعون : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » ^(٤)

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) الملك — ١٥ .

(٣) الإيمان والحياة — ٣٠٩ ط الدار السعودية .

(٤) رواه أحمد وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد — ورجاله ثقات وأثبت كما قال الهيثمى .

آثار المنهج التجريبي في تقدم علوم المسلمين:

وانطلق المسلمون بهذه الأفكار الفطرية السليمة المتقدمة إلى الحياة ، ففجروا كنوزها ، واكتشفوا مجاهيلها ، بحوية وتفتح ، ولهذا يقول برناردشو : إني أكن كل تقدير لدين محمد ، لحويته العجيبة ، فهو الدين الوحيد الذى له طاقة هائلة للملاءمة أوجه الحياة المتغيرة ، وهو صالح لكل العصور ^(١) .

انطلاقة علمية فريدة :

عرف المسلمون قيمة العلم والعلماء والتعلم ، فانطلقوا يبحثون عنه في كل مكان ، والكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، فالتهموا تراث اليونان ، وبحثوه بعقل مفتوح وبصيرة ناقدة ، وعرفوا الطيب منه والخبيث ، ولم يتوقفوا عنده ، بل ساروا إلى الاختراع والبحث والتنقيب ، حتى صححوا العلم ، ووجهوه إلى النفع وإلى الإفادة ، وكان منهجهم التجريبي خير مثل على ذلك ، ولهذا تقول الدكتورة سجيريد هونكة ^(٢) : « لم يتسلم العرب التراث اليوناني دون تفكير ، بل أخذوه وخلقوه خلقاً جديداً » .

وهذا حقيقى أيضاً فيما يتصل بالآلات العلمية ، وكذلك مختلف العلوم الأجنبية ، إذ لم يكد العرب يتسلمون هذا التراث العلمى حتى أقبلوا عليه ناقدين فاحصين ؛ لا مؤمنين مستسلمين لما وصل إليه غيرهم من نتائج ، لينبوا بعد ذلك على أساس سليم ويمتاز التفكير الغربى بأنه لم يتقبل المسائل العلمية لحقائق مسلم بها مالم يفحصها ويطبّقها ، حتى مؤلفات أرسطو وبطليموس ، فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين ^(٣) كما عرف المسلمون كيف يهضمون العلوم والصناعات ويتعلمونها . « أنزل العرب عام ٧٥١م عدداً كبيراً من أسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند ،

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية عبد المنعم خفاجى ص ٢١١ .

(٢) الدكتورة سيجريد هونكة ، كاتبة ألمانية معاصرة ، حصلت على الدكتوراه من جامعة برلين ، قامت بعدة رحلات إلى الشرق ، وأعجبت بحضارة الشرق وتراثه ، فألفت في ذلك مؤلفات عدة — منها — فضل العرب على أوروبا .

(٣) فضل العرب على أوروبا ١٥٤ .

وخيروا الأسير بين العتق أو الرق ، وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف ، فاتضح أن عددا كبيرا من أولئك الأسرى الصينيين يجيد صناعة الورق ، فأعتقهم المسلمون ، وشيدوا لهم المصانع الضرورية ، فنشروا صناعة الورق في العالم الإسلامي ، ومن ثم اقتبست أوروبا هذه الصناعة من المسلمين ^(١) وقد طور المسلمون صناعة الورق بعد ذلك وحسنوه ، ولا شك أن المنهج التجريبي الذي اتبعه المسلمون قد فتح آفاقا كثيرا من المعرفة أمام المسلمين ، فظهرت نظرياتهم في الفلك ، ونبغ فيه من العلماء ، محمد بن موسى وغيره ، ونبغ كثيرون في الطب ، منهم ابن سينا وغيره ، ونبغ كثير منهم في الحراثة كالزهرأوى وغيره ، بل إن كثرة التجارب والمعارف جعلت كثير من العلماء ينبغ في أكثر من علم ، ويظهر في أكثر من فن ، فنرى أن الرازي لم يكن في طليعة الأطباء فقط ، بل كان من أوائل الكيميائيين أيضا ، فضلا عن أنه كان مفسرا للقرآن ، ومؤلفا في علوم الدين والأخلاق والسير والعقائد ، ولم يتعارض هذا مع عمله لدينه وعقيدته

ولهذا كان يسير وعينه مفتوحة ، وقلبه منته ، وفكره يسجل ويفحص ويخترع ، فعرف مثلا أن الهواء العليل من أحسن الأدوية ، وهو لا يقل أهمية عن العقاقير الطبية ، وكان يعرف قيمة التجربة للعقار الجديد ، فكان يجرب ذلك على الحيوانات لمعرفة أثره ومفعوله على الأجسام الحية ، ثم يتدرج منه إلى تقريره للإنسان .

كما عرف ابن سينا البول السكرى ، وعرف قيمة تحليل البول في معرفة الأمراض ، ووضع لذلك شروطاً خاصة ، يقوم بها المريض حتى يمكن الحكم على عينات البول المأخوذة منه ، مثل أن يكون البول أول الصباح ، ويجب ألا يمضي زمن طويل بين الحصول عليه وبين فحصه ، ويجب على المريض ألا يشرب كثيرا عن المعتاد ، أو يأكل شيئا له لون خاص ، مثل الزعفران أو الرمان ، كما يجب على المريض ألا يبذل مجهوداً أكثر من المعتاد ، إلى غير ذلك من التعليمات التي استقاها من التجربة والملاحظة ^(٢)

(١) المرجع السابق ٢٨

(٢) انظر في هذا فضل العرب على أوروبا — ص ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٩ .

كما عرف المسلمون بطريقتهم التجريبية تشريح الجثث ، لمعرفة أعضاء الإنسان وأعضائه ، ومدى تأثير الأمراض على هذه الأعضاء ، كما أتقن المسلمون فن الملاحة ، وقد كانوا يسكنون الصحراء ، ولا علم لهم بالبحار ، واخترعوا البوصلة واستعملوها في الملاحة ، وكان اكتشافا مذهلا ، مكن العرب من خوض غمار البحار ، غبرهيايين ؛ لأنهم يعرفون من أين يأنون، وإلى أين يقصدون ، وبهذا اكتسبت علوم المسلمين بالتأمل والبحث والتجربة الثبات ، والاستقرار ، والعمق ، والبقاء ، والدوام ، ولهذا نرى — برونوفسكى^(١) يقول : كان محمد ﷺ يؤكد بإصرار على أن الإسلام ليس دين معجزات .

ولهذا كان الإسلام في محتواه الفكرى نموذجا للتأمل والتحليل . فالإسلام — خلافا للدينين السماويين السابقين — امتاز بهذا^(٢). وقد وضحت الدكتورة سيجريد هونكة فى كتابها شمس العرب تسطع على الغرب الطريقة التجريبية عند العرب فى العلوم ، ومدى تأثير هذه الطريقة على التقدم العلمى ، فقالت : « حاول اليونانى المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة ، فباشر كيميائ نظرية ، وفلسفة طبيعية ، حيث نلاحظ هذه الحقيقة فى الهلينية الشرقية العلمية المدركة للتجارب التى جمعت ونظمت ، وهذا هو نشأة العلوم الطبيعية . أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة ، والملاحظة الدقيقة المنتظمة ، وتحت شروط صناعية ، تتكرر فى كل وقت ، وتتغير وتراقب ، وكان العرب هم سادة هذا الموقف . لقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها المعروف لنا ، ومن ثم طوروها ، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزى (كستوم Custom) ، حتى بلغت مكانة عالية رفيعة ، دفعت إلى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية العصرية ، وذلك بغية الوصول بها إلى المكانة التى بلغتها

(١) الدكتور حاكوب برونوفسكى ولد فى بولندا عام ١٩٠٨ ، وانتقل إلى بريطانيا ، وتخرج من جامعة كامبريدج متحصصا فى الرياضيات ، عمل فى أمريكا منذ سنة ١٩٦٤ كزميل ثم مدير لجمعية علم الأحياء و الشؤون الإنسانية من مؤلفاته العلم والقيم الإنسانية توفى سنة ١٩٧٤ .

(٢) ارتقاء الإنسان ص ١٢٠ ط الكويت برونوفسكى — عالم المعرفة .

على يد العرب .

وقد بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى ، مكنتهم بفضل التجارب العلمية التي قاموا بها من تحقيق تراكيب كيميائية جديدة ، كما توصلوا إلى طرق كيميائية حديثة ، ففي أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ في الصعود ، حتى تبهر أنظار العالم بنورها

جمع العلوم والحكم :

من المسلم به أن المسلمين عرفوا قيمة الحكمة والعلم بما تعلموه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد حض القرآن الكريم على تعلم الحكمة ، فقال : ﴿ يُوْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(١) . وما كان رسول الله إلا معلما للحكمة : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ ^(٢) ، وتاليا لها ، وكان الوحي هو الحكمة : ﴿ واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ^(٣) ، وكان أسلوب الإسلام دائما هو الحكمة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ ^(٤) ، وجعل الحق سبحانه الحكمة علامة بارزة على كل رسول ، فقال في شأن عيسى عليه السلام : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل ﴾ ^(٥) ، وقال في شأن إبراهيم وآله : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ ^(٦) ، وقال في شأن داود : ﴿ وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ ^(٧) ، وقال في شأن

(١) البقرة — ٢٦٩ .

(٢) الجمعة — ٢ .

(٣) الأحزاب — ٣٤ .

(٤) الحل — ١٢٥ .

(٥) آل عمران — ٤٨ ، ٤٩ .

(٦) النساء — ٥٤ .

(٧) البقرة — ٢٥١ .

لقمان : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾^(١) ، ولهذا نرى المسلمين يقصدون إلى الحكمة ليأخذوها من أى وعاء خرجت ، غير هيايين ولا وجلين ، ورسول الله ﷺ يأمرهم بذلك بقوله . « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها فهو أحق بها »^(٢) ، وقال ﷺ « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »^(٣) ، وقال ﷺ « العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس »^(٤) ، وقال ﷺ « ما اكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى يرده عن ردى ! وما استقام دينه حتى يستقيم عقله ! »^(٥) ، وجعل الرسول ﷺ الحكمة هى التى يجب أن يعمل لها الإنسان ، وينافس عليها ، ويحسد عليها ، فقال : لاحسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها »^(٦) ، وقال تعالى ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾^(٧) .

حركة الترجمة :

ولهذا انطلق المسلمون بغير عقد إلى الخير الموجود ، وإلى الحكمة المبعثرة فى تراث الأمم اللاهية الداهلة ، فأخذته ، وترجمته ، وأخرجت بعقلها وهضمها نهضة علمية تعتمد كل الاعتماد على العقل المتفتح الفاحص المستوعب ونسمع إلى سيجريد هونكة تقول : إن المخطوطات العربية التى أنقذها العرب لم تخزن فى المتاحف والخزانات ، وحيل بينها وبين الهواء ، بل بعثت بعثا جديدا ، وانتقلت من حال النسيان والإهمال إلى الحياة ثانية فتيمة قوية ، لقد عادت إلى الحياة ، لتكون فى متناول يد كل فرد ، وبالاختصار

(١) لقمان / ١٢ .

(٢) أخرجه الترمذى .

(٣) أخرجه الترمذى .

(٤) أخرجه ابن ماجه .

(٥) الطبرانى .

(٦) أخرجه البخارى .

(٧) الرمر — ٩ .

ترجمت لتحيا بعقل جديد . ثم تقول : ولم تترجم هذه الكتب إلى لغة بعيدة عن تلك المألوفة عند الشعب ، بل نقلت إلى لغة حية مستعملة ، هي لغة القرآن الكريم ، التي يفهمها ويتكلمها الناس ، ويحافظون عليها ، فكان كل مسلم يستطيع أن يغترف من ينابيعها » ^(١) . وتعلم لغة الأقوام من سنن الإسلام ، وقد سبق رسول الله ﷺ إلى الانتفاع بهذا العلم ، فأمر كاتبه « زيد بن ثابت » بإجادة السريانية . قال زيد : أمرني رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهودى بالسريانية . وقال : « إني والله ما آمن يهود على كتابي . قال زيد : فوالله ما مرى نصف شهر حتى تعلمته ، وجدت فيه ، فكنت أكتب له إليهم وأقرأ له كتبهم إليه » ^(٢)

وهكذا استعمل المسلمون المترجمين ، وكانوا حلقة اتصال بين المسلمين وبين هذه العلوم ، وعن طريق هؤلاء المترجمين نقلت علوم اليونان والسريان والقبط والفارس والهنود إلى اللغة العربية ، ويستطيع الباحث أن يقرأ عن هؤلاء المترجمين وتناثرهم في الفهرست لابن النديم ، وفي الباب التاسع من طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وذكر كرد على في خطط الشام ٦ / ١٨٩ أن خالد بن يزيد سنة ٨٥ هـ كان أول من عرفت له مكتبة ، ويقول عنه ابن النديم في الفهرست سنة ٤٩٧ أنه عني بإخراج كتب القدماء ، وكان أول ما ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء ، ثم يقول عنه في ص ٣٣٨ إنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهو أول نقل لكتب اليونان إلى الإسلام . ويعين ابن النديم مترجما اسمه اصططن القديم ، ويقول : إنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة ^(٣) .

(١) فضل العرب على أوروبا ص ٢٨٣ .

(٢) البخارى

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٣٨٢ .

وقد وجد المسلمون في البلاد التي فتحوها علوما ومعارف ومؤلفات ، فلم يحرقوها أو يبددوها أو يخافوا منها ، وإنما ترجموها وعلموا ما فيها ، فإن كان خيرا قبلوه وطوروه ، وإن كان شراً نبذوه وطرحوه . وفي هذا يقول غستاف لويون « وجد العرب في بلاد فارس وسورية — حينما استولوا عليها — خزائن من العلوم اليونانية ، فأمرؤا بنقل ما في اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ، ولم يلبثوا أن أمرؤا بأن ينقل إليها ما لم يكن قد نقل ، فأخذت دراسة العلوم والآداب تسير قدما إلى الأمام .

ولم يكتف العرب بما نقل إلى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ، على الخصوص ، ليستقوا منها علوم اليونان ، ثم تعلموا في أسبانيا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية ، كما يشهد بذلك ما في مكتبة الأسكوريال من المعجمات العربية اليونانية ، والعربية اللاتينية ، والعربية الأسبانية ، التي ألفها المسلمون ، ثم يقول : كانت معارف اليونان واللاتينية القديمة أساسا لثقافة العرب « هذا في رأيه » في الدور الأول ، شأن الطلاب الذين يتلقون في المدرسة ، ما ورثه الإنسان من علوم الأولين ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى ، فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول ، والإنسان يقضى بالعجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث ، فإذا كانت هناك أمة قد تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمه فاقت العرب على ما يحتمل ، فالعرب المسلمون كانوا إذا استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد ، وإقامة مدرسة فيها ، فإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التطيلي المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا اشتغال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة ، على جامعات ، محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل ما يساعد على البحث العلمي ، فكان للعرب في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الخليفة ستمائة ألف كتاب . منها أربعة وأربعون مجلدا من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل ، بصدد ذلك ، إن شارل الحكيم لم يستطع — بعد أربعمائة سنة — أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة

مجلد ثلثهم خاص بعلم اللاهوت» (١).

وهذا يدلنا على مقدار الحركة الثقافية التى كانت فى مختلف البلاد الإسلامية ، ومدى ما أنتجته عقول المسلمين بعد ترجمة تراث ونجاح العقول فى شتى أنحاء المعمورة . وعملية الترجمة هذه كانت تؤدى بعناية ودقة وحماس وحب للعلم والمعرفة ، وتعدى ذلك إلى الرؤساء والخلفاء ، فقد استدعى هارون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون مختلف اللغات ، وكوّن منهم هيئة علمية ، تحت إشراف يحيى بن ماسويه ، مهمتها تقدير التعويضات التى يجب أن تدفعها الشعوب المهزومة . وهذه التعويضات يجب أن تكون كتباً .

ثم جاء المأمون ، وكوّن مجمعا علميا حقيقيا ، للقيام بأعمال الترجمة ، وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده . وكان المأمون الخليفة عالما مثقفا ، أولى النهضة العلمية عناية كاملة ، واتجه إلى أن يحصل على عدد ضخم من كتب الأقدمين ، فوفق بطرق شتى على الحصول على مجموعات نادرة ، وضعها بيت الحكمة « أو خزانة الحكمة » ، وعين خيرة المثقفين والمترجمين لينقلوها إلى اللسان العربى ، ويحفظوها من الضياع . ومن أشهر المترجمين بالخزانة فى ذلك العهد : الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وضين بن إسحاق ، وعمرو بن الفرخان ، وإسحاق بن حنين (٢).

وفوق ذلك ، فإن العرب حفظوا للبشرية كثيرا من تراث الأقدمين ، عن طريق ترجماتهم الكثيرة من الكتب ، من الضياع النهاى . وقد كان العالم يجهل هذه المؤلفات جهلا تاما ، إلى أن وجدها فى الترجمة العربية ، مثل : كتاب التشريح لجالينوس ، وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين (هيرون) و (فيلون) و (مينيلوس) ، ثم بصريات بطليموس ، والموازنة له ، وأخرى حول الساعة المائية ، والأجسام الطافية لأرشميدس ، ثم هناك ثلاث كتب حول قطاع الجُلّة للمؤلف

(١) حضارة العرب لغستاف لوبون ص ٥٢٦ .

(٢) انظر الفهرست ١٧٤ ، ٣٣٩ ، والقفطى ٢٤٢ ، وشمس الله على الغرب ص ٢٨٤ .

(أبو لونيوس) ، والذي أنقذها هو ثابت بن قرة ، الرياضى البارع ، والنطاسى العظيم^(١) والكلام فى فضل المسلمين الذين انطلقوا إلى المعمورة بعلمهم وعقلهم وإيمانهم ، لا تحصىه صحائف قليلة ، وإنما يحتاج إلى موسوعات ومطولات ، لإخراج ما يحويه من شواهد ناطقة بفضل هؤلاء العمالقة الكرام ، الذين لم يكتفوا بتحصيل الكتب ، وترجمتها ، والاستفادة منها ، والانطلاق بعدها بعلم يملأ العالم أجمع . بل نشروا هذه المؤلفات ، ولم تكن هناك مطابع أو آلات ، وإنما عن طريق النسخ فى كل مكتبة ، الذين تلحظ فيهم الدقة والإتقان ، وقلما كانت تخلو مكتبة ذات شأن من هؤلاء النساخ ، الذين كانوا ينسخون الكتب للمكتبات المختلفة ، ولكل راغب فى العلم والمعرفة^(٢) وكانت حركة الترجمة والتأليف والنسخ والتعليم من المناهج العلمية التى أنشأت حضارة إسلامية سامقة ، بهرت الدنيا ، وطوفت الآفاق ، وأيقظت العالم من سبات على نور المعرفة وشمس الحضارة الحقة .



(١) شمس الله على الغرب ص ٢٨٩ .

(٢) انظر الفهرست — ١٤٤ ، معجم الأدباء لياقوت ٧ / ٤٨٢ بتصريف .

الفصل الثالث

**التفسير الإسلامى
للتاريخ الحضارى**

المبحث الأول نظرة الإسلام إلى التاريخ الحضارى

ينظر الإسلام إلى التاريخ الحضارى نظرة جامعة . ينظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، وإلى الأرض والحياة من حيث أنهما مجال ذلك الإنسان ، لأن الدين موضوعه هو الإنسان ، ومجاله الأرض ، يعمل فيها ، ويظهر عليها أثر جهده وفعله ، صالحا كان ذلك العمل أو فاسدا ، فحضارة الإنسان من حيث هو إنسان ، وحضارة الأرض من حيث عمل الإنسان فيها ، وتصرفه في جنباتها بما ينفعه ، ويضئ له الطريق ، ويوصله إلى السعادة والهناء في دنياه وأخراه ، ولكن تقييم أعمال الإنسان ومعرفة نوعية أفعاله على تلك الأرض ، وفي جنبات المعمورة للإسلام فيها نظرات ، وله حكمه ومنطقه الكاشف ، المميز للحق والباطل والصواب والخطأ .

الإنسان فى التاريخ :

الإنسان هو قوام هذه الحياة ، وعامرها ، والمتصرف فى خيراتها ، والموجه لكنوزها ، والخليفة فيها ، ومحور النشاط فى الكون ، سخر له مافى السموات والأرض جميعا ، فكل مافى الأرض والكون له ولخدمته ، حقا إن الإنسان شئ ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوى شئ كبير وحقا إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة فى صحراء الأزمنة الجولوجية البعيدة الضاربة فى أغوار القدم ، ولكن المؤمنين ، يوقنون بأن الموت ليس نهاية الإنسان ، ولكنه محطة انتقال إلى الخلود وإلى الدار التى لا نهاية لها .

ولكن هذا الفرد الزائل ، وهذه الذرة التائهة ، وهذا اللقى الضائع ، يملك فى لحظة واحدة أن يتصل بقوة الأزل والأبد ، وأن يمتد كالعلاق طولا وعرضا فى ذلك

الكون الهائل ، وأن يرتبط به في أعماقه وأمشاجه بوشائج من القرى لا تنفصم . أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها ، يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشئ أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر في كل شيء ويتأثر .. يملك أن يحس الوجود في الماضي ، والاستقرار في الحاضر ، والامتداد في الآتي ، قادر على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ، فما هو إذا بالتأفة الضائع ، ولا بالفرد العاجز ، والإنسان أرق نماذج الحياة ، مصوغ كيانه من مادة الكون الأولى ، ونسبه إلى الأرض عريق : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾^(١) وأفراد هذا الإنسان بعد ذلك موحدون في أصل واحد ، متساوون في نسبتهم إلى هذا الطين : ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾^(٢) . كما خلقوا من نفس واحدة : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقُوعًا رَكْبًا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾^(٣) من هذا التناسق في طبيعة الكون ، وفي ناموس الحياة ، وفي أصل الإنسان ، تستمد الحضارة الإسلامية فهمها للتاريخ .

أصله :

لما كان الإنسان بهذه المنزلة المتقدمة ، وهذه الملكات العليا ، وتلك المكانة المرموقة ، التي يشهد عليها تكرم الله له في الخلق ، ونفخه فيه من روحه ، وخلقته في أحسن تقويم ، مع أنه من تلك الأرض ومن هذا التراب : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(٤) ، اقتضى هذا إلقاء الضوء على نشأته وعلى أصله وحياته ، كما لزم أن يخاض في أعماق هذا المخلوق ، ومكنون نفسه ، وجوهر روحه وعقيدته ، وتحتم أن تلقى الأضواء على سيرته وخطواته ، أما نشأته وأصله فهي من الأرض ، وكان لابد أن يكون من الأرض التي يدرج عليها ، ويعيش فيها ، ويسير في جنباتها ، ويأكل من زرعها وثمارها ، حبها ، وعنبها ، وقضبها ، ويشرب من أنهارها وعيونها ، ويركب دوابها ،

(١) المؤمنون — ١٢ .

(٢) مسلم وأبو داود .

(٣) النساء — ١ .

(٤) ص — ٧١ — ٧٢ .

وبليس منها ، ويوارى سوءته ، ﴿ فَأَمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ^(١) ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنَبًا وَقَصْبًا وَزَيَّتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ ^(٢) وهذا الإنسان فيه نفخة من روح الله كما أنبأ قبل ، وكان لابد أن يكون كذلك ، لأن هذا الكون بأرضه وسماؤه ، بأفلاكه ونجومه بشمسهِ وقمرهِ ، وبما أودع الله فيه من عناصر ، وأرسي فيه من شواخ ، وقدر فيه من أرزاق ، وسخر فيه من طبيعة تحتاج إلى قهر وتذليل واستثمار ، يلزم كل ذلك قوى منيرة ، وأضواء كاشفة ، ومؤهلات مدركة ، وعقول مفكرة ، ونفوس عالية ، لا يهبها ولا يشعلها إلا قبس من نور الله وهدايته وتوجيهه ، وهذا كان لابد أن يصاحب الإنسان فور خلقه وبدء تكوينه ، لينزل إلى الدنيا مسلماً مزوداً بأسباب بقائه وأدوات سعيه ، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ، والآية ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . وليس كما يقول بعض الناس من المغرضين ، إنه متطور من جنس آخر ، سبقته مراحل معينة ، حتى صار ذلك الإنسان وقد ألحنا إلى ذلك في الباب التمهيدى . ووجود الإنسان بهذه الصفات يعنى أنه وجد ومعه بذرة حضارته في هذه الحياة الدنيا ، من علم ، وعقل ، وسعى ، وحب في ذلك ، ورغبة فيه ، ووجد كذلك في الأرض كل ما يرضى أشواقه وأحلامه وآماله ، وساعده على ذلك تذليل الأرض وطاعة كل عناصرها لجهده وكفاحه وأفكاره .

أخوته :

ثم تناسلت تلك الذرية من أصل واحد ونفس واحدة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ^(٣) . وساعد على تآلف الإنسان مع أخيه تلك الأسرة الواحدة ، والطباع المشتركة ، والأصل المتفق ، والمنبع المتحد . فليست هناك أسرة من نسل

(١) الملك — ١٥ .

(٢) عبس — ٢٤ — ٣٢ .

(٣) النساء — ١ .

الآلهة ، وأخرى من سلالة الشياطين ، ولا فرد من طين ، وآخر من عجبن ، إنما الكل من ذكر وأنثى ، ويعنى هذا اتفاق فى الميول والنزعات الإنسانية ، وهى ما تجعل مصادر الحضارة الإنسانية متحدة ومتوازنة وصالحة لكل إنسان ، ولكل زمان ، ولكل مكان ، وإن اختلفت الأساليب .

تصورات مختلفة للحياة :

إن أى إنسان صحيح فى فطرته ، واسع فى نظره ، إذا ألقى نظرة على هذا العالم وهذه الحياة ، وتفكر فى موضع قدمه بالنسبة لوجوده على سطح هذه البسيطة ، وجد نفسه محاطا بسيل من التساؤلات المحيرة التى تتجاذبها اللذة والألم ، والصلاح والهدم ، هل هو كائن ذو شعور وإدراك يقدر على التأثير ؟ أم أنه كريشة فى مهب الرياح ؟ ، ولكنه مع كل هذه التساؤلات ، ومهما يكن فيه من أحاسيس متضاربة باللذة والألم ، وأفكار متضاربة بالتفاؤل أو التشاؤم ، ومهما تكن نظره فى الحياة الدنيا مائلة إلى الإفراط أو التفريط ، فإنه على كل حال يجد نفسه مجبولا على استخدام هذه الدنيا ، والاستمتاع بها فعلا على علاقتها ، ومجبولا فى الرغبة على البقاء ، واستخدام قانون حفظ النوع ، وقانون العمل والحرص والاقتناء ، إلا أن طوائف مختلفة من الإنسانية نظرت فى هذا المتحف العجيب فى هذه الحياة من زوايا مختلفة ، ووجهات متعددة ، وقد أعجب كل بناحية خاصة من نواحيها المختلفة ، وكانت سببا من تأسيس فكرة خاصة للحياة الدنيا عنده .

نظرت طائفة إلى ضعف الإنسان وعجزه ، وإلى جبروت القوى الفطرية الأخرى بإزائه ، فاستنتجت من ذلك أن الإنسان إنما هو كائن حقير ضعيف فى العالم ، وأن هذه القوى الفطرية المتسلطة هى النافعة والضارة ، وهى المتحكمة والمهيمنة ، والإنسان معها لا يملك إلا أن يسير حسب إرادتها ، استولت هذه الفكرة على أذهانهم ، بحيث خفيت على أنظارهم الوجهة التى يتمتع منها الإنسان بالشرف وبالفضيلة على سائر الموجودات فى العالم ، وخفيت عليهم كذلك مواهبه وقدراته وطاقاته ، فضحوا بهذه الفكرة بعزتهم وشرفهم وكرامتهم فى سبيل هذا الوهم المسيطر ،

فآمنوا بكل خرافة ، وتوجسوا من كل فأل ، وقد ولدت هذه الفكرة عبادة الأوثان والأصنام والنجوم ، وعبادة النار والأشجار ، وما إلى ذلك من قوى الطبيعة ، وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير من آياته ، منها ما حكى على لسان إبراهيم مع قومه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُتَوَقِّينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿١﴾ ... الآية ، وقوله تعالى عن بلقيس وقومها : ﴿ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ (٣) .

ونظرت طائفة أخرى :

إلى الحياة الدنيا نظرة قائمة كهيبة ، فلم تر فيها إلا الهدم والخراب والفساد والظلم والآلام ، وأيقنت أن دولاب الحياة لا يجرى إلا ليصب على الناس الآلام والأذى والحزن والغم والهم ، وأن كل ما في الحياة من الروابط والعلاقات ، إنما هي شبكات نصبت لتوقع الإنسان في المصائب والكوارث والنوائب والحزن والأهوال ، ألم تر إلى ما يفعلُه الأخ بأخيه ، والدولة ببنيتها ، والأمة بجارتها ، والقوى بالضعيف ، وبعد ذلك وقبله : يخيم الموت والفناء على كل صقع وكل حي ، نباتا كان أو حيوانا ، متحركا أو ساكنا ، فلا يأتي الربيع إلا ويلحقه الخريف ، ليخرب رونقه ، ويعبث بزِينته وبهجته ، ولا يورق ولا يشمر فيه شجر الحياة إلا ليتمتع به شبح الموت ، ولا يتزين فيه جمال البقاء إلا وتعبث به رياح الفناء . وهكذا ضاق الفضاء في عيون هؤلاء ، واغبرت الأجواء أمام أنظارهم ، فلم يروا من الدنيا إلا جانبها المظلم وشقها السيئ ، وعلى هذا خنقتهم أفكارهم ، وطاردتهم تصوراتهم ، ولم تترك لهم فيها أية رغبة في الحياة . ومن ثم

(١) الأنعام — ٧٤ — ٧٨ .

(٢) النمل — ٢٤ .

(٣) فصلت — ٣٧ .

لم يروا سبيلا للنجاة بأنفسهم إلا في أن يعتزلوا الدنيا ، ويتوجسوا من كل شيء ، ويكبتوا كل ما في أنفسهم من أحاسيس ونزوات ، حتى ينجوا من هذا الأخطبوط الجائر .

ونظرت طائفة أخرى :

إلى الحياة على أنها متاع وبهجة ورفاهية ، يجب أن يغتنمها الإنسان ، ويعب منها ، ويقتنص منها ما يستطيع ، فالحياة قصيرة ، والعمر محدود ، فيجب أن ينال منها ما يقدر عليه قبل أن تحيط به الأحزان والآلام ، أو يفترسه الموت ، ولذا قال قائلهم .

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

ويقول القرآن في الإشارة إلى هذا : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ، مِنَ النِّسَاءِ ، وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) ثم يعيب القرآن على هذا الصنف فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ (٢) . هؤلاء غالبا وقفت همهم وعقولهم عند الحياة الدنيا ، ولم يتعدوها إلى غيرها ، فليس عندهم أمل في حياة بعد الموت ، أو جزاء أو حساب على الأعمال والأفعال ، فهم لذلك يستحلون كل شيء ويستبيحون كل لذة ، قانونهم الوحيد أن يفرق إن استطاع في الشهوة والمتعة من أى لون ، فالبحث عن الطعام الشهى والمركب الهنى ، والتفسير الجنسي للسلوك الذى يجعل الجنس هو رائد حياة البشرية ، والتفسير الجسماني للمشاعر الذى يجعل الجسد هو منبع النفس وهو المطلب الأساسى الذى يهدف إليه هؤلاء المفكرون ، هذا التفسير المادى للحياة له دعائه وفلاسفته من الدهريين والوجوديين والحسيين ، الذين مازالوا ينعقون به ، ويروجونه بين الناس ، وصدق الله :

(١) آل عمران — ١٤ .

(٢) محمد — ١٢ .

﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١) ونبه القرآن في كثير من الآيات على ضلالتهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢).

النظرة الإسلامية :

تختلف النظرة الإسلامية إلى الحياة عن تلك النظرات التي سبقت في أمور

معينة .

أولها — أنه قد روعى ما بين الإنسان وبين الدنيا من علاقة وثيقة ، فليس هذا التصور بالذي يزدرى الدنيا ، ولا بالذي يهيم بها عشقا ، فليست الدنيا تستحق النبذ والازدراء والنفرة والمقت : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٣) ، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾^(٤) ، وكان من دعاء المسلمين : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَالْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ » ، ولا الدنيا بالشئ الذي يستحق أن يولع به الإنسان ، وينسى قيمه ونفسه ، ويصير لها خادما ، وفي سبيلها عبدا ، ﴿فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾^(٥) ، ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٦) ، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾^(٧) ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾^(٨) ، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ

(٦) البقرة — ٢١٢ .

(٧) الأنعام — ٧٠ .

(٨) يونس — ٧ .

(١) الأعراف — ٣٠ .

(٢) الكهف — ١٠٤ .

(٣) الأعراف / ٣٢ .

(٤) المؤمنون / ٥١ .

(٥) البقرة — ٢٠٠ .

الدُّنْيَا ﴿١﴾ ، وَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٢﴾ . فحين يحيا الإنسان حيوانا ، ويعيش دابة بدون قيم أو عقل ، يستحق أن يذهب فعلا إلى الجحيم ، ويكون قد وضع نفسه في منزلة أسفل من الحيوان ، وأدنى من العجماوات .

إذا فالدنيا ليست شرا كلها ، ولا هي خير كلها ، ولا يصح اجتنابها ، أو الانغماس في مفاتها ، فليست علاقة الإنسان بها كملك في مملكته ، ولا كسجين في سجنه ، وإن الإنسان ليس من الذلة والمهانة بحيث يسجد لكل شيء ، وليس من الكبرياء والغرور بحيث يستعلى على كل شيء ، ويحتقر ويزدرى كل شيء ، بل يحترم دنياه كما يحترم قيمه ومبادئه ، يعمل لعيش رغيد ، وفكر سديد ، وخلق قويم ، وآخر مرتقبة ، وقد علمهم ربهم هذا الدعاء الحبيب : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿٣﴾ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ .

مكانة الإنسان في الحياة :

ولكن بعد هذا ، ما هي مكانة الإنسان الحقيقية في الحياة ، وما هي نوعية ما يوجد بين الإنسان وبين الدنيا من علاقة ؟ والإنسان إذا استخدم هذه الدنيا ، وتصرف فيها ، فعلى أى وجه ، وبأى اعتقاد عليه أن يستخدمها ويتصرف فيها ؟ .

والإنسان المسلم يعلم أنه كُرِّمَ على وجه تلك البسيطة من قِبَلِ خالقها ، ويعلم تماما أن هذا التكريم لما فيه من صفات تؤهله لهذا التكريم ، ولما عنده من نفس وروح وقلب من هبة الله له : نعم إن للإنسان فضلا وكرامة على سائر المخلوقات ، ولكنه لا يستحق هذا الفضل وتلك الكرامة إلا بأن يكون في طاعة الله سبحانه ،

(١) النجم — ٢٩ .

(٢) النازعات — ٣٨ .

(٣) البقرة — ٢٠٠ .

(٤) آل عمران ١٤٨ .

الذى فضله على العالمين ، بأن جعله خليفة ، وأعطاه ما لم يعط سواه . كما أن المسلم يعتقد أن الدنيا دار عمل ، ومن أضاع عمله أضاع ثروته وأنقص رصيده ، وأن الآخرة دار جزاء على هذا العمل ، ودار بقاء يلاقى فيها ما يزرعه في ديناه ، وما يغرسه في حياته ، وأنه يعتقد بأن سعادته أو شقاءه في الآخرة ، إنما ينحصران في حسن أو قبح أعماله الشخصية في الحياة الدنيا ، فعلاقته إذاً بالحياة علاقة طريق بغاية ، فكلما استقام الطريق وضحت الغاية ، ومقدمة بنتيجة ، فكلما سلمت المقدمات صحت النتائج ، ثم إنه لابد أن يعرف كل شخص له أدنى إلمامة بالاسم أن الحضارة الإسلامية حضارة علمية بحتة ، ما دامت على إسلاميتها . فما كانت الدنيا في نظر أبنائها إلا مزرعة للآخرة ، وكانوا على الدوام يبذلون مساعيهم في أن لا ينفقوا لحظة من اللحظات في هذه الحياة الدنيا إلا في تعهد هذه المزرعة بالسقى والرى والحرث والبذر ، ليكون نصيبهم أوفر ما يكون في حصاد الآخرة ، وقد استفادوا في الدنيا ، واستمتعوا بها صالحة ، وتصرفوا فيها على وجه متوسط لاتفرط ولا شطط ، بين الرهبانية والنفعية ، مما لا نعثر له على عين أو أثر في أية حضارة أخرى في العالم . كان المسلمون في عز سطوتهم وعنفوان عزمهم عبيداً لله ، وحملات للقيم ، ومشاعل للنور ، وحراساً للحق ، والتاريخ غير بخيل ، حيث يحدثنا بحوادث كثيرة تبين أن الذين كانوا يحكمون عروش القياصرة والأكاسرة ، لما انتصروا على عدوهم خروا لله سجداً ، معفرين جباههم في تراب الخضوع لله تعالى ، بدل أن يعلنوا صلفهم وعزهم وفراستهم وشدة بأسهم ، وأن الملوك الجبابرة الفاتحين المنتصرين لما هموا بشيء يخالف الشريعة الإسلامية ، قام في وجههم عبد من عباد الله ينههم على سوء عاقبة أعمالهم ، فهناك على الفور اقشعرت أبدانهم من خشية ربهم ، وأقلعوا عما عزموا عليه . وحصاد القول : أنك لابد أن تجد جلاء التصور الإسلامى عند كل خطوة في سير حوادث تاريخ المسلمين القومى ، على رغم طول الزمان ، وعلى رغم ما راج فيهم من تأثيرات الحضارات الأجنبية ، ولو على صور متنوعة ومظاهر مختلفة .

نصور الحدوث والقدم :

تطرق المتكلمون في مباحث الوجود إلى التمييز بين الحادث والقديم ، وركزوا

اهتمامهم بالدرجة الأولى عند البحث في أنماط الوجود حول مشكلة تعلق الموجود ،
أو لا تعلقه بالزمانية .

وقد اختلفت الفلسفة اليونانية في مفهومها لهذا التعلق عن آراء المتكلمين
ومفهومهم . فكانت ماهية الوجود في الفلسفة اليونانية تدور حول علل الوجود
ومبادئه ، فكان الفيلسوف اليوناني ومن تابعه من فلاسفة المسلمين حين يعرضون
للوجود ، يقسمونه بين الوجود الواجب (الله) ، والوجود الممكن (العالم) ، أى
الوجود بالذات ، والوجود بالغير .

أما المتكلمون ؛ فإنهم حين يعرضون لهذه المسألة ، فإنهم يحاولون استيحاء
الفلسفة القرآنية في ذلك ، ويتكلمون حول زمانية الموجود أو لا زمانيته ، أى : أهو
قديم خارج الزمان ، أو حادث داخل فيه .

ومن هنا كانت صفة الألوهية الأولى عند هؤلاء الفلاسفة هو وجوب الوجود ،
الذى يقتضى — فيما يقتضى — قدم الذات (أى قديم بنفسه ، ولا يمنع ذلك أن
يكون هناك قديم بغيره) ، بينما كانت صفة الألوهية في تصور المسلمين هى القدم
الذى لا يشاركها فيه غيرها من الدوات . والذى يقتضى بالضرورة وجوب الوجود ،
بمعنى الوجود بالذات ^(١) .

وعلى هذا فإن الميتافيزيقا الأرسطية ، ومن سار على سنتها ، وتأثر بمنهجها ،
تنطلق من نظرية وجوب الوجود ، وعلاقته بالإمكان ، بينما تنطلق الميتافيزيقا
الإسلامية من نظرية القدم ، وعلاقته بالحدوث ، وهى نظرية زمانية في جوهرها ، لأن
الإسلام يقول بفكرة الخلق من العدم ، وهى فكرة الأديان السماوية التى جاء بها
الوحى الإلهى ، ولفت إليها القرآن الكريم فى كثير من الآيات : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ

(١) انظر الإشارات والتبسيطات الجزء الثالث ٣ / ٤٣٥ ، ونهاية الأقدام فى علم الكلام للشهرستانى تحقيق الفريد

حيوم ص ١١ .

(٢) ق — ٦ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴿١﴾ ، وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٢﴾ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ وظلت قضية القدم والحديث قضية جوهرية من قضايا الفكر الإسلامي في جدله مع الفلسفة اليونانية وتياراتها المختلفة ، ونتج عن ذلك قضيتان شغلت الناس كثيرا ، وهما قضية خلق القرآن ، وخلق العالم ، ونجد كثيرا من المفكرين الإسلاميين نقد تلك النظرية الفلسفية نقدا شديدا ، مينا ما فيها من عوار وتهافت ^(٤) .

ولا يخفى ما في التصور الإسلامي من عمق ، وخاصة تصور الألوهية وأفعالها . حيث تبين أن الحق سبحانه خارج عن العالم وسابق عليه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(٥) ، وفي الحديث « كان الله ولا شيء معه » ^(٦) والإله في مرتبة وجودية أعلى وأسمى ، وهو حر في أفعاله ، يخلق أو لا يخلق ، والعالم ليس قديما ولا أبديا ، بل هو في رحلة زمانية محدودة ، لأن الزمن في التصور الإسلامي يبدأ من الخلق ، وسينتهي بفنائهم ، بل إن الزمن من طبيعة هذا العالم ، ومن عناصره المكونة ^(٧) ، قال الله عز وجل « يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، يَبْدَى الْأَمْرُ ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » ^(٨) أما تصور الفلاسفة اليونانيين للخلق وللإله والعالم ؛ فإنه يقوم على أن دور الله فيه منظم ومنسق لمادة قديمة ، ولقد ترتب على ذلك قولهم بأن القدم شامل لكل الوجود ، فلا بداية للزمان .

وقد مال ابن سينا إلى هذا التصور ، وهاجم المتكلمين والفلاسفة الذين أقاموا البرهان على وجود الله ، عن طريق التمييز بين القديم والحادث . وجملة القول : إن

(١) الأنعام — ٧٣ .

(٢) الزحرف — ١٢ .

(٣) الحجر — ٤٥ .

(٤) انظر كتاب مشكلة الوجود للدكتور حسام محي الدين الألوسي — مشكلة الوجود ط بغداد مكتبة الزهراء .

(٥) الحديد — ٣ .

(٦) الحزاري بدء الخلق ٤ / ١٢٩ .

(٧) الكتاب الذهبي للمهرحان الألفي لابن سينا تحقيق الدكتور الفدي ص ٢٠٠ .

(٨) متفق عليه .

فكرة الزمان إذا كانت في المقولات الفلسفية اليونانية كانت عرضا يعرض للجوهر ، ولا يتعلق أساسا بماهيته ، بحيث يجوز القول بأن العالم مخلوق وقديم معا .

أما في المفهوم الإسلامي ؛ فإن مفهوم الزمان حقيقة تتحدبها ماهية الوجود ، بحيث تفرق بين القديم بوصفه خالقا ، والحادث بوصفه مخلوقا . وهكذا انفردت الألوهية في التصور الإسلامي بالسمودية ، وصار العالم حادثا ومخلوقا ، وموجودا وجودا متعلقا بزمن في رحلة محدودة بين الخلق والفناء — وهى رحلة الزمن الدينى — فأصبح الزمان من طبيعة هذا العالم ، ومن عناصره المكونة ، ثم انعكس ذلك المفهوم الشامل لزمانية العالم على تصورات المسلمين للتاريخ العالمى . فكان التقويم في التاريخ بدءا بمحادث معلوم ، تفسر على ضوءه كل التطورات التاريخية التالية .

فكرة الإسلام عن التاريخ الحضارى .

يحكى لنا القرآن ألوانا من سير الأمم الدائرة والشعوب الغابرة ؛ لتكون عمقا أصيلا لحضارة المسلم ، وجنورا غائرة لمدينته ، وتجربة حية على طريقه في مسيرته ، والقرآن في عرضه لذلك القصص الواقعى الذى عاش تجربة الحياة ومسيرة التاريخ ، يرويها بأسلوب عملى ، ولم يعرضها عرضا نظريا ، فيعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم ، وأخلاقهم ، وأفكارهم ، واتجاهات نفوسهم ، ويثبتهم الطبيعية والزمنية ، يعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، يعرضها في غرائز الإنسان : في حبه ، وجشعه ، وظلمه ، وبغيه ، ورغبته في العلو ، وجمع المال ، واقتناص الشهوات ، والاستئثار بكل شيء ، كما يصورها في خطوات الصالحين ، وجهدهم ، وجهادهم ، وتضحياتهم ، وصراعهم مع الباطل ، وجلادهم للظلم ، في ثبات عجيب ، وصبر عميق ، ونفس مطمئنة . نرى القرآن يتكلم عن درس من دروسه في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ، حيث يبرز القرآن هذا الحوار الذى يجرى بين الحق والباطل ، بين الفكر الخاطيء والحق المستقيم ، بين رسالة السماء التى جاءت بالنور ، وبين أهواء البشر الجامحة الهائجة ، بين الباطل القديم ، والنور الجديد ، كما نرى في ذلك الدرس كفران النعم والبطر بها ، والفساد الذى تكون بعده النهاية المحتومة : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ ، أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا
بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ،
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ،
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ، إِنْ هَذَا إِلَّا لُحْلُقُ الْأَوَّلِينَ ،
وَمَا لَحْنٌ بِمَعْدِيِّينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ . هذا الدرس يعطى جوانب كثيرة
لحضارة من الحضارات ، وأمة من الأمم ، لعبت بها الأهواء ، وقادتها المطامع
والانحرافات ، حتى نالت عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ودارت عليها الدائرة ،
ويلفت القرآن بعد هذه القصة في سورة الأحقاف قلوب المؤمنين إلى هذا الدرس ،
فيقول ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ،
فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٢﴾ . ولقد تعلمنا الوقوف على
الآثار ، والتأمل في سطور الأيام والليالي من القرآن الكريم ، ومن آياته ، وعظاته ،
وأحاديثه عن الأمم والجماعات .

برنامج السير في الأرض :

نرى الحق سبحانه وتعالى يندبنا إلى السياحة في الأرض ، والتأمل في آثار
الماضين وذكرياتهم ، فيقول ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٣﴾ . ويرسم لنا منهاج التأمل ، فيقول : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ
وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٤﴾ ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِي

(١) الشعراء — ١٢٣ — ١٤٠

(٢) الأحقاف ٢٦

(٣) المل ٦٩

(٤) الروم — ٩

الأرضي ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿١﴾ .

ويزيد الله عز شأنه في العبرة ، فيأمر بصفة خاصة أن نتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه ، لما فسقوا عن أمره ، فأهلكهم ، وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء : ﴿٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَبِتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا لَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٣﴾ نعم كم فيها من عبرة تلين القلوب وتقرح المآقي ، ويشير الله إلى المساكن والقصور والآثار ؛ لكي يقف المتأمل وقفة ينجحها ، أو ينجح أهلها الذين عمروها ، ثم خلفوها ، وراحوا وتركوا الأيام تفعل فيها ما تشاء : ﴿٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبُخْرٍ مُعْطَلَةٍ ، وَقَصْرِ مُشِيدٍ ﴿٥﴾ ثم يدعوا الحق إلى إنارة البصائر ، وإضاءة العقول ، وشحذ الأفكار ، فيقول : ﴿٦﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَآتَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّلُوبِ ﴿٧﴾ . والحق سبحانه وتعالى يذكرنا أن التأمل في الأيام والليالي والأحوال والأعمال هداية تؤدي إلى حضارة ، وسكينة وسعادة ، فيلفتنا إلى تحصيل الآيات من الديار التي نمشي خلال مساكنها الخاوية الصامتة ، فكم في صمتها من عظة لمن يسمع : ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ !! أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٩﴾

ويبين لنا عز وجل أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ، وحل بهم الخراب من كل جانب ، ما حاق بهم غضب الله إلا لأنهم أعرضوا عن معين حياتهم ، وسبب صلاحهم ، وعاندوا ، ومكروا ؛ لإحباط أمره سبحانه ، وأن المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم ، قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون ، وبما ساروا عليه من طريق قويم وعمل سليم ، ﴿١٠﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ

(١) الحج — ٤٦ .

(١) آل عمران — ١٣٧ .

(٥) السجدة — ٢٦ .

(٢) القصص / ٥٨ .

(٣) الحج — ٤٥ .

لَا يَشْعُرُونَ ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَتِلْكَ
يُؤْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، وَأُنْحِيتُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١﴾ والقرآن الكريم في حثه على التدبر والتأمل في الحوادث والأُمم ، إنما
يجعلها محاذير ومواعظ ، تكشف للنفس الإنسانية مواضع أقدامها ، وجعلها حجة
على الغافلين حين ينزل بهم العذاب : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، فَيَقُولُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ ، وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ . أَوْ لَمْ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ، وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا
مَكْرَهُمْ ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ، فَلَا تَحْسَبَنَّ
اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٢).

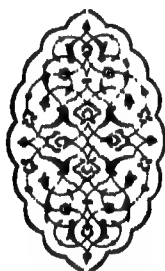
والقرآن يعطى فكرة عن التاريخ الحضارى وغير الحضارى للأمم ، ويذكر تلك
العصور بما فيها من حوادث ، ليحكم الإنسان عليها ، ويأخذ العبرة الحية ، وليعلم
أن تلك العهود التى جانبت الصواب لم ترحمها السنن ، ولم يفلتها الله سبحانه وتعالى ،
وأنه يجب على المؤمن الحى وعلى كل ذى قلب أن يلقى السمع ، ويفتح العين ،
ويضيء البصيرة ، ويتلمس الدرب ؛ حتى لا يتعثر في شهواته وأهوائه ، ويندم ، ولات
ساعة مندم ، وكثير ممن عصم الله ووفق ، وعوا الدرس وفهموا الحكمة ، فسلموا
وكانت تلك أمثلة حية . تحدثهم وتحذرهم أو تحفزهم وتقويهم ، إن كانت علم خير ،
وبشير معروف وإنى لألحظ تلك الخلجات التى كانت تنبض في صدر رسول الله
وصحبه عندما مر على ديار الظالمين . خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، وفي
الطريق إليها تقع مدائن صالح ، أو ديار ثمود ، وهى بيوت خاوية منحوتة في الصخر
كما ورد في القرآن الكريم ، ونحن نعرف شأن هؤلاء قبل أن يبعث إليهم صالح عليه
السلام ، وبعد أن بعث إليهم عرفنا عصيانهم لنبيهم ، وتمردهم عليه ، وعلى حكم
ربه ، حتى أرسل عليهم إصاغة ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

(١) النمل — ٥٠ .

(٢) إبراهيم — ٤٦ .

ولما اقترب رسول الله ﷺ من ديارهم وهي لاتزال ظاهرة إلى اليوم — ثارت ذكرى الظالمين بنفسه ، وهي ذكرى كريمة بغیضة ، فسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته — وقال : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِأَكُونَ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » ، وفى رواية الإمام مسلم عن ابن شهاب ، وهو يذكر الحجر مساكن ثمود ، قال سالم بن عبد الله : إن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَجَرِ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ » (١)

ولسنا نرى وصفاً أبلغ من هذا فى الدلالة على الوجدان المرفف والطبيعة الحية ، بل لسنا نرى عملاً أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله ﷺ .



(١) أخرجه الإمام مسلم — كتاب الظلم .

المبحث الثانى وجهة هذا التفسير الحضارى

يتجه الإسلام فى تفسيره الحضارى للتاريخ إلى إلقاء الضوء على المعالم الجمالية فى سلوك الأفراد والأمم ، كما يبحث عن الدرر الإنسانية الكامنة والظاهرة فى قلوب مواكب الآدميين ، على مر الأيام ، وكر الدهور ، من عقائد ، وملل ، ونحل ، وأفكار ، وآراء ، وفلسفات ، كما يقيم أعمال الحقب التاريخية ، وأفعال العامة والخاصة ، وأثرها فى نفع الإنسانية أو خيرها ، حتى إنك تجد أنه يضع أعمال الناس فى كفة ، والفضيلة والقيم ونفع الإنسانية فى كفة أخرى ، ثم يحكم على تلك الأمم إن كانت حضارية ، أم فرعونية ، أم همجية وبدائية ، بصرف النظر عن مبانيها ، وصناعاتها ، واختراعاتها ، ومأكليها ، ومشربها ، وملبسها ، فهذه شىء ، وتلك شىء آخر — وهذه الأشياء يعتبرها القرآن نعماً أنعم الله بها على البشر ، تقتضى الشكر والإصلاح والصيانة ، ولا تتطلب الفساد والعبث والظلم ، وقد ضرب القرآن لذلك مثلاً فى قصة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتْنِى أُكُلٍ ، خُمُطٍ ، وَأَثَلٍ ، وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سَيَرُوا فِيهَا لِيَالًى وَأَيَّاماً آمَنِينَ ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَرْفَاقَهُمْ كُلٌّ مُتَرَقِّ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ . فقد كانت سبأ في مساكن سامقة ، ومراكب فارهة ، وجنان ناضرة ، فأبنا وجهك وجهك وجدت الأشجار باسقة ، والزروع ناضرة ، والحدائق غناء ، والزهور فيحاء ، والجدول متفرعة ، والعيون متفجرة ، والمياه عذبة . وقد لا يستطيع الإنسان — مهما أوتى من بيان وخصوبة في الفكر وغزارة في الخيال — أن يلاحق الإيحاء القرآني الجميل في التعبير عن الخصب ، والوفرة ، والرخاء ، والمتاع الجميل : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غُفُورٌ ﴾ . ذكروا بالنعمة ، نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران ، فكانت سماحة ونداوة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء ، وحنانا بالعتق والغفران . فماذا كان من تصرفهم إزاء هذه الطيبات وهذا الرخاء والنعيم ؟ كان الإعراض : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ ، أعرضوا عن الشكر ، وعن الحفاظ عليه ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم هذا الرخاء ، وسلب ذلك النعيم والأمن ، وحل عليهم غضب ربهم ، والمنظور إليه في القصة . وأما الإعراض والبعد عن الجادة ، والحيدة عن الصراط المستقيم ، فإنه يولد التسيب والظلم والفساد الذي يحق للأفراد والجماعات ، فجنان بغير قلوب ، ورغد بغير تخلق ، ووفرة في الرزق بغير قناعة ، وسيادة بغير حق ، جحيم لا يطاق ، وعذاب أليم ، وحياة بئيسة . والحضارة المادية (كما يسمونها) أعجز من أن تمد الإنسان بما يحويه ويصله بالوجود ، وأعجز من أن تمد قلبه بنور ، يرى به لباب الوجود ، وحقائق الحياة . ولقد خلت الحضارات المادية عمليا من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر ، وتنمية الحواس الباطنة ، لأنها لا تعترف بكيان الإنسان الباطني ، وماله من خصائص فياضة بالخير والكرامة ، وماله من ملكات تبصر الخلق مسندا إلى الخالق ، وتفترضه حيوانا مغلق الباطن كآلة الصماء . فكيف تبلغ الإنسانية رشدها ، وتنال حظها من النور والعلم الصحيح ، مادامت تجهل أن الرشد في القلوب ، لا في المعدات ، وأن النور في البصائر ، لا في الأبصار ، وتقدم الإنسانية وحضارتها الحقيقية مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر الفاحص ،

(١) سبأ — ١٥ — ٢٠ .

ومن إهمال الإنسان إلى الالتفات إليه ، ومن الهدم إلى البناء ، ومن الضياع إلى المثل والخلق والحق ، ومن لغة الغاب وزئير الأسود إلى رحمة الأنبياء وهداية السماء .

وما نحسب هذا الكائن الإنساني قد سعد يوما ، بمثل ما ساعد في الحقبة النورانية التي أتاحتها له رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار رضوان الله عليهم ، ولكنه ما كاد يهنأ بها حتى خلف من بعده خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . فأصابهم نكسة ارتدوا بعدها أطفالا ، وحرّموا الإنسانية من نبع أصيل ، ومعين فياض ، ورحمة غامرة ، كفيفة بأن تعدل المسار المعوج ، وترد الحيوانية الجاحمة إلى الفطرة الإنسانية الحانية . ودائما يسير القرآن مع الحوادث التاريخية ، وقصص الأولين ، وأعمال الغابرين ، مؤكدا ومبيننا ودالا على مواطن الفساد ، التي كانت سببا في ضياع حياتهم ، وتعاसे معيشتهم ، وينطلق في تحليل ذلك من خراب المعتقدات ، ونسف الأخلاقيات ، وظهور الحيوانات ، واتباع الشهوات . وإذا وقع هذا الخراب في أمة ، وظهر فيها ذلك الهدم ، أتى على قواعدها ، وزلزل أركانها ، وإن كانت أعتى من الجبال ، وأعز من الشم الرواسي ، وإن بلغ أهلها من العمران ما بلغوا ، ومن العلم ما سخروا الجوزاء ، واعتلوا الزهراء ، وملكوا أجواز الفضاء .

وقد نهى القرآن إلى هذا الدرس الموجه ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (١) . هنا ذكر القرآن في القصة أن القوم كانوا أصحاب عمارة وفن وهندسة ، تعجز الأفكار من اللحاق بها ، والعاملين أن يتناولوا إليها ، وأنهم طوعوا الأحجار ، ونقلوا الجبال ، وحفروا الصخور ، وشيدوا المدائن ، وأقاموا الحصون ونصبوا الجبال وبنوا لها مثيلا وشبيها ، ولكنهم فقدوا أنفسهم ، فلم تغن عنهم شيئا ، ولم ترد عنهم محققاً أو هدماً أو ضياعاً ، لأنهم فقدوا صفات الإنسانية وظنوا أنفسهم آلهة ، فطغوا في البلاد ، وركبهم الغرور والكبر ، فظلموا العباد ، ولم ترد عنهم قيم أو ضمائر ، فأكثروا فيها الفساد ، فكانت

(١) الفجر — ٦ .

النتيجة المحتومة والنهاية المرتقبة لفقدانهم الحضارة الحقة والقيمة الأصيلة : ﴿ فصب عليهم ريك سوط عذاب إن ريك لبالمرصاد ﴾ . ولا يستطيع أحد أن يقول عن فرعون ، الذى كان يعيث فى الأرض فسادا ، ويحطم الناس ماديا ومعنويا ، ويسفك دماء من يريد ، ويحى من يريد ، لا يستطيع أحد أن يكابر ويدعى أنه إنسان حضارى ، إلا أن يكون قد فقد حاسة الإنسانية ، وضاعت منه نفسه وعقله وصدق الله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا ، يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِذْ يَبْخُلُ أَنْ يَتَعَفَّى عَنْهُمْ ، وَيَسْتَجِ نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ومن بلغ به الفساد هذا المبلغ ، فغلظ كبده إلى هذا الحد ، ودنست سيرته إلى تلك الدرجة ، لابد أن يكون وحشا أو ذئبا بشريا ، ولا يشفع له عند علماء الحضارة قصر منيف ، أو حديقة غناء ، أو هرم شاخ ، أو رسم ناطق ، أو زخرف بهيج ، سخر فى صنعه البشرية بغير أجر ، وأسأل فيه الدماء بغير رحمة ؛ لينعم كشخص ، ويهيج كفرد ، ويتلذذ كشهوة جامحة ، والتصورات الإسلامية فى التاريخ البشرى للحضارة تنطبق تماما على المؤمن الملتزم ، الذى استطاع أن يقهر نفسه ، وأن ينمى فطرته ، وأن يكتسب صفات الخير ، ويعطى الإنسانية ، ولا يأخذ منها ، إلا بقدر ما يحل له ، ونرى تلك الصفات وفعلها فى المجتمعات ، ونرى حديث القرآن عنها ، وكذلك حديث رسول الله ﷺ ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢) ونرى الرسول ﷺ يقرن العبادة بالسلوك ، ويربط السلوك بالحياة وبالمجتمع ، فيقول عن رب العزة : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم اليتيم والأرملة ، ورحم المصاب ، ذلك له نور كنور الشمس أكلؤه بعنايتى ،

واستحفظه بملائكتي ، واجعل له في الظلمة نورا ، وفي الجهالة حلما ، وإن مثله في الناس كمثل الفردوس في الجنة » . عناصر الخير ، ورجال الحضارة ، وبناة الأمم ، وحملة الصفات الكريمة ، الذين تبحث عنهم الإنسانية ؛ لترتاح من عناء ، وتسعد من شقاء ، إذا دخلوا مجتمعا أناروه ، وإذا فعلوا فعلا وزنوه وقدروه وحسبوه . أصحاب ضمائر حية ، ونفوس كريمة ، وقلوب مزهرة . معهم موازين للأعمال والأفعال ، يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويزنون أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، سئل رسول الله ﷺ عن الإثم ، وعن الإيمان ، وعن البر ، وهذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، ولكن لسلامة القلوب ونور الأبصار وسلامة الطوية تأتي الإجابة سهلة مشرقة بغير تعقيد . فيقول الرسول ﷺ : « الإثم ماحك في صدرك ، وكرهت أن يطّلع عليه الناس » ^(١) .

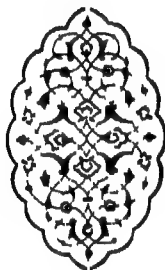
والإيمان : « إذا ساءتلك سيئتك ، وسرتك حسنتك ، فأنت مؤمن » ^(٢) . إجابة سهلة ، وميزان للسلوك البشري عجيب ، ترى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الشرقية أو الغربية الكبرى ، فبأى شيء كانوا يجيبون ؟ أما حامل الإجازات والدرجات العلمية ، فكان سيذهب إلى كتب التعريفات ، أو الاصطلاحات ، أو اللغويات ، ليستخرج منها معنى هذا الاصطلاح ، ويقف الساعات حتى يبلوره ويصوغه ، ثم يخرج لك التعريف يظن أنه يرضى ويشفى ، وما أظنه ، إلا زاد الطين بلة ، والحقيقة ضياعا ، أما الفيلسوف فيعرف لك تعريفا تجريديا ، يزيد الأمر عننا على عنت ، وإيهاما على إيهام ، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتحيلات وفروضا وتخمينات ، مما تخرج منه وأنت أشد عجزا وأكثر حيرة ، وكانت هذه الأسئلة دائما تتلجلج في قلوب المخلصين العاملين السائرين في طريق الحياة ، وكانوا كذلك يحتاجون فيها إلى ميزان عملي يفهمونه ويطبّقونه في أعمالهم . قال وابصة بن معبد : رأيت رسول الله ﷺ ، وأنا

(١) مسلم ٨ / ٧ ومختصره للمندري ٢ / ٤٧٦ كتاب البر ، والترمذي كتاب الزهد ، ٥٢ والدارمي بيوع ٢ ،

مسند أحمد ٤ / ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) مسند أحمد ١ / ١٨ ، ٢٦ ، ٣ / ٤٤٦ ، ٤ / ١٢ ، ٣٩٨ ، ٥ / ٢٥١ ، ٢٥٢ ، والترمذي فتن ٧ .

أريد أن لا أدع شيئاً من البر إلا سألت عنه . فقال لى : اذنْ ياوابصة . فدنوت منه ، حتى مست ركبتى ركبتيه . فقال لى : ياوابصة أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت يارسول الله أخبرنى : قال : جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، وجعل ينكت بها فى صدرى ، ويقول ياوابصة ، استفت قلبك : البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك ^(١) وهذا التصور الإسلامى للتاريخ الحضارى يعلى الصفات الإنسانية ، ويمحق الحيوانية والوحشية ، وإن تلبس بالبهرج الزائف والسراب الفضفاض .



(١) مسلم كتاب البر ١٤ ، ١٥ ، الترمذى كتاب الزهد — ٥٢ والدرامى كتاب البيوع — ٢ وأحمد ٤ . ١٨٢ .

المبحث الثالث الأنبياء رواد حضارات

المتتبع للتاريخ ، والسائر والمتأمل في أحوال الأمم ، يرى مسئولية المجتمعات في قيام الحضارات أو انهيارها ، حيث أن إمكانية التقدم والتماء والخير والفلاح تتحقق إذا التزم المجتمع المبادئ الأخلاقية والروحية وغيرها مما ألحنا إليه قبل ذلك ، وجاءت به شريعة الإسلام ، وفصلته تفصيلا ، ومثل هذه المبادئ والمثل تكفل للأمة الوحدة والقوة والسطان ، وتحيطها بسياج من الحصانة الطبيعية والنظرية ، فلا ينفذ إليها ، وعلى العكس ، فإن انهيار الحضارات الذى يترأى لكل ذى عينين ينتج عن تخلى مجتمع ما عن أخلاقه ، وعن مثله ، وعن إنسانيته وحمل أمانته في الحياة . وذلك لا يتم فجأة ، بل بسنة التدرج إلى أن يرسب في قاع الهاوية تلحظ هذا في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ ^(١) . والمعنى الذى تشير إليه الآية : أن الحضارات التى زالت لم تسقط فجأة ، وإنما كان الانهيار هو المرحلة النهائية ، بعد تغير طويل الأمد ، تجمعت خلاله الأسباب ، وتفاعلت فيما بينها ، حتى أدت إلى نتيجة محتومة ، ونهاية لا بد منها ؛ كما أن الحضارات لا تقوم ولا ترتفع خبط عشواء ، كما لا تكون وليدة هوى زائل ، يتملك مجموعة من الأفراد أو الجماعات ، إذ لو كان الأمر كذلك لما قامت حضارة ، وإذا قامت تعرضت للتداعى السريع ، وأصبح التطور الاجتماعى يحكمه قانون الصدفة . وما كانت الصدفة أبدا بالعامل المؤثر في سير التاريخ .

(١) الكهف — ٥٩ .

ولكن هناك سنة من سنن الحياة هي التي تتحكم في قيام الحضارات ، وسيادة أصحابها ، وعزهم ، ومنعتهم ، وهي تدور مع الصلاح الذي في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ^(١) والصالحون كما يقول الشيخ محمد عبده . هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران ^(٢) ، وهذا هو مايسميه علماء الاجتماع بقاء الأصلح أو الأمثل في كل تنازع .

ولابد أن يكون هناك تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات ، تقابل لا بد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط ، والفتور إلى التمحض ، والسكون إلى الحركة ، إنه احتكاك فعال لن تأخذ البشرية أو تاريخها بدونه شكلها الإيجابي ، ولا تمضي إلى غايتها المرسومة إلا به : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ ^(٣) على أن الإنسان لم يترك وحده في هذا الصراع ، فعلى الرغم من أنه قد وهب قدرات العقل والروح والإرادة والنطق والعمل ؛ فإن الوحي ظل يمدّه بشريعة السماء العادلة ، ويوضح له صراطها المستقيم ، الذي يحيل الحركة البشرية في العالم إلى حركة متقدمة دائماً ، في خط متوازن صاعد ، لا رجوع فيه إلى الوراء .

وهكذا كان الأنبياء في هذه الحضارات قمة المثالية الروحية ، والمثالية العملية المؤيدة بالوحي ، والمهتدية بنوره في صراعها ضد الظلم والشر في حياة البشرية .

لقد كان الوحي الإلهي في كل حضارة نورها الهادي ، الذي تنبعث منه ملامح المجتمع الجديد بعد صراع مرير مع قوى الطغيان ، حتى إذا اكتملت مقومات هذا المجتمع الوليد — بتمام الرسالة واكتمال البلاغة — جد هذا المجتمع في البناء والتقدم ، ثم لا يلبث أن يكون بعد ذلك ازدهاراً ليغري الإنسانية بالجنوح إلى نسيان ذاتها ،

(١) الأنبياء — ١٠٥ .

(٢) انظر تفسير المنار ٥٧٨٩ .

(٣) الرعد — ١٧ .

والنكوص عن حمل أمانة الخلافة المنوطة بها ، ثم يتطور النسيان إلى جحود ونكران ، ثم إلى انحراف يؤدي إلى انحلال حضارى لا مفر منه ، ومن هنا تنشأ حاجة المجتمع مرة أخرى إلى رسالة جديدة ، ومبلغ آخر ، يحمل وحي السماء ليحيى به الأرض بعد موتها : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمْ مِثْلُ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (١) ، ﴿ مَا كُنْتُ تَذِيرُ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) ومفهوم التاريخ في القرآن الكريم يقول بهذه الدورات الحضارية المتتابة ، التى تمتدى كل دورة منها بنور النبوة مدة من الزمان ، ثم يعقب ذلك انحلال تدريجى ، لا يلبث أن يتكشف عن حقبة جديدة ، حتى كانت آخر الرسائل التى يظل معها وحيا محفوظا ، ليكون نورا هاديا إلى يوم القيامة . والأنبياء — بهذا المفهوم القرآنى — لم يكونوا دعاة عقيدة وشرعية فحسب ؛ بل كانوا مؤسسى حضارة ومدنية واجتماع وأسلوب فى الحياة جديد خاص (٣) ولقد كانوا فى تاريخ الإنسانية مظهرا للبطولة والتفانى فى سبيل الإنسانية : ﴿ طَهَّ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَحْشَى ﴾ (٤) ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٥) ، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ولهذا كان هؤلاء الرواد رحماء ، علماء ، فقهاء ، أصحاب حق ومعروف ، يصارعون الباطل ، ويبعدون الخبيث عن تلك الإنسانية المعذبة ، ولذلك فإن هذه الحلقات الحضارية — التى أشرنا إليها وألحنا إلى تتابعها — تقوم على ظاهرة الصراع بين الفضيلة والرذيلة . ومغزى التاريخ فى الإسلام — فيما يتعلق بهذه المشكلة — يقرر أن الحق هو المنتصر فى نهاية الصراع دائما ، ولقد كان هذا المعنى مصدرا لطموح الإنسانية فى الإسلام إلى المثل

(١) الأنعام — ١٢٢ .

(٢) الشورى — ٥٢ .

(٣) انظر النبوة والأنبياء فى القرآن للندوى ط المختار الإسلامى ص ٦٤ .

(٤) طه — ٢ .

(٥) الكهف — ٦ .

(٦) الشعراء — ٣ .

العليا ، التي لم تعد عرفا اجتماعيا تمليه ارتباطات معينة بالجماعة أو القبيلة أو الوطن ، وكذلك لم تكن مبدأ فلسفيا يقوم على نظرية من النظريات ، بل أصبحت قيما ربانية فوق كل هذه الأشكال من المسميات الأرضية ، ومن أجل ذلك كانت كل قصة من قصص الكفاح والصراع ضد الباطل ، غراما وعشقا بهم به أصحاب العقائد والرسالات . وفي النهاية كانت الدائرة تدور على البغى والباغين .

الأنبياء والصفوة المختارة :

تحدث علماء التاريخ الحضارى عن الصفوة المختارة التى تصنع الحضارات ، وتستنفذ الأمم من براثن التخلف ، وأكدوا على أن أى حضارة من الحضارات لا تقوم إلا بهذه الصفوة ، التى تتميز بصفات معينة ، وأفكار مخصوصة ، تستطيع معها تلك الصفوة أن تغير المجتمع ، وتنقله بعيدا عن التخلف والجهل والسفه والحيوانية ، وقد أجمع على ذلك المؤرخون ، من جيانيا تستافيكو إلى أرنولد توينبى ، حتى الاشتراكيون والمركسيون الذين يدعون إلى المساواة التامة بين البشر ، على أساس تقاسم العمل والمسئوليات ، يعلقون أهمية كبرى على دور الصفوة القائدة ، ويقولون فى كتاباتهم : إن القيادة والريادة لا تعطى أصحابها ميزة مادية أو معنوية على غيرهم من أفراد الجماعة ، ولكنهم فى واقع الأمر أشد تمسكا بحقيقة امتياز الفئة القائدة على غيرها^(١) . وحين تتصفح صفات هؤلاء الرواد التى تتكون منهم الصفوة المختارة تجد أنها فى مجملها صفات تدل على الاعتدال ، والذكاء ، والنقاء ، فيقولون : يشترط فيهم : العلم — والمعرفة — والشجاعة — والطهارة — والذكاء — والصدق — وسلامة الحس — والطموح — والقدرة على القيادة — والتطلع إلى المستقبل ونحن نقول متعجبين : وهل الأنبياء والرسول إلا مجموعة من الصفات الحسنة العالية ، التى تندر أن توجد فى غيرهم ، حتى قبل أن يبعثوا ، وإذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة من رسول الله ﷺ ومن أخوته الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وجدنا الكثير الكثير .

(١) انظر فى ذلك الحضارة لحسين مؤنس ص ١١٢ ط عالم المعرفة الكويت .

أما عن رسول الله ﷺ وعلمه ، فقد أوتي جوامع الكلم ، ومملك زمَام
الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(١) . وأوتي القرآن ومثله معه ،
ودعا الله أن يزيد علمه على علم ، فقال : ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ ^(٢) . وأما عن
خلقه ﷺ ؛ فقد مدحه القرآن فقال : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ ^(٣) . وقالت
عائشة حينما سأها أبو عبد الله الجدلي عن خلق رسول الله ﷺ ، قالت : خلق
رسول الله في أهله : كان أحسن الناس خلقا ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا
صخاباً في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح ^(٤) . وعن أنس
قال : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا لم صنعت ، ولا أأ
صنعت ^(٥)

وأما عن تواضعه ﷺ ، « فعن عمر رضي عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« لاتطروني كم أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله
ورسوله » ^(٦) ، وعن أنس بن مالك قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد
رسول الله ﷺ ، فتنتلق به في حاجتها » ^(٧) . وقالت عائشة — لما قيل لها ما
كان رسول الله ﷺ يصنع إذا دخل بيته — قالت : كان يكون في مهنة أهله ، فإذا
حضرت الصلاة خرج فصلی ^(٨) .

وعن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشهد
الجنائز ، ويأتي دعوة المملوك ، ويركب الحمار ، ولقد رأيته يوما على حمار خطامه
ليف .

(١) البقرة / ٢٦٩ .

(٢) طه / ١١٤ .

(٣) القلم — ٦ .

(٤) أخرجه — أحمد والترمذي وصححه .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) أخرجه البخاري .

(٧) أخرجه البخاري .

(٨) أخرجه البخاري .

وأما عن حياته ونفائه :

عن أنس بن سعيده الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه ^(١) . وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ رأى على رجل صفرة فكرهها ، وقال : لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة . « قال : وكان لا يواجه أحدا فى وجهه بشيء يكرهه » ^(٢)

شفقته ﷺ :

عن أنس أن النبى ﷺ قال : إني لأدخل فى الصلاة ، وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى ، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه ^(٣) . وقال تعالى فى ذلك ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، غَزِيْرٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ ﴾ ^(٤) .

حلمه وصفحه :

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعراى ، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ ، قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مرلى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضحك . ثم أمر له بعطاء ^(٥) .

جوده وكرمه :

عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٣) متفق عليه .

(٤) التوبة — ١٤٨ .

(٥) متفق عليه .

في رمضان ، حين يلقاه جبريل عليه السلام ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، قال : فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ^(١) .

شجاعته —

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس : كان فزع في المدينة ، فخرج الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم رسول الله ﷺ قد سبقهم ، فاستبرأ الفزع على فرس لأبي طلحة عري ، ما عليه سرج ، في عنقه السيف ، فقال : لا تراعوا وقال للفرس : وجدناه بحرا ، أو إنه لبحر ^(٢) . وهكذا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، على تلك الصفات الحميدة ، حتى مدحهم القرآن ، وسجل كثيرا من تلك الصفات لهم ، فقال في إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ^(٤) ونرى القرآن يذكر الأنبياء واحداً واحداً بصفاتهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(٥) ، ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(٦) ، ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ^(٧) . وقال في إسحاق ويعقوب : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ^(٨) ، وقال في أيوب : ﴿ إِنَّنَا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(٩) . وهكذا نجد الأنبياء والمرسلين قد بلغوا من الصفات الكريمة مبلغا سامقا ، لا يدانيه أحد ، وكانوا أصحاب رسالات ، إصلاح ونقاء وتصحيح لمسار الضالين الباغين من عباد الله سبحانه ، وكان همهم مع الباطل وأهله جولات وجولات ، وجاءوا بتعاليم ربانية هادية ، تأخذ بيد الناس

(٦) مريم — ٥٤ .

(٧) مريم — ٥٧ .

(٨) مريم — ٥٠ .

(٩) ص — ٤٤ .

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) النحل / ١٢٠ .

(٤) التوبة / ١١٤ .

(٥) مريم — ٥١ .

إلى السعادة والأخوة والأمان والاستقرار والتقدم والرخاء ، فمن هم الرواد إذا لم يكونوا هم ؟ ومن يكون أهلا للإصلاح بعدهم ؟ ومن جالد الباطل مثل ما جالدوا ؟ ومن حمل عن النقاء والحسية مثل ما حملوا ؟ ولهذا نجد أن المسار الإسلامى فى التفسير الحضارى للتاريخ مسار معجز ، يكشف الحق لكل ذى عينين ، ويقشع الغشاوة عن الأعين ، حتى تعرف الحقيقة ، ويمتاز الحق من الباطل ، والخبيث من الطيب والحضارة الحقبة ، والرواد الحقيقيون من السراب الخادع والسحرة الدجالين . وصدق الله ﷻ : **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْعَالَمِينَ** ^(١) ، **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ^(٢)



(١) الإسراء / ٨٢ .

(٢) الأنبياء / ١٠٧ .

الباب الثانى

صلة الحضارة الإسلامية بغيرها وخصائصها والدور الذى اضطلعت به

**الفصل الأول : صلة الحضارة الإسلامية
بغيرها من الحضارات .**

**الفصل الثانى : الدور الحضارى الذى
اضطلع به المسلمون .**

**الفصل الثالث : خصائص تلك الحضارة
وأهدافها .**

**الفصل الرابع : المقارنة بين خصائص ومفهوم
الحضارة الإسلامية والغربية**

الفصل الأول

**صلة الحضارة الإسلامية
بغيرها من الحضارات**

لاشك أن المجتمع الإنساني مجتمع واحد ، يشترك في الصفات الإنسانية ، عقلية كانت أو جسدية ، فهم أبناء أب واحد وأم واحدة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ^(١) . كما أن اهتمامات المجتمع الإنساني الأساسية متفقة ، وطبيعته متحدة ، وميوله تنطلق من فطرة واحدة ، فالاستقرار والسعادة ، والأمن ، والخوف ، والرضا ، والغضب ، صفات ومعاني بشرية ، تتلون بها النفوس على اختلافها وتعددتها ، ولهذا فكل شعوب الأرض تجمعها صلات معينة ، وميول وتطلعات وثقافات تتشابه ، أو تتناقل من صقع إلى آخر ، ومن مجتمع إلى سواه ، حسب الأحوال في الاختلاط ، أو البيئات ، أو التطلعات ، والغايات والاستعدادات ، ولهذا تدور بين الأمم ثقافات وأعراف وعادات مؤثرة أو متأثرة ، حسب ظروف كل أمة وطبيعتها ، تؤثر في مجرياتها وأسلوبها في الحياة ، وقد تكون من أسباب تحضرها ونهضتها ، أو من وسائل انحطاطها وذلتها ، وقد لا تؤثر فيها ، لا إيجاباً ، ولا سلباً . ولهذا ناسب عند الكلام على حضارة أمة من الأمم أن يبين علماء الحضارة صلة هذه الحضارة وتأثير أصحابها بالحضارات وبالأمم السابقة لها والمتقدمة عليها .



(١) الحجرات ١٣ .

المبحث الأول صلة الحضارة الإسلامية بالحضارة العربية القديمة

الحضارة العربية القديمة :

لاشك أنه كانت في الجزيرة العربية حضارات متنوعة ، شأنها في ذلك شأن الحضارات التي واكبتها في فارس والروم واليونان ومصر ، وكانت لهذه الحضارات آداب وقوانين وفنون ، كما واكبتها تقدم في العمران والهندسة والمشروعات المختلفة ، وقد قص علينا القرآن الكريم كثيرا من قصص هؤلاء ، كما أشار إلى معالم تلك الحضارات ، وما بلغت من ازدهار وتقدم وريادة في كثير من نواحي الحياة ، ثم كر عليها الفساد ، فأصبحت أثرا بعد عين ، وأطلالا بعد عز وشموخ ، وقد كشفت الآثار التي دأب المؤرخون على جمعها من تلك الحضارات على نبوغ التفكير والتنفيذ الهندسي ، والعمراني ، والزراعي ، والإسكاني ، والديني .

١ — عاد وثمود :

من الحضارات التي تكلم المؤرخون عنها في الجزيرة العربية : عاد ، وثمود ، حيث التقدم العمراني ، والصناعي ، والزراعي ، والمهني ، الذي تكلم عنه القرآن الكريم . وقد قدمنا طرفا من ذلك فيما سبق^(١) . كما ظهرت دول ونظم منها الدولة المعينية في الجنوب .

وكانت هذه الدولة في « الجرف » ، وعاصمتها « معين » ، ويطلق عليها اسم « قرنو » أو « القرن » . اشتهرت هذه الدولة بالزراعة والتجارة ، وكانت لها أعرافها

(١) انظر البحث في ص ٢٣ ، ٧٠ .

الاجتماعية ، تميل إلى الإستقرائية ، وإلى احترام الدين ورجاله ، وإلى تكريم المرأة وعدم امتنانها .

٢ — دولة سبأ ٩٥٠ — ١١٥ ق م . وكانت ذات حضارة وعمران ، تكلم عنها القرآن الكريم ، حيث امتاز السبئيون بإجادة البناء ، فبنوا السدود كسد مأرب ، وبنوا المعابد في مدينة « صرواح » ، كما بنوا القناطر المحمولة على الأعمدة ، حتى يجرى تحتها الماء وفوقها لإرواء المدن وأنشأوا الأحواض ، التي تدل على نبوغ في فن العمارة ، وهندسة المباني ، ومعرفة نظام الري . وركبوا البحر ، وصنعوا السفن العظام ، التي كانوا يمحرون بها عباب المحيط الهندي والبحر العربي للتجارة ، التي ازدهرت في عهدهم ، وملكوا زمامها .

٣ — الدولة الحميرية — ١١٥ ق م — ٦٢٨ م . قامت تلك الدولة على أنقاض الدولة السبئية — وجعلت عاصمتها « ظفار » ، واشتهرت بالتجارة شأن كل دول الجزيرة ، وبلغوا في الصناعة مبلغاً لا بأس به ، فسكوا النقود من الذهب والفضة والنحاس ، وصوروا عليها صور الملك وبعض آلهتهم . كما انتشرت فيها الديانة المسيحية واليهودية ، وكانت لهم صلات بالدول حولهم ، وتعرضوا للغزو من الحبشة ، وكان من القواد الغزاة أبرهة الأشرم ، الذي أراد أن يهدم الكعبة فأهلك في مكة .

دولة الشمال في الجزيرة :

١ — دولة الأنباط — ١٦٩ ق م — ١٠٥ م . وكانت دولة وثنية في الجنوب الشرقى لفلسطين ، وكانت لهم آلهة مشتركة مع مكة مثل هبل ، واللات ، والعزى ، بلغت هذه الدولة من التقدم والعمران ما بلغته دول الجزيرة ، فبنوا البيوت والمعابد والقصور من صخور الجبال ، ومازالت ماثلة لليوم ، وضرب أهلها النقود ، ونظموا الملك ، واستوزروا الوزراء ، وقد تطورت الثقافة ، وتقدمت الكتابة المأخوذة من الخط الآرامي إلى الخط العربي ، الذي انتشر في الحجاز ودون به القرآن ، ثم انتشر في البلاد العربية والإسلامية بعد ذلك .

٢ — دولة تدمر . وهي دولة عربية في لغتها وجنسها وموطنها . تقع بين الشام

والعراق . تقدمت تجاريا وحريريا ، وكانت تمر بها القوافل التجارية إلى بقاع العالم ، تحمل البضائع ، وكانت لها اتصال بالأسواق المعروفة في ذلك الوقت ، في الشام وفي العراق وإيران والهند ، كما كان لها صلة قوية بأسواق مصر وأفريقيا ، كما نبغوا في فن العمارة ، ومن آثارهم : « هيكل الشمس » ، « هيكل بعل » . وبرعوا في النحت والتصوير والفنون المختلفة .

٣ — دولة الغساسنة . وكانت موالية للروم ، وتحارب إلى جانبهم ، وكانوا يدينون بالمسيحية . وبلغت في الناحية الحربية مبلغا كبيرا ؛ نظرا لموالياتها للروم وحلفها معها . ولم تؤثر لهم معارف أو علوم ، اللهم إلا بعض المباني من قصور ، وحصون ، وغير ذلك ، وكانت الروم تستفيد من شجاعتهم في حربها للفرس ، ورد بعض القبائل العربية التي كانت تغير على الدولة .

٤ — دولة المناذرة — أسستها قبائل عربية من تنوخ ، على سقى الفرات الأدنى ، تمكنت في فرض سلطانها على بعض القبائل العربية ، وكانت موالية وصنيعة للفرس ، ومؤازرة لهم على الروم ، وكانوا يعتنون بالناحية الحربية ، ويميلون إلى البذخ والفخر ، ومن آثارهم . قصرى « الخورنق ، والسديم » وقد اشتهرت الدولة بالتجارة ، وتعليم القراءة والكتابة ، وإنشاء القصور ، وكانوا يدينون بالوثنية ^(١) .

وسط الجزيرة :

١ — قريش — كانت لقريش منزلة كبيرة عند العرب ؛ لمنزلتهم الدينية ، ومكانهم حول البيت ، وأول من نظم قريش وجعل لها كيانا مستقلا : هو « قصي » ، ومن أهم أعماله :

أ — إسكان القرشيين في مكة .

(١) انظر في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ١ / ٢٣٠ / ١٠٠ ، ط بغداد ٣ / ٥ ، ٧١ / ٣ ، الإسلام والحضارة العربية لحواد على ١ / ١١٢ وأصالة الحضارة العربية للدكتور ناجي معروف ص ٩٢ ، ٩٥ ، ٨٦ ط الثقافة بيروت ، وحضارة العرب ص ١١٨ ، تاريخ التمدن الإسلامي لجورجى زيدان ١ / ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الأثير في الكامل ١ / ٢١ ط بيروت .

- ب — ألف مجلسا من رؤسائهم للتشاور في أمورهم .
- ج — أسس دار الندوة ، وهي مجلس للشورى ، يقطع فيه في كل أمر مهم لقريش .
- د — جعل لنفسه حجابة البيت والسدانة : أى أنه كان بيده مفاتيح الكعبة ، وهو الذى يأذن للناس بدخولها . وربما عدت الحجابة والسدانة منصيين لا منصبا واحدا .
- هـ — جعل قصى لنفسه أيضا اللواء ، وهو لواء قيادة الجيوش . وهذا يدل على أن قريشا كانت عندها حكومة مؤهلة للقيادة ، وإدارة المصالح العامة . وكانت المصالح مقسمة إلى إدارات أشبه بالإدارات الحديثة ، منها مايتأتى .
- ١ — السقاية ، وكانت في بنى هاشم ، وهي تهية الماء العذب في حياض من آدم في الكعبة ، ومنى ، وعرفات ، لشرب الحجيج .
- ٢ — الرفادة ، وهي إطعام الحجيج الفقراء ، باعتبارهم ضيوف الله ، وزوار بيته ، وكانت في بنى هاشم ، وأبقاها الإسلام .
- ٣ — قيادة الجيوش ، وكانت بيد بنى أمية ، وهي إمارة الركب في القتال والتجارة .
- ٤ — الأعنة : وهي أعنة الخيل ، ويتولى صاحبها الخيل ، ويدير شؤونها في الحرب والسلم .
- ٥ — الأشناق : وهي الديات والمغارم ، وكانت « لتميم » ، وصاحبها إذا أنفق شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه .
- ٦ — القبة : وكانت تضرب إذا خرجوا للحرب نصبوها ، وجمعوا فيها ما يحتاجه الجيش من أعتدة وأسلحة .
- ٧ — السفارة : وكان سفيرا يفاوض عن قومه في الصلح وغيره .

٨ — الحكومة : وهى التحكيم بين الناس والقضاء .

٩ — الأموال المحجرة : أى الموقوفة على الآلهة .

١٠ — العمارة : ويراد به المحافظة على حرمة البيت ، ومنع الرفث فيه ، وصيانة مبانيه ومخصصاته (١) . وقد نجح القرشيون فى التجارة فى إبرام المعاهدات بينهم وبين الفرس والرومان ، لحرية تجارتهم وتنقلاتها بين ربوع ممالكهم ، وكانت العرب تحترمهم ، لأنهم حماة بيت الله الحرام ، والمضيفون للحجيج .

معارف العرب فى الجاهلية وعلومهم :

لاشك أنه كانت على أطراف الجزيرة العربية حضارات وممالك وحكومات ، حكمت حيناً من الدهر ، وكان لها تجارها ونظمها وأفكارها . وقد ذكر بعضاً منها القرآن الكريم ، مثل : حضارة عاد ، وثمود ، وسبأ ، ولكن هذه الحضارات مسخت وزالت من الوجود ، ولم يبق منها إلا آثار مبعثرة ، ورسوماً خربة ، تركها الناس ، وبدؤوا فى سلم الحياة من جديد ، وما وجده المكتشفون بعد ذلك إنما هى آثار لأقوام ولأُمم خلت كما يقول القرآن : ﴿ تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَLَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ . وكان الناس فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ينقسمون قسمين :

القسم الأول : قلب الجزيرة — والقسم الثانى : أطرافها — التى كانت تخضع لجهتين : الأولى : المناذرة ، وهم عرب ، ولكنهم كانوا يكونون دولة تابعة للفرس ، وإن كانت تحكم حكماً ذاتياً ، والثانية : الغساسنة ، وكانوا يكونون هم الآخرون دوله تابعة للروم ، ويحكمون حكماً ذاتياً ، ولكنهم يتبعون للروم فى أى من خطواتهم وتصرفاتهم ، لا يخرجون عن إمرئهم أو هواهم . وقد رأينا كيف كانت هذه الولاءات ، وكيف فعل كسرى بالنعمان بن المنذر — لما قبض عليه حين خالفه — وهو ملك الحيرة ، ثم سجنه ، وقتله ، ورماه تحت أرجل الفيلة ، وكانت اليمن تابعة كذلك

(١) يظفر فى ذلك تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ١ ٣٤ ، ٣٩ ط القاهرة دار اعلال سنة ١٩٥٨ م ، ابن الأثير فى الكامل ١ / ٢١ ط بيروت سنة ١٩٦٥ .

للفرس ، وتحكم من قبلهم إلى أن جاء الإسلام . وكانت علوم هذه الأطراف خليطاً من معارف العرب في الجزيرة ، وأبهة الفرس والروم في القصور والعمران ، والحجّاب والخدم والعسكر والحرس والجيوش المنظمة والبلاط والعرش والشعراء والمداحين وغيرهم ، وكانت مهارتهم تظهر في صناعة الأسلحة وحياسة الملابس ، والبرد اليمنية ، ونحت التماثيل من الحجارة . والمعادن . والخشب . هذا إلى جانب ماسنذكره من العلوم في وسط الجزيرة . ومما نسب إليهم أيضاً اختراع حروف الكتابة العربية .

العلوم وسط الجزيرة :

شاعت عند العرب قبل الإسلام — خاصة في وسط الجزيرة — علوم كانت ضرورية لهم ، حتمتها ظروف البيئة . ولم يتعلم العرب هذه العلوم في مدارس ، ولا ألفوا فيها كتباً ، لأنهم كانوا أميين^(١) لا يقرؤون ، ولا يكتبون ، وإنما هي معلومات تجمعت في ذاكرتهم بتوالي الأجيال ، بالاقتباس والاستنباط ، وتنقلت في الأعقاب . وإذا أجلنا النظر في تلك العلوم الماثورة عنهم ، وجدنا بعضها نشأ عند العرب ، والبعض الآخر أخذ اقتباساً من الأمم الأخرى ، فالعلوم العربية . كالأنساب والشعر والخطابة ، أما العلوم المقتبسة : فهي كالتنجيم ، والطب ، والأنواء ، والخيال ، ومهاب الریح ، والكهانة ، والقيافة وغيرها . وقد ذكر الشهرستاني أنه كان قبل الإسلام أربعة أنواع من الدراسات العربية : علم الأنساب ، والتاريخ ، وتفسير الأحلام ، وعلم التنجيم ، وهذه هي حدود معارف العرب قبل الإسلام . وقد اهتم ملوك الحيرة والغساسنة بحكم مخالطتهم للفرس والروم ، بحروف الكتابة التي انتقلت منهم إلى الجزيرة العربية ، ثم إلى الحجاز ، ثم إلى الكوفة ، حتى أطلق اسم الكوفة على هذا

(١) الأمية كانت السمة الغالبة ، وإلا فقد كانت الكتابة والقراءة موجودة بين بعض الأفراد ، وقد رأينا ذلك في استعمال الرسول الأسرى المتعلمين في تعليم أطفال المسلمين ، وكان للرسول كتاب للوحى ، وكانت بعض النساء تعرف كذلك القراءة والكتابة ، ولكن هذا كان في وسط الجزيرة على قلة ، لا تؤثر في المجتمع ، وفي ثقافته .

الفن^(١). كما كان للعرب علم بالتجارب الطبية ، والعقاقير المستخلصة من الأعشاب ، كما كانوا يستعملون الكي والحجامة والفصد^(٢). وكان العرب يمزجون الطب بالكهانة ، والثرق ، والتعاويد والعقاقير ، والأعشاب التي كانت في بلاد العرب ، أو التي يجلبونها من الهند والصين .

صلة الإسلام بالحضارة العربية قبله :

من تلك المقدمة التي تكلمنا فيها عن الدول العربية القديمة ، أو التي كانت قبل الإسلام ، يتبين لنا أن العرب قبل الإسلام كانت لهم معارف حتمتها ظروف البيئة والمعيشة الصحراوية التي كانوا يعيشونها ، وهذه العلوم كانت بمثابة تجارب ومعارف ليست مدونة أو مكتوبة في صحف أو رسائل ؛ لأن العرب قوم أميون كما هو واقعهم . وكما قال القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾^(٣) ، ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾^(٤) . وكان للعرب مع هذا فصاحة ، وبلاغة ، وأشعار ، وحكم ، وأمثال ، وتجارة ، وأسواق للشعر والأدب ، وهذه كانت سجلا لحوادثهم وحروبهم ، وكانت الأشعار بمثابة الصحافة ووسائل الإعلام اليوم ، تسير بها الركبان ، ويتغنى بها الكهول والشباب والصبيان .

واقع العرب :

لا يستطيع إنسان أن يقول : إن واقع العرب قبل البعثة كان خيرا كله ، أو كان شرا كله ، بل كان فيه من كل ، ولكنها كانت جاهلية : صفات الخير فيها

(١) انظر في كل ذلك : الملل والنحل للشهرستاني ج ٣ ص ٢٧٥ ط الحسين التجارية تعليق أحمد مهدي . والحضارة العربية للخبزوطي ٢٢١ وأصالة الحضارة العربية ناجي معروف — ١١٨ ط دار الثقافة بيروت

(٢) انظر عيون الأنباء : ابن أبي أصيبعة ١ ١١٠ ١١٢ وبلوغ الأرب للألوسي ٣ ٣٣٣ ط الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٥ .

(٣) الجمعة — ٢ .

(٤) آل عمران — ٧٥ .

تتلاطم مع جبال الضلال ، يقول خودابخش : « كانت حياة العرب حياة حرية ومرح وسرور ومجون ، وكانت الخمر والنساء والحرب ، هي الأشياء الثلاثة التي يحبها العربي الجاهلي ويهتم بها ، فهو إما أن يستغرق في الخمر ، أو ينصرف إلى العشق ، أو يستنفد قوته وطاقته في الحرب القبلية ، أو سلب بعض العشائر^(١) . وقد أجاد طرفة ابن العبد في تصوير الحياة اليومية حيناً قال :

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

ثم قال :

ألا أيها اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وتسمع جعفر بن أبي طالب يقول للنجاشي ، مبيناً أمر الجاهلية بالنسبة للإسلام : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ؛ ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ؛ لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام^(٢) . وقد تحدث القرآن عن كثير من الصفات المردولة ، ونهى عنها . من ذلك قوله : ﴿ قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي

(١) حضارة الإسلام صلاح الدين خودابخش ترجمة الخربطلى / ١٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٩ .

هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لانكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى ﴿١﴾

وأما عن عقائد العرب الدينية فكانت متدنية شاذة ، تميل إلى السطحية ، والانتكالية .

أما عن السطحية الدينية ؛ فهي موجودة عند كل وثنى يخضع لحجر ، ويسجد لصنم ، وينقاد لدمية ، لا تسمع ولا تعقل ، وقد كانت بنو حنيفة تصنع صنمها الذى تعبده من عجوة ، وكلما جاءتهم سنة قحط ومجاعة أكلوه ، وسدوا به رمقهم ، وسجل ذلك الشاعر العربى . فقال :

أكلت حنيفة ربا زمن التقحم والمجاعة لم يحدروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وأما عن الانتكالية : فقد كانت تتجلى فى الكهانة ، أو التمام ، والتعاويد وغيرها من الانتكاليات والإجهاضات المستمرة للفكر الصحيح ، وكانت أيضا تسيطر على الفكر الدينى ، والتأمل العقلى الناضج ، فتراهم إذا فتحت أمامهم نافذة للبحث أو التفكير أو الجد فى التصور الدينى قالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ^(٢) . ونرى ذلك أيضا فى قول ثمود قوم صالح : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا . أَأَنْتَ هَذَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ ^(٣) . وكان العربى يأنف من الحرف والأعمال اليدوية والصناعية والمهنية ، ويعيش فيها عائلة على غيره ، وهذا ما جعله يجلب كل ما يحتاج إليه ، ولا يفكر فى صناعته أو إنتاجه ، وكان هذا من الأمور المؤثرة على المد العمرانى والإنتاجى ، فلم يشاهد فى وسط الجزيرة صناعة ذات قيمة ، أو عمارة أو مدن ذات شأن هندسى أو إبداعى ، وإن كان فى أطراف الجزيرة

(١) الأنعام — ١٥١ — ١٥٢

(٢) الأعراف — ٧٠ .

(٣) هود — ٦٢ .

يختلف الأمر ، لتقليد الفرس أو الروم ، ومجاورتهم لأقوام تحفل بهذا النوع من الرفاة والترف .

الحاسن والمفاخر :

وهذا لايغنى أن العرب كانوا مجردين من الصفات الحميدة والعادات الحسنة ، مثل الشجاعة ، والعزة ، والأنفة ، والبلاغة ، والفصاحة ، والكرم ، والوفاء ، والنجدة ، وصدق العهد ، فإن لهم في ذلك قصصا وحكايات مشهورة ومتداولة ، وكانت العرب تمتاز عن غيرهم بالذكاء ، والبعد عن الترف والسفسطة والخنوع والذلة ، كما كان العربى محبا للحرية ، عاشقا للفروسية ، لم تصبه أمراض الحضارة الفارسية أو الرومية ، ولم تظهر في وسطه المذاهب الانحلالية أو الانهزامية ، كأفكار مزدك ، أو ماني ، بل كانوا أوفياء لديانة إبراهيم ، رغم التحريف والتغيير ، يعظمون الكعبة ، ويحجون إليها ، ويدافعون عنها ، ويعتبرونها عزهم ورمزهم ودينهم وعز آبائهم . ويؤيد هذا ما تحدث به أبو حيان التوحيدي « في الإمتاع والمؤانسة » إلى الوزير أئى عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، في مسامرته معه ، في الليلة السادسة ، عن تفضيل العرب على العجم ، وروى في ذلك كلاما لابن المقفع ، وهو أصيل في الفرس ، عريق في العجم ، وشهادته هي الشهادة . فقال : أقبل علينا ابن المقفع في مجلسنا ، فقمنا إليه وفرحنا به ، فقال : « أى الأمم أعقل ؟ فظننا أنه يريد الفرس . فقلنا : فارس أعقل الأمم . نقصد مقارنته ، ونتوخى مصانعته . فقال : كلا ، ليس ذلك لها ، ولا فيها ، وهم قوم علموا فتعلموا ، ومثل لهم فامتشلوا واقتلوا ، وبدئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه ، ليس لهم استنباط ، ولا استخراج . فقلنا له : الروم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدان وثيقة ، وهم أصحاب بناء وهندسة ، لا يعرفون سواها ، ولا يحسنون غيرها . قلنا : الفصين . قال أصحاب أثاث وصنعة ، لا فكر لها ولا روية . قلنا : فالترك . قال : سباع للهراش . قلنا : فاهند . قال : أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة . قلنا : فالزنج . قال : بهائم هاملة . فرددنا الأمر إليه . قال : العرب ، فتلاحظنا ، وهمس بعضنا إلى بعض ، فغاضه ذلك منا ، وامتقع لونه ، ثم قال : كأنكم تظنون

فِيِّ مقاربتكم ، فو الله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت إن فاتني الأمر أن يفوتني الصواب ، ولكن لا أدعكم حتى أبين لكم لم قلت ذلك ، لأخرج من ظنة المداراة ، وتوهم المصانعة . إن العرب ليس لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدها ، أهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس . احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه إلى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه وأوقاته وأزمته . وما يصلح منه في الشاة والبعر ، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعاً وصيفاً ، وقظيلاً وشتوياً . ثم علموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء . وعرفوا تغير الزمان ، فجعلوا له منازل من السنة . واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد ، وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم في الجميل ، ويتجنبون به الدناءة ، ويحفظهم على المكارم ، حتى إن الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئاً ، ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر ، ليس لهم كلام إلا وهم يحاذون به على اصطناع المعروف ، ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد . كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون ، بل نحائز مؤدبة ، وعقول عارفة . فلذلك قلت لكم : إنهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم ... » ^(١) والحق أن العرب — لهذه الصفات الكريمة التي سادت فيهم — كانوا أصلح الأمم لدعوة الإسلام ، وحمل تبعته . وما ظهر فيهم من أمراض استطاع الإسلام أن يستأصلها ، وأن يجتثها ، فصحت الأجساد وقويت ، ونهت العقول وارتفعت ، وسمت الأخلاق وعظمت ، وصدق الرسول ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ^(٢) « خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فِيقَهُوا » ^(٣) ، وفي

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٧٠ — ٧٣ .

(٢) الموطأ بلفظ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق — حسن الخلقه — ٨ .

(٣) البحار أنبياء ٨ ، ١٤ ، ١٩ ح ٤ ص ١١٣ ، عيسى ٧ / ٣٨٣ عسقلاني ٥ / ٤٣٨ ، مسلم كتاب الفضائل ١٦٨ .

هذا يقول ابن المقفع « وقد رأيتهم حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملة ، وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشرعية ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونصرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية ، كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم ، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها ، وكدحوا في حيازتها ، أو تعبوا في نيلها ، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر ، وهذه النواذر من المآثر عفوًا ، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهوا رهوا .

وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه ، وساقه إلى أهله بتأييده ، وحلّ مستحقه باختياره . ولا غالب لأمر الله ، ولا مبدل لحكم الله . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَبِيدُكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . والله في خلقه أسرار تتصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتدلّلها مجاري الأقدار ، حتى ينتهي بمحبوبها ومكروهها إلى القرار . عز إلهًا معبودا ، وجل ربا محمودا مقصودا ^(١) . وهكذا نستطيع أن نقول : إن أمة العرب كانت وعاء صافيا للإسلام ، وحقلا خصبا ترعرعت فيه أفكاره ومبادئه وحضارته .

عطاء العرب للحضارة :

وأما عن عطاء العرب للحضارة الإسلامية ، فنستطيع أن نقول : إن عطاء العرب للحضارة الإسلامية هو استعدادهم الفطري ، وصفاتهم ومكارمهم الأصلية ، التي صادفت تعاليم الإسلام ، فتمكنت فيها وأينعت ، هذا هو عطاؤهم إن كنا نسمى هذا عطاء ، وإلا فعقيدة الإسلام غيرت العقائد العربية ، بل قلبت موازين المعتقدات العربية ، وكذلك نظم الإسلام وشريعته — كانت شريعة ربانية لا دخل فيها لبشر أو إنسان — وصدق الله : ﴿ مَا كُنْتُ تُذِرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) ، ﴿ مَا

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٨٠ — ٨٣ .

(٢) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

فَرَوْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴿١﴾. فلم يأت الرسول — كما يقرر القرآن — بشيء من عنده في العقائد والعبادات ، حتى يقتبس من حضارة العرب أو معارفهم ، إن صح أن يسمى ما عندهم معارف وحضارات . كما لم تتأثر تلك الشريعة بالرجال ، ولا بأعراف المجتمع وأخلاقه ، وإنما كانت دستوراً بعيداً عن أهواء البشر ، وصرطاً مستقيماً ، لا عوج فيه ، ولا زيغ معه . نعم قد تتأثر الحضارات في الماديات من العلوم النظرية والتجريبية ، ولا تتأثر في العقائد والأخلاقيات ، والروحانيات ، والعباديات ، والتعاليم التي تمثل جوهر الشرائع ، والعرب كما قدمنا لم تكن عندهم علوم ، إلا بعض ما حتمته عليهم ظروف البيئة ، لأنهم قوم أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ، فأى شيء من العلوم النظرية أو التجريبية أخذته الحضارة الإسلامية من الجاهلية . نعم هناك بعض الصفات أقرها الإسلام من عادات العرب ، وهي صفات الشجاعة ، والنجدة ، والوفاء ، والكرم ، ومكارم الأخلاق ، مع شيء من التعديل للغاية التي تقصد بها هذه الأعمال ، والأحوال المستعملة فيها .



المبحث الثاني

صلة الحضارة الإسلامية بالحضارات غير العربية

يحسن بنا أن نقدم بين يدي الموضوع فكرة موجزة للغاية عن حال تلك الشعوب ، التي عاشت في مواطن تلك الحضارات ، التي تحدث عنها التاريخ ، فقد كان القرن السادس والسابع « ميلاد المسيح » من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . كانت الإنسانية متدنية منحدره ، تتدرج من سيئ إلى أسوأ منذ قرون ، وفقد المصلحون — بدون استثناء — أى أمل في أى قوة على وجه الأرض يمكن أن تمنعها من التردى أو الهلاك ، لأنها فقدت كل شيء ، فقدت عقائدها ، وأخلاقها ، ونظمها الاجتماعية ، وفقدت حتى نفسها ، فتدنت عقليتها إلى أبعد مدى ، وأصبحت تعشق الحيوانية ، وتهيم بالرديلة ، وتدمن الصعلكة ، وأصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المنحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وتأثيرها وقوتها ، حتى أنه لو بعث أصحابها الأولون ما عرفوها ، وما أحسوا نحوها بعلاقة أو سبب .

أصبحت النصرانية مزيجاً من أفكار بولس ، الذى طمس نورها ، وأدخل فيها الوثنية التى أحبها ، وجاء قسطنطين ففضى على البقية الباقية منها ، حتى غدت خليطاً غريباً من الخرافات اليونانية ، والوثنية ، والأفلاطونية ، والرهبانية ، وهاجرت منها تعاليم المسيح البسيطة الميسرة ، التى جاءت غذاء للروح ، وحفظاً للعقل ، وسلوكاً مستقيماً ، بل أصبحت عبثاً على الإنسانية ، وعلى تقدمها وفكرها . وأوغلت اليهودية في تعصبها وعنصريتها ، وأباححت لنفسها مالم تبحه لغيرها ، وقصرت الديانة على شعبها ، الذى تزعم أنه شعب الله الذى اختاره دون غيره ، ليملك الأرض ،

ويستعبد الناس ، وقد تكلم القرآن على تلك النزعة ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (١) . وأورثهم هذا التعصب والحقد ما جعلهم عرضة للاضطهاد ، والاستبداد ، والنفي ، والجلاء ، والعذاب ، والبلاء ، وتسبب ذلك في تكوين نفسية غريبة ، وخصائص خلقية ذميمة ، كانت لهم شعارا على تعاقب الأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق في عامة الأحوال ، والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن الخير ، مما جعلهم لم يكونوا في يوم من الأيام عاملا من عوامل الحضارة والدين اللذين يؤثران في غيرهم .

تناحر الأديان :

دائما أبدا كانت الأديان بعد أن فسدت في شقاق دائم ، وسفك مستمر للدماء ، فعند اقتراب البعثة في أوائل القرن السابع الميلادي « أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية ، فأرسل الامبراطور فوكاس قائده « أبوس » ليقضي على تمرد للمسيحيين . فذهب وأنفذ عمله . بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعا بالسيف ، والشنق ، والإغراق ، ورميا للوحوش الكاسرة . وتكرر ذلك مرة بعد مرة بين اليهود والنصارى » (٢) يقول المقریزی في ذلك : « وفي أيام فوكا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سببا لا يدخل تحت حصر ، وساعدتهم اليهود في محاربة النصارى ، وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرية صور ، وبلاد القدس ، فمالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيسة بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطريرك القدس وكثيرا من أصحابه » (٣) .

(١) المائدة — ١٨ .

(٢) ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين ٤٥ — ٤٦ .

(٣) كتاب الخطط للمقریزی ٤ / ٣٩٢ وماذا خسر العالم ص ٤٦ .

الأنظمة السياسية :

كانت تحكم المنطقة المحيطة بالجزيرة العربية دولتان كبيرتان ، هما : الفرس ، والروم ، وكانت كلتا الدولتين زعيمتي العالم المتمدن في ذلك الوقت ، وكأنا — في نفس الوقت — الحقل الخصب لنشاط كبار الهدامين . الذين عرفهم العالم . فكانت الأسس الأخلاقية منهارة ، وكانت القوانين لعبة في يد قلة من الناس ، تتحكم في مصائر البشر كيفما يحلو لها .

أما فارس التي شاركت الروم في حكم العالم وقتئذ ، فقد تدهجرت في الحضيض ، ففسدت أخلاقها ، حتى أن المحرمات النسبية التي تواضع على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة ، كانت تلقى رواجاً في المجتمع ، ولا تجد نكيراً ، بل كان البيت الكسروي نفسه ، يستملح هذا الدنس ، حتى أن يزدجرد الثاني ، الذي حكم أواسط القرن الخامس الميلادي ، كان على رأس القائمة ، فتزوج ببنته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين ، الذي تملك في القرن السادس ، كان متزوجاً بأخته^(١) . ولقد برر هؤلاء تلك الأعمال المشينة بأنها قرى إلى الله تعالى ، وأن الآلهة أباحت لهم الزواج بغير استثناء ، « ثم ظهر ماني » في القرن الثالث المسيحي ، نتيجة للنزعة الجنسية ، والتسيب المزرى ، فأحدث ظهوره رد فعل عنيف ، ووجد له أنصاراً ، وكان يدعو إلى ترك الشهوة ، وحب العزوبة ، فحرم النكاح لقطع النسل ، واستعجال الفناء ، فثار عليه أصحاب الشهوات ، وأغروا به ، فقتله بهرام سنة ٢٧٦ م ، وقال في قتله : إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتيهاً له شيء من مراده . ولكن تعاليم « ماني » عاشت بعد موته تتصارع في المجتمع ، وبعد أن انتصرت الشهوة على تعاليم ماني ، ظهر مزدك ، الذي ولد سنة ٤٨٧ ف أعلن أن الناس ولدوا سواء لافرق بينهم ، فينبغي أن يعيشوا سواء لافرق بينهم ، ثم تدرج من هذا إلى ما يريد ويقصد ، فقال : ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته ، كان ذلك عند مزدك أهم ما

(١) تاريخ الطبري ٣ / ١٣٨ .

تجب فيه المساواة ، ويكون فيه الاشتراك . قال الشهرستاني : « أحل مزدك النساء ،^(١) وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والكلاء والنار » وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشباب والمترفين ، وصادفت في قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط ، فأخذ قباز يناصرها ، ونشط في نشرها وتأبيدها ، حتى انغمست إيران في فوضى خلقية ، وطغيان للشهوات . قال الطبرى : « افترض السفلة ذلك ، واغتموا ، وكاتفوا مزدك وأصحابه ، وشايعوه ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا « قباز » على ذلك ، وتوعدوه بخلعهم ، فلم يلبثوا إلا قليلا ، حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك شيئا مما يمتنع به »^(٢).

ولم يقف الأمر عند تحطيم الأخلاق ، وإباحة الأعراض والأموال والممتلكات ، بل كانت الأمة تنظر إلى الأكاسرة — ملوك فارس — على أنهم من نسل الآلهة ، يجرى في عروقهم الدم الآلهى ، « يعتقدون أنهم مقدسون ، في طبيعتهم أشياء علوية مقدسة ، ولهذا كان الشعب يكفر لهم ، وتنشد الأمة الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، ولا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقا على كل إنسان ، وليس لأى إنسان حق عليهم »^(٣) كما كان المجتمع بعد ذلك يزرع تحت نير طبقية بغیضة موعلة ، فكانت الوظائف حكرا على طبقة معينة ، لا يرق إليها وضيع من عامة الناس ، من أرادوا أن يمنوا عليه بالرفعة كان هو الرفيع ، ومن يخفضونه كان الدليل المهين ، وبهذا ضاعت كرامات الناس ، وأهيلت أقدارهم وخمدت مخايل النبوغ فيهم ، فتدنت الدولة ؛

(١) ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ص ٤٨ بتصرف والملل والنحل للشهرستاني ١ / ٨٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٨٨ ، انظر موسوعة النظم الحضارية أحمد شلبى ٣ / ٢٨ ، ٢٩ ، وكارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٩١ ط بيروت .، وماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ص ٤٩ .

(٣) ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ص ٤٩ — ٥٠ .

لقصرها القيادة والريادة وتدير الأمور على طبقة من المترفين الخاملين المترعين على عرش التقديس ، وإن كانوا لا يفقهون أو يعقلون ، حتى أنهم إذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ولَوْاً صغيراً ، فقد ملكوا عليهم « فرخ زاده خسروا » ابن كسرى أبرويز ، وهو طفل ابن سبع سنين ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا امرأة ، وقد ملكوا بوران بنت كسرى ، وابنته الثانية أُرْمِي دخت ، وكانت أمور الدولة تسير من سيء إلى أسوأ ؛ لفقدان الرجال أصحاب الرأي والعقل والحكمة .

أما الروم : فلم تكن أسعد حالا من الفرس ، حيث كانت المذاهب المتعددة تقطع الدولة ، وكانت المجادلات الكلامية والفسفسطة العقيمة تشغل فكر الأمة ، وتستهلك ذكائها ، وتبتلع قدرتها العملية ، التي تحولت فيما بعد حروبا كلامية ، ثم تدرجت إلى دموية تدميرية ، تحرق الأخضر واليابس ، وتحولت المدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة ، بين حزب الدولة الامبراطورية وحزب الملك ، والبلاد في جدال حول طبيعة المسيح ، أهى مزدوجة أم ليست كذلك .

أما عن الانحلال الأخلاقي والاجتماعي :

فقد « ذابت الفضيلة في المجتمع ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ، ليقضوا مآربهم في حرية ، وكان العدل كما يقول « سيل » يباع ، ويساوم عليه ، مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع . » يقول جيبون : في آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثّل دوحّة عظيمة ، كانت أمّ العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولا »

ويقول مؤلف تاريخ العالم للمؤرخين : « إن المدن العظمى التي أسرع إليها الخراب ، ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل ، الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب ، والانحطاط في التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران في البلدان »^(١) وفي هذه

(١) المرجع السابق ص ٤١ .

الأجواء الخائقة تكثر المظالم ، والوشايات ، والاضطرابات ، ويروج الكسب غير المشروع ، وتشعر الشعوب باليأس والقنوط ، وتحل الأنانية والانتكالية — فيأتى الخراب من كل جانب فى الأخلاق ، وفى الفضائل ، وفى الأرزاق ، وفى العمران — وتحل بالطبقة الكادحة الأعباء والضرائب ، حيث تتخذ بقرة حلب لكل العاطلين والمترفعين والحاكمين والمتسلطين ، كما تكسب فى هذه الأجواء أسواق الثقافة والعلوم والفنون ، وتخدم العبقرية والمهارات والابتكارات ، ويتحول الناس إلى قطيع يسبح عن لقمة العيش وعن حماية نفسه وعرضه .

العلوم الاجتماعية والفلسفية والعملية :

بعد هذه الإمامة الموجزة عن أحوال تلك الأمم والديانات والمذاهب المختلفة ، التى كانت تسود فى هذه الحقبة ، يتبين لنا مقدار ما تستطيع أن تقدمه لنفع نفسها ، فضلا عن نفع غيرها ، ومقدار ما يسود فيها من أخلاق ومبادئ ، تبنى عليها دعوات للإصلاح ، أو تؤسس عليها قواعد للنهوض والسيادة ، فتعاليم زرادشت التى بنيت على قوى الخير والشر ، والنور والظلمة ، وأسست على تصارع الآلهة وتقاليمهم ، أصبحت لا تروق المفكرين والمتحمسين ، وظهر بعد ذلك من خلالها المانوية ، وتعاليمها الرهبانية ، ثم ظهر مازدك بتعاليمه الاشتراكية ، ثم تصارعت المذاهب الدينية ، ودخلتها الفلسفات الوضعية ، والشطحات العقلية ، فتفلتت القيم ، وانحلت الروابط ، وأصبحت العلوم تدور فى فلك هذه المتاهات ، ونسى الناس ، وتاهت الأمم عند تلك العلوم التى ورثوها عن الأمم قبلهم ، فقد أخذوا عن الأمة اليونانية كثيرا من العلوم ، مثل علوم الحكمة ، والفضيلة ، والأخلاق ، وفى علوم الطب التشريح ، الذى أخذه عن المصريين ، وكذلك علوم التحنيط والكيمياء التى نبغ فيها المصريون نبوغا كبيرا ، وكذلك أخذوا من المصريين هندسة المباني ، وكثيرا من فن النحت ، والتصوير ، وعلوم النجوم ، والزراعة وكذلك ورثوا الفلسفة الأفلاطونية ، وعلوم المنطق ، والطبيعة ، والرياضة ، والأقاصيص التاريخية ، ولكن هذه العلوم جهل — حتى أسماؤها — فى تيارات الفساد والإلحاد والانحيار .

صلة الحضارة الإسلامية بتلك المفاهيم :

وأستطيع أن أقول بغير جهد أو عناء : إن صلة الحضارة الإسلامية في بدء أمرها بهذه الحضارات كانت الثورة على مبادئها ومخلفاتها وأدرانها ، كان رفض هذه المبادئ الهدامة ، وتلك النحل المنهارة ، التي أشقت الناس ، ودمرتهم ، ومزقتهم كل ممزق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) . وكان من أعمال الدعوة الإسلامية كشف هذه المعتقدات الباطلة ، والديانات المحرفة ، التي لعبت بها الأهواء والشهوات ، وأصبحت سنداً للمحترفين والدجالين ؛ ليملكوا على الناس عواطفهم وقلوبهم ، ويسلبوهم كل شيء تحت هذه المظلة الخلقية ، وجأر الإسلام بها واضحة في وجوههم بغير هوادة قائلاً : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ مَوْتِلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْتُبُونَ ﴾ (٣) .

كما هدم الإسلام الفوارق بين الطبقات ، وسوى بين الناس ، بين كسرى وبين عبيده ، وبين قيصر وبين خدومه ومواليه ، وهدم تلك الحيوانية المنتسبة إلى الأرباب ، وناداهم بذلك النداء ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٥) .

(١) المائدة — ١٥

(٢) المائدة — ٦٨ .

(٣) البقرة — ٨٩ .

(٤) آل عمران — ٦٤ .

(٥) الحجرات — ١٣ .

والغى الإسلام التناصر والتقاتل بين العقائد وبين المذاهب والفلسفات ، وجاء بخلق عام ، ومبادئ واضحة ، وتعاليم ثابتة ، تعاليم الصفوة المختارة من الأنبياء والمرسلين ، لاتعاليم الفرس والروم واليونان : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ ^(١) ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ^(٢) . إن تعاليم الفرس والرومان ما حضرت حتى كتابها ، ولا من يهرفون بها ، بل كانت سببا في شقائهم وعنتهم والقضاء عليهم . وإذا أردنا أن نرى هل أخذت حضارة الإسلام من تلك الأمم شيئا ، ننظر إلى تلك العناصر التي تتألف منها كل حضارة ، ونقرر بعد ذلك عن علم ودراسة : هل أخذ الإسلام من هذه الأمم شيئا . فمن المعلوم أن كل حضارة من الحضارات تحتوى — بشكل أو بآخر — على العناصر التالية :

١ — تصور للحياة وغايتها .

٢ — عقائد ومبادئ أساسية .

٣ — منهج تربوى .

٤ — نظام اجتماعى .

وبما قدمنا من عرض لتلك المذاهب والنحل والأفكار ، التى كانت تسود تلك الأمم ، يتبين لنا أن عناصر الحضارة الإسلامية تغاير تماما تلك العناصر التى أشرنا إليها ، فلا شك أن عناصر الحضارة الإسلامية ربانية فى جذورها وأصولها وينابيعها ، فالعقيدة الإسلامية ، وتصور الحياة وغايتها ، ومنهج التربية والنظام الاجتماعى ، كل

(١) الشورى — ١٣ .

(٢) البقرة — ١٣٦ — ١٣٧ .

ذلك قرآني فطري ، قرره محمد ﷺ ، ونزل به الوحي ، وسنعرض لذلك فيما بعد .

المغايرة في الوسائل والقناعات :

تعتمد الحضارة الإسلامية على وسائل وقناعات معينة ، تغاير غيرها من الحضارات . وسائل تنبع من العقيدة ، وقناعات تعتمد على العلم والعقل والحكمة .

قرر الإسلام وسائل لبناء الحضارة الإسلامية ، وترقية الإنسان وتقدمه في هذه الحياة ، لينعم بما خلق الله له ، وتحقق الحكمة من خلقها لنفعه ، وأهم هذه الوسائل : العلم ، والحكمة ، والنظر ، والبحث ، فالعلم في الإسلام هو الوسيلة الأولى لبناء حضارته ، ولهذا كانت معجزته قرآنا يتلى ، وحكمة تقرأ ، وقانونا رابانيا يتعبد بتلاوته ، وكانت أول آية نزلت منه على محمد ﷺ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) وفرق القرآن بين من يعلم ومن لا يعلم ، فقال : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) وقال ﷺ : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ ﴾ ^(٣) ﴿ مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ ﴾ ^(٤) والآثار في ذلك كثيرة ومتعددة ، وقد بذل المسلمون في التعليم والتعلم قصارى جهدهم ، حتى أننا نجد الرسول ﷺ يطلق الأسير ، إذا قام بتعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وأمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود ، فتعلم زيد هذا بالفارسية من رسول كسرى ، وبالرومية حاجب النبی ، وبالحبشية من خادم النبي ، وبالقبطية من خادمه .

وهذا كان مبدأ تعلم العرب لغات غيرهم . ويروى ابن عساكر أنه كان لعبد الله بن الزبير مائة غلام ، يتكلم كل واحد منهم بلغة غير لغة الآخر ، فكان يكلم

(١) العلق — ١ — ٣ .

(٢) الزمر — ٩ .

(٣) رواه أبو داود ٣ / ٣٥٤ — والترمذي ٧ / ٤٥١ .

(٤) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن ٧ / ٤١٥ — ٤٦١ .

كل واحد منهم بلغته^(١) وهذا الموقف وهذه الطبيعة الإسلامية في طلب العلم تختلف اختلافا كبيرا عما حدث في عصر النهضة في أوروبا ، حيث وقفت الكنيسة موقف المتزمت من العلوم الإسلامية ، التي نقلت إلى اللاتينية . فكانت تحرم كتابات ابن رشد ، وتعتبره ملحدا ، ومن يعتنق أو يقرأ مذهبه من كبار الملحدين ، كما أحرقت القس جوردانوا بروتوا في أحد الميادين العامة في روما ؛ لاعتناقه مذهب الجواهر الفرد ، ولأقواله في العلم بغير المفهوم الكنسى .

وبهذا المبدأ وبهذه التعاليم انطلق المسلمون يبحثون عن كل علم ، ويفتشون عن كل ثقافة ، وهم مأمورون بذلك من دينهم ، ومن تعاليم رسولهم ﷺ « الكلمة الحكيمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها » ،^(٢) على أن العلم الذى فتش المسلمون عنه لم يكن قط من عناصر الثقافة والحضارة الإسلامية ، وإنما كانت علوم المادة وعلوم اللسان والعمران ، التى تمثل الهيكل المتداول بين الحضارات ، والظواهر التى تمثل الحاجيات الدنيوية ، والتجارب الإنسانية ، التى تحقق الرفاه فى الماديات ، وحتى هذه العلوم وجهها الإسلام توجيها آخر إلى غاية أخرى ، غير التى كانت فى عقول القائمين عليها ، والسائرين فى ركابها ، وجهها لخدمة أهدافه الإنسانية ، التى تنفع ولا تضر ، وتهدى ولا تضل ، حتى لا تشقى الإنسانية بعمل أيديها ، ونتاج أفكارها .

محاولات ربط الفكر الإسلامى بالتراث الإغريقى :

تجرى محاولات مستميتة من كثير من علماء الغرب ؛ ليثبتوا بغير دليل ولا برهان ، أن الفكر الإغريقى فى التشريع انتقل إلى الإسلام ، وأن التأملات الأولى لفقهاء المسلمين الأولين مليقة بالنظريات المقتبسة من القانون الرومانى ، باعتبار أن القانون الرومانى والتعاليم الإغريقية الفلسفية انتقلت إلى العرب ، أيام الفتح العربى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قالوا : « إن الوازع الدينى عند المسلمين ،

(١) الإسلام والحضارة العربية . كرد على ص ١٦٣ عن العقد الفريد وتاريخ دمشق لابن عساكر .

(٢) رواه الترمذى علم — ١٩ ، وابن ماجه زهد — ١٥ .

والإحساس الداخلى بالقيم الإنسانية ، وبما هو عدل وحق ، مأخوذ من الغير »^(١) ولا ندرى فى الحقيقة مغالطة توازى هذه المغالطة ، فالعرب المسلمون عرفوا الوازع الدينى ، وأخذوه من الوحى ، لا من المرضى الممزقين بالمذاهب الهدامة ، والتسيب المزرى ، وأقاموا دولتهم على الحق والحق ، وطبقوه على نفوسهم ، وانساحوا به معلمين أولئك الذين هضموا الحقوق ، واستعبدوا الناس ، ونصبوا أنفسهم أربابا من دون الله سبحانه ، وليس يجدى فى هذا قول حاقد أو متجنس على التاريخ ، وعلى الحق ، وعلى المصلحين الرواد .

ويعترف هؤلاء الجناة بعدم حجية دعواهم على لسان الدكتور أوليرى . مُقَعَّد هذا الخلط نفسه ، حيث يقول : « يجب أن نعترف أننا ليس لدينا شواهد على أن التأملات الفلسفية واللاهوتية فى سورية فى زمن الدولة الأموية قد أثرت فى العرب ، حيث يبدو أن هذه الأمور لم تجذب إليها العرب يومئذ ، وأن بداية التأمل فى الفلسفة والتوحيد والبحث العلمى بدىء بها فى العراق ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة »^(٢).

ثم يستأنف الدكتور أوليرى أيضا — رغم اعترافه المتكرر بعدم حجية مايقدر — فيقول : « إن بعض فروع القانون الرومانى وصلت إلى العرب عن طريق اليهود ، وأكثر احتمالا : أن كل القوانين التى تتناول الخراج ، والعقود ، والرهن ، والميراث ، قد جاءت من القانون الذى كان سائدا فى سورية ومصر حين غزا العرب هذه البلاد . ثم يقول : « إن اللاهوت المسيحى قد أوحى إلى المسلمين استعمال لفظ « كلمة » ، التى ذكرها القرآن الكريم فى أصل عيسى فى الآية الكريمة : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه ﴾^(٣) . ثم يستأنف مغالطته ، فيقول : إن الصفات التى يوصف بها الله تعالى قد انتحلها الإسلام من تعاليم أفلاطون »^(٤) ، والذى يعجب له الإنسان أن يستمر هؤلاء

(١) انظر مسالك الثقافة لأوليرى . ترجمة الدكتور تمام حسان . طبع القاهرة ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٣) النساء — ١٧١ .

(٤) مسالك الثقافة ص ٢٠١ ، ٢٠٢ وأصول الحضارة العربية لناجى معروف ص ٤٢٤ .

المفترون — رغم تجردهم من أى حجة — على ما يدعون ، بل ورغم قيام الحجج على عكس ما يقولون ، أن يواصلوا تجريد المسلمين من كل فضل ، ومن أى أثارة من علم ، يحملهم على ذلك حقد عميق ، وحسد عجيب ، رغم أنهم يعلمون أن صفات الله في القرآن نزلت في مكة ، وقوانين الميراث وغيرها ظهرت وتليت في القرآن قبل أى فتح لأى بلد أو اتصال بأى ثقافة ، وأن الفكر الإسلامى مختلف تمام الاختلاف عن كل ما يدعون . ونحن بدورنا نحب أن نسأل : أى وازع دينى كان عند هؤلاء حتى يأخذ المسلمون ؟ أهو استعباد الناس ، والطبقية المقيتة ، واتخاذ الناس بعضهم لبعض أربابا من دون الله ، أم هو الفساد ، والرشوة ، والجنس ، والمذاهب الهدامة ؟ ولنسمع إلى ما يقول « ليكى » في كتاب « تاريخ الأخلاق في أوربا » عن تلك الفترة : إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس ، واجتماعهم ، وكانت الدعارة ، والفجور ، والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتعلق في مجالس الملوك ، وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة في زخارف اللباس والحلى والزينة ، في حدتها وشدها . وكانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى — إن المدينة التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم ، اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور ، حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحداث ، والفضيحة بين الناس ، وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن ؛ لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عنه جميع أعمال الإنسان . لقد نفقت سوء المكر والخديعة والكذب .. إلى أن قال : « وكان الظلم والاعتداء والنسوة والخلاعة تؤدي إلى انحطاط في حرية الفكر ، والحماسة القومية » ^(١) ونقول لهم بعد هذا : أهذا هو الوازع الدينى والخلقى ، وهذا هو القانون الذى أخذه المسلمون واقتبسوه أم ماذا ؟ وما قولكم فيما يقوله المؤرخ « كروبر » في كتابه طبيعة الثقافة ص ٣٨٨ « إن الإسلام لا يخضع للمقاييس التى يخضع لها غيره ، من الظواهر الروحية والاجتماعية ، إذ لم تكن له طفولة أو شباب ، بل انبعث

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب ص ٦١ .

ظاهرة متكاملة غاية التكامل»^(١)، ويقول المؤرخ «كريستوفر داسون في كتابه قواعد الحركة في تاريخ العالم ص ٢٥٧ : « إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيرا مفاجئا عارما بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ ، هو محمد »^(٢).

إن الواقع والدراسة والإنصاف يقتضى أن نرد الأمر إلى نصابه والفضل إلى أصحابه ، ولكن لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ، وإنما يحمل المتحاملون على التراث الإسلامى وعلى الحضارة الإسلامية لأسباب معينة ، ولكن الحقيقة التى لامراء فيها : أن هؤلاء كان دافعهم الأكيد على ما يلصقونه بالمسلمين أمور ، منها :

أولا : الحقد ، والحسد ، والبغى ، والعدوان ، وسلب كل خير عن غيرهم ، وإلصاق كل خير بهم ، أو بأصولهم وأصول حضارتهم .

ثانيا : جهلهم بطبيعة الإسلام ، وبمنهجه فى الحياة ، ورسالته الجامعة المحفوظة ، التى جاءت للعالمين ؛ لتحى رسالة الأنبياء والمرسلين .

ثالثا : تصورهم الخاطيء للمسيحية ، وقياسهم الإسلام كدين على تلك التصورات المسيحية اللاهوتية .

رابعا : اضمحلال الشرق ، وضياع المسلمين ، وتخلّفهم ، واستعمارهم ، جعل الكثيرين يستهين بهم وبتراثهم .

خامسا : جهل شعوبهم بالإسلام ، وجهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم ، وبما يحمل من ثقافة وحيوية .

أثر الفكر الإسلامى فى تلك الشعوب :

فتح الإسلام فارس والروم ومصر وأمصار أخرى كثيرة ، كانت أقدم مراكز الحضارة فى العالم بأسره ، ولكنها كانت فى حالة ركود ثقافى ؛ لسوء الأحوال

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية عبد المنعم خفاجى ص ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

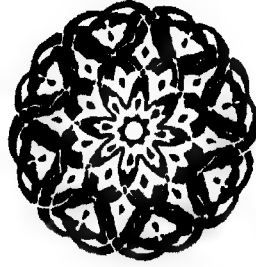
الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، ولقد استطاع الإسلام أن يصحح مسار تلك الشعوب ، وأن يفتح لها آفاقا جديدة ، بعد أن طال بها الركود ، فانطلقوا في صناعة العمران من جديد ، ونهضوا بهمة مختلفة ، وعزيمة فتيّة ، وتعاليم فطرية سليمة ، رسمت للحياة مثالا أعلى ، يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية العربية أو الفارسية أو الرومية ، وذاب الناس في بوتقة واحدة ، هي بوتقة الأخوة في الله ، وانطلقوا أمة واحدة ، بكل قوة في الفكر والملكات والفرص ، لم تحجز بينهم ألوان ، أو أجناس ، أو سلالات ، ولم يكتبهم خوف ، أو وجل ، أو ظلم ، أو أحقاد ، وهذه كانت بداية الانطلاق الحضارية الحقيقية للإنسان ، حيث تغير مفهومه للحياة ، وللحضارة ، وللإنسانية .

فرق بين مفهومين :

نأخذ مثالا في الفرق بين المفهوم الحضارى عند المسلمين والتخلف الحضارى عند غير المسلمين في ذلك الزمان ، في قصة ترويهما الشاهنامة عن كسرى أنوشروان ، وموقفه من أحد رعيته ، فتقول : « في أحد حروبه ضد الروم طال أمد القتال ، ونفذ مامعه من القوت والمال ، ولم يكن في وسعه أن ينتظر حتى تأتية الأموال من العاصمة ، فأوفد بزرجمهر إلى البلاد المجاورة ؛ ليجمع من أهلها ما يفي بحاجة الجيش السريعة من الأموال ، على أن يردها كسرى بعد الحرب . وكان في أحد النواحي إسكافي ، عرض خدمته على رسول الملك ، وقدم له أربعة آلاف درهم . ولم يكن الإسكافي يطمع في شيء نظير هذه الخدمة ، سوى أن يأذن له الملك بتعليم ابنه . فلما علم كسرى بما يطمح إليه الإسكافي رفض أن يحقق له أمنيته ، وأمرهم أن يردوا إليه أمواله ، وكانت حجته في هذا : أن ابن الإسكافي لايرجى منه لو تعلم أى خير ، وتعلمه قد يتيح له الفرصة للتقدم والرق ، فيتجاوز بذلك طبقته »^(١) ، وهو أمر لايسمح به النظام القائم وقتذاك . لأن العلم كان ميزة خاصة ، تنعم بها طبقة

(١) فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية — د : طه ندا ص ٣٣ ، فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١١٧

خاصة ، وتحرم منها بقية الطبقات ، لوضاعتها في نظرهم ، وعدم أحقيتها في التقدم ،
ولأنما هي في خدمة أسياها فقط .



المبحث الثالث

الجهد الإسلامي في البعث الحضاري لتلك الشعوب

إذا ألقينا الضوء على الفكر الحضاري عند المسلمين ، نرى ما يهر الألباب ، ويستحق الإجلال والإكبار ، ويظهر الفرق واضحة جليا بين المفاهيم الصالحة والآسنة .

نزل القرآن وجاء العلم ، فلم يحجب عن سيد ولا عبد ، ولا عظيم ولا حقير ، ولا رفيع أو سوقة ، وإنما كان كالشمس والهواء لكل مستشرق ومستدفئ ، واغترف الكل من العلم ، المولى قبل السادة ، والعبيد قبل الأحرار ، وانطلقت الصحابة في الأمصار ، تعلم الناس العلم ، فانطلق عبد الله بن عباس إلى مكة يعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب في بيت الله الحرام ، وجاء بعده من مدرسته من التابعين مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان ، واستمرت هذه المدرسة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة . وأما مدرسة المدينة فكان فيها على ، وعمر ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، ومن بعدهم : سعيد بن المسيب ، وعروة ، والزبير بن العوام ، وغيرهم . ونزل العراق بالكوفة على رضى الله عنه ، وعبد الله ابن مسعود ، ثم جاء علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة بن الحارث ، وعمر بن شحبيب . ونزل في البصرة عدد من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري ، وأنس بن مالك ، ثم جاء بعدهم الحسن البصري ، وابن سيرين . ونزل في مصر اعدد من الصحابة أشهرهم : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وجاء من بعده يزيد بن حبيب ، والليث بن سعد وغيرهم . وأما في الشام فقد بعث عمر بن الخطاب لهم من

يعلمهم ، ويفقههم من الصحابة ، منهم معاذ بن جبل ، وعبادة ، وأبا الدرداء ، وعبد الرحمن بن غنم ، ثم كان بعدهم من التابعين أبو إدريس الخولاني ، ثم مكحول الدمشقي ، وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة ، ثم جاء بعدهم الأوزاعي وغيره من الفقهاء والمحدثين والأدباء^(١) . وعملت هذه المدارس وغيرها في البلاد نهضة علمية جامعة .

العلم للجميع :

كان كبار الفقهاء وصغارهم لا يأخذون على تعليم العلم أجرا ، حتى ولو كانوا فقراء لا يجدون ما يقتاتون به ، وقد كان من هؤلاء أبو العباس الأصم ، وهو من كبار علماء خراسان ، لا يأخذ على العلم أجرا رغم فقره ، إنما كان يورق ويأكل من كسب يده ، ورفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذي رتب له عمر بن عبد العزيز ، حينما أرسله ليعلم الناس في البادية ، وقال : « ما كنت لأخذ على علم علمني الله أجرا »^(٢) وكان تعليم الأطفال — كل الأطفال — بدون أجر ، وكان العلماء يذهبون في رحلات طويلة لجمع الأحاديث والعلم ، وتحصيل شتى العلوم ، ويتكلفون في ذلك مبالغ باهظة ، ويأتون ليعلموا الناس العلم بدون مقابل ، ابتغاء ثواب الله تعالى ، روى أبو بكر الجوزي فقال : « أنفقت في الحديث مائة ألف درهم ، وما كسبت به درهما واحدا »^(٣) . وكان إجلال العلم سنة المسلمين وسنة خلفائهم ، واحترام العلماء وتقديرهم عرف وعقيدة .

(١) انظر مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام لعمر كحالة ص ١٣٦ إلى ١٥٥ ط الحجاز دمشق .

(٢) سورة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٦٧ ، تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ص ٢٢٤ ط النهضة العربية .

(٣) طقات الشافعية ٢ / ١٦٩ ، تاريخ التربية الإسلامية أحمد شلبي ص ٢٣٥ .

العلم قبل الملك :

قال أبو الأسود الدؤلى : « ليس شيء أعز من العلم : الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك »^(١) وقد قيل لأحد الخلفاء : قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب ، فهل بقيت لك لذة أو بغية لم تنلها ؟ فقال نعم : بقيت لذة واحدة ، هى أعلى من جميع مائلته ، وأفخم من كل ما باشرته ، بل لم تقرب منها — فضلا عن أن تساويها — لذة من لذات الدنيا ، ولا مرتبة من مراتبها ، ولا الخلافة ، وهى أن أجلس مجلسا كمجلس مشايخ الحديث ، فأملى وأشرح وأقيد^(٢) ، وكان الملك الأفضل ينزل من قصره فى قلعة دمشق ، يتأبط كتابه ، ويأتى دار أستاذه الكندى ، فى درب العجمى ، وربما تأخر الدرس الذى يتقدم درسه ، فينتظر إلى أن تأتبه نوبته^(٣) أما عن احترام العلماء — رغم حالهم وأحسابهم — فقد كان آية فى الود والتقدير والتبجيل ، « يحكى أن أبا معاوية العالم الأعمى كان يتغذى مرة مع الرشيد ، فلما انتهى الغذاء ، وأراد العالم أن يغسل يديه على عادة المسلمين ، قدم له شخص ما الطشت والإبريق ، وصب عليه ، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يده شكر ذلك الذى أولاه هذه العناية ، وصب عليه الماء ، ولكنه اكتشف أن الذى فعل ذلك هو الرشيد نفسه ، على كثرة خدمه ، فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، إني أعتقد أنك فعلت هذا تكريما للعلم ، فأجابه الرشيد : هو كذلك »^(٤).

حجم النهضة العلمية :

انتشر العلم ، وفتحت الأذهان ، وأسست المدارس العلمية المختلفة ؛ لتسهم فى تعليم الأمة . وأحب أن ألحق جدولا توضيحيا لبعض المدارس المختلفة فى بعض الأمصار ؛ ليكون دليلا على ما نقول .

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية أحمد شلى ص ٢٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣١ .

اسم المدرس	التاريخ الهجرى للفوارة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع الذى ذكر ذلك
أبو إسحاق الشيرازى	٤٧٥	بغداد	ابن خلكان ج ١ ص ٦
أبو البركات الأنبارى	٥٧٧	بغداد	ابن خلكان ١ / ٣٩٤ ، ٣٩٥
أبو الخير اسماعيل			
القزوينى	٥٨١	بغداد	ابن الأثير ١١ / ٣٤٤
أبو الفتح بن برهان	٥١٨	بغداد	طبقات الشافعية ٤ / ٤٢
أبو القاسم العلوى			
الدبوسى	٤٨٢	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ٦٧
أبو المناقب الزينجافى	٦٥٦	بغداد	طبقات الشافعية ٥ / ١٥٤
الشيخ أبو النجيب	٥٦٣	بغداد	ابن الأثير ١١ / ١٠٠
أبو بكر الشاسى	٤٨٥	عرات	تاريخ الوفاة ذكر تبعاً للسبكى فى طبقات الشافعية ٣ / ٧٩ — ٨٠ ، ولابن العماد فى شذرات الذهب ٣ / ٣٧٥
أبو بكر محمد بن			
ثابت الخوجندى	٤٨٣	أصفهان	ابن الأثير ١٠ / ٢٥١
أبو حامد الغزالى	٥٠٥	بغداد — نيسابور	مقدمة — كتاب الإحياء
أبو زكريا يحيى			
الخطيب البزيزى	٥٠٢	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ٢٨٧
أبو سعيد أحمد بن			
أبى بكر	٥٥١	أصفهان	ابن الأثير ١١ / ٣٥

اسم المدرس	التاريخ الهجرى للولفة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع الذي ذكر ذلك
أبو سعيد البزار	٥٢٠	بغداد	طبقات الشافعية ٤ / ٣٢٣
أبو طالب المبارك بن المبارك	٥٨٥	بغداد	معجم الأدباء ٦ / ٢٣٠
أبو عبد الله الطبري	٤٩٥	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ١٢٣
أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي	٥٠٠	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ١٢٣
أبو نصر الصباغ	٤٧٧	بغداد	تاريخ آل — سلجوق ص ٧٥
أحمد الغزالي	٥٢٠	بغداد	ابن خلكان ١ / ٣٩
أحمد الميمني	٥٢٧	مرو	طبقات الشافعية ٤ / ٢٠٣
الكيا اهرسي	٥٠٤	بغداد	كشف الظنون ١ / ٤٥
إمام الحرمين أبو المعالي			
يوسف الجويني	٤٧٨	نيسابور	ابن خلكان ١ / ٤٧
بهاء الدين بن شداد	٦٣٢	بغداد	Hittip. 411
رضي الدين القزويني	٥٧٥	بغداد	ابن جبير ٢١٩
شرف الدين الشهرستاني	٦٩١	معبد بيقباد	تاريخ علماء بغداد ص ٣٧
شرف الدين يوسف الدمشقي	٥٥٧	بغداد	ابن الأثير ١١ / ١٧٤
شمس الدين الكيشي	٦٦٥	بغداد	الغزالي ١ / ٢٦٣
عبد الله بن مأمون	٤٩٨	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ٩٦

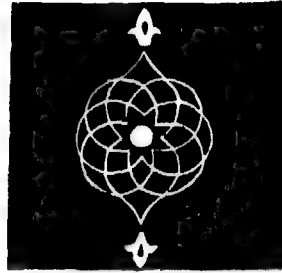
اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع الذي ذكر ذلك
علي بن محمد بن علي الفصيحى	٥١٦	بغداد	معجم الأدباء ٥ / ٤١٥
محمد الدين أبو علي يحيى بن الربيع	٦٠٦	بغداد	ابن الأثير ١١ / ٣٤٤
محمد الدين بن جعفر محمد بن ثابت	٦٨٢	بغداد	
الشافعى محمد بن علي بن حامد	٤٨٣	أصفهان	سعيد نفيس ص٢
محمد بن يحيى	٤٩٥	عرات	ابن قاضي شهبة ١١٦٥ (خط)
يحيى الدين أبو حامد	٥٤٨	نيسابور	بادجار « صحيفة فارسية »
	٥٨٦	الموصل	الدكتور داود حلي - مخطوط الموصل ص ١٠
معين الدين سعيد بن الرزاز	٥٣٨	بغداد	الروضتين ١ / ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٣٢
موهوب بن أحمد الجوالفى	٥٣٩	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ١٩٨
ناهد الدين الفاروق	٦٧٢	بغداد	الغزوى ١ / ٢٧٥
نجم الدين الباذرائى	٦٥٥	بغداد	النعمى ١ / ٢٠٥
يحيى بن القاسم	٦١٦	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ٢٨٩
يوسف الدمشقى	٥٦٣	خوارستان	ابن الأثير ١١ / ٢١٩

هذا مثل من النهضة العلمية في بغداد وما حولها وقد قامت نهضات علمية مماثلة في جميع الأصقاع الإسلامية المفتوحة ، فقامت في المغرب العربي أول جامعة علمية في العالم ، بناها المسلمون سنة ٢٤٥ هـ ، ففي مدينة فاس أقيم مسجد كبير ، وكباقي المساجد لم يخصص للعبادة فقط ، بل كان داراً للعلم ، يتلقى فيه الطلبة من كافة الأنواع وشتى البلاد مختلف العلوم ، التي لم تقتصر على القرآن الكريم ، وعلى الحديث والتفسير والفقه ، وإنما كان يدرس فيها علوم الرياضة ، والفلك ، والجغرافيا ، وقد أطلق على هذا المسجد اسم جامعة القرويين ، وهو من أول الجامعات الإسلامية ، التي كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل ، بل إنه أول معهد علمي أقيم فيه مساكن للطلبة الغرباء ، وفي ذلك يقول « ولفان » أحد رجال الغرب :— إن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة في الدنيا ، وإن أقدم جامعة في العالم ليست في أوروبا ، كما كان يظن العالم ، بل في أفريقيا في مدينة « فاس » عاصمة المغرب ، وقد تخرج في هذه الجامعة الأم عشرات من الطلبة الأوربيين من غير المسلمين ^(١) ، كما كانت مثل هذه النهضة في مصر وفي مساجدها ، وعلى رأسهم الجامع الأزهر ، حيث كان المنارة المشعة للعلم والعرفان ، وهو غنى عن التعريف والبيان ، وغير ذلك فالحضارة الإسلامية قد استطاعت فرض الأسلوب العلمي ، وإشاعة الفكر التأمل المنطقي ، وأسست أخلاقاً ، وعادات ، وأعرافاً جديدة ، أثمر في ظلها البحث العلمي ، ونهضت في جنباتها الثقافة ، فالحق هو هدف الجميع ، والجدل والمراء لا يأتي بخير ، والتأمل والوصول إلى حكمة الله في الأشياء وإلى ما أودع الله في الكائنات من أسرار ، مطلب إسلامي ، والحجة والدليل والشاهد والتجربة ، علامة الصحة والثقة والطمأنينة ، واستعمال العقل وشحذ الفكر أداة من أدوات الوصول إلى الحقيقة ، ومصباح من قناديل المعرفة ، والعقيدة المبنية على المعرفة الصحيحة ، والبحث السليم ، والفكر الواعي ؛ محضوض عليها في القرآن والسنة .

كان لكل هذا أثره في إرجاع الإنسان إلى طبيعته وفطرته ، كما كان له فعله في

(١) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح مقلد ص ٢١٠ .

تعرف الإنسان من جديد على خصائصه العليا ، التي منحها الله إياها ووهبها له خالقه سبحانه ، فقامت حضارة جديدة ، بمعايير مختلفة ، ومفاهيم سليمة مستقيمة ، استطاعت أن تنتشل البشرية من وهديتها وعبوديتها إلى مكانتها التي أرادها الله لها ، وحررتها التي منحها الله إياها .



المبحث الرابع

اتصال الحضارة الإسلامية بتراث الحضارات

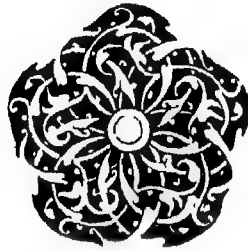
نعلم ويعلم كل منصف أن الفكر الإسلامي قام على النظر ، والتفكير ، وإعلاء أمر العقل ، ورفع شأنه ، وإزالة العوائق من طريقه ، حتى يلتقى مع الفطرة ، ويتصل بالوحي والحقيقة واليقين ، وجاء القرآن الكريم ففسار بالفكر البشرى قدما إلى الأمام ، معتمدا على فطرة الإنسان ولطيفته الربانية التي أودعها الله إياه ، والذي يدرس قواعد الإسلام وأحكامه وأصوله وآدابه وشرائعه ، يرى أنها تتطابق مع مقتضيات الفطرة البشرية ، ومع قوانين العقل وإدراكاته وأنواره ، ولهذا حرص الإسلام على تزكية العقل ، وإفساح المجال أمامه ؛ ليكون أكثر قدرة على استيعاب الحقائق ، وإدراك الخلق ، وتفهم ما أودع الله فيها من أسرار ، ولهذا تكرر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن الكريم حوالى (٧٦٥ مرة) ، كما حث القرآن على النظر فيما يتعلمه الإنسان من آيات كثيرة ، ولهذا أثبت البحث والتقدم الفكرى أن القرآن دعا صراحة إلى دراسة مختلف العلوم ، وأنه خوى أصول هذه الدراسات فى مختلف قطاعات العلم ، وبلغ عدد الآيات الكونية فى القرآن حوالى (٧٥٠ آية) ، تشتمل على مختلف العلوم ، مثل علم الفلك ، والطبيعة ، والجغرافيا ، والحيوان ، والصحة الغذائية ، وخلق الإنسان ، وعلم الطب النفسى ، وعلم الوراثة ، والكائنات الحية ، وما وراء الطبيعة وعلم الإشعاع الذرى ، كما تكلم عن الكواكب ، والزمن ، والحساب ، فى كثير من الآيات العلمية التى يزخر بها القرآن الكريم . كما دعا الرسول ﷺ إلى العلم وإلى التعلم والأحاديث فى ذلك كثيرة قدمنا طرفا منها قبل ذلك .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة ربهم وأحاديث نبيهم ، فأقبلوا على العلم ،

وتعلموا القراءة والكتابة ؛ لينشروا دينهم ولغتهم ، وتعلموا لغات أعدائهم ؛ ليأمنوا مكرهم وشركهم ، ويحثوا عن أى علم يفيدهم وينفعهم ؛ لأنهم يعلمون أن هذا جهاد في سبيل البشرية كالجهد بالسيف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة ، ومن هنا انطلق المسلمون يبحثون عن تراث الأقدمين ، وعن علمهم في الأمم الالهية ، التى لم تستطع الاستفادة أو الإفادة منه . ويجب أن يعلم أن العلوم التى اتصل بها المسلمون واستفادوا منها ، كانت بعيدة عن العقائد والعبادات وعلوم الشريعة ؛ لأن هذه كانت لها مصادرها الموثقة عند المسلمين ، التى لا تقبل الإضافة أو التبديل والتغيير ، وإنما هى العلوم التى تدخل تحت قول الرسول ﷺ « أنتم أعلم بشئون دينكم » وانطلق المسلمون يأخذون كل مفيد ، ويتعلمون كل نافع ، فترجموا كتب الأقدمين في الطب ، والهندسة ، والكمياء ، والفلك ، والحكمة ، والجغرافيا ، والحيوان ، والنباتات . وكانت معرفتهم معرفة تمحيص ، وليست معرفة تبعية أو تقليد ، وإنما كانت المعارف المأخوذة من غيرهم تعرض على العقل والتجربة والاختبار والتمحيص ، يعدل منها ما يقبل التعديل ، ويقوم منها ما يحتاج إلى تقويم ، ويضاف إليها ما تحتاجه من إضافات ، حتى تكونت عندهم ملكة ودربة وثقافة ، مكنتهم — فيما بعد — من تذوق العلوم المختلفة ، والنبوغ فيها ، واكتشاف العديد من فروعها .

وكان أول من عمل بالترجمة في العصر الأموي خالد بن يزيد بن معاوية الأموي المتوفى سنة ٨٥ هـ ، فبعد أن غلبه على الخلافة مروان بن الحكم ، انصرف خالد إلى العلوم ، ولاسيما الكيمياء ، فاستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية ، لتعليم الكيمياء ، ونقلها إلى العربية ، منهم « اسطيفان القديم » وكانت تلك أول ترجمة من لغة غير عربية إلى عربية في الإسلام ، وتوالت الترجمة بعد ذلك ، إلى أن جاء العصر العباسي ، فالتجأ للترجمة في بغداد كثير من علماء الأعاجم ، فقرهم الخلفاء ، واستعملوهم في ترجمة الكتب ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وكان أول من شجع الترجمة في الدولة العباسية أبو جعفر المنصور ، الذى دعا إليه جماعة من علماء الطب والرياضة والفلسفة ، فترجموا له كتباً في فنونهم ، وترجمت في عهده بعض

كتب أبقراط الطبيب اليوناني ، وكتاب بطليموس في اللحن الثانية . كما ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية ، وهو كتاب هندي الأصل ، نقل إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية ، كما ترجم ابن المقفع كتاب المقولات ، وتحليل القياس لأرسطو ، وكتاب إيساغوجي ، ثم جاء عصر المأمون ، فازدهرت فيه الترجمة ، وبلغت شأوا بعيدا وسنعرض لذلك في فصول أخرى إن شاء الله تعالى (١).



(١) انظر مقدمات ومباحث حضارة العرب والإسلام — لكحالة ص ١٩٤ ، ١٩٥ ط الحجاز دمشق .

الفصل الثانى

**الدور الحضارى الذى
اضطلع به المسلمون**

من يريد أن يعرف الدور الذى اضطلع به المسلمون فى إنارة العالم ، وبعث الهمم ، وإحياء الضمائر ، وإزكاء العقل ، فليقرأ القرآن الكريم فى بيان ذلك البعث البشرى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(١) وتعبير القرآن بالإحياء فى الاستجابة للفكر الإسلامى يوحى بأن النقلة الإسلامية لهذه الشعوب الشاردة على وجه الأرض كانت كبيرة وعميقة وجوهرية ، بحيث اعتبر المقابل لها موأناً وضياًعاً ، ويزيد القرآن ذلك المعنى وضوحاً ، حيث يصف أولئك المعرضين بأنهم فقدوا صفات البشرية ، ومميزات الآدمية ، فيقول ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢) . ثم يعقد القرآن مقارنة واضحة ، ويضرب الأمثال التوضيحية ، لبيان الفرق بين الصنفين : المؤمن وغيره ، فيقول ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ، وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾^(٣)

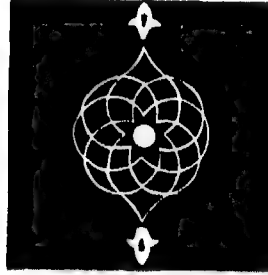
إن دعوة الإسلام فى الحقيقة دعوة لإحياء القلوب والعقول ، وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل والعبودية القاهرة لغير الله سبحانه ، كما أن الإسلام دعوة إلى تحرير الإنسان وتكريمه ، فى ظل أخوة عامة ، وشريعة ربانية كريمة ، كما يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، والانطلاق فى الأرض كلها لتحرير الإنسان بمجملته . والحقيقة أن مجمل ما يدعو إليه الإسلام هو الدعوة إلى الحياة بكل معانيها ؛

(١) الأنفال — ٢٤ .

(٢) الفرقان — ٤٤ .

(٣) فاطر — ٢٢ .

لأنه منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى . ومن ثم فهو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها ومجالاتها ودلالاتها ، وبحسن بنا — لبيان الدور الحضارى الذى قام به المسلمون — أن نلقى الضوء على تلك الخطوات التى انطلق منها شعاع المد الإسلامى الحضارى .



المبحث الأول جهود المسلمين في إحياء التراث العلمي للحضارات القديمة

بعد أن أشرقت شمس الإسلام على الإنسانية ، وحمل المسلمون التعاليم الربانية لإحياء الإنسان بتعاليم السماء ، روحيا ، وعقليا ، ونفسيا ؛ ليكتمل وجوده الجسدى والروحي ، ويعيش الحياة بقدراته مجتمعة ، حثهم الإسلام على النظر ، والتدبر ، والعلم ، والفهم ، والاستفادة من كل نافع ، وطلب كل مفيد ، فانطلق المسلمون ينظرون في كل شيء ، ويبحثون في كل فج ، ويستفيدون بكل حديث وقديم ، ينقبون عن كل علم ، ويسبرون وراء كل حكمة ، يأخذون العبرة من الماضي ، وينطلقون للمستقبل يستفيدون من القديم ويبنون الجديد . وكانت لهم جولات وصولات في كل ناحية من نواحي الحياة ، في العلم ، في الحكمة ، في الأخلاق ، في الفلسفة ، في الطب ، في الهندسة ، في الجغرافيا ، في الفلك ، في الصناعة ، في الكيمياء ، في الصيدلة ، في الزراعة ، في التاريخ ، في القصص ، في اللغة ، في الحيوان ، في الفيزياء ، في الأحجار والمعادن .

ولم يدخر المسلمون جهدا في البحث عن تراث الأمم السابقة في العلوم المختلفة ، رغم صعوبة ذلك ، لتقادم العهد بها ، وعدم معرفة قدرها عند مقتنيها ، وإهمالها ، وكثرة الحروب والفتن . وكلما طالت الشقة في الزمان بين عصر المصنف وعصر الباحث زادت الصعوبة وتضاعف الجهد .

« فقد قضى البيروني أكثر من أربعين سنة ، وهو يفتش عبثا عن نسخة من كتاب ماني « سفر الأسرار » ، إلى أن وفق أخيرا في الحصول عليها ^(١) ومن ذلك ما

(١) مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي للدكتور فرانز دورنتال ترجمة أنيس فريحة ص ٥١ .

قام به حنين بن إسحاق في البحث عن كتاب « جالينوس في النبض » ، الذي ناقض فيه أرخيغانس « وقيل : إنه موجود في حلب ، ولكن الجهود في البحث عنه لم تجد نفعا ، رغم طول المدة ، وظل يفتش عن كتاب « البرهان » ، وشملت جهوده العراق وسورية وفلسطين ومصر ، بما في ذلك مدينة الإسكندرية ، غير أن تلك الجهود لم تجد أيضا نفعا ، ثم واصل البحث إلى أن وجد مخطوطة غير كاملة ، عثر عليها في دمشق وقد توصل حنين إلى إكمال الأجزاء الباقية من المخطوطات اليونانية بعد جهد^(١) »

« وقد نقلت الروايات أن أبا بكر الإخشيد رغب في الحصول على بعض الكتب ، ومنها كتاب « الفرق بين النبي والمنتبي » ، وعندما خرج حاجا إلى مكة استأجر مناديا ينادي في عرفات ، يسأل الناس عن هذا الكتاب ، ولكنه بعد طول العناء لم يعثر له على أثر ، بالرغم من أن الحشود في الحج كانت هائلة ويجتمع فيها المسلمون من كل بلد وقطر ، على اختلاف مشاربهم الثقافية والعلمية »^(٢).

وقد اضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بنشر الثقافة اليونانية القديمة ، والفارسية والهندية وغيرها من الثقافات ، التي نما إلى علمهم أنها موجودة في أي صقع أو قطر ، رغم اختلاف اللغات ، وتعدد اللهجات ، وصعوبة المواصلات . ولكنهم قاموا بذلك بأمانة وشرف وحرص ورجولة ، وكان لهم في هذا النقل آداب وقوانين ، منها التثبت من نسبة الشيء إلى صاحبه ، وعدم الزيادة أو النقص في النص ، أو تعديله إلا بإذن صاحبه ، ومراجعة الترجمة والتثبت من صحة النقل ، إلى غير ذلك من الشروط التي تحمل شرف العلم وأمانة تحمله ، وقد وضعت في ذلك رسائل عدة ، كانت مقياسا لكل طالب علم . وكانت جهود العرب هذه ، سببا في بعث الحياة العقلية والثقافية والنفسية للعالم . يقول المسيو ليبري : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون^(٣) ، ويقول الفيلسوف نيتشه الألماني : « حرمتنا المسيحية من ميراث العبقريّة القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) الإسلام والحضارة الإنسانية لعبد المنعم خفاجي ص ١٦٥ .

الإسلام» (١).

وتقول الدكتورة سيجريد هونكة : « لقد عرفت أوروبا تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط ، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية ، والشروح التي وضعها العرب عليها ، والكتب التي ألفها العرب ، كل هذه كانت العامل القوي في النهضة العقلية الجرمانية ، وفي تغذيتها ودفعها إلى الحركة العلمية دفعا » (٢).

وعلى هذا ، فيجب أن نقدم بعض الشواهد بين يدي الموضوع دلالة على تلك الجهود العلمية ، التي اطلع بها المسلمون لإحياء التراث الحضارى القديم . وقد أحصينا طرفا من ذلك ، يشتمل على أسماء بعض المشاهير في الترجمة ، وبعض الكتب التي ترجموها ، واشتركوا في إظهارها ونقلها إلى العربية .



(١) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) شمس الله على الغرب سيجريد هونكة ص ١٢١ .

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
آل ثابت الحراني	العباسيون	نقلوا إلى العربية كثيرا من الكتب في الطب والفلسفة
آل مار سرجويه	العباسيون	نقل إلى العربية كتاب أهرون ، كان ذلك في أيام دولة بني أمية ، كان طبيبا له كتاب في الغذاء ، وكتاب في العين — المرجع — عيون الأنباء في طبقات الأطباء
آل نوبخت ، الفضل بن نوبخت — الحسن بن نوبخت	المأمون والرشيد	عملوا في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، ونقل من الفارسي إلى العربي . الفهرست ٣٩٩
إبراهيم بن الصلت	المنصور	كان متوسطا في التنقل ، يلحق بسرجيس الرأسى — عيون الأنباء ١ / ٢٠٥
إبراهيم بن عبد الله ابن أبي الحريش	المأمون	كان في خزانة الحكمة
ابن أبي رابطة	المأمون	من النقلة إلى العربية
ابن شهدى الكرخي	المأمون	نقل من السريانية كتاب الأجنة لبقرط
أبو بشر متى بن يونس	المأمون	من النقلة في الطب
أبو زكريا يحيى بن البطريق	المأمون	من النقلة في العلوم
أبو زكريا بن يحيى بن عدى التكريتي	المأمون	عمل مترجما في بيت الحكمة نقل من السريانية
أبو زكريا يوحنا بن ماسويه	الرشيد	ترجمة الكتب الطبية للرشيد — القفطى ص ٣٨٠

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
تو سهل الفضل بن بويخت		كان يعمل في خزانة الحكمة للرشيد
تو عمر يوحنا بن يوسف	هارون	نقل كتاب أفلاطون في أدب الصبيان
تو نصروري بن يعقوب	هارون	من النقلة
تو نوح بن الصلت	هارون	من النقلة في الفلسفة
تو محمد بن يوسف المصري	هارون	ترجم لبطليموس كتاب جغرافيا المعمورة ، من نقلة كتب اليونان — ابن أبي أصيبعة ١ / ٢٠٤
سحاق بن حنين	المأمون	ترجم للمأمون كتب الطب والفلسفة .
سقاط وجيرون بن رابطة	المأمون	من النقلة في الطب
اصطفن بن باسيل	المتوكل	كتب لجيلانوس في الطب ودفروديس اليوناني — عيون الأنباء ٣٠٤
اصطفن القديم	خالد بن يزيد	كتب الصفة وغيرها ، وكتاب الحشائش لديسقوريدس
الحجاج بن مطر	المأمون	المجسطي وأقليدس من بعثة بلاد الروم — عيون الأنباء ٣٠٤
الحجاج بن يوسف	المأمون	أحد البعثة العلمية إلى ملك الروم ، لانتقاء الكتب ، ونقلها إلى العربية ، وأصول الهندسة لإقليدس
الكندي — يعقوب بن إسحاق	العباسيون	كان يراجع ما ترجمه العاملون في الترجمة — في بيت الحكمة — الفهرست ص ٣٨٣ ، ابن أبي أصيبعة ٢ / ٢٧٧ ، القفطي ص ٣٦١ ، والبري علوم اليونان ص ٢٦٠

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
أيوب بن القاسم الرق أيوب وسمعان	محمد بن خالد بن يحيى	كتاب إيساغوجى فسر زيج بطليموس
باسيل المطران	المأمون	نقل من اليونان إلى العربية — عيون الأنباء ٢٠٤ / ١
تزارى ومسيون	العباسيون	مترجم إلى العربية فى الفنون
تررس السنقل	العباسيون	مترجم إلى العربية
تيوفلى شملى	العباسيون	مترجم العربية
ثابت بن قرة الحرانى	المعتضد	كتاب الحجة المنسوبة لسقراط ، وإبطال الحركة ، أصول الهندسة لمنالاولس
ثابت بن قمع	المعتضد	مترجم فى الفلك وغيره
جريس بن بختيشوع وأولاده	المنصور	ترجم كتب أبوقراط ، وكتاب بطليموس فى اللحن الثانية ، وغيره من كتب الهندسة والمنطق — الفهرست ٤٢٦
حبيب بن بهريز مطران	المأمون	فسر للمأمون عدة كتب .
حبيش بن قره	الرشد	شارك فى النقل من كتب الهندسة .
حبيش الأغسم الدمشقى	المأمون	الفهرست ٣٩٨ — كتاب الزيج المأمونى
حنين بن إسحق وأولاده	المأمون	رئيس المترجمين فى عهده ، ورئيس البعثة إلى ملك الروم ، لجمع الكتب .
	— ترجم	
	عشرين	ترجم ٧٢ مؤلفا — منهم كتاب الفرق
	كتابا	لجیلانوس . وطب العيون — عيون الأنباء
	لجیلانوس	١ / ٢٠٠ ، القفطى ص ١٧١

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
داريع الراهب دار يشوع	إسحق بن سليمان	مترجم إلى العربية في الفلسفة والفنون مترجم إلى العربية في الطب والفنون
ذري بن مانجوه الناعمي الحمصي	العباسيون	نقل كتب الطب وغيرها من اللسان اليوناني — عيون الأنباء ١ / ٢٠٤
سالم « أبا العلاء »	كتاب هشام بن عبد الملك	رسائل أرسطاليس
سعيد بن هارون الكاتب سلام الإبراشي سلم	المأمون البرامكة المأمون	بيت الحكمة — ترجم في الفلسفة السماع الطبيعي صاحب بيت الحكمة — ينقل من الفارسية إلى العربية
سهل بن هارون صليبا وأيوب الرهاوي	المأمون المأمون	كاتب ومترجم في بيت الحكمة كتاب المقولات وتحليل القياس لأرسطو ، إيساغوجي
عبد الله بن المقفع	العباسيون	ترجم من الهندية ومن اليونانية كثيرا من الكتب
عبد المسيح عبد الله الحمصي	المأمون	كتاب — المواليد — التزويج — الهيلاج — ابتداء الأعمال لنورثيوس

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
علان الوراق الشعري	الرشيده	ينسخ في بيت الحكمة
عمر بن فرخان الطبري	المأمون	ترجم إلى العربية
عيسى بن أسيد النصراني	المعتضد	ناقل من السريانية إلى العربية — كتاب
عيسى بن نوح	العباسيون	جوابات ثابت لمسائل عيسى
عيسى بن يحيى الدمشقي	الرشيده	ترجم في الفلسفة والطب
بن قرة		نقل من اليونانية إلى العربية — عيون
قسط بن لوقا البعلبكي	المأمون	الأنباء ١ / ٢٠٤
قويرى واسمه إبراهيم ويكنى		من نقلة كتب اليونان إلى العربية ،
أبا اسحق		ومراجعة المجسطى لإقليدس — عيون
محمد بن موسى الخوارزمي	المأمون	الأنباء ٢٠٤
موسى بن خالد	المأمون	نقل إلى العربية من اليونانية في الطب
مراخس هلال بن أبي		رئيس بيت الحكمة في زمن المأمون
هلال الحمصي		نقل كتب كثيرة من الستة عشر
هيا بشيون		لجيرانوس ، عيون الأنباء ٢٠٤
يحيى بن أبي منصور	المأمون	كتاب المخروطات لإبلونيوس . وغيره من
الموصلى		الكتب — عيون الأنباء ٢٠٤
		نقل كثيرا من الكتب إلى العربية
		يعمل في بيت الحكمة ، أحد الرصاد
		المشهورين

اسم الناقل	عهدہ	اسم الكتاب أو نوعه
يحيى بن عدى يحيى بن ماسرية يوحنا البطريق يوسف الخزوى	المأمون المنصور والمأمون	مترجم رئيس مدرسة الترجمة فى عهده نقل كثيرا من الكتب القديمة من بعثة اليونان — بيت الحكمة — عيون الأنباء ٢٠٥ مترجم إلى العربية



(١) انظر المراجع فى الصفحة الآتية .

المراجع للنقطة من الإغريق والهند إلى اللغة العربية

- تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٨٠ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٦١ ، ٢٢٠
 عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١ / ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٣٠٤ ، ٢ / ٢٧٧ ،
 ١ / ٢٠٤ ، ١٩٨
 أخبار الحكماء ٢٨٠
 أصالة الحضارة لمعروف ناجى ص ٤٣٥ ، ٤٥٣
 الفهرست- لابن النديم ، ٣٨٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٥ ، ١ / ١١٨
 علوم اليونان والبرى ، ص ٢٦٠
 لسان الميزان ، ١ / ٢٩٦ ، ٣ / ٣٦٦
 مناهج علماء المسلمين فى البحث ص ٤٩
 معجم الصنفين للتونكى ٣ / ٢٦ ، ٢٨
 منهج المقال لمرزى محمد ١٧ ، ١٨
 سيرة النبلاء للذهبي — مسالك الممالك — ١٤٥
 تاريخ التراث العربى ص ٣ عن الطب مادة حنين .
 تاريخ العرب العلمى لطوقان ٢٦١
 مقدمات ومباحث فى حضارة العرب لكحالة ص ١٩٣ وما بعدها
 العلم عند العرب لألنومبيل — ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٤٥٧ ، ٤٨٤
 مناهج علماء المسلمين فى البحث لفرانتر روزنتال ص ٤٩ وما بعدها



أسماء النقلة من الهند إلى اللغة العربية :

اسم الناقل	في عهد	اسم الكتاب أو نوعه
آل نوبخت أبان اللاحقي	المأمون الرشيد	من المترجمين كليلة ودمنة ، سيرة الرشيد ، حلم الهند ، بالوهر وبردانية . الفهرست لابن النديم ١ / ١١٩ ، معجم المصنفين للتنوكي ٣ / ٢٦ — ٢٨ ، منهج المقال مرز محمد ١٧ ، ١٨ التاج في سيرة أنوشروان ، الأدب الكبير والصغير ، خد نيامة ، كليلة ودمنة ، آيين — سيرة النبلاء للذهبي — الفهرست ١ / ١١٨ تاريخ الحكماء للقفطي ٢٢٠ ، لسان الميزان ٣ / ٣٣٦
ابن دهن البلازري	العباسيين العباسيين	من المترجمين كتاب استنكر الجامع — صفوة النجع ، فهرست ٤٣٥
أحمد بن محمد	المأمون	بيت الحكمة — المرجع — لسان الميزان ١ / ٢٩٦
أحمد بن يحيى بن جابر إسحق بن يزيد	المأمون المأمون	من النقلة نقل كتاب سيرة الفرس المعروف باختصار نامه
الحسن بن سهل المريد الأسود بهرام بن مروان شاه	العباسيون المتوكل المتوكل	نقل كتاب السندباد الكبير والصغير من النقلة

اسم الناقل	في عهد	اسم الكتاب أو نوعه
جبله بن سالم	كاتب هشام	من النقلة
زادوية بن شاهويه الأصفهاني		من النقلة
زيغ الشهرار		من النقلة
عبد الحميد بن راحق الرقاشي		نقل كتاب كليله ودمنة شعرا
عبد الله بن علي		كتاب سريك — الفهرست ٤٣٥
عمر بن الفرخان		من النقلة
محمد بن إبراهيم الفزاري	المنصور	كتاب السندهند ، نقله من الهندية
محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني		من النقلة
محمد بن الجهم البرمكي منكه	الرشيد إسحاق بن سليمان	الفهرست ٢٩٦ من النقلة من النقلة من السبطية إلى العربية
موسى بن عيسى الكردي	إسحاق بن سليمان	أسماء عقاقير الهند — فهرست ٤٣٥
موسى ويوسف بن خالد	المتوكل	ينقلان للمتوكل من الفارسية إلى العربية كما نقلوا كتب لجيلانوس
هشام بن القاسم	المتوكل	من النقلة

أسماء النقلة من النبط

اسم الناقل	في عهد	اسم الكتاب أو نوعه
ابن دهن الهندي ابن وحشيه منكه الهندي	البرامكة إسحق بن سليمان	وكل إليه بمارستان البرامكي نقل من النبطية إلى العربية عدة كتب نقل له من النبطية إلى العربية (١)



(١) انظر في هذا الباب — كتاب الفهرست لابن النديم — ٣٥٤ وما بعدها ط الاستقامة بالقاهرة. ومقدمات ومباحث في حضارة العرب لكحالة ص ١٩٣ وما بعدها ط الحجاز بدمشق — تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٧٩ . مناهج علماء المسلمين في البحث لفرانز روزنتال ص ٤٩ وما بعدها — عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ١٩٨ ط مصطفى وهبة — تاريخ التراث العربى — ج ٣ عن الطب العربى مادة حنين وخلافة .

هذا وقد بلغت العناية بالترجمة مبلغا جعل المأمون وغيره يعيدون مراجعة التراجم مرات ومرات ، لضمان سلامتها من الأغلاط العلمية واللغوية .

وقد أنشأ المأمون مدرسة ببغداد للترجمة ، أطلق عليها « بيت الحكمة » ، يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة ، حتى يجيدوا النقل عن تلك اللغات ، وقد جعل النظر في أمر هذه المدرسة وترتيبها إلى طبيب نسطوري ، هو يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٣ هـ — ٨٥٧ م ، وكان على علم بالسريانية والعربية ، وملما إلماما واسعا بالإغريقية ، هذا وقد جعل المأمون يوما في الأسبوع يجتمع فيه المترجمون بعلماء اللغة ، ليطلع هؤلاء على عملهم ، وينظروا ؛ ليصححوا ما ورد فيه من أخطاء ويقروه ، وقد كان يبذل في سبيل الترجمة أموالا ضخمة ، كانت تغري العاملين في الترجمة على مواصلة الجهد ، ليلا ونهارا ، وتحفز كثيرا على تعلم اللغات ، والإقبال على مدارسها ، حتى تخرج جيل يحيط بتلك الألسن ، وخرجت المدارس أعداداً من العرب الذين يتقنون الترجمة والنقل ، وتبارى الجميع في إخراج الثقافات المختلفة ، وهضمها ، وتقييمها ، حتى نقل هذا الحشد من العلماء والمتخصصين والمترجمين إلى العربية بضع مئات من الكتب في الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات ، ففي الفلسفة نقل ثمانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر لأرسطاليس . وفي الطب نقل عشر كتب لأبقراط ، وأربعة وستون لجالينوس ، وغير ذلك كثير ، في زمن يسير .

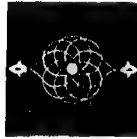
وأما الكتب التي ترجمت عن الفارسية في الفترة الأولى من الترجمة فهي نحو عشرين كتابا في التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين عن اللغة السنسكريتية ، وأكثرها في الرياضيات والطب والنجوم .

ونحو عشرين عن السريانية والنبطية ، وأكثرها في الطلسمات ، وهناك بضع كتب عن اللاتينية والعبرانية والمصرية^(١) .

(١) راجع كتاب مقدمات ومباحث في حصار العرب والإسلام لكحالة ص ١٩٦ .

النهضة العلمية على الطريق الشعبى :

وهذه النهضة العلمية لم تقتصر على الخلفاء والوزراء وأصحاب النفوذ ، بل شارك فيها الأفراد والعائلات ، وبذلوا فيها عن سعة ، وأول من يذكر في هذا المقام هم البرامكة ، ويذكر بعدهم كثير من بيوتات المجد ، « أمثال أولاد شاكر الذين جدوا في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب في سبيل نقل هذه العلوم إلى العربية ، ومن ساهم كذلك في نقل هذه العلوم محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ألفى دينار في الشهر ، ومنهم أيضا على بن يحيى ، ومنهم إبراهيم بن موسى الكاتب »^(١) ، وغيرهم ، حتى كانت السمة الثقافية والعلمية في المجتمع الإسلامى هى صاحبة المكانة الرفيعة والسامقة .



(١) المرجع السابق ص ١٩٦ .

المبحث الثانى تراث المسلمين العلمى

بعد أن هضم المسلمون علوم الأولين ، وأعطتهم العقيدة دفعة علمية عالية ، انبرى العلماء فى كل فن ولون من ألوان المعرفة ، يفتحون مجاهيله ، ويخوضون عبابه ، ويستخرجون كنوزه ، ويقطفون ثماره ، فأخرجوا للعالم فى برهة من الزمان ما يشبه المعجزات ، ويهر الأبصار . وللنظر إلى صاحبة كتاب شمس الله على الغرب تقول : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم ، لمن أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى . فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لا نظير لها ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها . إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم وبسرعة البرق ، وقبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع ، مدة لا تقل عن ثمانية قرون ، كما أن الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأبنت أكثر من الثقافة اليونانية ، كما أن العرب أخصب وأقوى من اليونان » ^(١) . وهذا ما أثبتته التاريخ ، وسطره بحروف من نور ، وما زالت هذه الحضارة وتلك الثقافة تحمل الخاتم العقلى والعلمى لأولئك الرواد العمالقة النابهين . هذا بالقياس إلى تلك الأمم التى كانت تدعى الحضارة والمدنية ، ومع هذا لا تدرى من أمرها شيئاً ، ولا تعرف من تراثها إلا الإهمال والضياع ، حتى « يحكى أن الروم أحرقت من كتب أرشميدس خمسة عشر

(١) شمس الله على الغرب ص ١٥٧ — ٢٥٩ .

حملا»^(١)، في حين أن المسلمين كانوا يزنون الكتاب المترجم من كتب هؤلاء بالذهب الخالص، احتراماً للعلم، ونفعاً للإنسانية، واستفادة بكل أثارة من علم، أو برقة من معرفة. ونحب أن نلقى الضوء على هذا التراث الضخم، ونجلى جوانب من هذه الثقافة، كمثال على ما يحمل من أصالة وعبقرية فذة في كل علم من العلوم، أو فن من الفنون، التي تنفع الناس، وتكشف المجهول، وتجلي الحقائق في الكون المحيط والحياة المعاشة. وأكبر برهان على صحة الأقوال هي الأعمال، وأعظم دليل على صدق الدعوى هي الأفعال والآثار، وسندكر بعضاً من جهود علماء المسلمين الأوائل التي أدت إلى قيام تلك الحضارة، ونشر العلم في المعمورة، وإيقاظ العالم على أنوار المعرفة وشمس الهداية الربانية.

ونبدأ بأسماء بعض الأعلام الإسلامية في الطب، والصيدلة، وجهودهم في هذا الميدان.



(١) الفهرست لابن النديم ٣٨٦.

الرياضيات

إبراهيم السوينى ٨٠٠ هـ — ١٣٩٨ م

الكامل فى شرح الشامل فى الجبر والمقابلة

الضوء اللامع للسيوطى ١ / ١٠٠ ، كشف الظنون ١٣٦

أحمد بن إبراهيم ٥٥٢ هـ

علم بالرياضة من آثاره الفصول فى الحساب

بروكلمان ١ / ٤٧١

أحمد الكرايسى القرن ٦ هـ

الحساب الهندسى ، مساحة الحلقة — حساب الدور

تاريخ الحكماء ٢٧٩ ، فهرست ٢٨٢

الحسن بن الصباح القرن ٣ هـ

كتبه الأشكال والمساحات — الكرة والعمل بذات الحلق

تاريخ الحكماء ٥٩ ، فهرست لابن النديم ١ / ٧٦

جابر بن إبراهيم القرن ٤ هـ — قرن ١٠ م

إيضاح البرهان على حساب الخطين

بروكلمان ١ / ٢١٩ ، ٣٨٦

جمشيد بن مسعود الكاشى ٩١٩ هـ

المفتاح فى الحساب — أشكال المتقدمين فى الأبعاد والأجرام

كيفية صنع الآلات

كشف الظنون ٨٩٥

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ — ١١٢١ م

* المسائل العددية — زيغ الصفائح — سر العالمين فى الهيئة — تفسير

المقالة العاشرة من إقليدس ، ميزان الحكمة .

* فهرست ١ / ٢٨٢ ، تاريخ الحكماء — ٣٩٦ —

كشف الظنون ١٣٨ ، ٩٨٨

جعفر بن علي بن محمد المكي قرن ٣ هـ ، ٩ م

رسالة في المكعب وكتاب في الهندسة

تراث العرب العلمي لطوقان — الفهرست ٢٨٢

نقى الدين بن عز الدين الحنبلي

الخوازي — واللباب في علم الحساب

بروكلمان ١١ / ١٥٦

حسن بن محمد النيسابوري ٨١١ هـ

الشمسية في الحساب — شرح التذكرة للطوسي في الهيئة

كشف الظنون ٣٩١ لولي الدين ١٣٣

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

الشكل المدور والمستطيل — حركة الأفلاك الأولى

تاريخ الحكماء ٣١٥ الفهرست ١ / ٢٧١

حسن بن الهيثم —

في الرياضيات والبصريات — تزييع الدائرة — وغيره نشر بالألمانية

تاريخ الحكماء ١٦٥ — تراث العرب العلمي لطوقان : ٢٦١

عبد الله بن محمد بن موسى الخوارزمي

أقدم الرياضيين العرب الجديدين بالذكر ، عمل في بيت الحكمة، له

مباحث في الرياضيات ، وترجم « الكيوني » كتابه إلى الفرنسية

سنة ١٨٣٨

علي بن أحمد المجتبى الأنطاكي ٣٧٦ هـ

التخت الكبير في الحساب الهندسي ، الحساب على التخت

بلا محو — تفسير الأثرمطيقى ، شرح إقليدس ، الموازين العددية ،

استخراج التراجم

تاريخ الحكماء للقفطى ٢٣٤ — تراث العرب العلمى

لطوقان : ٢٢٣

على بن أحمد النسوى ٤٢١ هـ — ١٠٣٠ م

المقفع فى الحساب الهندسى فى العراقى العربى والفارسى — رسالة فى

المدخل إلى علم المنطق ، التجريد فى أصول الهندسة

تراث العرب العلمى لطوقان ٢٥٧ — ٢٦٠

عمر الخيام — ٤١٧ هـ

رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات إقليدس .

عمر الخيام ٩ / ٣٣

يعقوب بن إسحاق الكندى — ٢٥٢ هـ

له ١١ كتاب فى الحساب ، ٢٣ فى الهندسة ، ٨ فى الكريات ،

٨ فى الأبعاديات — وشى به إلى المتوكل العباسى فضربه وأخذ كتبه ،

ثم ردها إليه

مروج الذهب ٨ / ١٧٦ ، تاريخ الحكماء للقفطى

٣٦٦ ، لسان الميزان ٣٠٥ — معجم المؤلفين ١٣ /

٢٤٤

كوسيار بن لبنان الجبلى (أبو الحسن) ٤٥٩ هـ

مهندس فلكى رياضى ، خالف بعض المهندسين فى تكوين المريخ .

له كتاب إصلاح تعديل المريخ

المراجع كشف الظنون لحاجى خليفة ٩٦٨ ، هدية

العارفين للبغدادى ١ / ٨٣٨

محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني ٣٢٨ — ٣٨٨ هـ

كتاب في الجبر والمقابلة — كتاب مطالع العلوم في علوم الأوائل
والحساب — وكتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة
الحساب

ابن العبري في مختصر الدور ٣١٥ — تاريخ الحكماء
الإسلامي ٨٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ١٠٦ ،
وكشف الظنون ١٤٧٢

الفلك

إبراهيم بن حبيب الفزاري

أول من عمل أسطرلابا — له كتاب القصيدة في علم النجوم —
العمل بالأسطرلاب — القياس للزوال —
تاريخ الحكماء ٥٧ ، الفهرست ١ / ٢٧٣ — كشف
الظنون ٩٦٤ ، ١٣٤٥ — معجم المصنفين للتونكي ٣ /
٩٩

محمد بن أحمد بن رشد (محمد بن أحمد) ٥٢٠ هـ

كتاب إصلاح نظام بطليموس الفلكي — نظرية ابن رشد في
الكواكب

عالم الفكر ٩ / ٣٧ — عيون الأنباء ٢ / ٧٥ — الوافي
١١٤ / ٢

أبو الريحان البيروني

التفهيم لأوائل صناعة التنجيم — القانون المسعودي في الهيئة والنجوم
عالم الفكر ٩ / ٣٦

أبو الوفي محمد البوزجاني ٣٢٨ هـ

الكامل في حركات الكواكب — كتاب المجسطي — مطالع العلوم

تاريخ حكماء الإسلام ٨٤ ز مختصر الدول ٣١٥ ،
الخالدون العرب ٨٩

أبو القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ٤٢٦ هـ
العمل بالأسطرلاب — زيح مختصر
عيون الأنباء ٢ / ٤٠ ز ، تراث العرب العلمى ٣٠٣ .
عالم الفكر ٩ / ٣٥

أبو بكر بن أبى المعالى اليمنى ٧٩٤ هـ
فلكى له مدخل التعليم
بروكلمان — ١١ / ٢٥٣

أبو على محمد بن جابر البتاني ٣١٧ هـ
الفلك فى ٣ مجلدات — معرفة مطالع البروج
عيون التواريخ ١٢ / ٢٣ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٠٥ —
مرآة الجنان لليافعى ٢٠ / ٢٧٤

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ
له سر العالمين فى الهيئة — زيح الصفائح المسائل العددية
فهرست ١ / ٢٨٢ ، تاريخ الحكماء للقفطى ٣٩٦ ،
كشف الظنون ١٣٨

أبو معشر بن محمد البلخى — ١٧٢ هـ — ٢٧٣ هـ
له فى الفلك والنجوم ٣٥ كتابا منها — النكت فى سنى العالم —
هيئة الفلك واختلاف طلوعه — إثبات علم النجوم — المدخل
الكبير
الفهرست ١ / ١٧٧ — وفيات الأعيان ١ / ١٤٠ ، تاريخ
الحكماء ١٥٣ ، كشف الظنون ١٨ ، ٥١ ، ٩٦٥ ، إيضاح
المكنون ١ / ٨٨

الحسن بن الخطيب

المدخل إلى علم الهيئة — تحويل سنى العالم
الفهرست ٣٩٩

الحسن بن سهل بن نوبخت
الأنواء

الفهرست ٣٩٩

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦ هـ

المدخل إلى صناعة النجوم

سيرة النبلاء للذهبي ٩ / ١٠٥

أحمد بن محمد الفرغنى ٢١٨ هـ

المدخل إلى علم الهيئة — الأفلاك وحركات النجوم
تاريخ الحكماء للقفطى ٧٨

الحسن بن الصباح قرن ٣ هـ

الأشكال والسائح — الكره — العمل بذات الخلق
الفهرست ٢٧٦ — تاريخ الحكماء ٥٩

الحسن بن علي المنجم ٣٥٧ هـ

أحكام النجوم والطوالع

كشف الظنون ٢١٧ ، ١٦٤٢

العباس بن سعيد الجوهري

من أصحاب الأرصاد — كتاب الأشكال
الفهرست لابن النديم ٣٩٣

(١)

الماهاني — أبو عبد الله محمد بن عيسى ٢٦٠ هـ

عروض الكواكب — كتاب في النسبة — كتاب في الأشكال

حبيب بن عبد الله

أبعاد الأجرام — الرخائم والمقاييس

الفهرست ٣٨٨

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

كتبه الشكل المدور المستطيل ، حركة الأفلاك الأولى

الفهرست ١ / ٢٧١ ، تاريخ الحكماء ٣١٥ ، ٣١٦

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١ — ٢٨٨ هـ

إبطال الحركة في فلك البروج — المسائل الهندسية — تحليل مياه

البحار

الفهرست ١ / ٢٧٢ ، عيون الأنباء ٢١٥ ، البداية ١١ /

٨٥

جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي ١٢٠ هـ — ١٩٨ هـ

تأليف في عمل الأسطرلاب

الفهرست لابن النديم ١ / ٣٥٣ ، الخالدون العرب

١٥ — ٢٤

حيث بن عبد الله

أبعاد الأجرام — الرخائم والمقاييس

الفهرست ٣٣٨

سند بن علي

كتاب المفصلات والمتوسطات — الحساب الهندسي

الفهرست ٣٩٧

سهل بن بشر

كتاب الأوقات — الأمطار — الرياح — والكسوفات

الفهرست ٣٩٧

عطار بن محمد

تركيب الأفلاك والمرايا المحرقة

الفهرست ٣٩٧

على بن إبراهيم بن محمد بن الهمام بن الشاطر (٧٠٤ - ٧٧٧ هـ)

الأشعة اللامعة في العمل بالآلة الجامعة — نزهة السامع في العمل
بالربع الجامع — النفع العام في العمل بالربع التام لمواقيت
الإسلام — الثمار اليانعة من قطوف الآلة الجامعة ، وكشف المغيب
في الحساب بالربع المجيب

شذرات الذهب ٦ / ٢٥٢ ، كشف الظنون ١٠٥ ،

٣٦٦ ، ٩٠٧ ، ٩٢٢ ، ٩٦٥ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ،

١٩٨٨

على بن أبي الرجال ٤٠٦ — ٤٥٤ هـ

من تصانيفه البارع في أحكام النجوم والطوالع

كشف الظنون لحاجي خليفة ٢١٧

على بن علي بن عمر المراكشي القرن ٧ هـ

تلخيص العمل في رؤية الهلال — وجامع المبادئ والغايات في علم
الميقات .

تراث العرب العلمي

عمر بن الفرخان

اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب

الفهرست ٣٩٥

عمر بن محمد المروودي

كتاب تعديل الكواكب

الفهرست ٤٠٠

عمر بن يوسف بن رسول ٦٩٦ هـ

التبصرة في علم النجوم

كشف الظنون ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢

كوسيار بن لبنان الجبلى ٤٥٩ هـ

خالف بعض المهندسين في تكوين المريخ — وله كتاب

تعديل المريخ — المدخل في صناعة أحكام النجوم — مجه

في أحكام النجوم ، واللامع في أمثلة الزيج اللامع

كشف الظنون ٩٦٨ ، هداية العارفين للبلغ

٨٣٨

محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني ٣٢٨ — ٣٨٨ هـ

الكامل في حركات الكواكب

ابن العبري في مختصر الدرر ٣١٥ — تاريخ

الإسلامى ٨٤

محمد بن يوسف الخوارزمي

العمل بالأسطرلاب — كتاب الرخان

الفهرست ٣٩٧

يحيى بن منصور

كتاب الأرصاد

الفهرست ٣٩٨

الميكانيكا والآلات

ابن خلف المروزي

صناعة آلات الرصد للمأمون

الفهرست ٤١٠

أبو سهل ويحيى بن رستم
كتاب صناعة الأسطربلاب
الفهرست ٤١٠

أبو عبد الله محمد الحسن الشلوى
كتاب عمل الرخامة المطبلة وصناعة البنادق
الفهرست ٤١٠

الحسين بن على
كتاب عمل الساعات
الفهرست باب الصناعات ٩ / ٤٠

ابن موسى بن شاكر
أول من اشتغل بالميكانيكا فى الإسلام
الفهرست باب الصناعات أو عالم

محمد وأحمد والحسن
لهم فى ذلك كتاب الحيل وكتاب معرفة الحيل الهندسية

الأحجار والمعادن

ابن زهر الأندلسى
خواص الأشياء
عيون الأنباء ٦٤ — شذرات الذهب لابن العماد ٢ /
٧٤ — إيضاح المكنون للبغدادى

أبو القاسم عبد الله بن محمد بن طاهر الكاشانى
عرايس الجواهر وأطاييب النفائس
عالم الفكر ٩ / ٤١

أبو سعيد بن مضر بن يعقوب الدينورى
له فى الجواهر والمعادن جهود

عالم الفكر ٩ / ٤١

أحمد بن عبد العزيز الجوهري

رسالة في الجواهر

عالم الفكر ٩ / ٤١

البيروني

المجاهر في معرفة الجواهر

مرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

الكندي

الجواهر والأشياء — أنواع الحجارة — الأحجار والمعادن

ذكرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

عطارد بن محمد

منافع الأحجار

هداية العارفين للبغدادى ١ / ٦٦٥ وعالم الفكر ٩ / ٤١

محمد بن زكريا الرازي

علل المعادن — الجواهر والخواص

ذكرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

هذا وقد اشتهرت بعض البلاد الإسلامية بالصناعات المختلفة في كل فن

مراكش

سخر أهلها الماء في تسيير الرحي والطواحين

البكري ص ١٦٢

نهاوند

صناعة الطواحين التي تطحن بالريح

مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٢٢٧

سمرقند ومصر

صناعة الورق

لطاقف المعارف ٦٢٦ جغرافيا اليعقوبى ٣٣٨

الأطباء ومؤلفاتهم في عصر النهضة

إبراهيم الفزارى

ابن الخطيب

كتاب الدفاع عن نظرية العدوى وانتقالها
الطب الإسلامى ٩٨ .

ابن النفيس

مكتشف الدورة الدموية الصغرى
الطب الإسلامى ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ البداية ٣ / ٣١٣

ابن زهر ١١١٣ - ١٠٦٢

مكتشف داء الجرب ووصف مكروبه
الطب الإسلامى ٩٩ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ٧٧

ابن سينا ٩٨٠ - ١٠٣٧ م

القانون فى الطب فى ثلاثة مجلدات
القانون مطبوع ط بلاق - الطب الإسلامى ٢١٤ عالم الفكر ٩ / ٢٠

ابن محمود القاسم متوفى سنة ١٥٢٥

زاد المسير فى علاج البواسير
الطب الإسلامى ٧٩ .

أبو بكر ربيع بن أحمد الأخوين ٣٧٣ هـ

هداية المتعلم في الطب

الطب الإسلامي — ٧٧ .

أبو زكريا يحيى بن ماسوية

الإسهال — علاج الصداع الحوامل — العقم

الفهرست ٤٢٥

أبو منصور القمري

طبيب الجزام — ألف : الغنى والمنى

الطب الإسلامي ٩٩

أبو موسى عيسى بن قسطنطين

كتاب البواسير عللها وعلاجها

الفهرست لابن النديم ٤٢٧

أبو البيان ابن المدور

طبيب صلاح الدين ، له كتاب مجريان في الطب

ابن أوى أصيبعة . عيون الأنباء ٢ / ١١٥

أحمد بن إبراهيم الجزار ٣٩٥ هـ

من كتبه زاد المسافر في علاج الأمراض — الاعتماد في الأدوية المفردة

والمركبة

عيون الأخبار لابن شاکر ١٢ / ١٢٥ ، عيون الأنباء ٢ / ٣٨

أحمد بن عثمان القيسي ٦٥٧ هـ

نتيجة الفكر في علاج البصر

كشف الظنون لحاجي خليفة ١٩٢٦ خليفة ١٩٢٦

أحمد بن أسعد بن العالمة ٥٩٣ — ٦٥٢ هـ

الإرشادات في الأدوية المفردة كفاية الطبيب

عيون الأنباء ٢ / ٢٦٥ ، كشف الظنون ١ / ٩٦ — ٣٨٢

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦ هـ

المدخل إلى الطب

سيرة النبلاء للذهبي ٩ / ١٠٥ — عيون الأنباء ١ / ٢١٤ —
الفهرست ١٤٩

أحمد بن يوسف الطيقاشي ٥٨٠ هـ

الوافي في الطب الشافي

الديباج لابن فرحون ٧٥ — كشف الظنون ٧٢ — ٢٣٣ — ٦٢٠

إسحق بن حنين ٢١٥ هـ

له الأدوية المفردة — تاريخ الأطباء

عيون الأنباء ١ / ٢٠٠ — تاريخ حكماء الإسلام ١٨ ، ١٩ ،
البداية ١١ / ١١٦

إسحق بن عمران

ألف ١١ كتاباً في الطب ، منها : كتاب المالنخوليا

الطب الإسلامي ١٧١

إسحق بن سليمان ٣٢٠ هـ

كتاب الحميات — الأغذية والأدوية .

عيون الأنباء ٢ / ٣٦ ، إيضاح المكنون للبغدادي ٢ / ٢٧٥

أسعد بن إلياس ٥٨٧ هـ

الأدوية المفردة — بستان الأطباء

معجم الأطباء ١٣٥ — كشف الظنون ٢٤٣ ، ١٣٨٨

إسماعيل بن الحسن الجرجاني ٥٣١ هـ

زبدة الطب — التذكرة في الصناعات الطبية — الأجرة الطبية .

تاريخ الحكماء ١٧٢ ، إيضاح المكنون ١ / ٦١١ .

البغدادى

علم التشريح

الطب الإسلامى ٤٠ .

الزهرأوى : أبو القاسم بن عباس

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف

عيون الأنباء ٢ / ٥٢ بغية الملتبس للضبي ٢٧١ ، الصلة ١ /

١٦٦

القلشندى سنة ٤٠٠ هـ

مكتشف مرض النوم

الطب الإسلامى ٣٤

الحسن بن محمد الوزان ٩٠١ هـ

القاموس الطبى

حياة الوزان لمحمد المهدي

يختشوع بن جبريل

فى عهد الرشيد — الحجامة. على طريق المسألة والجواب

عيون الأنباء ١٣٨ — تاريخ الحكماء ١٠٢ نجوم الزهرة .

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١ هـ — ٢٨٨ هـ

الزخيرة فى علم الطب

الفهرست لابن النديم ٢٧٢ — عيون الأنباء ١ / ٢١٥ — تاريخ

الحكماء ١١٥

ثابت بن إبراهيم الحارثى ٢٨٣ — ٣٦٩ هـ

جوابات مسائل فى الطب

تاريخ الحكماء ١١١ — عيون الأنباء ٢٧٢ الفهرست ١ / ٣٠٣

جبرائيل بن عبيد الله بن بختشيوخ ٣١١ - ٣٩٦ هـ

الكافي في الطب ٥ مجلدات - رسالة في عصب العين

عيون الأنباء ١ / ١٤٤ - تاريخ الحكماء ١٤٦ .

حييش بن إبراهيم التفليسي ٦٠٠ هـ

تقويم الأدوية - لباب الأسباب - تحصيل الصحة - كامل التدابير

بروكلمان ١ / ٨٩٣

حييش بن الحسن الأعسم ٢٦٤ هـ

إصلاح الأدوية المفردة - كتاب الاستسقاء - الأغذية

عيون الأنباء ٢٠٢ - تاريخ الحكماء ١٧٧ ، فهرست ١ /

٢٩٧

حسن بن الهيثم

طب العيون

الطب الإسلامي - ٦٩

حامد بن سمجون

الأدوية المفردة - الأقربازين

عيون الأنباء ٢ / ٥١ - ٥٢

حنين بن إسحاق

طب العيون - المسائل في الطب - تولد الحصوة

عيون الأنباء ١٩٨

خضر بن علي الخطاب

شفاء الأسقام ودواء الآلام

الطب الإسلامي ٢٠٨

خلف الطولوني ٣٠٢

النهاية والكفاية في تركيب العين

عيون الأنباء ٢ / ٢٨٥ معجم المؤلفين ٤ / ١٠٥

على بن أبى الحزم القرشى (ابن النفيس ٦٨٧ هـ)

الشامل فى الطب — بغية الطالبين وحجة المتطبين

النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ — البداية ١٣ / ٣١٣

على بن أحمد بن باهل ٥١٥ هـ

طبيب — طب المختار فى ٤ مجلدات ، الطب الجمالى

ابن أبى أصيبعة ١ / ٣٠٤ — ٣٠٥ ، أنباء الرواة ٢ / ٢٣١

على بن زين الطبرى ٨٥٠ م

كتاب فردوس الحكمة — منافع الأطعمة والعقاقير وعلم الأجنة

عيون الأنباء ١ / ٢٠٩ — تاريخ الحكماء ٢٣١ — الفهرست ١ /

٢٩٦

على بن عباس القرن ٤ هـ

طب العيون — الجدري — الأمراض الجلدية — الزهري

الطب الإسلامى ٩١

على بن عيسى الكحال ٣٥٠ هـ

تذكرة الكحالين — استعمال التخدير فى عمليات العين .

عيون الأنباء ١ / ٢٤٧ — كشف الظنون ٣٩٠ — بروكلمان ١ /

٨٨٤

عمر بن يوسف بن رسول — ٦٩٦ هـ

الجامع فى الطب — الأدوية المفردة

كشف الظنون ٢٣٦ ، ٣٣٨ ، معجم الأطباء لأحمد عيسى .

يوحنا بن ماسويه ٢٤٣ هـ

دفع مضار الأغذية — علاج العقم تركيب طبقات العين

عيون الأنباء ١ / ١٧٥ ، مختصر الدول ٢٢٧ — هدية العارفين

٥١٥ / ٢

الصيدلة والعقاقير

إبراهيم بن عباس

كتب في العقاقير والطب
الفهرست ٤٥٤

ابن البطريق

كتاب أجناس الحشرات — كتاب السموم
الفهرست ٤٥٤

أبو بكر بن البيطار

كتاب الصيدلة الشهير « الجامع لمفردات الأدوية » ، ترجم إلى
الفرنسية والألمانية في ٤ مجلدات
نشر في القاهرة ١٢٩١ هـ

ابن بكلاش يونس بن إسحق

كتاب المستعنى في الأدوية المفردة
الطب الإسلامى ١٩١

ابن جميع

كتاب الإرشاد في العقاقير
الطب الإسلامى ١٨٣

ابن داود

كتاب تذكرة ابن داود — البهجة والذرة غاية المرام في أصلام الأبدان
الفهرست ٤٥٤

أبو الأعلى زهير الأشبيلي

ألف كتب عدة في الأدوية والعلاجات والأغذية منها « التذكرة »
عالم الفكر ٩ / ٢٧

أبو المنى بن أبى نصر

منها الدكان ودستور الأعيان

الطب الإسلامى ١٨٣

أبو منصور موفق بن على الهروى

كتاب الأنبية فى العقاقير الطبية

الطب الإسلامى

أحمد الغافقى

أكبر عالم فى الصيدلة ، له كتب كثيرة فيها .

طبع منها فى طب القاهرة — الكراسة الأولى والثانية سنة

١٩٣٢ م والثالثة سنة ١٩٣٨ م — عالم الفكر ٩ / ٢٧

إسحق بن حنين

الأدوية المفردة — الأدوية المسهلة

عيون الأنباء ١ / ٢٠١

الإدريسى — الرحالة

نظرات فى الصيدلة — كتب عنها ماكس مايرهوت

عالم الفكر ٩ / ٦٩

البيرونى

كتاب الصيدلة

طبع فى باكستان — عالم الفكر ٩ / ٦٩

الرازى

كتاب الصيدلة

الفهرست ٤٥٤ — عيون الأنباء ١ / ٣٠٩

السديد بن أبى البيان

كتاب الأقربازين فى تركيب الأدوية من أقراص وسفوفات وأدهان

الطب الإسلامي ١٨٤

الكندي

كتاب السمومات ودفع ضررها
الفهرست ٤٥٤

المفضل بن سلمة

كتب في العطر والعقاقير والمعادن
الفهرست ٤٥٤

حبيب العطا

كتاب العطر وأجناسه
الفهرست ٤٥٤

رواق الصيدناني

كتاب الصيدنة
الفهرست ٤٥٤

قسطا بن لوقا

كتاب السمومات
الفهرست ٤٥٤

موسى بن ميمون

معجم في شرح أسماء العقاقير وفوائدها
نشر في القاهرة سنة ١٩٤٠ عالم الفكر ٩ / ٢٨

نطاح

كتاب السمومات وتركيبها
الفهرست ٤٥٤

نجم الدين محمد بن إياس الشيرازي

الحاوي في علم التداوي
عالم الفكر ٩ / ٢٦

هبة الله بن التلميذ

كتاب الأقربازين

عالم الفكر ٩ / ٢٦ مخطوط للآن

يحيى بن خالد

كتاب في العطر والعقاقير

الفهرست ٤٥٤

الحيوان والطب البيطرى

أبو بكر البيطار

طبيب بيطرى له كتاب — كشف الويل في معرفة أمراض الخيل

بروكلمان — ١١ / ١٣٦ — ١٦٩

ابن قتيبة

فصول في كتابه — عيون الأخبار — عن الحيوان

المرجع نفسه مطبوع — دار الكتب في القاهرة

أبو حيان التوحيدى

فصول في كتبه عن الحيوانات

الإمتاع والمؤانسة

إسحق بن على بن سليمان

كتاب في البيطرة وعلاج الدواب

الفهرست ٤٥١

الجاحظ

كتاب في علم الحيوان

المرجع نفسه مطبوع

الأصمعي

له مؤلفات في الأحصنة والجمال
أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص ١٤٤

الدميري

الحيوان للدميري — حياة الحيوان
الكتاب مطبوع

المتوكل

ألف له كتاب البيطرة كتاب علاج الدواب — كتاب بطرة
الفرس — الخيل

فريز

بيطرة الجمال عند العرب في العصور الوسطى
كتب طبعت حديثا

دمولرز

دراسة في تربية الصقور
كتب طبعت حديثا

همر بور جشتال

الجمال
طبع في فينا



نظرية الإسلام الطيبة :

ينطلق الإسلام في نظريته الطيبة من تكريم الإنسان وتشريفه ، والحفاظة عليه . فأما من ناحية تكريمه وتشريفه ؛ فقد وردت الآثار الكثيرة بذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ^(١) ومن ذلك التكريم حفظ حياة هذا الإنسان ، ومنع الاعتداء عليه ، وحرمة ذلك وشناعته ، بما يرد في قوله تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(٢) ، وقول الرسول ﷺ « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ » ^(٣) ، ولهذا حرص الإسلام على صيانة ذلك الإنسان بأمور :

١ - دفع الضرر عنه :

سواء كان هذا الدفع من الشخص نفسه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٤) ، « إِنْ لَبِذْتُكَ عَلَيْكَ حَقًّا » ^(٥) .

أو كان ذلك الدفع من المؤمنين ومن المجتمع — لقول الرسول ﷺ : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ^(٦) ، ومن ذلك عزل الأذى عن طريق المسلمين : « وَتَنْجِيَّتِكَ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » ^(٧) ، « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٨) .

(١) الإبراء — ٧٠ .

(٢) المائدة — ٣٢ .

(٣) مسلم ٤ / ١٩٨٦ عيسى الحلبي .

(٤) النساء — ٢٩ .

(٥) البخاري فتح الباري ٥ / ٢١٨ ط السلفية .

(٦) البخاري فتح الباري ٥ / ٩٩ ط السلفية .

(٧) مسلم بلفظ تمييط الأذى عن الطريق — ٢ / ٦٩٩ عيسى الحلبي .

(٨) مسلم والبخاري ٥ / ٩٧ فتح الباري ط السلفية .

« لَيْسَتْ الرَّحْمَةُ أَنْ يَرْحَمَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ، إِنَّمَا الرَّحْمَةُ أَنْ يَرْحَمَ النَّاسَ جَمِيعاً » ^(١).

٢ — حب العافية وطلبها واعتبارها من النعم :

حب العافية مطلب للمؤمن ، يسأل الله إياه ، ويسعى إليه — لقول الرسول ﷺ : « اسألوا الله العافية ، فإنه ما أوتي أحد بعد يقين الله خيراً من مُعافاة »

٣ — أمره بالوقاية وحسنه عليها :

وذلك يتمثل في أمور عدة ، وتعاليم كثيرة ، حثنا عليها رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث ، منها « لَا يُبْرَأَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ » ^(٢) ، « انْظُرْ مَا يُؤْذِي النَّاسَ فَاغْزِلْهُ » ^(٣) « لَا يَجِلُّ الْمَرَضُ عَلَى الْمُصِيبِ ، وَلِيَجِلُّ الْمُصِيبُ حَيْثُ شَاءَ » ^(٤) بل إن المسلم ملزم باتباع قواعد الحجر الصحي كما نعلم ، كما أنه ملزم بدفع الأخطار المتوقعة عن نفسه وأهله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ^(٥) ، وقوله ﷺ « لَا تَتْرَكُوا النَّارَ فِي يُوبَتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ » ^(٦).

٤ — مساعدة المريض واحترام ضعفه :

يوجب الإسلام على المسلم أن يساعد المريض ويغيثه ، لقول الرسول ﷺ « الْمُسْلِمُ لِلْمُسْلِمِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » ^(٧)؛

كما ينبغي أن يواسي المريض ، ويطلب رضاه ودعائه ، لقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا بَنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي قَالَ : يَا رَبُّ وَكَيْفَ أُعْذِكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ

(١) الطبراني مجمع الزوائد ٨ / ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) البخاري الفتح ١ / ٣٤٦ ط السلفية .

(٣) أخرجه أحمد ٤ / ٤٢٣ .

(٤) موطأ مالك ٢ / ٩٤٦ ط عيسى الحلبي .

(٥) البقرة — ١٩٥ .

(٦) البخاري فتح الباري ١١ / ٨٥ ط السلفية .

(٧) البخاري الفتح ٥ / ٩٩ ط السلفية .

عَبْدِي فَلَنَا مَرِيضٌ فَلَمْ تُعْذِهِ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُذَّتْهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ » ^(١) ،
وقوله : « إِذَا دَخَلْتَ عَلَى مَرِيضٍ فَمُرْهُ يَدْعُو لَكَ ، فَإِنْ دُعَاةُ كَدْعَاءِ
الْمَلَائِكَةِ » ^(٢) .

٥ — الأمر بالتداوى :

أمر الإسلام بالتداوى والعلاج ، وكلف المسلم بذلك ، لصحة جسده
وسلامة بدنه ، فقال ﷺ — عندما سئل من رجل عن دواء يتداوى به ، هل يرد من
قدر الله شيئا — فقال الرسول : « هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ » ^(٣) ، وقول الرسول :
« يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا . إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً ، عَلِمَهُ مَنْ
عَلِمَهُ ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ ، فَإِذَا أَصَابَ الدَّاءُ الدَّوَاءَ بَرِيءٌ بِإِذْنِ اللَّهِ » ^(٤) .

٦ — نفى الخرافات والأوهام في الطب :

يقرر الإسلام أن المرض من الله سبحانه ، وأن شفاؤه — كما أوضحنا —
يجب أن يبحث عن دوائه فيما خلق الله من أشياء وعناصر ، وليس المرض ناتجا عن
شيطان أو أرواح شريرة ، كما كان يعتقد قديما أصحاب الحضارات الهالكة ، ومن على
شاكرتهم ، من الجهلة ، كما لا يبحث لهذا عن دواء عند السحرة والعرافين والكهان .
ولهذا منع الإسلام هذه الخرافات ، وحرّمها ، وحذر منها ، ولهذا قال الرسول ﷺ :
« مَنْ أَتَى عَرَفًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى
مُحَمَّدٍ » ^(٥) ، ويقول : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ » ^(٦) ، « لَا طَيْرَةَ ، وَيُعْجِبُنِي
الْفَأَلُ الصَّالِحُ : الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ » ^(٧) « الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ وَالتَّوَلُّةُ ، شُرْكٌ » ^(٨) .

(١) مسلم ٤ / ١٩٩٠ ط عيسى الحلي .

(٢) سنن ابن ماجه ١ / ٤٦٣ ط عيسى الحلي .

(٣) سنن ابن ماجه ٢ / ١١٣٧ .

(٤) مسند أحمد ٤ / ٢٧٨ ، أبو داود ٤ / ١ عون المعبود .

(٥) ابن ماجه ١ / ٢٠٩ ط عيسى الحلي .

(٦) أخرجه أحمد ٤ / ١٦٥ .

(٧) أخرجه البخاري لفظ لاعدوى ولا طيرة فتح الباري ١٠ / ٢١٤ ط السلفية .

(٨) ابن ماجه ٢ / ١١٦٧ ط عيسى الحلي .

بهذه النظرية الطبية أخذ العلم الطبى مجاله من البحث ، والدراسة ، والتجربة العلمية ، والتحليل الميدانى ، الذى أكسبه فتحا جديدا ، ومعرفة خصبة فى كل ناحية من نواحيه ، وتمكن العلماء المسلمون من تركيز جهودهم على الكشف عن الأمراض والعلل ، واختراع أدوية نافعة ناصعة ، وتدوين ذلك علميا ، وتجربته عمليا ، وأسسوا عيادات ومستشفيات ومدارس طبية كثيرة ، تخرج منها الكثير فى هذا المجال . فبعض مضى قرن من الزمان ، كان فى بغداد ستة آلاف دارس للطب ، وحوالى ألف ممارس للطب ، ثم انتشرت المستشفيات والمدارس فى مراكز أخرى من أنحاء العالم الإسلامى ، فى دمشق ، وفى القاهرة ، وفى المغرب العربى ، وكانت تلك المستشفيات تضم عدة أبنية ، وحدائق واسعة ، وقد زودت بالموسيقى لراحة المرضى ، كما كان يدفع للمريض الذى يستشفى بالمجان خمس قطع ذهبية ؛ ليتمكن من مراعاة صحته خلال فترة النقاهة ، ويتضح من ذلك أن المستشفيات كانت ابتكارا إسلاميا ، انتشر فى العالم الإسلامى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أوروبا والعالم .

كذلك نشأت فى العالم الإسلامى أولى الصيدليات والمعامل الكيماوية ، وكانوا يعدون بالمئات فى قرطبة وبغداد والقاهرة وكثير من المدن الأخرى ، وقد كانت الأدوية تتركب على يد مختصين ، وكانت الأعشاب تجلب من جميع بقاع العالم ؛ لصناعة الأدوية والعقاقير ، وكانت تزرع لذلك خصيصا ، حتى تكون بالوفرة اللازمة لصناعة الأدوية التى يحتاجها الأطباء فى علاج المرضى .

منزلة الطب الإسلامى :

كان لليونان طب علمى طبيعى مزاجى ، وكان للهند طب شخصى روحانى نفسى ، وكان اليونان يأنفون من الأخذ بأسلوب الهند عند التطب ، كما كان الهند لا يحفلون بالطب اليونانى . ولكن العرب المسلمين أخذوا الصحيح الصالح من طب هؤلاء وأولئك ، ثم أضافوا إليه ما عرفوه هم بالتجربة ، وما كانوا أيضا قد عرفوه من جيرانهم الكلدانيين والبابليين وغيرهم ، فكان الأطباء العرب من أجل ذلك أبرع من سائر الأطباء الذين سبقوهم فى تاريخ الحضارة . وكان للمسلمين فى التطب براعة لم تكن لسواهم : عرفوا المراقبة السريرية — مراقبة سير المرض يوما بعد يوم — وعرفوا

انتقال المرض بالعدوى ، ثم عرفوا طرق انتقال العدوى . وعرف الرازى أربعة أشياء فى ذروة العبقرية الطبية : فرق بين الجدري والحصبة ، وعرف انتقالهما بالعدوى ، وأشار إلى الطرق التى تحول دون التشوهات بهما ، ثم نصح بأن يكون للإنسان طبيب واحد يعالجه ؛ لأن الوقوع فى خطأ طبيب واحد أفضل من الوقوع فى خطأ عدد من الأطباء — ومادام كل طبيب يراك للمرة الأولى ، فإنه يلجأ إلى التجربة فيك — وترك الرازى خياطة الجروح بخيوط من القنب أو القطن أو الكتان ، واستخدم خيوطا من مصارين الحيوان ؛ لأن هذه الخيوط يمتصها الجسم . كما عرف الرازى أن الدواء لا يتفاعل فى التقنية ، ولكن يتفاعل فى معدة المريض ، فنصح الأطباء بأن يدرسوا أجسام مرضاهم قبل أن يصفوا لهم الأدوية .

وكان على بن عباس صاحب الكتاب الملكى — عالما بصناعة التوليد ، فذكر أن الجنين يخرج من تلقاء نفسه ؛ لأن تقلص الرحم — أى الطلق — هو الذى يخرج الجنين ، ويدفعه إلى الخروج ، ولا يجوز أن يتدخل فى إخراجه إلا فى حالة الضرورة . كما عرف العرب التغذية الصناعية عن طريق شق البلعوم بالحقن أيضا ؛ كما عرف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى . وأما ابن سينا فقد عرف خصائص العدوى فى السل ، وفى الأمراض التناسلية ، وعلل الميل الشاذة فى الإنسان ، ودرس أحوال العقم ، وعرف العقم العارض من تنافر الأحوال الطبيعية والنفسية بين الزوجين ، كما عرف الأسباب الثابتة التى لادواء لها ولا علاج ، كما ذكر ابن سينا الورم الخبيث ، ووصفه ، وتكلم على أعراضه ، وعلى علاجه بالمسكنات ، ثم قال : إن شفاء المأمول يكون بالجراحة فى أدوار المرض الأولى ، على شرط أن يكون الاستئصال واسعا كبيرا ، وعلى أن يعقم الموضع جيدا ، ومع ذلك فإن الشفاء غير أكيد . وعرف المسلمون — كما ذكرنا قبل — المستشفيات معرفة صحيحة . وكان الخلفاء والوزراء والأغنياء يتنافسون فى بناء المستشفيات وتجهيزها بالآلات والأدوات . وكان لكل مرض بناء خاص به . كما أن المستشفى الواحد كان يضم أجنحة خاصة بالرجال ، وأخرى بالنساء ، وغيرها للأطفال .

كما كانت المستشفيات تدفأ فى الشتاء ، وتبرد فى الصيف ، وكان المرضى

— وخصوصا في أدوار النقاة — يوضعون في قاعات تعزف فيها الموسيقى ،
وتعرض فيها التمثيليات الفكاهية ، أو تقرأ لهم فيها القصص المفرحة ، وكان المريض إذا
غادر المستشفى أعطته الدولة مبلغا يكفيه شهرين ؛ كيلا يعمل في أثناء ذينك
الشهرين عملا مجهدا ينكسه في المرض من جديد .

ووضع المسلمون البيمارستان المحمول ، أو المستشفى النقال ، الذي يحمل
الأدوية والأغذية والأطباء البارعين إلى أطراف البلاد الإسلامية ، كما أن كبار الأطباء
كانوا يقيمون في القرى الصغيرة ، وفي بلدان الحدود ؛ لأن كثيرين من المرضى
لا يستطيعون الحضور إلى المستشفيات البعيدة ، وكان الأطباء المسلمون ينتشرون
بالآلاف في أرجاء الوطن الإسلامي لراحة المرضى وعلاجهم ، وهذا مما امتازت به
البلاد الإسلامية ، وتناقلته عملا وعلما الأقطار الأخرى ، في شتى بقاع العالم ،
ونسجوا على منواله .

ثم نخرج بعد ذلك على الرياضة والفلك والمعادن والصناعات ، فنذكر طرفا
منها ؛ لنكون على قدر من هذا الجهد الذي بذله المسلمون في سبيل الإنسانية
والتقدم العلمي .

نظرية الإسلام الرياضية والفلكية :

تبنى النظرية الفلكية الإسلامية على حقائق منها :

١ — النظر والكشف والبحث في العوالم ، يرشدنا إلى هذا القرآن الكريم
بقوله تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(١) ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ^(٢) .

٢ — العلاقة بين تلك الأجرام والكواكب بعضها ببعض ، ويرشدنا إلى هذا
قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ^(٣) ، وقوله
تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ
يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ ^(٥) .

(١) يونس / ١٠١ (٢) ف / ٦ (٣) يس / ٧٩ (٤) لقمان ١٠

(٥) يس / ٤٠ .

٣ — الكشف عن أسرارها ، ومعرفة ما وراء تلك الأسرار ، وما تدل عليه ، وارتباط ذلك بحياة الإنسان على وجه الأرض يرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَيَّتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ^(٣)

ابتكار وإبداع :

بهذا المنطق الإسلامي ، وتلك النظرة الفاحصة التي حثهم عليها خالق الأرض والسماء ، ومنشئ القانون ، ومسخر العوالم ، عمل المسلمون جاهدين على النظر والكشف والبحث في تلك العوالم ، واكتشاف أسرارها ، وإجلاء غوامضها ، والاستفادة من معطياتها . وانسحب ذلك على علوم الحساب والرياضة ، فارتفعت وتقدمت ، وعملت فيها العقلية الإسلامية عملها ، يقول « برونوفسكى » صاحب كتاب ارتقاء الإنسان : « كانت العمليات الحسابية متعة لانهاية لها بالنسبة للعلماء العرب المسلمين ، فقد أحبوا المسائل الحسابية والرياضية ، وكانوا يتلذذون باكتشاف طرق عبقرية جديدة لحلها . وفي بعض الأحيان كانوا يحاولون هذه الطرق إلى أجهزة ونماذج ميكانيكية . ثم ظهر الحاسب التنجيمي أو الفلكي ، وهو أداة حاسبة سريعة ، أكثر ارتقاء وتطورا من الأسطرلاب القديم ، وكان هذا الحاسب بمثابة تقويم آلى » يحسب أوتوماتيكيا ، وقد صنع أيام الخلافة في بغداد خلال القرن الثالث عشر ، ورغم أن الحسابات التي يجريها لم تكن عميقة ، إلا أنه يعتبر شهادة على المهارة الفنية لأولئك الذين صنعوه قبل سبعة قرون . ودليلا على ولعهم باللعب بالأعداد .

ولعل أهم ابتكار أنجزه العلماء العرب المتصفون بالحماس وحب البحث العلمي والتسامح ، كان في مجال كتابة الأعداد . فقد كانت أوروبا تستعمل في ذلك

(١) البقرة / ١٦٤ .

(٢) الأنبياء — ٣٢ .

(٣) الحج — ٦٥ .

الوقت الطريقة الرومانية غير الأنيقة في كتابة الأعداد ، بحيث يعبر عن المدد بوضع أجزائه المؤلفه بجانب بعضها . فمثلا إذا أردنا أن نكتب رقم ١٨٢٥ نكتب بالأرقام الرومانية على النحو التالي ٧ × mdcclxxx لأن مقدار $M = ١٠٠٠$ و $D = ٥٠٠$ و $C + C + C = ١٠٠ + ١٠٠ + ١٠٠$ و $X + X = ١٠ + ١٠$ و $V = ٥$ ، أما الإسلام فقد استبدل بهذه الطريقة العشرية الحديثة ، التي لاتزال نسميها الطريقة العربية حتى الآن^(١) وهذه الطريقة العربية تطلبت ابتكار الصفر ، ليرتب عليه النظام الذي يحدد مقدار العدد ، بمنزلة الرقم الذي يوفر رمزا للمنزلة .

هذا ويعرف الجميع فضل الخوارزمي على علم الجبر ، حيث وضع له المصطلحات والقواعد ، وجعله علما قائما بنفسه ، مستقلا عن الحساب والهندسة ، وجعله قابلا للتعليم ، ثم سماه « علم الجبر والمقابلة » ، وأخذ الأوروبيون هذا العلم عن الخوارزمي ، وتركوا اسمه « الجبر » ، كما كان الخوارزمي قد سماه ، ثم سموا الحساب كله « الفورزموسى » ، اعترافا بفضل الخوارزمي . ومثل الجبر في تاريخ الثقافة علم الكيمياء .

ويظهر في هذا الميدان جملة من العلماء الأفاضل ، على رأسهم جابر بن حيان ، الذى وضع أساس علم الكيمياء ، وهو علم قائم على معرفة خواص المواد والعناصر ، وعلى التفاعل بينهما . ثم جاء الرازى وصنف تلك المواد ثلاثة أصناف : يرانية أو ترابية ، « ونحن نقول اليوم : غير عضوية » ، ثم نباتية وحيوانية ، ونحن اليوم نجعل هذين الصنفين صنفا واحداً ، فنقول : « عناصر عضوية » . ثم إن الرازى وصف الآلات والأدوات والمواد التى تدخل فى التجارب فى المختبر ، ونصح بإعادة التجربة الواحدة مرة بعد مرة . فاستتم له بذلك وضع علم الكيمياء ، نقصد الأسس الضرورية لعلم الكيمياء ، وأخذ الأوروبيون هذا العلم عن العرب ، وكان المصريون قديما قد عرفوا علم الكيمياء ، ولكنهم كانوا يكتمونونه ، ويعدونونه من علوم الكهنة فى الهياكل ، لا يطلع أحد عليه ، ومن ذلك وصلت إلينا نتائج الكيمياء عن

(١) ارتقاء الإنسان لبرونوفسكى ترجمة — د : موفق شخاشيروا ص ١٢٣ ط المعرفة الكويت .

المصريين ، ولم تصل إلينا الكيمياء أو تعرف عنهم تعليماً أو استخداماً ، فالأوروبيون أخذوا الكيمياء عن المسلمين ، ولم يأخذوها عن المصريين ، ولم يكن فضل المسلمين على الكيمياء أنهم جعلوها علماً ، كما كانوا من قبل قد جعلوا الجبر علماً — فقط — بل لأنهم أيضاً قد قدموها إلى من جاء بعدهم هدية منهم إلى الحضارة الإنسانية ، لإغناء الثقافة ، وإثراء الحضارة بالتقدم العلمي ، ونذكر ابن الهيثم الذى صنع فى علم المناظر أو البصريات ماصنعه الخوارزمى فى الجبر ، وجابر والرازى فى الكيمياء ، فإن جميع القواعد الأولى فى علم البصريات قد وضعها ابن الهيثم : قواعد انعكاس الضوء ، وانعطاف الضوء — انكساره كما يقال اليوم — وحسبان زوايا السقوط ، وزوايا الانعكاس . وابن الهيثم هو الذى اكتشف أن الضوء جسم مادى ، يسير بسرعة عظيمة جداً ، ومع ذلك فهو يحتاج إلى زمن لقطع المسافة ، وهو القائل بأن للشعاع الواحد من النور طولاً وعرضاً . وهو الذى نبه على انتكاس الخيال إذا مر فى الغرفة المظلمة ذات الثقب ، وذلك أساس آلة التصوير . ودرس ابن الهيثم العين ، وأشار إلى طبقاتها الضرورية فيما يتعلق بالبصر . ويدهشنا قول ابن الهيثم : « إن العين طريق للرؤية ، تنقل أشباح الأشياء إلى الدماغ ، والدماغ هو الذى يرى ، أى يفسر تلك الأخيالة التى هى أشباح تلك الأشياء المنظورة » . كما يرجع إليه الفضل فى تنظيم البحث العلمى فى التجربة والاستقراء .

وجاء الأوروبيون فأخذوا ذلك كله عن ابن الهيثم ، وليس ذلك إلا مجداً لتلك العقول المؤمنة .

كما نبغ فى الفلك علماء كثيرون ، وكان لهم كشوف مذهلة ، منهم أبو الوفا اليرزجاني ، الذى اكتشف إحدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر . كما أنه صنع زيجاً سماه الزيج الشامل ، ولم يظهر فضل هذا الفلكى العظيم إلا فى القرن الماضى ، حينما عثر المستشرق الفرنسى « سيديو » على مخطوطات ، تثبت أن بعض الاكتشافات الفلكية التى نسبها المؤرخون إلى علماء القرن السادس عشر قد سبق واكتشفها اليرزجاني قبلهم بستة قرون : وقال « غستاف لوبون » : إن آلات الرصد التى اعتمد عليها اليرزجاني كانت على جانب عظيم من الدقة ، فإنه رصد الميول

بربع دائرة نصف قطرها ٢١ قدما ، وذلك مالا يسهل على الفلكيين في يومنا هذا .
ومن المشاهير أيضا في هذا الفن أبو الحسن على بن أنى سعيد بن يونس ، وهو الذى
اخترع الربع ذا الثقب ، وبندول الساعة الدقاقة ، ورصد كسوف الشمس ،
وخسوف القمر ، وأثبت عنهما تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج ،
فجاء حسابه أقرب ما عرف ، إلى أن اكتشفت آلات الرصد الحديثة .

هذا ، وقد اكتشف على بن رضوان نجما جديدا في عام ١٠٠٦م في
الفسطاط ، عندما كان يدرس في القاهرة ، وعين مركزه بدقة بالنسبة إلى النجوم
الأخرى ، وحدد موقعه في برج العرب بالتفصيل ، وظلت تلك المعلومات إلى أن
اكتشفت هذه المخطوطة في أحد الأديرة بأسبانيا ، وقام بترجمتها إلى الإنجليزية « برنارد
غولدشتين » ، أحد أساتذة التاريخ في جامعة بال ، في الولايات المتحدة الأمريكية .

هذا . وقد نبغ العرب في الفلك ، واكتشفوا أمورا كثيرة خلدت إلى اليوم ،
فهم أول من اكتشف حركة الشمس في الأوج ، وعينوا مبادرة الاعتداليين بدقة
فائقة ، كما اكتشفوا الاضطرابات التى تحدث للقمر وهو في عرضه الأقصى . علاوة
على ذلك بينوا اضطرابات السيارات في أفلاكها ، وحسبوا عبور عطارد على سطح
الشمس بالضبط ، وأصلحوا قيمة مبادرة الاعتداليين ، ومقدار ميل دائرة البروج على
دائرة خط الاستواء ، وغير ذلك من الكشوف .

هذا . وقد قامت في أوروبا في أوائل القرن الثالث عشر جمعيات عدة ،
عكفت على ترجمة الكتب العربية إلى اللغة الأوربية ، منها جامعة نيولى ، وجامعة
طليطلة ، وغيرها ، وترجموا الأزياج العربية في علم الفلك من الأشياء المترجمة . هذا .
ولا تزال أسماء النجوم التى ترجع إلى أصل عربى تسمى بأسماء عربية لليوم ، برهانا
ساطعا على فضل الحضارة الإسلامية الزاهرة » . (١)

(١) العرب رواد علم الفلك . محاضرة ألقاها نقولا شاهين أستاذ الجامعة الأمريكية في بيروت ، الفكر الإسلامى
العدد ٤ / ص ٨ بيروت .

أبرز الاختراعات لعلماء المسلمين

قام العرب بمجهود علمي ضخم في شتى المجالات والميادين ، رغم أن المؤرخين يجمعون على أن كتب العرب قد ضاع معظمها عند هجمات المغول والصليبيين ، خاصة في الأندلس بعد ضياعها . ولكن رغم هذا الضياع وهذه الخسارة العلمية ، التي تحسر عليها العلماء كثيرا ، عرف عنهم اختراع كثير من الأشياء ، ووضع قواعد لكثير من العلوم والمخترعات . نذكر منها أمثلة ؛ لتكون منها على ذكر .

١ — الفيزياء والميكانيكا :

١ — المرايا المحرقة ، وأعطونا فكرة عن حرارتها ، ومحل الصور في المرايا ، وانحراف الأشياء ، وجسامتها الظاهرة .. إلخ .

٢ — اخترع العرب الساعة الدقاقة ، وقد أهدى هارون الرشيد ساعة منها إلى شارلمان ، كما اخترعوا الساعة ذات الأثقال ، التي تختلف كثيرا عن الساعة المائية ، كما اخترعوا رقص الساعة ، الذي كان له دخل كبير في اختراع الساعة بعد ذلك بما عليه الحال إلى يومنا هذا (١) .

٣ — وقد قرروا في الميكانيكيات سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلي من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى شديد في القوى الميكانيكية ، وقد اصطنعوا في ثقل المواضع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية ، وكتبوا معادلات في علوم الأجسام وغرقها في الماء (٢) .

٢ — الكيمياء :

١ — اكتشف العرب من المركبات المهمة : الكحول ، وزيت الزاج « الحامض الكبريتي » ، وماء الفضة ، وما إلى ذلك ، كما اكتشف العرب أهم الأسس الكيميائية ، وهي التقطير .

(١) انظر حضارة العرب غستاف ٥٧١ .

(٢) انظر الحضارة الإسلامية حنيفة ص ١٦٣ .

٢ — اكتشف جابر بن حيان أن المعادن مركبة من عناصر كثيرة ، اكتشف منها الكبريت ، والزئبق ، والزرنيخ .. إلخ .

٣ — اكتشف جابر بن حيان — كثيراً من المركبات ، مثل ماء الذهب البوتاسي ، وملح النشادر ، وحجر جهنم « ماء الفضة » ، والسليمانى ، والراسب الأحمر^(١).

٤ — واكتشفوا كذلك المواد الصابغة ، وصنع الفولاذ ، ودباغة الجلود ، وكثيراً من الأشياء التى تترتب على الاكتشافات الكيميائية ، وكانوا يأخذون من هذه الاختراعات القواعد اللازمة لكثير من الصناعات ، وقادهم ذلك إلى اختراع أدوات التصفية ، والتبخير ، ورفع الأثقال ، ودعاهم إلى استخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهى لهم صنع جداول للجاذبية النوعية ، وفتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا وحساب المثلثات ، واختراع الجبر ، واستعمال الأرقام فى الحساب^(٢).

٥ — وقد اخترع العرب البارود ، واستعملوه فى الأسلحة النارية التى اخترعوها لذلك ، ولم تعرف أوروبا هذا الاختراع إلا بعد أن أخذته من العرب المسلمين بعد ذلك بكثير ، كما اخترع العرب المدافع ، والقذائف التى تطلق منها ، وقد ذكر المؤرخون أن العرب استعملوا ذلك فى حروبهم مع أعدائهم قبل الفرنجة بمائة عام على الأقل . كما اخترع العرب القنابل وذخيرة المدافع ، ووصفوا نسبها ، فقالوا : « تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ، ودرهمان من الفحم ، ودرهم ونصف درهم من الكبريت ، وتسحق حتى تصبح كالغبار ، ويملأ منها ثلث المدفع فقط ، خوفاً من انفجاره ، ويضاف إلى ذلك إما بندق ، وإما نبل ، ثم تشعل .

٦ — كما تعلم المسلمون صناعة الورق ، وكانت قاصرة على الصينيين ، وطوروها وعمموها ، وصنعوا منها الورق الجيد ، وطوروا صناعته ، وصنعوه من أشياء أخرى غير

(١) انظر حصار العرب غستاف ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، حضارة الإسلام حنكة ص ١٦١ .

(٢) المرجع : انظر الحضارة الإسلامية حنكة ص ١٦٢ ، انظر الإسلام والحضارة العربية محمد كرد على .

ماكان يصنعه منها الصينيون ، وكان صنعه قاصرا على الحرير ، فاخترعه العرب من الأسمال البالية ، كما صنعوه من القطن ، وصنعوه من ورق الأشجار^(١).

٧ — كما اشتهرت في القرون الوسطى الأواني الزجاجية الملونة التي صنعها العرب ، كما صنعوا القيشاني ، وغيروا طريقة صنعه وأشكاله ، واخترعوا المصاييح العربية الملونة ، التي انتقلت من الشام إلى معامل البندقية ، ونسج الكل على منوالها — كما تعلم أهل البندقية من العرب صنع المرايا ، وكانت تصنع في مدينة صور — ومن البندقية انتقلت إلى أوروبا .

٨ — كما صنعوا السيوف وطوروها ، وصنعوا الأقمشة ، ومنها الدمقس نسبة إلى دمشق ، ومنها المسلملين نسبة إلى الموصل ، وهي الشفوف ، ونقل الغرب بعد ذلك هذه الصناعات عن المسلمين .

العلوم الطبيعية :

١ — علم العرب كثيرا من الحقائق الطبيعية ، مثل نشأة الجبال التي وصفها ابن سينا ، فقال : تنشأ الجبال عن سببين : إما أن تكون نتيجة ارتفاع قشرة الأرض بفعل إحدى الزلازل الشديدة — مثلا — أو غيرها ، وإما أن تكون نتيجة عمل الماء — وشرح ذلك .

٢ — كما عرف أصل المعادن ، فقال وللمعادن أصل مثل الجبال ، ولابد من انقضاء أدوار طويلة لحدوث جميع هذه التحولات .

٣ — تحول المناخ :— رأى ابن سينا أن تحولات الكرة الأرضية لم تنشأ عن الطوفانات كما كان يعتقد « كوفيه » ، وإنما هي نتيجة تطورات بطيئة ، تمت بتعاقب القرون ، كما أثبت ذلك علم الأرض الحديث .

٤ — كما قال المسلمون بكروية الأرض منذ ابتداء نهضتهم ، كما أن الشريف الإدريسي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم . وأصبح معلما لها مدة ثلاثة قرون ،

(١) انظر حضارة العرب غستاف / ٥٨٠ .

ولم يكن لأوروبا مصور للعالم إلا مارسمه الإدريسي ، وهو خلاصة علوم المسلمين في هذا الفن . ولم يقع الإدريسي في الأغلاط التي وقع فيها بطليموس في هذا الباب .^(١)

الطب : (٢)

كما اكتشف المسلمون في علم الطب النظرى والتجريبى غير ما قدمناه سابقا .
١ — طور المسلمون الطب التجريبى ، وهو طب العقاقير والحبوب ويقول غونيه في حديثه عن المسلمين والطب « وقد أغنوا العلم ، ولاسيما علم النبات ، بمسائل جديدة كثيرة ، ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة ، والدهون ، والمراهم ، والكحول ، واللعوق ، والسنامكى ، والرواند ، والخياشنير ، وجوزالقي ، وهم الذين كشفوها ، كما استلزمت أصول تداويهم أن يعملوا إلى استعمال الفتائل ، وإلى الحجامة في أمراض الصرع ، واستعمال الماء البارد في الحمى الدائمة ، واستطاع جراحوهم تفتيت حصاة المثانة ، كما استخرجوا من العين الجريم العدسى الشفاف ، وعرفوا البنج » .

٢ — وكان المسلمون في الأندلس يعرفون الجرائم ، حتى كانت وقايتهم من الأمراض تشبه الوقاية المعروفة الآن ، وكذلك كان الحال في المشرق .

٣ — كما نبغوا في علم الجراحة والتفريغ ، وقد قدمنا طرفا من ذلك ، فارجع إليه إن شئت .

العمران :

وكان للمسلمين نشاط عجيب في ميادين العمران وتخطيط المدن ، وهذه آثار حضارتهم العمرانية تراها شاهدة لهم في الشام ، والعراق ، ومصر ، وبلاد المغرب العربى ، وأسبانيا ، وإيران ، وتركيا ، والهند ، وسائر البلاد الإسلامية . وقد وصف

(١) انظر الحضارة الإسلامية حبكة / ١٥٦ .

(٢) انظر ص ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ من هذا البحث .

المقدسى ميناء عكا — التى بناها جده أبو بكر البناء المهندس لابن طولون — والطرق التى استعملها فى هندستها ، حتى تدخل إليها المراكب آمنة ، حتى عد هذا الميناء من العجائب .

ويقول « ريسون » فى كلام له عن المسلمين : « وكنت تراهم حين نزلوا يمهدون السبل ، ويعلمون المرافىء ، ويصلحون الفنادق الرباطات ، ويرتبون سير القوافل ، وكانت المدن الإسلامية أوساطا تجارية كبرى »^(١).

وذكر المؤرخون أنه كان فى حى من أحياء دمشق وحدها ، وهو حى الصالحية « جبل مشرف على دمشق القديمة » — قرابة ٣٦٠ مدرسة ، لتدريس مختلف العلوم ، من مختلف الاختصاصات التى كان لها شأن يومئذ وهذه المدارس داخلية فى نطاق الأوقاف الإسلامية ، يضاف إليها المستشفيات ، والبيمارستانات ، والملاجىء التى يأوى إليها ذوو العاهات وأصحاب الحاجات ، وكانت هذه المنشآت الخيرية والتعليمية أحسن حالا وأمتن وأنق من قصور الأثرياء ، وذوى الجاه والسلطان آنذ .

وكانت عمارة المسلمين للمساجد لاتضارعها فى زمنها عمارة ، ومازالت تلك المساجد شاهدة على ذلك ، يقصدها السواح من كل صوب وحذب . وكذلك القلاع والحصون والقصور ، مما يشهد بعمران واسع كبير ، كما صاحب ذلك فنون جمالية معينة ، كانت روعة ، ومازالت عجيبة من العجائب فى كل مكان ، يظهر ذلك من المحارب ، والنوافذ ، والقباب ، والمنابر ، والمقنطرات ، والأقواس ، والمقلبات ، والمصاييح ، والمآذن وما إلى ذلك من الفنون الجميلة .

وما قدمنا تظهر لنا هذه الحضارة العملاقة فى مجال الاختراع والإبداع فى كل مجال من مجالات الحياة ، حضارة ، ومدنية ، وتقدم علمى وعقل وفكرى ، إن دل فإنما يدل على أمة قادرة ، استطاعت أن تبعث العالم من رقدته ، وتسلمه مقاليد رسالة فتحت مغاليق القلوب والعقول ، وفتحت مغاليق الطبيعة بأرضها وسمائها

(١) انظر أسس الحضارة الإسلامية حينكة ص ١٦٧ .

وعوالمها ، بجهد هؤلاء العابدين القانتين ، الذين جاءوا إلى الدنيا بالخير والنور ، ولن يستعبدوا ، أو يرهبوا ، أو يستذلوا أحداً ، وإنما نادوا بالأخوة والسلام والأمن والطمأنينة ، فكانت — حقاً — هي الحضارة ، وكانت — حقاً — هي الدواء . وما أجددنا إلى بعثها من جديد ، ونشرها هداية ربانية كريمة .



التاريخ ومؤلفاته

الكتاب	اسم المؤلف
الكامل في التاريخ	ابن الأثير
تاريخ مختصر الدول	ابن العبري
البلدان	ابن القيه الهمداني
تحفة النظر وعجائب الأسفار	ابن بطوطة
العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الطبقات الكبرى	ابن سعد
عيون التواريخ مخطوط دار الكتب ١٤٩٧	ابن شاكر
تاريخ ابن عساكر	ابن عساكر
عيون الأخبار	ابن قتيبة
تاريخ الأمم والملوك	ابن مسكويه
البداية والنهاية	أبو الفداء ابن كثير
التيجان في أخبار ملوك حمير	ابن هشام
الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينوري
الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني
أنساب الأشراف — فتوح البلدان	البلازري
الآثار الباقية عن القرون الخالية	البيروني
غرر أخبار ملوك الفرس	الثعالبي
تاريخ بغداد أو مدينة السلام	الخطيب البغدادي
الأخبار الطوال	الدينوري
الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ	السخاوي

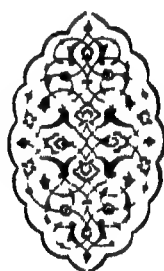
اسم المؤلف	الكتاب
الطبري	تاريخ الأمم والملوك
القزويني	آثار البلاد وأخبار العباد
المقري	نفع الطيب
النويري	نهاية الأدب في أخبار الفرس
عبد الله	المسالك والممالك
موسى بن عقبة	المغازي
ياقوت الحموي	معجم البلدان
المقريزي ٧٦٩	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
	المراجع :
	الضوء اللامع للسخاوي ٢ / ٢١ —
	شذرات الذهب لابن العماد ٧ / ٢٥٥



أسماء بعض الجغرافيين ومؤلفاتهم وجهودهم

الاسم	المؤلفات
ابن بطوطة	الرحالة — وكتابه « تحفة النظار » يصف المدن التي طاف بها حول العالم ومواقعها .
ابن حوقل	حقيق مواقع مدن الدلتا ، وضمنها خرائط هامة .
ابن خلدون	ومؤلفاته في الخطط والرحلات ودراسة المدن والحضارة والعمران
أبو الفداء	تقويم البلدان — اشتمل على جداول شملت العالم الإسلامي وجغرافيا المدن
أبو سعيد المغربي	في بسط الأرض وإنشاء جداول للمدن . كما يهتم بالمدن الحادثة والجديد منها
الإدريسي	اعتمد على التقسيم السباعي للعالم ، واهتم في داخل كل إقليم بالمدن والحصون ، وصور كل ذلك على كرة مجسمة ، وقد اشتهرت خريطته بذلك .
الاصطخري	اهتم بمواقع المدن وإثباتها على الخرائط
البكري	الجغرافيا الأندلسي ، يهتم بجغرافيا المدن ، وآثارها ، ومواقعها
البيروني	حقق أطول المدن وعرضها ، وله « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و « تاريخ الهند »
الخوارزمي	حدد الظواهر الجغرافية داخل كل إقليم ، ومنها المدن الساحلية للدلتا
المسعودي	له « مروج الذهب » وغيره من الكتب ، « والمسعودي » رحالة العالم الإسلامي

الاسم	المؤلفات
المقدسى	له أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم — وضع فيه الطرق وقواعد الأسفار
المهلبى	له جهود في قياس المسافات بين المدن ، ووضع ذلك في كتابه « العزيز » عن مصر
عبد اللطيف البغدادى	له جهوده المعروفة في تقسيم المدن ، ووصفها ، كما له رحلات وأسفار عدة
ياقوت الحموى	صاحب معجم البلدان



العلوم النظرية عند المسلمين علم التاريخ والجغرافيا والأدب

إن علم التاريخ والجغرافيا والأدب علمه المسلمون أول ما علموه من قرآنهم — فقد قص عليهم قصص الأولين ، وذكر أحوالهم في الأزمنة الغابرة الخوالى — قص عليهم قصص عاد وثمود وفرعون والتمرد ، وقص كثيرا عن اليهود والنصارى ، وعن أحوالهم ، كما وصف البلدان ، وأمر بالسير في الأرض ، ومعرفة أحوال الأمم ، بما لا يخفى على أحد .

وجاء القرآن فصيحاً معجزاً ، فحفظ البلاغة ، وأزكى الأدب ؛ وأثرى الخيال ، وعلم البراعة ، ولئن نبغ المسلمون في العلوم الرياضية ، والطبيعية ، والهندسية ، وعلوم الإنسان ، فقد نبغوا كذلك في علم التاريخ والجغرافيا ، فأبو جعفر الطبرى — سيد المؤرخين — قد جمع في كتابه كل الروايات التى وصلت إليه بأسانيدها — كما يفعل أهل الحديث — وهى طريقة فى التحرى والدقة لم يعرفها العالم قبل ذلك ، وقد كان الرومان يبنون تاريخهم على الخرافات والأقاصيص الخيالية — وكان الطبرى قال بعمله هذا للذين جاءوا من بعده : خلوا هذه المادة الخام ، وأجبلوا فيها عقولكم ، ثم احكموا على الأحداث .

ثم جاء العملاق ابن خلدون ، فوجد الكثير من المؤرخين يهتم بأخبار الملوك والمعارك والحوادث ، فأدخل التاريخ فى البيئة الاجتماعية وتطورها ، وكان للتاريخ عنده مجرى كبير واسع ، تخوضه الأمم على مراتبها فى الرق الحضارى ، وقيم حوادث التاريخ بمقدار ما يكون فيها دالا على عمل حضارى معين .

والحقيقة أن تراث المسلمين فى هذه العلوم يحتاج إلى مؤلفات طوال ، ومجلدات ضخمة ، لإلقاء الضوء على تلك الروائع ، وهو مالا يتسع له المجال فى بحثنا هذا ولكننا فى معرض ضرب الأمثلة وإيراد الشواهد على مانقول وما نحتاج إليه لإثبات حجتنا .

سوق العلوم الإسلامية

كانت الأمة الإسلامية الضخمة — من أقصاها إلى أقصاها — تمثل سوقا كبيرا للمعرفة والاختراع والبحث في جميع المجالات والعلوم . عرض لها القرآن صحائف الكون في أرضه وسماؤه ، ومائه وهوائه ، وجماده ونباته وحيوانه ، وحشها على النظر والتفكير فيما خلق ، وتعرف أسرار فيه ، فتتخذ منها مايقوى إيمانها ، كما تتخذ منها وسائل رقيها في الحياة المادية ، التي تكون بريقها عزتها وسعادتها ، وبذلك جمع لها بين حظى الجسم والروح ، وجعل حياتها الكاملة في استيفاء متعة المعرفة واليقين ، ومتعة المادة والعمل ، وصدق الله العظيم ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾^(١) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .

وقد أرشدنا القرآن إلى التأمل في كنوز الأرض ، والاستفادة منها ، والحفاظة عليها ، وأرشدنا إلى كثير من أصول الثروات الاقتصادية التي يحتاجها الإنسان في رقية المادى والحضارى ، فقال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾^(٣) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٤) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا . ثَلَبُسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلُكَ مَوَاجِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ

(١) البقرة — ٢٩٠ .

(٢) لقمان — ٢٠ .

(٣) الجاثية — ١١ .

(٤) النحل الآية — ٥ .

(٥) الأنعام — ١٤١ .

تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ ﴿٢﴾ .

هذه هي منطلقات الإنسان المسلم في الحياة ، وعلاقته بالكون ، سيد ينظر ويستخدم وينفع في مادته وروحه . وفهم المسلمون ذلك بعمق وأصاله وحيوية ، فجاهدوا في كل نواحي الحياة ، وتفتحت لهم كنوزها ، ثم هاجر إليهم الكثير من كل أمة ، يغترفون من الحضارة والعلم والمعرفة والمدنية .

كتب جورج الثاني ملك إنجلترا إلى هشام الثالث الخليفة الأموي بالأندلس يقول : « لقد سمعنا عن الرق العظيم الذي تتمتع به معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل ؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم ، لنشر أنوار العلم في بلادنا ، التي يسودها الجهل من أربعة أركان » . ولقد أرسل الملك وفدا برياسة وزيره الأول إلى الأندلس ، وكان ملك بلغاريا قد أرسل وفدا إلى الأندلس في عهد هشام الأول ؛ لدراسة نظم الحكم ، ومناهج التعليم ، وأساليب الإدارة . وعند عودة البعثة أمر الخليفة بأن يرافقها مستشارون وخبراء من الأندلس ، ليساعدوا الملك في كل ما يريد ، ثم أخذ ملوك أوروبا ينسجون على منوال ملك بلغاريا « ^(٣) .

إيضاح

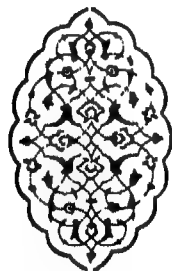
بعد هذا الجهد الذي رأيناه من أوائل العلماء المسلمين في نواحي كثيرة من المعرفة ، نرى أن هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا وحضارتنا يراد لها النسيان والاندثار ، والبعد عن سماء المعرفة ، حتى لا تكشف المغتصبين والسارقين والأدعياء الحاقدين ، وساعد على هذا انشغال المسلمين بأنفسهم ، بعدما ذهبت هيبتهم ، ومحيت شخصيتهم ، واقتربت منهم الأيام الجياع ، والليالي الحوالك ، ومزقهم الباطل الذي

(١) النحل — ١٤ .

(٢) فاطر — ٢٧ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية ص ١٩٢ .

طلما أزهرته حقهم الغالب ، وحجتهم المحرقة ، فلقد أحصينا العلماء في الطب ، فوجدناهم آلافا مؤلفة في شتى أقطار العالم الإسلامي ، وما اخترناه منهم إنما هو مجرد مثل على هذه الكثرة الكاثرة التي زخر بها تاريخ المسلمين ، وكنت أحب بعد جهدى الذى لا أخفى صعوبته ؛ لإهمال المراجع وتناثرها وكثرتها ، أن يدون كل هذا الجمع فى أسفار خاصة ، ومعاجم معينة ، وموسوعات متخصصة ، لفتاً للمسلمين إلى هذا التراث العجيب الضخم العملاق ، وإخراجاً لهذا العلم الذى استفادت منه الدنيا فى عصرها الحديث ، وكان سبباً فى نهضتها ونبوغها وهيمنتها ، وإظهاراً لحقيقة معينة يجب أن تشاع فى العالم اليوم : أن القيم العليا لاتمنع العلم من التقدم والوصول فى كل يوم إلى اكتشاف جديد ، بل إن هذه القيم العليا هى التى كانت الدافع الوحيد الذى دفع بسكان الصحراء إلى هذا الفهم العلمى والحضارى المتكامل فى روحه ومادته ، وخلقه وزخرفته ، وإنسانيته وزينته ، وأن هذه القيم العليا هى التى أخرجت للدنيا حضارة لها غاية وهدف إنسانى نبيل ، تفتقده اليوم الحضارة الحديثة ، وقد أصبحت بدون عرجاء قلقه ، تصيب الإنسان بالعقد والأمراض النفسية والاجتماعية الماحقة .



المبحث الثالث

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا

١ — الحروب الصليبية

نشأت اتصالات ثقافية بين العالم الإسلامي من جهة ، والعالم الأوربي المسيحي من جهة أخرى ، كانت لها نتائج طيبة ومثمرة على العالم الأوربي ، من هذه الاتصالات وتلك المعابر : الحروب الصليبية ، فيمكن أن يقال : إن الأوربيين الذين جاءوا إلى البلاد الإسلامية في موجات متلاحقة ، ولغت في سفك الدماء ، وخاضت في دماء الأبرياء ، بدون رحمة أو شفقة ، حتى إذا جوبهت بالجند المسلمين رأَت سيوفا معلمة ، وقلوبا مؤدبة ، ونفوسا رحيمة ، تسير برجولة وخلق وحق ، ليست من رسالتها الاستعباد والقهر والظلم واستعراض القوى ، وإنما تطهير البلاد من البغي والجور والعنت وسفك الدماء ، وإرجاع بلاد المسلمين ، حتى ينعم الناس بما كانوا ينعمون به في ظل رسالة سماوية ، لا تبديل فيها ، ولا تحريف ولا شطط ، فرأى الصليبيون المساواة والعدل والإخاء ، فثاروا على نظام الإقطاع ، وأمتهان الإنسان عندهم ، وأنكروا تسلط الكنيسة وجبروتها ، وكافحوا انتقال الثروة إلى أيدي بعض الأمراء وسماسرة الملوك — واغترفوا ما وجدوه من علم وفن وحضارة . فانتقلت إليهم كثير من الصناعات ، والنباتات ، والعقاقير ، والأصباغ ، وفن العمارة ، والهندسة ، وبناء الحصون والقلاع ، كما انتقلت كثير من التقاليد الإسلامية في الملبس ، والمأكل وفي الأسرة إلى أوروبا ، ورجع الصليبيون ، وكأن صعقة كهربائية نهتهم إلى سوء حالهم ، وجهالة فكرهم ، وضآلة مجتمعهم ، فانتفضوا يبحثون عن العلم والمعرفة ، ويبغون الإصلاح الاجتماعي ، والتقدم الفكري والصناعي والخلقي .

٢ — لقاء صقلية

كانت صقلية هي المعبر الثاني لانتقال حضارة الإسلام وثقافته إلى غرب أوروبا ، عن طريق صقلية ، فلما استولى الفاتحون من العرب على صقلية وجنوب إيطاليا ، تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحریتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا بأخذ قليل من المال لحفظ الأمن والدفاع ، وأعفوا من ذلك الرهبان والنساء والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التي وجدوها ، وعمدوا إلى الزراعة والصنائع ، فأحيوها ، وأنشأوا فيها مصانع الورق والحريز والأقمشة ، وعرفوا مناجم الجزيرة ، وأصلحو نظام الري ، وبنو القناطر والسدود ، ونقلوا كثيرا من الزراعات ، كما ازدهرت الأعمال الهندسية والعلمية والرياضية ، وكثرت مظاهر المدنية ونعم الناس بالأمن والسلام والحق ، وأبقى العرب في الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وتركوا ألفاظا كثيرة من لغتهم في اللغة الصقلية والإيطالية ، وفي اللغة العامية في جميع المدن الإيطالية ، التي كانت تنجر مع الشرق وصقلية ، فدخلت بذلك كلمات كثيرة في اللغة الإيطالية ، ولقد اضطرت مدينة « جنوة » إلى أن تؤسس مدرسة عام ١٢٠٧ م ، وذلك لتعليم وتدریس اللغة العربية لغة الحضارة العالمية . ويدل على ذلك وجود كلمات عربية كثيرة في لغة هذه المدينة ، وفي اللغات العامية في جميع المدن الإيطالية ، التي لها علاقة بالشرق الإسلامي يقول « ريبالدى » : إن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في اللغة الإيطالية ، والتي تفوق الحصر ، قد دخلت إلى اللغة الإيطالية عن طريق الاستعمار والغزو ، كما هو في العصر الحديث^(١) .

وأما عن الثقافة في الأدب والشعر والرواية والهندسة والطب وغير ذلك ؛ فقد اقتبس الغرب منها الكثير ، وحسبك في هذا أن العرب المسلمين أنشأوا المدارس المختلفة لتعلم تلك الفنون ، منها أول مدرسة للطب ، التي ماعهد مثلها في جميع أوروبا ، بل إن مدارس الطب في الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية الإسلامية بأعوام ، ومن تلك المدرسة انتشر الطب في البلاد الإيطالية والأوروبية .

(١) الإسلام والثقافة العربية ص ٢٠٢ .

٣ — لقاء الأندلس :

كان للأندلس الفضل الأكبر في دفع حركة النهضة الأوروبية إلى الأمام ، فقد قامت بدور يفوق كل الأدوار ، وكانت حركة نقل العلم الإسلامى إلى العالم المسيحى أعمق تغلغلا وأشد قوة ، فقد دامت مدة أطول عهدا من كل مكان آخر ، كما تحقق هناك التطور الحاسم ، الذى كان لابد أن يعتمد عليه تجديد العالم الأوروبى . ذلك أن الأندلس كانت موطننا للعلوم والعلماء ، وفد إليها كثير من طلاب العلم فى أوروبا بأعداد غفيرة فى كل فن وعلم ، فى الطب ، والصيدلة ، والكيمياء ، والنبات ، والرياضيات ، والفلك ، والفلسفة ، وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزا للعلوم ، يشع منها العلم إلى كل أرجاء القارة الأوروبية . ولقد قام العلماء — بتشجيع من الخلفاء — على مواصلة البحث العلمى ، والتأليف ، والترجمة ، حتى بلغ عدد الكتب الموجودة فى مكتبة جامعة قرطبة وحدها : نصف مليون كتاب ، وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين مجلدا .

وكان شغل الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة هو جمع العلماء المؤلفات من شتى الأقطار ، واقتناء الكتب ، ومواصلة البحث ، وعقد الندوات العلمية — ولهذا بلغت النهضة العلمية والحضارية فى بلاد الأندلس مبلغا دعا إلى الدهشة والإعجاب — وقال كثير من علماء الغرب : إن الخدمات العلمية التى أداها المسلمون للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وإن البحوث الحديثة دلت على اغترافنا من العلم العربى فى العصور الوسطى ، بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات الجهالة .

تقول الدكتورة سيجريد هونكة : « إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدين الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبيرا جدا ، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد ، لكن التعصب الدينى ، واختلاف العقائد ، أعمى عيوننا ، وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة »^(١) .

(١) شمس الله على الغرب — المقدمة ص ١ .

ثم تقول : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء — ومن العدم — من أعجب النهضة العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى .
فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة . هذه المعجزة العربية ، التى لا نظير لها ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها ، إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم ، وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم »^(١) ويقول الفيلسوف الألمانى « نيتشه » : حرمتنا المسيحية من ميراث العبقريّة القديمة التى حرمتنا بعد ذلك من الإسلام »^(٢) .
والحضارة الإسلامية فى الأندلس وفى غيرها من البلاد الإسلامية فرضت نفسها ، بفضل مالها من خصائص ومقومات ، لا تشاركها فيها أية حضارة أو ثقافة أخرى ، وبهذا أصبحت المدن الإسلامية — ومنها الأندلس — منارات علمية ، وحضارية متقدمة ، ولم تتجه أوروبا إلى الأندلس أو صقلية وحدها ، بل اتجهت إلى جميع البلدان الإسلامية ، وقامت سفارات أوروبية إلى العواصم الإسلامية ، وأولع الشباب بالثقافة الإسلامية ، إلى أن هجر الشباب فى أوروبا لغته القومية ، وثقافته الدينية ، وفكره اللاهوتى ، وعشق اللغة العربية والثقافة الإسلامية . وقد ارتفعت أصوات الرهبان بالشكوى من جراء ذلك ، لأن الشباب وجد من أخلاق المسلمين ومعاملتهم وعلمهم ما أسر لبهم ، ولفت انتباههم إلى هذه الحضارة الإسلامية السامية ، وهذا الفكر الصافى المنير .



(١) المرجع نفسه ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) الإسلام والحضارة عبد المنعم خفاجة ص ٢٠١

النقلة من اللغة العربية إلى الأوروبية

بعد أن هضم المسلمون علوم الأولين ، وتراث المعرفة القديم ، وأعملوا فكرهم الذكي ، وعقلهم النابه ، فيما تحت أيديهم ، وفتحوا عيونهم على واقع الحياة وما فيها ، فنظروا إلى الأرض وما تحوى ، وإلى السماء وما تحوى ، وإلى الأحياء وما يجرى عليها ، وإلى الجمادات وما ينتج فيها ، وساروا وراء الأسباب ليصلوا إلى المسببات ، ووراء الأعراض ليلغوا الجواهر ، وعلموا أن للكون أسراراً لا تفتح لجاهل ، ولا تظهر لغر ، ولا تنكشف لكسول ، فشددوا المثزر ، وشحدوا العزائم وفتحوا العيون ، وواصلوا الليل بالنهار ، فأعطاهم العلم مفاتيح كنوزه ، ومقاليد أسرارهِ ، فحملوا رأيتهِ في كل ميدان ، وخاضوا به غمار كل معركة . فأنجوا وأخرجوا مابهر العالم ، وشرف الإنسانية ، ووضعها على طريق الحضارة والمعرفة الحقة ، وسطعت شمسهم في سماء الدنيا الحائرة الشاردة ، فتوافد وتهافت كل محب للنجاة ، وطالب للحقيقة ، إلى هذا النبع وذاك المعين ؛ ليروي غلته ، وبدأ بعد أن أشبع نهمته ينقل ما يقدر عليه إلى بنى جلدته ، فبدأ المترجمون الغربيون ينقلون العلوم الإسلامية إلى أمهم في شتى البقاع ، فأرنا المترجمين من الأسبانيين ، أو القبطونيين — أمثال يوهانس ، وهسبالنس ودومينيكوس جندير ألفوس ، ويسمى الأول يوحنا الأشبيلي ، وابن داود ، وكان يهوديا اعتنق المسيحية ، وكان يترجم من العربية إلى القشتالية ، وكان شريكه دومنجو يترجم من القشتالية إلى اللاتينية .

واشتغل بالترجمة كل من :

أوجودى سانتلا ، وكان مختصا بالنجوم والكيمياء .

روبرت أوف تشتر ، وكان في حوالى في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى

وهومان دالماتا : وهو من أعظم المترجمين

دانيل دى مورلى — ترجم كثيرا من الكتب العربية .

أفلاطون دى تيفولى : ولد سنة ١١٣٤ — مترجم إلى الإيطالية ، عاش في

برشلونة مدة ، ترجم الكتاب الفلكى للتباني ، والنص العربى لكتاب بطليموس ، كما

ترجم كتاب الجبر لإبراهيم برحيا .

جيرارد رودي كرمونا — مترجم إيطالي ، مولود حوالي سنة ١١١٤ ، وترجم المجسطى عن أصل عرى .

سارطون — ترجم كتابا في الفلك والنجوم والطب والفلسفة ، بلغت العشرين كتابا .

أبو إسحاق إبراهيم بن الماجد المولود في غرناطة سنة ١١٢٠ ، وقد أنجز عملا ضخما في الترجمة إلى اللاتينية .

صمويل بن يهود بن طبون ، سنة ١١٥٠ ، عاش مدة طويلة في الأندلس ، وتوفي في مرسلية سنة ١٢٣٠ ، وترجم كثير من الكتب العربية ، منها دلالة الحائرين . وثلاثة كتب لابن رشد .

موسى بن صمويل سنة ١٢٤٠ — ١٢٨٣م ، ترجم كثيرا من الكتب إلى العبرية ، حوالي ٣٠ كتابا ، منها شروح ابن رشد في الفلسفة .

يعقوب بن ماهر بن طبون ، ولد سنة ١٢٣٦ في مرسلية ، ترجم كثيرا من الكتب العربية إلى القطلونية وغيرها .
اصطفان السرقسطى الذى كان حيا سنة ١٣٣٣ ، ترجم كثيرا من الكتب العربية .

بطرس جاليقوس المتوفى سنة ١٢٦٧ ، ترجم كثيرا من الكتب العربية .

ابن حسداى الداعية ترجم كثيرا من الكتب العربية .

يعقوب الأناضولى : قضى ردها من الزمان في خدمة فريدريك الثانى ملك صقلية ، ترجم شروح ابن رشد ، ومن الملوك الذين ساهموا في النقل من العربية .
الملك ألفونس الحكيم ، الذى كان عالما ونصيرا للعلماء والمترجمين ، وشجع كثيرا على الترجمة في عهده .

الملك دنييس الذى حكم بالبرتغال سنة ١٢٧٩ — ١٣٣٥ ، وساعد على نمو الثقافة في قطره ، وأنشأ جامعة برشلونة سنة ١٢٩٠ ، وأمر بترجمة كثير من الكتب

العلمية والأدبية إلى البرتغالية ، وكان من المترجمين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي .

أرمنجويهود بن موسى الكاهن : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

صمويل اللادي أبو العافية : ترجم الكثير من الكتب إلى الأسبانية .

إسحاق سيدها حزان ترجم إلى اللاتينية كثيرا من الكتب العربية .

إبراهيم الحكيم الطليطلى : ترجم كثيرا من الكتب العربية إلى الأسبانية واللاتينية .

سليمان بن يوسف بن أيوب السفردى : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

شمطوب بن إسحاق : ترجم من العربية كثيرا من الكتب .

زرحيا بن إسحاق بن شلتيل جراسيا : ترجم من العربية .

ناثان المثنوى : كان من المترجمين من العربية .

شمطوب بن يوسف فلفيرا : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

ليوناردو بيزانوا : كان عالما مجددا في علوم الرياضيات في الغرب ، ولد سنة ١١٧٠ ، ترجم من العربية .

أرنالدوس فيلا نوفانوس سنة ١٢٣٤ ، ١٢٥٠ ، قام برحلات إلى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، وترجم من العربية كتباً ، منها كتب جيلانوس ، والكندى ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا .

ريمون لول سنة ١٢٣١ — ١٢٣٥ ، قام برحلات إلى البلاد الإسلامية ، وتوفى بها ، وترجم من العربية كثيرا من الكتب لابن رشد ، وكثيرا من كتب الرياضة والطب والفلسفة والكيمياء^(١) .

(١) انظر في ذلك المراجع الآتية — العلم عند العرب للدوميل ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٤٥٧ — ٤٨٤ ، الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ٢ / ٢٤٣ — ٣١٠ الترجمة في الإسلام عبد العزيز عزت — الرسالة ٦ : ٧٤٠ =

الترجمة في القرون الحديثة :

هذا . وقد ظلت ترجمة الكتب العربية مستمرة إلى القرن العشرين ، ونحب أن نذكر طائفة من الكتب المترجمة ومترجميها في العصر الحديث .

يوليوس روسكا : ترجم كتاب « الكيمائيون العرب » ، للألمانية سنة ١٩٢٤ ، ترجم كتب جابر بن حيان ، ونظر فيها .

مارسلان برتيلو : توفي سنة ١٩٠٧ ، ترجم كتب جابر بن حيان من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأثبت أن جابر بن حيان يعرف من الكتب اللاتينية أكثر من الكتب العربية . ويظهر أن ذلك كان لضبياع كثير من كتبه .

يوليوس روسكا : ترجم كتاب « سر الأسرار » لأبي بكر الرازي ، كما كتب عدة مقالات عن الرازي رائد الكيمياء الجديدة في مجلة عمود ١١٧ — ١٢٤ .

المستشرق الروسي v.L..Karmov — نقل كتاب « سر الأسرار » للرازي إلى اللغة الروسية في طشقند سنة ١٩٥٧ .

باول كراوس : نشر فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي عن مخطوط في ليدن برقم ١٣٣ إلى الألمانية سنة ١٩٢٣ .

ف . برونر : طب العيون عند الرازي ، رسالة دكتوراه برلين ١٩٠٠ .

جرتشيشف : طب العيون عند علي بن عباس ، مع ترجمة إلى الألمانية . رسالة دكتوراه برلين سنة ١٩٠٠ .

ي . هرشبرج : ترجم التذكرة في طب العيون ، لعلي بن عيسى الكحال — إلى اللغة الألمانية .

تشارلز . د . أوملي : ترجم لاتينية لابن النفيس ، تتعلق بمشكلة الدورة الدموية ص ٦١٧ — ٧٢٠ ، من المجلد الثاني من أعمال المؤتمر الثامن الدولي لتاريخ

= ٧٣٤ ، ٧٨٣ ، ٨٧٤ الترجمة والمترجمون — مجلة الشرق ٣٠ / ٢٨٩ — ٢٩٦ الهلال ٣٣ : ١٠٢٤ — ١٠٢٥ — كتاب مقدمات ومباحث في حضارة الإسلام ص ١٩٧ — ٢٠١ .

العلوم فرنسته ٩/٣ سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

ماكس مايرهوف : طبع كتاب « الصيدلة » للبيروني في المعهد الفرنسي بالقاهرة كما طبع في باكستان سنة ١٩٧٤ ، كما ترجم كتاب « الجامع في مفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار إلى الألمانية .

ب — رلبر برج : كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري — رسالة دكتوراه في جامعة برسلاو سنة ١٩٠٨ .

ب — ليفين : نشر كتاب الدينوري عن النبات في السويد سنة ١٩٥٣ .
جيد والكريموني : ترجم كتاب « مختصر من حساب علم الجبر والمقالة » للخوارزمي إلى الفرنسية سنة ١٨٣٨ .

رمزي رايت : ترجم إلى الإنجليزية كتاب « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » للبيروني سنة ١٩٣٤ .

ه — سوتر : ترجم سنة ١٩١٠ — استخراج الأوتار في الدائرة بخصوص الخط المنحني عند البيروني .

ي . ل . هيرج : ترجم إلى الألمانية كتاب « المرايا المحرقة بالقطوع » للحسن بن الهيثم سنة ١٩١٠ .

يوليوس روسكا : ترجم ونشر كتاب « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » للتيغاشي سنة ١٩١٢^(١) .

هذه نماذج قليلة ، ذكرتها واقتصرتها عليها خوف الإطالة ، وإلا فذلك يحتاج إلى مجلدات ، تذكر فيها تلك العلوم المنهوبة قديما وحديثا من حضارة المسلمين الزاهرة ، التي أكلها الجاحدون ، ونسبوها إلى أرضهم الجذبة ، وذواتهم الجاحدة ، فكانت مفاتيح المعرفة لهم ، وينبوع الخير لبلادهم ، وزيت الضياء لمصايحهم ، وقد

(١) المراجع السابقة مع مجلة الفكر . أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب : الدكتور عبد الرحمن بدوي ١٣ / ٩ .

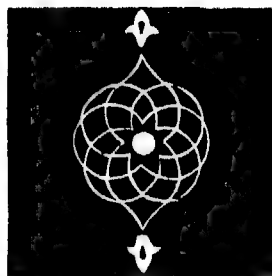
اعترفت قلة منهم بهذا الفضل وذلك التراث ، ولم تستطع كتم المعروف طويلا ، فاعترف السير هيولنستن — رئيس الاتحاد الدولي للصيدلة — في المؤتمر الصيدلى العربى ، الذى أقيم فى القاهرة سنة ١٩٦٢م ، بفضل العلماء العرب والمسلمين فى الطب والصيدلة ، وقالت الدكتورة شوار نزهب — وزيرة الصحة بجمهورية ألمانيا الاتحادية — فى افتتاح المؤتمر الدولى — للبلهارسيا — بالقاهرة : « إن الغرب لن ينسى أبدا أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وأن مؤلفات ابن سينا ، والزهرراوى ، والرازى ، كانت هى الكتب الوحيدة التى تدرس فى جامعة (بالرمو) ، التى تضم أشهر مدرسة للطب فى العالم الغربى ، وكانت هذه الكتب قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية . كما أسوق ما قاله (الدكتور غريسيب) — مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب فيها — حيث قال فى حفل : « أقامه الطلاب المسلمون بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف » : « أيها الطلاب المسلمون ، الآن قد انعكس الأمر . فنحن الأوربيين يجب أن نؤدى ماعليتنا تجاهكم ، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم ، وشرح لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم ، وعليكم بالعمل المتواصل ؛ لتعيدوا مجدكم الغابر ، طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم ، مازال موجودا بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عنكم ، فارجعوا إلى الماضى ؛ لتؤسسوا للمستقبل ، ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة ، وسلام عليكم ياطلابنا إن كنا فى الماضى طلابكم » (١) .

هذا وقد خصصت جامعة (برنستون) الأمريكية أفخم ناحية فى أجمل أبنيتها لمآثر المسلمين فى الطب والعلوم ، وأطلقت عليه اسم الرازى — أحد أعلام الطب المسلمين — كما أنشأت أجنحة لتدريس العلوم العربية ، والبحث عن المخطوطات ، وإخراجها ونقلها من العربية إلى الإنكليزية ، ليتمكن العالم من الوقوف على تلك العلوم ، التى مازالت حية يستفاد منها فى الحضارة والتقدم العلمى .

ويبقى اليوم أن نسأل أنفسنا ، ونسأل شبابنا : ماذا يعرفون عن علوم أجدادهم ، وعن معارف أسلافهم ، وتراث أوائلهم ؟ ونسأل جامعاتنا : هل تفعل

(١) أثر العلماء المسلمين — أحمد على الملا ص ١٤٣ ط الفكر .

اليوم مايفعله غير المسلمين من الاستفادة بعلوم الأولين من آباءنا وأجدادنا . وهل تلقن طلابها هذه الأصول العلمية ، ليعرفوا ماضيهم ، فيبنوا عليه حاضريهم ، ويكون كالجذر للشجرة ، وكالأساس للبناء ، وكالعمق للنبع ، يعطى ثقة ورسوخا ودفعاً ورياً للحاضر الزمان والواقع الصدى .



الفصل الثالث

**خصائص تلك الحضارة
وأهدافها**

من المستحيل أن ينكر عاقل أن النفس الآدمية تظهر أفكارا عديدة ، وصنوبا من التفكير ، في حدود ذاكرة الإنسان وقدراته . وهذا ينطبق بالضرورة على الجماعات وعلى الأمم ، وفي هذه الحالة فإن التقاليد العامة ونتاج المجتمع الفكرى يوضح الذاكرة والقدرة الجماعية ، التي تحفظ جميع صنوف التفكير فى المجتمع ، وبالتحديد فإن الذى يميز بلدا عن آخر هو التقاليد العامة ، والفكر الجماعى للمجتمع .

وتسرى تلك القاعدة على النطاق الجغرافى ، أو الجنسى ، أو نطاق السلالات القومية ، وكذلك يمكن سريانها أيضا على المدينيات .

وهذا نستطيع أن نحدد أطر كل من المدنية^(١) والحضارة . فيظهر لنا أن المدنية هى مجموع التطورات فى المجتمع بالنسبة للعلوم النظرية والتطبيقية ، وفروع الصناعة والعلوم الاجتماعية والأدب والفنون ، وأى أنشطة فكرية أخرى . هذه هى المدنية ، ولكنها ليست الحضارة ، فالحضارة لا تقوم على الفكر المكتسب ، ولكنها هى الحالة المعنوية ، أو هى حالة دائمة لها آداب فردية وقيم اجتماعية ، فالحضارة مفهوم أخلاقى بحت . وهى ملكة معنوية كلية غير ملموسة ، على الرغم من وضوح آثارها حسيا ، وظهورها فى المجتمع . وهى تتكون فى النفس أو فى المجتمع بواسطة الأفكار والأحداث المستمرة ، وتبعا للمبادئ الأخلاقية .

والمدنية : هى التربة الخصبة التى تستطيع الحضارة بواسطتها أن تؤدى عملها

(١) البعض يسمي تطور العلوم مدنية ، وهو أكثر شيوعا ، والبعض يسميه « تقدم علمى » ، ويجعل المدنية مرادفة للحضارة ، ونحن إن كنا نميل إلى الرأى الأخير إلا أننا راعينا فى هذه الفقرة الشيوع ؛ لإيضاح الفرق بين الحضارة وغيرها .

على خير وجه ، وإن كانت الحضارة فى استطاعتها أن تعيش بغير المدنية ، وأن توجد بدونها ، وقد يكون على العكس من ذلك ، فإن الشخص أو المجتمع قد يبدى درجة عالية من الحضارة بلا مدنية . وهذا مانطلق عليه عموماً : الآداب الإنسانية . ونستطيع أن نضرب بعد ذلك أمثلة توضيحية لهذا الذى ذكرناه ، فنقول :

إن اختراع الطائرات ، وأقلام الحبر ، والأمصال المضادة للسموم ، والتلفاز ، والمذياع ، والآلات الحديثة ، مدنية ، واستخدام الطائرات فى نقل المصل الواقى من السموم للمحتاج ، وإغاثة المرضى والمهلوفين حضارة ، واستخدام الأقلام والتلفاز والمذياع والآلات الحديثة فى تربية الفضيلة ، ونفع الناس ، وإشاعة الأمن والطمأنينة ، حضارة . هذا . وقد توجد الحضارة بغير طائرات وبغير تلفاز أو مذياع . فإغاثة المهلوف ، وعمل الخير ، والعطاء الإنسانى ، لا يتوقف على طائرة أو مذياع ، أو وسائل اتصال حديثة ، ولكن هذا — لاشك — يسهلها ويعمّمها ويساعدها . وقد توجد مدنية ولا توجد حضارة ، إذا استعملت الطائرات فى ضرب الآمنين ، وإبادة الحرث والنسل ، واستعمل المذياع والتلفاز للإفساد والضلال والانحراف . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الحضارة تنهض على أركان ثلاثة ، قوامها الإنسان ، وهى :

١ — الوجود — وهى الساحة الحضارية .

٢ — الإنسان — وهو الفاعلية الحضارية .

٣ — العمران — وهو الهيكل الحضارى .

فالوجود ، هو الحياة التى تظهر فيها الأعمال الحضارية ، والإنسان ، وهو الذى يستغل الوجود ، ويعمل فى إطاره وتظهر فيه دلالات تلك الحضارة ، والعمران ، الذى هو نتيجة استعمال العقل فى الخير والنفع ، وسعادة الإنسان ، كل ذلك مركزه الإنسان ، ومداره ما بداخله ، وما حوله من عقائد وتصورات وغايات . ولهذا لكل حضارة من الحضارات لا بد لها أن تحتوى بشكل أو بآخر على العناصر التالية :

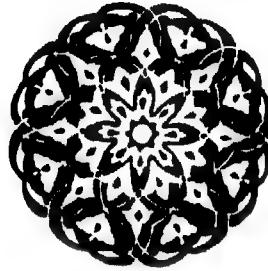
١ — عقائد ومبادئ أساسية .

٢ — تصور للحياة وغايتها .

٣ — منهج تربوي .

٤ — نظام اجتماعي .

ولهذا إذا أردنا أن نتكلم على خصائص الحضارة الإسلامية ، فلا بد لنا أن نبين خصائص مناهجها في هذه العناصر السابقة ، ولكمال الفائدة نعمد إلى مقارنتها بالحضارة الغربية .



المبحث الأول العقائد والمبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية

التوحيد :

طبيعة هذا الدين وعقيدته تقوم على الألوهية الواحدة ، فكل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . وهذا الأصل العظيم يشمل الحياة كلها ، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها .

والاستسلام لهذا الأصل ابتداء هو مقتضى الإيمان ، ومتى استقرت عقيدة « لا إله إلا الله » في الأعماق استقر معها — في نفس الوقت — النظام الذي ينبثق منها ، وينبع من معينا ، كما أن هذا ليس نظرية تتعامل مع الفروض ، بل هو منهج فطري ، يتعامل مع الواقع ، ويسير مع طبيعة البشر ، بغير شطط ولا تقصير ، فعقيدة الإسلام شاملة للعالم والآخرة ، للفرد والجماعة ، للجسد والروح ، للسلم والحرب ، للحاكم والمحكوم ، فلا يكون الإنسان مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، أو الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى ، وليس الإنسان مطالبا ليكون مسلما بأن يكون رهينة وساطة بينه وبين السماء ، يتولاها في المعبد سدنة موكلون بالوساطة بين الخالق والمخلوق ، وبين العابد والمعبود ، ولكن المسلم تعلمه عقيدته أنه لا واسطة بينه وبين ربه ، ولا حجاب يستتره عن خالقه ، وصدق الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) ،

(١) البقرة — ١٨٦ .

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾^(١) .

ولهذا يعرض القرآن قضية الرسالة ، ويحصرها في التبليغ ، فيقول القرآن :
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾^(٢) ، ويقول ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا . إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾^(٣) .

وأما الطاعة والافتداء ، فيقول القرآن في ذلك ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾^(٤) ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(٥) .

وعقيدة الإسلام تمتاز بأنها لا تصادم الفطرة ، بل تسير سهلة تتخلل جوانح النفس : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾^(٦) . لا تسلط فيها أو إعنات ، ولا بغى فيها ولا إرهاب ، بل انطلاق ورحمة وهداية ، نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾^(٧) ، ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾^(٨) ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٩) ، ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(١٠) .

(١) المجادلة — ٧ .

(٢) الكهف — ١١٠ .

(٣) الشورى — ٤٨ .

(٤) النور — ٥٤ .

(٥) الأحزاب — ٢١ .

(٦) الروم — ٣٠ .

(٧) ق — ٤٥ .

(٨) آل عمران — ١٥٩ .

(٩) التوبة — ١٢٨ .

(١٠) الزمر — ٥٣ .

عقيدة جامعة :

تجمع بين الدنيا والآخرة ، فلا تحتقر المادة لافى صورة « النظرية » — باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون ، الذى نعيش فيه ، ونشأثر به ، ونؤثر فيه — ولا فى صورة « الإنتاج المادى » ، فالإنتاج المادى من مقومات الحياة ، ولكنه لايعتبر فيها القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، ويفقد بسببها حرته وكرامته وعرضه ، وصدق الله ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾^(١) . ومن هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ماله وما لقيصر ، لأن الأمر فى الإسلام كله لله : ﴿ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾^(٢) ، ﴿ وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾^(٣) . ومن هنا كانت التفرقة بين ماله وما لقيصر تفرقة الضرورة ، التى لايقبلها المتدين ، ولا تقبلها عقيدة ، وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله ، وهذا التطويع هو الذى أوجبه العقيدة الشاملة ، وكان له الفضل فى صمود الأمم الإسلامية لطوق الاستعمار ، وإيمانها الراسخ بأنه دولة زائلة ، وحالة لا بد لها من تحول . وقد أبت هذه العقيدة على الرجل المسلم أن يطيع الحاكم بجزء منه ، ويطيع الله بغيره ، وأتت على الإنسان جملة أن يستريح إلى الفصام الوجدانى ، ويحسبه حلاً لمشكلة الحكم والطاعة قابلاً للدوام .

كما أن العقيدة تعترف بحقوق الجسد ومتطلبات الروح : « إن لبدنك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً ، ولربك عليك حقاً ، » فإن الاعتراف بحق الجسد لايستلزم إنكار الروحانية ، ولا الحد من إشرافاتها ، إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد ، كما لا يوصف به دين ينكر الروح : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾^(٤) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) الرعد — ٣١ .

(٣) المائدة — ٤٩ .

(٤) البقرة — ٦٠ .

طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْبُدُون﴾ (٢) كما تخاطب العقيدة العقل والوجدان . وفي خطاب العقل إحياء لنور في الإنسان يجب أن يضيء ، وبصيرة يلزم أن تنتبه ، وليس في عقيدة الإسلام عصب العيون ، وطمس القلوب ، وواد الإدراك : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَقَرَادَىٰ ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (٣) ، ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) ، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥) ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦) .

عقيدة واقعية ، جاءت لتعمل في الأرض . جاءت للبشر ، وبأسباب أرضية ، لا بطريق المعجزة ، ولا بطريق كلمة « كن » الإلهية ، إنما تتحقق تلك العقيدة وهذا المنهج بالجهد البشري في حدود الطاقة البشرية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٧) وهذه الحقيقة شاء الله تعالى أن يعلمها للمسلمين عمليا في غزوة أحد ، فقال القرآن ردا على سؤال المسلمين : ﴿أَلَيْ هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ، ثم قال القرآن معقبا : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٨) ، ثم قال سبحانه مفعلا ذلك : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (٩) .

(٧) الرعد — ١١ .
(٨) آل عمران — ١٧٩ .
(٩) آل عمران — ١٥٢ .

(١) البقرة — ١٦٨ .
(٢) البقرة — ١٧٢ .
(٣) سبأ — ٤٦ .
(٤) يونس — ١٠١ .
(٥) البقرة — ٢١٩ .
(٦) النحل — ٤٤ .

عقيدة للخلق كلهم :

العقيدة الإسلامية للناس كلهم ، ليست للسادة المتسلطين دون الضعفاء المسخرين ، ولاهى للضعفاء المحرومين دون السادة المنعمين ، ولكنها رسالة تشمل بنى الإنسان من كل جنس وملة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٢) عقيدة جامعة وشاملة ، لاتخص بنعمة الله أمة دون أمة ، لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات ، لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ، لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٣) ومن تعاليم الرسول ﷺ للمؤمنين : « لافضل لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »^(٤) وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة ، أو شخص على آخر ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم والأخلاق والأعمال .

ربط القيم العليا بالأعمال :

ليس فى الإسلام فصام بين القيم العليا والأعمال ، بل تنبثق الأعمال عند المؤمن من قيمته ، وتنبع من عقيدته ، وقد ربط الإسلام بين الإيمان والاستقامة فى كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله العظيم فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

(١) الأعراف — ١٥٨ .

(٢) سبأ — ٢٨ .

(٣) الحجرات — ١٣ .

(٤) أحمد ٥ / ٤١١ .

(٥) المجادلة — ١١ .

(٦) النساء — ٩٥ .

(٧) الزمر — ٩ .

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴿١﴾ ، ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٥﴾ ، ﴿٦﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾ وقال ﷺ للسائل عن تعاليم الإسلام وعقيدته : « قل آمنت بالله ثم استقم » ﴿٨﴾ .

إن العقيدة الإسلامية جاءت لتغير معتقد الإنسان ، وتغير بذلك نظامه الاجتماعي ، حسب نظام تلك العقيدة وتعاليمها ، وهذا النظام ينظر إلى جميع مصالح الحياة من وجهة نظر الأخلاق والقيم ، لامن منطلق الأهواء والشهوات والغرائز ، وإن كان لا يغفلها أو يتناساها ، ولكنه يهذبها ويجعلها للإنسان لا عليه ، وفي سبيل سعادته لا تعاسته ، وقد قدر الإسلام قيمة الإنسان بمقدار تماسكه بالقيم العليا ، والعمل على تحقيقها ، لأنه لن يكون إنسانا حقا بغير ذلك . وإن دعوة الفصل بين القيم والأعمال هي من أعجب ما جاء به الغرب اليوم — وما أشبهها بقول العربى قديما :

خذ من كلامي ولا تنظر إلى عملي اجن الثار واخل العود للنار

فما أشبه الليلة بالبارحة وكان الزمن يعيد نفسه ، وإن الغرب الذى أقر هذه النظرية ، هو نفسه الذى يبطلها بعد أن ثبت فسادها ، « فتأتى أمريكا بلد الحرية الشخصية ، وتفصل ٣٣ موظفا من أعمالهم فى وزارة خارجيتها ، لإصابتهم بالشذوذ

(١) فصلت — ٣٠ .

(٢) الكهف — ١٠٧ .

(٣) طه — ٨٢ .

(٤) فاطر — ١٨ .

(٥) مسلم ١ / ٢٧ الإيمان والنوى ١ / ٣٧٦ .

الجنسى وقيل فى بيان سبب فصلهم : إن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة « (١) .

وتأتى انجلترا فى هذه الأيام ، وتفصل وزيرا بارزا فى حكومة تاتشر المحافظة ، لأنه كان يتخذ خلية له على زوجته ، وتقرر أنه بهذا لا يؤتمن على مصلحة بلده .

والقوانين أو النظم التى لاتربط أفعالها وأقوالها بقيم عليا ترجع إلى شرعة الغاب رويدا ، وإن ادعت غير ذلك ، « فحين كان الجنود الإنجليز فى الحرب الماضية يعتدى أحدهم على الآخر ، فيتلاكان ، فمن انتصر فهو صاحب الحق ، وعلى الآخر أن يعتذر بصرف النظر عن المسبب الحقيقى ، وبهذا يكون قانون الغاب هو الذى احتكموا إليه ، أما حين يشكو المصرى إلى عمر أن ابن عمرو بن العاص ضرب ولده بغير وجه حق . فيقول عمر للمصرى : اضرب ابن الأكرمين ؛ يكون قانون الإنسانية هو الذى يحكم ، وشرعة الحق والعدل هى التى تقرر وتتصرف (٢) .

عقيدة وحضارة :

العقيدة الإسلامية هى قوام حضارة ذات رسالة ، وجدت أولا : لتبعث الركام الإنسانى الزاهل ، وتعيد له الحياة : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٣) وإحياء الإنسان قد يكون بشفاء عقله وإبراز إنسانيته ، وقد يكون بإحياء المعانى الآدمية فى تصرفاته وأعماله ، والبعد به عن الحيوانية والبهيمية والوحشية ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

(١) انظر جاهلية القرن العشرين ص ١٩٧ ط دار النور .

(٢) انظر الإنسان بين المادية والإسلام — محمد قطب — ص ٢٩١ ط الرابعة بيروت .

(٣) الأنعام — ١٢٢ .

(٤) المائدة — ٨ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١).

ثانيا : لتحرير الناس تحريرا شاملا من داخلهم ومن خارجهم ، فمن داخلهم بتحريرهم من نزعاتهم وأهوائهم ، ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (٢) ، ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نُزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥) ومن خارجهم بدفع الظلم عنهم ، وفك أسرهم ، وعدم تعبيدهم إلا لله سبحانه وتعالى ، فما خرج أصحاب العقائد من المسلمين ليؤسسوا امبراطورية عربية أو قرشية ، ينعمون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الفرس والروم إلى حكم العرب ، أو إلى حكم أنفسهم . وإنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزود جرد : « إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » : « الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وفي ظل هذه الرسالة وتلك العقيدة — استطاعت الأمم والشعوب المضطهدة والمغتصبة في القديم أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهديب والحكم ، وأن تساهم في صنع حضارة سعدت بها الدنيا عصورا متطاولة ، وآمادا مديدة . ولم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع النواحي من هذا الدور ، الذى تعاونت فيه قوة الروح ، والأخلاق ، والدين ،

(١) النساء — ٥٨ .

(٢) يوسف — ٥٢ .

(٣) محمد — ١٤ .

(٤) الأنعام — ١١٩ .

(٥) الأعراف — ٢٠٠ .

(٦) القتال فى الإسلام — ٢٥ .

والعلم ، والأدوات المادية ، في تنشئة الإنسان الكامل وسعادته .

التصور العقائدى للحضارة الغربية

التصور الاعتقادى — كما أبنا — هو أداة التوجيه الكبرى للحياة ، إلى جانب النظام الواقعى ، الذى ينبثق منه ويقوم على أساسه ، ويتناول نشاط الفرد كله ، والنشاط الجماعى كله ، فى شتى حقول النشاط الإنسانى . وقد قدمنا التصور الإسلامى المستمد مباشرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وتكيفت عليه الجماعة المسلمة الأولى ، ذلك التكيف المذهل ، وتسلمت به قيادة البشرية ، وقادتها تلك القيادات الفريدة ، التى لم تعرف لها البشرية — من قبل ولا من بعد — نظيراً ، وحققت فى حياة البشرية — سواء فى عالم الضمير والشعور أو فى عالم الواقع العملى — نموذجاً فذا لم يعهده التاريخ ، به عاشت ، وعليه اعتمدت فى الدرجة الأولى .

وكان لحمة هذا النظام وسداه هو القرآن الكريم والسنة . وإذا انتقلنا إلى التصور الاعتقادى للحضارة الحديثة ، وبحثنا عن أصوله وجذوره ، وجدناها هى خلاصة التصورات الأوروبية القديمة وعليها مزيد !! فهى رواسب من التصورات اليونانية ، والرومانية ، ومسيحية القرون الوسطى المحرفة ، مضافاً إلى كل ذلك مزيد جاءت به القرون الحديثة ، على يد فلاسفة الحضارة الحديثة وعلمائها ، من اليهود ، ومن المتأثرين بالنظرة العقلية والحسية . وكان يتصور أن تكون الحضارة الغربية قائمة على أساس عقائدى ، نظراً لأن الديانة المسيحية كانت شائعة فى بيئة هذه الحضارة ، ولكن صورة الدين الكنسى الذى صاحب تلك الحضارة وخالطها كان منفرداً وغير صالح للحياة . فعلى الرغم من التهذيب الروحى الذى تدعو إليه المسيحية ، والتواضع ، وعدم الاستكبار ، والتسامح ، والارتفاع على متاع الجسد ومتاع الأرض ، فإن المبالغة والتحريف الذى خالط تلك التعاليم ، وتوجيهات الكنيسة ، التى حلت محل الشعائر والتعاليم الصحيحة ، وجعلت الديانة عبء على الحياة . إن المبالغة التى فرضتها الكنيسة فى صورة الرهبانية لم تكن صالحة للحياة السوية ، فضلاً عن الفساد الذى

أدت إليه في الأديرة والأماكن المخصصة للعبادة ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . فضلا عن ذلك فإن الطغيان الذى مارسه رجال الدين الكنسى باسم الدين والذى تمثل فى :

١ — طغيان روحى ، يطالب الناس بالتسليم المطلق ، وعدم المناقشة فى عقائد اخترعوها ، مأنزل الله بها من سلطان ، ولا يستطيع العقل أو الواقع أن يستسيغها — يقول الأستاذ الندوى فى عجائب الرهبان « ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق إلى قرنين . وروى المؤرخون من ذلك عجائب . فحدثوا عن الراهب مكاربوس : أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ، ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من الحديد . وكان صاحبه الراهب يوسيبس يحمل نحو قنطارين من الحديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بشر نزع ، وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة ، ولم ينم ، ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جدا أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسى دائما ، وإنما يستترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثيرا من الكلاء والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم : أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم فى النجاسة والدنس ، يقول الراهب أتهينس : إن الراهب أنتونى لم يقترب إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب إبراهيم لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة !! ... إلى أن قال : وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ، ويخطفون الأطفال ، ويهربون بهم إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ، ويربونهم تربية رهبانية ، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا (٢).

(١) الحديد — ٢٧ .

(٢) ماذا خسّر العالم بالخطا المسلمين ص ١٨٥ ط دار القلم .

٢ — طغيان سياسى ، يلزم الناس بالخضوع للأهواء السياسية للبابوات والكرادلة ، ومن تمرد على ذلك الطغيان وتلك الأهواء يتعرض لقسوة البابوات المحرقة ، وإن كان إمبراطور ، يحكى صاحب كتاب معالم تاريخ العصور الوسطى ، فيقول : « ومن قسوة البابا أن يعلن حرمان إمبراطور ، فيضطر أحيانا إلى الوقوف ببابه ثلاثة أيام ، حافى القدمين ، عارى الرأس ، بين الثلوج والأمطار ، حتى يأذن له البابا ، ويغفر له ذنوبه ، كما فعل الإمبراطور « هنرى الرابع » ، حين حرمه البابا عام ١١١٧ .. كما أنه في عهد البابا « أرنست الثالث » أعلن غضبه على الملك « جون » — ملك انجليزى — ثم أنزل نقمته على انجلترا كلها ، وأعلن عليها حربا صليبية ، وحرص ملك فرنسا « فيليب أغسطس » على مهاجمته ، وضم انجلترا إليه ، فاضطر عندئذ ملك انجلترا إلى طلب الغفران من البابا ، فغفر له ، وقدم له الملك « هدية » ، على أن يكون تابعا للبابا ، وأقسم له يمين الولاء على ذلك ^(١) .

هذا بالنسبة للملوك والرؤساء ، فما بال العامة والمفكرين والضعفاء ومن لا يملكون حولا ولا قوة . كانت هناك محاكم التفتيش التى يعرف خبرها القاصى والدانى ، والتى سارت بذكرها الركبان ، من ظلم ، وقهر ، وبغى على الأرواح ، والأجساد ، والدماء ، وكان الناس ينتظرون من الدين العدل والرحمة والسكينة ، ولكن هيات هيات .

٣ — طغيان مالى — يلزم الناس بدفع عشور أموالهم للكنيسة ؛ لكى يكتنزها رجال الدين ، ويغرقوا أنفسهم فى الشهوات المحرمة ، وأصبحت الرهبنة مكسبا ومتجرا ، يتجر فيه أهل المنفعة ، ويفوز به كل منحرف .

يصف « ليكى » فى كتابه تاريخ أخلاق أوروبا ، وما وصلت إليه الرهبانية من تحارة وبلاء ، فيقول : « زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ، ماروى المؤرخون

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ص ١٤٨ ، ومعالم الحضارة لعلوان ص ٤٠ .

أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب « سرايين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر ^(١) ويسائل كل باحث نفسه : من كان ينفق على هؤلاء ، ومن كان يأتيهم بالمال ، ومن كان يرزأ بخدمتهم وتسلطهم وبغيهم وإرهابهم ، وهم على تلك الصورة المجافية للواقع ، والفسورة ، لاشك أنهم كانوا عبثاً ثقيلاً جداً على كاهل الأمم والشعوب .

٤ — طغيان علمي ، يلزم الناس بأفكار معينة عن شكل الأرض ، وعمرها ، وعمر الإنسان فوقها . رغم أن العلم النظري والتجريبي يكذبها ، وكانت تُصمَّم كل علم لا يأتي عن طريقها بالغباء ، فيروون عن الرب قوله : « إن علم الدنيا غباء » ، ويقول رسولهم بولس : « يوجد مكتوب : أريد أن أهدم حكمة الحكماء ، وأحطم عقل العقلاء ، ثم يقول : « إن الغباء الموجود في الوجود اختيار الله . وهذا يسيء إلى الحكماء » ^(٢) .

ولهذا ثارت الكنيسة على كل رأى حر ، وفكر جديد ، وعقل مفكر ، وحكمت على كثير من المفكرين بالإعدام والحرق في الساحات العامة ، « فقد أحرقت الكنيسة كثيراً من العلماء وهم أحياء كأمثال « جون هسي » سنة ١٤١٥ ، و « جيروم البراجي » ، و « جان دارك » ، و « برونو » سنة ١٥٩٨ ، ومئات غيرهم ، وسجنت منهم من سجنت ، من أمثال « أبييلارد » ، و « روجر بيكون » ، « وجاليليو » ، ومئات أمثالهم ، قضى منهم من قضى في سجنه ، وأحرق منهم من أحرق بعد موته ، وشرّد منهم من شرّد ^(٣) .

لبد الدين ومعاداته :

هذه الألوان المكثفة من الطغيان الكنسي ، بالإضافة إلى الفساد الروحي

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) شمس الله على الغرب ص ٢٧٤ .

(٣) معالم الحضارة علوان ص ٤٦ ، ٤٥ .

والفكرى والخلقى لرجال الدين ، ومصادمة تعاليم الكنيسة للطبيعة البشرية السوية ، للحياة والمعاش والكون ، حرض بعض المفكرين على نبذ الدين الكنسى ، ومجافاته ، ومعاداته ، ومحاربه ، ومفاصلة كل مايتصل به من قيم صحيحه أو محرفة ، والبحث عن أسلوب آخر للحياة لا يتصل بالدين .

وابتدأت الثورة فى القرن السادس عشر ضد طغيان الكنيسة ورجالها ، ثم انتهت فى القرن الثامن عشر بثورة ضد الديانة المسيحية وعقائدها ، « ففى القرن السادس عشر قال « لوثر » فى بيان وجهه إلى البلاد الألمان : أليس من المزمى أن يطلب البابا لنفسه حق التصرف فى الإمبراطورية ؟ فهل نسى قول سيده — « يعنى المسيح » إن الملوك هم الذين يسودون الأرض ؟ ولكن شأن البابا ليس كشأن الملوك ، فليزلز إذا قسيس روما عن حقوقه المزعومة فى مملكته نابولى وصقلية ، فإن حقه هناك لايزيد عن حقى أنا — « لوثر » — وليؤد البابا فريضة الصلاة ، ليذر الأمراء يحكمون الممالك .. »^(١) وهذه الثورة لا يسأل عنها « لوثر » ، ولا « جاليلو » ، ولا « فولتير » ، وأمثاله من المصلحين والعلماء والأدباء ، وإنما يسأل عنها أوغسطين ، وغريغورس ، وأرنيسست ، وأمثالهم من القديسين والأخبار والرهبان والآباء ، الذين أفسدوا الكنيسة ، وغيروا ، وبدلوا ، واستحلوا دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . ولقد كانت أمام أوروبا فرصة — لو أرادت — أن تخرج من ضلال الكنيسة إلى نور الإسلام ، ولكن الكنيسة كانت قد سدت الطريق بين أوروبا والإسلام ، حين عمت على الناس وأضلتهم ، وأبعدتهم عن الصواب ، فأوعزت إلى كتابها فى العصور الوسطى أن يكتبوا ضد الإسلام وتعاليمه ، وأن يصموه بكل نقبصة ، ويشوهوا صورته فى نفوس الأوربيين ، ولذلك فإن أوروبا حين خرجت من قرونها الوسطى المظلمة ، وبدأت تبني نهضتها — اعتمدت على تصورين :

١ — تصور اعتقادى : تستمد منه أصول نهضتها ، وقد رجعت فيه إلى التصور الإغريقى والرومانى .

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .

٢ — تصور علمي تجريبي : تبنى عليه منهجها العلمي التقدمي — ورجعت فيه إلى المسلمين ، واقتبسته منهم ، وقد سبق الكلام على المنهج العلمي للمسلمين ونحن الآن بصدد بيان التصور الاعتقادي الذي ترجع إليه أصول الحضارة الأوربية .

حقيقة التصور الاعتقادي للحضارة الأوربية :

يرجع المفكرون والباحثون وعلماء الحضارات التصور الاعتقادي للحضارة الغربية إلى ينابيع معينة ، ترجع إلى الحضارة الإغريقية والرومانية وأخلاق أخرى ، وذلك لأنهم وجدوا أن الحضارة الأوربية في التصور الاعتقادي تشترك مع تلك الحضارات في أمور ، منها :

- ١ — الإيمان بالمحسوس .
- ٢ — قلة الاعتداد بالدين ، أو الاهتمام به ، بل العداء له .
- ٣ — النزعة العرقية ، والتشبيث بها .
- ٤ — الميل إلى اللذة والمتاع ، والهيام بالحيوانية .

والحقيقة أن سند هذا التحليل قوى ، ينتج في كثير من الأحيان إلى اليقين والجرم ، لأن الأمة الإغريقية كانت أمة وثنية ، تعدد الآلهة ، وتجسدهم ، وتصنع لهم التماثيل ، « فمثلا » « جوبيتر أوزفس » — وهو أب الآخرة — يجلس على عرش ، ويحمل بيده وميضاً من البرق ، ويقف إلى جانبه نسر ، و « نيتاوبوسيدون » ويحكم البحر ، ويركب في عربة تجرها خيول ، ويحمل بيده صولجانا ، و « فولكان أوهافيستوس » وهو إله النار ، وهو حداد أعرج ، يشتغل على كور في كهف^(١) وهكذا ، كما كانت الأمة الإغريقية تعتقد أن العلاقة بين الإله والإنسان علاقة عداء وكرهية ، فهي لذلك تصورهم بأشنع صورة وأكراهها ، فيقولون عن « جوبيتر — رب الأرباب — أنه حقود لدود ، مشغول بشهوات الطعام والغرام ، لا يبالي من شئون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه ، والتمادي في

(١) انظر تاريخ العالم — هليز ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ بتصرف ط دار الأديب دمشق .

طغيانه ، وكان يغضب على « استولاب » — إله الطب — لأنه يداوى المرضى ، فيحرمه جباية الضرائب على أرواح الموتى ، الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية ، وكان يغضب على « برومتيوس » إله المعرفة والصناعة — لأنه يعلم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ، ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له ، فقيده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير ، تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنه ، لتعود الجوارح التي نهشها بعد مطلع الشمس ، ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم ، مردود الشفاعة ، مرفوض الدعاء .

ومما رواه الشاعر الفيلسوف « هزيبود » عن علة غضب الإله على « برومتيوس » : أنه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب ، فأكثر فيه من العظام ، وأقل فيه من اللحوم والشحوم ^(١) .

كما كانت الحكايات تسير بها الركبان ، وبحكمها القصص عن عشق الآلهة ، وخيانتهم ، وهيامهم بالغلمان الحسان ، وشربهم الخمر في سهرات حمراء بين تماثيل الرؤوس والكؤوس ورحيق الشفاه . وهذه السمة الفاجرة للآلهة لاشك أنها تذهب أثر العقيدة في عالم الواقع ، وتوزع إشعاعاتها السامة في المجتمع ، لأن العقيدة هي الحياة !! سواء صحت هذه العقيدة أم خالطها الفساد والبوار ، فهي تلقى ظلها على الحياة البشرية كلها .

ولهذا ، فقد انطبع المجتمع الإغريقي بطابع عقيدته ، وكان شعاره « المادية » ، وقد كان ذلك ناطقا في كل مايتصل بتلك الحضارة .

وجاءت بعد ذلك الحضارة اليونانية ، فكانت الوارث الوحيد لثراث الإغريق ، فنسحت على منواله ، وسارت في دربه ، فعددت الآلهة ، ونحت لها التماثيل ، وبنيت

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٥٩ — ٦٠ ط دار الكتاب العربى بيروت .

لها المعابد ، ونسجت حولها الأساطير والخرافات وصوروا معانيهم الشهوانية في صورة الآلهة ، فللحب إله ، وللجمال إله .. الخ . وقد أقر العلماء الأوربيون بغلبة المادية في الحضارة اليونانية ، وقد حاضر في ذلك الدكتور (هاس) ، فقال : « المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رعاها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب .

وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية ، والألعاب الرياضية ، والرقعى ، وغيره وكان الثقيف الذهني يحتوى على الشعر ، والغناء ، والتمثيل ، والفلسفة ، وعلوم الطبيعة ، لا يتجاوز حداً خاصاً ، حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلواً من الروحانيات المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ، ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحي الذي في تقاليد « أرفس » وغيرها ، فإنما هو مستعار من الشرق ، ولا يصح أن ينسب إلى « المدنية اليونانية »^(١) وقد سرت فكرة التعدد والحسية هذه إلى الديانات المحيطة باليونان ، كاليهودية ، والمسيحية ، فصورة « يهوه — إله شعب إسرائيل — هي صورة بعيدة عن الوحدانية ، يشترك معها آلهة كثيرون ، تعبدها الأمم التي جاورت العبرانية في أوطان نشأتها ، وأوطان هجرتهم ، ولكن « يهوه » يغار منهم ، ولا يريد من شعب إسرائيل أن يلتفت إليها »^(٢) وقد كان يهوه إلهاً حسياً ، يراه اليهود ، ويحاسبهم ويعرفون تحركاته ، ولهم في وصف ذلك قصص وأحاديث ، « وقد وصفوه في كتبهم المقدسة ، فقالوا عنه مرة : إنه يحب ريح الشواء ، وقالوا عنه مرة أخرى : إنه يتمشى في ظلال الحديد ليتبرد بهوائها ، وقالوا عنه غير هذا ، وذلك : أنه يصارع عباده ، ويصارعونه ، وأنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغربوا ردحا من الدهر ، وهم يسوون بينه وبين عزرائيل شيطان البرية ، فيتقربون إليه بذبيحة ، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلها »^(٣).

(١) ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين ص ٢٧٥ ط دار القلم .

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

أما في المسيحية فقد داخلها — مثل اليهودية — التحريف والتبديل ، فتارة تدعى أن عيسى هو الإله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾^(١) ، وتارة تدعى أنه ابنه ﴿ تَكَاذُّ السَّمَاوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضُ ، وَتَجْرُ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾^(٢) ، وتارة يقولون : إنه ثالث ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾^(٣) ويقول الباحثون : إن أول التحريف الذي دخل في المسيحية كان في عهد بولس ، ثم كان التحريف الثاني في عهد قسطنطين . يقول « درابر » : « دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهريهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره (٣٣٧ م) »^(٤).

أسباب هذا التصور :

مما قدمنا يتضح لنا أن الانحراف في التصرف الاعتقادي للحضارة الغربية ، ونفرتها من الدين ، كان له سببان : أحدهما ظاهر جلي ، والآخر مستتر خفى .

فأما السبب الظاهر ؛ فقد تمثل في خروج الكنيسة على العقل والواقع وكل مفهوم للحركة والتطور ، وفي حربها للعلم والعلماء ، خوفا على سلطانها التقليدي أن يزعزحه القلم عن مكانه ، ويستبدل به سلطانا آخر لا تكون الكنيسة طرفا فيه . فلما جاهدت الحركة العلمية والعقلية ، وصبرت ، وكافحت ، وانتصرت ، كان طبيعيا أن تعادى الكنيسة وتمقتها ؛ لأنها عوقتها ، وأثخنها بالجراح ، ولطختها بالدماء ، وما ارتفعت الحركة العلمية هذا المرتقى إلا على أشلاء الضحايا ، والمشردين ، وصرعى محاكم

(١) المائدة — ١٧ .

(٢) مريم — ٩٠ — ٩١ .

(٣) المائدة — ٧٣ .

(٤) ماذا خسر العالم بالمحطات المسلمين ص ٢٨٣ .

التفتيش ، وكان طبيعياً أن تكسب النهضة الفكرية الجولة الحضارية ، وتثبت فشل الكنيسة وتخلّفها ، وتنحيزها عن ميدان الحياة غير مأسوف عليها .

وأما السبب الخفى ؛ فهو ذلك الميراث الذى حمل فى طياته الكثير والكثير من ميثاق الثقافة الإغريقية والرومانية ، الضارب فى أعماق الضمير الأوروبي الوثنى ، والذى لم تحاول النصرانية أن تؤثر فيه ، بل تأثرت هى به ، وداخلها كثير من أوزاره وشروبه ، وتحكمت فى أمور الناس ، وأوقفت نبوغهم ، وتصورهم للحياة الصحية .

وعلى كل ، فقد انصرف الغرب إلى المادية ، وغرق فيها حتى الأذقان ، وكان تصرفه تمثيلاً حياً لها ، وبعثاً جديداً لروح آباءه الإغريق والرومان ، وقد حدث هذا التحول على فترات وتدرج ، حتى استوت المدنية الغربية بعد حين على عرشه ، وتسلمت مقاليدته ، وجحدوا كل شئ وراء الحركة والمادة والحس .

مظاهر هذا التصور المادى :

افتتنت أوروبا بالتقدم المادى ، ولم يصاحب هذا التقدم إيمان عاصم ، أو عقيدة موجّهة ، فكان هذا دافعا قويا إلى الغرور بالنفس والعقل وصدق الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى ، أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى ﴾ ، فادعى لنفسه ما ليس لها ، ونسب إليها القهر ، والحكمة ، والعلم ، والإبداع ، وظهرت فى الغرب المؤلفات التى تمجد الإنسان وترفعه ، من أمثال تلك الكتب — الإنسان يصنع نفسه ، Man makes himself والإنسان يقف وحده Man Stop Alone أى دون أى معونة من الله ، ودون أى وصاية من الله ، ليكون سيد الأرض وقاهرها ، والمسيطر على الطبيعة .

وساعد على تثبيت تلك النزعة فى نفوسهم أقوال كبار المثقفين فيهم ، ومن اكتنوا بنيران الظلم والبغي الكنسى ، من أمثال « فولتير » ، و « جان جاك روسو » ، حيث يقررون : « أن الديانات والقوانين ماهى إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية . يقول : « فولتير » : إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة فى حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة

والنجارة ، قبل أن تفكر في مسائل الديانات والروحانيات .. بل قال : إن فكرة التأليه اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة ، الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء»^(١) ثم يعلق الدكتور محمد عبد الله دراز على هذه الفقرة ، فيقول : « إن هذه النظرة الساخرة للأديان والقوانين ليست مبتكرة ، وإنما هي ترديد لصدى مجنون قديم يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما يروجونه من المغالطات والتشكيكات .. فقد زعم هؤلاء السفسطائية أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ، ولا وازع من خلق ، وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ، ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة » فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ، ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء ، وتهيمن بحكمتها على كل شيء .. »^(٢) وهكذا تبرز آثار الثقافة اليونانية الملحدة من خلال زعماء النهضة إلى تلك الشعوب التي فقدت الثقة بالتدين المحرف ..

الإنسان عابد بطبعه :

ولكن هناك حقيقة يجب أن ندركها ، أن الإنسان عابد بطبعه ، نعرف هذا من استقراء التاريخ البشرى ، ومن أحوال الأمم ، ومن قول القرآن : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾^(٣) ولكن منهم من آمن ، ومنهم من كفر ، والإنسان ولد وفي فطرته آثار الخضوع ، وبصمات العبودية ، فإذا لم تكن لله كانت لشيء آخر . وليس الفرق بين إنسان وإنسان في العبادة : هو أن إنساناً يعبد ، والآخر لا يعبد ، بل الفارق هو أن إنساناً يعبد الله ، والآخر يعبد إلهاً آخر غير الله . قد يكون صنماً أو وثناً ، أو يكون هوى . كما يقول تبارك وتعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾^(٤) ، أو يكون أى معبود آخر ، ولكن الإنسان في النهاية لابد أن يكون عابداً لمعبود ما .

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ . (٤) الجاثية — ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١ .

(٣) فاطر / ٢٤ .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية » .

ويقول هنرى برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد جماعة بغير ديانة) (١).

وقد تبدو الحضارة المادية الآن استثناء من تلك الحقيقة المدركة من استقراء الأمم والتاريخ ، ولكنها فى الحقيقة تأكيد لها ، فكل ما فى الأمر أن هذه الشعوب لم تعد تعبد الله ، ولكنها تعبد آلهة أخرى ، تسميها الدولة أحيانا ، أو الحزب أحيانا أخرى ، أو المذهب ، أو تسميها المصلحة العليا ، أو تسميها المجتمع ، أو تسميها العقل ، أو العلم ، أو التقدم المادى ، أو تسميها سيطرة الإنسان على المادة ، أو تسميها العرق ، أو تعبد الشهوات : شهوة الجنس ، أو المال ، أو السلطان ، أو القوة ، أو التفوق .

يعبر عن هذه الحقيقة فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى ، الذى أسلم فيما بعد ، « محمد أسد » فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » فيقول : « لاشك أنه لا يزال فى الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبدلون جهدهم فى تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادى فى أوروبا ، ديمقراطيا كان أو فاشيا ، رأسماليا كان أو اشتراكيا ، عاملا باليد أو رجلا فكريا ، إنما يعرف دينا واحدا ، وهو عبادة الرق المادى ، والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة . أما كنائس هذا الدين . فهى المصانع الضخمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، ودور الرقص ، ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها : فهم رؤساء الصيافة ، والمهندسون ، والممثلات ، وكواكب السينما ، وأقطاب التجارة والصناعة ، والطيارون ، والمبرزون الذين يضربون رقما قياسيا .

ونتيجة هذه النهماة للقوة والشه واللذة ، النتيجة اللازمة : ظهور طوائف

(١) المصدر السابق ٣٢ — ٨٣ ط دار القلم .

متنافسة ، مدمجة بالسلاح والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما في جانب الحضارة ، فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العلمية ، والمثل الكامل عنده ، والفارق بين الخير والشر ، هو النجاح المادى^(١) ونسمع قول الصحفي الأمريكى المشهور John Gunlhev في كتابه « داخل أوروبا » يقول : « إن الإنجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع ، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة »^(٢) ، أى للترفيه والتسرية عن النفس فقط .

وبهذا نعرف أنه لأثر للرقابة الإلهية ، ولا للوازع الدينى ، أو الإيمانى في تلك القلوب ، وأن أمر الغيب عندهم أصبح من المشتطات أو المتهاتات ، التى خلصوا أنفسهم منها ، فضلا عن العبادة والشعائر العبادية ، التى صرحوا أنها مضیعة للوقت ، وتعطيل للإنتاج ، وللأسف ، فإن تلك العدوى تنتقل إلى كثير من الأمم الشرقية الآن .

آثار هذا التصور :

لأنريد أن ندخل في جدل واسع مع تلك التصورات ، ويكفيانا مانراه من آثار هذا الفساد الشامل على وجه الأرض ، ومن الشقوة التى تصب على البشرية من جراء تحكم هذه الأهواء ، التى لاتحكمها رحمة أو قيم أو مبادئ ، وإنما تقودها المصلحة والرغبة والتسلط ، نعم قد تصل تلك الحضارة إلى حقائق كثيرة في العلم المادى وتطبيقاته العملية ، وتبنى على ذلك صرحا من المدنية شاهق البناء ، ولكن ذلك لا يورثها استقراراً ، أو يعوضها ما فقدته من الحق الأكبر في حياتها ، ومن الخواء الروحى الذى أصابها بعبادتها غير الله سبحانه . لا يعوضها كرامتها الإنسانية ، وأمنها ، وشفاء جوعتها النفسية والروحية . لا يعوضها إفلاسا في عالم القيم التى لا يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية بدونها نموا سليما ، وتترقى رقىا سليما صحيحا .

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٧ ، ٤٨ ماذا حسر العالم بالخطا المسلمين ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق — ٢٠١ .

وهذا واضح الآن في تلك الحضارات الغربية ، التي لم يعد لديها ماتعطيه للبشرية غير الشقوة والخوف من الدمار والتسلط والإرهاب ، بل لم يعد لديها مايقنع ضميرها باستحقاق الوجود بعد ما انتهى دورها الإنسانى إلى مايشبه الإفلاس ، وكثرت عندها العقد والأمراض النفسية والاجتماعية ، وعمت حالات الانتحار والجنون والقتل والانحراف ، وكذلك الحال في المعسكر الشرقى . فالنظريات التي أبرزها في سوق الإنسانية ودبج لها من المقدمات والتفسيرات والأمنيات ، ما لبثت أن تراجعت هي الأخرى تراجعا واضحا ، إما لعدم إمكانية التطبيق ، أو مصادمتها للحياة والفطرة الإنسانية ، أو تسلطها وانتهاكها للحريات وأبسط المعانى الإنسانية ، حتى أصبحت لاتنمو إلا في مناطق الصراع ، أو في البيئات المحطمة والمطحونة من النظم الدكتاتورية فترات طويلة ، حتى فقدت شخصيتها ، ونسيت عقلها وتفكيرها . كما فشلت اقتصاديا وماديا — وهو الجانب الذى كانت تقوم على حتميته وتتجبح به — فظهر في داخلها الكسل والاتكالية ، وتناقصت غلاتها بعد أن كانت فائضة في عهد القياصرة ، وأصبحت تستورد القمح والمواد الغذائية ، وتبيع مالديها من الذهب لتحصل على الطعام ، بسبب فشلها في مزارعها الجماعية ، وفشل نظامها الذى يصادم الفطرة البشرية . ولم يبق من تلك النظرية إلا الإلحاد ، وإقامة نظام العبودية للحزب لا لله سبحانه ، ورجوع الفاعلية في حياة هذا الوجود إلى المادة ، أو الطبيعة ، ورجوع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى الاقتصاد أو أدوات الإنتاج حتى أصبحت هي الأخرى المعبود الثانى للشيوعية ، وقد أهدرت بذلك خصائص الإنسان وقيمه العليا ، وحصرتها في المأكل والملبس والمسكن والجنس ، وحرمتها في العقيدة في الله وحرية اختيارها فكانت بذلك الوجه الثانى للعملة الرومانية ، والشقيق الشرعى للمتاهة الحضارية الغربية .

يقول فيلسوف الإسلام محمد إقبال : « إن الرأسمالية والشيوعية فرعين من درجة المادية ، وأسرتين للحضارة الغربية إحداهما : شرقية ، والأخرى : غربية ، تلتقيان على النسب المادى ، والتفكير المادى ، والنظر المحدود إلى الإنسان ويقول بلسان جمال الدين الأفغانى — في رحلة تخيلها واجتمع به فيها — « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في المعدة ، والروح ليست قوتها

وحياتها من الجسم . والشيعوية — كذلك — لاشأن لها إلا بالمعدة والبطن —
وديانة — « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون » (١) .

إيضاح ومناقشة :

قد يرد في مخيلة كثير من الناس أسئلة ، منها : لم توصم الحضارة الغربية الآن
بأنها مادية ، وهي تدين بالمسيحية ، وهي عقيدة تعترف بالله .

وأقول ردا على هذا السؤال ؛ إن الدين المسيحي والعقيدة المسيحية لم تقم
بحضارة ، ولم يؤسس عليها مدنية ، وإنما كانت معوقة لها وقاتلة ومثبطة ، ولم تقم
الحضارة الغربية إلا بعد نبذ المسيحية ، وعدائها ، والتمرد عليها . فهي إذاً لم تبني
حضارتها من نصوصها وآياتها وأحكامها وتصوراتها . وإنما قامت تلك الحضارة
بتعاليم روادها ، وتوجيهات علمائها ، وأصحاب الفكر فيها ، الذين تمردوا على الفكر
الديني ، واعتبروه خرافة من أمثال فولتير ، وروسو ، الذين اعتبروا أن فكرة التأليه إنما
هي خرافة اخترعها دهاة ماكرون ، وصدقهم الحمقى والسخفاء ، وقد ألحنا إلى ذلك
قبل . فالحضارة الغربية إذاً لم تقم على دين أو عقيدة ، ولم تأخذ من تعاليم المسيحية
شيئاً ، حتى يقال : إنها بنت عليه حضارة ، أو أسست عليه نهضة .

وفي هذا يقول محمد أسد . الذي اعتنق الإسلام — في كتابه الطريق إلى مكة — أو
الطريق إلى الإسلام : « المهمة الرئيسة لكل دين أن يبين للإنسان لا كيف يحس ،
ويشعر إحساساً وشعوراً صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحة أيضاً ، وبشعور
غريزي بأن دينه قد خيب أمله بطريقة ما ، فقد الإنسان الغربي — خلال القرون —
كل إيمانه الحقيقي بالمسيحية . وبفقدته هذا الإيمان فقد الإقناع بأن الكون إنما كان
تعبيراً لقوة واحدة منظمة ، وأنه كان لذلك يشكل كلا عضويًا واحدًا . وبسبب من
أنه فقد هذا الإقناع يعيش الآن في فراغ روحي وأخلاقي ، لقد رأيت في ترك الغرب
التدريجى للمسيحية وانصرافه عنها ، ثورة ضد ازدياد الحياة التي بشر بها بولس ، والتي

(١) انظر روائع إقبال — للنندوى ص ١١٣ — ١١٤ .

أبهمت — قديما جدا وتاما جدا — تعاليم المسيح . فكيف إذاً يستطيع المجتمع الغربى أن يستمر فى إدعائه أنه مجتمع مسيحى » ^(١) . ثم يقول فى كتابه الإسلام على مفترق الطرق : « نخطئ خطأ فادحا إذا اعتقدنا أن المدنية الغربية نتاج نصرانى ، إن الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب يجب أن تطلب فى فهم الرومان القدماء للحياة ، على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ... وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخيا عظيما » ^(٢) .

فنحن حين ندرس حضارة من الحضارات إنما نبحث عن جذورها ، وعن مصادرها ، وأقوال روادها .

وبدراستنا لكل ذلك ، لم نجد الحضارة الغربية اعتمدت على المسيحية ، لافى قليل ، ولا كثير . كما أن المسيحية لم تقم لها حضارة ، حتى نقول : إن الحضارة الغربية بنت عليها ، كما أن أقوال روادها تلغى تماما صلتها بالمسيحية ، بل كانت الصلة بينهما صلة عداء وكره وتمرد وعصيان ، وأما ما يقال عن التدين الحالى ، فهى رسوم باهتة ليس لها تأثير فى الحياة أو المجتمع ، وإن وجد ذلك التدين عند بعض الأشخاص فهو ميوّل شخصية ، لا صلة لها بالمجتمع أو الحياة أو الإنتاج أو السلوك العام .

كما قد يقال : إن للحضارة الغربية أخلاقيات وأسلوبا اجتماعيا . فأقول : إن تلك الأخلاقيات وهذا الأسلوب الاجتماعى نابع من اجتهادات إنسانية ، وليس من عقائد ربانية أو تعليمات إيمانية . فهم يقولون : إن الأخلاق والقيم ينبغى أن تنموا نموا حرا لكى . تكون دانا مثمرة ، ولا ينبغى أن تكون مفروضة فرضا من مصدر له قوة قاهرة ، أى أنها لاينبغى أن تكون مفروضة من عند الله ، ولا آتية من مصدر الدين .

— وعلى هذا فالأخلاقيات والاجتماعيات وأسلوب الحياة بعيد كل البعد كذلك عن العقائد والأديان . وقد يقول قائل : إن مانراه من فساد الآن فى الحضارة

(١) الطريق إلى الإسلام محمد أسد ترجمة البعلبكي ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٠ .

إنما هي إنحرافات عن الفكر الدينى المسيحى وفى المسلمين اليوم مثله .

أقول : لا . إن الفساد الذى فى الحضارة الغربية اليوم ليس عن انحراف ، إنما هو عن اعوجاج فى نفس البنية الحضارية . التى تقوم على المادة ، وعلى الشهوات ، وعلى الأثرة والقوة وحب الذات والعنصرية ، وقوانين تلك الحضارة خير شاهد على ذلك ، وإهدارها للقيم العليا ، وتعاملها مع البطن وحيوانية الإنسان — بغض النظر عن روحه — يرد على ذلك ، يقول الكسيس كاريل : إن الحضارة الغربية هى المنحرفة ، والناس هناك لا يفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصيلة للحضارة الغربية ، ولكن لأنهم — على وجه الدقة — يسرون على خطوط تلك الحضارة ويتبعونها بصدق « (١) » .

أما فساد المسلمين ؛ فإنه خروج عن المنهج والتعاليم الإسلامية ، وليس الفساد أصيلاً فى تعاليم الحضارة الإسلامية . فالحضارة الإسلامية إذاً منه براء .

وما قدمناه كله عكس الحضارة الإسلامية . حيث أن الحضارة الإسلامية

قامت :

١ — على الإسلام ، وتعاليمه الربانية ، وما كان للمسلمين حضارة بغير التعاليم الإسلامية .

٢ — لم تتمرد الحضارة الإسلامية على التعاليم الإسلامية ، بل كانت ثمرة من ثماره .

٣ — آى القرآن وأقوال الرسول والرواد الأوائل جاءت لتأسيس العقيدة والحضارة معا .

٤ — القانون الأخلاقى للحضارة الإسلامية ، والاجتماعى ، والتربوى ، ينبع من العقيدة ، ويقوم عليها .

٥ — فساد المسلمين كان لخروجهم عن المنهج ، وإتقليدهم للحضارة الغربية ، وليس لاعوجاج فى المنهج أو عيب فيه .

(١) التطور والثبات ص ٢٨١ .

المبحث الثاني

تصوير للحياة وغايتها

دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة الوجود ، والنظر في أنفسهم ، وفيما حولهم ، وفتح البصر والبصيرة ؛ ليتصوروا ما يحيط بهم في كل خطوة وخلجة ، في كل عمل يقوم به الإنسان أو يتوجه إليه ليتصور بنفسه الأشياء ، ويعرف ما تؤول إليه . فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَأَنَّا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَسْبًا وَقُصْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدائقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۚ ﴾^(١) ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ ﴾^(٢) ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾^(٣) ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۚ ﴾^(٤) .

ثم دعا القرآن بعد النظر بالعين إلى النظر بالبصيرة ، وعاب على أقوام أغلقوا منافذ الأنوار الفكرية في كيانهم ، وعطلوا أدوات الإدراك العقلي في رؤوسهم : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾^(٥) .

(١) عس — ٢٤ .

(٢) الطارق — ٥ .

(٣) الأعراف — ١٨٥ .

(٤) ق — ٦ .

(٥) الأحقاف — ٢٦ .

الإنسان في الحياة :

مازال الإنسان منذ وجد على وجه الكرة الأرضية — وإلى اليوم — مأخوذاً بسوء الفهم عن نفسه ، يميل إلى جانب الإفراط حيناً ، فيرى أنه أكبر وأعظم كائن في العالم ، فيمتلئ أنانية وغطرسة وكبرياء ، ولا يرضى بأن يرى أى قوة في العالم ندّاً له ، فضلاً عن أن يراها فوقه ، وقد سمعنا القرآن يتكلم كثيراً عن هذا الصنف من البشر ، فيقول ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ^(١) ، ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ^(٢) ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ^(٣) . وعلى هذا ، فهو يربأ بنفسه أن يكون مسؤولاً أمام أحد ، أو أن يكون عليه نوع من التبعية ، ويتحول بهذا إلى القهر والجبروت والبطش والظلم والطغيان . وقد يميل هذا الإنسان إلى جانب التفريط حيناً آخر ، فيظن أنه أدنى وأرذل كائن في العالم ، فيطأطئ رأسه أمام شجر ، أو حجر ، أو جبل ، أو حيوان ، ولا يرى لنفسه السلامة إلا في أن يسجد لشمس أو قمر أو نجم أو حيوان .

وقد أشار القرآن إلى ذلك ، ونهى عنه ، فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آذَرَ اتَّخِذْ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ ^(٥) ، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ، قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٦) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ﴾ ^(٧) ، ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ^(٨) . وقد ألحنا إلى طرف من ذلك قبل . وبشيء من الإيجاز نعرض إلى التصور الإسلامى للحياة بما فيها ومن فيها ، ثم لما لها وعاقبتها ثم لغايتها وتصور تلك الغاية .

-
- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) فصلت / ١٥ . | (٥) الأنعام — ٧٤ . |
| (٢) النازعات / ٢٤ . | (٦) الأنبياء — ٥٢ . |
| (٣) القصص / ٣٨ . | (٧) الأعراف — ١٥٢ . |
| (٤) فصلت — ٣٧ . | (٨) البقرة — ٩٣ . |

حقيقة الإنسان في القرآن :

يبطل الإسلام التصورات المتطرفة والمنحرفة ، ويعرض ذلك التصور المعتدل الذى تستقيم به الحياة ، ويستقر به البشر . فليس الإنسان بالحقير المهين الذى لا يؤبه له ، كما أنه ليس بالجبار الذى لا يقهر ، ولا بمسلوب الإرادة الذى لا حول له ولا قوة ، وليس هو المتصرف المهيمن فى الكون ، الذى يخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولا ، يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبث ، فيغير نواميس الحياة ، وإنما هو بين هذا وذاك ، وسط ، حيث لا إفراط ولا تفريط .

خلقه :

خلق الإنسان من طين ، ولكنه ذو نفخة علوية ونفخة ربانية ، فإن أراد أن يتمرد ويأخذه الغرور نظر إلى التراب والطين ، وإن اعتراه ضعف أو خور تذكر الروح الربانية والتكريم .

١ — ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ^(١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ ^(٣) .

٢ — ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ^(٤) .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ ^(٥) .

(١) الطارق — ٥ — ٧ .

(٢) يس — ٧٧ .

(٣) السجدة — ٧ — ٩ .

(٤) ص — ٧١ — ٧٣ .

(٥) السجدة — ٩ .

وإذا تصور الإنسان أنه صانع أو فاعل أو رازق ، فليتذكر أنه مخلوق ومرزوق .
وإذا تصور أنه كالجماذ أو النبات أو الحيوان أو أى خلق آخر ، فليتذكر أنه فضل
على كثير من المخلوقات ، وأن الله قد كرمه وأسجد له ملائكته .

١ — ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لو نشاء لجعلناه حطابا فظلمت
تفكهون ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ .
لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ
جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ (٢)

٢ — ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٣) ، ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ
الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ (٥)

كما أنه إذا ظن أنه دائم باق ؛ فليتذكر الموت ، وإذا هلع من قصر عمره
وذهاب تبعه ونعيمه وكده ؛ فليتذكر أنه منقول إلى دار باقية ، ونعيم لا يزول .

١ — ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ (٦) ،
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٧) .

(١) الواقعة — ٥٨ .

(٢) الواقعة — ٦٠ — ٧٤ .

(٣) البقرة — ٢٩ .

(٤) النحل — ٨١ .

(٥) البقرة — ٢٤ ، الإسراء — ٦١ ، الكهف — ٥٠ ، طه — ١١٦ .

(٦) النساء — ٧٨ .

(٧) الأنبياء — ٣٥ .

٢ — ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ^(١)
 ﴿وَلِلَّذِينَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٢) .

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ^(٣) .

مكانته في الأرض :

فالإنسان — كما هو واضح مما قدمنا — ليس من علو المكانة وارتفاع المنزلة بحيث يميل إلى جانب الإفراط ، ولا هو من الدناءة والمهانة والحطة حيث يوضع في جانب التفريط . بل هو في منزلة وضعه الله فيها ، ترفعه ولا تطغيه ، وتعليه ولا تهلكه ، وهي منزلة الخلافة عن الله سبحانه ، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ^(٤) .

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٥) ، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ ^(٦) .

وهذا يدلنا على حقيقة المكانة الإنسانية في الأرض ، وهي أن الله سبحانه جعل الإنسان خليفته ، أى نائباً عنه في أرضه ، وأعطاه أسباب ذلك ومؤهلاته ، من العلم ، والعقل ، والسمع ، والبصر ، والחס ، والإرادة ، والحرية ، ما يجعله كامل التصرف في الإصلاح ، ويكون جديراً بتحمل أعباء الخلافة ، فإذا سار على أمر الله ؛ حقق تلك الخلافة ، وإذا خرج عن أمره سبحانه ؛ تولى وأكدى وفسد حاله . ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٧) .

(١) النساء — ١٣٤ .

(٢) الأنعام — ٣٢ .

(٣) التوبة — ٣٨ .

(٤) البقرة — ٣٠ .

(٥) ص — ٢٦ .

(٦) الأنعام — ١٦٥ .

(٧) البقرة — ٣٨ — ٣٩ .

فالإنسان — على هذا — خليفة وليس بملك . خليفة لملك ، ونائب عن خالق ، فليس من حقه أن يتصرف على حكم شهوته وهواه ، وإنما عن حكم من استخلفه وولاه ، فلا يتصرف في شيء من الدنيا إلا حسب أوامر الله سبحانه وأحكامه .

سعادته وشقاؤه :

وسعادة الإنسان في الأرض موكولة باستقامته على منهج ربه ، وإحسانه فيما ولاه الله إياه ، واستخلفه فيه : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ^(١) ، ﴿ يَوْمَ آيَاتٍ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ^(٢) ، ولأن الإنسان حر في وكالته ؛ فهو مسؤول عن عمله ، ومحاسب على فعله ، تقع عليه تبعته ، ويفوز بخيره وفضله : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾ ^(٣) وسعادته في الآخرة معلقة بسعادته ووجه لمنهج ربه في الدنيا ، وكذلك بالنسبة إلى شقاؤه ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ^(٤) .

تصور الحياة :

الحياة مخلوقة لخالق في التصور الإسلامي .

الحياة سر عميق يجليه الله لمن يشاء من أصحاب العقول والقلوب ، وصدق الله : ﴿ سُنُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ^(٥) بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ،

(١) الحديد — ٧ .

(٢) هود — ١٠٥ : ١٠٨ .

(٣) النجم — ٣٩ — ٤٢ .

(٤) الإسراء — ٧٣ .

(٥) فصلت ٥٣ .

وزروع ونخيل وأعناب ، صنوان وغير صنوان ، وجبال ووهاد ، وجداول وأنهار ، وهواء
وأنوار ، وشموس وأقمار ، وإنسان وحيوان ، ووحوش وسباع ، وحشرات وهوام ،
وزواحف وطيور ، وممالك وأم ، وجزر وقارات ، وأشكال وألوان ، وألسن ولغات ،
وعادات وأعراف ، وعبادات وطقوس ، وملل ونحل .

كل ذلك من القوى العليا والدنيا ، والعظيمة والحقيرة ، المنظورة والمغيبة ،
تخضع لقانون مهيم ، وقوى محركة ، في نظام فريد وإحكام عجيب . يرى ذلك
ويحس به ويتفهم كل من على وجه الأرض ، تردده الفطرة ، وتستبينه النظرة ، وتلاحظه
الفكرة . يدعونا القرآن إلى التدبر فيه والنظر إليه ، وبعد كل هذا التناسق تجد في
العالم عدة مظاهر للهدم والبناء ، وسلسلة غير متناهية للفناء والبقاء ، تحت هذا
القانون المهيمن الشامل ، فالقانون الذى يخلق بموجبه شئ ، هو الذى يهلك ذلك
الشئ ، ويقضى عليه بالفناء والزوال . وإنك لتحسب أن هناك شيئا بمنأى عن هذا
القانون ، فإذا بك تجده يسرى في أوصاله ، ويتخلل لحمته وسداه . لذلك فإن
الإنسان لا تستديم سعادته أو شقوته بشئ ، لأن البناء بجانب الهدم ، والخلق بجانب
الفناء ، والصحة بجانب المرض ، والحياة بجانب الموت . وهو لا يملك من أمر ذلك
شيئا كل هذا أوحى للفطرة أن لهذا الكون مسيراً ومسيطرأ ومنظماً ، وأن الحياة مخلوقة
لخالق ، ومملوكة للمالك مريد قادر .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْتَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي ،
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَلَيْتَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّنْ يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْتَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلَيْتَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ،
وَمَنْ يُرْزُقُكُمْ ، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَلَيْتَ مَعَ اللَّهِ . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ . قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يُيَعْتُونَ ﴿١﴾.

دار عمل ومزرعة للآخرة :

ويعلم المؤمن أن الدنيا دار عمل ، فلا يتركها ولا يهملها ، ولكنه يحصل فيها الخير والبر ، ويعلم كذلك أن إصلاح الدنيا من واجبات المسلم ، وإن كانت دار ممر ومعبرا إلى مقر .

والخصيف يصلح دابته التي يركبها إلى غرضه ، ويقوى ممره الذي يعبر عليه إلى مسكنه ، ولهذا جاءت تعاليم الإسلام تحث على استغلال الصحة والحفاظة على الوقت ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) . إن عمر الإنسان هو رأس ماله الضخم ، وسيسأل كيف تصرف فيه ، قال ﷺ : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه » (٣) ومن كلمات الحسن البصري رضى الله عنه : « مامن يوم ينشق فجره إلا وينادى منادى من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » ، فهى إذن مزرعة للآخرة ، فمن أضاع دنياه أضاع آخره ، ولهذا يحرص عليها المؤمن كوسيلة لغاية .

غاية الحياة :

إن لغاية الحياة ارتباطا وصلة بتصورها ، حيث أن التصور للحياة الدنيا هو الذى يحدد غايتها ، ويكشف عن أهدافها ، وأهداف الإنسان على صعيدها .

وغاية الحياة عند كل أمة هى التى تلقى الضوء على كل حضارة من الحضارات ؛ لمعرفة درجتها من الصلاح والفساد ، والحسن ، والقبح ، والخير والشر ،

(١) النحل — ٦٠ — ٦٥ .

(٢) القصص — ٧٣ .

(٣) الترمذى — القيامة — ١ رقم ٢٤١٦ ج ٤ ص ٦١٢ ط حلبى .

فالإنسان بحكم فطرته التى فطر عليها ، لا يتوجه بإرادته ومساعيه إلا إلى هدف قد جعله غاية يرنو إليها ببصره وبصيرته ، ويتمنى الوصول إليها فى حياته ، فبصلاح هذا الهدف أو فساده تتصرف أعماق الإنسان ونفسيته ، وتتوجه أعماله ، وأخلاقه ، وآدابه ، وحياته الاجتماعية والتربوية والمدنية والاقتصادية . وجملة القول : إن غاية الإنسان فى حياته هى التى تحدد طريقه ، وتحكم تصرفاته ، وتوجه جهوده العقلية والفكرية .

وعند بحث كل حضارة من الحضارات الإنسانية المتعددة لوضعها فى ميزان النقد العلمى ؛ فإنه لابد من البحث فى غايتها التى تدعو الناس لبلوغها والطموح إليها .

مفهوم هذه الغاية :

تكاد آية واحدة من كتاب الله تعالى ، أو بضع آيات ، تحدد المفهوم الفعلى لغاية المسلم فى الحياة ، نسمع ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا ، وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ، هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ^(٢) ، ويرتكز هذا المفهوم على ثلاث ركائز :

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) الحج — ٧٨ .

الأولى : عبادة الله وابتغاء الدار الآخرة .

الثانية : إصلاح الدنيا والعمل فيها حسب منهج للصالح والخير .

الثالثة : نظام للدعوة إلى منهج الحق والدفاع عنه .

وغاية المسلم هذه جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصصة ، تختلف عن صورة سائر الحضارات القديمة والحديثة في الحياة اختلافاً أساسياً ، كما أنها قد جعلت نظامها للعقائد والأعمال مختلفاً عن نظم سائر هذه الحضارات للعقائد والأعمال ، اختلافاً أساسياً أيضاً .

هيك هذه الغاية :

نستطيع أن نرسم إطاراً لغاية الحضارة الإسلامية في الحياة الدنيا بما يأتي :

١ — الحياة موجودة لغاية وحكمة :

يعلم المؤمن أن الحياة وجدت لغاية وحكمة . وأنه مكلف بتحقيق تلك الغاية ومراعاة هذه الحكمة ، وأن الجد أصيل في خلقه وخلق العوالم من حوله ، وقد لفت القرآن إلى تلك القضية ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾^(١) فقد خلق الله الكون لا لعباً ولا لهواً ، وديره لغاية وحكمة ، لاجزافاً ولا عفواً ، فيجب على المسلم أن لا يهدر أو يبدد هذه الدنيا ، سهواً أو ضياعاً وانحرافاً .

٢ — الحياة وسيلة لا غاية :

يتصور المسلم الحياة لا على أنها غاية أو معبود ، بل على أنها وسيلة إلى غاية ، وعبادة وخاضعة لخالق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ ، وَالْقَمَرُ ، وَالنُّجُومُ ، وَالْجِبَالُ ، وَالشَّجَرُ ، وَالْدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٢) فهو على هذا ، يعلم أن الحياة بعيدة عن غايتها ، وعن منهجها

(١) الأنبياء — ١٦ — ١٧ .

(٢) الحج — ١٨ .

الرباني ، وعن تصورها بالحق وفي الحق ، لاتؤدى المقصود منها ، ولا توصل إلى الهدف المراد من وجودها .

٣ — قيمة الحياة والإنسان فيها بما يحققه من قيم عليا :

لابد للمسلم في الحياة من قيم يعيش بها ولها ، ولابد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع الكون الكبير على أساس هذه القيم ، وأن يتعامل مع خالق الكون على أساس العبودية له والطاعة لأوامره ، ولا يحد نفسه ونظيره وتصوره واهتمامه في عالم المطالب الشخصية ، والأغراض الدنيوية ، والنزعات الحيوانية ، بل لابد له من التسامى فوق تلك الأثقال ؛ ليؤدى دوره اللائق به كصاحب عقيدة ، وهو دور شاق ، يصطدم بأهواء الناس وأطماعهم ، ولكن الحياة بدونها لاتعد حياة ، والإنسان متجرد عنه ، لا وزن له ولا فائدة من وجوده — وصدق الله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(١) إذاً ، فالأعمال في هذه الحياة هي التي تحدد العظمة الإنسانية ، أو الهبوط الحيواني ، وبالمقاييس نفسه تتحدد عظمة الحياة أو حقارتها .

٤ — الحياة موقوتة ووراءها حياة أخرى :

حقيقة مركوزة في نفس المؤمن وحسه ، تشعر بها فطرته ، ويقرؤها في كتابه ، ويعلمه إياها دينه : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ ، وَتَفَاهُخٌ يَبِينُكُمْ ، وَكَأَنَّا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ تَبَاطُءُهُ ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ^(٢) .

والقرآن — بوصفه الدنيا بهذا الوصف — لا يقصد بذلك العزلة في الحياة أو عنها في الأرض ، وإهمال عمارتها ، وتطليق زهرتها ، وترك خلافتها التي أعطاها الله للإنسان ، وإنما يقصد تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية للإنسان ،

(١) آل عمران — ١١٠ .

(٢) الحديد — ٢٠ .

والاستعلاء على غرور المتاع الزائل ، وجاذبية الأرض المقيدة والمهلكة . وهذا الاستعلاء وهذا السمو هو الذى يصلح الأرض ، ويمنع الانحطاط ، ويحتاجه أصحاب الرسالات ؛ ليحققوا به إيمانهم ، وينتصروا به على شهواتهم وأطماعهم . وهو الذى يفرق بين عبادة الدنيا وعبادة الله سبحانه ، وهو الذى يفصل بين مناهج الأرض ومناهج السماء ، وهو الذى يميز بين صاحب الدين وعابد الطين . وهو الذى عليه الثواب والعقاب يوم القيامة بعد انقضاء هذه الحياة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١) .

خصائص هذا الغاية :

والإسلام بعد تقرير هذه الغاية للحياة الإنسانية ، إنما يختار طريقا واحدا — من عدة طرق — لقضاء عمره فى الدنيا . ويلزم الإنسان أن لا يضيع حياته ، ويفنى عمره فى سلوك طريق غيره . ويضع الإسلام نظاما مستقلا لغايته ، ويطلب الإنسان أن يتقيد به ويلتزمه ، ويسمى هذا النظام « الدين » ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٢) ، ويقول جل شأنه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) .

والإسلام قد أقام امتياز الناس فى الحياة على أساس الكفر والإيمان فى العقائد ، وأقام تقسيم الحلال والحرام والمباح والمستحب والمكروه فى الشريعة على أساس بعد الإنسان أو قربة عن منهجه ، وأداء ما عليه من واجب الأمانة والخلافة فى الأرض . ليقاس الإنسان فى دنياه بمقاييس منضبطة فى العقيدة والشريعة والحياة . وهذه الغاية خصائص امتازت بها وبرزت فيها ، نذكر منها ما يلى :

(١) الفارعات — ٣٧ — ٤١ .

(٢) آل عمران — ١٩ .

(٣) المائدة — ٣ .

١ — التجاوب والتوافق بين الناموس والفطرة :

الفطرة تحس بالنواميس ، وتشعر بها ، ولا تصادمها ، أو تتعارك معها . الحياة موقوتة ، والإنسان موقوت ، الحياة مسيرة والإنسان خاضع مثلها للناموس — وهكذا : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَائِنُونَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ ^(٢) قانون شامل تسير عليه كل الموجودات في الحياة .

٢ — التوافق بين الفكر والعمل :

إذا كان الإنسان لا يقصد في حياته إلا مجرد إرواء شهوته ؛ فإنه من المحال أن يحظى بشيء من التوافق بين فكره وعمله ؛ لأسباب منها : أن الشطط في الشهوات والمطالب والأفكار يكون حاداً ومهتاجاً ، ويستحيل أن تتبعها الأعمال أو تلحق بها ، ومنها : أن الشهوات تكون متقلبة ، والأفكار لا تثبت على حال ، وما يصلح غاية لذلك الإنسان في وقت قد لا يصلح غاية له في وقت آخر :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهَ ، فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ ^(٣) ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤) .

أما المسلم فإيمانه مع عمله واعتقاده موافق لفعله ، لانفاق ، ولا خداع ، ولا شطط : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٥) .

٣ — وحدة الجماعة الإسلامية :

ما في الدنيا من الغايات المادية يتعذر أن يجتمع عليها اثنان باستقرار قلبي

(١) الروم — ٢٦ .

(٢) آل عمران — ٧٣ .

(٣) الإسراء — ٦٧ .

(٤) العنكبوت — ٦٥ .

(٥) الصف — ٢ ، ٣ .

وهلوه نفسى ، ولذلك يحاول أحدهما دائما أن يفوز على الآخر ، ويتغلب عليه بطرق شتى ، وأسباب متنوعة ، ولهذا ينشأ التباغض ، والتحاسد ، والقهر ، والاستبعاد ، ولا يكون هناك مساواة أو استقرار . أما الغايات الإسلامية والقيم العليا وإرضاء الله ، ففيه متسع للجميع ، وفوق ذلك ، فإن المساواة من أصول المنهج الإسلامى وصميم قيمه العليا فى الحياة .

وصدق الله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ؛ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(١)

٤ — الجمع بين الغايات الجسدية والروحية :

فإذا كان الإنسان فى دنياه يحب العافية والرفاه والرخاء والأمن والاستقرار النفسى ، والمادى ، يجد ذلك كله فى الإسلام الذى يحفظ عقله ونفسه وماله وعرضه ، وإذا كان يحب السمو الروحى والرقى الفكرى ، ويعشق القيم والفضائل ، يجد ذلك كله فى دينه : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ ^(٢) ، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ ^(٥)

الحياة وغايتها فى تصور الحضارة الغربية :

تدين الحضارة الغربية اليوم لأرباب شتى ، ونقصد بالأرباب : العوامل المؤثرة والموجهة لمسيرة الإنسان فى الحياة وفى المجتمع ، والمصطلح الإسلامى لا ينكر هذه التسمية ، بل استعملها : فحينما قرىء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اتَّخَذُوا

(٥) الفرقان — ٦٢ — ٦٤ .

(١) الحجرات / ١٣ .

(٢) النحل — ٩٠ .

(٣) الأعراف — ٣٢ .

(٤) النحل — ٨ .

أَخْبَارُهُمْ وَرَهْبَانُهُمْ أَرَبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ ^(١)؛ فَسَمِعَ ذَلِكَ عَدَى بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِي — وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ ، فَقَالَ ﷺ : « أَلَيْسُوا كَانُوا يَحْلُونَ لَكُمْ وَيَحْرَمُونَ ؟ » قَالَ : نَعَمْ « قَالَ : فَهَذِهِ عِبَادَتُهُمْ » ^(١)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَوَامِلَ الْمُؤَثِّرَةَ فِي الْحُلِّ وَالْحَرَمَةِ عِنْدَ الْغَرْبِ الْآنَ كَثِيرَةٌ ، وَقَدْ صَدَرَ عَنْهَا مِنَ الْقَوَانِينِ مَا سَارَتْ عَلَيْهِ الْأُمَمُ ، مِثْلَ قَانُونِ حُلِّ الْخَمْرِ ، قَانُونِ الْجِنْسِ ، قَانُونِ الرِّبَا ، قَوَانِينِ عَزْلِ الرُّوحَانِيَّاتِ عَنِ الْمَجْتَمَعِ ، قَوَانِينِ تَفْسِيخِ الْأُسْرَةِ ، قَوَانِينِ إِذْلَالِ الشُّعُوبِ ، قَوَانِينِ إِنتَاجِ أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا — قَبْلُ — التَّصَوُّرَ الْعَقْتَقَادِيَّ لِلْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ تَصَوُّرٍ لِلْحَيَاةِ فِي أُمَّةٍ يَنْبَثِقُ مِنَ التَّصَوُّرِ الْعَقْتَقَادِيِّ لَهَا ، فَإِذَا اخْتَلَفَ التَّصَوُّرُ الْعَقْتَقَادِيُّ لِأُمَّةٍ مَا اخْتَلَفَتْ بِذَلِكَ نَظْمُهَا وَقَوَانِينُهَا عَنِ الْأُمَّةِ الْأُخْرَى . وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ التَّصَوُّرَ الْغَرْبِيَّ يَخَالِفُ التَّصَوُّرَ الْإِسْلَامِيَّ جَمْلَةً وَتَفْصِيلًا . وَبِهَذَا تَخْتَلِفُ الْأَصُولُ الْحَضَارِيَّةُ وَالتَّرْبُويَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ لِكُلِّ مِنْهُمَا .

فَبَيْنَمَا نَجِدُ أَنَّ تَصَوُّرَ الدِّينِ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ تَصَوُّرٌ لِقَانُونِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، نَجِدُ أَنَّ تَصَوُّرَ الدِّينِ فِي الْغَرْبِ شَيْءٌ لَا وَجُودَ لَهُ ، وَإِنْ وَجَدَ فَهُوَ تَصَوُّرٌ لِعَقِيدَةٍ شَخْصِيَّةٍ ، لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْمَجْتَمَعِ . وَنَجِدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ مِنْ أَوَّلِ مَقْتَضِيَّاتِهِ : الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِالْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ الْوُجُودَ الْإِلَهِيَّ فِي الْغَرْبِ ، وَكَذَا الْغَيْبِ ، لَيْسَ بِشَيْءٍ ثَابِتٍ أَوْ مُعْتَرَفٍ بِهِ فِي الْحَيَاةِ . وَنَجِدُ كَذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَقُومُ نَظْمُهُ وَحَضَارَتُهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ، وَأَنَّ الْوَحْيَ هُنَاكَ شَيْءٌ مُرْتَابٌ فِيهِ ، وَأَنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ أَمْرٌ مُشْكُوكٌ فِيهِ وَلَيْسَ لَهُ رَصِيدٌ فِي الْعَقْلِ أَوْ الْحَيَاةِ ، وَنَجِدُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ حَجَرُ الْأَسَاسِ لِنَظْمِ الْأَخْلَاقِ بِكَامِلِهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا النِّظَامُ وَالْأَسَاسُ لَا وَجُودَ لَهُ فِي الْغَرْبِ الْمَادِي وَنَجِدُ أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالْأَعْمَالَ وَالشَّعَائِرَ الَّتِي بَنَى الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا هِيَ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ مِنْ تَقَالِيدِ الْعَصُورِ الْوَسْطَى الْجَاهِلِيَّةِ الْمُظْلَمَةِ ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا ، بَلْ هِيَ مَقُومَاتٌ لِلْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَالنَّشَاطِ الْإِنْسَانِي . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الْحَضَارَةَ انْبَعَثَتْ مِنْ أُمَّةٍ لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ نَبْعًا صَافِيًا مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ . نَعَمْ كَانَ بَيْنَهَا زَعَمَاءُ

(١) انظر سنن الترمذی کتاب التفسیر باب سورة التوبة ٥ / ٢٧٨ .

دينون — كما أوضحنا قبل — ولكنهم كان ينقصهم أشياء أساسية لأبد منها :

أولا : الحكمة والبصيرة النافذة ، وضبط النفس ، وعدم التكالب على الدنيا بحب المال والسيطرة .

ثانيا : العلم ، والمعرفة ، والثقافة ، والنظر فيما حولهم من تطور أصبح من المستحيل أن يصبر على الجهل طويلا .

ثالثا : القانون الإلهي الصحيح الخالي من الدخل والأهواء والأباطيل التي تعارض العقول والواقع المعاش .

وإنما كان أقصى ما يملكونه هو نظرية دينية مخطئة ، لم تكن لترشد النوع البشرى إلى الطريق السوى من سبل الفكر والعمل ، مهما شاء أصحابها أن تفعل . وكل ما كان لهذه النظرية أن تفعله هو أن تحول دون تقدم العلم والحكمة والمعرفة ، فوقعت في أخطاء تسببت في نبذ الناس لها ، والثورة عليها . وانطلق المد الهائج إلى كل فج ، يبحث عن الدنيا التي حرم منها طويلا ، حتى وصل إلى الجذور الإغريقية والرومانية ، ثم رأى حصاد الفكر التجريبي عند المسلمين ، فقام قومته التي اعتمدت على ثلاثة أشياء ، ليس منها الإيمان أو العقيدة ، وهي :

- ١ — المشاهدة والملاحظة .
- ٢ — القياس والاستقراء .
- ٣ — التجربة وإثبات النتائج .

وهذه الأشياء ، أو الأدلة الثلاثة ، فتحت أمامهم آفاقا ما كانت تحلم بها تلك الأمم ، فهاموا بها ، ونَاهُوا دَلًّا وفخرا ، ولكنها أورثتهم تصورا دنيويا معينا ، أساسه الجسد والحس والمادة ، لا الروح والنفس والقيم ، وكان من أبرز هذه التصورات الدنيوية :

- ١ — النظر إلى الكون ، لا على أنه مخلوق لخالق أو صنع حكيم مدبر .
- ٢ — المادية والاهتمام بالجسد ، لا بالروح والنفس .
- ٣ — النظر إلى الحياة الدنيا على أنها الحقيقة الكبرى التي لاحقيقة وراءها .

وسنبسط القول قليلا في هذه النقاط الثلاث ؛ لبيان هذه التصورات للكون والحياة .

١ — النظر إلى الكون لا على أنه مخلوق لخالق :

قدمنا أن المسيحية في نظرتها الواهمة إلى الحياة الدنيا كانت مجافية للعقل والواقع ، فزعمت أن الحياة الدنيا ، وهذا الوجود البشرى المتكون من اللحم والدم ، مبعث الآلام ، وموطن الشقاء للإنسان ، وأن هذا الكون ماهو إلا سجن وعذاب للمؤمن ، يجب أن يتخلص فيه من ذلك الجسد ، وأن كل مايفتقر إليه الإنسان في هذه الحياة من الرغبات والشهوات والمطالب العديدة المتنوعة ، إنما هي أغلال هذا السجن وأصفاده المثقلة ، ولا سبيل إلى النجاة إلا أن يطلق الإنسان هذه الدنيا ، ويلعن هذا الكون ، وتلك الحياة ، وما فيها من رغبات .

نظرة قاتمة ، عطلت الحياة ، وأوقفت سيرها ، وكانت هي وأسباب عديدة — أوضحناها — سببا للثورة ونبذ الدين وفكرته ، وقد سبب ذلك انتكاسا إلى الجانب المعاكس تماما ، حتى رأينا رواد الحضارة يطلقون فكرة التدين والخالقية .

يقول فولتير : إن فكرة التآليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء ^(١) وانطلقوا يهرفون بأنه لخالق لهذا الكون ، ولا بارىء له أصلا ، وإن كان فلا صلة له بحياة البشر ، ولا سلطان له عليها ، وإنما البشر نوع من الحيوان ظهر إلى الوجود مصادفة ، ولا يعرف إن كان هناك من خلقه وأظهره من العدم ، أم أنه خلق من غير خالق ، وظهر بنفسه إلى مسرح الوجود ، ومهما يكن في الأمر ، فذلك لا يغنى المتمسك بهذا الطريق الفكرى في قليل ولا كثير وقد وقر في عمقهم وحسهم أن هذا الكون وما يحيط به من نظام مبدع لا غاية ولا مصلحة من وراء وجوده ، وإنما برز إلى الوجود بالمصادفة أو أى شيء آخر ، ولا يعرف له من دافع — وهو هكذا — سائر في طريقه من غير روية ولا

(١) الدين — الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ .

قصد ، وأنه صائر إلى الانقراض لا محالة ، من غير أن تكون له غاية أو يأتى بنتيجة ، وهم بهذا يريدون الفرار من فكرة الألوهية ، وسيطرتها على الكون والحياة ، ويشعرون أن الخضوع لله — فى زعمهم وحسب تجربتهم — يورث نفوسهم السلبية ، والعجز ، وعدم الفاعلية . وأنه لا يثبت الإنسان ذاته ، ولا يمارس فاعلية فى الأرض ، إلا بالتمرد على الله وعصيان أوامره ، ولقد قال هذا صراحة كاتب غرى معاصر . هو « جوليان هكسلى » فى كتابه : « الإنسان فى العالم الحديث » حيث قال : « إن الإنسان كان يخضع لله ؛ لأنه كان جاهلا وعاجزا أمام قوى الطبيعة واليوم بعد أن تعلم وسيطر على الطبيعة ، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ومن ثم يصبح هو الله !! .. » (١).

٢ — المادية والاهتمام بالجسد لا بالروح :

انطلق الفكر الأوروبى بعد فراره من الروحانية إلى المادية الجاحدة فى كل شىء ، فمثلا فى خلق الكون : قرر كثير من علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية أنه ليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تحكم هذا العالم وتصرفه ، وصاروا يفسرون الظواهر فى الحياة بطريقة ميكانيكية ، توافق منطلقهم المادى والحسى ، حتى قال بعض مفكرهم : نحن لا نؤمن بالله إلا إذا ظهر تحت المجهر ، أو لمسته أيدينا . وأما عن الوحى والنبوة ، فإن منهمجهم التفكيرى والعلمى والسلوكى لا يتفق مع الوحى والنبوة والحياة الآخرة ، لأنه لا شىء من ذلك يقع تحت الحس والاختبار . وهذا المنطلق هو منطلق كل فكر حسى مادى من قديم : ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢).

نتاج الحضارة الغربية من المذاهب والنظريات :

أفرزت الحضارة المادية الغربية نظريات ومذاهب مادية ، تماما كما أفرزت

(١) Julian Huxley, Man in the modern world

(٢) الأنعام — ٢٩ .

الحضارة الرومانية والفارسية المزدكية والمناوية . من هذه النظريات ، نظرية دارون في أصل الأنواع ، حيث قررت حيوانية الإنسان ، ونفت عنه تلك النفعة الإلهية ، التي رفعتة عن مستوى الحيوان ، فأصابت الكنيسة بزلزال ماحق . ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة ، وكل الفلسفات المسيطرة عليها . نشأت منها شيوعية كارل ماركس في الشرق ، وفلسفة فرويد في أوروبا ، والوجودية في فرنسا ، والبراجماتزم في أمريكا ، ولا أريد أن ألقى الضوء على كل هذه النظريات ، فلها مجال آخر ، وإنما أردت أن أشير إلى الحسية والحيوانية التي انغمست فيها هذه المذاهب المتعددة ، السائدة في العصر بدون استثناء ، ويكفى أن نلقى ضوءاً على ظلها في المجتمع وفي الحقل الذي نشأت فيه وسادت .

أسس هذه النظريات المادية :

بنت هذه النظريات الحسية السابقة أسسها على ثلاثة مبادئ :

الأول : الذهاب بكرامة الإنسان ، ورفعته ، وشفافيته .

الثاني : اعتبار رعاية الله وتكريمه للإنسان خرافة نشأت من الخرافة الكبيرة المتصلة بخلق آدم .

الثالث : غرائز الإنسان امتداد طبيعي لغرائز الحيوانات السابقة .

محصلة هذه النظريات :

أنتجت هذه النظريات محصلات ثلاث ، أحدثت الانقلاب الإلحادي والحسي والجنسي في المجتمع .

أولها : الإنسان مجموعة من الغرائز يسعى لتحقيقها ، لا يرتفع عن واقع الأرض المادي ، ولا ينطلق في طريق الروحانيات ، إلا إذا وقف في طريقه عائق مادي .

ثانيها : الضمير الخلقى خرافة ، يضحك الإنسان بها على نفسه ، وإنما الضمير الموجود حقيقة هو الضمير النفعي ، وهو ينفي بالضرورة كل قيمة خلقية .

ثالثها : التقاليد والأخلاق والآداب سخف ، ينبغي أن يزول ؛ لينعم الإنسان

بالسعادة ، وفي هذا يقول فرويد « إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة ، حتى في درجتها العادية (١) ».

مظاهر هذه المادية :

انطلقت الأقلام ووسائل الإعلام والألسن تنادى بنبذ كل قديم ، وبناء المجتمع على أفكار هؤلاء العباقرة المجددين ، وانتهى الأمر إلى تحطيم الحواجز والقيم والأعراف ، وحل روابط الأسرة ، والانسلاخ الكامل من تراث الأجداد وأخلاقهم وتقاليدهم ، في سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة ، وبناء شخصيته المستقلة ، وتخليته من العقد . فليفعل الإنسان كل ما يبدو له شخصياً أنه حق ، ولو خالف كل ما اصطلاح عليه الناس ، وانطلق الناس إلى الجنس وسعار الشهوات ؛ ليتحرروا من القيود والعقد . فأسست السينما العارية ، وسادت أفلام الجنس ، وخرجت المرأة بجسدها وحريتها ، وخرجت الصحف الخليعة والكتب الداعرة ، وانقلب الضمير إلى : ضمير نفعى ، كل ما يأتى بالغنم يرضى الضمير ويسكنه ، وكل ما يأتى بالغرم يؤرق الضمير ويتعبه . وسادت الجبرية النفسية ، فالإنسان ليس حراً في تصرفاته ، لأنه يخضع لجبرية نفسية ، لا يملك لها كباحاً ، فالإنسان مسير ؛ لأن غريزته تسيطر عليه ، وتوجه سلوكه ، ولا تدع له مجالاً للاختيار ، إذًا ، فيجب إفساح المجال له ، وإعطاء غريزته الجنسية كل ما تشتهى ، وإلا فالكبت المدمر للأعصاب والعقد والهلاك .

٣- النظر إلى الحياة الدنيا على أنها الحقيقة الوحيدة :

بعد هذه المنظومة الحسية ، التي اجتهد في صياغتها عباقرة الحضارة الحديثة ، نظرت الجموع الفارغة من العقيدة والروح والخلق بعد هذا إلى الدنيا ، فلم تجد فيها إلا اللذة والمتعة والبهجة والسرور ، وقرروا أن الإنسان لا حياة له بعد حياته الدنيا ، فعليه أن يستنفذ كل جهده ؛ ليتمتع في هذه الدنيا بأكبر وأوفر ما يمكن من فرص اللذة

(١) كتابه The ego and the id. P. 80

والنعم والترف ، خاصة وأن الحياة فيها أسباب وافرة للذة الإنسان ، وبهيجته ، ورغده ، وتنعمه ، وترفه ، ورفاهيته ، وقد زالت الحدود والقيود ، فَلَمَّ لا يمرح ويغتسم ، والفرصة محدودة ، والعمر كما يقولون « لو تدرى قصير » وقد ساعدت عوامل معينة على تثبيت تلك النظرة ، وترسيخها في أعماق تلك المجتمعات ، منها ..

- ١- الفراغ الروحي والعقائدي والخناء الأخلاقي ، وقد أشرنا إلى طرف منه .
- ٢- نجاح العلم التجريبي في كشف كثير من أسرار الكون ، وإيجاد كثير من المخترعات الحديثة الجبارة ، شجعهم على أن يجربوا في كل شيء ، ولو كان لا يقبل التجربة ، ولم يلتفتوا إلى أن الميدان الطبيعي للعلم التجريبي هو المادة ، فراحوا يدخلون التجربة العملية في المعنويات ، ليصلوا فيها إلى حقائق موضوعية ثابتة — في رأيهم — تحسم الجدل ، وتقطع السبيل على المناقشات الفلسفية الفارغة ، وقد ساعد هذا في زعزعة المعنويات أو ضياعها .
- ٣- مخالفة الحقائق المادية المكتشفة للحقائق الكنسية الدينية ، عن الأرض والأفلاك .

فمثلاً أعلن القديس فيلا سطوربوس « أن الله يجلب الأجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ؛ ليعلقها في السماء »^(١) وقال غيره ؛ « إن الأجرام السماوية محلات تسكنها الملائكة ، وأن الملائكة تحركها ، أما البناء السماوي عامة فهو قبة صلبة المقوام ، ركبت فوق الأرض . وأن الأجرام السماوية أضواء معلقة فيها »^(٢).

وبعد ..

فهل هناك فرق كبير بين الردة الحديثة وبين الجاهلية الحائرة والحسية القديمة أيام أوى جهل وأوى لُهب ؟ ألم يكن من تعاليمهم ومن غايتهم الاستمتاع الهائج بغير حدود أو قيود ، وعبادة هذه الدنيا والهيام بها ، وعدم تصور حياة أخرى غير هذه

(١) بين الدين والعلم مظهر ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .

الحياة ؟ ﴿ هيهات هيهات لما توعدون . إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَعْمُنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ ^(٢) وقد عاب القرآن عليهم هذا المسلك ، ووصمهم بالقصور العلمى والضلال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ ^(٣) فأصل الإسلام هذه الحيوانية الدنيوية من أول يوم ، ورد للإنسان كرامته المعنوية والخلقية ، وأقام حضارته على فطرة الإنسان وطبيعته ، بجسده وروحه ، ودنياه وأخراه . فإذا انتكست الإنسانية مرة أخرى إلى تلك الحمأة ، ووقعت فى هذه الوهدة ، نعلم أنها ليست حضارة ، وإن تزينت بأزياء فضفاضة من التقدم العلمى والتكنولوجى . ونعلم كذلك أنه لا كاشف لهذه القتامة إلا بهضة حضارية وبعثة إسلامية صادقة ، تتمثل قول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ^(٤) ، فكما أزلت الحضارة الإسلامية الغشاوة ، وقشعت الظلام ، وأحيت الأمم من قبل ، فهى على استعداد اليوم — وقرآنها محفوظ ، وستنها باقية ، وتاريخها حى — أن تعيد الأمر إلى نصابه ، لو حملها المسلمون كما حملها الصدر الأول ، وصاروا بها كما صار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .



(١) المؤمنون — ٣٧ .

(٢) البقرة — ٩٦ .

(٣) النجم — ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) الأنبياء / ١٠٤ .

المبحث الثالث

منهج تربوي

نظرية الإسلام التربوية هي انعكاس صادق للنظرية الإسلامية ، أو هي لترجمة التربوية والنظرية التطبيقية للإسلام — كل الإسلام — فكراً ، وروحاً ، تطبيقاً في مجالات الحياة المختلفة : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والإنسانية ، والخلقية .

وللنظرية الإسلامية منهج متكامل ، يعتمد على أساليب ثلاثة :

١ — فروض ومسلمات تستند إلى الإسلام كنظرية اجتماعية كبرى مصدرها لقرآن والسنة .

٢ — أسلوب تاريخي في دراسة جذور المشكلات التربوية ، وفي دراسة لتجارب التربية التي طبقت في الجماعة الإسلامية ، وفي القصص القرآني ، والتي طبقت في العصور الإسلامية القويمة ، والتي طبقت وطرحت من قبل المفكرين لمسلمين والعلماء عبر التاريخ الإسلامي .

٣ — أسلوب علمي تجريبي في دراسة الخبرات والمواقف التربوية ، « والحكمة ضالة المؤمن » ، في إطار المسلمات والمبادئ والقيم الإسلامية ، التي تكون الإطار لفكرى الإسلامى .

والواقع الذى لا يشك فيه مؤمن أن الرسول ﷺ بعث في الأمة الإسلامية في الدنيا ؛ ليوضح ثلاثة عناصر متماسكة ، وضوحها القرآن في قوله : ﴿ كَمَا رَسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ، يُثَلِّوْا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيْكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴿^(١)﴾ .

فكان العنصر الأول ، وهو الآيات والتعاليم الربانية ، والعنصر الثاني ، وهو التزكية ، والعنصر الثالث ، وهو الحكمة ، والقرآن ، وعلوم الدنيا الشاملة ، كل هذه العناصر تكون أساسا لمنهج تروى متكامل عجيب . ونستطيع أن نبرمج النظرية التربوية الإسلامية في بناء متكامل ، يقوم على المفاهيم والمبادئ والمضامين والأسس الآتية :

١ — مفاهيم عامة ومسلمات كلية :

(٢) أ — التوحيد : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن﴾ ^(٣) .

ب — الخالقية : الإنسان والكون والوجود مخلوق لخالق وصفة الحكيم : ﴿افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ ^(٤) .

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ^(٥) ، ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون﴾ ^(٦) .

ج — المساواة : ﴿إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ ^(٧) .

د — دار للجزاء : ﴿وكل إنسان أئتمناه طائفة في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة

(١) البقرة — ١٥١ .

(٢) البقرة — ٢٥٥ .

(٣) الحشر — ٢٣ .

(٤) ق — ٦ — ٧ .

(٥) المؤمنون — ١٢ .

(٦) النحل — ٥ .

(٧) الحجرات — ١٣ .

كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، إقرأ كتابك ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١﴾

هـ — المسؤولية الشخصية ﴿فمن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (٣)

و — دستور إلهي ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَادْخُلْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (٤).

ز — احترام الطهارة النفسية وتقدير النيات ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٥)، «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» .

٢ — أسس وركائز يقوم عليها :

وهي مجموعة من القيم والمبادئ التي صاغها الإسلام على أساس الفطرة البشرية في الطبيعة الإنسانية ، حسب علمه تعالى — وأهمها :

أ — الصدق : ﴿لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (٦)
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ (٧)

(١) الإسراء — ١٣ .

(٢) الزلزلة — ٧ — ٨ .

(٣) فاطر — ١٨ .

(٤) المائدة — ٤٩ .

(٥) غافر / ١٩ .

(٦) الأحزاب — ٨ .

(٧) الأحزاب — ٢٣ — ٢٤ .

ب — الأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (١) عن أنس قال ما خطبنا رسول الله إلا قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (٢) ، « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » (٣)

ج — الوفاء : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٥) ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٦) .

د — الإخلاص : ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِهِ اللَّهُ ، لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٧) ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٨) ﴿كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٩) . ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١٠) .

هـ — العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً

(١) النساء — ٥٧ .

(٢) رواه أحمد ٣ / ١٣٥ ، ١٥٤ .

(٣) رواه البخاري كتاب العلم .

(٤) آل عمران — ٧٦ .

(٥) الإنسان / ٧ .

(٦) الإسراء — ٣٤ .

(٧) الإنسان / ٩ .

(٨) غافر — ٦٥ .

(٩) يوسف — ٢٤ .

(١٠) الزمر — ٢ .

(١١) المنافقون — ٨ .

فَتَهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١﴾
يوضح هذا قول عمر : أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا .

٣ — أهداف عليا :

يستهدف الفرد والمجتمع تحقيقها في الحياة وفي الإنسان ، فردا كان أو جماعة ، ويتلخص ذلك في تبعات الخلافة عن الله في الأرض وأهمها :

أ — تخليص الناس من ظلم البشر وتعييدهم لله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٢) .

ب — تطويع الناس لمنهج الله تبارك وتعالى ، وإقامته في الأرض :
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (٣) ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤) .

ج — الدعوة إلى الخلق والمعروف ، والبعد عن الفسق والمنكر والفجور :
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٥) ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ (٦) .

(١) النساء — ٩٧ .

(٢) آل عمران — ٦٤ .

(٣) النحل / ١٢٥ .

(٤) فصلت — ٣٣ .

(٥) آل عمران — ١١٠ .

(٦) لقمان — ١٧ .

- د — الدفاع عن شرعه ودينه :
- ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(١)
- ه — ابتغاء ثواب الدنيا والآخرة ، وما عند الله خير وأبقى للمتقين ، جزاء صالح أعمالهم :
- ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٢) .
- ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾^(٣) .

٤ — مضمون ومحتوى من المفاهيم ، والمسلمات ، والمبادئ ، والقيم ، والاتجاهات ، التي تبنى أيضا على أساس الفطرة الإنسانية :

ومن خصائص هذه المبادئ الإنسانية أنها تعتبر إجابة منطقية وواقعية لقضايا فكرية ، وقضايا اجتماعية ، وقضايا نفسية ، يطرحها العقل الإنساني ، وتطرحها تفاعلات الحياة في وسط الجماعة البشرية ، والاحتكاكات الآدمية ، وهى أشياء كثيرة ومتنوعة ، وضوحها الإسلام في تعاليمه ، ويُرى عليها الفرد المسلم كقاعدة ومنظومة ، تعيش معه في الحياة . نذكر منها على سبيل المثال .

- ١ — مقدار الحرية التي ينبغي أن يمارسها الإنسان أثناء إشباعه لمطالبه وحاجياته . الحيوية والنفسية والعقلية والاجتماعية مع بنى جنسه من البشر .
- ٢ — حقوق الإنسان الأساسية ، وكيف يحصل عليها ، وواجباته ، وكيف يؤديها .

٣ — منظومة من المفاهيم التي تسير في إطار الفطرة ، وتمثل قاعدة المسلمات التربوية مثل :

حق الوالدين	حقوق الزوجة	حقوق الزوج
حق الولد	حقوق الأقارب والأرحام	حق الجار

(٣) الكهف : ٤٦ .

(١) الحج / ٣٩ .

(٢) ال عمران ١٤٨ .

وفى آداب المعاملات :

منع البيع على بيع أخيه	منع الخطبة على الخطبة
منع الغش والخداع	النصح والحب
آداب المجلس	آداب الاستئذان
آداب النظر والعورة	احترام الضعفاء وإعانتهم
الوصية بالنساء	رحمة العجماوات
إغاثة الملهوف	عيادة المريض

والأمثلة على ذلك كثيرة فى آى القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وكتب الآداب والأخلاق ، وفى آثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وقد انفردت بذلك كتب معينة وفصول مطولة . يرجع إليها من شاء^(١).

٥ — وسائل وطرائق وأساليب وتشريع لتحقيق هذا البناء فى الواقع الاجتماعى .

يمثل هذا التشريع الإسلامى — الذى هو سياق الجماعة ، وحارس مبادئها ، ومهيمن على القيم والمثل العليا — المبادئ الأساسية التى تنتظم فى الإطار الفكرى للإسلام ، ويتمشى مع روح الجماعة الإسلامية التى استقت تعاليمها من الوحي ، ولاحظت جميع إمكانات الفطرة البشرية ، وفى التشريع الإسلامى : لا تتغير القوانين ، ولا التشريعات السماوية ، لسبب بديهي هو : أن القيم والمثل العليا والمبادئ الأساسية فيه قائمة على فطرة الإنسان ، وفطرة الإنسان نفسها لم تتغير منذ خلق الله الإنسان : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(٢).

والتشريع الإسلامى — كأي تشريع — يمثل الضابط الاجتماعى الخارجى

(١) ارجع إلى — إحياء علوم الدين — مصنف عبد الرزاق — كنز العمال — مصنف ابن أبى شيبة . الآداب الشرعية .

(٢) الروم — ٣٠ .

لسلوك الإنسان في الجماعة والتربية . والإيمان هو البانى للضابط الداخلى للسلوك الإنسانى . فإذا توافق الضابط الداخلى مع الضابط الخارجى استقامت النفس والفطرة والتعاليم ، وتعاون الكل فى سعادة المجتمع وحفظه وترقيته . وإذا تنافرت وتباينت تمزق الإنسان ، وتفسخ المجتمع ، « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(١) . ومن هذا ندرك أن النظرية التربوية تلعب دورا هاما فى باب التشريعات والقوانين ، كما أن التشريعات تلعب نفس الدور فى التربية وبناء السلوك للفرد والجماعة ، فكل منهم يكمل الآخر ، ويأخذ بيده فى التشريع الإسلامى . أما تشريع الأفراد — الذى يختلف مع الفطرة — فقد يشرع لحماية طبقة أو شهوة أو مستعمر ، وبذلك يصادم الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات . ويشاق التربية السليمة القويمة للإنسان .

٦ — عناصر كاملة للتقويم والعلاج المستمر :

وتتمثل فى التربية والتعليم والتفقه والتطبيق ، فقد جاء الإسلام من الله سبحانه لتربية البشر على مسلماته ومفاهيمه ، كما تكفل بالإجابة على الأسئلة الكبرى التى تصادف الإنسان فى حياته ، باعتباره إنسانا مفكرا . ولهذا كانت برامج الإسلام العبادية مناهج تربوية من الدرجة الأولى ، لبناء الإنسان فكريا واجتماعيا ونفسيا . ولسنا فى حاجة إلى إظهار ما فى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد — الجهاد الحرفى والنفسى — من جوانب تربوية ، فكل ذلك معروف لعوام المسلمين — كما أن الآداب والقيم الإسلامية والتراث الضخم فى ذلك ، يكون مادة ومنهجاً للتربية والتعليم والتثقيف ، وعلاج النزعات الإنسانية التى تبرز من خلال الممارسات اليومية فى المجتمعات .

(١) النساء — ٥٩ .

خصائص النظرية :

ونستطيع أن نوضح خصائص نظرية التربية الإسلامية في عدة نقاط :

أ — تمتاز النظرية الإسلامية بالتكامل والشمول والوضوح المنطقي ، كما تمتاز بعدم التناقض في كل من مسلماتها ، ومفاهيمها ، وأسسها ، وركائزها ، وأهدافها ، ومضامينها ، ووسائلها ، وتشريعاتها ، وأساليبها التكوينية ، سواء في كل منظومة منها على حدة ، أم بينها جميعا كوحدة كلية ، أم بين أساسها النظري وأساسها التطبيقي .

فحينما تتناول الإنسان بالتربية والتنشئة والتعليم تتناوله ككل ، جسما ، وعقلا ، ونفسا ، وروحا . فتبنيه كشخصية متكاملة ، بواسطة منهج تربوي متكامل الخبرات ، شامل لكل العناصر ، فلا تضحي بجانب في سبيل جانب آخر . فإذا غلب الجانب الروحي ربت لنا رهبانية ، « ولا رهبانية في الإسلام » ، وإذا غلب الجانب العقلي انحرف الإنسان عن جادة الصواب وكان جدليا لفظيا ، وهكذا نستطيع أن نرد الانحرافات الفكرية والاجتماعية — التي حدثت في تاريخ الإسلام — إلى الانحراف عن هذه الخاصية الأساسية في الإسلام ، وعن منهجه التربوي .

ب — تستند تلك النظرية في الثقافة والتربية والتعليم إلى الطبيعة والفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها . فلا تستند إلى موقف إنسان ، أو شهوته ، أو حبه ، أو كرهه ، أو بغضه ، أو مصلحته .

ج — تبنى هذه النظرية على أساس التوازن ، وبذلك لم تُضَحَّ بأى طرف من أطراف القضايا الإنسانية والحياتية المختلفة ، ولم تقلل من شأنها على حساب الآخر ، فلا كبت للغرائز ، ولا إطلاقا لها ، ولا تبذير للأموال ولا إمساكا لها ، وهو ما تسميه بالوسطية : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾^(١) .

(١) البقرة / ١٤٣ .

د — العمومية والعالمية — فالنظرية لا تقوم على الجنس أو اللون أو الأرض ، وإنما تقوم على العالمية : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾^(١) كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾^(٢) .

﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾^(٣) ، وقول الرسول ﷺ : « من آذى ذميا فقد آذاني »^(٤) .

هـ — المثالية والواقعية — ولهذا نجد الأخلاق الإسلامية — مثلا — ليست تلك الأخلاق المجردة ، التي انحرفت بالفلاسفة ، وبعض مفاهيم الأديان الأخرى ، عن الحياة الواقعية للبشر ، وحلقت بهم في سماء المثاليات الجوفاء من القيم غير الواقعية ، التي لا تفرزها الحياة الاجتماعية والاقتصادية في واقع المجتمعات البشرية ، وإنما نجد أن المبادئ الإنسانية والاجتماعية التي يصوغها الإسلام تبنى على أساس الواقع الحيوي والنفسي والاجتماعي والعقلي والروحي ، فنجد مثلا التشريعات والقوانين الإسلامية أمورا واقعية ، بنيت على أساس مكونات الإنسان في الجماعة ، وإمكانات نموها ، وصيغت في إطار من الواقعية والقيم والمبادئ العليا السامية ، وهي في نفس الوقت مثاليات عليا : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولكن صبرتم هو خير للصابرين ﴾^(٥) .

المناهج التربوية الغربية :

لاشك أن لكل تعليم نظام يترجم في تعاليم ومبادئ ، تتمثل في هيكل له روح وجسد كالكائن الحي . وروح كل تربية وتعليم إنما هي ظل لعقيدة مجتمعه ، أو عقيدة واضعيه ، ونفسياتهم ، وغايتهم من التربية ومن التعليم ودراسة في الكون ،

(١) المائدة — ٨ .

(٢) النساء — ١٣٥ .

(٣) الحجرات — ١٣ .

(٤) رواه داود — كتاب الأفضية ٢٥ .

(٥) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم ص ٨٥ والآية النحل / ١٢٦ .

ووجهة نظرهم في الحياة وفي الأخلاق وفي المبادئ ، وذلك ما يمنح نظام التعليم في كل أمة شخصية مستقلة ، وروحاً خاصة ، وضميراً ذاتياً ، وهذه الروح هي التي تسرى في جميع نظم المجتمع وتعاليمه ، وتوجه ثقافته في جميع العلوم في الآداب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى في الاقتصاد والسياسة ، بحيث يصعب تجريدتها من هذه الروح فيما بعد .

والحضارة الغربية — كما أوضحنا — لها فلسفتها في الحياة ، وفي الكون ، وفي العقيدة . فلا بد أن تصطبغ برامجها التعليمية بهذه الفلسفة التي آمنت بها ، ولسنا هنا في معرض تفصيل تلك البرامج التعليمية لهذه الفلسفة الغربية ، وإنما نعرض للخطوط العريضة لتلك التربية ، لتظهر المقارنة بين المقاصد والغايات للحضارة الإسلامية وغيرها ، ونستطيع أن نبرج النظرية التربوية الغربية في بناء متكامل ، يقوم على المفاهيم والمبادئ والأسس الآتية :

١ — الإلحاد والمادية ، فالدين خرافة ، والوحي والنبوة أمور مشكوك فيها ، لم تثبت بالدليل المحسوس . وقد قدمنا طرفاً من ذلك قبل .

٢ — النظر إلى الكون لا على أنه مخلوق لخالق ، وعلى فرض وجود ذلك الخالق ، فلا دخل له في الحياة ، ولا في توجيه مسار الناس .

٣ — لا إيمان بالدار الآخرة ، ولا بالجزاء والحساب والغيبات .

٤ — العنصرية ، والإيمان بتفضيل بعض الأجناس والألوان ، وهذه العناصر الأربعة سبقت الإشارة إليها قبل .

٥ — توجيه الأخلاق والآداب وجهات معينة ، تخدم رغبات الأشخاص أو الأمم ، فالسياسة خدعة ، والغاية تبرر الوسيلة ، والحق هو مصلحتي أو نفع أمتي ، والعهود تحترم إذا أدت إلى مكسب أو أتاحت فرصة ، أما أن يكون الحق للحق ، بغض النظر عن مصلحتي أو مصلحة أي إنسان ؛ فهذا لا يوجد إلا في الإسلام . يقول ت . و . أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » « سجل أبو عبيدة في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة : إن منعناكم فلنا الجزية وإلا

فلا ... ثم قال : فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بتجهيز هرقل لمحاربته ، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام ، يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من المدن ، وكتب إلى الناس يقول : إنما ردنا عليكم أموالكم ، لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشتراطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لانقدر على ذلك ، وقد ردنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم^(١) ، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾^(٢)

هذه هي صفات الإنسانية المستقيمة ، التي تشعر بالأخوة لهذه البشرية ، وتشعر بالانتساب إليها . ولكن إذا طوع الحق للمصلحة وللشهوات الشخصية ، كيف يكون حقا . إن الجندي الروسي الذي يقتل الأفغانيين بالنابالم والقنابل السامة وقنابل الجرائم : هو مواطن صالح ، يسير على الحق ، في عرف الدولة التي أرسلته ، ليرتكب تلك الجرائم في أفغانستان ، وفي عرف العالم الشيوعي كله وما يدور في فلكه ، والأمريكي الذي يمد إسرائيل بالسلاح ، لسحق شعب بأسره ، وأخذ حقوقه ، وسفك دماؤه ، هو في نظر الفكر الأمريكي مواطن صالح في عرف السياسة الأمريكية ، وحينما كان ينزل هؤلاء المتحضرين أرض الآمنين العزل ، ليقتلوا ، ويسلبوا ، ويأخذوا الأطفال والنساء ، ويحرقوا القرى ، كان هذا منتهى العدل والاستقامة والوطنية في نظر من أرسلوهم .

فحينما دخلت فرنسا أرض المغرب العربي مغتصبة فعلت الأهوال والأعاجيب وما يندى منه جبين كل حر . يقول المارشال « سان ارنو » عن أعماله وجنوده : « إنهم يخربون ، ويحرقون ، ويهدمون البيوت على أصحابها ، ويقطعون الأشجار ، ولقد تركت بعد مروري حريقا هائلا في كل القرى ، فقد كانت القرى كلها وهي قراب مائتين ، قد أحرقت وعاث الفساد في بسايتها ، وقطعت أشجار الزيتون » . ويقول

(١) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم ص ٨٥ .

(٢) المائدة — ٨ .

الكلونيل « فوريه » سنة ١٨٤٣ : « انطلقت بسبع كتائب من « مليانا وتشربل » ، بغية أن تعيث في الأرض الفساد ، وتخطف أكثر ما تستطيع من القطعان ، ولا سيما من النساء والأطفال ، لتبعث الرعب في قلوب الناس ، بإرسال هذه الغنائم إلى فرنسا » وكان الكلونيل يسمى هذا العمل « الصيد بذكاء وهناء » ، ويقول مادحا « لامورسيير » : إن هذا الجنرال الشاب ، الذي لا يقف في وجهه عائق ، هو الذي اخترق الموقع في لحظة من الزمان ، واقتلع العرب من مخابثهم في دائرة خمسة وعشرين ميلا ، وسلبهم جميع ما يملكون من نساء وأطفال وقطعان وماشية ... الخ (١ شباط سنة ١٨٤٢) . ثم يقول : وفي منطقة « مسكرة » ١٧ كانون سنة ١٨٤٢ لاحقنا العدو ، وانتزعنا منه النساء والأولاد والماشية والقمح والشعير .. ثم يقول : وفي ١١ شباط سنة ١٨٤٢ كان الجنرال « بودو » حلاقا ممتازا ، كان ينتزع النساء والأطفال بالقوة ، يأخذ الماشية ، وكل ما يقع عليه عينه ^(١) . وبعد أن استيقظت الجزائر ، وأرادت أن تأخذ أرضها وخيرها ، فقدت مليون ونصف من شبابها وأهلها على مذابح الحرية .

وبعد :

فما هو شعور الضمير الفرنسي آنذاك ؟ أكان يعتبر هذه الأعمال خلقا وبطولة وشرفا عسكريا وحقا مكتسبا أم ماذا ؟ وإذا كان يعتقد هذا ، ويبرره في أخذ خيرات البلاد ، ونهب ثرواتها ، فماذا يقول في إحراق القرى ، وأخذ النساء والأطفال ، وذبح الأعراض بدون ذنب أو جريرة ؟. وأين هذه الأعمال من عدل الإسلام وحضارته وخلقه .

يروى مسلم عن بريدة فيقول : « كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين

(١) انظر رسائل الجنرال (سان أرنو) ط ص ١٤١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ الجزء الثاني ص ٨٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، وحملات أفريقية للكلونيل (فوريه) ص ٣١٠ ، وغارودي ص ٧١ ، ٧٢ .

خيرا ، ثم قال : « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » ^(١) .

هذه هي الحضارة الإنسانية ، التي جاءت لرحمة العالمين ، لا تحمل حقدا ، ولا حسدا ، ولا بغضاء ، ولا وحشية ، حتى عدوانها وقتالها ؛ لأنها تعاليم خالق الناس : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ^(٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ^(٣) . هذا في الحقيقة هو عدل الإنسان ، لا عدل الحيوان الشره ، الذي يحب أن يستأثر بكل شيء ، يستحوذ على كل خير دون سواه .

ومن توجيهاتهم الأخلاقية أيضا : فصل السلوك الجنسي عن الأخلاق والآداب ، فتهتك النساء ، ويبيع الأعراض ، وممارسة الدعارة ، والشذوذ الجنسي ، وفعل الفواحش ، شيء لا ينافي الأخلاق ولا الفضيلة ، والصحافة الداعرة ، والإعلام الجنسي ، والأفلام الخليعة ، وبيعها ، وترويجها ، وعصابات الجنس ، وبيع الرقيق الأبيض ، وعصابات تيسير الطلاق التي توقع الأزواج والزوجات في جريمة الزنا ، وتضبطهم متلبسين ، لتيسر على الطرف الآخر طلب الطلاق ، لا تنافي الآداب العامة أو الكرامة والأخلاق .

٦ — لا أهداف عليا في الحياة : نعم هناك غايات ، وما أكثرها ، ولكنها في الحقيقة ليست أهدافا عليا ، وإنما هي رغبات وأهداف سفلى .

فمن أهداف الحضارة الحديثة مثلا ، الغلبة ، والقوة ، والسيطرة ، والتحكم ،

(١) مسلم رقم (١٧٣١) في الجهاد باب تأمير الأمراء على البعث والترمذى رقم (١٦١٧) في السير باب ماجاء في وصيته ﷺ ، وأبو داود رقم (٢٦١٢) .

(٢) المائدة — ٨ .

(٣) النساء — ١٣٥ .

والرفاه ، وتطويع الناس لمناهج أرضية ، تخدم أغراضا معينة ، وتبيح لهم ما يريدون ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الرغبة تتحقق بفتح بلاد الغير والسيطرة على خيراتها ووسائلها ، أو بالاستيلاء على تجارتها وصناعاتها . وهذه الغاية وهذا الهدف يكون سببا للشقاء بين الأفراد وبين الأمم ، لأن رغبات الناس متضاربة ، فكل يحب أن يتفوق ، ويغلب ، ويسيطر ، فيقوم صراع بين الأفراد ، وحروب بين الأمم ، ويكون هناك تجاذب وتعارض ، يؤدي في النهاية إلى ذهاب التقدم والحضارة .

٧ — نظم وقوانين اجتهادية ، ليس لها علاقة بوحى منزل أو رسول معصوم . ولهذا جاءت هذه النظم في كثير من أحوالها مخالفة للفطرة . فمثلا حق الإنفاق على الوالدين ، وحقوق الرحم ، وصلة الأقربين ، والنصح للغير ، والإيثار ، وحقوق الزوجة ، وحقوق الزوج ، كل هذه الحقوق مشوشة في تلك النظم الاجتهادية ، لأن هذه النظم تقوم على النظرة المصلحية البحتة ، ولا تراعى القيم العليا . ويقيّمون حججهم في تبرير ذلك بدعاوى مردودة عليهم . فمثلا يقولون : إن التربية الحقّة ينبغي أن تكون متحررة من القيود ، أى قيود — « يقصدون بذلك أن الوحي والتعاليم الدينية قيود على العقل » وهم يريدون أن يتحرروا منها . والحقيقة أنهم تحرروا فعلا من تعاليم الوحي الإلهي والتعاليم الربانية ، ولكن ليقعوا في قيود الشهوات والغرائز والمعبودات الأخرى التي عبدوها من دون الله . من ذلك حب النفس ، والسيطرة ، والبغى ، وغير ذلك من الآلهة التي عبدوها ، فكانت قيودا وقيودا ، ولكنها ليست قيودا لصالح الإنسان ، وإنما قيود لجره وسجبه إلى الهاوية والجحيم . فأى القيود أفضل ، وأيها أحق أن يطاع .

٨ — فقدان العنصر الروحي في التربية ، وفقدان العنصر الروحي في التربية يصيب الإنسان بالخواء النفسى المهلك ، ومستحيل أن ينكر الإنسان روحه ، وتستقيم معه الحياة كما ينبغي أن تكون حياة الإنسان السوى . ويكفى أن نرى آثار ذلك في المجتمع المادى المتناحر ، في صورة أمراض عصبية واجتماعية ونفسية ، وأن نرى شيوع العته والجنون والشنوذ والانحراف والجريمة .

يقول الدكتور الكسيس كاريل^(١) العالم الأمريكى الأورنى : « إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى ، وترجع القيمة الروحية المنحطة لأغلب بنى الإنسان — إلى حد كبير — إلى النقص الموجود فى جوهم السيكلوجى ، إذ أن تفوق المادة ، ومبادئ دين الصناعة ، حطمت الثقافة والجمال والأخلاق » ثم يبين جناية هذه الحضارة على الجيل الحاضر فى أمريكا ، فيقول « فى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠ ، وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ شخص من ضعاف العقول . ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم . وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير ، ويقدر أن عدة مئات من الآلاف — لم تشملهم الإحصاءات الرسمية — مصابون باضطرابات نفسية . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب . وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشكلات التى يواجهها المجتمع العصرى ، فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل ، والسرطان ، وأمراض القلب ، والكلى ، بل والتيفود ، والطاعون ، والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف التفوق الذى

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون بفرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون ، وبعد أن مارس التدريس فى جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة ، واشتغل فى معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك ، وبقي به قرابة ثلاثين عاما حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ ، ثم عمل فى وزارة الصحة الفرنسية — منح جائزة نوبل سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة .

تتمتع به الأجناس البيضاء حاليا ... على أنه يجب أن يكون مفهوما أنه صحيح أن عددا كبيرا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود في السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة مازالوا مطلقى السراح ^(١) وواضح من هذه الدراسات — التي أجراها كاريل وغيره — أن فقدان العنصر الروحي في التربية وفي المجتمعات جعلها تعيش في جحيم وقلق واضطراب وتخطب ، يدفعها إلى كارثة حقيقية ، تجر البشرية وراءها إلى الهاوية ، وخلاصة القول : إن حضارة بهذه الصفة ، وتربية على تلك الفلسفات والمبادئ ، لا تناسب الإنسان ، ولا تتوافق مع أشواقه وتطلعاته وفطرته وطبيعته ، وفي هذا يقول كاريل : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ... » ^(٢) وعدم ملائمة الحضارة لنا نشأ من أسباب عديدة ، منها : فقدانها للقيم ، ومعاملتها الإنسان على أنه جسد وبطن وفرج وآلة ، بدون روح أو نفس أو قلب . إذن فقد فقدت تلك الحضارة التوازن المطلوب لراحة الإنسان وسعادته ؛ لأنها ضححت بروحانية الإنسان لتبقى على حيوانيته .

٩ — الفصل بين اللذة الجنسية في علاقة الجنسين وبين أهدافها العليا ، فَمَا اللذة الجنسية في نظر الإنسان سوى إلا رباطا وسكنا ؛ لإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعي ، المتخصص لإنتاج صناعة البشر ، وهي أئمن وأعز وأعلى صناعة في الوجود ، وصدق الله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ^(٣) ، فما العلاقة بين الجنسين إلا نواة لأسرة كريمة ، وقرة لعين سعيدة ، ولذة لعلاقة ظاهرة

(١) انظر الإنسان ذلك المجهول ص ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٣) الروم — ٢١ .

في الدنيا والآخرة ، وصدق الله ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ ^(١) ، ﴿ وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾ ^(٢) . فالطهارة هي قطب الرحي في العلاقة الإنسانية بين الزوجين : الذكر والأنثى . أما أن تتبدل تلك العلاقة الطاهرة إلى سعار حيواني ؛ فهذا انحراف ، يؤدي إلى رجوع البشر إلى الهمجية والحيوانية ، وهو ما تفعله الآن الحضارة الحديثة بكل ما في الكلمة من معنى . وتعلمه في دور العلم عندها ، تحدثت إحدى الفتيات الأمريكيات في معهد المعلمين « جريلى كولورادو » — في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في أمريكا — عن العلاقة بين الجنسين في الحضارة الحديثة ، مع المقارنة بما عليه الشرقيون ، فقالت : « إن مسألة العلاقة بين الجنسين مسألة بيولوجية بحته — وأنتم — الشرقيين — تعتقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقى فيها — فالحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والديك والفرخة ، لا يفكر أحد منها في حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاوِل الاتصال الجنسي ، ولذلك تمضى حياتهما ببسيطة مريحة ١١ » ^(٣) نعم فالحصان ، والثور ، والكلب ، والحمار ، لا يشعر بالخرج ، ولا يفكر في الأخلاق ، لسبب بسيط جدا : وهو أنهم حيوانات ١١ ثم أين المحضن الآمن لإنجاب الأطفال ، وهل يشعر الأب بالسعادة والأسرة بالطمأنينة ، وهى لا تعرف إن كانت الأولاد من صلبهم أم من ماء حيوانات إنسانية أخرى . ليحرب أب أو أم — هل يرضى ذلك الأب أو تلك الأم أن يستبدل بولدهما الذى من صلبهما ولدا آخر ، مهما كان فيه من الجمال والبهاء ، وهل تقر به عيونهم ، نفس القضية ونفس التعاسة يشعر بها هؤلاء الناس ، ولعل السبب الرئيسى في هذه الحيوانية يرجع إلى الانحراف الروحى والخواء العقائدى ، الذى يملك على هؤلاء الناس أقطارهم » . كانت إحدى المدرسات فى المعهد المركزى لتعليم اللغة الإنجليزية للغرباء بمعهد ويلسن للمعلمين بواشنطن ، تلقى على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية —

(١) النساء — ٥٧ .

(٢) آل عمران — ١٥ .

(٣) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٧٦ ط دار الشروق .

الذين يعدون في هذا المركز لتلقى الدروس بالإنجليزية — درساً في تقاليد المجتمع الأمريكي . وفي نهاية الدرس سألت طالبا من جواتيمالا عن ملاحظاته على المجتمع الأمريكي . فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات في سن الرابعة عشرة ، وفتيات صغيرا في سن الخامسة عشرة ، يزاولون علاقات جنسية كاملة ... وهذا وقت مبكر جدا لمزاولة هذه العلاقات .. وكان ردها في حماسة .

« إن حياتنا على الأرض جد قصيرة . وليس هناك وقت لنضيعه أكثر من الرابعة عشرة ... !! » ^(١).

هذه هي التربية في المعاهد التعليمية ، وهذه هي توجيهات المدرسين والمدرسات . والسبب في ذلك فقدان الروح والعقيدة ، وعدم الوثوق بحياة أخرى ، والاهتمام باللذة كقيمة عليا في المجتمع . يهيم بها ، وهذا الخواء هو الذي أنشأ هذا التدنى ، كما أنشأت في الإنسان صراعا رهيبا بين الفطرة والواقع ، وبين التسامى والتدنى ، فنشأ نوع من الإحباط الفعلي للإنسان السوى ، وفقد التوازن ، وأصيب بالإرهاق والعلل ، وتبعه على هذا الدرب المجتمع الذي يعيش فيه والحضارة التي يفرزها .

إيضاح :

قد يقول قائل : إن المسلمين اليوم في واقعهم المعاش ، وفي تربيتهم المتطورة ، وفي أخلاقهم الملموسة ، قد بلغوا من التدنى مبلغا جعل حديثهم عن فساد غيرهم ضربا من العجب والسخف . فهم يسلكون في تعاملهم سلوكا أبعد ما يكون عن أى تربية ، كما أنهم يمارسون ألوانا من ضيق الأفق ، تدعو إلى النفور والاشمئزاز ، ثم يتبع هذا القائل حديثه قائلا ؛ انظر إلى فلان العابد القانت ، يفعل كذا وكذا ، انظر إلى فلان وفلان لا يتحدثون إلا في الإيمان ، ولا يتكلمون إلا بالمواعظ ، وهم أول المنافقين وأفحش المتنفعين ، إلى غير ذلك من الأمثلة والنماذج . وقد يستشهد مستشهد بجهد

(١) المصدر السابق ص ٧٦ .

العاملين في الغرب ، وإتقانهم للعمل ، وخطبتهم للحياة ، على سلامة هذه التربية وجدواها ، ويعكس ذلك عند المسلمين على فساد تربيتهم وخطئها .

ويحق لنا ونحن نسمع هذا الكلام ، ونصغى إلى هذا الحديث ، أن نسأل محدثنا سؤالا ، هو من حقنا عليه ، وهو : هل هؤلاء المسلمون يؤدرون تعاليم الإسلام ، ويعيشونها حقيقة وفعلا ، أو أنهم خارجون عن هذه التعاليم ، متنبكون لطريقها ؟ وهل هؤلاء نماذج صحيحة للتربية الإسلامية ، أفرزتهم تعاليمها ، وربتهم مناهجها ، أو أنهم صرعى الانحطاط والشهوات والتدني والشرود ؟ .

وهل هناك من تعاليم الإسلام ومن مناهجها ما يشير إلى تلك التربية ، أو يدعو إليها ، أو يميزها ، أو أن تعاليم الإسلام تنكرها ، وتحذر منها ، وتعاقب من يسير عليها . وهل هذه النماذج الحديثة المشار إليها في المسلمين بينها وبين الرعيل الأول الذي فتح الدنيا توافق أو تنافر .

ثم لما كان الصحب الأول والرعيل الأول قمة سامقة ، وهؤلاء سفوحاً هابطة في كل شيء ؟ ألأن هؤلاء نفذوا منهج الإسلام ، وهؤلاء تنكروا له ، وساروا على سنن غيرهم ، ودرب سواهم !! والحقيقة قد يكون المسئول عن ذلك الحضارة الغربية ؛ لأنهم إليها ينتسبون بالتقليد تارة ، وبالنصياح إليها تارة أخرى ، فكانوا مسوخا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . والإسلام على أى حال ليس مسئولا عن هؤلاء ولا أولئك ؛ لأن الإسلام هو ما أنزل الله في كتابه ، وما علمه رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله ، وروى عليه أصحابه رضوان الله عليهم ، حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس ، فعلا ، وعملا ، وقولا ، وليس مجرد انتساب ، أو كلمة تقال باللسان ، وإنما هي كلمة على اللسان ، وعقيدة في الوجدان ، وسلوك مشهود في العيان ، ومنهج حياة كامل يطبع المسلم بطابعه ، ويربيه على مقتضاه . فالمسلمون اليوم ليسو هم الإسلام أو تعاليمه أو حضارته ، بعكس الغربيين فهم حضارتهم وتعاليمهم ومنهجهم .



المبحث الرابع النظام الاجتماعي في الإسلام

ينطلق النظام الاجتماعي في الإسلام من قاعدة صلبة ، تتضمن ما قدمنا من عقيدة راسخة قوية ، وتصور للحياة وغايتها ، ونظام تربوي متكامل ، مستمد من تعاليم ربانية خالدة ، لأن الإسلام — وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعها — لم يعالج نواحيها المختلفة جزافا ، ولم يتناولها أجزاء متفرقة ، وإنما تناولها وتصورها نظاما كليا متكاملا عن الألوهية والكون والحياة والإنسان .

ونظام الإسلام الاجتماعي متوازن ، لا يشبع غريزة على حساب أخرى ، أو يميل إلى الفرد ويتناسى الجماعة ، أو العكس ، فإذا كان من الظلم الاجتماعي الذي يتنافى مع العدالة أن تطغى ملامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فإنه من الظلم أيضا أن تطغى الجماعة على الفرد وتحطمه . فكان لابد من نظام تستقيم به الحياة ، لا يغفل حق الفرد في انطلاق نشاطه في الحدود التي لا تضارها الجماعة ، ولا يضارها هذا الفرد ذاته ، ولا يصطدم بأهداف الحياة العليا . فالحياة تكافل وتعاون في نظر الإسلام ، لا حرب ونزاع وخصام ، كما أنها إطلاق للطاقات الفردية والعامة ، في كل ما هو مباح ، في حدود منهج الله وشرعه سبحانه . وهذا النظام من طبيعته أن ينظر إلى وحدة الروح والجسد في الإنسان ، وإلى وحدة الماديات والمثل في الحياة ، كما ينظر إلى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الإنسانية جمعاء . ووحدة الهدف بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف الأزمان والأماكن .

﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في

صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴿١﴾ .

ونستطيع أن نقرر أسس هذا النظام فيما يأتي :

- ١ — التحرر الوجداني .
 - ٢ — الأخوة — التكافل الاجتماعي .
- وسنلقى بعض الضوء على كل عنصر من العناصر السابقة .

١ — التحرر الوجداني :

لتحقيق العدالة الاجتماعية لابد من وجود قناعة نفسية ووجدانية بتلك العدالة ، وبحاجة الفرد والمجتمع إليها . وهذه القناعة لا تتولد إلا بحرية نفسية ومذاق سليم ، خال من المؤثرات والضغط والإيحاءات المهيجة أو المتلفة لحاسة النضج في الفطرة ، ولهذا كان لابد من قواعد لتحرر وجداني سليم ، لتحقيق تلك العدالة . وهذا ما قرره الإسلام فيما يأتي :

- أ — تحرير الوجدان من عبادة غير الله .
- ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ (٢) .
- ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴾ (٣) .
- ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ (٤) ، ﴿ قل إنما أدعو ربي ، ولا أشرك به ﴾

(١) الحشر — ٩ — ١٠ .

(٢) البينة — ٥ .

(٣) آل عمران — ١٤٤ .

(٤) آل عمران — ١٢٨ .

أحدا . قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴿١﴾

وهذا التحرر الوجداني من عبادة غير الله له نتائج وثمار معينة منها :

١ — التحرر من سلطان البشر ، وتسلسل الجبابرة :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ (٢).

٢ — التحرر من الخوف على الحياة — أو على الرزق :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ (٣) ، ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ﴾ (٤) ، ﴿ لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٥).

أما عن الرزق فقد قال الله تعالى :

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ﴾ (٦) ، ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ (٧) ، ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ (٨).

﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ﴾ (٩)

ب — التحرر من عبودية الأعراف والمصطلحات الفاسدة .

(١) الجن — ٢٠ — ٢٢ .

(٢) آل عمران — ٦٤ .

(٣) آل عمران — ١٤٥ .

(٤) سورة التوبة — ٥١ .

(٥) يونس — ٤٩ .

(٦) العنكبوت — ٦٠ .

(٧) الأنعام — ١٥١ .

(٨) التوبة — ٢٨ .

(٩) الأنعام — ١٤ .

حرر الإسلام الإنسان من عبودية الأعراف الخاطئة ، والقيم الاجتماعية الجائرة ، قيم المال ، والجاه ، والحسب ، والنسب ، قيم الآباء ، ومصطلحات الأجداد ، وموروثاتهم الجاهلية ، حتى لا يستشعر انقيادا وانصياعا لأى مصطلح من هذه المصطلحات : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعدين . قل إن رى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقرىكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ (١)

﴿ أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ (٢) .

﴿ أجعل الآلهة لها واحدا ، إن هذا لشيء عجب ، وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يُراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا . بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ (٣) . كما يظهر ذلك قصة الرجلين فى سورة الكهف ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ (٤) حيث يبرز اعتزاز المسلم بإيمانه ، واستهائته بتلك القيم الفاسدة ، وبعده عنها ، كما يوضح ذلك قصة قارون ، حيث يقول المؤمنون العالمون له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ﴾ (٥) .

(١) سبأ ٣٥ — ٣٧ .

(٢) البقرة — ٢٤٧ .

(٣) ص — ٥ — ٩ .

(٤) الكهف ٣٢ — ٤٤ .

(٥) القصص — ٧٧ .

ح — التحرر من الشهوات والأهواء .

الإسلام ليس دعوة إلى الزهد ، وترك الطيبات ، ولبس المرقع من الثياب ، والبعد عن الزينة والمتاع : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴾^(١) وإنما هو دعوة إلى التحرر ، والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز ، ودعوة إلى شكر النعمة واستعمالها فيما يعود على الإنسان وعلى مجتمعه وعلى الإنسانية بالخير ، ودعوة إلى إصلاح الناس ، ورحمتهم بالنعم ، لا إلى الفساد واستعبادهم بها : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبكم بخير من ذلكم . للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾^(٢).

بهذا يعرض الإسلام مع المتاع الدنيوي متاعا أخرويا أفضل وأدوم ، ليقوى الضعف البشري لحب العاجلة ، والفتنة بها ، والخداع بزهرتها ، وترك الأعمال الصالحة التي عليها قوام الحياة الاجتماعية . فإذا أحب المال وافتنن بجمعه بخل به ، ومنعه عن المحتاج ، وعن نفع الناس ، وإذا انحرف وراء الشهوات قد لا ينظر من حلال هي أم من حرام ، فيهدم قيم المجتمع وأهدافه العليا ومثله السامية .

د — الحرية في الكلمة وفي التعبير عن الحق .

يتمثل هذا في كثير من المواقف التي حكاها القرآن الكريم ، نرى من ذلك حوار فرعون مع المؤمنين ، حيث يريد أن يجهض الإيمان والحق في صدورهم ونفوسهم : ﴿ فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبكنم في جنوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى . قالوا : لن نؤثر على ما جاءنا من البينات

(١) الأعراف — ٣٢ .

(٢) آل عمران — ١٤ — ١٥ .

والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا : إنا آمنة برينا
ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى ﴿١﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين ﴾ (٢) .

« سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله » (٣) .
ومن ذلك باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك باب كبير في الإسلام يرجع
إليه في غير هذا الموضع .

٢ — المساواة الإنسانية :

بعد أن قرر الإسلام التحرر الوجداني ، أسس للمساواة باللفظ والنص
والقانون ، ليكون كل شيء واضحا مقررا منطوقا ، فمنع بذلك خرافة التعالي
الكاذب ، حيث كان بعضهم يدعى أنه من نسل الآلهة ، وبعضهم يروج بأن
الدماء التي تجري في عروقه ليست من نوع دماء العامة ، وإنما هو الدم المملوكى العالى
النبيل ، وقد ولغت في ذلك بعض الملل والنحل ، حيث كان منهم من فرق الشعوب
إلى طبقات ، خلق بعضها من رأس الآلهة ، فهي طبقة مقدسة ، لا يرقى أحد
إليها ، وخلق بعضها من قدميه ، فهي منبوذة ، ومنهم من خص نفسه بالنبوة دون
سائر الناس ، فقال : ﴿ بَحْنُ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ ﴾ (٤) فجاء الإسلام قمة عالية ،
ووثبة مرتفعة ، لم يعرف لها التاريخ شيئا أو نظيرا ، جاء ليقرر وحدة الجنس البشرى
من المنشأ والمصير : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ (٥) ، في الحيا والممات ، في

(١) طه — ٧١ — ٧٣ .

(٢) النساء — ١٣٥ .

(٣) رواه أبو داود في سننه .

(٤) المائدة — ١٨ .

(٥) طه — ٥٥ .

الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، في الدنيا والآخرة ، لاتفاضل: إلا بجهد وعمل صالح ، ولا كرامة إلا بقلوب وقر فيها التقوى .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر معالم المساواة الإسلامية وأسسها فيما يأتي :

أ — المنشأ والمصير..

ب — في الشعور والكرامة .

ج — في القانون : في الحقوق والواجبات .

د — بين الذكر والأنثى .

وعلى هذا تتحقق المساواة وتسود العدالة وينعم الناس بالاستقرار .

ونبين ذلك فيما يأتي :

المساواة في المنشأ والمصير :

هدم الإسلام — كما قدمنا — فكرة النسب المقدس ، والدم الملوکى ، ونسب الناس كلهم إلى أصل واحد ، فتبرأ بذلك من العصبية القبلية والعنصرية ، كما رد عصبية النسب والأسرة ، فقال سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا .

(١) طه — ٥٥ .

(٢) المؤمنون — ١٢ — ١٥ .

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١﴾ .

وقد أعلن الرسول تلك المساواة الجامعة على رؤوس الأشهاد في خطبة الوداع ، حيث قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَصَبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخَرَهَا بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ . النَّاسُ لَأَدَمٌ وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ، لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِي ، وَلَا لَأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى » ﴿٢﴾ .

وقد أصبح المجتمع الإسلامي يتعامل بتلك الصفات ، ويطبقها ، وينسى تلك العصبية البغيضة ، فحين باع حكيم بن حزام داره ، وخاطبه في ذلك بعض الناس ، يثيرون في نفسه نحوه الأجداد الموروثة والشرف المستمد من العشيرة والنسب ، فاجأهم الرجل بقول جديد في المجتمع العربي ، يعكس اتجاهاته ، ويصور قيمه الإسلامية تجاه مبدأ المساواة ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، لَقَدْ أَصْبَحَ الشَّرَفُ الْيَوْمَ بِالتَّقْوَى ! » ﴿٣﴾ .

المساواة في الشعور والكرامة :

يشعر الإسلام الإنسان بأن له حرمة مصونة ، رفعه الله إليها بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٤﴾ .

فالكل متساو في تلك الحرمة ، لا يقل فيها أحد عن أحد ، فهم فيها سواء ، ويتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس : الوجدانية ، والاجتماعية ، والنفسية ،

(١) مريم — ٨٨ — ٩٥ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) المجتمع الإسلامي د : مصطفى عبد الواحد ص ٨٤ ط الأمل — الكويت .

(٤) الإسراء — ٧٠ .

ليؤكد فيها معنى المساواة والكرامة ؛ لأنه يريد حياة إنسانية كاملة ، لا عقد ولا أمراض للنفس ولا نجاسة فيها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

المساواة في القانون والحقوق :

مادام الناس من أب واحد وأم واحدة ، وخالقهم ورازقهم واحد ، وكرامة كل موفورة ؛ فلا بد أن يكون قانونهم واحد ، يستظل بظله القوى والضعيف ، والفقير والغنى ، والحسيب وغيره . ولهذا نرى الإسلام يفرض ذلك ويوضحه ويحض عليه .

نرى الرسول ﷺ تعرض أمامه قضية سرقة درع يتهم فيها يهودى ، وهو برىء ، والسارق أحد المسلمين ، فينزل القرآن ، يفصل في القضية : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ؛ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴾ (٢) . وظهرت براءة اليهودى ، وأدين المسلم ، : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ ، بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . وأرسى الإسلام حقائق العدل المجردة . لا تخضع لجنس ولا اللون ولا الدين ، لأنها من رب العالمين . وقد اقتض الرسول ﷺ من نفسه في غزوة بدر ، فقد وجد سوادا خارجا عن الصف . فقال له : « استو ياسواد » ،

(١) الحجرات — ١١ .

(٢) النساء — ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) المائدة — ٨ .

وطعنه في بطنه ، فقال له سواد : « أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ » ، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه ، وقال له : « إِسْتَقِدْ مِنِّي » ١١ . هكذا بلا حقوق مقدسة ، وبلا حصانة ، وبلا هيبة مصنوعة ، فالكل في مجال الحق سواء . وقد نادى الرسول ﷺ في الناس قبل وفاته ، قائلا : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرها فهذا ظهري ... ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي ١١ » .

وهو القائل لأسماء لما جاءه شفيعا في حدّ : « أتشفع في حد من حدود الله يأسماء : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١) .

ونرى أبا بكر يقول في خطبته : « الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

المساواة بين الذكر والأنثى :

كفل الإسلام للمرأة مساواة تامة مع الرجل ، من حيث الجنس والحقوق الإنسانية ، ولم يقر الإسلام التفاضل إلا في بعض المسائل المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة ، وكل ذلك لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين ، أو على التأثير الوجداني والقيمي في الحياة . ونوضح ذلك فيما يأتي :

التساوى في الناحية الدينية :

ساوى الإسلام بين الجنسين في الأعمال والجزاء عند الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٢) ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ

(١) البخاري كتاب الحدود ٨ / ١٥ عني ١١ / ١٣٦ عسقلاني ١٢ / ٨٣ .

(٢) النساء — ١٢٤ .

مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ ،
﴿٢﴾ أَتَى لَا أَضِيْعُ عَمَلٍ غَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿٣﴾ .

التساوى فى الأهلية :

للذكر والأنثى حق الملك والتصرف. الاقتصادى ، حيث يتساوى كل مع الآخر ، ولكل منهم ذمة مالية تتملك المرأة بموجبها كل شيء ، وليس هناك دخل للرجل فى ماله : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ (٣) ... ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ (٤) وأما زيادة الرجل فى الميراث عن المرأة فيقابلها النفقة على المرأة ، وعلى المنزل ، والأولاد ، والاضطلاع بأعباء الحياة .

وأما أن الرجال لهم القوامة ، فذلك للاستعداد والدربة والمرانة ، فالرجل بقوته العضلية ، وقيامه بالأعمال ، والدربة فيها ، وإنفاقه ، وضربه فى الأرض ، أكثر خبرة فى هذه الأمور ، ولذلك يتولى تبعثها فى حدود الفضيلة والمعروف ، وأما تفضيل الرجل فى الشهادة على المرأة ، فأمور تتعلق بمعرفة الرجل ، وطبيعة عمله ودريته ، وأمور تتعلق بالمرأة ، وهو عاطفتها ، وشغلها ، وعدم اطلاعها على كثير من الأمور ، وتحققها من ذلك . على أن هناك أموراً تختص المرأة فيها بالشهادة دون الرجل ، فيما تكون فيه أكثر اطلاعا ومعرفة مثل الشهادة فى أمور النساء ، ولا يطلع عليه الرجال . فهذه الأمور كما يقولون أمور ميدانية ، ليس لها علاقة بالتفضيل أو النقص ، إنما لها علاقة بإظهار الحق وإقامة الحقوق بين الناس ، والوصول إلى الدليل والصواب ، وقد يُفَضَّلُ شهادة أهل الحرف فيما يطلعون عليه ، ولا يعد هذا نقصا عند الآخرين . وقد يؤخذ بشهادة أهل الخبرة ، وترد شهادة من عداهم ، وهذا كله سبيله الوصول

(١) النحل — ٩٧ .

(٢) آل عمران — ١٩٥ .

(٣) النساء — ٧ .

(٤) النساء — ٣٤ .

إلى خير الإنسان نفسه ، ومصلحته ، وحفظه ، وسعادته ذكرا كان أو أنثى .

وحسب المساواة أنها مساواة في الكرامة ، والكسب ، والمال ، والدين ، والرأى ، فلا تنكح المرأة مثلا إلا برضاها دون إكراه أو إجبار — : « لا تنكح الثيب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن ، وإذنها الصموت »^(١) ، وفي مهرها : ﴿ فَأَتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾^(٢) ، وفي العشرة : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٣) . وقد عصم الإسلام المرأة من الابتذال ، وصانها من الهوان ، وفرض لها من النفقة والرعاية ، ماكفل لها الكرامة والعزة ، وما خرجت المرأة في الغرب للعمل إلا بعد أن نكل الرجل عن كفالتها وإعالتها ، إلا أن يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها !! عندئذ اضطرت المرأة أن تعمل .

ولقد ظلت أوروبا وبخاصة فرنسا إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة ، لا تمنح المرأة حق التصرف في مالها — كما يعطيها ذلك الإسلام — إلا بإذن وليها ، على حين منحتها حق الدعارة علانية أو سرية وهذا الحق الأخير هو الذى منعه الإسلام عن المرأة ؛ صيانة لها ، وعفة وحفظا للقيم العليا في المجتمع !!!

٣ — التكافل الاجتماعى :

كما قدمنا ، يقرر الإسلام الحرية الفردية فى أعلى درجاتها ، والمساواة الإنسانية فى أجل معانيها ، ولكنه مع ذلك لا يترك الأمر فوضى ، تحتلط فيه الأمور وتتضارب ، فلا إنسانية حقوقها ، وللمجتمع اعتباره ، وللأهداف العليا مكانتها ، فلا يعتدى كل على الآخر ، ولا يتضارب ، وإنما يتعاون ويتآزر ، ولهذا فهو يقرر مبدأ المسؤولية الفردية فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر إلى جانب ذلك التبعية الجماعية التى تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها . وهذا ما يسمى بالتكافل الاجتماعى .

ويشمل التكافل الاجتماعى الإسلامى الأمور الآتية :

(١) البخارى ٨ / ٥٩ ، عنى ١١ / ٢٢٧١ عسقلانى ١٢ / ٣٠٠ ، ١٠ / ١٣٢ .

(٢) النساء — ٢٤ .

(٣) النساء — ١٩ .

- أ — التكافل بين الفرد وذاته .
 ب — التكافل بين الفرد والأسرة .
 ج — التكافل بين الفرد والجماعة .
 د — التكافل بين الأمة والأمة .
 هـ — التكافل بين الجيل والأجيال المتعاقبة .

وهذا ما يجعل الإنسانية في رباط وأخوة ، على اختلاف أفرادها ، وتعدد أماكنها ، وتباين أزمانها .

التكافل مع النفس :

فأما تكافل الفرد مع ذاته ؛ فهو مكلف أن يرضى نفسه ، وأن يختار لها الخير ، ويتركها ، ويطهرها ، وأن يبتعد بها عن مواطن الهلكة . ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(١) ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٢) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ نَجَّى مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٣) وبذلك يقف الإنسان مع نفسه موقف المحاسب الرقيب الراعى ، يمنحها ويحاسبها ، ويعطيها ويأخذ منها . وهكذا يقيم الإسلام في كل فرد شخصين ، يتحاسبان ويتراجعان ويتكافلان .

التكافل مع الأسرة :

وقيمة التكافل مع الأسرة أنه المادة التي تمسكها ، والسيج الذي يحميها ، والقوة التي تدفعها لتؤدي عملها في الحياة .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرُهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾^(٤) ، ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ

(١) البقرة — ١٩٥ .

(٢) الأعراف — ٣١ .

(٣) الشمس — ٧ — ١٠ .

(٤) الإسراء — ٢٣ — ٢٤ .

أولى بَبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿١﴾، ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿٢﴾، كَمَا أَنَّ مِنْ مَظَاهِرِ التَّكَافُلِ الْعَائِلِي فِي الْإِسْلَامِ التَّوَارِثُ لِلثَّرْوَةِ بَيْنَ الْأُسْرَةِ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿٣﴾ ... الخ .

التكافل بين الفرد والجماعة :

يوجب لكل منهما حقوقا ، ويفرض عليهما تبعات ، حتى تنصهر الجماعة في الفرد ، وينصهر الفرد في الجماعة ، وتوحد المصلحة بين الرغبتين . فكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة ، كأنه حارس لها ، موكل بها ، وكذلك الجماعة بالنسبة للفرد . وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا لهذه المسؤولية ، فَقَالَ : « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرَقًا ، وَلَمْ نَتُذَّ مِنْ فَوْقِنَا !! فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا » ﴿٤﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، قَوْلٌ لِلْمَصْلِيْنَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٥﴾ ، ﴿وَاثْقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ﴿٦﴾ فالأمة لابد أن تتحمل تبعاتها ، وتقف عند مسؤولياتها ، وإلا كانت كلها مشاركة الهلاك والبغى والظلم : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ ، بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ ،

(١) الأحزاب — ٦ .

(٢) البقرة — ٢٣٣ .

(٣) النساء — ١٧٦ .

(٤) البخارى ١٠٢ / ٣ عني ١٧٩ / ٦ ، عسقلاني ٩٤ / ٥ ، ٣٤٧ / ٤ .

(٥) الماعون .

(٦) الأنفال — ٢٥ .

(٧) المائدة — ٧٨ — ٧٩ .

﴿ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(١).

واجب الجماعة المؤمنة التناصح ، والتكاتف ، والطهر ، والتعاهد عليه ، ورعايته ، ونشره بين الناس ، هذه من مهامهم ، وهذا من رسالتهم في الحياة ، شعور واحد ومصلحة واحدة . كما أنها مكلفة برعاية المحتاج ، وإعطاء المحروم ، وكفالة اليتيم ، لأنهم أعضاء في جسدها الكبير ، ولبنات في صرحها الشاهق ، ولهذا فرض الإسلام الزكاة ، وحض على الصدقات ، ورعاية الضعفاء والأرامل والمساكين ، وفي الحديث : « أَيُّمَا أَهْلٍ عَرِصَةٌ أَصْبَحَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى » ^(٢).

التكامل بين الأمة والأجيال المتعاقبة :

تبنى الأمم الناهضة للأجيال اللاحقة ، كما يدخر الرجل لكبره ، وكما يؤسس الوالد لولده ، فالأعمال مردودة عليهم ، وإن تناسى الإنسان فعلها ، أو جهل عملها ، تثمر ثمرتها ، حلوة كانت أو مرة ، وتعود بالنفع على الأجيال ، أو بالخسران والبوار عليهم ، ولهذا كان الإنسان مسئولاً عن عمله في زمنه ، وعن رجوع صداه بعد زواله من الوجود : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَاعْلَيْهِ وَزُرُّهَا وَزُرُّ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٤) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٥) ، ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٦).

(١) التوبة — ٥١ .

(٢) مسند الإمام أحمد تحقيق شاکر رقم — ٤٨٨٠ .

(٣) مسلم ٣٠٦ / ٢ ، نووى ١٠ / ١٤٦ ، أحمد ٤ / ٣٥٧ .

(٤) الطور — ٢١ .

(٥) آل عمران — ٣٣ — ٣٤ .

(٦) النساء — ٩ .

وسائل العدالة الاجتماعية في الإسلام :

للعدالة الاجتماعية في الإسلام وسائل تتعلق بتنظيم تلك العدالة ، ورعايتها ، والقيام عليها . من هذه الوسائل : سياسة الحكم الذي يحفظ تلك العدالة المبينة في قوانين معينة ، لأن فكرة العدالة الإسلامية لم تكن نظريات مجردة ، بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة ومعاشتها ، وقد حفظ الواقع التاريخي لتلك العدالة مكانتها ، وفرض الإسلام فروضا لهذا الحكم يسير عليه ، كما فرض على الناس الطاعة لهذا النظام : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(١).

كما أن سياسة المال في الإسلام أدخل شيء في وسائل العدالة الاجتماعية . لقد جعل الإسلام حق المال هو الزكاة ، وهو ما يقاتل عليه الإمام الناس إن منعه ، وجعل الإسلام للإمام أن يأخذ بعد الزكاة ما يمنع به الضرر ويصون به المصلحة لجماعة المسلمين والملكية الفردية حق للفرد مادامت بالوسائل المشروعة ، ومادام يؤدي حق الله فيها ، وحق المحتاج : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾^(٢) والزكاة حق الجماعة في عنق الفرد ؛ لتكفل للمحتاج ما يقيم أوده : ﴿ كَيْلًا يَكُونُ ذُؤْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾^(٣) ، والجماعة — كما قلنا قبل ذلك — جسم واحد ، بعقيدة واحدة ، وأخوة واحدة ، فلا بد أن تتواسى في السراء والضراء : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(٤) كما أن للزكاة مصارف عاجلت جوانب كثيرة في المجتمع ، وكانت وقاية من المهانة والمسكنة ، وضمانا وظهيرا للعاجز ، وقاعدة للمجتمع المتكافل المتضامن ، الذي لا يحتاج إلى ضمانات الإقراض الربوي في أي جانب من جوانبه ، ويحسن أن نلقى الضوء سريعا على وسائل الحكم والمال والآداب .

(١) النساء — ٥٩ .

(٢) الماعز — ٢٤ — ٢٥ .

(٣) الحشر — ٧ .

(٤) متفق عليه البخاري ٨ / ١ عيني ١٩٤ / ١ بسقلائي ٥٤ / ١ مسلم ٢٨ / ١ ، نوري ٣٨٨ / ١ .

أ — الحكم :

حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة ، ويرتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة ، أو عدالة تشريعية محصورة ، وإنما زوج بين هذه العدالات وبين قوة الإيمان ، وسلطان الضمير ، وروعة التعاليم ، وأشواق الترفيع ، فبعض الناس يردعها الإيمان ويربها ، وبعضها لا يردعها إلا القانون ويثبتها ، كما يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن » ، وما أصدق قول القائل :

بعض الأنعام إذا رأى نور الهدى عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينثنى عن غيه حتى يخاف ويفزعاً !!

وسياسة الحكم في الإسلام نظام قائم بذاته ، المشرع فيه والمقرر هو الله سبحانه وتعالى : —

ولهذا ، فإن قاعدة النظام الإسلامى تختلف عن كل نظام فى الأرض يعطى حاكميته للإنسان ، فليس الإسلام امبراطوريا ، ولا ديمقراطيا ، ولا شيوعيا أو اشتراكيا ، لأن للإسلام تصوره الخاص الذى يستمد من عقيدته ومنهجه ، من هذه التصورات .

١ — تصور للألوهية وللعدل الإلهى فى الكون والحياة ، والإسلام مع هذا لا يكره أحدا على اعتناقه ، أو يبيح ظلمه لعقيدته : « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » ، ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾^(١).

٢ — تشريع للأجناس كلها ، لافرق بين جنس وجنس ، وقطر وقطر ، ﴿ وأن احكمهم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾^(٢) عدل للناس كلهم ، قريبهم وبعيدهم ، فى القول والعمل : ﴿ وإذا قُلتُمْ فَأَعِدُّوا ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾^(٣) ،

(٣) الأنعام — ١٥٢ .

(١) البقرة / ٢٥٦ .

(٢) المائدة — ٤٩ .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ ^(١) ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ^(٢).

٣ — نظام للشورى بين الحاكم والمحكوم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٤).

٤ — إطار لسلطات الحاكم ومسئوليته وتصرفاته ، يتمثل هذا في قول الرسول ﷺ لعشيرته الأقرين : « يامعشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنها من الله شيئا . وياصفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » ^(٥) ، وقوله ﷺ « لا يحل لى من غنائمكم هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » ^(٦).

٥ — جهاز لضمان الأمن والسلامة وحراسة القيم ، بإقامة شرع الله وتنفيذ الحدود ، ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ^(٧) ، ﴿ وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُهَنْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ ، فاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٨).

٦ — قاعدة للتحرى والتثبت ، وعدم الأخذ بالظنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(٩) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) المائدة — ٨ .

(٢) النساء — ٥٨ .

(٣) آل عمران — ١٥٩ .

(٤) الشورى — ٣٨ .

(٥) البخارى — ٣ / ١٧٥ عيني ٦ / ٤٩٣ ، مسلم ١ / ٧٦ نوى ٢ / ٢١٦ .

(٦) أبو داود وجهاد — ٢ .

(٧) المائدة — ٤٥ .

(٨) النور — ٤ .

(٩) الحجرات — ١٢ .

آمنوا ، إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ؛ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١﴾ .

ب — المال :

ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ويحرم منه الفقراء والعاجزون والمحرومون :

﴿ كُنِيَ لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

ولهذا جاءت قاعدة الزكاة :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ (٣) ، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٤) ، ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٥)

ثم كانت قاعدة الصدقات :

ثم كانت قاعدة الصدقات والحض عليها ، والترغيب فيها ، لتدفع طواعية إذا لم يكن هناك ضرورة ، أما إذا كان هناك ضرورة فإنها تتعين عند المجاعات والقحط الشديد . قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر . فقلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا — عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه — وقليل ما هم ، ثم قال : « يا أبا ذر . « فقلت : نعم يا رسول الله — بأبي أنت وأمي — . قال : « ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله أموت وأترك منه قيراطين ، قلت : أو قنطارين يا رسول الله قال : بل قيراطين ، ثم قال : « يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » (٦) .

(١) الحجرات — ٦ .

(٢) الحشر — ٧ .

(٣) التوبة — ٦٠ .

(٤) التوبة — ١٠٣ .

(٥) التوبة — ٣٤ .

(٦) البخاري ٧ / ١٢٨ ، عيني ١٠ / ٤٩٧ ، مسلم ١ / ٢٧٢ زكاة .

تحريم الربا :

الجهد للعمل ، أما القاعدون الكسالى من المرايين ومن على شاكلتهم فإنهم يمنعون من أكل دماء الناس وعرقهم بغير حق : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ ^(١) ، ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ، وَيُزَيِّدُ الصَّدَقَاتِ ﴾ ^(٢) .

تحريم الاحتكار :

لأن الاحتكار وسيلة لإذلال الناس ، والتحكم في رقابهم ، واستغلال المحتاجين والفقراء والكادحين .

تحريم السرف :

الإسلام لا يحب الشظف والحرمان ، وإنما يدعو إلى الاستمتاع بالطيبات ، ويستنكر تحريمها والصد عنها ، ولكنه مع هذا يحرم التبذير والإسراف والترف ، فيقول : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ^(٣) ، ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ، فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ^(٥) .

ويلحق بهذه التعاليم منظومة مالية منها :

١ — اعتبار المال الصالح قوام الحياة ، « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ^(٦) .

(١) البقرة — ٢٧٥ .

(٢) البقرة — ٢٧٦ .

(٣) الأعراف — ٣١ — ٣٢ .

(٤) الإسراء — ٢٧ .

(٥) الإسراء — ١٦ .

(٦) أحمد ٤ / ١٩٧ ، ٢٠٢ .

٢ — العمل لكل قادر : ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا ، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) ، ويقول ﷺ : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ^(٢) .

٣ — الكشف عن منابع الثروات : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ^(٣) .

٤ — تحريم الكسب الخبيث ، وتحريم موارده ، مثل القمار والسرقة ، والغش ، وثمن الخمر ، والمخدرات ، وكل المحرمات ، والخبائث .

٥ — حرمة المال ، واحترام الملكيات : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

٦ — عدم استعمال المال والذهب والفضة فيما يلهي ويتلف ، مثل استخدام الذهب والفضة في الأواني والأدوات الخاصة ، وتعطيل ثروة الأمة ، كما يحرم استعماله للرجال .

ج — حفظ الأدب والقيم :

١ — محاربة ما يتلف العقل والروح والجسد ، مثل الخمر والمخدرات .

٢ — منع الرذيلة ، والقضاء على الفتنة ، وصيانة الأعراض والحرمات .

٣ — مقاومة العادات الضارة اقتصاديا وخلقيا ، والخروج على الآداب الإسلامية .

٤ — تيسير العبادات ، ومعاقبة المقصرين فيها .

٥ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) التوبة — ١٠٥ .

(٢) البخارى ٣ / ٨ عني ٥ / ٤٢٠ عسقلاني ٤ / ٢٥٩ .

(٣) لقمان — ٢٠ .

٦ — المحافظة على حقوق الجار ، ومراعاة شعور الآخرين ، والتخلق بأخلاق الإسلام .

٧ — الحرص على سلامة البدن ، وإعداد المسلم إعدادا روحيا وجسديا .

٨ — التضامن الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم بالرعاية والطاعة معا .

٩ — إيجاد القدوة الحسنة ، واحترام أهل الفضل ، وعدم توقيير السفهاء .

١٠ — جعل التفاضل بالعمل والسلوك الحسن والتقوى .

كل هذه وغيرها من الآداب والقيم ، المسلم مطالب بها ، ومطالب كذلك بتحقيقها ، والمحافظة عليها ، كما فصلها النظام القرآنى ، وقد ورد ذكرها جميعا فى القرآن ، وبينتها بيانا شافيا أعمال النبي ﷺ وأصحابه والذين اتبعوهم بإحسان فى بساطة ووضوح . وقد بلغ المجتمع المسلم بهذه التعاليم منزلة رفيعة من الحضارة الإنسانية ، التى عاش الناس فى ظلها قرونا عدة ، واقتبست الدنيا من رحيقها ، بما رقق حاشيتها ، وهذب أخلاقها ، وحسن طباعها ، وأخذوا من هذه التعاليم ، وصاغوا حقوقا للإنسان ، وحقوقا للأسرة والمجتمع ، وغير ذلك مما نسبوه لأنفسهم ، وتناسوا فيه فضل الإسلام والمسلمين .

النظام الاجتماعى فى الحضارة الغربية :

تحسب قوة الأمم وأعمارها ، وهبوطها ، وصعودها ، بموازنها الاجتماعية ، وتقدر حالتها الاجتماعية بعقائدها ، وخصائصها الإنسانية ، وأخلاقها الشخصية والقومية ، فكلم من أمة سادت وعلت وارتفعت ، ثم هوت ، وذهبت ، وبادت بانحلال عقدها الاجتماعى والأخلاق والروحي ، وإننا لرى اليوم على كل بقعة من بقاع الأرض آثار الأمم التى سبقتنا ، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضارتها ، وتمذنها ، وصناعاتها ، وحذقها ، وكال فنونها ، وبراعة يدها ، مايدل على أنها لم تكن ذاهلة العقل ، أو بليدة الفكر ، ولكنها ضلت طريق الصواب ، فشرد العقل ، وضل الفكر ، وتفسخت الأمة ، وانحل المجتمع ، وقد صور القرآن كثيرا من هذه المواقف وبين خطرهما ، فقال : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا

مُجْرِمِينَ ﴿١﴾ ، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ ﴿٢﴾. وخط الحياة الاجتماعية في الحضارة الغربية اليوم يمضى في نفس الطريق ، يمضى في تدمير خصائص الإنسان ، وتحويله إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى .

وإذا كان الخط الخطر لم يصل إلى نهايته بعد ، وإذا كانت نتائج هذا الدور التاريخي لم تظهر آثارها ظهوراً كاملاً اليوم ، فإن الذى ظهر منها حتى اليوم أقوى من دليل على تلك النهاية المرقوبة ، وقد ظهرت هذه الأدلة في أمور منها .

١ — عدم احترام خصائص الإنسان .

٢ — نمو الخصائص الآلية والحيوانية .

٣ — الخواء الروحي والنفسي .

٤ — تمزق الرباط الأسرى .

٥ — قياس التقدم الإنساني بالمقاييس المادية .

وقد سبب هذا التحول ، وقاد إلى هذا الطريق ، جهل مطبق بالإنسان ، على الرغم من سعة علم القائمين بالحضارة نسبياً بالمادة ، وصدق الله : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، ومن ثم فقد تسبب هذا الجهل في قصور أدى إلى تخبط في التشريع لهذا الإنسان ، وقد ساعد على هذه الحيرة تلك المفاصلة بين النهضة الحديثة ، وبين الأديان المحرفة ، التى أدت إلى قطيعة وحرب ، أغلق البحث والتطلع إلى قانون ربانى صحيح ، يضع المنهج الملائم لصالح الإنسان ، وهوايته ، وتنمية خصائصه ، وترقيتها ، حتى تتكافأ مع الدور المقسوم لهذا الكائن على وجه الأرض في عمارتها واستغلال كنوزها وطاقتها لصالح الإنسان وسعادته والارتقاء به روحياً ومادياً . وإذا أردنا أن نلقى ضوءاً على هذا النظام الاجتماعى ؛ فإنه يجدر بنا أن نتكلم عن

(١) هود — ١١٦ .

(٢) الكهف / ٥٩ .

عناصر ثلاثة .

الأول : التحرر الوجداني

الثاني : المساواة الإنسانية

الثالث : التكافل الاجتماعي

وهذه العناصر تمثل أسس كل نظام اجتماعي من حيث الجوهر والمضمون .
وسنعرض لكل منها على حدة .

التحرر الوجداني :

عرفنا — قبل — أن العدالة الاجتماعية لأي أمة من الأمم إذ نبعت من داخلها ،
وتجاوبت مع أعماقها ، كانت عدالة كاملة ، يضمن لها البقاء ، ويحق لها الاستمرار ،
حيث تكون كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وبعبكس ذلك : إذا تنافرت
تلك العدالة مع طبيعة النفس الإنسانية ، أو تصادمت معها ، أو كانت في واد
وتلك في واد آخر ، وذلك لأن العدالة في الحالة الأولى كانت انطلاقا للوجدان ،
وتعبيرا عنه ، وامتدادا لتطلعاته ، أما في الحالة الثانية فإنها كانت كبتا له ، وحيسا
لتطلعاته ، وقهرا لأمانيه ورغباته .

تذهب المسيحية الكنسية أو المأخوذة من المجامع المقدسة ، وكذلك البوذية ، إلى
التحرر الوجداني ، ولكنها تطلبه في ترك لذائذ الحياة وشهوتها ، واحتقار الحياة
الدنيا ، والتوجه إلى ملكوت الرب في السماء ، وهذا يخالف الطبيعة البشرية ، حيث
أن دوافع الحياة لا تقهر أو تقتل ، وإنما تنظم وتعديل وتوجه إلى الخير للإنسان ، فالله
سبحانه وتعالى لم يخلق تلك الدوافع عبثا ، ولم يخلقها ليعطلها ويستقذرها ، فهذه
النظرة أخذت جانبا ، وتركت آخر ، وضحت بجانب لحساب جانب آخر .

وتذهب الشيوعية : إلى التحرر الاقتصادي ، وتظنه وحده الكفيل بذلك
التحرر الوجداني ، ونظريتها في ذلك ، أن الضغط الاقتصادي على الفرد هو الذي يجعله
يطأطئ رأسه للقوانين الجائرة التي تحرمه من العدالة والمساواة . وهذا يكون صوابا إذا
صاحبه تحرر للضمير والوجدان الداخلي للإنسان ، ولبي جانب الروح والنفس .

وذهبت المدنية الحديثة — كذلك — إلى أن التحرر الوجداني يكون في انطلاق الغرائز ، وإشباع الجسد ، والتحرر من القيم والأهداف العليا ، ففرق الناس في حمأة الجنس بتأثير هذا التحرر الكاذب ، ثم نسوا بذلك أنهم ينحرفون عن الأخلاق ، ويصبحون عبيدا للشهوة الحرام ، فراحوا يقولون : إن الجنس عملية « بيولوجية » بحتة ، لا علاقة لها بالأخلاق ، ثم سحبوا ذلك على كل شيء ، على السياسة ، وعلى التجارة ، وفي العلاقات الإنسانية ، حتى تجرد كل شيء عن الأخلاق ، وعن الصفات الإنسانية ، وأصبحوا بذلك مجردين من كل قيمة ، عبيدا لكل شيء إلا الله .

وبعد ، فإن التحرر الوجداني الحق لا يوجد إلا في الإسلام والحضارة الإسلامية ، حيث تنطلق من فطرة الإنسان نظمه وتعالیه ، لأنها من عند خالق الفطرة ، وصدق الله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ^(١) ، كما أن الإسلام يحرر الوجدان من كل شيء إلا من عبادة الله سبحانه وتعالى ، وصدق الله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ ^(٢) .

المساواة الإنسانية :

برىء الإسلام من العصبية بشتى أنواعها ، قبلية كانت أو عنصرية ، إلى جانب عصبية النسب والأسرة ، فبلغ الإسلام بذلك مستوى لم تصل إليه أية حضارة ، ولم تقترب منه الحضارة الغربية إلى يومنا هذا ، فهي لا تعترف بالمساواة ، ولا تعترف في كثير من الأحيان بحق الآخرين في الحياة ، فمثلا تبيح تلك الحضارة للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء تاما ، تحت سمع الدنيا وبصرها ، ولا تعترف لهم حتى بالحياة ، وما هذا إلا لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض ، الذي يستحق البقاء والرفاه ، كما تبيح تلك التفرقة المقززة بين الأبيض والأسود . والعالم اليوم

(١) الروم — ٣٠ .

(٢) آل عمران — ٦٤ .

يعيش تلك القضايا ، ويرى كيف تبيح الحضارة لحكومة جنوب أفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين ، وهى الدخيلة عليهم ، المالكة لأرضهم وثرواتهم ، كما تبيح للحكومة روسيا والحبشة والفلبين وإسرائيل وغيرها إفناء المسلمين بالجملة ، وملاحقتهم فى كل مكان ، ولا غرابة فى ذلك أو عجب ، وعلماء الحضارة الغربية أنفسهم يقسمون الشعوب تقسيما حضاريا معيناً ، ويدعى أغلبهم أن الجنس النورماندى والآرى هو الجنس الحضارى العبرى ، الذى تنبثق منه كل الحضارات ، وقد قدمنا طرفاً من ذلك من قبل .

وحقيقة العالم اليوم بعد غياب الحضارة الإسلامية عن الواقع المعاش ، ينقسم قسمين : بعضهم يصرح بتلك التفرقة ، وبعضهم يورى ويخدع وهو أصيل فيها ، أما الذى يصرح ولا يتورع من الإظهار ، فهى الحضارة الغربية سلوكاً وفعلاً وعملاً . حيث تستعبد الشعوب ، ولا ترى لهم حقاً إلا بقدر ما يعود عليها ، ويخدم مصالح جلدتها ، ويسمح به تسلطها .

وأما من لهم ظاهر وباطن فى تلك التفرقة ، فهم اليهود والشيوعية ، فأما ظاهر اليهود فإن التلمود يحكى عن ذلك ، فيقول : « إن الأميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليتركهم شعب الله المختار » ويقول التلمود : (إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التى أنت صائر إليها لترثها ، وأسلمهم الرب إلهك ، وضربتهم فأبسلهم إبسالاً ، لا تقطع معهم عهداً ، ولا تأخذك بهم رافة ، ولا تصاهرهم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك)^(١) وقد قدمنا طرفاً من ذلك ، وأما نشاطهم الخفى فهو يتمثل فى أفكار ودعاوى ، تطلق هنا وهناك ، تجمع الناس حول هدف براق وفكر مبهرج ، لتسخرهم فى خدمة تلك العنصرية ، وفى تنفيذ مخططاتها ، وذلك مثل الماسونية^(٢) التى تدعى أنها تدعو إلى الإنسانية ، ومحبة البشر كلهم بلا تمييز ، بل تدعى أنها عقيدة الأنبياء والمرسلين والقديسين والفلاسفة والصالحين ، فيقول محمد رشاد فياض — رئيس محفل الشرق العالى ، الملقب عندهم بالقطب الأعظم —

(١) الإصحاح ٧ — ٢٠ من سفر التثنية —

(٢) انظر أسرار الماسونية لجواد رفعت ص ٢٨ .

« كانت الماسونية عقيدة الأنبياء ، والقديسين ، والفلاسفة ، والصالحين ، في جميع العهود »^(١) ثم يقول في موضع آخر من كتابه « النور الأعظم » : « الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والحمدية يجتمعون في ميم الماسونية ، لأن الماسونية عقيدة العقائد ، وفلسفة الفلسفات ، إنها تجمع وتوحد المتفرقات والمتشتتات ، وإن باء البوذية والبرهمية يجتمعان في باء البناء ، بناء هيكل المجتمع الإنساني الصالح ، المنزه من العمالة العنصرية والعملاء . إن ورثته الآباء الصالحون للأبناء هو مبادئ الحرية والمساواة والإحياء ، ونحن نزيد عليها المحبة والعدالة والعطاء »^(٢)

وهذا واضح ، أنهم يحبون أن يضعوا طعماً للجماهير ، ليقودوهم إلى أغراضهم ، وليلكوا رقابهم بهذه الشعارات المبهجة ، وأما عن الشيوعية ، فإن نعمة المساواة شعار من شعاراتها ، ولكن حقيقة الأمر غير ذلك ، حيث العبودية للمادة والآلة والطبقة والحزب ، وستعرض لشيء من ذلك بعد .

ولقد نتج عن عدم المساواة ، والاعتداد بالجنس ، وبناء الغايات على التعالي والعصبية ، كثير من الحروب والانحرافات . سمع الناس شعارات النازية والفاشية والإنجليزية ، فقال الألمان : ألمانيا فوق الجميع ، وقالت إيطاليا : إيطاليا فوق الجميع ، وقال الإنجليز : سودى يابريطانيا واحكمى ، وقال الإسلام : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٣) وتسابقت كذلك الأديان المحرفة ، ودخلت ميدان العنصرية ، فقالت اليهود والنصارى : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » ، وقال الإسلام : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيٌّ أَهْلِ الْكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(٤) .

(١) النور الأعظم ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٣) الحجرات — ١٣ .

(٤) النساء — ١٢٣ .

التكافل الاجتماعى :

كما وقع التخبط والتطرف والهزات العنفيه فى الحضارة الغربية بين الإنسان وفطرته واستعداداته ، وقع فى النظر إلى المرأة وعلاقة الجنسين ، ووقع كذلك فى النظم الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعى ، والتكافل الاجتماعى فى حقيقته عطاء من الفرد لأخيه ، ومن الفرد لأسرته ومجتمعه ، ومن المجتمع للفرد ، عطاء يبذل فى ظاهره إشاراً ومنحةً وتبرعاً ، عن طيب نفس ، وسلامة طوية ، وفى باطنه سعادة للجميع ، وطمأنينة وهناء . ولكن الحسنيين لا ينظرون إليه إلا بمقياس العاجلة المنظورة ، والأثرة المنهومة ، كل شئ عندهم بئس ، اللفتة بئس ، والضحكة بأجر ، والكلمة بعطاء ، تماماً كما عبر القرآن : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾^(١)

وقد يقول قائل : إن التكافل الاجتماعى فى الغرب طوف الآفاق ، وبلغ الجوزاء . يقول هذا مأخوذاً بالدعاية عن المساعدات المالية فى بعض الحالات ، وعن دور الرعاية للعجزة والمسنين ، وما إلى ذلك . وهذا فى الحقيقة من الرعاية الاجتماعية التى توافق منهجهم الحسى والجسمانى والحيوانى . فهم يعاملون الإنسان العاجز ، سواء كان كبير السن أو صاحب عاهة ، على أنه حيوان ، لا يحق له إلا أن يأكل ويشرب فى تلك الملاجىء ، إلى أن تأتية منيته ، هذا على أفضل الأحوال ، وقد يبلغ بالإنسان الاشتماز ؛ إذا علم أن بعض الدول كانت تتخلص من هذا الصنف بأسباب عدة ، لتفرغ منهم ؛ لأنهم عبء على الدولة والمجتمع .

ويحسن بنا أن نضرب بعض الأمثلة ، لبيان هذا التكافل الاجتماعى الأعرج القاسى .

فى مجال الأسرة : تقصى الأسرة أبناءها من سن السادسة عشر — ذكراً كان أو أنثى ، يصارع الحياة ، فتخرج البنت لاتجد أحداً بجانبها ، يحنو عليها ، أو يحميها ، أو ينفق عليها ، فى مجتمع لا يعترف بهذه القيم ، ولا يؤمن بها ، بل يعتبرها ضعفاً إنسانياً يجب التخلّى عنه ، فتضطر إلى أن تأكل وتعيش ، إما بذراعها ، أو بجسدها ، أو من أى طريق ، أما فى الإسلام فإن نفقة البنت واجبة على الأب إلى أن

(١) التوبة — ٥٨ .

تتزوج ، فإذا طلقت رجعت نفقتها على الأب ثانية ، حتى لا تتعرض للذئاب أو للانحراف والضياع . وإنما تجد دائما بجانبها من يحميها ، ويرد عنها عاديات الزمن ، ويعامل الولد أباه وأمه في الغرب بمثل ماعامل من قِبَلِهِمْ ، وكأنه يرد لهم هذا الضياع . فإذا ضعف الأب ، وأصابته علة أو جائحة ، فلا يجد الأب إنفاقاً أو إعالة عند ولده ، وإنما تتولى الدولة إسكانه داراً للعجزة أو المسنين ، يأكل تماماً كما تأكل الخيول والحيوانات ، وكأن الإنسان ليس فيه إلا بطن فقط ، ولا يحتاج إلى العطف والرعاية والحنان ، ولكن يظهر أنهم يتعاملون في الشر بالمثل القائل : « كما تدِين تَدان » ، وأن المعاملة بالمثل واردة في مثل هذه المجتمعات ، فالوالد يقسو على ولده صغيراً ، ولا ينفق عليه ، والولد يرد ذلك كبيراً ، فلا ينفق على الأب ، ولا يحنو عليه ، أو يرحم شيخوخته . وأين هذا من الإسلام حين يوصى بالوالدين ، فيقول : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إلى المصير ﴾ ^(١) إما يبلغن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ ^(٢) .

وفي مجال الميراث : لا مال لأحد . الأب حر التصرف ، يعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، قد يوصى لولد دون الآخر ، وقد يوصى للكلاب والخنازير ، ويحرم أولاده ، وفي هذه الحالة تكثر العداوات ، وتتمزق الأسرة ، فمثلاً الولد الذي أوصى له الأب وترك إخوته ، يتمنى موت الأب ، وقد يدبر اغتياله ، خوفاً من الأب أن يغير رأيه ويبدل الوصية ، وحباً في حيازة المال وهو معبوده ، والأخوة الذين لم يوصى الأب لهم يقدمون في أحيان كثيرة على قتل الابن الموصى له ، حسداً عليه ، وإبطالا للوصية ، أو قد يلجؤون إلى قتل الأب نفسه ، لخشيتهم من تبديد المال ، أو الوصية به إلى كلب أو قطّة أو ملجأ ... إلى غير ذلك من الصراعات الخفية والمتكررة ، التي تكون سبباً في شقاء الأسرة ، وتمزقها بالأحقاد والأضغان .

أما الميراث في الإسلام ؛ فهو حق ثابت عادل حسب نظام رباني كامل ،

(٢) الإسراء / ٢٣ - ٢٤ .

(١) لقمان / ١٤ .

وإذا أراد الأب أن يحرم ولدا من الميراث فلا يستطيع ، وإذا أراد أن يحرم الورثة فلا يستطيع ، وإن كان له أن يتبرع بالثلث ، والثلث كثير ، ولا دخل للأحقاد والأضغان والأهواء ، وصدق الله العظيم : ﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . فإن فطرة البشر تتأرجح بين الهوى وبين الاعتدال ، فكان لامناص من التسليم في هذا الأمر الشائك إلى حكمة الله سبحانه وتعالى في ذلك التقسيم ، فإله أعلم بالنفع والضرر ، وقد يظن الإنسان أن هذا ينفعه ، فإذا به يؤذيه ويضره ، وقد ينفعه اليوم ويميته غدا ، فلزم من ذلك أن لا يجعل للشيطان والنفوس مدخلا ، فكان عدله في الميراث وحكمته سبحانه . وهكذا استطاعت المدنية أن تقضى على الأسرة ، وأن تمزقها وتحرمها من العطف والحنان والمودة ، بأعراف خاطئة وقوانين جائرة ، فشقى الإنسان ؛ لأنه يعيش ضد طباعه ، وضد فطرته ؛ لأن الأسرة نظام فطرى إنسانى ، يلزم سلامة الإنسان واستقراره . ولقد حاولت الشيوعية أن تقضى كذلك على الأسرة ، بحجة أنها تنسى أحاسيس الأثرة الذاتية وحب التملك ، والشيوعية تريد شيوع الثروة ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد ... ولكنها — فيما يبدو — قد فشلت في ذلك فشلا تاما ، لأسباب عدة ، منها : أن الشعب الروسى شعب عائل ، للعائلات جذور عميقة في تاريخه ، فوق أن الأسرة نظام بيولوجى ونفسى ، لا نظام اجتماعى فحسب ، « فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيا ، وأفلح لإنجاب الأطفال وقد لاحظ العلماء أن المرأة التى تكون فراشا لعدة رجال تصاب بالعقم بعد مدة معينة ، أو قد لا يصح نسلها . أما من الوجهة النفسية ، فمشاعر المودة والرحمة تنمو في جو الأسرة خيرا مما تنمو في جو أى نظام آخر ، وتكوين شخصية صالحة يتم في هذا المحيط ، خيرا مما يتم فيه أى نظام آخر . وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة ، بين أطفال المحاضن ، أن الطفل الذى تتناوبه عدة حضانات تختل شخصيته ، وتتفكك ، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون . كما أن الطفل الذى لا والد له يعانى مركب النقص ، ويهرب من هذا الواقع بالتخيل »^(١).

(١) انظر بتصرف كتاب أطفال بلا أسر « تأليف أنافرويد ودرى برمنجهام وترجمه الأستاذين : محمد بدران ، ورمزى يس ، كما ينظر العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ٦٥ ، ٦٦ .

أسباب الفساد الاجتماعي :

وأسباب هذا الفساد الاجتماعى كثيرة ومتعددة :

١ — منها فساد فى الحكم .

الذى يبنى على القوة ، ويمجدها ، وينسى القيم ، ويخطط لاستغلال الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده ، وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة قاسية القلوب ، لاتعرف الرحمة أو القيم العليا .

٢ — كبت الروح ، لإعلاء التقدم المادى والمتاع الجسدى ، حتى وصلت إلى مايشبه الحيوان فى صلات الناس بعضهم ببعض ، من استغلال ، وتسلط ، وهبوط خلقي وروحى فى مجال القيم .

٣ — الفصل بين القيم العليا وبين واقع الحياة ، فمثلا فصلت السياسة والاقتصاد عن القيم الروحية ، وأصبحت شئون الجنس ينظر إليها بمعزل عن الأخلاق ، وشئون الدنيا بمعزل عن الآخرة ، وشئون الحياة بمعزل عن الدين .

٤ — حرية فردية ، لا يحدّها حد أو قيد ، وفكر مادى ، يتخبط فى نظريات حيوانية ومادية للكون والحياة .

٥ — نظام مادى رأسمالى ، لايمثل فقط من المظهر البارز ، الذى يتحكم فى الأرزاق ، وتسخير الشعوب والحكومات لمصالح أصحاب رؤوس الأموال ، وإنما يتمثل كذلك فى نظام ربوى ، وطبقة من المرايين القابعين فى الظلام لامتنصاص الجهد البشرى كله ، وتوجيه الجماهير إلى استهلاك الكماليات والمهلكات ، التى تدر الربح، وتفسد الأخلاق ، وتجلب البلاء ، كمصانع السلاح والسينما الداعرة ، والموضات والأزياء ، وآلات الطرب ، والترف والزينة ، وخمور ، ومشهيات ، وجنس . وفنادق ، وصلات ، ومسارح ، ومهجات .

٦ — ترسيخ أفكار ثقافية خاطئة فى عقول الناس وأعماقهم ، توحى لهم بأن التقدم البشرى يقاس بالتقدم المادى ، لا الخلقي والروحي والإنسانى .

وكانت نتيجة هذا الانحراف تصادم هذه التعاليم مع الفطرة ، فأورثها الصراع المدمر ، والعنف ، والشدة والجذب في داخل النفس ، بصورة تتلف المشاعر ، وتمرض الأعصاب ، فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم والأمراض العصبية والنفسية إلى درجة لا مثيل لها في التاريخ ، حتى فزع المتفكرون من العلماء ، وهالهم هذا التدمير ، فقال الدكتور الكسيس كاريل . عن هذه الحضارة — « إن الحضارة العصرية تجرد نفسها في موقف صعب ؛ لأنها لا تلائمنا ، لقد نشأت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشأت بمجهوداتنا ؛ إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا »^(١) ويقول ليوبولد قابس « محمد أسد » في كتابه الإسلام على مفترق الطرق : « إن الأوربي الحديث بما انطوى عليه من جهود ، فإنه يهمل النفس على أنها حقيقة عملية — فلم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما . لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراء ظهره ... إن المدنية الحديثة لاتقر الحاجة إلى خضوع ما ، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، إنما هو الرفاه ، وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجرد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة »^(٢) .

ولهذا اختل ميزان حضارة الإنسان ، وظهرت حضارة المادة ، وفقد الناس الهداية والرشاد ، وساروا كعمجلة في ترس ، يدور ويتآكل ، ولا يدري من أمره شيئاً ، فهل تتداركهم عناية الله بالإسلام . نسأل الله ذلك .

الإسلام والاشتراكية

يحسن بنا — وقد تكلمنا عن الحضارة الغربية — أن نتكلم عن الاشتراكية والإسلام ، أو بمعنى أصح عن المقارنة بين التصور الإسلامى — حول الإنسان ، والتاريخ ، ونظرية الخير والشر ، ومفهوم القانون والعدل ، والنظرة القومية ، ومبادئ

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٨ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق تعريب عمر فروخ ص ٣٤ ، ٣٥ .

العلاقات الدولية—وبين الاشتراكي حول هذه الأمور الحضارية ، ولم أقل التصور الشيوعي ، لأن الشيوعية للآن غير مطبقة في الواقع العمل ، وإنما المطبق هو الاشتراكية ، ونكون بهذا الإيضاح قد أجبتنا على أسئلة تطرح وتبلح على البعض بين الحين والآخر . من هذه الأسئلة . هل يمكن التفاهم بين الإسلام والاشتراكية ؟ وهل يمكن أن يجتمعا في مكان واحد ، على مبدأ واحد ، فيتعاون الواحد مع الآخر ؟ وإذا تيسر هذا الاجتماع بينهما ، فهل يكون له فائدة ، وما مقدارها ؟ ونستطيع أن نوضح ذلك بإيجاز ، ونشير إلى بعض الأمور البارزة التي تفرق بينهما ، وتجعل التلاق بينهما ضربا من المستحيلات ، منها .

١ — الإسلام يجارب النظرة المادية للحياة ، ويثور عليها ، لأنه يدعو الناس إلى المنهج الرباني ، الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أما الاشتراكية ؛ فهي نتيجة الحضارة المادية ، وهي تنادي بالنظرة المادية للحياة ، وتقوم بتنفيذها في المجتمع ، ولا صلة لها بالمنهج الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

٢ — عقيدة التوحيد حقيقة أساسية ورئيسة في نظر الإسلام والمسلمين ، فإن الإيمان بوجود الله ، ووحدانيته ، وحاكميته ، وربوبيته ، حقائق ثابتة ، يقوم عليها نظام الإسلام الاجتماعي والفردى ، الذي يهدف إلى الخضوع لله وحده ، وعبادته دون سواه .

أما الاشتراكية ؛ فإنها ترفض وجود الله تعالى ، وتحل المادة محل الأول ، وتعتبرها أقدم من كل شيء . إنها لا تؤمن بوجود قوة خارقة وراء الطبيعة ، ولا تسمح لأى تأثير لها في نظامها الذي تضعه للحياة .

٣ — وجهة نظر الإسلام الأساسية هي الأخلاق والقيم العليا في الحياة ، فالإسلام يزن كل قول وعمل في ميزان الخير والشر الذي قرره الله في شريعته ، وهو يوافق الفطرة والضمير الاجتماعي للإنسانية جمعاء .

أما الاشتراكية ؛ فترى أن الأخلاق نتاج ظروف طبقية خاصة ، فلا تعترف

بقيم مستقلة ، لأنها تنظر إلى كل شيء بمنظار الصراع الطبقي ، كما أنها لا تقيم للقيم الخلقية وزنا ما ، فضلا عن أنها لاتعترف بأولويتها وتفوقها ، وإنما الأخلاق فى نظرها شىء نسبى وحسب .

٤ — الطريق الصحيح للحياة مقرر من قبل الخالق الحقيقى فى نظر الإسلام ، والدين هو الطريق ، ولكن لا يمكن اختيار مناهج صحيحة والعتور عليها اعتمادا على مجرد العقل والتجارب . فشرعية الله عند المسلم هى مقياس كل خير وشر ، وحسن وقبح ، ومعنى ذلك أن حياة السعادة والنجاح ، هى ما توجه وتحكم به الشريعة فى أمور الحياة كلها ، سواء كانت اجتماعية أو فردية ، اقتصادية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، متعلق بالسلم أو الحرب ، أو بالعلاقات الداخلية والخارجية ، والحيدة عن هذا الطريق يؤدى إلى خراب الدنيا وخسارة الآخرة .

أما فى الاشتراكية ؛ فإن العقل هو المقياس الأول للتمييز بين الخير والشر ، ولا يحتاج إلى أى هداية من الخارج . ثم إن الدين عندهم أفيون للشعوب ، فيحب أن يوجه الإنسان للفرار منه ، لأنه يمهّد للنفعية والانتهازية ، ويصبح إله الاستغلال للطبقات المسخرة ، إنه يعلم الاقتناع بالظلم والصبر على الحرمان ، كما أنه يحرص على إقامة نظام إنتاجى خاص ، ويحتفظ بمنافع خاصة بعد مايميت الضمير الإنسانى ، ولذلك لايرجى فى ظله أى صلاح أو سعادة ، ولهذا يجب القضاء عليه .

٥ — يعترف الإسلام بمكانة الفرد ، ويحافظ على حقوقه الأساسية ، كما يدعم النظام الاجتماعى ، ولكنه لا يلغى الفرد ويغبط حقوقه ، بل يسهل له التقدم والنمو ، ويجعله مسئولا عن أعماله فى الدنيا والآخرة . يذوب الفرد فى النظام الاشتراكى فى المجتمع ، لأنه جزء منه ، ولهذا يستوجب عليه العمل للنفع الاجتماعى ، لأن فكرة النفع الجماعى هى التى تسيطر على النظام الاشتراكى ولهذا يستوجب عليه العمل للنفع الاجتماعى ، ولهذا يجب على الفرد أن يذوب فيه حتى لا تبقى له مكانة ما .

٦ — منهج الإسلام فى التربية والإصلاح يتركز فى الإيمان بالله قبل كل شىء ، حيث يرى الفرد على ذلك ، ثم على التعاليم التى تنبثق من النظام الربانى . والإصلاح

الاجتماعى يعتمد على إصلاح الفرد ، ويتحاشى الإكراه والإجبار والقهر ، كما أنه لا يعتقد أن مجرد إصلاح المجتمع يكفى لإصلاح الفرد ، وإنما يرى أن إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع يجب أن يتزامن ، كما يعبر الإسلام نية الفرد وباطنه أهمية كبرى ، لأنه بدون تغير الباطن لا يتغير الخارج ، ولأن الإنسان توزن أعماله بأعماقه ونواياه : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

أما الاشتراكية ؛ فإنها كما قدمنا لا تعترف بالإيمان ، كما أنها تحارب الإصلاح عن طريق التربية ، وإنما تدعو إلى الثورة ، وتفضل الإجبار والإكراه على التربية والحسنى والاختيار . وأفضل طريق فى نظر الاشتراكية لتغيير الفرد وإصلاحه يأتى من تغيير النظام الاجتماعى ، فإذا تغير النظام تغير الفرد لا محالة . كما ترى أن طريق الإصلاح التدريجى لا جدوى منه ، ولا فائدة ، وإنما الأصل هو التحضير للثورة وليس غير .

٧ — يعتبر الإسلام الدولة والقانون من أهم ضرورات الحياة الاجتماعية ، وكل من الدولة والقانون مسخر لخدمة أهداف عليا ، كما أن منح حرية الرأى وأخذ الناس بالرحمة أسلوب محترم فى القانون الإسلامى ، كما أنه من وظائف القانون العدالة فى شتى نواحيها ، ومراعاة الآداب والحقوق ، وحفظ الأموال والأعراض والقيم ، وقد سبق وأن قدم الإسلام الحكم العادل برهانا على نظريته .

أما الاشتراكية ؛ فإنها تعتبر الدولة والقانون آلتين للظلم الاجتماعى ، والاضطهاد ، والاستغلال ، وتؤيد استخدام القوة ، بل تحمدها ، فى الفترة الانتقالية ؛ للقضاء على طبقة معينة من المخالفين والمعارضين ، كما تزعم أن قيام المجتمع الأمثل لا يمكن إلا بالقضاء على الدولة والقانون .

٨ — يدعو الإسلام فى المحيط الاجتماعى إلى الحفاظ على العفة فى الأسرة ، والمساواة الإنسانية ، والأخوة ، والتعاون ، والتضامن الاجتماعى . كما يقوم بنظامه الاجتماعى على أساس القيم التى بينها الكتاب والسنة ، كما يؤسس حضارته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما الاشتراكية ؛ فإنها تؤكد على أن الصراع الطبقي والنزاع أهم حقيقه في الحياة . أما نظام الأسرة فإنه جزء من الملكية الفردية في نظرها ، فلا بد أن يلقي حثفه على مذابح الاشتراكية . أما أولاد الرجل والأسرة ؛ فهم ثروة المجتمع ، لا يملكهم الوالدان ، والقيم كلها تقرر في ضوء التقسيم الطبقي ، ولا مكان لأى قيمة من القيم إلا في ظلال هذا النظام .

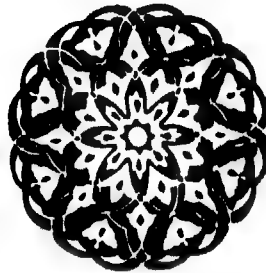
٩ — يسمح الإسلام بالملكية الفردية في المجال الاقتصادى والتعامل التجارى ، وممارسة الحرية فى السعى والاختيار . ولكنه يعتبر الثروة فى يد الإنسان أمانة ، يجب أن يحدد استعمالها ، وتعين فيها حقوق الفرد والمجتمع ، التى لا تزكى الثروة بدون أداؤها ، كما تستعمل الحياة الاقتصادية بأجمعها لتحقيق العدالة ، ولا تقدم المصالح الاقتصادية وحدها على المصالح الأخلاقية والاجتماعية والروحية .

أما فى الاشتراكية فإن الوضع الاقتصادى هو الأساس الذى تعتبره الاشتراكية قوتها الأصلية ، وتعتقد أن تأميمها علاجاً لكل مشكلة ، وهذا النظام الاقتصادى لا يميز بين الحلال والحرام ، ولا يقوم على فكرتها ، وإنما يعد الجبر والإكراه من أساليبه بدلاً من الاقناع والحرية . كما أنه يقضى على حرية الفرد وملكيته ، ويعتبر ذلك من القضاء على الطبقات ، فيقع بعد ذلك فى طبقة أدهى وأمر .

ومما تقدم يتبين، لنا أن البون شاسع جداً بين الإسلام وبين الاشتراكية ، كالفرق ما بين الإلحاد والإيمان ، ولهذا يتبين مقدار الخطأ الذى يقع فيه بعض الناس عند طرحهم فكرة الاقتباس من الاشتراكية ، مثل اقتباس منهجها الاقتصادى ، وضمه إلى النظام الإسلامى ، أو إظهار الجانب الاقتصادى فى الإسلام ، وتسميته بالاشتراكية الإسلامية ، لأن الكل يعلم أن النظام الاقتصادى فى النظام الاشتراكى لا يمكن فصله عن فلسفته المادية والاجتماعية . وأن الروح التى تهيم على النظام الاقتصادى ، والعقلية التى تنفذه ، والأسس التى ينبثق منها ، والمجتمع الذى يهياً لتلقى هذه النظم ، يخالف كل ذلك تماماً النظام الإسلامى ، والبيئة الإسلامية ، والتعاليم السائدة فى الفرد والجماعة ، بالإضافة إلى أن نظام الإسلام الاقتصادى لا يلتقى مع النظام الاشتراكى ؛ لأن له جذوره الخاصة ، وفلسفته ، وقيمه المعينه ،

وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها ، والوصول إليها ، كل ذلك يخالف النظام الاشتراكي . فلا يصح أن يسمى لهذا نظام الإسلام الاقتصادي باشتراكية الإسلام .

وهذا النوع من التفكير إنما أفرزته ظروف معينة تعددت بواعثها ومراميها ، ولكنها في النهاية تدل على خطأ فادح ، وقع فيه هؤلاء وأولئك .



الباب الثالث

التحدى الحضارى الإسلامى ومستقبله وحاجة الإنسانية إليه

**الفصل الأول : التحدى الحضارى الإسلامى
ومظاهره .**

الفصل الثانى : مستقبل الحضارة الإسلامية

**الفصل الثالث : حاجة الإنسانية إلى تلك
الحضارة .**

يتميز الإسلام بخصائص سامية ، وتعاليم سامقة ، وطبيعة أخاذة ، وقوانين فطرية ، ومنهج ميسر ، وجاذبية فريدة ، تسحر الأبواب ، وتقهر الظلمات ، وتصارع الباطل ، وتخلص إلى قلب الإنسان السوى ، فتكون طهورا ، وحياة ، وحركة ، واستقامة ، تعمر الأرض وتظلها ، وتزرعها وتسقيها ، حتى تكون ربيعا مثمرا ، ونورا مزهرا ، ومنهج كهذا لا بد أن تعلو نبتته ، وتنضج ثمرته ، ويطيب جناه ، ولا بد أن يسطع نوره ، وتظهر رايته ، ويطلع فجره ، لأن الإنسانية القلقة تحتاج إلى هدايته ونوره ، وروحها الجوعى تشتاق إلى ثمره وجناه ، وخطواتها الحائرة تتطلع إلى منهجه وهداه ، وشهواته الجامحة ترنو إلى طهره وعلاه .

فهو قانون يعمل عمله لأنه ناموس الحياة ، ويؤدي دوره لأنه حياة الحياة ، وإنسانية الإنسان ، وفطرة الفطرة ، وهداية النفخة ، وسر النفخة ، ونور الإدراك ، وبصيرة البصر ، وفقه القلب ، وسر الله .

الفصل الأول

**التجديد الحضري
الإسلامي ومظاهره**

الفصل الأول

التحدى الحضارى الإسلامى ومظاهره

يوم ظهرت رسالة الإسلام أول ما برزت إلى الوجود ، وقف فى طريقها واقع ضخم من السدود والقيود ، واقع الجزيرة الوثنية ، واقع العادات والتقاليد والأعراف ، واقع الكرة الأرضية ، ووقفت كذلك فى وجه الدعوة الإسلامية عقائد ، وتصورات ، ومذاهب ، ومبادئ ، وأنظمة ، وأوضاع ، ومصالح ، وعصبية . كانت الأمواج متلاطمة بالمظالم ، والطرق متزاحمة بالطواغيت ، والأجواء متلبدة بالمخازى والشهوات ، وكانت النقلة بعيدة بين الإسلام وبين واقع الزمان والمكان والأفكار ، وهذا الواقع كان يستند إلى أحقاب من التاريخ ، وأغوار من الدهور والعصور ، وأعماق من الطبائع والأعراف ، تقف كلها سدودا وقيودا أمام الرسالة الوليدة ، والهداية الغضة ، والتعاليم البكر ، التى جاءت بغير ذلك الكم الهائل من الأنظمة والأوضاع والشرائع والقوانين والأعراف والعقائد والعادات ، تتحدى العالم الشارد ، والأوضاع الفاسدة القلقة ، وتصارع الضلالات والتجاوزات والحيوانيات التى تنغص الحياة ، واستطاعت أن تهزمها وتقهرها . وهرع إلى تعاليم الإسلام القاصى والدانى ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وفرح المؤمنون بنصر الله سبحانه .

كانت المعتقدات الفاسدة والخرقة ترين على ضمير البشرية ، وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة المشرفة ، كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم ، وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة المزعومة ، وما وراءها من كهانة ، وبسدانة ، ومن أوضاع فى حياة الناس تعلقت بهذه الرواسب الباطلة ، فجاء الإسلام ليواجه هذا الواقع كله بلا إله إلا الله ، ويخاطب الفطرة التى لا تعرف لها إلها

إلا مِنْ خَلَقِهَا ، جاء ليعرف الناس برهم الحق ، فقال : ﴿ قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو نقاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ﴾ (١) .

كان هناك واقع اجتماعي محطم ، يقوم على الطبقية والعنصرية المادية والمعنوية ، استنامت له النفوس ، وذلت له الرقاب ، وخضعت له العادات ، حتى أصبح حقيقة من حقائق الناس السائدة ، لأن المنتفعين به لا يسأمونه ، والرازحين تحته لا ينكرونه!!

كانت قريش تسمى نفسها « الحمس » ، وتفرض لنفسها حقوقا ليست لسائر العرب ، وكانت في الحج تقف بمزدلفة ، بينما يقف الناس بعرفة ، وكانت الأرض كلها من جانب قريش تعج بالترفة العنصرية القائمة على اختلاف الدماء والأجناس والألوان والأحساب .

وكانت فارس عريقة في التفرقة ، يزعم أكاسترها أنه يجري في عروقهم دم إلهي . وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم .

وكان المجتمع الروماني يقوم على الطبقية وعلى الترف للأسياد والأشراف — الذين يمثلون نسبة ضئيلة — على حساب الكثرة المستغلة المستعبدة الممتهنة ، فلا ينالون من الحقوق مثل ماينال الأسياد ، ولا يعاملون في القانون على سواء ، فقد جاء في مدونة جوستنيان الشهيرة : « من يستهوى أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته — إن كان من بيعة كريمة — مصادرة نصف ماله ، وإن كان من بيعة وضيعة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض » (٢) وأما المجتمعات الهندية وحضارتها التي ازدهرت قبل ميلاد

(١) الأنعام ١٤ — ١٦ .

(٢) مدونة جوستنيان القانونية ترجمة عبد العزيز فهمي ص ٣١٧ .

المسيح بثلاثة قرون ؛ فكانت أسوأ حالا من غيرها ، حيث قسمت الأمة إلى طبقات ، أعلاها في رتبة الآلهة ، وأدناها في رتبة الحيوانات ، وكانت على النحو الآتي :

١ — البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين ، وخلقوا من فم الإله ، وهم صفوة الله ، وملوك الأرض ، وإن مافى العالم ملك لهم ، فهم أفضل الخلائق وسادات الأرض .

٢ — شترى — رجال الحرب — وخلقوا من سواعد الإله ، فعليهم حراسة الناس ، وهم أقل من البراهمة ، وليس لهم حقوق — وإن كانوا أعلى ممن تحتهم .
٣ — ويش رجال الزراعة ، ورعى السائمة ، والقيام بخدمتها لأسيادهم ، وقد خلقوا من أفخاذ الإله .

٤ — شودر — المنبوذون — رجال الخدمة ، وخلقوا من رجل الإله ، وليس لهم إلا خدمة الطبقات الثلاث ، وهم أحقر من البهائم ، وأذل من الكلاب^(١) . إذاً فما هذه الصرخة العاتية ، واللمسة الجبارة ، التي غيرت هذا الركام والضلال ، وما سر ذلك !! ولو أنه قيل لكائن من كان — في ذلك الزمان — : إن هذا الدين الجديد الوليد الذى يحاول هذا كله ، فى وجه ذلك « الواقع » أهائل التى تسنده قوى الأرض كلها ، هو الذى سينتصر ، وهو الذى سيبذل هذا الواقع ، ويزيح هذا الظلام ، ويرى هذه الأمم ، ويعلم هذه البشرية السلوك والخير والبر ، فى أقل من نصف قرن من الزمان ، لما لقي هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار !!

ولكن الحقيقة الجلية لا تلبث أن تظهر للعيان . وسرعان ما يتزحزح هذا الواقع الضخم عن مكانه ، ليخليه للوافد الجديد . وسرعان ما يتسلم القيادة أبناء الصحراء الأتقياء البررة المعلمين ، ويأخذون مفاتيح الأمم ، وزمام الحل والعقد فى الممالك المترامية الأطراف ، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ويقودوها بشريعة الله

(١) ينظر فى ذلك ماذا خسّر العالم بالمخطاط المسلمين بتصرف — ص ٥٨ الى ٦٠ ط دار التعلم

تحت راية الإسلام وبجندة . كيف استطاع رجل واحد هو : محمد بن عبد الله ﷺ أن يواجه الدنيا وحده ، وأن يصارع تلك التصورات والعقائد والقيم والموازين والأنظمة والأوضاع والمصالح والعصبيات في جزيرة العرب ، وفي مخلفات الديانات المنحرفة ، وفي سماء المذاهب المترهلة ، دون أن يتملق عقيدة أو تصوراً ، أو يدهن مشاعر أو أحاسيس وعواطف ، أو يهادن آهتهم وقياداتهم أو قبائلهم ، ولكن واجههم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾^(١) ، كما لم يهرهم بسلطان أو ملك ، ولم يستحلهم بمزايا يمتلكها غير بشرية : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ . إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾^(٢) ، كما لم يوزع الوعود والمناصب المغانم لمن يتبعه وينصره على مخالفه . قال ابن إسحاق : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل في الموسم — موسم الحج — يقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أئين عن الله ما بعثني به . » قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه . فقال رجل منهم ، يقال له بجيرة بن فراش : والله لو أتى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أأكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء . قال له : أفنهدف نحورنا للعرب ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .^(٣) كيف إذن وقع الذي وقع ، وكيف قوى ذلك الرجل الفرد على قهر كل هذا الوقع الغريب ! إنه لم يقهره بمعجزة لا تتكرر ، فقد أعلن ﷺ أنه لا يعمل في هذا الحقل بخارقه ، وإنما بمنهج واضح صريح .

(١) سورة الكافرون .

(٢) الأنعام — ٥٠ .

(٣) الروض الأنف ٢ / ١٧٤ للسهيلى ط الكليات الأزهرية .

كما لم يقهرهم بأحلاف ومعاهدات ومداورات ، كما يفعل المحترفون من الساسة وطلاب الدنيا . ولم يتغلب عليهم بنصرة قومية أو قبلية أو إثارات ، إنما وقع ذلك القهر وفق سنة دائمة باقية ، تتكرر كلما أخذ الناس بها ، واستجابوا إليها . لقد وقع الذى وقع من انتصار الإسلام وغلبة هذا المنهج ؛ لأنه تعامل مع رصيد الفطرة الهائل المكنون ، وهو رصيد ضخيم عملاق ، لا يغلبه هذا الغناء الظاهري ، حين يستنفر ويجمع ويوجه ، ويطلق فى اتجاه مرسوم !! هذا الرصيد الهائل الضخم مازال يعمل عمله ، ويؤدى دوره ، ويتحدى العوائق ، ويقهر الظلمات ، بما فيه من حيوية غامرة ، وتعاليم قاهرة ، وعقيدة سامية ، ورصيد من القيم لا يبارى أو يدانى . ونستطيع أن نلقى الضوء على شيء من هذا الرصيد الضخم ، وهذه المبادئ والقيم ، التى تقف كالطود ، تعمل عملها ، وتتحدى أعاصير الفساد الظلم والطيران والهوان .

عناصر هذا التحدى :

يعمل هذا التحدى داخل الإنسانية وخارجها ، وفى أعماق البشرية ومن حولها ، يراقب النفس ويهديها ، ويسجل العلة ويشفيها ، يقدم الحلول للمعضلات ، ويعرض هديه فى المشكلات ، ويأخذ بيد الإنسان — فى يسر ومن غير إعنات — إلى ما يصلحه ويرضى طموحه ، ويبعد عنه الأذى والبلاء . وهذا التحدى يتمثل فى أمور منها :

عقيدة :

عقيدة لا تنشئ انفصاما ، أو تحدث تمزقا فى نفس الإنسان ، وإنما تجمع شتاته ، وتؤلف متفرقه ، وتطهر حواشيه ، تصل الكائن الفانى بقوة الأزل والأبد ، وتمنح الفرد الضعيف العون والسند ، تصغر فى عين صاحبها قوة الجاه والمال ، وقوة المركز والسلطان ، وقوة الحديد والنار ، وتصبره على الحرمان والأذى فى سبيل قيمه العليا وغاياته الكبرى ، وتقدره على الصبر والكفاح ، وتدفعه إلى الموت الذى يخلق الحياة ، والفناء الذى يمنح الخلود والتضحية التى تورث النصر .

عملها في نطاق الفرد والجماعة :

ومن ثم فإن قيمتها الكبرى في حياة الأفراد والجماعات سواء ، تتفاعل في نفس الفرد كما تتفاعل في كيان الجماعة ، وتعمل في ضمير الأشخاص كما تتحرك في محيط الأمم ، لأنها قوة هائلة في سماء الأفق الإنساني كله ، وعميقة في ضميره أيضا ، لا تتخلى عن صاحبها في زحمة الصراع أو معترك الحياة ، كما أنه لا يتزحزح عنها أو يتفلت منها ؛ لأنها خالطت دمه ، وتفاعلت مع كيانه وواقعه . يروى ابن كثير في السيرة : « أنه لما أسر خبيب بن عدى ، وأخذته المشركون ليقتلوه ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقتل : أنشدك بالله يا خبيب ، أحب أن محمدا الآن عندنا تُضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس في أهلى . قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا قال : دعونى حتى أصلى ركعتين ؛ ثم قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع^(١)

عقيدة تخالط الحياة :

وهي عقيدة تخالط الحياة ولا تنعزل عنها ، وتؤثر فيها ولا تتأثر بها ، تسرى في التعامل كما تختلط بالعبادة ، تقوِّم الروح ، وتصلح الجسد ، وتطهر الحياة . تعيش مع التاجر في تجارته ، وتراقب البائع في بيعه ، في كيله ، في ميزانه ، في شرفه التجارى ، في ذمته ، وضميره الصرفى والنقدى .

﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾^(٢) ، ﴿ وأوفو الكيل إذا كلمت وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾^(٣) ، ﴿ أوفو ﴾

(١) انظر في ذلك سيرة ابن كثير ج ٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ تحقيق د مصطفى عبد الواحد .

(٢) المطففين — ١ — ٥ .

(٣) الإسراء — ٣٥ .

الكيل ولا تكونوا من الخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿١﴾ .

تدخل في عقود ووعوده ومواثيقه : ﴿٢﴾ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴿٣﴾ ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿٣﴾ .

كما تدخل العقيدة في تصرفاته في المجتمع ، وفي سلوكه الاجتماعي والأدبي ، في قوله ولفظه ، وابتسامته وعبوسه ، ورقته وغلظته ، ومنحه ومنعه : ﴿٤﴾ أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصيلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴿٤﴾ .

عقيدة تشع الحياة والأمن والمعروف والسلام والرحمة ، تزرع الخير ليحصد الخير ، وتسقى الحياة لتستمر الحياة ، وتضيء الدنيا لتسعد الدنيا . « تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء لك صدقة » ﴿٥﴾ عقيدة تبنى على الواقع ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى ، وإنما تقوم على أسباب مدركة ، وعلى قواعد ثابتة ، وصدق الله : ﴿٦﴾ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿٦﴾ ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿٧﴾ .

(١) الشعراء — ١٨١ — ١٨٣ .

(٢) الإسراء — ٣٤ .

(٣) المؤمنون — ٨ .

(٤) الماعون — ١ — ٧ .

(٥) الترمذی — كتاب البر ٣٦ .

(٦) الرعد — ١١ .

(٧) الأنفال — ٥٣ .

عقيدة تغرس الثبات والثوق والطمأنينة ، التي لا تززعها العواصف ولا النكبات والحنن : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (١) ، ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ (٢) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٣) . ولا شك أن عقيدة بهذا الرسوخ وهذا العمق وهذا الاتصال الفطرى بالإنسان وبالحياة ، تملك الإحساس بالوجود فى الماضى ، والاستقرار فى الحاضر ، والامتداد للآتى ، وتتصل قوتها بالقوة الكبرى التي لا تنضب ولا تحسر ولا تضعف . تستطيع مواجهة الحياة والتأثير فيها . ولا شك أن الإنسان يواجه فى حياته صراعا ضخما فى الداخل والخارج ، وقوى هائلة متكئة أكبر من طاقته المجردة ، فإذا وجد ملاذه فى عقيدة بهذا الحجم تكون حصنا له ووقاية ودرعا ، وتعطيه القوة والسلاح والهيمنة والطمأنينة ، لا يلبث أن يرمى فى أحضانها ، ويهرع إليها . نعم ، إن بعض النظم الأخرى قد تقدم بعض الحلول لبعض المشكلات فى بعض الأحيان ، ولكن قيمة العقيدة الإسلامية ليست فى مجرد تقديم الحلول الوقتية لبعض المشكلات الوقتية ، وإنما قيمتها الحقيقية تتمثل فى تقديم الحلول الناجعة القاطعة ، مع القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها واستمراريتها ، لأن قوة العقيدة الدينية هى قوة الدفع الفطرى الهائلة ، ذلك الدفع الذى تتقاصر عنه أى فكرة فلسفية أو مذهب اجتماعى أو اقتصادى ، لأن أمراض النفس البشرية وعوائقها الحياتية أكبر من مستوى المذاهب البشرية ، وأعمق من تلك الحلول العقلانية ، ولأن جوع الفطرة الإنسانية أقوى من سطحية القوانين الفكرية والتقسيمات الاجتماعية الآدمية . وكما يخطئ الذين يحددون أنفسهم بهذه النظريات والأفكار حيث يحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغ نفوس الأفراد والجماعات بمذاهب فلسفية أو نظريات اقتصادية أو أفكار اجتماعية ، وسرعان ما تنكشف لهم الحقيقة ، وتظهر الأمراض والعلل فى تلك الفلسفات والنظم ، وتنعكس على الأفراد والجماعات

(١) الأنفال — ١٢ .

(٢) محمد — ٣٥ .

(٣) آل عمران — ٢٢٠ .

التي تعيش تلك الأخطاء والصراعات المختلفة . وصدق الله : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾^(١) ، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾^(٢) إذاً فالعقيدة الإسلامية هي المثال الفريد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل في هذا المجال ؛ لأنها العقيدة التي تحيط بالإنسان كإنسان ، جسدا وروحا ، ونشاطاً وحياة ، فلا تقتصر مهمتها على حقل ولا على اتجاه دون اتجاه ، لأنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وإنما ما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله ، ومن هنا كان تأثير العقيدة الإسلامية ، وكانت جاذبيتها الخارقة ، التي تلبى رغبات الإنسان ، وتعلو همته ، وتشفى قلبه وتحقق سعادته وصدق الله ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾^(٣)

رصيد إنساني واجتماعي :

يملك الإسلام رصيда إنسانيا واجتماعيا ضخما ، استطاع أن يلفت عنق الإنسانية إليه ، وأن يجذب انتباه الأفراد والشعوب والأمم ، رصيда يتعامل مع الأحاسيس والأرواح ، كما يتعامل مع الأجساد والبطون ، رصيда يغذى الفطرة ، ويصنع الحيوية ، ويزكي الأشواق والتطلعات . يقول برنارد شو : « إن الدين الإسلامي هو الدين السامي ، بسبب حيويته العظيمة ، فهو الدين الذي يلوح إلى أنه الحائز على أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون صالحا لكل زمان ومكان ... ويضيف فيقول : « إن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا في الغد القريب ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم »^(٤) ويقول ولز : « الدين الحق الذي يسائر المدنية هو الإسلام . وحسبك القرآن ، وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب علمي اجتماعي تهديبي خلقي »^(٥) حضارة ونظم

(١) طه — ١٢٤ ،

(٢) القصص — ٥٠ ،

(٣) الكهف — ١٧ .

(٤) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح غنيم ص ١٩٤ .

(٥) الإسلام والحضارة الإنسانية عبد المنعم حجاجي ص ١٤٠ .

وقوانين وحياة تشق طريقها بثبات وسط الإنسانية ، ووسط الأيام والتاريخ ، مر
أذهلته ، ومن تأمل فيها سحرته ، ولهذا عرفها أشبلنجر بالحضارة السحرية ،
الصراع بين النور والظلام ، طابعها اللامحدود واللامتناهى ^(١) ولا أريد أن أ
أتكلم عن التكافل الاجتماعى فى الإسلام ، فقد سبقت الإشارة إليه ، وإنما أرد
أعرج على مافيه من رصيد اجتماعى هائل ، يفتح الآفاق أمام القلوب وا
والأحاسيس ، ويدعو الإنسانية إلى إنقاذ نفسها من بحور الوهم والضلال التى
فيها ، واستسلمت لأمواجها العاتية ، لقد حاولت المجتمعات اليوم التعرف على
وعلى إنسانيتها ، وشعرت بالقطيعة الهائلة التى بين أفرادها وبين أجناسها
وأقطارها ، فحاولت وتحاول أن تتغلب على هذا النقص بمؤسسات وهيئات ،
المتحدة وكمجلس الأمن ، وغيرها من المؤسسات التى تحاول فى كل مجال أن
أو تدعو إليها ، تعليمية كانت كالليونسكو ، أو اقتصادية كالبنوك الدولية ،
ذلك ، ولكن هذه المؤسسات وهذه الهيئات لم تؤد ما قدر لها ، لسبب بسيط
المؤسسين لها والقائمين عليها تخلّوا من زمن عن إنسانيتهم ، واعتنقوا مبادئ
والتمييز ، وتربوا على حب الذات ومنطق الغلبة والقهر ، واعتبروا القيم والأخلاق
من أساليب الضعفاء أو من رواسب الماضى ، فكيف إذن يتواءمون مع أ
للإنسانية أو للتجمع الإنسانى ، وكيف يدعون إلى ماتمى عنه وتبغض ف
اللهم إلا إذا كان لهم من وراء هذه الدعوات قصد أو غرض ، قد يكون
بأسلوب أو بآخر على الأمم بربطها برباط واحد تسهل من القيادة ، قد يكو
الأمم واستغلال الشعوب بترتيب قانونى ، قد يكون ، وقد يكون ، وإلا
الأحلاف والتجمعات خارج تلك المنظمات ، وما ضرورة الأحلاف العسكة
معسكر وكل قوة ، كحلف وارسو ، وحلف الأطلسى ، وغير ذلك .

وهل منعت هيئة الأمم أو غيرها دولة كبرى من ابتلاع دولة صغ
منعت نهب خيراتها واغتيال ثرواتها ، وهل سمعنا أن دولة ناصرت دولة
تعالى ، أو لسواد العيون وجمال النواظر ، أما الإسلام فإنه أول مبدأ يقر الحق

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية د — عفت الشرفاوى ص ١٩٩ .

ويقوم بالعدل للعدل ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾^(١) ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾^(٢)

يقول مستر « جب » في كتابه « حيثما يكون الإسلام » : « ولكن الإسلام مازال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواءه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جهة واحدة ، أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في أفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام مازالت له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع^(٣) » والمنصفون والمتجردون من الغربيين في العلوم الاجتماعية والحضارية لا يَعدُّون هذه الحقيقة الكبرى ، وهي أن الإسلام له جاذبيته الخاصة ، وأسلوبه المميز الفريد في قيادة الأمم والشعوب ، والتأليف بينها ، ومعاملتها بالحسنى ، رغم اختلاف اللون والعنصر والدين ، وسحر هذه التعاليم وهذه المبادئ قديم ، وتحديها للظلم والبغى والقهر عريق .

يقول : « سيرت . و . أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في محل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : يامعشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا « وغلقت أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعُدَّ لهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم »^(٤). وهل رأى الإنسان ، أقواماً تحب الاستعمار « بالتعبير الحديث

(١) المائدة / ٨ . (٢) النساء / ١٠٥ . (٣) انظر السلام العالمي ص ١٤٢ .

(٤) انظر كتاب الدعوة الإسلامية ترجمة إبراهيم ص ٥٣ وما بعدها وكتاب المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة لعمر بهاء الأميري ص ٢٦ ط دار الفتح والمرجع السابق ص ١٣٩ .

اليوم » وتسارع إلى إخراج أبناء جلدتها ودينها ، لتدخل فيه وتستظل بلوائه ، ولكنه التحدى الإسلامى الذى اقتحم على الطغاة مخادعهم ، ليخلص المظلومين من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل ، ومن القطيعة والاستعباد إلى الأخوة والحب والإيمان .

إنها الثورة على الفساد وعلى الاستعباد ، ولكنها ثورة النور والعدل ، لغرس الفضيلة والحب والإيمان . ثورة الشفاء من اللوث والبرء من الداء والحصانة من المرض . ثورة ينتظرها العالم اليوم ، ويرجوها ، ولكن أين هى ، وأين رجالها وحملتها مشاعلها ؟

قيم ومثل ومبادئ :

لا شك أن المثل والقيم الإنسانية تشكل ضرورة لاستقرار المجتمعات والأفراد ، وتستوى أمانى وتطلعات البشر ، وعلى مدار التاريخ الإنسانى لم تشعر البشرية باستقرار تلك القيم ، وتنفيذ هذه المثل ، إلا بظهور الدعوة الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، حيث قدمت رصيда جديدا وعظيما فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وكانت ظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع . انقلب به تيار المعرفة والأصالة الإنسانية ، والفهم الحضارى للحياة ، واتجهت الدنيا اتجاها جديدا فى فهم العلاقات الإنسانية والأواصر البشرية ، جعل الدنيا تحس أنها جوعى إلى هذه التعاليم ، وأنها لا تجد نفسها إلا فى ظلال هذه المعانى وبين أحضان هذه المثل .

وكان هذا يمثل محنة جديدة وقاسية للجاهلية والحيوانية ، لم تعهدها من قبل ، ولم تعرف كيف تخرج منها ، وظلت فى حيرتها إلى أن غمرتها أضواء التعاليم السامية ، وأشعة الرسالة الهادية ، فبددت ظلامها ، وكشفت أرجاسها ، وأزالتها من الواقع ، وعزلتها فى زوايا النسيان . ويظل الإسلام كذلك بما له من خصائص قاهرة ومميزات غالبة . يعبر عن هذا العالم الألمانى المسلم ، حيث يبين الخصائص الإسلامية القاهرة ، ووصفها فى الإسلام وصفا دقيقا . فيقول :

إن الإسلام لا ينظر — كالنصرانية — إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا

نسرف في تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالى في قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر خلاف الروح النصراني ، يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبلعه ، ولكن ليس عنده كرامة له . والإسلام بالعكس ، ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة ، بل يعدها كمرحلة يجتازها في طريقه إلى الحياة العليا ، وبما أنها مرحلة — ومرحلة لا بد منها — فليس للإنسان أن يحتقرها ، أو يقلل من قيمة حياته الأرضية ، إن مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لا بد منه وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة ، وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتي ليست إلا هذا العالم » ، ولا بالنظرية المسيحية التي تزدرى الحياة ، وتقول : « ليس هذا العالم مملكتي » ، وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، والقرآن يرشدنا أن ندعوا : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ^(١) ﴾ . فالتقدير لهذا العالم وأشياءه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الخصب ، والرق المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية في نفسه . إن غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعية ، والمحافظة عليها — إن وجدت — تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ .

الإسلام يهdy الناس إلى الشعور بالمسؤولية الخلقية في كل عمل يعمل به ، كبيرا كان أو صغيرا . إن نظام الإسلام الدينى لا يسمح أبدا بمثل ما أمر به الإنجيل قائلا : « اعطوا مالمقيصر لقيصر ، واعطوا مآللله لله » ؛ لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة واحدة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس شىء وسط بينهما ، لذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغي لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولا شخصا عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله ، وهو مأمور بالجهاد لإقامة الحق ومحى الباطل في كل وقت وفي كل جهة ، فإن القرآن يقول : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون

(١) البقرة — ٢٠١ .

المعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ^(١) . هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية ، والفتوح الإسلامية الأولى ، والاستعمار الإسلامي ، فالإسلام استعماري ، إن كان لابد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعا بحب حكومة ما للاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية في شيء ، ولم يكن لحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع في خفض من العيش أو رخائه على حساب الناس الآخرين ، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحي ، كما أن العلم بالفضيلة — حسب تعاليم الإسلام — يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل ونشرها والدفاع عنها .

الإسلام لا يوافق أبدا على الفصل الأفلاطوني ، والتفريق النظري البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظريا بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل ، فإن الفضيلة — كما يقول الإسلام — تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض ، وتموت إذا خذلها ، وتقاعد عن نصرتها ^(٢) .

وهكذا فالتعاليم الإسلامية حية لا إرهاب ولا تفريط ، مواتية وملائمة للطبائع ، لاتغفل ناحية وتسهب في أخرى ، وإنما هي دائما معتدلة الميزان ، مستقيمة الخطو ، كما أنها دائمة العطاء ، تعطى كل يوم جديدا ، وكل موقف زادا ، وكل مشكلة حلا ، لم يحف لها نبع ، أو يفسد لها ثمر ، أو يذبل لها ورق ، أو تذهب لها خضرة . هذه حقيقة على مدار التاريخ ، يعلمها كل عاقل مطلع على تراث الإسلام وحضارته ، يعلم أن الإسلام دائما معطاء وأنه شاخ في تحد على مدار التاريخ ، يعلم أن الكل محتاج إليه لحياته وإنسانيته ولسعاده .

يقول الرئيس الفرنسي العملاق « ديغول » لمراسلي الجرائد الفرنسية — ردا على سؤال عن ميله الملحوظ نحو العرب والعالم الإسلامي وتراثه ، ورأيه في توطيد علاقة

(١) آل عمران — ١١٠ .

(٢) ماذا خسّر العالم بالمحطاط المسلمين ص ١٣٣ ، والإسلام على مفترق الطرق للعالم الأثنائي المسلم محمد أسد « ليو بولو قابس » ص ٣٠ ط العلم للملايين بيروت .

فرنسا معه — فكان من جملة جوابه عن ذلك إن فرنسا وكل البلدان الراقية المتقدمة تكنولوجيا في حاجة إلى ربط الصلة الوثيقة بالمجتمعات العربية الإسلامية ، أكثر منها حاجة إلى الاحتكاك بالحضارة الغربية والأمريكية الباهرة ، ذلك أن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئا ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم ، ألا وهو الإنسانية ، وأعنى بالإنسانية القيم الروحية البشرية العليا .

فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة الخفية التي تربط البشر بعضهم ببعض ... لقد جفت شعورنا ، وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت .. ويزيد الرئيس ديغول : « وأعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية ، التي حافظت على تلك الروح الإنسانية ، سينقذنا من مغبات حضارتنا ، وسيفيدنا كثيراً ، لهذا السبب أتمنى أن لا تقطع فرنسا صلتها بالعالم العربي والإسلامي ، بل أن تعمل على تنميتها وتوثيقها »^(١) .

أما المستشرق الأسباني « فيلا سبازا » فيقول : « إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديدة بكفكفة دمعة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم الشرق العربي المحتفظة بالثقافة العربية ، والقائمة على إزاحتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم إلى هوة التوحش الاقتصادي^(٢) » ولهذا لا نجد عجباً إذا رأينا روجيه جارودي يقرر في محاضرة الاشتراكية والإسلام « أن الإسلام يتمشى مع الصيغ الإنسانية الجديدة » ، كما نجد أن « الدكتور بيرنارد فيرشل » — الفيلسوف الألماني — يقرر في محاضرته في أندونيسيا في الشهر الأخير من عام ١٩٧٢ في معهد البحوث الإسلامية فيقول : « إن الإسلام اليوم يسيطر على الأفكار الغربية ، وإن كثيراً من علماء الغرب قد قادهم اهتمامهم الكبير بالإسلام إلى أن يصبحوا علماء في الديانة الإسلامية ، حبا فيها ، واحتراما لها^(٣) » وهكذا يعمل التحدي الحضاري

(١) انظر المجتمع الكويتية عن محاضرة للأستاذ عمر بهاء الأميري أستاذ الحضارة بجامعة المغرب . العدد ١٩٨ — ٣٠ /

١٩٧٤ / ٤

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ١٩٨ — ٣٠ / ٤ / ١٩٧٤ ص ٣٣ .

الإسلامى فى نفوس الناس الكثیر والكثیر ، لأنه شىء مبهر حقاً ، فهو هندسة جديدة للكون ، ونبع صاف للفطرة ، وانبثاق لها ، وانطلاق فى آفاق الدعوة والتبشير ومواجهة الحياة فى بساطة ويسر ، والتماس للحكمة ، وتمسك بالاعتدال مع شمول وتوفيق ، وتوسط فى كل شىء ، ووصل وتوثيق للروابط الإنسانية الشخصية والاجتماعية ، وإقامة الحياة على أسس من القيم السامية ، والأخلاق الإنسانية العامة ، فى مشاركة يمارس الفرد فيها ذاته فى نطاق الجماعة ، وتؤدى الجماعة عملها مراعية للفرد ، فالحضارة الإسلامية على هذا كون كامل مستمر الزمان ، ممدود المكان ، غلاب الصفات والسمات ، قاهر الأفكار والآيات ، ومن أبرز ذلك التحدى الهادىء تلك الصفات :

١ — الملاءمة الإنسانية من جميع نواحيها ، بحيث تصلح تعاليمه للبشر ، وتصلحهم ، بمستوى لا يرقى إليه سواه .

٢ — عبقرية الاستيعاب . فالفكرة الإسلامية ليست بنظرية دينية وحسب ، بل هو قانون شرعى وأخلاقى ، ومنهج تربوى واجتماعى وثقافى ، علاوة على دعوته المتسعة ، وسيطرته العامة على كل الأفكار والمذاهب ، وبعثه للأفراد والأمم ، وإعطائها حيوية غامرة يقول : « أيزنهاور » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى أول خطاب له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة : « إنى عندما أنظر إلى المستقبل أرى دولة عربية تبرز ، وتسهم فى أمور هذا القرن إسهاماً يفوق مالا نستطيع أن ننسأه لأسلافهم الماضيين . إنا مازلنا نذكر أن علم « الحساب » وعلم « الجبر » الحالىين مدينان بالكثير إلى العلوم الرياضية العربية ، كما نذكر أن العرب قد وضعوا أسس العلوم الطبية والفلكية ، التى يتمتع بها الغرب الآن » ^(١) . ونقول كم فى المسلمين من عقول وأفهام تمتاز بإصرار عجيب ، وإيمان عميق ، تستطيع صنع حضارة متصلة بنبعهم الربانى الأصيل ، لولا مانراهم من إحباط وإجهاض لكل فكر وكل طاقة وعزم ، لأمر عدة يستطيع الباحث العادى أن يضع يده على أسبابها المتعددة . لولا هذا السد المنيع بين الأمم الإسلامية وقرآنها ونبعها وتراثها ، ويبدو أن البروفسور « جب » يدرك معنا الهدف الشيطانى

(١) كفاح دين للفرزلى ص ١٠٥ .

للاستعمار ، والسائرين في فلكه ، في إبعاد المسلمين عن قرآنهم ، إذ يقول : « لابد للحركة الحيوية من أن تنبعث في الأمة الإسلامية ، عاجلاً أو آجلاً ، شريطة أن يبقى القرآن قوة حية في حياة الأمة الإسلامية بكاملها »^(١)

٣ — مرونة التكاليف التي تأخذ بيد الإنسانية ، وتحفظ لها الحياة ، ولعل من أنسب ما يذكر في مثل هذا المجال وهذا الصدد قرار مؤتمر الفقه الإسلامي ، الذي عقد في كلية الحقوق بجامعة السربون بفرنسا ، في يوليو سنة ١٩٥١ ، وجاء فيه :

١ — إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا تبارى .

٢ — وإن اختلاف المذاهب الفقهية فيه ينطوي على ثروة هي مناط الإعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامي من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجاتها^(٢) .

٤ — قوة الارتباط والانضباط ، بحيث نجد أن إنسان هذه الحضارة ما يزال يتحرك بها ، ويحرص عليها ، ويجاهد في سبيلها بمقدار لا تستطيع أية مذاهب أو دعاوى أخرى أن تصل إلى جزء منه ، ولاغرو ، فهو بهذا يمارس أصالته وينطلق من جذور ذاته . وقد تمثل هذا في مظاهر كثيرة ، رغم الضعف والهوان الذي لاقاه في العصر الحديث وقبله ، في بعدهم وضياعهم عن منهجهم وكتابهم وطريقهم ، وتراثهم ، مما سنعرض لطرف منه إن شاء الله .

مظاهر هذا التحدي :

بقوة عملاقة ، ودفعة هائلة ، حركت العقيدة الفطر المؤمنة ، والقلوب المسلمة ، وزودتها بصمود عجيب ، وتحدي فريد ، في مواجهة كثير من العواصف المدمرة والزلازل الماحقة ، التي واجهت الوجود الإسلامي والكيان الحضاري والعمراني لدولته ، في وقت فقدت فيه كثيرا من مكونات وجودها وعناصر بقائها ، بإخلاقها

(١) المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة ص ٣٩ .

(٢) محاضرة الدكتور محمد سلام مذكور في مجلة المجتمع الكويتية العدد ١٩٧ — ٢٣ أبريل سنة ١٩٧٤ بصوان التشريع الإسلامي والمجتمع المتطور ، وكتابته المدخل إلى الفقه الإسلامي .

إلى الأرض ، واتباعها للشهوات ، وجريها وراء الملذات ، ونومها عن أهدافها ورسالتها ، وتركها لأسلحتها وقوتها . ونستطيع أن نقرر بغير تردد ، فنقول :

إن الإسلام هو الذى حمى الوطن الإسلامى فى الشرق من هجمات التتار وتحدى زحفهم ، بعد أن سقطت أقنعة أخفت وراءها قوى هزيلة وأفكارا عفنة ، تخلت عن منهجها ورسالتها ، فتسببت فى تدمير هائل للقوى المادية والبشرية فى العالم الإسلامى .

هبت العقيدة الإسلامية بقيادة إسلامية روحية خالصة — قادها العز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وغيرهم ممن قادوا التعبئة الروحية ، وقاتلوا فى مقدمة الصفوف — حتى استطاعوا أن يدحروا الغازين المتبربرين على أعقابهم لم ينالوا خيرا .

والمماليك الذين حموا هذه البقعة وردوا هذه الموجة التترية ، لم يكونوا من جنس العرب ، إنما كانوا من جنس التتار !! ولكنهم صمدوا فى وجه بنى جلدتهم الغازين ، حمية للإسلام ، وانتصار للعقيدة ، لأنهم كانوا مسلمين صمدوا بإيمانهم بالعقيدة الإسلامية ، وبوازع من الإيمان بالرسالة السماوية ، ولقد حمى صلاح الدين بالعقيدة البلاد والعباد ، من المطامع الصليبية والأحقاد الإفرنجية الزاحفة ، بعد أن تجمعت ملوك أوروبا استجابة لأمر البابا ، وسارت فى حملة تجردت من كل صفة للإنسانية ، تسفك الدماء ، وتقطع الأشلاء ، فقتلت فى معرة النعمان وحدها مائة ألف نسمة ، وزحفت إلى بيت المقدس ، فقتلت فى القدس كل من وجده ، ولم يسلم منهم طفل أو شيخ أو امرأة وارتكبوا من الأعمال الوحشية ما يندى له الجبين . ولقد بلغ عدد القتلى فى بيت المقدس وحده — ٧٠ ألف نسمة^(١) ، ولقد كان الإسلام يتحدى مع المقاتلين تلك الهمجية والعنصرية ، كما كان الإسلام المحرك الأول لضمير المظفر قطز والظاهر بيبرس فى كفاحهم للتتار والمخربين .

ولقد صمد الإسلام وصمد ، وما يزال يصمد لما هو أعنف وأقسى من هذه

(١) انظر فى ذلك معارك العرب الحاصمة صبحى عبد الحميد ص ١٦٤ .

الضربات الوحشية ، يتحدى ويجالد ، ويقف كالطود ، رغم المحاولات المستميتة المدمرة التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان ، ورغم المؤامرات التي تحيكها دول وعقول ، وقوى وتهاويل ، إلا أن الإسلام هو الإسلام ، والعقيدة هي العقيدة ، والتحدى هو التحدى ، فى كل ميدان ، فالإسلام هو الذى كافح الفرنسيين فى الجزائر على يد ابن باديس ، وحارب الطليان فى ليبيا بساعد عمر المختار . والإسلام هو الذى هب فى السودان فى ثورة المهدي الكبير ليجالد الإنجليز ، ويقلق الاستعمار البريطانى ، والإسلام هو الذى نازل الإنجليز فى القنال وأقضى مضاجعهم . والإسلام هو الذى نازل العصابات اليهودية فى فلسطين ، ولقنهم درسا مازال فى أسماعهم للآن ، ويعملون له ألف حساب وحساب ، والإسلام هو الذى يكافح فى الفلبين وإرتريا ، والإسلام الآن هو الذى يقف أمام روسيا فى أفغانستان ، ويلوى عنان وذيل أعنى دولة فى العالم ، ويذهلها ، ويحيرها ، وينتصر عليها ، رغم قلة زاد الأفغان ونُدرة سلاحهم وعتادهم . حتى روى شهود عيان كيف يستسلم الجنود الروس الذين يركبون الدبابات والعربات المصفحة إلى المجاهد الأفغانى المسلم ، بمجرد أن يهجم عليه بالعصا مكبرا لله سبحانه ، وعندما كان يسأل الروس عن سبب إنكسارهم كانوا يقولون أن معهم سلاحا جديدا اسمه : الله أكبر ، إذا نادوا به أحاطوا بنا وغلبنوا على أمرنا . وكَمَ للإسلام من تحديات وتحديات ، تظهر فى قوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ ^(١) ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ ^(٢) .

وفى قوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾ ^(٣) ، وفى قوله تعالى : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون

(١) آل عمران — ١٢٦ .

(٢) الأنفال — ١٠ .

(٣) البقرة — ٢٤٩ .

(٤) محمد — ٣٥ .

إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ﴿١﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿٢﴾ ، وفي قول الرسول ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » ﴿٣﴾ ، وقوله ﷺ « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادا في سبيل وإيماننا بي وتصديقا برسلي ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلمه في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة حين كُلم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك . والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، وشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » ﴿٤﴾ . إن عنصر القوة كامن في طبيعة الإسلام ، في بساطته ، ووضوحه ، وشموله ، وأنفته ، وعزته ، وملاءمته للفطرة البشرية ، وتلبية حاجاتها الحقيقية كامن في استعلائه عن عبودية العباد ، وعبوديته لله سبحانه ، في رفضه التلقى إلا منه والخضوع إلا لله رب العالمين ، كامن في قيمه العليا وفضائله وأخلاقه ، كامن في روحانيته ، وثباته المذهل ، وسلطانه الخارق ، وتصريفه العجيب ، وحكمته البالغة .

ولهذا فإن أعداء الحق يعرفون قوته ، ويخبرون جبروته وسطوته ، وهم لهذا لا يهدءون من حربه ، ولا يستريحون من إطلاق حملات القمع والإبادة لمعتنقيه

(١) آل عمران ١٣٩ .

(٢) آل عمران ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) مسلم ٢ / ١٠١ جهاد ، النووي ٨ / ١٢٥ .

(٤) مسلم ٢ / ٩٥ النووي ٨ / ٩١ جهاد أمارة .

والمنتسبين إليه ، كما أنهم لا يجتمعون من فرقه ، ولا يتحدون بعد شتات ، إلا لحربه والقضاء عليه ، ولكن هذا المناضل العنيد بخصائصه الفريدة يخنقهم ، ويسخر منهم ، ويهزأ بهم ، كما فعل ذلك بالأولين من المجرمين الكافرين ، وسنسمع من جديد قوله تعالى ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (١) .



الفصل الثاني

مستقبل الحضارة الإسلامية

مستقبل الحضارة الإسلامية

في جو القرن العشرين ، وفي رحاب الحضارة الحديثة ، التي طوفت المشارق والمغارب ، وحكمت الأشخاص والجماعات والأمم ، واستولت على الحياة ، وأنشبت أظفارها في كل شيء ، وخلقّت ألف واقع جديد ، وألف عرف مستحدث ، وحولت الأفكار ، وطوعت الأقلام ، وسخرت الإعلام ، وفي أجواء التقدم العلمي المذهل الذي كشف عن كثير من الأسرار ، وحول كثيراً من المجهول إلى المعلوم ، ومن المستور إلى المنظور ، ومن الخفى إلى الجلى ، وفي ظل أمم بلغت من العلم والفهم والعمق المادى مبلغاً يظن بعض الناس أنه الكمال ، وقهر المحال ، وبلغت من القوة ماهياً لها أنها ملكت الأرض ، واستولت على أجواز الفضاء ، ينظر الرأى لحال المسلمين وواقعهم ، وماهم عليه من فكر وعلم وتقدم ، فيحكم بالمقدمات على النتائج ، وبالمشهور على المجهول ، وباليوم على الغد ، فيخرج بنتيجة مظلمة ، ونظرة قاتمة ، عن المسلمين ومستقبلهم ، ولكن كثيراً ما نخدع البروق عن الحقائق ، والمظاهر عن المخابر ، فالحضارة التي بهرت الكثيرين ، وأخذت بألبابهم وعقولهم ، بما قدمت من زخرف وزينة وقوة وقهر وعلم وكشف ، لم تستطع أن تسعد الناس أو تحل الأمن والطمأنينة ، أو تحمى القيم وتحافظ على الخصائص الأساسية للإنسان في الأرض ، بل كانت سوط عذاب على الإنسان ، وعلى حياته في الأرض ، فلم تسعد أصحابها ، ولم ترحم جيرانها ، ولهذا كفر أصحاب العقول بها ، ونفض المصلحون أيديهم منها ، واكتوى بسعيرها الحاملون للوائها . وتفلت الناس من حميمها ، وأصبحوا يبحثون عن بديل يأوون إليه أو ملجأً يحتمون به .

وأما عن حال المسلمين البئيس وواقعهم الأليم ، فهو يحجب الرؤية ، ويعمى على معدن الإسلام الثمين وبياضه الأخاذ ، ولكن هذا لا يخدع الغواص عن درر

الإسلام المستقرة في واقع الحياة ، ولا عن لآلئه المكنونة في تعاليمه ، ولا عن سلطانه في أعماق الفطر ، ولا عن بلسمه في قواريره الشافية ، ولا عن أضوائه في تلك الشمس المتوارية تحت السحب ، ولا يضره ذهول المسلمين ونومهم ، أو يؤثر فيه انصرافهم ولهوهم ، ولكنهم هم الخاسرون والنادمون ، وإذا لم يصح هذا الكم النائم ، أو يرفعو هذا الركب الداهل ، فستنقشع بإذن الله سحبه ، وتزول قتامة ، وتظهر للمستقبل رجاله ، وتعلوا رايته ، وتتقدم مواكبه ، وصدق الله : ﴿ وَإِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُمَا وَطَافٌ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ﴾ (١) . وإنها لفترة أو غفوة ، لا يلبث بعدها العملاق الحضاري أن يتحرك من جديد ، ويعمل عمله ، ويؤدي دوره في الحياة . وقد سبق له ذلك ، واستقبلته الإنسانية بشوق وإعزاز ، وهي اليوم إليه أحسن وأشوق وأحوج ويقولون متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريبا .



البحث الأول بشريات

هناك تعاليم وآيات وبشريات ، هي كالتواميس الكونية التي لا تتخلف أو تتبدل ، لأنهما متفقان في المصدر ، متوازيان في الأثر ، متلاقيان في العمل . عرفها المسلمون وآمنوا بها ، ولبسها أصحاب الحقائق ، ونظروا إليها ، من هذه البشريات وهذه الآيات : نصوص قرآنية . وأحاديث نبوية ، توحى بمستقبل هذا الدين ، وظهور نجمه ، وبزوغ شمس ، واستجابة الفطر له ، وانقيادها لتعاليمه . من هذه الآيات قوله تعالى :

- ١ — ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ^(١).
- ٢ — ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ^(٢).
- ٣ — ﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(٣).
- ٤ — ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ ^(٤).
- ٥ — ﴿ اعملوا على مكانتكم إني عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ،

(١) التوبة — ٣٣ .

(٢) الصف — ٨ .

(٣) آل عمران — ١٣٩ .

(٤) النور — ٥٥ .

ويحل عليه عذاب مقيم ﴿١﴾.

٦ — ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ ﴿٢﴾.

٧ — ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ ﴿٣﴾.

كل هذه الآيات تبشر بظهور الإسلام ، وعلو شأنه ويزوغ نجمه ، وسيادة دعوته ، كما تنبئ بامتداد رقعته ، وكثرة أمته ، وهيمنة رجاله ، وقوة جنده ، وارتفاع شوكته ، فأما عن الآية الأولى وما بعدها من آيات ، فقد أوقفنا على حقائق معينة ، منها قوله تعالى : ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى﴾

الحقيقة الأولى : وهى إرسال الرسول بالهدى ، وتلك الحقيقة تحمل فى طياتها طبيعة هذا الدين وهى الهداية ، كما تحمل فى طياتها أمر الله بتلك الهداية ، فتكون قد جمعت الحقيقة بين الهداية فى المنهج وبين الإرادة الإلهية المصاحبة لها .

الحقيقة الثانية : وهى أنه دين الحق . دين الحق الذى تنتهى إليه الحقيقة فى كل شيء ، فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة . دين الحق الذى يلجأ إليه المظلومون والتائهون ، دين الحق الذى يفصل بين النور والظلام ، ويثوب إليه الناس هرباً من هجير الباطل وحمأة الأهواء والشهوات .

الحقيقة الثالثة : ليظهره على الدين كله ﴿تبشر هذه الحقيقة مع ماسبقها بظهور الإسلام على غيره من الديانات ، وعلو شأنه المستتبع لسيادة تعاليمه وعزة أمته ورفعته رايته ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ .

الحقيقة الرابعة : ﴿ولو كره المشركون﴾ ، وهو تأكيد لقوله تعالى : ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ فنور الله الذى قرر أن يتممه هو دعوة الإسلام ودعوة الحق والهداية ، وإذا أراد الله شيئاً فلا راد

(١) الزمر — ٣٩ .

(٢) الصافات ١٧٣ .

(٣) البقرة — ٢٤٩ .

الحكمه ، في الوقت الذي يشاء والزمان الذي يريد ، ومعارضة المشركين والكافرين لإرادة الله — المتمثلة في هذا الدين ، وفي تلك الهداية — لا وزن لها ، ولا جدوى من عنادها ؛ لأنها محكوم عليها بالفشل . يعرف ذلك المسلمون والواثقون ، وقد بينه رسول الله ﷺ في خطابه لهم قائلا : ﴿ اعملوا على مكانتكم ، إني عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ . وبعد هذه الحقائق ، فليست هذه نهاية المطاف ، وليست فترة من الزمن انقضت ومرت ، لأن وعد الله قائم ينتظر العصبة المسلمة التي تحمل الراية وتمضي لترى ذلك وتسمعه وتعيشه إن شاء الله .

ماورد من بشرىات في أحاديث الرسول :

• ماسبق من آيات تبين إرادة الله في هيمنة الإسلام وهدايته على الأديان كلها . وقد يظن ظان أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ ، وعهد الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين ، وليس كذلك ؛ فإن الذي تحقق إنما هو جولة من الجولات ، وجزء من وعد الله الصادق الذي لا يتخلف ، وإن ما بين الحق والباطل من جولات مستمر مابقى الليل والنهار ، وما بقيت الحياة حياة ، يؤيد هذا ماأشار إليه رسول الله ﷺ حين قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقالت عائشة : يا رسول الله : إن كنت أظن حين أنزل الله ﷻ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ أن ذلك تأمًا ، قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله .^(١)

وقد وردت أحاديث أخرى عن رسول الله ﷺ توضح مبلغ ظهور الإسلام ، ومدى انتشاره ، بما لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام ولتعاليمه . منها :

أولا : قول الرسول ﷺ : « إن الله زوى (أى جمع وضم لى) الأرض ، فأريت

(١) رواه مسلم فتن ٢ / ٣٦٨ ، ونووى ١٠ / ٤٢٢ انظر تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص ١٢٢ .

مشارقتها ومغارها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها » (١).

فى هذا دليل على أن مشارق الأرض ومغارها وأقطارها ووديانها ستكون إسلامية ، وستدخل تحت راية الإسلام ، وتسير بمنهجه ، وتحت كنفه . يؤيد هذا ويعضده قول الرسول ﷺ :

« ليلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاء يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر » (٢).

ومما لاشك فيه أن بلوغ الإسلام هذا المبلغ يستلزم رجالا قادرين على تبليغ دعوته ، وحمله ، والجهاد فى سبيل الله ، وشرحه للناس ، كما يقتضى أن يعود المسلمون أقوياء فى معنوياتهم ومادياتهم ، حتى يكونوا جندا للحق ، يتغلبون على قوى الكفر والطغيان ، هذا إلى جانب تعاليم الإسلام ومبادئه ، التى تفتح مغاليق القلوب ، وتنفض إلى خفايا الصدور ، وتعمل عملها فى الفطرة .

ثانيا : بشرى رسول الله ﷺ بالفتح والنصر الذى تحقق بعضه ، ومازال البعض الآخر ينتظر التحقيق .

وقد وردت فى ذلك آثار عدة عن رسول الله ﷺ ، سواء كان ذلك فى بدء الدعوة أو بعد انتصارها . فما حدث الرسول ﷺ به فى بدء الدعوة ما رواه البخارى فقال : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا بيان وإسماعيل ، قالوا سمعنا قيسا يقول : سمعت خبابا يقول : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد ببردة ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : « لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه

(١) الحديث رواه مسلم (١٧١ / ٨) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذى (٢٧ / ٢) وصححه . وابن ماجه (رقم ٢٩٥٢) وأحمد (٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان وأحمد أيضا (٤ / ١٢٣) من حديث شداد بن أوس .
(٢) رواه ابن ماجه فى صحيحه (١٦٣١ ، ١٦٣٢) وأبو عريه فى المنتقى من الطبقات (٢ / ١٠ / ١) والحديث صحيح صححه العلماء وصححه الألبانى فى تحذير الساجد ص ١٢١ .

من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق اثنتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، ما يخاف إلا الله عز وجل » وفي رواية والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون^(١)

أخبر الرسول ﷺ — وهو في بدء أمره — بظهور الإسلام ، واتساع أمره ، وعلو شأنه ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله عز وجل ، « وقد تحقق ذلك ، وفتحت البلاد ، وعم السلام والأمن .

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق والبيهقي وابن جرير عن الرسول ﷺ في غزوة الخندق ، لما اعترضت صحرة ، فضربها رسول الله ﷺ ، فبرقت منها برقة ، ثم ضربها ثانية فبرقت برقة أخرى ، ثم ضربها ثالثة فبرقت أخرى ، فلما سئل عن ذلك قال : أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق^(٢).

وقد كان ذلك ففتح الله على المسلمين كل هذه الديار ، وقد كانت تلك البشرية في شدة وضيق في غزوة الأحزاب ، حيث تجمعوا على المؤمنين من كل حذب وصوب ، وتقول المنافقون ، وظنوا بالله الظنون ، وقال القرآن حاكيا ذلك : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا^(٣) ﴾ ، وقد كان الموقف جد شديد ، ذهبت الحلوم ، وزلزلت فيه الأقدام : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا^(٤) ﴾ ، وفي وسط هذه الزلازل التي لا يتماسك فيها الفرد تستبعد الوعود ، وتضيع الكلمات والأمانى ، ولكن هناك صنف يعتقد في تلك الكلمات النبوية وضمها إلى التواميس التي لا تتخلف أو تحيد أو تبعد ، ﴿ ولما رأى المؤمنون

(١) رواه البخارى فضائل ٤ / ١٨٥ ، عيني ٧ / ٦١٤ ، عسقلاني ٧ / ٤١ ، قسطلاني ٦ / ١٢٣ وأبو داود جهاد — ٩٧ ، وأحمد ٥ / ١٠٩ ، ١١١ ، ٦ / ٣٩٥ .

(٢) رواه ابن كثير في السير ج ٣ / ١٩١ ، ١٩٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد .

(٣) الأحزاب — ١٢ .

(٤) الأحزاب — ١١ .

الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴿١﴾ .

ومما روى عن رسول الله ﷺ من بشرى تحقق بعضها ومازال بعضها ينتظر التحقيق .

عن أبي قيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً : أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً » ، يعنى قسطنطينية ، ^(٢) « ورومية هى روما كما فى » معجم البلدان ، « وهى عاصمة إيطاليا اليوم ، وقد تحقق الفتح الأول — وهو القسطنطينية — على يد محمد الفاتح العثمانى كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمان مائة سنة من إخبار النبى ﷺ بالفتح ، وسيحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولابد ، لإخبار الرسول ﷺ بذلك ، وقد تحقق الشطر الأول من نبوءة ﷺ ، ونحن نرقب ، وكذلك الإسلام يرقب تحقيق الشطر الثانى ، وهو هذا الفتح لرومية ، ولتعلمن نبأه بعد حين . ومن تلك البشريات التى بشر بها الرسول ﷺ قبل وجوده ، وتحققت بعده ، وكانت من معجزاته ﷺ : حديث مع أم حرام رضوان الله عليها ، فيما أخرجه مسلم عن أنس رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً ، فأطعمته ، ثم جلست تفلئ رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت ما يضحكك يارسول الله ، قال : « ناس من أمتى ، عرضوا على غزاة فى سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسيرة ، أو مثل الملوك على الأسيرة » ، « يشك أيهما قال :

(١) الأحزاب — ٢٢ .

(٢) قول عبد الله هنا أبو زرعة أيضاً فى تاريخ دمشق (٩٦ / ١) وفيه دليل على أن الحديث فى عهده ﷺ .

قالت : فقلت يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها ، ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يارسول الله ؟ قال : « ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله » كما قال في الأولى ، فقلت يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت من الأولين » ، فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت^(١) وقد تحقق ذلك عند غزو قبرص زمن معاوية . ويقول السوي عن هذا الحديث « فيه معجزة للنبي ﷺ ، منها إخباره ببقاء أمتيه بعده ، وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد ، وأنهم يغزون ، وأنهم يركبون البحر ، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان ، وأنها تكون معهم ، وقد وجد بحمد الله تعالى كل ذلك ، وفيه فضيلة لتلك الجيوش ، وأنهم غزاة في سبيل الله »^(٢).

وتظهر العظمة في تلك المعجزة حين يتأمل الإنسان ، في قول أم حرام لرسول الله ﷺ — حين رأى الغزاة في المرة الأولى — ادع الله يارسول الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها أن تكون منهم ، ثم رأى الغزاة ﷺ في المرة الثانية ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال الرسول ﷺ لها : أنت من الأولين ، ولم يرض أن يدعو لها أن تكون من المجاهدين في المرة الثانية ، لسبب يظهر عظمة الرسول ، وصدق نبوءته ، وهي أنها تموت في المرة الأولى ، فكيف تخرج في المرة الثانية مع المجاهدين ، ولو كان النبي ممن يوزع الوعود ، أو يعلل بالأمان ، كما نرى من يفعل ذلك من أرباب الدنيا ومن مكفوف البصيرة ، لقال لها وأرضاها بقوله أنت من الثانية ، وماذا يضيره من ذلك ، ولكن كلام النبوة يحمل من البصيرة ما يرى به ظهر الغيب ، وما يكون معجزة مثمرة كدعوته ، ممتدة كنوره وهديه ، يحفظها الزمان ، وترسمها الأيام .

ثالثا : حديث رسول الله في الأمراء ، وفيه يخبر رسول الله ﷺ أن حكم

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٦) والدارمي (١ / ١٢٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٧ / ١٥٣ / ٢) وأبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن (١١٦ / ٢) والحاكم (٣ / ٤٢٢ ، ٤ / ٥٠٨) وعبد الغنى المقدسي في كتاب العلم (٢ / ٣٠ / ١) وقال « حديث حسن الإسناد » وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا .
(٢) النووي على مسلم ١٣ / ٥٨ ج ١ المطبعة المصرية .

المسلمين سيؤول بعد تشتت ، وملك عاض ، وبغى ، وظلم ، إلى خلافة صالحة تستمر وبها يهتدى الناس ، وهذه الأجواء هي التي تصلح لدخول الناس في دين الله أفواجا ، وتكون مثلاً يحتذى ونورا يضاء به المشارق والمغارب . نرى الرسول ﷺ يبين ذلك في خطبته فيما تحدثنا به كتب الحديث : روى الإمام أحمد قال : حدثنا سليمان بن داود الطيالسي ثنا داود بن إبراهيم الواسطي ثنا خبيب بن سالم عن النعمان بن بشير قال : كنا قعودا في المسجد ، وكان بشير رجلا يكف حديثه ، فجاء أبو ثعلبة الخنعمي فقال : يا بشير بن سعد ، أت حفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته . فجلس أبو ثعلبة ، فقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت ^(١) » .

وهذا الحديث يبشر بوحدة المسلمين بعد فرقة ، وصلاحتهم بعد شرود ، كما يبشر بأن الخلافة الإسلامية ستستمر بعد تلك الأطوار السابقة التي بينها الرسول ﷺ ، وهذا ينبىء عن مستقبل زاهر لتعاليم الإسلام وقيمه ، وعن خضوع ورضى بخلافته وحكمه ، وحب لعدله ومنهجه ، ولهذا تستمر خلافته ولا تتعرض للفتن والمنغصات ، دلالة على أنها ستستمتع بصفات البقاء والدوام ، لأنها محروسة بالعدل والحب والتوازن العقلى والفطرى والإنسانى .

رابعا — مبشرات بمستقبل اقتصادى ومادى زاهر للمسلمين ، لاستكمال قوتهم ، وعلو شأنهم ، فأرضهم القاحلة ستصبح مطمح الناس ، ومنبت الخير ،

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٧٣) ، ورواه الحافظ العراقى في محجة القرب إلى محبة العرب (١٧ / ٢) وقال هذا حديث صحيح ، وإبراهيم الواسطي وثقة أبو داود الطيالسي وابن حبان ، وباقي رجاله محتج بهم في الصحيح . والحديث في مسند الطيالسي (رقم ٤٣٨) وقال الهيثمى في المجمع (٥ / ١٨٩) رواه أحمد والبخاري عنه والطبراني ببعضه . الأوسط ، « ورجاله ثقات » .

ومبعث النماء والاستثمار ، ومحط الرخاء ، وجنة الأرض ، عنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلًا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، نرى ذلك فيما يرمز إليه رسول الله ﷺ بقوله :

« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً ^(١) » ، والتماء والرخاء والسعادة المادية دائماً تصحب الاستقرار والإصلاح والأمن ، كما أن وجود ذلك في بلاد المسلمين تحقيقاً لأخبار رسول الله ﷺ ونبوءته يدل دلالة واضحة على أن تلك الأمة ستكون مرضياً عنها من الله ، وليس ذلك إلا باتباع منهجه ، والسير في طريق طاعته ورضاه . ومعنى ذلك أنه ستكون للمسلمين حضارة زاهرة ، ومستقبل رغيد ، ترجع الناس إلى أنوار الحضارة الأولى ، تلك التي آثرت العالم ، وكانت مثلاً فريداً ما زالت في ذاكرة الزمان ترانيمه وأهازيجه ومراعيه ، وأما ما ورد من أحاديث في الفتن والشُرور ، فيجب أن تفسر في ضوء تلك الأحاديث . فمثلاً من أحاديث الفتن : قول الرسول ﷺ « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ^(٢) » ، فهذا الحديث ليس على عمومته ، بل هو على العام المخصوص ، يمثل فترة من الزمان ، وهي فترة الفتن التي صاحبت الخلافة الأولى ، وكانت فترة عصيبة ، حملت في طياتها الكثير ، وصاحبت فترة أخبر الرسول عنها في حديث الأمراء ، وهي فترة الملك العاض وأمثالها ، مما أشار الرسول ﷺ إليها ، فلا يجب أن تسحب على باقي الزمان ، وإن من يريد أن يعممها إما مسلم لم يملك الدراية الكافية ، أو عدو يريد أن يلقي في قلوب المسلمين الوهن ، ويلفتهم عن عقيدتهم وحضارتهم وتعاليمهم ، لأنه يعلم أنها إن ظهرت لن تبقى للباطل دولة ، أو تذر للبغى صولة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ^(٣) صدق الله العظيم .

الفرق بين المعجزات والتهاويل

يحس الإنسان العليم بالتاريخ أن هناك فرقاً كبيراً بين المعجزات التي تتحقق للأنبياء ، وبين التهاويل التي يطلقها الزعماء والرؤساء والقادة على مر العصور ،

(١) رواه مسلم (٣ / ٨٤) وأحمد (٢ / ٧٠٣ ، ٤١٧) والحاكم (٤ / ٤٧٧) من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري في الفتن من أحاديث أنس مرفوعاً .

(٣) الإسراء / ٨١ .

ويرفعونها كشعارات أو حسابات بشرية . يرى تحقق الأولى وصدقها ، وكذب الأخرى وتهافتها ، وإذا أردنا أن نتصفح التاريخ ، ونقلب صفحاته ، لنتحقق من صدق تلك النظرة وصواب هذا الواقع ، نرى أن عددا كبيرا من أذكاء الناس وعباقرتهم قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم ، ولكننا نعرف كذلك من التاريخ أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبه بكل قسوة ، رغم ماكانوا فيه من فرص مواتية وأحوال مساعدة ، ورغم كثرة الأعوان والأعتدة والجند . وندع التاريخ يضرب لنا الأمثلة على ذلك .

١ — كان نابليون بونابارت من أعظم قواد الجيوش في عصره ، وقد دلت فتوحاته وانتصاراته على أنه صاحب موهبة فذة ومقدرة عجيبة على القيادة والإدارة ، تجعله ندا لقيصر ، والاسكندر المقدوني ، وكبار قادة التاريخ . وترتب على ذلك أن تسرب إليه الغرور ، وأخذته العزة بالإثم ، فأصبح يتوهم أنه ملك الدنيا يمينه ، والقدر بشماله ، وازداد هذا الشعور لديه حتى ترك مستشاريه ، وادعى وتبأ أنه سيملك العالم ، وأنه لن يقف أمامه شيء ، وأنه لا يعرف المستحيل . وماذا كان من أمره بعد ذلك ؟ لم يمس على نبوءته هذه إلا القليل ، وبالتحديد ستة أيام ، حتى كان طريق البؤس والشقاء والحرمان . ننظر إلى التاريخ يحدثنا عن ذلك ، فيقول : « سار نابليون يوم ١٢ من يونيه سنة ١٨١٥ مع جحفله وجيشه العظيم ، ليقضى على أعدائه ، ويملك الدنيا كما تنبأ ، ولم تمض ستة أيام حتى ألحق به « دوق ولنجتون » شر هزيمة في معركة « وولتر » ، وفر نابليون هاربا بعد القضاء على جيشه ، متوجها إلى أمريكا ، ولكنه قبض عليه على الشاطئ ، ونفى إلى جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات بها طريق البؤس والشقاء والوحدة والاحتقار .

٢ — وأودلف هتلر الذى قال في خطابه الشهير ، الذى ألقاه بميونخ في ١٤ مارس سنة ١٩٣١ : « إننى سائر فى طريقى ، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبنا لى » ^(١) . وماذا كان بعد ذلك ؟ كان ما يعرفه العالم كله ، أن ذلك الجنرال العظيم

كان مصيره الهزيمة والانتحار ، ووقوع أمته أسيرة ، ومازالت تعاني الأسر والتقسيم إلى اليوم .

٣ — كارل ماركس الذى كتب فى مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : « إن الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس ! » ورغم مرور — ١٣٧ عاما على تلك النبوة ؛ فإن شمس الجمهورية الحمراء أبعد ما تكون عن فرنسا وباريس . ونحن نرى كل يوم نبوءة لزعيم أو رئيس يأبى الزمان إلا أن يردّها على أعقابها ، فنرى من يقول أن العام عام رخاء أو عام الاستقرار ، فإذا به يكون عام القحط أو عام القلاقل والمصاعب وما إلى ذلك ، وكأنها نبوءات مسيلمة أو سجاح .

فأين هذه النبوءات من نبوءات الأنبياء وأصحاب الرسالات أمثال رسول الله ﷺ ، وأين هذه من نبوءات القرآن الكريم ، تلك النبوءات التى برزت فى وقت كان المسلمون فيه بينهم وبين النصر كما بين السماء والأرض ، لا يملكون من أسباب النصر إلا الإيمان الذى فى قلوبهم المنيرة . أما ما عدا ذلك من الأسباب الأرضية فلا يوجد منها شئ يلوح فى الأفق ، لا أمن ، لا رجال ، لا جيش ، لا دولة ، لا مال ، لا حرية . ووصل المسلمون إلى مرحلة اضطر الرسول أمامها أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى جهات مختلفة ، فرارا من العذاب والجوع ، وأن يأكل ورق الشجر هو ومن معه ، وأن يسمع أنين المعذنين فى سبيل الله ، وأن يراهم يسحبون على وجوههم فى حر الرمضاء ، ويرى أثر الحديد المحمى على ظهور أصحابه ، ثم يقول بعد ذلك مبشرا ، « والله ليؤمن الله هذا الأمر حتى يكون الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » . وتحقق تلك الوعود رغم كل ذلك ، ويحدثه القرآن بأنه ظاهر على الدين كله رغم كل العوائق والقيود والسلود : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ، ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ (١) . ويتحقق ذلك ، وينتصر

(١) الصف — ٨ ، ٩ .

(٢) المجادلة — ٢١ :

الإسلام ويغلب ، وسيظهر إن شاء الله على الدين كله ولو كره المشركون .

ويتعدى الأمر هذا النطاق ، فيبشر القرآن المسلمين بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين ، ويؤكد هذا النصر نصر آخر للمسلمين في بدر ، ليفرح المؤمنون بنصر الله . وقد جاءت البشارة بانتصار الروم على الفرس في وقت كانت الروم مهزومة هزيمة منكرة ، أيأستها وأزالت كل أمل لها في الوجود ، فضلا عن النصر . فقد أخذ الفرس العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى ، وتقلصت الامبراطورية الرومانية في عاصمتها ، وسدت الفرس عليها جميع الطرق في حصار اقتصادى قاس ، وعمَّ القحط ، ومشت الأمراض الوبائية في الشعب الرومانى ، وبدأ الفرس عُباد النار يستبدون ويستبدون الروم للقضاء على المسيحية ، فأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسلمين ، ودمروا الكنائس ، وأقاموا بيوت النار في كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس ، وأرسلوه إلى الدائر . ويمكن قياس الذل والهوان والاستعباد الذى آل إليه هرقل الروم بشنيتين — كمثل على هذا الضياع — :

أولهما : خطاب وجهه كسرى فارس إلى هرقل الروم من بيت المقدس الرومى ، قال فيه : « من لدن كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل : إنك تثق فى إهلك . فلماذا لا ينقذك إلهك المقدس من يدى » (١)

ثانيهما : شروط الصلح التى كانت بين الروم والفرس ، التى رضى الفرس أن يعفوا بمقتضاها عن الروم ، ويكفوا عن مهاجمة ما بقى تحت أيديهم ، وهى :

« أن يدفع ملك الروم » ألف تالنت « التالنت ٢٦ كيلو جرام » من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب من الحرير « الثوب ثلاثة أمتار » ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء (٢) ؛ ولهذا استبد القنوط واليأس بهرقل من هذه

(١) الإسلام يتحدى — لوحيد الدين خان ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .

الأحوال السيئة ، وحاول الفرار وترك الامبراطورية ، وبعد لأى واستعطاف باسم المسيح والدين من كبير الأساقفة رضى هرقل أن يلغى فكرة الهروب . فى هذا الجو الكئيب ، يبشر القرآن أتباعه بغلبة الروم ، بل ويتحدى المشركين بذلك فيقول : ﴿آلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ ، اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

« يروى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم فلما نزلت : ﴿آلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ (٢) قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك « أى نراهنك » ، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء ، وفرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ما بضع سنين عندكم قالوا : دون العشر ، قال : « اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . وفرح المؤمنون بذلك (٣) » وكان النصر للروم ، وكان تحقيق وعد الله سبحانه الختمى ، لأن هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذى لا يتغير ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعلمون الكثير الذى يتعلق بظواهر الحياة ولا يتعمق أسرارها وسننها الثابتة ، فهذا النصر الذى كان مستحيل التحقق بعيد المنال لما تعلق بوعد الله سبحانه صار حقيقة فى عالم الواقع والحياة ، يوثق بها ، ويركن إليها ، ويراهن عليها ، ونظر بأسبابها ، بغير تعارض مع المشيئة والنواميس التى تصرف هذا الوجود . فقد أرادت المشيئة أن تكون كلمات الأنبياء ووعد الوحي قوانين لا

(١) الروم — ١ — ٦ .

(٢) الروم — ١ : ٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٣ ط المعرفة بيروت .

تتخلف ، لأنها صادرة من علم كاشف ، ونور باهر ، وإرادة قادرة . فأين هذا من وعود المغرورين المغفلين ، الذين يعلمون ظواهر الأشياء وقشورها ، ولا ينفذون إلى لبابها وأعماقها ، ولهذا ، كانت الأولى صادقة لا تتخلف ، لأنها تصدر عن علم وفهم وقدر ، والأخرى كاذبة قائمة ، لأنها بغير نور ولا هدى ولا علم .

أمة غلالة :

هذه الأمة هي قدر الله الغالب ، وأمره النافذ ، وسنته الباقية . وصدق الله ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾^(١) .

هذه الأمة طبيعتها الغلبة والهيمنة والريادة والتميز : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾^(٢) . وملاحح هيمنة هذه الأمة تتمثل في عناصر معينة ، منها : أنها غلالة بوحدها :

فهى أمة واحدة ، متماسكة البنيان ، قوية الأركان ، واضحة الغاية ، جيدة الأحاسيس ، علمت ذلك من قرآنها في قوله تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾^(٣) .

إذا فوحدة هذه الأمة ترتكز على ثلاث عناصر :

الأول — وحدة في الغاية والوجهة والهدف .

الثاني — وحدة في الأفكار والمفاهيم والثقافة .

الثالث — وحدة في المشاعر والأحاسيس .

وقد ربط الحق سبحانه هذه الوحدة بسياج رباني ، جمع بينها بعد فرقة ، وألف بينها بعد عداوة ، فقال سبحانه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ،

(١) الصافات — ١٧٣ .

(٢) آل عمران — ١١٠ .

(٣) المؤمنون — ٥٢ .

واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴿١﴾ . وقد وصف الرسول ﷺ المشاعر المشتركة بين المسلمين في قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحصى والسم » ﴿٢﴾ .

غلبة رسالتها :

أمة تحمل رسالة عالمية ، فليست أمة قومية أو إقليمية ، بل أمة عالمية جامعة ، وضعها الله ميزانا للبشرية ، في السلوك ، وفي الخلق ، وفي العدل ، وفي العلاقة الربانية . وصدق الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ﴿٣﴾ .

غلبة بقوتها :

أمة رهبانيتها الجهاد ، ورزقها تحت رحمتها ، مجتدة للحق ، مدافعة عنه ، مزهقة للباطل ، ماحقة له ، اشترت الجنة بالنفوس والأموال : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ﴿٤﴾ ، تجارتها في الدنيا وغايتها وحياتها وعملها ؛ الثواب والمجد ورضاء الله : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ﴾ ﴿٥﴾ . « انتصرت قديما بما لا يخفى على أحد ، وضعفت بتركها لمنهجها ، ولكنها تحمل روح المقاومة والتحدى ، تراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة أشد ما تكون قوة وأصلب ما تكون عودا ، حتى أن الناس ليظنون بها الظنون ، ويحسبونها في عداد الهلكى ، فإذا هي في فترة وجيزة ، تغلب على عوامل الضعف المحيطة بها ، بروح القوة المكنونة في أعماقها ، فيرون انتصارا بعد انكسار ، واجتماعا بعد شتات ، وحياة وحركة بعد جمود وهمود . رأينا ذلك في

(١) آل عمران — ١٠٣ .

(٢) مر تخرج هذا الحديث .

(٣) البقرة — ١٤٣ .

(٤) التوبة — ١١١ .

(٥) الأنعام — ١٦٢ .

حروب الردة ، ورأيناه في الحروب الصليبية ، ورأيناه في حروب التتار ، ورأيناه حديثا في الجزائر ، وفي إرتريا ، وفي الفلبين ، وفي أفغانستان ، وهذه إرهابات لقيام العملاق وتحرك المارد ، تتمثل في الحركات الإسلامية المتململة المنتفضة ، التي تكون طلائع لأبد منها لبلورة الفكر العملي والحركي للإسلام ، ولهذا نجد جانبا من المستشرقين والدارسين والمتخصصين لطبيعة ديننا وخصائص أمتنا ومذخور طاقتنا يدركون بعض تلك الحقائق الموجودة في طبيعة هذه الرسالة ، وفي أعماق تلك الأمة ، فيحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها في يوم من الأيام .

يقول البروفيسور « جب » في كتابه « وجهة الإسلام » : « إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة ، تدعو إلى الدهشة . فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها . إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الرعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد ^(١) .

وكتب الرحالة الألماني « بول شيمتزر » كتابا خاصا بهذا الموضوع سماه « الإسلام قوة الغد » ظهر سنة ١٩٣٦ ومما قال فيه :

« إن مقومات القوى في الشرق تنحصر في عوامل ثلاثة » :

١ — في قوة الإسلام كدين ، وفي الاعتقاد به ، وفي مثله ، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة .

٢ — وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي ، الذي يمتد من المحيط الأطلسي على حدود مراكش غربا إلى المحيط الهادى ، على حدود أندونيسيا شرقا ، وتمثل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ، ولاكتفاء ذاتي ، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقا إلى أوروبا أو إلى غيرها ، إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

(١) الأمة القطرية ، العدد الأول السنة الأولى ص ١١ .

٣ — وأخيراً أشار إلى العامل الثالث ، وهو خصوبة النسل البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية متزايدة . ثم قال : فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ، فتأخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ، كان الخطر الإسلامى خطراً بقاء أوربا ، وبسيادة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله ... »

ثم يقول ويقترح لصدد هذا الخطر الذى صورته ماحقاً لأمتة : أن يتضامن الغرب المسيحى شعوباً وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن فى أسلوب نافذ حاسم^(١). « وقال روبرت بين فى مقدمة كتابه « السيف المقدس » : « علينا أن ندرس العرب ، ونسير أفكارهم ، لأنهم حكموا العالم سابقاً ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، سيما والشعلة التى أضاءها محمد لاتزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ . ولهذا ألفت هذا الكتاب لكى يقف القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين ، الذى ناله محمد فى موقعة بدر ، تذكاراً لانتصاره ، لأن السيف أصبح رمزاً لمطالب الامبريالية^(٢) .

هذه ملامح تلك الحضارة التى ترهب الباطل ، وتبعث الأمل فى نهضة جديدة على الحق وللحق ، وفى الخير وللخير ، ليرتاح المكذوب ، ويستظل من هجير الصراع ، ولكن الباطل يدبر ولا ينام ومعه الأهوال من العناد ، وقد عودنا الإسلام التحدى والغلبة فى النهاية . إن الله لقوى عزيز .

(١) انظر الكتاب الذى ترجمه من الألمانية إلى العربية الأستاذ الدكتور محمد عبد الغنى شامة تحت عنوان « الإسلام قوة الغد العالمية » نشر مكتبة وهبة القاهرة . وقد أخذت هذه الفقرة من محاضرة الدكتور محمد البهى ومن ترجمته .

(٢) السيف المقدس « ص ١٧ من الكتاب الإنجليزى ، وقد نقل هذه الفقرة الدكتور القرضاوى فى بحثه عن الأمة الإسلامية » .

المبحث الثانى

حاجة الإنسانية إلى الرقى

تحتاج الإنسانية إلى الرقى النفسى والروحى ، كما تحتاج إلى الرقى المادى ، بل إن الرقى النفسى أُلزم للإنسان وأفضل ، بل هو حياته الآدمية وقيمته البشرية ، فبقدر رفعة ورقبه الروحى والنفسى تكون قيمته ، ويكون أيضا سروره وسعاده ، والإنسانية اليوم جوعى إلى الرقى الروحى والنفسى ، تبحث عنه أكثر مما تبحث عن الطعام ، لأنها تريد أن تعيش حياتها بطبيعة الإنسان ، لا ينهم الحيوان ، وبشفافية الروح ، لا بقتامة الطين ، والنظام الذى يحقق لها توازنها واتزانها ، فلا يهمل الجسد ، ولا يتخلى عن الروح ، ولا يطلق الشهوات ويقيد القيم ، وإنما يساير الفطرة ، ويرعى الطبيعة ، هو الذى سيسود ويبقى ، ويرسخ ويثمر ، ويؤتى أكله .

والحضارة الحديثة اليوم — وباعتراف أبنائها وعلمائها — لم تعط العلوم الإنسانية أو القيم الروحية أو النزعة الخلقية. الاهتمام اللازم لحفظ الإنسان وسعاده ، بل زادته حيرة وتعقيدا وشرودا ؛ لأنها نباتات أهواء لا جذور لها ، مبتوتة الصلة بالعقائد والديانات ، فلم تنبثق لذلك من نبع صاف ، ولم تأت من معين سليم ، بل قامت على أساس مناقض للعقائد والروحانيات ، فصادمت فطرة الإنسان وفطرة الحياة معا ، ولم تراعى فى الأسس التى قامت عليها ، ولا الوسائل التى اتخذتها ، ولا فى الطريق التى سارت فيه .. لم تراعى فى هذا كله احتياجات الإنسان الحقيقية المنبثقة من طبيعة تكوينه ، وأصل خلقته ، وحقيقة فطرته ، وأهملت إهمالا شنيعا أهم مقوماته التى صار بها الإنسان إنسانا — بل طاردها فى جفوة وعنف واشتمزاز ، واحتقرتها وسفهت معتقدها ، ولهذا فهى لا تلبث أن تحمل عصاها وترحل إن عاجلا

أو آجلا ، لانتها دورها التى خدعت به الكثيرين وأذاقتهم العلقم والصاب .
ولهذا يقول الفيلسوف الإنجليزى « برتراند رسل » :

« لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض . وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون » . وبصرف النظر عن الأسباب التى دعت « برتراند رسل » لأن يلقى هذا القول ، ويتنبأ بهذا التنبؤ ، فإن الحضارة الغربية قد استنفذت أغراضها المحدودة القريبة ، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم ، تصلح لقيادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترقى الحقيقى للعنصر الإنسانى ، وللقيم الإنسانية ، وللحياة الإنسانية . لقد أصيبت بالعمى بعد ما ولدت من أفكار التحرر ضد العبودية والاستغلال والإقطاع والتسلط ، من أمثال الثورة الفرنسية ومبادئها ، ومبادئ الحرية الفردية ، وحقوق الإنسان ، وأمثال ذلك من مبادئ انتهى دورها الآن ، بعد عبودية الإنسان واستغلاله بطرق أخرى مختلفة ومتنوعة ، اقتصادية ، ونفسية ، وحزبية ، وعرقية . وغير ذلك . انتهى دورها لأنها كانت قيما وقتية محدودة ، تروج فى فترة خاصة ، وتواجه حالات محدودة ، وأوضاعا خاصة ، ولم تكن تلك الأفكار رصيذا متجددا لبنى الإنسان لصنع غاية ، وهدفاً يصلح للبقاء مدة أطول من الفترة التى عاشتها تلك الأفكار الموقوتة ، وقد يشبهها الإنسان بالجماعات التى تقوم بشعارات معينة لأهداف محدودة فى ذلك الزمان ، كالاستقلال ، والحرية ، والديمقراطية ، وما إلى ذلك . فإذا خرج الاستعمار ، ونالت الحرية ، وحكمت بالديمقراطية — ولو شكلا — فلا يحق لها بعد ذلك أن يكون هذا هو شعارها الدائم ، أو هدفها الوحيد ، خاصة إذا انقلبت هى مستعمرة ، ورائدة للحرىات ، وحامية للقهر والظلم والبهتان .

العناصر الحقيقية للرق والسيادة :

هناك عناصر حقيقية للرق والتقدم والسيادة والقوة ، هى بمثابة عصب لكل أمة ناهضة ، وقلب لكل شعب متقدم ، وتلك العناصر الحقيقية تتمثل فى المبادئ

التي تقوم عليها حضاراتها ، ورسوخ هذه المبادئ في القلوب ، وهيمنتها على الأعمال ، وهذه العناصر الثلاثة هي : باستقامة المبادئ ، والإيمان القوى بها ، وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية ، هي في حياة الأمم بمكان الأس المتين ، والجدار القوى ، والعماد المحكم البناء . فالأمة التي توفرت فيها هذه الأمور ، تصبح سامقة البناء ، سليمة الأرجاء ، قوية متقدمة حضارية ، ممتدة التقدم والرق . ومقاييس الأمة القوية الغالبة المسيطرة ليست منازلها ، ولا ملابسها ، ولا مراكبها ، ولا مرافق حياتها الناعمة ، ولا فنونها اللطيفة ، ولا مصانعها ، ولا كلياتها فحسب ، بل مبادئها ، وغاياتها ، وقناعاتها ، وأعمالها على وفق مبادئ سليمة وغاية واضحة وقيم عليا ، بذلك تعلق كلمتها في الأرض ، وينبسط نفوذها بين الأمم ، وإن كانت تسكن الأكواخ ، وتلبس الأسمال ، وكان أفرادها ضامري البطون من إلحاح الفاقة ، ولم تكن في مدائنها كليات أو مصانع أو قصور ، فإن كل هذه الأشياء التي يعدها البعض أسبابا للرق ومظاهر للتقدم إذا فقدت المقاييس الصحيحة ، تكون بمثابة نقوش وألوان وتهاويل وأغطية لبناء منهار خرب ، لا يمنعه هذا المظهر الخادع من السقوط والانحيار .

الإسلام والعناصر الحقيقية للرق :

هذه العناصر الحقيقية للرق والريادة لا توجد كاملة إلا في الإسلام ، حيث يحمل بين ثناياه استقامة في المبادئ ، وإيمانا قويا بها وتحقيقها ، ينتج هيمنة على الحياة العملية هيمنة كاملة ، تصنع مئلا ونماذج دائمة العطاء ، غزيرة الإشعاع ، قوية الإرادة ، تستطيع بناء الحضارات وتحمل أعبائها ، هذه حقائق ثابتة راسخة بنى عليها القرآن الكريم منهجه الحضارى الإنسانى ، ولهذا وصفت مبادئ الإسلام بأنها توافق الفطرة الثابتة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها ، ومن أجل هذا تمكنت تلك المبادئ في القلوب ، وأشرتها الصدور ، وأقام المسلم حياته عليها ، ماتركت من صغيرة ولا كبيرة إلا وضحتها وبينتها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ،

(١) الروم — ٣٠ .

وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ . وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿١﴾ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤﴾ ومنهج القرآن في تربية الأمة المسلمة . واضح وميسر ومستقيم وناجح ، يقصد إلى القلب والنفس والروح ، فيعالجهم ، فتستقيم بهم الأعمال والأفعال والحياة ، فمثلا لم يعرض القرآن على المسلمين — لكي يكونوا مسلمين — منهجا صناعيا أو عمرانيا أو علميا أكاديميا ، كما لم يأمرهم أن يؤسسوا الشركات والجامعات ، ويصنعوا السفن ، ويفتحوا المصارف ، أو يحاكيوا الأمم الراقية في اللباس والعادات . وإنما أعطاهم مفتاح ذلك كله ، وأسباب هذا جميعه ، وهو الإيمان والعمل الصالح . أعطاهم الإسلام وتعاليمه وقيمه ، أعطاهم قوانين الفطرة ؛ ومفاتيح الإنسانية التي بها يكون الإنسان إنسانا ، ويكون مع ذلك مسلما وحضاريا ، فإذا تحلى بها واتبع قوانينها تحقق إسلامه وحضارته ، وإن لم يكن يملك شيئا ما عدا الإسلام ، وبالعكس من ذلك ، إن هو تحلى بكل ما يُعَدُّ من زينة الحياة الدنيا ، ولكن لم يعمر قلبه الإيمان ، ولم يشربه نفسه ، ولم تتميز حياته باتباع قوانين الإسلام ، فقد يكون مهندسا عظيما ، أو طبيا بارعا ، أو قائدا شجاعا ، أو صانعا ماهرا ، ولكنه لا يملك أن يكون مسلما أو حضاريا .

ومن ثم لا يكون الرقي أو الحضارة أو التقدم الحقيقي إلا بتحقيق تلك المعاني والقيم ، التي بدونها لا يكون الرقي رقيا ، أو التقدم تقدما واستقرارا . وما يريده الإنسان من صناعة أو عمران أو علم سيكون ثمرة لتلك التعاليم ، ونتيجة لهذه المقدمات ، ولكنها ستكون ثمرة مباركة ، ونتيجة طيبة ، لأنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وليست من شجرة اجتثت

(١) البينة — ٥ .

(٢) النور — ٥٥ .

(٣) الأنعام — ١٦٣ .

من فوق الأرض مالها من قرار ، ولهذا كانت حضارة الإسلام جيدة النوع ، ممتازة الثمر ، حلوة الطعم ، هنية المذاق ، وكان غيرها مرا حنظليا خبيثا واهنا ، لأنها تعتمد على القوى المادية فقط . والذين يعتمدون على القوى المادية فقط إنما يعتمدون على أشياء لا قوة لها بنفسها ، ويفضي هذا الاعتماد على شيء لا قوة له ، إلى ضعف ووهن وضياح ، ويصبح كل ما يفعله الإنسان من قوة ، ونظم ، وتعاليم ، وزخرف ، وحضارة ، واهنا كبيت العنكبوت ، وصدق الله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتِيمًا ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

عناصر البقاء في الحضارة الإسلامية :

كون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وإخبار الله عن ذلك في القرآن الكريم بقوله سبحانه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٢) ، وكونه بعث للناس كافة ، ولم يبعث للعرب خاصة ، كما أوضح هذا القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ، وكون شريعته ﷺ جمعت رسالات الأنبياء والمرسلين : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٥) ، وكونه تعالى تأذن بحفظ الشريعة والرسالة ، بحفظ القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦) ، وكون معجزة القرآن العقلية باقية تتحدى الإنس والجن إلى يوم القيامة ، كل ذلك يدل دلالة واضحة أن هذه الرسالة جاءت لتبقى ، وصيغت تعاليمها لتلوم ، وأن هذه الرسالة تحمل بين طياتها أسباب هذا البقاء ، وخصائص هذا الدوام ، ومن تلك الأسباب والخصائص : كونها ديناً للحياة الكريمة .

(٦) الحجر — ٩ .

(١) العنكبوت — ٦١ .

(٢) الأحزاب — ٤٠ .

(٣) سبأ — ٢٨ .

(٤) الأنبياء — ١٠٧ .

(٥) الشورى — ١٣ .

منهج حياة متكامل :

منهج الإسلام منهج حياة متكامل ، يربط الفطرة بالوجود ، ويفتح النوافذ بين الوجود والفطرة ، وبدع هذا الوجود الهائل يغمر الفطرة ، ويحيطها بسياج من الجلال والروعة ، ولهذا يكثر في القرآن الكريم الحث على التطلع والنظر في الكون والعوالم وتدبر صنعة الله فيها ، إن المنهج الإسلامي لا يقدم للفطرة جدلا لاهوتيا ذهنيا نظريا كلاميا ، ولا يقدم إليها فلسفة عقلية أو حسية ، إنما يقدم لها هذا الوجود ، تتفاعل معه ، وتتأمل فيه ، وترتبط به ، وتستدل بعظمته ، وتسترشد بروعته ، يقدم التفسير الكامل للوجود ، وعلاقته بخالقه ، ومركز هذا الإنسان فيه ، فالله الذي خلق هذا الكون وسخره ، وخلق هذا الإنسان وبصره ، هو الذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني ، وهو سبحانه الذي سن للإنسان « شريعة » لتنظيم حياته الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية . ولهذا جاء منهج الإسلام متناسقا مع ميول الإنسان ورغباته الخيرة ، دافعا لها إلى الكمال والجلال والسمو ، جاء بتعاليم جديدة ، رسمت للحياة مثلا أعلى ، يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية وتقاليد فارس والروم والأديان المحرفة .

احترام العقل :

الإنسان خلق وله عقل : إذا فلا بد أن يحترم هذا العقل وأن يناقش في القضايا ، كبيرها ، وصغيرها ؛ ليمارس مهمته ، ويؤدي ما خلق من أجله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) يناقش حتى في مجال الربوبية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ؟ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

(١) الإسراء — ٣٦ .

(٢) الأحقاف — ٤ .

(٣) الحج — ٨ .

عَلِمَ فَلَا تُطْعِمُهُمَا ﴿١﴾، من حقه أن يناقش كيف خلق ، وكيف تُخْلَقُ هذا العالم ، وكيف وُجِدَتْ هذه الحياة من حوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَلَمَّْا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَاعْنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَّاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَارِكُمْ ﴾ ﴿٣﴾ ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ، وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِيرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ ﴿٤﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥﴾ ، إذا ، هذا العقل خلق للحياة وليعيش به الإنسان ، فكيف يتجاهله منهج من المناهج ، وكيف لا يرشد هذا العقل ويستثمر ، وكل منهج لا يعنى ذلك لا يكون منهج حياة . ولهذا جاءت تعاليم الإسلام مبنية في كل شيء على أساس هذا العقل . فلا تكليف إلا بالعقل وبرشده ، لقول الرسول ﷺ — « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ » ﴿٦﴾ .

والقاعدة الفقهية : لا عقاب إلا بكمال العقل وسلامته ، فالصبي غير محاسب حتى يرشد ، والمجنون غير مؤاخذ حتى يفيق ، والنائم غير آثم حتى يصحو . إذا فلا بد لكي يقوم الإسلام ويسود ، لابد له من العقل ، ولكي تنفذ أحكامه لابد لها من العقل أيضا ، ولهذا حرم الإسلام كل ما يستر العقل ، فحرم الخمر وكل ما يغتال العقل ويكبله ، وكل ما يلهيه ويصرفه ، وكل ما يلهيه ويستبدل به الخرافات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

﴿١﴾ العنكبوت — ٨ .

﴿٢﴾ الطارق — ٥ — ٨ .

﴿٣﴾ عبس — ٢٤ — ٣٢ .

﴿٤﴾ ق — ٦ — ٨ .

﴿٥﴾ الجاثية — ٣ — ٥ .

﴿٦﴾ رواه أحمد ١ / ١١٦ ، أبو داود — حلود ١٧ .

تُفْلِحُونَ ﴿١﴾ فَمَنْ هَذَا الْقَدْرُ مِنَ السَّمَوِ ، يَحَافِظُ عَلَى الْعَقْلِ ، وَيَحْتَرِمُهُ ،
وَيَنْشِطُهُ ، وَيُرْشِدُهُ لِيُؤَدِيَ دَوْرَهُ فِي حَيَاةٍ وَهَبَ اللَّهُ فِيهَا الْإِنْسَانَ قُوَّةَ مِيزَتِهِ وَكَرَمَتِهِ عَلَى
سَائِرِ خَلْقِهِ ، وَيَتَفَاعَلَ مَعَهُ ، وَيَتَّحِدُ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ شَرِيعَتِهِ وَعَقِيدَتِهِ ،
يَسْتَحِقُّ هَذَا الْمَنْهَجَ الْبَقَاءَ وَالْخُلُودَ وَالْإِسْتِمْرَارَ وَالْغَلْبَةَ .

عطاء هذا المنهج :

يُوصَفُ هَذَا الْمَنْهَجُ بِأَنَّهُ مَنِهْجٌ عَطَاءٌ بِغَيْرِ حُدُودٍ ، لَا يَسْتَعْبِدُ أَحَدًا ، بَلْ
يَتَعَاوَنُ مَعَ النَّاسِ وَيَتَأَخَى ، وَلَا يَبْغِي عَلَى أَحَدٍ ، بَلْ يَتَوَادُّ مَعَهُ وَيَتَحَابُّ . حُبُّ
إِنْسَانِي خَالِصٍ ، وَرَحْمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مَبْرُوءَةٌ ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٢) ، « لَا تَبَاغُضُوا ، وَلَا
تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » (٣) . فَهَذَا الْمَنْهَجُ لَا يَقْرُ الْعَنْصَرِيَّةَ ، وَلَا
يَعْتَرِفُ بِالْعَنْصَبِيَّةِ ، وَلَا يَفْرُقُ بِالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ ، وَلَكِنْ يَدْعُو إِلَى أَخُوَّةٍ عَامَةٍ عَادِلَةٍ
رَحِيمَةٍ مَعْطَاءَةٍ لِبَنِي الْإِنْسَانِ ، وَأَيُّنَ هَذَا مِنْ تِلْكَ الْمَنَاهِجِ الَّتِي تَقْسِمُ الْجِنْسَ
الْبَشَرِيَّ — ظُلْمًا — إِلَى مُبْتَكِرِينَ ، وَمَحَافِظِينَ ، وَمُخْرَجِينَ ، أَوْ إِلَى آرِيَيْنِ وَنُورِمَانْدِيِّينَ ،
وغير ذلك من الأقسام التي سبق أن تكلمنا عنها ، يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ اسْتِبَاحَةَ
غَيْرِهِمْ ، وَأَخْذَ إِمْكَانَاتِهِمْ ، وَالسَّيْطِرَةَ عَلَيْهِمْ ، وَهَضْمَ حَقُوقِهِمْ ، وَالْحَقِيقَةَ أَنَّ النَّاسَ
كُلَّهُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، هَذَا الْمَنْهَجُ يَأْمُرُ بِإِعْطَاءِ الْمَحْتَاجِ ، وَمُسَاعَدَةِ الضَّعِيفِ ،
وَمُوَسَّاتَةِ الْمَرْضَى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا
يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ، فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ،
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٤) هَذَا الْمَنْهَجُ دَسْتُورُهُ الْعَدْلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ،

(١) المائدة — ٩١ .

(٢) النساء — ١ .

(٣) متفق عليه بخاري ٨٣ / ٧ ، عيني ٣٧٨ / ١٠ ، عسقلاني ٤٠٣ / ١٠ ، ٥٨ / ٩ مسلم ٢٧٨ / ٢ ،

نوري ١٠ / ١٠ .

(٤) الماعون .

وشرعته الإحسان ، وتعاليمه الطهر والفضيلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ ^(١) . هذا المنهج روحه الوفاء والصدق : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ... ﴾ ^(٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٣) . هذا المنهج عنوانه الرحمة الغامرة للعدو والصديق ، للكبير والصغير : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ ^(٥) . فهو منهج معطاء للأمانة ، للخلق ، للمثل ، للقيم العليا ، معطاء للإنسانية بغير حدود ولا قيود ، لأنه من الله .

حضارة للإنسان :

ليس من طبيعة المنهج الإسلامى أن ينحصر فى جزء من الإنسان أو من الحياة ويدع الجزء الباقى ، ليس من طبيعته أن ينحصر فى المشاعر والأحاسيس الوجدانية ، أو الأخلاقيات والمثل التجريدية ، أو الشعائر التعبدية ، أو الصدقات الخيرية ، أو ما إلى ذلك من الأفعال والأعمال المحدودة . فهو لا يعالج مشكلات الحياة الإنسانية أجزاء وتفريق ، ولا يقيم كلا منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول . إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة ، ويديرها كلها حول محور جامع واحد ، تشدها إلى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة ، ولكنها قائمة على كل حال ، تؤلف من مسائل هذا الدين وقضاياها وحدة كلية جامعة ، مردها إلى فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان . كما أنه ليس من طبيعة هذا المنهج أن يحرك عواطف الناس إلى الآخرة وإلى الفردوس والجنان والخور العين والنعيم المقيم ، دون أن يمر بالدنيا عن طريق العمل فى الأرض وعمارتها والخلافة عن الله فيها ، وفق منهج ارتضاه رب العالمين .

(١) النحل — ٩٠ .

(٢) النحل — ٩١ .

(٣) التوبة — ١١٩ .

(٤) الأنبياء — ١٠٧ .

(٥) التوبة — ٦ .

ليس من طبيعة هذا المنهج الانقطاع عن الحياة وازدائها واحتقارها والعكوف على الأوراد والتسايح ، فقد حرم الرهبانية ، فلا رهبانية في الإسلام ، كما أنه ليس من طبيعته عبادة الدنيا ، والالتفات إلى البطون ، وترك العقول ، وإيثار المادة وترك الحياة الروحانية ، وبغض الروحانية ، وفصل الحياة عن القيم ، والالتفات إلى العاجلة ، وترك الباقية .

وإنما طبيعة هذا الدين إصلاح الدنيا للوصول بثوابها إلى الآخرة ، والعمل فيها حسب منهج الله وأمره ، لرضائه والجنة ، أرشد إلى ذلك القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) . طبيعة هذا المنهج تطهير الأرض ، ومطاردة المنكر ، وتعليم الخير . وصدق الله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٣) . طبيعة هذا المنهج إشباع البطن من حلال ، وتحصيل المال ، وإعطاء حق الله الذي هو حق الفقير فيه ، وإنفاق الخير في المعروف بغير إسراف ولا تقتير ، والاستمتاع بالزينة من غير إتلاف للنفس أو لهو عن الصالحات الباقيات ، مع تطهير للذيل ، ومعرفة لله ، وعبادته ، وشكره ، وابتغاء مرضاته ، وتقواه .

إذن فطبيعة هذا المنهج متوازنة ، ترى الإنسان المتوازن ، فلا هو بالحيوان ، ولا هو بالملك ، بل إنسان رباني ، يعيش في الأرض ، يمشي في مناكبها ، ويأكل من رزقها ، ويتصلب بالسماء ، ويرتبط بها بسبب ، فهو أرضي سماوي ، حيواني روحي ، شهواني قيمي . إذا فالرجل الذي يعيش حياته مقبلاً على المال ، منافساً على المادة ،

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) آل عمران — ١١٠ .

(٣) الحج — ٧٨ .

مستغرقا في مطالب البدن ، مشغوبا بالجاه الفارغ ، والمظاهر الخادعة ، مسخرأ إدراكه الحسى والقلبى لهذا المتاع الباطل ، رجل مفتون عن حقيقة نفسه ، محجوب عن رؤية لب الحياة ، أراد له منهج الله أن يرق إلى أفق أعلى ، فانسلك من تلك الكرامة ، وأخلد إلى الأرض .

والرجل الذى يقبل على مطالب روحه ، فيقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، معرضا عن طيبات الحياة ، وعن أعمال الخير ، وعن إصلاح الحياة وابتغاء ما فيها ، فلا يلبس إلا الخشن ، ولا يأكل إلا اليباس الجاف ، تضعف قواه ، وتعظم على حسابها قواه الروحية ، أو ينزوى ببعض التساييح وبعض الأوراد ، تاركاً العمل الصالح والسعى وراء ظهره ، رجل جاهل أيضا بحقائق المنهج ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقوق بدنه ودينه ، أو بمعنى آخر مضيع لإحدى ناحيتيه ، وكفى بذلك خسارة وتعطيلا لأمر الله فيه .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأنى أصلى الليل أبدا . وقال آخر : أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء ، فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(١) . بهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله ﷺ . منهاج الحياة السليم الصحيح ، قَبِيْنُ أَنْ الإفراط مذموم ، ولو كان في إقبال العبد على حياته الروحية ، فإن الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته ، ثم يزعم أنه يعجل إلى مرضاته . ولهذا أمره بالسعى والابتغاء من فضل الله ، كما أمره بالعبادة ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

(١) البحارى باب فضل النكاح ٣ / ٧ ومسلم ١٧٥ / ٩ شرح النووى وابن حيان ١ / ١٣ بنحوه .

فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿١﴾ .

وقت للعبادة وتركية الروح التي هي حقيقة في الإنسان لاصلاح له بلونها ،
ووقت آخر للسعى ، وإشباع البطن ، وحفظ الجسد ، وإصلاح الدنيا : ﴿ هُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ . وَإِلَيْهِ
الْتُّشُورُ ﴾ (٢) .

كما أن من طبيعة هذا المنهج الحرية :

الحرية بأجل معانيها ، الحرية في العقيدة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٣) . الحرية من القهر والاستعباد والتسلط تحت أى شعار أو ملة
أو مذهب : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا
اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) . الحرية من القوانين الجائرة ، أو من الأهواء المقتنة لطبقة
السادة ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ
يَحْتَالُونَ أَنفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴾ (٥) . الحرية من
الشهوات والأدناس والأهواء : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِنَ
اللَّهِ ﴾ (٦) ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (٧) ، ﴿ وَيَتَابَكَ
فَطَهَّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٨) . ومنهج بهذه الواقعية وهذا السمو والطهر والتوازن هو

(١) الجمعة — ٩ .

(٢) تبارك — ١٥ .

(٣) البقرة — ٢٥٦ .

(٤) آل عمران — ٦٤ .

(٥) النساء — ١٠٥ — ١٠٧ .

(٦) القصص — ٥٠ .

(٧) المجاثية — ٢٣ .

(٨) المدثر — ٤ — ٥ .

طلبة البشرية اليوم ، وأملها ، وغايتها ، وحياتها ، ومستقبلها ، وهداها ، وصدق
الله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(١)



(١) التغابن — ١١ .

الفصل الثالث

حاجة الإنسانية إلى تلك الحضارة

حاجة الإنسانية إلى تلك الحضارة

كما يحتاج الإنسان إلى فطرته وإلى استقراره وسعادته ، يحتاج إلى الحضارة الإسلامية ، فليست حاجة الإنسان إليها مجرد رغبة تنقضى أو تبقى ، وإنما هي طبيعة ، وضرورة ملحة ، واستقرار ، وحتمية لأبد أن يصل إليها ، إن عاجلاً أو آجلاً ، لسبب بسيط : وهي أنها من خالقه ، ومنظم الحياة ، ومدبر الأمر كله .

والواقع المعاش والشقوة التي في العالم اليوم نتيجة حتمية لبعده عن هذا المنهج ، وهذه الحيرة وهذا الضياع الذي أحس به أهل الحضارة الحديثة قبل غيرهم ، دليل على هذا الجفاء وهذه القطيعة ، وهذا الإهدار للقيم الذي يهدد خصائص الإنسان ، والاهتمام بالمادة التي تصير الإنسان آلة صماء ، لاتعى أو تحس ، وهذه الجفوة والقسوة ، وهذا الخواء والوحشية التي اختارت الصواريخ وآلات الدمار ، لتكون مخالفاً وأنيابها في افتراس الآمنين ونسف المظلومين ، كانت كل هذه التجاوزات وغيرها أجراس الخطر ، ونواقيس الإنذار ، التي تدعو كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يجد في البحث عن الخلاص والخلص ، ولهذا نجد رجلاً غربياً مثل الدكتور الكسيس كاريل يمقت تلك الحضارة الغربية ، ويحذر منها ، فيقول « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد نشأت دون أى معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا^(١) » ثم يبين عوار تلك الحضارة فيقول :

(١) الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد ط المعارف بيروت ص ٣٨ .

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة ، لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنيّتنا مثل المدن التى سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة ... إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية »^(١) وهذا كلام لاشك قوى ومدروس ، يحمل خبرة معاناة طويلة ، وتفاعلات تجربة مريرة ، صاغها الرجل دراسات ، وشخصها عللا ، وقدمها نصائح وتحذيرات قبل مرور الوقت وضياح الزمان ، كثيرا ما يُردُّ الرجل بعينى البصر والبصيرة الفاقه المحرب ، على تساؤلات قد تجد مجالا عند بعض الناس من المفتونين بزخرف التقدم العلمى ، ووهج الاختراعات المرفهة ، فيظن ذلك البعض أن الإنسان يعلو ويرتفع ويسعد ويهنأ كلما كثرت هذه الاختراعات وتنوعت ، ويظن كذلك أنه باستطاعته أن يستعيز عن المعانى الإنسانية والروحية والخلقية فى الحياة بهذا الهرج وتلك المغريات ، يرد كاريل على هذه التساؤلات وغيرها فيقول : « إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى أن لا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على تلك الاكتشافات الطبيعية والفلكية والكيميائية ، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقا ضررا مباشرا ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه

(١) المرجع السابق ص ٤٤ .

يصبح خطرا ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتماماته إلى نفسه وإلى السبب في عجزه الخلقى والعقلى . إذا ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمظهر وأسباب تعقيد حضارتنا ؛ إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع ؟ حقا إنه لما لا يستحق أى عناء أن نغمض فى تحميل طرق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقى ، وتؤدى إلى اختفاء أنبل عناصر الأخناس الطيب^(١) . ونحن نستطيع أن نقول : إن تأخر علوم البشر من أخلاقيات ومعاملات إنسانية ليست ظاهرة تلقائية ، كما قد يحسب البعض ، وإنما هى نتيجة طبيعية ومنطقية ، وتكاد تكون حتمية لتقدير قيمة الإنسان ودوره فى التطور المنحرف ، الذى قامت عليه الحضارة الغربية ، حين جعلت هناك فصاما بين طبيعة الإنسان المادية والروحية ، وحين افترقت فى نشأتها عن التصور الاعتقادى الصحيح ، الذى يحمل تكريم الإنسان ، ويقدر خصائصه ، ويصله بالله ، ويجعله خليفة عنه فى الأرض وحين ارتضت الأنظمة الاقتصادية والصناعية والمادية كبديل عن حاجات الإنسان الحقيقية ، وليست مواكبة لها وموائمة لطبيعتها . وكما أحس الدكتور كاريل بالخطر على كيان الإنسان وخصائصه ، أحس كذلك مستر دالاس ، وزير خارجية أمريكا ، بالخطر نفسه ، وتحدث فى كتابه ، « حرب أم سلام » فى فصل بعنوان « حاجتنا الروحية » عن نفس المشكلة فقال : « إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطئ فى أمتنا ، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحرج ، وفى هذه الحالة النفسية ... لا نجد بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا ، وأن يمتلكنا الذعر ... إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا ... إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا إعظم إنتاج عالمى فى الأشياء المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى ، فبدونه يكون ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها !! ... وفى بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها ، وهناك حيرة فى عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى »^(٢) ثم يقول : « إن القوة

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٦٠ .

(٢) انظر حرب أم سلام دالاس ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ط العالمية للطباعة والنشر .

المادية الكبيرة تكون خطرة في عصرنا المادى فقط ، وليس فى عصر روحى . والمعرفة العلمية الجديدة خطرة اليوم ؛ لأنها حدثت فى وقت قد أخفقت فيه الزعامة الروحية أن توضح الصلة بين العقيدة والعمل ، ولعله يكون أكثر أهمية لو أن العبادة الروحية تطورت ، بدلا من محاولة وقف التقدم العلمى ، أو الرجوع به القهقرى ^(١) . ولا شك أن الدكتور كاريل والمسترد دالاس وغيرهم أحسوا بالخطر الحقيقى ، الذى يهدد مجتمعاتهم ، ويسرى فى جسدها كالأرضة التى توشك أن تقضى على الأخضر واليابس ، ولم يجدوا بعد ذلك من علاج إلا أن يرجعوا إلى طبيعتهم وفطرتهم ، ليستفتوها ، ويأخذوا منها الجواب الصحيح لتلك العضلات ، وقد نطقت تلك الفطر بما تحس به وتشعر ، بل بما تحس به كل فطرة وتحتاجه كل نفس ، وهى الرجوع إلى حضارة الإنسان ، وإلى تصحيح داخله قبل خارجه ، وعلاج مخبره قبل مظهره ، بمنهج روحى إيمانى عقائدى ولكن أن لهم بهذا المنهج ، وأين يعثرون عليه ، لا يجدونه فيما بين أيديهم من رصيد مهلهل للنصرانية ، ومن تاريخ مرير للكنيسة ورجال الدين وأهله ... ، لأنه ليس فيه تلك المواصفات التى يطلبون . إنهم يطلبون دينا يصل بين الإيمان والعمل ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الروح والمادة ، وبين التقدم العلمى والهيمنة الروحية على هذا التقدم ، وبين العناية بتنمية الحياة للمجتمع مع سيطرة الروح الإيماني ... منهج لا يفرق بين الدين وممارسة الدين ، ويرفض القول بأنه من غير الممكن الحصول على عدالة اجتماعية بدون ممارسة الإلحاد والمادية . كما يرفض أن يكون للأشياء المادية الأولوية ، أو تكون العبودية والاستبداد وسيلة الإكثار من الانتاج المادى ، أو أن يعتدى على الحرية العقلية والروحية والاقتصادية ، فى سبيل هذا الإنتاج والإكثار منه ، منهج لا يوقف التقدم العلمى والبحث فى المعرفة باسم الدين ، ولا يجعل الدين وسيلة لاحتقار العلم والمعرفة ، منهج تتطور فيه العبادة حتى تشمل كل عمل من أعمال الدنيا ، ويصبح النشاط الإنسانى كله عبادة ، خطواته وسعيه ، صحوه ونومه ، حياته ومماته : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَتَسَكَّيْتُ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) حرب أم سلام دالاس .

(٢) الأنعام — ١٦٢ ، ١٦٣ .

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) يقول ﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة . كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل فى دابته فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة » (٢) ويروى ابن عباس نحو هذا عن رسول الله ﷺ إذ يقول : « على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم !! فقال رجل من القوم : هذا من أشد ما أنبأنا به . قال : أملك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة ، وحملك عن الضعيف صلاة ، وإنحائك القذر من الطريق صلاة ، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة » (٣) . هذه هى طبيعة الإسلام وطبيعة منهجه ، والمستر دالاس يريد — كما يقول — أن يصلح حياة أمة بدين لا تتعارض فيه العقيدة مع الدنيا ، أو تتضارب مع العلم والمعرفة ، ولا يجد المستر دالاس هذا إلا فى الإسلام وفى عقيدته ومنهجه ، لأن إدراك العبادة فى الإسلام وطبيعة منهجه الروحى ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلا ، ولكنها تتناول « كل » حياة الإنسان العملية أيضا ، ولذا كانت الغاية من حياتنا اليومية :

« عبادة الله فى كل ناحية من نواحي الحياة ، حتى تلك التى تظهر صغيرة نتناولها على أنها عبادات ، ونتناولها بوعى ، على أنها جزء من ذلك المنهج العالمى الذى أبدعه الله »

إن الإسلام يعلمنا أن الحياة الروحية تعانق الحياة الجسدية ، وأنه لا صلاح لحياتنا إلا بالمادة والروح . كما يعلمنا كيف نعيش الحياة بالمادة والروح ، وبالوحي والعقل ، وبالاتباع والفهم ، وبالشهود والغيب ، فلا عدا بين مطالب الروح والجسد ، أو بين الحياة المادية والروحية ، أو بين تعاليم الوحي وإدراكات العقول

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) البخارى ١١١ / ٢ عبنى ٣٤٣ / ٤ ، عسقلانى ٣ / ٢٤٣ قسطلانى ٣ / ٤٦ ، مسلم ١ / ٢٧٧ ، نووى ٤ / ٤٨٥ .

(٣) ابن خزيمة ٢ / ٢٢٩ تحقيق الدكتور مصطفى الأعظمى ط المكتب الإسلامى .

والأنفهام ، كما يعلمنا ، أنه لا إيمان بدون عمل ، وأن كل عمل للمسلم يجب أن تتجلى فيه تعاليم دينه وحضارته وقيمه .

التطلع إلى الحضارة الإسلامية :

لاشك أن ديننا بهذه الصفات المميزة ، الصالحة لعلاج ما أفسدته أيدي الناس ، وإصلاح ما أصاب العالم من دخان الحضارات البعيدة عن المناهج الإنسانية ، لا شك أنه يكون عجيبة العصر ، وطوق النجاة ، وهدية السماء ، وقد أدرك هذا كثير من علماء الغرب رغم العداء للإسلام — شأن أى عداء للحق في مقابلة الباطل — ولكن الحق له سطوة ، والشمس لها ضياء لا يغلب ، يقول الدكتور « إيزكو إنساباتو » : إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هي التي تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا ، ويقول العلامة « شيرل » — عميد كلية الحقوق بجامعة فينا — في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ : « إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها — إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون ، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة » .

ويقول الفيلسوف الإنجليزي « برنارد شو » قوله الخالدة : « لقد كان دين محمد موضع تقدير سام ، لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجبا أن يدعى محمد — ﷺ — منقذ الإنسانية ، وإن رجلا كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح في حل مشكلاته » .

ويقول المؤرخ الإنجليزي « ويلز » في كتابه ملامح تاريخ الإنسانية : « إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية » ، أما المؤرخ الفرنسى « سيدو » فيؤكدده ويقول : « إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب الإمام مالك هو « شرح الدردير على متن خليل » (١) وهذه الأقوال لهؤلاء العلماء

(١) انظر في كل هذه النصوص في كتاب معالم الحضارة عبد الله علوان ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ وثورة الإسلام لأبى شادى ص ١١٧ .

من باب « الفضل ما شهدت به الأعداء » ، وهى لا تزيدنا إيماناً بمبادئنا وبصلاحها وحاجة الإنسان إليها ، فنحن نعلم علم اليقين أنه لا صلاح للإنسانية فى شتى عصورها وأصقاعها إلا بالإسلام ، وإلا باعتراف عقيدته ، واتباع منهجه ، والتعلق بأهداب حضارته .

وقد بدأت تبشير هذا التحول نحو الإسلام ، بعد انفتاح الناس على الثقافات المختلفة ، وبعد كثرة الحيرة وشقوة التخبط ، التى ملها الناس ، وكرهوا العكوف عليها ، والانصياع لها . بدأت تبشير ذلك باعتراف كثيرين للإسلام ، اقتناعاً بمبادئه ، وحباً لنظامه ، واستشفاءً بهديته ، وقد لاحظ هذا كثيرون من الباحثين والعلماء الغربيين .

يقول برنارد شو : « لقد دخل فى الوقت الحاضر كثير من أبناء قومية من أهل أوروبا دين محمد ﷺ ، حتى يمكن أن يقال : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ ، ولقد بدأت أوروبا الآن تعتنق الدين الإسلامى ، ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين بالدين الإسلامى فى حل مشكلاتها ... ويقول : إنه لن يمضى مائة عام حتى تكون أوروبا — ولاسيما إنجلترا — قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة »^(١). وإذا نظرنا إلى مايقوله هؤلاء الذين أسلموا فعلاً من المجتمعات الأوربية ، على اختلاف دولهم ومللهم ، وجدنا معانى الإسلام تنطق فى فطرهم ، وتنطلق من حناجرهم ، وتفويض على تحركاتهم ، وتكسب نفوسهم بهاء وجلالا .

يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، الذى تسمى باسم إسلامى ، وخلع اسمه الأول : « إننى — وأنا الرجل الأوربى الذى لم يجد فى يمينه إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية — تأثرت أعمق الأثر ببساطة الإسلام وعظمة سطوته على نفوس معتنقيه ، إن الشرق الإسلامى سيبقى مستولياً علينا بروحانيته ومثله العليا ، والإسلام حافظ دائماً على مبادئه الداعية إلى الإخاء بين الجنس البشرى ، إنسه

(١) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح غنيم ص ١٩٤ .

لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم ، أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة ، لقد أخطأ الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته ، وبالتالي لم يتشبعوا بروحه ... لقد وضع الإسلام حدا للنظرية التي كانت تعتبر الإنسان وحدة من قبيلة ، أو وحدة في شعب ، أو ابنا للغة من اللغات ، وقد سما بالأفراد من وحدة الحيوانية إلى آفاق فسيحة ، إلى لا أتوقع أن يكون الإنسان قادرا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة ، في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمات كثيفة ^(١) فالإسلام يسير وحده بمبادئه ، يدعو إلى نفسه بغير دعاة ، ولا سلطة ، ولا مبشرين ، ولا كتب معدة للناس تشرح مبادئه ، وتوضح مناهجه ، بلغة الناس المختلفة ، اللهم إلا بعض الكتيبات التي قد يكون العثور عليها من المستحيلات ، لنفاذها ، وبعد عهدها ، وفضلا عن ذلك فإن هناك الحرب المعلنة على الإسلام من كل جانب ، ومن كل صقع ، ومن كل شيطان ، وبأساليب مختلفة ومتنوعة ومتعددة . بالتحريف والتبديل ، وبالتشويش بالكلمة المقروءة والمسموعة ، وبالمداعبات والتحذيرات ، فضلا عن بعد أهله ولهوهم وتخيلهم وجهلهم ، رغما عن هذا كله يسير ، ويفتح وينتصر ، ويخوض أكبر المعارك الفكرية والنفسية والعقائدية والحضارية « ولنسمع ما يقوله الدكتور « شلدويك » عن تجربته في اعتناق الإسلام . يقول : « إنني اتخذت الإسلام ديناً بعد بحث وتنقيب ، لم ألق هذا الدين في أول الأمر من كتبه الصحيحة ، ولكنني تلقيت من كتابات الطاعنين فيه ، فإله الرحمن الرحيم هو الذي هداني . ولدت من أبوين بريطانيين تابعين للكنيسة الإنجيلية ، وكان والدي يتمنى أن يرافى قسيساً ، ولذلك كان يسره أن أطلع كتب الدين ، ولكن الاختلاف الشديد جداً في أصول المسيحية (الغربية) وفي تكوين العقيدة ، واختلاطها بعقائد الوثنيين القدماء من البوذيين وغيرهم . قد حملني هذا على البحث والتأمل ، ودرس الديانات الأخرى ، درست البوذية والبرهمية وسائر الأديان ، في دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ماعدا الإسلام ، فإن الكتب التي ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن والغرض الظاهر ، وقد زعموا أن الإسلام ليس

(١) حضارة الإسلام ١٠ / ١٢ أنور الجندي ص ٣٥ .

ديننا مستقلا ، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين ، ولقد ساءلت نفسى : إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد ، فلماذا هم يبذلون هذه الجهود للتحامل عليه ، ومقاومته ، وتوجيه المطاعن إليه . وقد قر فى نفسى أنه لولا أن الإسلام دين يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون له حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية ، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته ، والطعن فيه ، وتشويه سمعته . ولذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التى كتبت عنه واحدا واحدا . وقلت : إن الإسلام لا يخفيه انتقاد منتقديه ، فمنتقدوا الإسلام ، إنما يظهرون ضغن خصومه ، وخوفهم من الحق ، وفى هذا مصلحة له ولدعوته . والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفائه . ولما شرعت أدرس عقائد الإسلام — بعد أن انتهيت من الوقوف على حقائقه السالفة الذكر — وجدت جميع عقائده مقبولة عقلا ومنطقا وواقعا . فعقيدة التوحيد الخالص هى أصح العقائد ، وقد امتاز بها الإسلام . والقرآن ليس كتاب دين فحسب ، بل هو أعظم هاد إلى سعادة الفرد والمجتمع ، وقد قر ذلك فى نفسى منذ اطلعت عليه ، وبالرغم من أنى قرأته مشوها ومحرفا بترجمات المعلومه ، إلا أنه ليس كالإسلام دين أو عقيدة ، وقد مضى على دخولى الإسلام مدة تربو على الثلاثين عاما ، إلا أننى كلما ازددت علما بالإسلام ازددت إجلالا له وتمسكا به ^(١).

إن الإسلام دين له خصائص غالبة ، لها جلال ، ولها نفاذ ، ولها عبير وسحر ، لا يستطيع أن يقاومه من قرأ تعاليمه ، أو سمع آياته ، أو خالط عقيدته ، إنه دين طبيعى كالطبيعة ، لم تخلق لشخص أو أمة أو جنس أو لون أو طبقة ، عالمى كالشمس والأقمار والكواكب ، ضرورى كالماء والهواء والضياء ، منسجم ، متناسق ، كحركة الأفلاك ودوران العوالم وتصريف الرياح ، مبرر كصنعة الله الذى أتقن كل شىء ، فطرى كفطرة الله التى فطر الناس عليها ، معجز كخلق السموات والأرض وخلق الناس مع اختلاف ألستهم وألوانهم ، فكيف يقاوم هذا الدين ، وكيف يغالب سحره ، وكيف تقاوم جاذبيته بأباطيل وتخاريف قلوب حاقدة . وصدق الله ﴿يريدون ليطففتوا نوز الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ ^(٢).

(١) حضارة الإسلام ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الصف — ٨ .

ميثاق للإنسان العالمى :

هل يدرك الغرب الحائر الآن ، والذي يبحث عن مخرج جاد لما يعترى حضارته من تفسخ وانحيار ، هل يدرك أن تعاليم الإسلام وحضارته هى مخرجه الوحيد مما هو فيه ، وهل يستطيع أن يتناسى أحقاداه وبغضائه ، ويداوى نفسه من علله القاتلة بقانون السماء . نرى بعض الصيحات تعلو وبعض العيون تفتتح ، لتبصر الغرب بهذه الحقيقة .

فيقول الدكتور « فرانسيس لامان » رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية فى كتاب « الإسلام والغرب » : « نحن نؤمن إيماناً جازماً بروحانية الإسلام ، وهى روحانية من الخارج والداخل ، لم يتمكن العالم الغربى بعد من إدراكها بكل وضوحها وصفائها ، علماً بأن الاقتراب منها أو مماثلتها قد يكون مصدر إشعاع خصب فى عالم أصبح فريسة للاضطرابات والاحتلالات ، وعندما تكون عناصر الإدراك والتصور والسعى نحو قصد واحد لدى الإنسان مشتركة فيما بين الديانات السماوية المنزلة ، فهل يكون الحوار الإسلامى الغربى سوى البحث عن الروحانية فى العظمة ، أو البحث عن العظمة فى الروحانية ، فماذا يمكن للإسلام أن يقدم للغرب ، وماهى القيم الحضارية الإسلامية التى يمكن للغرب أن يستمدّها ، هذا الغرب الذى يسيطر — كما يقال — على التقنيات والسياسة ، الذى — على ما يبدو — قد أضاع فكرة الإنسانية التى استمدّها منذ فجر العقلانية فى غياهب الازدهار المذهل للمعرفة العلمية ، فأضاع ذلك التوازن فيما بين الفرد والمعرفة التى جاهر بها وعلمها لفترة طويلة من الزمن ؟ ... إن الإسلام يمكن أن يقترح على العالم الغربى لوحة تقدم الرسوم الأولية لهذا النظام العالمى الجديد ، الذى يجرى التحدث عنه حالياً .

١ — الإسلام حضارة الأصل الحقيقية .

٢ — الإسلام ، مدرسة رعاية المقدس .

٣ — الإسلام ، ميثاق الإنسان الشامل .

إن الإسلام لا يعرف الفرد المطمئن إلى مطامعه الترقية ، سيد قدره ، فى معزل عن التسليم بالمشيئة الإلهية ، والإسلام لا يعرف « فوق البشرى » ، أى ما يفوق

قدرة البشر ، ولكنه يبقى متعلقا بالبعد العمودى للمعرفة ، أى الخلق أو الإبداع الإلهى . وانطلاقا من هذه العقيدة الدينية ، أى من هذه الشهادة ، تتحقق نسبة كل تصرف أو عمل إنسانى ، ويتبدد الوهم بأن الفرد قد تمكن — بقوته الخاصة — من اجتياز درجات جديدة من طبقات الوجود ، فالمعرفة تستقر ضمن علاقة من الشرعية والأصالة فيما بين الفرد والإرادة الإلهية ، وليس ضمن علاقة مصطنعة ومزيفة بين الرجل المخلوق والرجل الخالق ، والمسافة فيما بين الاثنين تبقى ذلك العقل أو السور الوحيد ، غير القابل للتصرف ، الذى يحافظ على طبيعة الفرد الحقيقية « الفطرية » إلى هذا . إننا نعتقد أن الإسلام يمكنه تذكير الغرب بأن الحقيقة لا تكمن إلا فى هذه العقيدة التى ضلت وضاعت فى أكثر الأحيان ، بسبب اللمعان « البروميثوس » نسبة إلى بروميثيوس ، أى إله النار ، الذى يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى « لنوع من التقدم العلمى ، تلك العقيدة التى تؤكد على أن طبيعة الإنسان لا تخص الفرد ، ولا هى ملك له . فالإسلام هو إذا حضارة الأصالة فى عالمنا المعاصر ... وهو يظهر الآن مدرسة للمقدس ، ومن الذى يتمكن فى الغرب من أن ينكر بأن الإحساس بإبطال صفة القداسة لم يعد يحرك الشعور ، وبأن رفض المقدس يميل إلى الاستقرار داخل الأمة نفسها ؟

ونحن نعتقد بأن الإسلام — ولا عجب فى ذلك — يمكنه إلى حد بعيد — لإعادة تعليم المقدس للغرب ، إن الإسلام فى بادئ الأمر يمكنه أن يستبدل عدم استمرارية المقدس المتفشية فى العالم الغربى بنظرة الاستمرارية ، وذلك لأن المفهوم الإسلامى للمقدس — وهو يرتبط بوحدانية الإرادة الالهية — يفرز نظاما اجتماعيا وأخلاقيا دائما ، وثانيا ، لأن الإسلام ليس فقط مجرد انفتاح أو شروء نحو المقدس ، وإنما أيضا عملية دمج واعية للمقدس داخل جميع مجالات الوجود .

وإذا كان الإسلام حضارة الأصالة ، ومدرسة رعاية المقدس ، فلماذا لا يرى الغرب فى — رسالته إلى جانب مكاسب معارفه الخاصة ، وقوته الخلاقة المبدعة — ، روحانية متأصلة تبحث عن نفسها وميثاقها ، ممكنا للإنسان الشامل ، إن هذا الميثاق فى الواقع هو قيد الإعداد فى كل مكان يكون الإسلام فيه حاضرا ... والإسلام

لايتكيف على شكل تغليف مزيف لبنية هيكلية موجودة قبل ، إن الإسلام ينسق ويكمل ويوجد ؛ لأنه يقع في نقطة التقاء الروحاني والزماني ، اللذين يتواجدان مجتمعين لدى الإنسان ، لا وجود للشامل إلا في الوحدة ، ولا وجود للشامل إلا في الروحانية ، وإن روحانية الإسلام تتأكد أيضا من خلال إيمان طبيعي ، لا شطط فيه ، ولا تفريط . والإسلام يعطى الغرب أيضا من خلال مثل هذا المضمون ، مفهوما جديدا للقيم الأخلاقية والدينية ، قبل المفهوم الجغرافي السياسي ، وقد يكون ذلك لإنارته وتنويره ، وهو ليس مجرد صيغة ملائمة ، ولا تقارب الصدفة والارتجال ، أو الكياسة والحجالة ، وإنما هو اتصال متبادل ضروري للعالمين ، عندما يحل عصر التكامل — أكثر فأكثر — محل عصر العداوات والخصومات ، في هذا العصر الذي سوف تعتمد فيه العقائد الصالحة للإنسان ولسعاداته ورفيه ، إن هذا النداء سوف يعلمه ويعرفه كل غربي ، وكأنه نداء تقاليده الخاصة ، وليس هو إلا صوت أحد العقلاء . إن هذا الصوت في الحقيقة إن هو إلا نداء الإسلام للغرب ، ونداء الغرب للإسلام » .^(١)

هكذا بدأ ساسة الغرب وباحثوه أنفسهم يضيقون ذرعا بالضياع ، والبعد عن المقدس ، « أى البعد عن الله » ، وأن الرجوع إلى الله يجب أن يكون بالمفهوم الإسلامي ، وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يستطيع جمع العالم على قيم إنسانية بعيدة عن الحقد والتعصب الجغرافي أو العنصرية ، كما أنه يوافق فطرة الإنسان ، ويبعدها عن العقد ، وعن التمزق والضياع ، وأنه هو الذي يستطيع أن يحتضن البشرية في أخوة عامة ، يعمها السلام والأمن والطمأنينة ، وأن الإسلام وحضارته وتعاليمه سوف ينادي الغرب الشارد ، وأن الغرب المعذب سوف ينادي الإسلام ويستجير به ، وأنه لصوت العقل والمنطق أن يبحث التائهون عن الطريق المستقيم ، بغير غرور ولا كبرياء ولا عناد .

هيمنة القرآن وتأثيره :

لا شك أن للقرآن تأثيراً على القلوب والنفوس ، لأنه كلام الله سبحانه ، كما

(١) عن الإسلام والغرب ، السياسة الكويتية السنة ١٧ العدد ٥٠١٤ ص ١١ .

أن له سحره ونفاذه إلى الآذان والأعماق ، رغما عن أنه كتاب قانون ومنهج للحياة في كل نواحيها وأشكالها ، ومما هو معلوم أن كتب القانون أو الدساتير والمناهج دائما ما تكون صعبة الفهم ، شديدة المراس ، لا تسلم قيادها إلا لقلة متخصصة ، ولكن هذا الكتاب يخالف كل الكتب في كل الفنون ، لأنه ميسر ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾^(١) لا يَخْلُق على كثرة الرد ، ولا تنقض عجائبه ، أو تنفذ غرائبه ، مثاني تقشعر منه قلوب البشر وتسكن إليه : ﴿ الله نَزَّلَ أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾^(٢) ، وهذه هي طبيعة الشفاء وأسلوب الصحة والنقاة ، قشعريرة الدواء ثم الشفاء والهداية ، وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ... ﴾^(٣) .

طبيعة القرآن التأثيرية :

هي طبيعة الصحة والهداية والريادة والهيمنة لكل من سمعه ، نعم لكل من سمعه ، إنسا كان أو جنا ، حيا كان أو جامدا هامدا . أما أثر هذا في أصحاب الحياة ، فنجده في قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾^(٤) . وهذه الآية تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن ، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية ، بغير تملل أو ضجر ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق عليه السكوت ، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به ، وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعا إلى الحركة به ، والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام ، إن وقع هذا القرآن في القلوب هائل ضخم ، لا يقف له

(١) القمر — ٢٢ .

(٢) الزمر — ٢٣ .

(٣) الإسراء — ٨٢ .

(٤) الأحقاف — ٢٩ .

قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ، ولا مشدودة بالهوى الجامح اللقيم ، ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة فإذا هي صامتة مأخوذة ، تنطق بأنه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فتقول : ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ، ثم انقلبوا له داعين مبلغين متحمسين : ﴿ يا قومنا أجيئوا داعي الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم ﴾ . (١)

وأما تأثير القرآن في الجماد :

فإن القرآن يعرض لهذا الأثر وهذا الزلزال من الخشية ، في الصخر الجامد والحجر الصلد ، فيقول : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٢) ، وهى صورة تمثل الحقيقة الماثلة لهذه الكائنة لهذا القرآن ، فإن فيه روعة وثقلا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته ، فإن اللحظات التى يكون فيها الكيان الإنسانى متفتحا لتلقى شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا ، ويقع فيه من التغيرات والتحويلات ما يمثله فى عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام ، أو أشد ، والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ ، والذين أحسوا شيئا من مس القرآن فى كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآنى المشع الموحى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٣) ، وهى حقيقة فعلا بأن توقظ القلوب والأفهام والعقول ، وتبعث فيها التأمل والفكر والخشوع .

نجد فعل هذه الحقيقة فى القلوب الصلدة ، التى وصفها القرآن بأنها أشد صلابة من الحجارة والصخر ، فى قلوب المشركين التى وصفها القرآن فى قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما

(١) الأحقاف — ٣٠ — ٣١ .

(٢) الحشر — ٢١ .

(٣) الحشر — ٢١ .

يتفجر منه الأنهار ... ﴿١﴾ .

نجد هذا الأثر في قلب المغيرة بن شعبة لما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن ، فأخذته رعدة وقشعريرة ، وأنهَّد جبروته ، وخشع حديثه ، واحتار في أمره . وقد سأله قريش عن القرآن فقال : ماذا أقول : ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه أو نقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته ﴿٢﴾ هكذا كان تأثير هذا القرآن في القلوب الصلدة ، رغم المعاندة والمكابرة والعداوة ، ونرى كذلك ما فعل القرآن في قلب أبي سفيان بن حرب ، والأحنس بن شريق وأبي جهل : حيث كانوا يتسللون في جنح الليل ، ويدعون الكرى ، ويتلصصون لسماع آية من القرآن أو بعضا منه .

يروى ابن كثير عن البيهقي فيقول : روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن ابن إسحاق حدثني الزهري قال : حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأحنس بن شريق خرجوا ليلة ، ليسمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيتم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا في المرة الأولى ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق . فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد على ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم

(١) البقرة — ٧٤ .

(٢) سورة ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ١ / ٤٩٩ .

تفرقوا» (١) . ما هذا السحر الذى يسمعون ، وما هذه الخلاوة التى لا يطيقون البعد عنها ، وما هذا الغرام الذى يهيمن به ، ويتركون من أجله كل قيمة وكل لوم وكل راحة ، حتى يبيت هؤلاء السادة المعاندون متلصصين متنازلين عن كرامتهم ، ليسمعوا القرآن ، ويترنموا بآياته وكلماته ، إنه لا شك شئ غير عادى وشئ يدعو إلى التأمل والدهشة .

تأثير القرآن ممتد وباقي :

ما زال تأثير هذا القرآن باق ، يعمل عمله فى النفوس ، لأن معجزته باقية ، ولفظه لم يتغير ، وعمله هو هو ، وما زال محفوظا فى الألواح والصدور : ولهذا نرى أن من سمع القرآن الآن يدرك تلك المعانى التى كان يسمعها ويدركها السابقون . يقول : « كوزان دى بيرسوفال » فى سحر القرآن وتأثيره : « وليست حال محمد ﷺ فى انفعالاته وتأثيراته بحالة ذى جنة ، بل كانت مثل التى قال نبي بنى إسرائيل فى وصفها : « لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعي ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » (٢) .

ونرى ونسمع هذا الرأى العجيب الذى يحدثنا به : ك. ك نريج أستاذ الأدب العربى بجامعة كامبردج : فى كتابه القيم « كيف تعرفت على القرآن » ، عن سحر القرآن فى النفوس ، فيقول : « الحق بدأ ذلك مبكرا — أى لدى تصفحى السريع للقرآن الكريم ، فقد أدركت أنني أمام مضممار جديد فى الأسلوب والجرس والهيمنة الروحية والموسيقى الباطنية الغريبة : كل الغرابة ، فأصبحت أتلو القرآن تلو هنا وهناك ، فأجد فى كل مرة نكهة ولذة خاصة غريبة ، لا يمكن إلا أن تكون سماوية وأشعر بالأنس والراحة والطمأنينة ... يارياه !! هل كل من يقرأ هذا السفر الجليل يشعر بمثل ما أشعر أنا به أم ماذا ؟ ألح على هذا السؤال الذى يطرح نفسه بكل ثقله ، مما

(١) سيرة ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(٢) أوروبا والإسلام عبد الحليم محمود ص ٤٣ .

حدى لى أن أتصل بعشرات من المستشرقين المنصفين ، الذين تحدثوا أو بحثوا عن القرآن سواء منهم من عرفتهم فى أسفارى إلى أوربا وأمريكا ، أو من لم أعرف معرفة صداقة ، ولكنى قد سمعت أو قرأت عنهم شيئا أو أشياء . وقد طرحت عليهم سؤالا محمدا هو : ما يكون شعورك وأحاسيسكم عندما تتلون القرآن ؟ فكان الجواب كالآتى : نحس ونشعر بشيء غريب ، غير عادى ، وغير مادى ، ولا بشرى ، فى ضمائرنا وكياننا والأغرب والأدهش أننا ننجذب إليه بطريقة لا شعورية « ميتافيزيقية » جذبا قويا ، وقد نسمع موسيقى أو لحنا أو صوتا .. لا يشبه فى شيء ما نعلمه من الفنون الموسيقية ، لا من قريب ولا من بعيد ... وقد زادت على ما مر سيدة إيطالية (هى الدكتور واكجيا لورا ...) البروفسورة بجامعة نابلى بإيطاليا ، فذكرت لى فى رسالتها : أنها تسمع لحنا إلهيا جذبا حنونا ، لا يقارن بالفنون الموسيقية البشرية وألحانها فى شيء .. وقد يتسمر الواحد منا أمام روعته الإلهية عدة دقائق .. وتأخذه الجذبة بصفة غير عادية ، وبصورة روحانية لذيدة . ثم يسرد المؤلف عشرات الأمثلة ، ويتناول آيات من القرآن الكريم .. والأحاديث النبوية يدلل على روعة ما يحس به .

وفى النهاية يقول : « كل الذين أعرفهم فى أوربا وأمريكا — تقريبا — اعترفوا بشعورهم الغريب ، وإحساسهم الأغرب نحو القرآن ومعماره الغريب وموسيقاه الربانى الجميل الجذاب ، ولا سيما عندما يعطى القرآن كل ذرة من كيانه ، فإذا ذاك يرى الإنسان العجب العجائب ... ثم يقول : لا أشك لحظة فى إلهية القرآن ، وهيمته القوية المعنوية على سائر الكتب ، وعلى إعجازه الخارق ، وسيطرته على الأبواب و... »^(١) . هذا رجل أحس بما أحس به غيره ، من روعة القرآن ، وجلال نظمه ، وروعة تلاوته ، وسحر لفظه ، فما بال من فهم المعنى ، واتصل بالأنوار ، وخالط الأحكام ، وانسجم مع الوحى ، وأوب مع الترتيل . إن القرآن مازال هو القرآن الذى سمعته الجن فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهذى إلى الرشد فآمنا به ﴾^(٢) لقد

(١) انظر كيف تفهمت القرآن ، ك . ك نمريج المقدمة ص ٦٢٥ ألف الكتاب باللغة الإنجليزية ثم أعيد طبعه وترجم إلى عدة لغات ومنها العربية والفارسية والأردية .. وقد أثار الكتاب ضجة فى الأوساط الكنيسية وأكثر اللغات فى الفتيان . كما وأثار الحقد الأسود عند المستشرقين .

(٢) الجن / ١ - ٢ .

ذكر لى الأستاذ محمد حنيف ، الإيراني ، المسلم ، السننى ، الباحث بالموسوعة
 الفقهية بالكويت ، عن واقعة شاهدها بنفسه ، ولسها وآها بعينه . يقول :
 « ذهبت إلى لندن لإلقاء محاضرة فى مسجد لندن ، فوضع المكلفون بتنظيم المحاضرة
 شريطا من القرآن الكريم فى مكبر الصوت لجمع الناس ، وما أن قرىء القرآن وسمعه
 الناس حتى توافد على المسجد جموع من الإنجليز ، وجلسوا يستمعون القرآن كأن
 على رؤوسهم الطير ، وما أن جاء وقت المحاضرة ونظرت إلى الناس فرأيت المسجد قد
 غص بالناس ، حتى فرحت . ولكن بمجرد أن أغلق مكبر الصوت ، وانتهت
 القراءة ، وبدأت فى المحاضرة ، حتى رأيت الناس ينصرفون ، فعجبت من ذلك ،
 وبست . وبعد فراغى من محاضرتى سألت إمام المسجد عن هذه الظاهرة ، فقال :
 لا تحزن فليست فى الأمر شىء ، وأما طلى اللثام عن سر مارأيت ، فقال : ما نكاد
 نفتح مكبر الصوت فى أى وقت على القرآن الكريم حتى يتوافد الناس من الإنجليز
 على المسجد ، ويجلسون كما رأيت خاشعين ، رغم أنهم لا يفهمون القرآن ، ولكنه
 يأخذهم بسحر فيه ، وروعة فى لفظه ، ونظمه ، وموسيقاه ، فإذا انتهت التلاوة قاموا
 كما جاءوا . « فقلت سبحان الله ! هذه روعة الكتاب العزيز ، وقدسية الآيات تنفذب
 إلى أعماق الناس ، وإن كان اللسان غير اللسان ، واللغة غير اللغة ، ولكن الخالق
 هو المتكلم ، والآيات آياته ، والخلق عباده ، والكون ملكه ، واللغات تديره وأمره ،
 وصدق الله : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن
 فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ^(١) فالتفت الآيات بالآيات فعملت عملها وفعلت
 فعلها ، فكان ما كان وما سيكون إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن الباحث العادى الذى يطالع هذا ويفهمه ، لا بد وأن يعلم تمام العلم
 أن هذه البشرية شفاؤها ودواؤها هو هذا القرآن ، وفى أحكامه ومنهجه وآياته
 وأسراره ، كما أنه لا بد وأن يشعر أن ديننا بهذه الجاذبية فى تعاليمه وفى آياته وفى أحكامه
 لا يزول ولا ينمحي ، لأن الحب دليل البقاء والثبات والأصالة والمواءمة ، ولأن القوة

(١) الروم - ٢٢ .

الحقيقية لأى منهج ، والركيزة الأولى لحضارته ، تعتمد على فتح مغاليتك النفوس ، واستقرارها ، وبعثها ، وشفائها ، وانطلاقها ، وصدق الله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَهْلَكُوا ﴾ (١)

الشفاء من الصراع :

تحتاج الإنسانية إلى الإسلام وحضارته ؛ لترتاح من الصراعات المختلفة في شتى نواحي الحياة ، ليسلم لها ضميرها وأعماقها ، وليسلم لها واقعها الإنساني كله ، في الأسرة ، في المجتمع ، في الحياة ، فلا استقرار لعالم ضمير الفرد فيه ملء بالصراعات ، لا يستمتع بالأمن ، ولا سعادة لأمة تتمزق كل يوم نفسيا وقلبيا وجسديا . تتبع أنهار الصحف وسيل المجالات وأمواج الأثير ، هل تقرأ أو تسمع أو ترى إلا أخبار الحروب ، وأنباء الدمار ، وكلمات التهديد ، وأعمال العنف والظلم والبغى والعدوان ، وهل تحس إلا الخضوع والعمالة والأحلاف ومناطق النفوذ ، وهل تسمع في نطاق ذلك إلا اختراع سلاح جديد ، أو تطوير سلاح قديم ، أو تفوقا ، أو حقوقا في هذا المضمار ، إن أخبار الصواريخ الموجهة أو ذات التوجيه الذاتي ، وأخبار الطائرات المحسنة والمتعددة الأغراض والمضار ، والقنابل المتعددة الأهلاك والدمار ، أصبح موضوعة العصر ، وشهوة الأيام ، وسعادة الأمم والشعوب ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ترى الجنس ، والأعراض ، والشهوات تعرض كالسلع في الأسواق ، والكلام عنها ، وقصصها ، وممارستها ، متعة الأفراد ، وهو الجماعات ، وبضاعة الأمم ، تروج بها الصحافة ، وتقوم عليها الصحافة التلفازية والخيالية والإذاعية ، كلها تزكى سعار الشهوات ، وتلهب نيران الغرائز ، تصفح جريدة من الجرائد أو صحيفة من الصحف المنتشرة ، ترى وتحس وتلمس فيها الصراعات المختلفة التي أوقدت الحرائق البشرية هنا وهناك ، وعصفت بالإنسان الغريب وسعته وقودا لهذه البراكين الهوج .

هدوء الضمير :

إذا أراد العلم الاستقرار والأمن فليعمل على استقرار الفرد فيه ، وعلى تربية

(١) الإسراء — ٨٢ .

ضميره ، وشفاء نفسه أولاً ، ولن يجد ذلك إلا في حضارة الإسلام ، فإن للفرد في النظام الإسلامي قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى التي يركز عليها الإسلام لبناء مجتمعه ، ففي ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة ، وهذه العقيدة تستحيل في سلوكه إلى حقيقة ظاهرة ، فتكون ترجمة حياة وطريق سلوك .

في ضمير الفرد يغرس الإسلام بذور الأمن والاستقرار والإيمان ، الإيمان الإيجابي الذي يرفع الحياة ويرقيها ، لا الإيمان السلبي الذي يرضى بكل شيء ، ويسيح في كل شيء ، ويدع المبادئ العليا تداس وتمتهن في سبيل متعة البطن والفرج والجسد ، الإيمان النابع من التناسق والتوافق والتوازن ، المؤلف من الطلاقة والنظام ، الناشئ من إطلاق القوى والطاقات الصالحة البانية ، ومن تهذيب النزعات والنزوات ، لا من الكبت والاستقذار والتنويم والخمود ، الإيمان الذي يعترف للفرد بوجوده وينوازعه وبأشواقه وببشريته ، جسدية أو روحية ، ويعترف في الوقت نفسه بالجماعة ومصالحها وأهدافها وحرية الآخرين وصيانة أعراضهم وأموالهم ، ويعترف كذلك بالخلق والمثل المترابطة مع الحياة ومع خطو الإنسان وعمله وفعله في تلك الحياة ، الإيمان الذي يربط الحاضر بالمصير ، ويجعل الإنسان رقيباً على نفسه وعلى عمله ، الإيمان الذي يوفق بين الغرائز والطاقات والفطر والتطلعات ، ويوفق بين الخيال والواقع والأحلام والأمان ، فلا ينشطر الإنسان أو يتمزق أو يقلق ويعقد ، وإنما يهدأ ويقر وينعم ويسعد ، لأنه تحل فيه هداية الله وأنوار الوحي وفقه الرسالة .

النجاة من الخيرة والشك :

بهذا الإيمان العميق ، وهذه الهداية الغامرة ، وهذا الوحي المنير ، المؤيد بالعقل والمنطق المستقيم ، والمتقبل من الفطرة الطاهرة ؛ سلم متبع المنهج الإسلامي من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والخيرة الذهنية والنفسية التي يتجرع غصصها الشاردون عن هذا المنهج المستقيم .

بالإيمان حل المؤمن ألباس الوجود الكبرى ، حين عرف مبدأه ، ومصيره ، وغايته ، ومهمته . عرف أن له رباً — هو رب كل شيء — هو الذي خلقه ، وسواه ، وكرمه ، وفضله ، وجعله في الأرض خليفة ، وتكفل برزقه ، وذلل له الأرض . عرف

المؤمن أنه لم يخلق في الحياة عبثاً ولم يترك سدى ، وإنما هو في عناية الله ورحمته ، بعث له رسلاً مبشرين ومنذرين ، ليبينوا له الطريق المستقيم ، ويهدوا الناس إلى الحق والرشاد ، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما عرف المؤمن أنه ليس غريباً على الكون الكبير من حوله ، ففطرة هذا الكون هي الإيمان ، هي الخضوع والتسبيح والسجود لله سبحانه : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ ^(١) . أما الجاحدون بهذا المنهج ، أو المرتابون فيه ؛ فإنهم يحيون الحياة لا طعم لها ، يحيونها في شك وحيرة ، فكلها من حولهم علامات استفهام .

نرى ذلك في أحوالهم قديماً وحديثاً ، قديماً في مثل الشبل الفداوى في قصيدته الرائية :

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

إلى أن يقول متسائلاً عن علة الوجود :

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجودين به الخيار ؟
وكانت أنعم لو أن كونا نخير قبله أو نستشار !

وفي مثل ذلك يقول عمر الخيام :

لبست ثوب العمر ألم أستشر وصرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت ؟ أين المفر ؟

وحديثاً يقول إيليا أبو ماضي :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

(١) النحل — ٤٩ .

كيف جئت كيف أبصرت طريقى
لست أدرى

أجدد أم قديم أنا فى هذا الوجود
هل أنا حر طليق أم أسير فى قيود
هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود
أتمنى أننى أدرى ولكن ..
لست أدرى

وطريقى ما طريقى أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أنا سائر فى الدرب ، أم الدرب يسير
أم كلانا واقف والدهر يجرى
لست أدرى

أترانى قبلما أصبحت إنسانا سويا
كنت محو ومحالا ، أم ترانى كنت شيا
ألهذا اللغز حل ؟ ، أم سيبقى أبديا
لست أدرى ولماذا لست أدرى ؟؟
لست أدرى (١)

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذى يتقلب على جمرة الحائرون ، أمر رهيب حقا ، إنه عذاب أليم ونار تلتفح القلوب والوجوه ، يحرم الإنسان لذة الحياة وهدوء الضمير ، ويقض مضجعه ، ويؤرق ليله ، ويتعس نهاره ، ويجعله يعيش كما قال الله ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ (٢).

أما المؤمن فإنه — على خلاف ذلك — عنده إجابة من الله وتفسير لكل

(١) ديوان « الجداول » إلبا أبو ماضى — ص ١٣٩ — ط دار العلم للملايين بيروت .

(٢) طه — ١٢٤ .

ذلك ، يعرف طريقه وغايته ومصيره ، في هذا يقول الحق سبحانه ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ^(١) ، ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ^(٢) ، ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ ^(٣) . عرف المؤمن غايته فاستراح إليها ، وعرف الطريق فاطمأن به ، إنه طريق الدين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

الراحة من المعاناة :

تحتاج البشرية إلى الحضارة الإسلامية لتتراح من المعاناة الفردية والجماعية كما ألحنا ، وإذا كان الفرد يلزمه الراحة من المعاناة النفسية فى داخله وفى أعماقه ، إفانه تلزمه أيضاً الراحة من المعاناة الواقعة عليه ، من هضم للحقوق ، وظلم ، وبغى ، واستعباد ، يقهر الإنسان ، ويدله ، ويطحن كرامته ، وستظل الإنسانية تعاني من هذا الهلاك لشخصيتها ما دامت هناك عنصرية فى اللون والجنس والأرض . وستظل فكرة الإنسانية الواحدة بعيدة عن التحقق فى ظل هذه الحضارة العنصرية ، مهما نودى بفكرة الوحدة العالمية ، لأن هذه الوحدة لا بد أن تقوم على عقيدة أدبية ، تكييف الصلاة المادية ، وتسير الآلات والأجهزة لبناء الحياة لا لتحطيم الحياة .

وستظل الأطماع الدولية تتحكم ، فتبيح للسياسة والقادة كل منكر وكل إجرام وكل وحشية ؛ لأنها توجه إلى دول أخرى أو جنس آخر ، وما دامت فكرة قداسة الدولة — لا قداسة الإنسانية — هى التى تتحكم ، فلن يكون هناك رادع عن ارتكاب أخطر الجرائم فى حقوق الآخرين ، وستظل الغاية تبرر الوسيلة فى نظرهم ، وسيعتبر المجرم بطلاً عظيماً ، والغادر سياسياً بارعاً ، على نحو ما شاهدت البشرية فى

(١) الرعد — ٢٧ — ٢٨ .

(٢) الفتح — ٤ .

(٣) النحل — ٩٧ .

تاريخها كله ، فيما عدا الفترة التي سيطر فيها الإسلام وكانت قبسا من النور في غياهب الظلام .

إن الإسلام قوة تحريرية — تنطلق في الأرض لتحرر البشر من أغلالهم ، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة ، دون نظر إلى عصبية عنصرية أو عصبية دينية ، فإذا اصطدمت هذه القوى بقوى الشر والطغيان والاستعباد كافحت هذه القوى الشريرة وحدها ، مبرأة من كل غاية استعمارية ومن كل غاية اقتصادية ، « فقد بعث محمد ﷺ هاديا ولم يبعث جاييا » كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لعامله الذى أرسل إليه يشكو نقص الجزية لأن الناس آثروا الإسلام .

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه في خدمة الإنسانية وراحتها وكرامتها واستقامتها لا ينس أن مصلحة البشرية العليا هي هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين خاصة ، فلا مجال في الإسلام وفي تعاليمه إذا لقداسة الدولة التي تبيح المحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والكذب والنفاق بالبراعة السياسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية ، ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ... ﴾^(١) « كما أن العهود التي يقطعها المسلمون على أنفسهم أو يعطونها للعدو أو الصديق عهدٌ مقدسة ، لا يجوز نقضها بعد توكيدها ، مهما تفوت على المسلمين من مصالح قريبة ومطامح مرغوبة ، لأن الشرف مرعى مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب . ﴾ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون ﴾^(٢) وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾^(٣) .

والشعور الإنساني محترم مهما تكن قسوة المعركة وشroud العدو وخسته وحرارة الحرب وقوة النزال والضرب ، وقد أمر المسلمون أن لا يقتلوا شيخا أو طفلا أو امرأة ، أو يتعرضون لعابد أو يهلكون زرعاً ، وقد كسب الإسلام بذلك كله ، ولم

(١) النساء — ١٠٥ .

(٢) النحل — ٩١ .

(٣) الإسراء — ٣٤ .

يخسر في النهاية ، كسب الأرواح والنفوس ، كسب توطيد الأخلاق والمبادئ العليا التي جاء لإقرارها في الأرض ، كسب حب الإنسانية وتقديرها ، بحيث تعلقت وشغفت به حبا ، وسعدت به وعاشت في ظلاله ، وهكذا الإسلام وتعاليمه وحضارته جاءت للإنسان ، لفطرته ، وأمنه ، وحياته ، ورفاهيته ، وحملها رجال لا ييغون عزا لأنفسهم ، ولا مالا لذواتهم ، ولا مجدا لشعب معين على حساب الآخرين ، يحملون تلك التعاليم ، ويعيشون لها ، ويسعدون ويفرحون بسعادة الناس بها ودخولهم في كنفها ، ويحزنون لبعد الناس عن تلك القيم وهذه المبادئ ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾^(١) ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾^(٢) فمنهج بهذه التعاليم ورجال بهذه الصفة لابد أن يكون لهم شأن ، وإذا كان البقاء للأصلح ، كما يتمثل ذلك في القاعدة الإسلامية : ﴿ فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾^(٣) فأى صلاح أفضل من هذا وأجل وأسمى .

المسلمون قادمون :

أثبتنا أن هذا الدين يحمل عوامل ديمومته واستمراره بين جنيبه ، وهذا أمر بهدى ، فما دام الله سبحانه قد أراد أن يكون هذا الدين هو الخاتم ؛ فمعنى هذا أنه سبحانه قد أمده بعناصر القوة والحيوية ، بما يجعله قديرا على التواصل مع أجيال البشرية المتعاقبة جيلا بعد جيل .. وسواء مر على ظهور الإسلام قرن واحد ، أم أربعة عشر قرنا ، أم مائه قرن أو أكثر ؛ فإن هذا الدين سيظل يحمل ما منحه الله سبحانه من قوة وحيوية وصلاحية ، وسيظل قديرا على الصمود والعطاء حيث يجب الصمود ويكون العطاء ، وسيكون على مر الأيام بصيرا بمطالب البشرية في كل مكان وزمان .. متمكنا من الامتداد والانتشار هنا وهناك ، لأنه دين الفطرة الذي يتعامل مع الإنسان كإنسان روحا ومادة وفطرة وقيمة ، ويتعامل مع الطبيعة سننا ونواميس

(١) الكهف — ٦ .

(٢) الشعراء — ٣ .

(٣) الرعد — ١٧ .

مخلوقة الخالق ، ويتعامل مع التاريخ حركة دائمة متجددة ، تحمل العبرة والعظة ، كما تحمل المعرفة والثقافة ، وتستوعب الحياة الماضية والحاضرة والمستقبلية ، وحدة متكاملة وقد التفت المسلمون في هذه الأيام إلى عبوة الأربعة عشر قرنا التي ولت وانقضت ، والإسلام شاخ ثابت يتحدى بكل شيء ، بتعاليمه ، بحيويته ، ببقوته ... ، فعبير مسيرته الحافلة ذات الأربعة عشر قرنا كان الإسلام قديرا — أبدا — على التجدد والانبعاث ، فكلما أدهم خطب ، وذرت فتنة قرنها ، وكاد اليأس أن يأخذ بتلابيب النفوس والأرواح ؛ كلما برز رجال أو انبعثت حركات وصيحات سطع فيها ضوء الإسلام وشعاعه ، فإذا هي مبهرة تنادى إلى قوة البعث فيه ، وطبيعة الحياة في تعاليمه ، فما يلبث أن يبرهن من جديد أنه على استعداد لبعيدها كما بدأت ، وينيرها كلما اظلمت ، ويطهرها كلما تدنست.

إنه دين يحمل في تركيبه المعجز القدرة الأبدية الخلاقة على التجدد والانبعاث .. بل إن هناك ما هو أبعد من ذلك في طبيعة هذا الدين وفي تاريخه إنه يسير بدعائه وبغير دعائه ببقوته الذاتية ودفعه التلقائي ، وإنه حينما يخسر معركة أو تظن قوى الباطل أنها انتصرت عليه في جهة من الجهات لا يلبث أن يظهر مده في جهة أخرى ، وأن ينتفض في ميدان آخر ، ويكون في نهاية الأمر هو الفائز والمتنصر في حساب الحسابات والأرباح !! .

صحوة وانتشار :

في هذه الأيام التي يعيش الناس فيها المدنية الحديثة نرى الإسلام العجيب ينشر كلا جناحيه على الكرة الأرضية ، ويتوافد عليه رجال من الشرق أو الغرب على السواء ، حتى أزعج هذا المد المتواصل الكثيرين في الشرق والغرب ، وكثرت الكتابة في فرنسا عن المد الإسلامي الطاغى تحت عنوان « المسلمون قادمون » ، وظهرت عدة كتب بهذا العنوان ، وطارت إلى كثير من البلاد الأوربية ، وانزعج منها كثيرا الفاتيكان ، ووصلت هذه الموجة إلى أمريكا ، وقامت هناك حركات إسلامية في وسط الزنوج والملونين وإقبال إسلامي من البيض والمتعلمين ، مد إسلامي هنا وهناك ، وأريد أن أضرب مثلين اثنين على

هذه الصحوة وهذا التقدم الإسلامى ، الأول فى شعب من شعوب الحضارة ،
والثانى فى شعب من شعوب الدول النامية .

الإسلام فى كوريا :

لم يصل الإسلام إلى كوريا ، ولم تذهب دعاة الإسلام إلى تلك البقاع ،
ولم يدر أحد من أهل تلك البلاد عن الإسلام شيئا ، لم يقرأ عنه ، لم يسمع حتى
شيئا من تعاليمه ، إلى أن ذهب إلى هناك فى الحرب العالمية الثانية بعض الجنود
الأتراك لمحاربة الشيوعيين ، فاختلطوا ببعض أهالى المنطقة ، وشرحوا لهم
بعض تعاليم الإسلام ، فآمن بعض الكوريين واعتنقوا الإسلام . وترك الحديث
للمسلم الأول فى كوريا يحكى قصة دخول الإسلام فى كوريا ، وهو الحاج
« محمد يون تويون » ٧٢ سنة فيقول : تعرفت على بعض الجنود الأتراك ،
وعرفت منهم بعض تعاليم الإسلام ، وكنت بعد ذلك أذهب إليهم وأزورهم أنا
وأخى الحاج عمر فى معسكرهم ؛ للتعرف على المزيد من الإسلام ، واعتنقنا
الإسلام والحمد لله بعد معرفتنا لتعاليم الإسلام ، وقد طلبت من أحد الجنود
الأتراك مساعدتنا فى نشاطنا الإسلامى ، وقد وافق على ذلك وكان اسمه جبير
كوتش — مايزال على قيد الحياة إلى الآن جزاه الله خيرا وهو موجود الآن
بأزمير — وكان سنى وقت اعتناق الإسلام ٥٠ عاما ، وصرنا ندعوا إلى
الإسلام ، والإسلام ينتشر بسهولة ، والكثير من الناس يرغب فى الدخول فى
الإسلام لوضوح عقيدته وحيويته .

وقد انتشر الإسلام فى كوريا الجنوبية رغم أنه لا يوجد التعريف الكافى ،
أو الدعاية اللازمة ، أو الكتاب الكورى الذى يشرح بلغة القوم تعاليم الإسلام وقضاياها ،
ولكن الكوريين الذين أنعم الله عليهم بالإسلام استطاع بعضهم أن يتقن لغة
القرآن ، وأن يقوم بترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى كوريا على نفقتهم
الخاصة ، وأن يتولى العاملون فى حقل الدعوة منهم توزيعها على الناس لمعرفة
تعاليم الإسلام .

ومن هؤلاء الذين أسلموا وكانت لهم جهود مشكورة فى هذا المجال :

البروفيسور : عثمان كيم يونغ سون ، أستاذ في جامعة هانكوك للدراسات الأجنبية ، قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الكورية للمرة الأولى .

قصتي مع القرآن :

يقول البروفيسور عثمان عن قصة ترجمته لمعاني القرآن : كنت أدرس القرآن وتفسيره في قسم اللغة العربية بالجامعة منذ عام ١٩٧١ ، وقرأت ودرست تفسير المنار للشيخ « محمد رشيد رضا » ، كما قرأت ترجمة معاني القرآن بالإنكليزية ليوسف علي ، ثم فكرت في أن أترجم معاني القرآن إلى الكورية ، حيث لم يترجم سابقا ، خاصة وأن الإسلام بدأ ينتشر في كوريا ، وأصبحت الحاجة ماسة لتفهم معاني القرآن الكريم ، هذا الأمر بنظري على غاية من الأهمية للدعوة الإسلامية في بلادى كوريا ، وقد بدأت عملي سنة ١٩٧٥ وانهيت منه في فبراير سنة ١٩٨١ ، كنت أعمل باستمرار أكثر من ثلاث ساعات يوميا ، وبعد أن انتهيت من الترجمة واجهتني مشكلة طبعه ، فاقترضت من اتحاد المسلمين في كوريا حوالي عشرين ألف دولار ، وطبعت من الترجمة ألف نسخة فقط ، وهذا العدد لا يسد حاجة البلاد ، وسأفكر في طبعه مرة أخرى ، وسأبدأ عملي اعتبارا من السنة القادمة في ترجمة سيرة الرسول ﷺ ؛ لأنني أعتقد أن فهم السيرة ضروري لمعرفة كتاب الله ، ولدى مشروع لترجمة حديث رسول الله ﷺ . وأنا أجد لذة في مصاحبة القرآن وسيرة رسول الله ﷺ وحديثه ﷺ .

جهود المسلمين في كوريا :

يتعجب الإنسان وتأخذه الدهشة إذا تصور أن رجلا واحدا أسلم من مدة وجيزة استطاع أن يدخل في الإسلام أكثر من عشرين ألفا ، ثم واصل الدعوة حتى دخلت بعد ذلك قرى بأكملها في الإسلام ، في بلاد بلغت شأوا كبيرا في العلم والمدنية ، حتى أصبحت تنافس أوربا وأمريكا واليابان صناعيا وعمرانيا وعلميا .

ولكنه الإسلام ، الدعوة الغالبة التي تعطى معتنقها قوة وسطوة وحلاوة إذا آمن بصدق ، ودعا بإخلاص ، وأقبل بيقين ، وقد أخبر القرآن بذلك فقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ، ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ولقد قامت المجموعة الكورية المسلمة بتنظيم نفسها بنفسها ، وقامت بجهود مختلفة في مجال الدعوة ، وفي مجال المؤسسات الإسلامية والتعليمية والإعلامية ، التي نخدم الدعوة الإسلامية ، وتسهل وصولها إلى الناس .

جهودهم في الدعوة :

- ١- قام الاتحاد الإسلامي الكوري بجهود قيمة ، نذكر منها مايلي :
- ١- دعوة المدرسين في المدارس إلى اعتناق الإسلام وشرحه لهم .
- ٢- دعوة الطلاب ، وإقامة ندوات لهم ، وتعريفهم بميزة الإسلام وعقيدته .
- ٣- ترجمة كتب للطلاب في المدارس والجامعات ، وللأفراد المتعلمين في الأمة لشرح الإسلام وتوضيح عقيدته .
- ٤- إصدار مجلات إسلامية تحمل رأى الإسلام وتدعو إليه .
- ٥- زيارات للأسر ، وشرح الإسلام لهم وتبيان مميزاته .
- ٦- مشاركة الناس في أفراحهم وأحزانهم ومواساتهم .
- ٧- حل مشاكل الناس بما يستطيعون وقضاء مصالحهم .
- ٨- خدمات اجتماعية كالعبادات لمعالجة الفقراء ومساعدة المحتاج .
- ٩- إظهار المعاملات الإسلامية المتميزة .
- ١٠- مكثبات لإعارة المحتاجين إلى الكتب العلمية والإسلامية .
- ١١- تعليم اللغة العربية وتدريب المسلمين عليها لأنها لغة القرآن .
- ١٢- ترجمة الكتب إلى لغة البلاد الأصلية .
- ١٣- اختيار الطلبة الصالحين ، وإرسال نخبة منهم إلى البلاد الإسلامية .

١٤- إرسال دعاة إلى الجهات المختلفة ، للدعوة إلى الإسلام في البلاد .

ولبيان مدى نشاط الدعاة في الدعوة إلى الإسلام نذكر نشاط داعية منهم على سبيل المثال : الداعية اسمها الأخ « راضى كو » ، تخرج من جامعة كورية مختصا بالاقتصاد ، وعمل مديرا لشركة تجارية كبيرة ، أنعم الله عليه بالإسلام . ثقف نفسه إسلاميا ، وجد في الإسلام بغيته ، ووجد الإسلام مليئا بالحياة والعطاء ، يقول : علمت أن الله يريد من كل مسلم أن يكون داعية لدين الله سبحانه وتعالى ، وبهذا أكون مسئولاً بين يدي الله عن تبليغ الإسلام في بلادى ، دعوت إلى الله سبحانه في كل مجال ، ويسعدنى أن يعم الإسلام العالم لتسعد البشرية به ، أزور المناطق الكثيرة في كوريا ، وأشرح لهم الإسلام ، وخاصة أقوم بزيارة للجيش ، وأشرح مفهوم الجهاد في الإسلام ، وأجد تقبلاً من قادات الجيش ، وأعتقد أن الإسلام سينتشر في كوريا ، وأن كوريا ستصبح مسلمة في المستقبل ؛ لأن الدين الإسلامى يخاطب الفطر ، ويصلح المجتمعات ، ويمنعها من الانهيار الخلقى والروحي والمادى . وبلادى تتمتع بالحرية ، ولا تمنع من انتشار الإسلام ، ولا تحول بين الفرد وأى دين يختار .

حيوية الرسالة :

أى رسالة هذه تلك التى إذا دخلت القلوب فعلت بها فعل الماء والسماء ، وبعثت فيها الحياة ، رجل واحد يؤمن في القرية فيثير كل هذا النشاط ، وكل هذه الحركة ، وليس هناك وراءه دولة أو هيئة أو مؤسسة ، أو تسنده قوة من القوى ولا يبتغى بذلك جزاء ولا شكورا إلا خير الناس وثواب الله سبحانه وتعالى ، يدخل في كل عام ٤ آلاف إلى الإسلام ، وفي بعض المناطق تدخل قرى بأكملها في الإسلام عن رغبة وطوعية وحب يصل إلى حد العشق والوله .

أى رسالة هذه التى تسير وحدها بغير المسلمين ، وبغير دعاة الإسلام ، وبغير أولى الأمر ، وبغير أموالهم وسلطانهم ، وبغير ذلك كله في شرف ونزاهة ورفعة وشموخ ، تسير وهى مهزومة في بلاد المسلمين ، معطلة بينهم ، تفتح جبهات أخرى وميادين ناهية عطشى ، تقدر قيم الأشياء ومعادن الدعوات ، وهذه طبيعة الدعوة الإسلامية من قديم ، بدءاً من عهدها مع الداعية الأول ﷺ وإلى عصرنا ، وإلى أن

يرث الله الأرض ومن عليها ، تسير مع الناهيين ، ولا تحب الخاملين العابثين ، تركت مكة وذهبت إلى المدينة فانتصرت ، وتركت الحجاز والخلافة وذهبت إلى مصر فانتصرت على الصليبيين والتتار ، وتركت الشرق وذهبت إلى الأندلس ، وتركت الأندلس وذهبت إلى تركيا ، ثم تركت تركيا والشرق الميت وتذهب الآن إلى بقاع أخرى أوربية وغير أوربية ، ترتادها ، وتعمل عملها ، وإن غدا لناظره قريب .

جهود المسلمين الكوريين في مجال المؤسسات الإسلامية :

عرف الكوريون أنه لا بد من تعلم اللغة العربية لفهم الإسلام واستيعاب معاني القرآن والسنة ، فعملوا على إنشاء مدارس إسلامية لتعليم اللغة العربية مع الإسلام ، كما عملوا على فتح أقسام اللغة العربية في الجامعات الكورية ، واستطاعوا أن يفتحوا قسم اللغة العربية في جامعة « هانكوك » ، ويعد من أكبر أقسام الجامعة ، وعدد الطلاب فيه يصلون إلى خمسمائة طالب ، يبذلون جهودا طيبة في تعلم اللغة العربية وآدابها وعلومها ، واعتنقت نسبة كبيرة منهم الدين الإسلامي ، ويدأبون على الصلاة في المركز الإسلامي . كما أنشئ قسم للغة العربية في جامعة « ميونجي » يبلغ عدد طلابه مائتي طالب ، يدرسون اللغة العربية عن رغبة واقتناع ، لأنها مفتاح لفهم الدين الإسلامي الجديد الذي بدأت خطواته في كوريا .

كما أقام اتحاد المسلمين في كوريا مركزا لتدريب وتعليم اللغة العربية ، يتفرع منه مدارس في عدة مناطق لتأدية الغرض نفسه ، وقد أقيم هذا المركز عام ١٩٧٦ .

جامعة كوريا الإسلامية :

بعد أن عزم الاتحاد الإسلامي في كوريا على فتح المدارس الإسلامية ، وتم له ذلك ، فكر الاتحاد في فتح جامعة إسلامية ، وقد خرج المشروع إلى حيز الوجود بفضل جهود هذا الشباب الكوري المتعلم النابه الملتهم بالعقيدة الإسلامية ، فتبرعت الحكومة بعد اقتناع لاتحاد المسلمين الكوريين بأرض مساحتها ٤٣٠٠٠ متر مربع ، بأمر رئيس الجمهورية ، وقامت الحكومة بشق الطرق اللازمة الموصلة إليها لتصلها كل المرافق والمواصلات .

وقد شكلت لجنة من أعضاء الاتحاد والمتخصصين في وضع المناهج الدراسية للجامعات ذات الطابع الإسلامي في الدول الإسلامية ، لوضع المناهج المناسبة للجامعة ، ويتكون هذا المنهج من :

- ١ — دراسة القرآن الكريم تلاوة وحفظا وتفسيرا .
- ٢ — دراسة أحاديث الرسول ﷺ وتفسيرها .
- ٣ — دراسة العقائد والفقه والسيرة والعلوم الإسلامية .

كلياتها :

- ١ — كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .
- ٢ — كلية للغة العربية وآدابها .
- ٣ — كلية لغات أندونيسيا وملايو .
- ٤ — كلية اقتصاد .
- ٥ — كلية إدارة وتجارة .
- ٦ — كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية .

من أهداف الجامعة :

- ١ — التبادل الثقافي بينها وبين جامعات الدول الإسلامية .
- ٢ — إيجاد معاهد لتعليم أبناء المسلمين في كوريا .
- ٣ — تعليم العقيدة الصحيحة ؛ لنشر الدعوة في كوريا والبلاد المجاورة ، حتى تكون منطلقا للدعوة الإسلامية في المنطقة .
- ٤ — إصدار المجلات والدوريات ، وتنظيم المحاضرات ، وإقامة معارض الكتب الإسلامية .
- ٥ — تدريب الطلاب على الإسلام العملي والحياة الإسلامية ، وتخرج دعاة ومدرسين أكفاء .

جهودهم في بناء المساجد :

أقام المسلمون العديد من المساجد الهامة ، لأداء الشعائر الدينية وإقامة الصلوات ، ولتكون مركزا لنشر الدعوة الإسلامية وشرح تعاليم الإسلام وتعليم أدايه ،

نذكر أهم تلك المساجد :

١- أقام المسلمون مسجدهم الأول في سيئول العاصمة ، لنشر الدعوة الإسلامية ، وإقامة الشعائر ، وكان له نشاط كبير ، وأصدر مجلة باسم « كوريا إسلام » ، للدعوة إلى الدين الجديد ، وتعريف الناس به .

٢- المسجد الكبير والمركز الإسلامى بسيئول ؛ لما ضاق المسجد الأول وانتشر الإسلام ، بنى المسلمون مسجدهم الكبير في قلب العاصمة سيئول ، وكان لبناء هذا المسجد أثره في الدعوة إلى الله وإلى الإسلام وتعريف الناس به .

٣- المركز الإسلامى في مدينة « بوسان » بنى على أرض مساحتها ٢٠٨٥ مترا مربعا ، وافتتح في سبتمبر سنة ١٩٨٠ ، وهو يؤدي دوره الهام في نشر الدعوة الإسلامية بين الكوريين .

٤- المركز الإسلامى الملحق بالمسجد الكبير الذى بنى في عام ١٩٧٠ ، وامتد إلى خارج العاصمة وأصبح له ثلاثة فروع خارجها .

٥- مسجد « كوانغجوا » بنى في عام ١٩٧٨ ، وكانت نواته الأولى رجل في القرية هو الحاج عبد الله جون ، وقد بنى أول الأمر مسجدا صغيرا في بيته في القرية ثم انتشر الإسلام في القرية ، وأسلمت القرية كلها ، وهى أول قرية في كوريا مسلمة مائة في المائة ، بعد أن شرح الله صدرها للإسلام والقرى القريبة تفكر في الإسلام بعد أن رأت سلوك المسلمين الطيب وسيرتهم الحسنة .

آثار الإسلام في المجتمع الكورى :

- ١- أهل القرى التى اعتنقت الإسلام تركوا حياة التبذل والفجور والإباحية .
- ٢- رقت حواشيمهم ، وكثر التعاون فيما بينهم ، وظهرت فيهم القيم .
- ٣- ترك المسكرات والبعد عن الخمر والميسر .
- ٤- اختفاء الجرائم والسرقات ، وظهرت المحبة والألفة .
- ٥- حبهم للعبادة والإقبال عليها ، ودأبهم الكبير في حفظ القرآن ومعرفة الإسلام .

- ٦ — تطوع الكثيرون للدعوة إلى الله في القرى المجاورة .
٧ — إقبال المتعلمين على الدين الجديد ؛ لأنه يعطيهم طاقة ، وهدوء نفسي ، وفهما جديداً للحياة .

توقعات الكوريين وآرائهم :

- ١ — الدين الإسلامي دين علمي خالده ، لا يفرق بين الناس بألوانهم ولا أمواهم ، ويعتبر البشرية أسرة واحدة ، ولهذا فهو دين المستقبل وحضارته .
٢ — جاء الإسلام بحقيقة الحقائق ، وهي أن الله واحد ، ونحن نستطيع أن نحجم بواسطة العقل والمنطق كذلك بأن الله واحد لا شريك له ، وأنه خالق الكون . والتناقض الذي عليه الديانات والمذاهب المختلفة مرفوض في العقل والمنطق والواقع ، وصدق الله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (١) .
٣ — المعتقد أن الإسلام سينتشر في كوريا ؛ لأن النصرانية والبوذية كلاهما يتجه إلى المادية ، ويميل إلى الفلسفة المعقدة ، والإسلام دين يوافق الإنسان ؛ لأنه لا يصادم فطرته ، وهو دين بسيط وميسر .
٤ — يجب أن ينشر الإسلام بالكلمة والسلوك والأخلاق والمثل الحسن ؛ لإظهار فعاليته الحقيقية ، وتأثيره العملي في الناس . (٢)

إيضاح :

يستطيع الإنسان المسلم أن يرى كيف ينتشر الإسلام بسرعة في الأوساط الحضارية ، وفي الأمم المتقدمة صناعياً وثقافياً ، لأنهم يعتبرون أن الإسلام بمنهج وحضارته هو ما كانوا يفتقدون ، ليكتمل تقدمهم ، ويحفظ علمهم ، وتوجه ثقافتهم ، وتبنوا أنفسهم ، وتسلم من الأمراض والعقد والتخريب والشقاء ، إن انتشار

(١) الأنبياء / ٢٢ .

(٢) المرجع في هذه المعلومات مقابلات شخصية ، وتقارير ميدانية ، وملتكرات بالمعهد الديني بقطر ، ومجلة الأمة القطرية : العدد الحادى عشر السنة الأولى ص ٣٣ الى ص ٥٤ ، مع تقارير لوزارة الأوقاف الكويتية من زيارة لوزنها الأستاذ يوسف الحنجي .

الإسلام بتلك الجهود البسيطة الأولية البدائية في عصر العلم والفضاء والتلفاز والأقمار الصناعية للدليل على أنه يوازي بمبادئه كل هذا التقدم ، وأن موجاته أعلى وأقوى من كل هذه الموجات ، وأن صوته أرفع من كل بث وأوضح من كل إرسال .

وإن ثبات الإسلام في وسط هذه الأعاصير الهوج من المبادئ والنحل والأفكار والشعارات ، رغم ما تملك ، ورغم من يقفون وراءها ، وانتصاره عليها ، يمثل لفئة إلى جبروته الطاغى ، ومنهجه الغلاب ، وحضارته الراسخة .

كما وأن قبول الإسلام يقتضى قبول لغته ، وتعلمها ، ومعرفة ثقافتها . وهذا شيء يمثل في عرف الأمم تنازلا كبيرا عن قوميتهم ووطنيتهم ، خصوصا إذا كانت لغته ليس لها حضارة ظاهرة أو معروفة اليوم ، وليس لها علوم أو نظريات في وسط الحياة العصرية ، يستفيدون منها وينتفعون من وراثتها ، ومن هذا التنازل القومى ، بل من التحول عن القومية كلية إلى قومية الإسلام ، التوجه في صلاتهم إلى قبلة المسلمين ، والتوجه بشعورهم وروحهم وكيانهم إلى نبي الإسلام وتعاليمه ، بل إلى المناسبات الإسلامية ، وأعيادها ، حتى رأينا المسلمين الكوريين يحتفلون معنا — بل قبلنا — بالقرن الخامس عشر الهجرى ، وينشئون الجامعات الإسلامية ، وينسلخون من ثقافتهم إلى ثقافتنا وإلى روحنا .

أفما كان الأجدر بنا أن نكون عند حسن الظن ، وأن نحمل الأمانة ، وأن نبليغها للناس ؟ ويومها سنرى ماذا تكون رسالة الإسلام وحضارته . وياله من دين لو كان له رجال ، وياله من حضارة ينقصها التبليغ والإعلان والسلوك .

إسلام المنبوذين :

ومن إسلام الأمم المتقدمة علميا إلى الأمم المتخلفة علميا ، وإلى الأمم النامية والفقيرة . من الإسلام المنتشر في أوروبا وفي كوريا إلى الإسلام المنتشر في الهند ، وسط الفقراء والمنبوذين ، الذين سعموا الحياة ، وسعموا التفرقة العنصرية ، وسعموا ظلم المذاهب والنحل الباطلة ، فالهند دولة كبيرة ذات كثافة سكانية ومساحة واسعة ، وهى أرض الديانات الهندوكية والبوذية والإسلامية والسيخية الزرداشتية والنصرانية وغيرها ، أرض تنبت فيها الآلهة كالأعشاب ، وتقُدس فيها الأحجار ولو لم

تكن كريمة ، والأشجار وإن كانت غير مثمرة ، والحيوانات وإن كانت خسيصة مثل القردة ، وبعض أنواع الطيور ، والأبقار ، وقد نالت بعد استقلالها مكانة لأبأس بها بين البلاد النامية ودول العالم الثالث وفي هذه الدول ذات الثقافات والحضارات ، وذات العناصر والألوان الديانات والتقاليد ، نرى رجالا سثموا الحياة وبدوا يتذمرون من الفوارق الطبقية والعنصرية ، وضاقوا ذرعا مما يعانون من ويلات القهر منذ زمن عريق ، عاشوا فيها ، ديانة لا تؤمن بعنصرية أو طبقية ، وحضارة يكون الإنسان فيها كأسنان المشط سواسية ، يطلبون دينا لا يقر الاستقرائية ، ولا يفرق بين أبناء النوع الإنساني ، إلى شريف ووضيع ، وعال وسافل ينحط من إنسان إلى حيوان ، دين ينادى بصراحة ووضوح : ألا- كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعري على عجمي ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، يطلبون دينا لا يجعل من إنسان يتنفس أبعاضا طبقة عالية وشعبا مختارا ، وأخرى سافلة مطروحة في قارة الطريق ، ومنبوذة في الأرض ، تداس تحت الأقدام ، يطلبون حضارة لا تقر بنجاسة بعض الأرواح الانسانية .

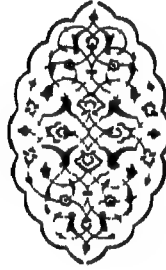
هؤلاء هم المنبوذون الذين بدؤوا يعتنقون الإسلام ، ويدخلون في دين الله أفواجا ، وهم سعداء حقا ، حيث اهتموا إلى سواء السبيل من غير أن يرشدهم أحد ، أو يأخذ بأيديهم أحد ، وإنما الفوارق الطبقية في مجتمعهم هي التي ألجأتهم إلى التحول إلى الإسلام وإلى هديه ونوره ، لقد دخلت قرى بأكملها من الهندوس في الإسلام ؛ لأنهم من طبقة شودر « المنبوذون » ، لأن المجتمع الهندوسي الظالم يحتقرهم ، ويعتبرهم أحط من البهائم وأخس من الكلاب ، ولا ذنب لهم ولا جريرة ، لا يُسَلَّم أحد عليهم ، ولا يعطون حقوقا ، ولا يجالسون أو يولون ، وليست لهم حرمة أو كرامة أو دية ، وجد هؤلاء في الإسلام أنه دين الله حقا ، دين العدالة ، دين الحب والحياة والكرامة ، وبغير دعاة وبغير إعلان عرفوا الإسلام ، ودخلوا فيه ، رغم منع السلطان لهم ، ورغم حرق مزارعهم واستباحة قراهم لدخولهم في الإسلام ، ورغم ما يتعرضون إليه من تجويع وتهديد واستباحة ليلا ونهارا .

لقد زاد اضطهادهم أكثر وأكثر بعد دخولهم الإسلام ، ولكنهم سعداء ،

ولسان حالهم يقول : ﴿اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ ^(١) . هذا لأن دين الإسلام هو دين الإنسانية من عند خالقها ، الدين الذى رفع العبيد بالإيمان ، وخفض السادة بالكفر والضلال .

ويعد :

فهذا هو الإسلام ، وهذه حضارته التى يحتاجها العالم ، قويه وضعيفه ، غنيه وفقيره ، متعلمه وجاهله ؛ لأنها حديث الفطرة ، وناموس الكون ، ولغة الحياة التى تنتظرها الحياة ، وصدق الله : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ ^(٢) . وقد بدأ الحق يعمل عمله ، ويظهر نوره ، ويطلع فجره ، وتبرز شمس ، ويستقبله الناس بالأمل والحب والحياة .



(١) انظر على هامش الأحداث — لبدر القاسمى الهند ديونند — ص ٣٠ / ٣١ وانظر مجلة البلاغ العدد ٦٥٠ مايو سنة ١٩٨٢ . والآية من سورة طه / ٧٢ .
(٢) الشورى / ٥٣ .

الباب الرابع

التدهور الحضاري وأثره وأسباب انحطاط المسلمين حضارياً

**الفصل الأول : الغزو الفكري وتوارث
الحضارات وأثره على الأمة
الإسلامية**

**الفصل الثاني : أمراض الحضارات وعصور
الانتحار العلمي**

**الفصل الثالث : أسباب انحطاط المسلمين
حضارياً**

الفصل الأول

**الغزو الفكري وتوارث
الحضارات وأثره على
الأمة الإسلامية**

المبحث الأول

أضواء على هذا المصطلح وما يقاربه من مصطلحات

لاشك أن مصطلح الغزو الفكرى مصطلح حديث ، لم يسمع به بهذا الاسم قبل هذا القرن ، وإن كان معناه ومفهومه قديما قدم الأمم والشعوب والثقافات ، وإذا أردنا أن نضع الكلمة تحت المجهر اللغوى ، ونعرضها على مقاييس اللغة العربية ، فإننا نرى أنها تستند إلى أصل لغوى ، يرتبط معناها بهذا الأصل الذى استعيرت منه لتدل على مفهوم عصرى ، له من الخطر ما للحرب والقتال الذى تشير إليه كلمة الغزو لغويا ، ولوضوح المعنى نعرض لمفردات المصطلح اللغوية .

فكلمة الغزو فى العربية تطلق على السير إلى قتال العدو فى بلاده وانتهابه . يقال : غزوت العدو غزوا : إذا سرت إليه فى بلاده لمقاتلته وحره . قال ابن برى : وقد جاء الغزو فى شعر الأعشى فقال :

وفى كل عام أنت حاسم غزوة تشد لأقصاها عزم عزائكا

وفى شعر جميل قوله :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وفى الحديث : قال ﷺ يوم فتح مكة :

« لا تغزى قريش بعدها » أى لا تكفر فتغزى .

كما يطلق الغزو على الإرادة والطلب للشيء ، يقال : غزوت فلانا أغزوه غزوا ، إذا أردته وطلبته ، والغزوة بكسر الغين هى ما غزى وطلب : قال ساعدة بن جوية :

لقلت لدهرى إن هو غزوقى وإنى وإن أرغبتنى غير فاعل

كما يقال : مغزى الكلام ، مقصده ، وعرفت ما يغزى من هذا الكلام ، أى ما يراد . كما يطلق الغزو على القصد .

فيقال : غزاه ، وغازه غزوا وغوزا ، إذا قصده ، وغزا الأمر واغترزاه : كلاهما قصده . هذا عن ابن الأعرابي . وأنشد
قد يغزى المهجران بالتجرم

كما يقال : غزوى كذا ، أى قصدى . ويقال : ماتغزو ، وما مغزاك : أى ما مطلبك^(١) . وعلى هذا فمعنى الكلمة يدور على معنى القصد ، والطلب ، والسير إلى قتال الأعداء فى ديارهم وانتهاهم وقهرهم والتغلب عليهم ، وأما تعريف كلمة الفكر لغويا فتطلق على :

إعمال الخاطر فى الشيء ، وتردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعانى . يقال : لى فى الأمر فكر أى نظر . ومن العرب من يقول : الفكر والفكرة ، قال الجوهري : التفكير التأمل ، والاسم الفكر والفكرة ، والمصدر الفكر بالفتح .

كما يطلق الفكر : على ترتيب أمور فى الذهن ، يتوصل بها إلى مطلوب يكون علما أو ظنا^(٢) . وعلى هذا فالفكر هو القوة العاقلة الناطقة فى الأمور الموجهة للإنسان . وهى التى تحكم على الأشياء وتفدر الأمور التى يتوصل بها مطلوب الإنسان فى الحياة . ومصطلح الغزو الفكرى ، قصد به ، إغارة الأعداء على أمة من الأمم ، بأسلحة معينة ، وأساليب مختلفة ، لتدمير قواها الداخلية وعزائمها ومقوماتها ، وانتهاك كل ما تملك ، ولكن الفرق بين الغزو الفكرى والغزو الجسدى والحربى : أن الغزو الحربى يأتى لتصفية الأجساد ، أما الغزو الفكرى فهو لتصفية العقول والأفهام . ولكن النتيجة واحدة ، هى استعمار الشعوب ، وتصفيتها ، وأخذ خيراتها ، والسيطرة عليها .

وقد يكون خطر الغزو الفكرى أشد وأقسى ؛ لأن الأمة المهزومة فكريا تسير إلى

(١) لسان العرب والمصباح المنير فى مادة — غزا .

(٢) لسان العرب والمصباح المنير فى مادة — فكر .

غازيها عن طواعية ، وإلى جزاها عن رضا واقتناع وحب ، لا تحاول التمرد أو الخلاص .

وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة ، حيث أن كلمة الغزو استعملت في معناها ، وهي الإغارة على أمة من الأمم للاعتداء عليها وانتهابها ، ولكن عن طريق الفكر ، وتدمير القوى المفكرة فيها . وهذا ما لفتت إليه كلمة الفكر التي تطابق معناها في العربية معناها في المصطلح . وإذا أردنا أن نكون أكثر إيضاحاً وبعداً عن التجاوزات، نقول : استعار المصطلح كلمة الغزو للفكر ، لما بينها وبين الغزو في الحبيب من علاقة في نهب الشعوب ، وتدميرها ، والسيطرة عليها .

أو هي مجاز على التشبيه بالحرب الفعلية ، في التدمير ، والتخريب ، والانتهاك ، والسيطرة على الشعوب . ولهذا شاع استعمال هذا المصطلح وأضرابه من المصطلحات ، التي تدل على هذا المعنى ، وتسير في فلكه .

المصطلحات المشابهة :

ظهرت مصطلحات فكرية أخرى مشابهة للغزو الفكري ، يقصد بها ويراد منها ما يراد منه ، غير أنها قد تختلف في بعض الأحيان في الأساليب والمخططات والأزمان ، ولكن الأهداف العامة واحدة . منها :

الحرب النفسية :

وعرفوها بأنها : « هي استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول ، للدعاية وغيرها من الإجراءات الإعلامية ، الموجهة إلى جماعات عدائية أو محايدة أو صديقة ، للتأثير عليها ، وعلى آرائها ، وعواطفها ، ومواقفها ، وسلوكها ، بطريقة تعين على تحقيق سياسة وأهداف الدولة المستخدمة ، أو الدولة المستخدمة »^(١)

ولا شك أن هذه الحرب تنصب بالدرجة الأولى على فكر الإنسان وعقله وقواه المدركة ؛ لتدميرها بأساليب مختلفة مثل الإثارة ، والتخويف ، والإرهاب ،

(١) الحرب النفسية — صلاح نصر — ١ / ٩٢ .

والتشكيك ، والترغيب ، وغير ذلك من الأساليب .

هذا وقد صاحب الحرب النفسية جملة من الحروب ، ومن المسميات المساعدة ، مثل : الحرب السياسية ، أو الدبلوماسية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب الباردة .

وكل هذه الحروب يراد بها التأثير على أعصاب الجهة المقابلة ، والضغط على تفكيرها ، لشل قدراتها ، وتوجيه مسارها لصالح الجهة المنفذة لهذه الحرب ، وهذه الحرب لا تقتصر على وقت القتال ؛ بل أصبحت تستخدم في وقت السلم والصلح ، وأوقات النزاع المسلح والمفاوضات الدبلوماسية ، وفي أوقات التحفز « الحرب الباردة » .

والحروب النفسية تشترك مع الغزو الفكرى فى التأثير على العدو ، وتدميره ، ونهبه ، ولكن عمل الحرب النفسية فى وقت النزاع المسلح يكون أكثر وألزم منه فى وقت السلم ، على خلاف الغزو الفكرى . وقد تستعمل الحرب النفسية للتخويف والإرهاب ، بخلاف الغزو الفكرى الذى يكون بالدهاء والمكر واستعمال الحيل العقلية والثقافية والدعائية ، التى تؤثر فى الناس ، وتغرر بهم ، وتجعلهم يميلون إليها ويأمنون بها .

غسيل المخ :

ولعل هذا المصطلح قد عبر عنه عنوانه أصدق تعبير ، إذ يراد به إزالة ما فى المخ والعقل ، وتفريغه من كل ما يعلق به وكل ما يحتويه من أفكار ورغبات أو آراء ومعتقدات ، وقد يصاحب هذا قتل للعقل وتعطيل للإدراك . ولعل هذا ما دعا كثيرا من علماء النفس إلى عده عملا منافيا للإنسانية . فنرى الدكتور ميرلو ، العالم النفسى الهولندى يستخدم فى التعبير عنه كلمة Menticide ومعناها « قتل العقل » ، ذلك لأن عملية غسيل المخ توجد خضوعا لإراديا وقهرا للناس ، تسلبهم إنسانيتهم بطرق شتى ، وضغوط معنية ، يستحيل معها المحافظة على أى توازن أو إرادة أو تفكير . ولهذا عرفوه بقولهم : « هو محاولات تستخدم لتوجيه الفكر

الإنسانى ، أو العمل الإنسانى ، ضد رغبة الفرد الحر ، أو ضد إرادته أو عقله » (١). وعرفه الدكتور الدباغ فى كتابه « غسيل المخ » بقوله : « كل وسيلة تقنية مخططة ، ترمى إلى تحويل الفكر أو السلوك البشرى ضد رغبة الإنسان أو إرادته أو سابق ثقافته وتعليمه » (٢)

وظهرت فكرة غسيل المخ ، وبرز هذا المصطلح إلى الوجود عند الصينيين والروس والكوريين ، لتحويل الأفكار ، وتنقيتها مما علق بها فى رأيهم من أفكار البرجوازيين والمتريسين والمدمرين . وكان أول من أجرى تجارب غسيل المخ هو العالم الروسى « إيفان بيتروفيتش بافلوف » إذا استطاع بافلوف أن يجرى تجاربه على الكلاب ، واستطاع بأساليب معينة : من القهر ، والإرهاب ، والتجويع ، والترجيع ، والمثابة ، أن يخرج الكلاب عن طبيعتها ، ويجعلها مثلاً تأكل الحبوب والحشائش ، بدلا من اللحوم والأطعمة المخصصة لها .

وقد عرف لينين قيمة وأهمية أبحاث بافلوف العلمية ، ومدى عمقها ، فقيّمها وشجعها ، وطبقوها على الإنسان ، وأخضعوها لقواعد معينة ، يجب أن يتعرض لها الإنسان حتى يغسل جيدا من هذه الأفكار .

- ١ — عزل الشخص عن الحياة العامة ، وقطعه عن الدنيا فى زنازين معينة .
- ٢ — الضغط الجسمانى ، وذلك بالحرمان من الطعام ومن النوم ، وتعريضه للإجهاد والقهر والامتهان .
- ٣ — التهديدات وأعمال العنف ، إما أن يكون مباشرا ، وآثاره بالتعذيب الجسدى والنفسى ، أو غير مباشر ، وذلك بتعذيب من يحب من أهله وزوجه .
- ٤ — الإذلال والضغط ، الإذلال فى إعطاء الطعام الضرورى وفى النوم إن كان ، وفى الاغتسال وفى طريقة الاستئذان وغير ذلك .

(١) انظر الحرب النفسية ٢ / ٣ ، ٣١ .

(٢) غسيل الدماغ للدكتور فخرى الدباغ ص ١٣ .

٥ — الدروس الجماعية ، وهذه تكون بواسطة مدربين على أهداف يراد تثبيتها من قبل من يقومون بهذا الغسيل المراد ، لتثبيت مبادئ معينة^(١).

وغسيل المخ هذا يفترق كثيرا في الأساليب عن الغزو الفكري ، إذ يعتمد على القهر ، وعلى التعذيب والتصفية الجسدية في بعض الحالات للإرهاب ، وعلى قتل الفكر وإجهاض العقل وإجهاض مبادئها مباشرة . ويستعمل هذا على الإنسان الأسير أو الحبيس أو مافى حكمه ، وهذا يخالف أساليب الغزو الفكري التي أشرنا إليها قبل . ولكن كل منهما يصل إلى أهداف متقاربة .



(١) انظر غسيل الدماغ للدكتور فخرى الدباغ ص ٢٨ ، الحرب النفسية ص ٣٠ الى ص ٣٨ .

المبحث الثانى أسباب الغزو الفكرى

لاشك أن الغزو الفكرى لأى أمة من الأمم يسبقه ظروف وملابسات معينة ، تمهد له ، وتوطئ لرحفه وإنشأ أظافره فى تلك الأمة ، وإذا أردنا أن نتكلم على تلك الظروف والملابسات والأسباب التى تعترى الأمم عامة ، والأمة الإسلامية خاصة ، فإن سرد ذلك سيطول ويتشعب ، ولكننا نوجز منها أهم الأسباب والملابسات التى تعرضت لها الأمة الإسلامية فى عصورها الأخيرة ، مما جعلها هدفا لتلك الحملات الشرسة المتواصلة للغزو الفكرى الوافد .

١ — التقدم العلمى الغربى :

لاشك أن التقدم العلمى المذهل للغرب كان قويا دافعا ، له من القوة والانتشار والاستيلاء ما بهر العقول وفتن الألباب ، ولاغرو فقد بدأ بذلك كل تقدم علمى عرفه العالم ، وسمعت عنه البشرية فى التاريخ المتراعى الأطراف ، واستطاع أن يخرج من الأسرار ويكتشف من الاختراعات ما جعل أبصار الناس وعقولهم تتعلق به ، بل وتفتتن وتسبح به ، وتهلل لبراعته وأحكامه .

واجه العالم الإسلامى هذه المشكلة وجها لوجه ، وهذا التحدى السافر على طريق واحد ، وهو صاحب الحضارة العريقة والرسالة الدينية الخاتمة ، وصاحب الوصاية على البشرية ، بعدما انسحبت كل الديانات والمذاهب القديمة متوارة من نوره الوهاج وحجته المشرقة ، وصاحب الرقعة الواسعة والثقافة المنتشرة والقوة الكبرى التى كان يحسب لها ألف حساب ، فكان تحدى الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامى أعظم من تحديها لأى أمة ، ولأى حضارة ، ولأى ثقافة .

وقد صاحبت تلك الحضارة مذاهب فكرية ، وفلسفات مادية ، ونظم سياسية واقتصادية وعمرانية واجتماعية وخلقية . وكان لابد أن ينظر الناس — وخاصة الشعوب المختلفة — إلى هذه المذاهب والفلسفات والنظم نظرة تقدير واحترام ، لأنها نتاج تلك الشعوب المتقدمة ، وحصاد تلك الأمم المتطورة ، التي فتت الذرة ، وصنعت الطائرة والصاروخ ، وأدارت الأقمار ، وفعلت الخوارق . كل هذا مع دعاية ساحرة ، وأساليب منمقة ، وإلحاح قوى ، وإصرار عجيب ، ونية مبيتة ، وخطة محكمة ، لغزو هذه الشعوب المشدوهة ، وفتنة هذه الأمم الساذجة عن نفسها وواقعها . ولهذا كان الضغط على الأمة الإسلامية هائلا ماديا وفكريا ، في زمن فقدت فيه روادها وفرسانها وثقافتها ، فلما هبت تريد أن تتعلم وأن تنهض لم تجد إلا أن تولى وجهها نحو الغرب صاحب تلك الحضارة ، فذهب شباب ناهض إلى تلك البلاد ليأخذوا من علمها وفنها ، فممنهم من كانوا كالصخرة الشاخنة أخذوا العلم وتركوا الغشاء ، بل اكتشفوا أن التقدم العلمى المذهل الذى وصل إليه هؤلاء هو بفضل آبائهم وأجدادهم الذين علموا الدنيا كيف يكون البحث ، وكيف تكون الاستفادة من آلاء الله ومخلوقاته ، كما اكتشفوا أنه لاصلة بين التقدم العلمى وتلك المذاهب والفلسفات التى تريد ترويضها وغزو الأمم بها . ولكن هؤلاء كانوا قلة فى وسط أمواج المثقفين الوافدين ، الذين نهلوا من علوم الغرب وثقافته ، وتأثروا بها درجات متفاوتة ، ومبعث هذا التأثير كانت له أسباب عدة ، منها : دهشتهم وانبهارهم بالتقدم العلمى الكبير فى تلك الأقطار ، ومنها : حال المسلمين وما وصلوا إليه ، ومنها : عدم استيعابهم استيعابا كاملا للثقافة الإسلامية ، ومنها : حب التقليد بغير تفكير

فأما الطائفة الأولى : فهم أغنياء عن التعريف ، لأنهم أعلام جاهدوا فى سبيل أمهم ، وحملوا مشاعل العلم والإيقاظ فترة من الزمان ، وكان لهم فى الرد على المذاهب الهدامة حملات وحملات ، وكان لهم مع الفكر الغربى مساجلات ومحاورات وانتصارات ، هؤلاء من أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، ومحمد إقبال ، ومحمد فريد .

. أجدنى فى غنى عن التحدث عنهم بما اشتهر من أمرهم ، ولكنى أعرض لمثل

أو اثنين ممن اختلفت فيهم الآراء وتشعبت ، وخلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ، منهم رفاعة الطهطاوى^(١) .

ذهب رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا مسلحا بثقافة إسلامية ، ثم مال إلى أن قرأ لمشاهير الغرب حتى اتسعت ثقافته الغربية ، وألف في ذلك كتابه المشهور « تخلص الإبريز » ط بولاق سنة ١٢٥٠ هـ ، ومن أشهر ماقرأ من كتب الفلسفة : مؤلفات كوندياك (ت ١٧٨٠) في الفلسفة ، وكتابه في المنطق ، ثم مؤلفات فلتير (ت ١٧٧٨) ، ومنها « معجم الفلسفة » « ومؤلفات روسو (ت ١٧٧٨) ، وخاصة « عقد التأسيس والاجتماع الإنسانى » ، وكتاب برلماكي (ت ١٧٤٨) في الحقوق الطبيعية ، كما اطلع على كثير من الأفكار والآراء الغربية والنظريات السياسية والاقتصادية^(٢) ، ونظر رفاعة الطهطاوى إلى التقدم العلمى والمعلم الحضارية في باريس ، فأعجب بمظاهر الحرية والمساواة ، وتفاعل مع أحداث فرنسا وقوانينها ، وأعجب بدستورها وشعبها ، وتحدث عن ذلك مادحا ، فوصف — مثلا — ثورة الشعب الفرنسى على الملك شارل العاشر سنة ١٨٣٠ ، لأنه خالف الدستور^(٣) ، مشيدا بهذه الحرية وهذا الدستور . ثم ترجم مواد الدستور ، مبينا ما تنص عليه من تساوى بين المواطنين جميعا إزاء القانون فى الحقوق والوظائف والرتب^(٤) ، ثم أوضح أنها تكفل حرية الفرد ، وحرية الملكية الفردية ، وحرية العبادة والقول والكتابة والطبع والنشر « بشرط ألا يضر بالقانون »^(٥) ، وأبدى إعجابه بهذا الدستور ، الذى يسوى بين الملك نفسه وبين عامة الشعب ، ثم بين أن هذه المساواة هى السبب فى شيوع

(١) هو رفاعة بدوى رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) ، ولد بطهطا من قرى صعيد مصر ، تعلم بالأهر ، ثم أوفد إلى باريس سنة ١٨٢٦ ، مرافقا لبعثة علمية ليكون مرشدها الروحى ، فدرس الفرنسية ، وتثقف هناك ، وعاد إلى مصر فتولى رئاسة الترجمة فى المدرسة الطبية ، وتدرج فى غيرها من المناصب . له من الكتب : تخلص الإبريز ، والمرشد الأمين وغيرهما .

(٢) أنظر تخلص الإبريز ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) تخلص الإبريز ١٦٢ — ١٦٧ .

(٤) المرجع السابق ، ٧٣ .

(٥) المرجع السابق — ٦٧ .

العدل وتقدم الحضارة في فرنسا .^(١) ومع أن رفاة الطهطاوى كان يفتقد كل هذه المعانى في مصر في ذلك الوقت ، بل كان يرى ويلمس آثار الحكم المطلق ، والقهر ، والتعسف ، وضياح الحقوق في الشرق الإسلامى ، إلا أنه لم ينس أن يبين أن هذه الحرية وهذه المساواة ليستا غريبتين عن الإسلام ، فأكد أن الإسلام يدعو إلى المساواة ، والعدل ، والحرية ، مثل تلك القوانين التى بهر بها ، وكأنه يفصل بين أعمال الحكام المسلمين وبين رسالة الإسلام ، ومما قال في ذلك : « ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق ، فقد جعلهم في الأحكام متساوين ، لافرق بين الشريف والمشروف ، والرئيس والمرؤوس ، كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه »^(٢) .

ثم بين رفاة الطهطاوى أن الإسلام أصل هذه الحضارات والحریات والقوانين السائدة اليوم ، وأنها قد اقتبست من الإسلام الذى جنى على تعاليمه حفنة من الناس ، فقال : « فإن الذى جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذى مدّن بلاد الدنيا على الإطلاق وجميع الاستنباطات العقلية التى وصلت إليها عقول أهل هذه الأمم المتقدمة ، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم ، قل أن تُخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات . فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية »^(٣) ، ويزيد رفاة فكرته إيضاحا ، فيقول : « للمعاملات الشرعية أبواب مستوعبة للأحكام التجارية كالشركات ، والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . ولا شك أن قوانين المعاملات الأوربية مستنبطة منها »^(٤) وقد طالب كذلك

(١) تخلص الإبريز — ٧٣ .

(٢) المرشد الأمين للبنات والبنين ص ١٣٠ ط المدارس الملكية سنة ١٢٩٢ هـ .

(٣) المرجع السابق — ١٢٤ — ١٢٥ .

(٤) مناهج الألبان المصرية في مباحج الآداب العصرية الطبعة الثانية ١٩١٢ ص ١٦٢ للطهطاوى

بتعليم الأولاد من الصغر أصول الدين قبل أى تعليم آخر ،^(١) حتى لايتأثروا بضلالات الفلاسفة العقلانيين^(٢).

ولكن الطهطاوى مع هذا كانت له تجاوزات حسبته عليه ، وأفكار وضع فيها رائحة الغزو الفكرى ، من هذه التجاوزات : إعجابه بالنساء الفرنسيات وبمسلكهن ، وتبريره لخلاعتن ، مؤكداً أن خلاعة بعضهن لاتشين السفور ولا تمت له بصلة ، وإنما تنشأ من حسن التربية أو رداءتها . ثم تمدى فى ذلك مبررا للرقص الفرنسى للمرأة والرجل ، فقال « فرقص المرأة الفرنسية بين زراعى الرجل لايشم منه رائحة العهر أبدا ، بخلاف الرقص فى أرض مصر ، فإنه من خصوصيات النساء ، لأنه لتبيح الشهوات »^(٣) وفى رأى أن الطهطاوى كان برأيه هذا يقارن بين وضعين معينين .

الأول : بين تعليم المرأة الفرنسية ، ومخالطتها المجتمعات ، وخبرتها فى الحياة ، وبين المرأة الشرقية التى حرمت من التعليم والثقافة ، وغابت عن الفاعلية فى الحياة العامة . ومن هنا كان الإبهار الذى دعاه إلى مدحها .

الثانى : بين عادات ، عادة الرقص فى المجتمعات الباريسية ، وعادة الرقص فى المجتمعات الشرقية ، والثانى كان بلاشك أكثر امتنانا للمرأة من الأول . ولكن هذا كله لايرر أخذ الأمر على عواهنه ، فالتعليم لايرر السفور أو الشهوات وإبراز المفاتين ، كما أن الرقص سواء كان بين زراعى الرجل باحترام وحشمة ، أو كان أمام الرجل بهز الأردان والصدور ، لا يكون محموداً أو مستحسناً أو غير ملام عليه ، فهو رقص ، وهو خلاعة وامتهان ، وإن اختلفت الأدواق والعادات والتقاليد.

ولكن يظهر أن مخالطة هذه المجتمعات ومعايشتها يورث بعض الناس إلفاً لها،

(١) انظر المرشد الأمين ص ١٣ .

(٢) تخلص الإبريز ص ١٢٢ .

(٣) تخلص الإبريز ص ٩٠ .

أو تهاونا معها ، وهذا من أساليب الغزو الفكرى الخفى .

خير الدين التونسي^(١) :

ومن سار على نهج الطهطاوى : خير الدين التونسي ، إذ نجده أوضح في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » رأيه عن الحضارة الغربية ، وعن عاداتها ، ثم تكلم عن الوطن والوطنية ، وأخذ فكرة الغربيين في الروابط بين الرعية ، فاضطر إلى الاعتراف بأن الدين قد لا يكون الرابط الوحيد بين أفراد الرعية ، إذ لابد من رابطة الجنس أيضا . ولكنه مع ذلك مدح الأصول الإسلامية، وبين مافيه من أصول تدعو إلى الحرية وإصلاح الحكم ، كما بين أن السبب في تأخر المسلمين والدول الإسلامية هو تحرر حكامها من قيود الشريعة^(٢). وقد أيد خير الدين الخروج على الحكام الظلمة ، فقد كان في الآستانة حين اندلعت ثورة عراقى « في حزيران ١٨٨٢ » ، فأكد خير الدين أن ثورة المصريين على الخديوى توفيق ، كانت تحاول أن تحول دون خراب مصر ، وأنهم في رأى مخلصون للخلافة ، ولكنهم يطالبون بتحسين مصيرهم ... ولذا فإنهم لا يخالفون الشريعة على الإطلاق ، وعليه لا يمكننا من الوجهة الدينية ، أن نعتبرهم عصاة . وعلى كل ، هل نستطيع أن نتهم شعبنا بالعصيان لأنه يطالب بوضع حد للمظالم التى لانعرفها ، ونتيجة لهذا الموقف الصريح من حق الشعب في الحرية ، رفض خير الدين أن يوقع المضبطة الوزارية التى اعتبرت عراقى ورفاقه خارجين على القانون^(٣).

هذا وقد دعا خير الدين إلى الاجتهاد في الشريعة ، من غير التمسك بالمذاهب الفقهية ، ومن غير اعتماد على النصوص إذا لم تسعفه ، مادامت غاية المجتهد أن يخدم

(١) خير الدين التونسي ، قدم تونس صغيرا ، فاتصل بصاحبها الباي أحمد ، وتعلم العلوم الأجنبية ، والتحق بوظائف الحكومة ، حتى أحتير وزيرا للحرية في تونس ، ثم ولاء السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى ، من مؤلفاته أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك توفى سنة ١٨٩٠ في القسطنطينية .

(٢) انظر أقوم المسالك ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ١٨٦ ط مطبعة الدولة بتونس الطبعة الأولى سنة ١٢٨٤ .

(٣) نظر في ذلك الرحالون العرب للدكتورة نازل سبياردة ص ٨١ ، ٨٢ ط مؤسسة نوفل لبنان .

الصالح العام .

ثم يفسر الشريعة تفسيراً يستقيه — كما يقول — من فقهاء الحنبلين والحنفيين المتأخرين ، فينكر أن تكون الشريعة قانوناً محدداً يأمر الفرد والحكومة بما يوجب القيام به ، وينهى عن كل ما لم يأمر به ، بل يعرفها — نقلاً عن الشيخ الحنفي سيد محمد بيرم (ت ٨٢٥) — بأنها « ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ، ولا نزل به الوحي » (١).

وعلى هذا فالرجل — كما هو معروف من تاريخه — يجب الإصلاح والمصلحين ، ويسعى جاهداً إلى نفع أمته ، ولكن ليس بكاف ولا مبرر للقول في الشريعة بغير دليل ، أو بغير نظر رجال بلغوا درجة الاجتهاد ، يستطيعون استنباط الأحكام على أصول الشريعة بمقاييس معينة ، منعا لدخول الأهواء والبدع في الشرع .

وإطلاق القول في الشريعة على عواهنه ، وفتح الباب على مصراعيه ، دعوة خطيرة ، يراد بها التشريع بغير ما أنزل الله ، والتذرع بمصالح الناس يوحى بأن الشريعة ناقصة ، أو جاءت بغير مصالح الناس ، أو مخالفة لسعادتهم ، ثم من الذى يحكم إن كان الأمر صالحاً أم طالحاً ، أهو الشرع أم الحكام والمحكومين ، أو هو ما يوافق هوى طبقة أو رغبة فئة من الناس . لا عاصم من هذه الأغلاط إلا اتباع قواعد الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ، وقد قال العلماء بالمصالح المرسلة ، ولكنهم وضعوا لذلك ضوابط معينة على أصول الاجتهاد الصحيح . ودعوى قصور الشريعة وعدم ملائمتها للأزمنة فكرة دخيلة ، وأسلوب من أساليب الغزو الفكرى الذى يث في أوساط المسلمين وخير الدين التونسي ، مع إخلاصه وحبه لبلده ودينه ، إلا أن أمثال هذه الأفكار تشير إلى التأثير بإجاءات المستشرقين وضغط الحضارة على أفهام الكثير من المخلصين . وهذا هو ماعناه المستشرق « ولفرد كانتويل سميث » (٢)، في كتابه « الإسلام في

(١) أقوم المسالك — ٤٢ .

(٢) ولفرد كانتويل سميث مدير معهد الدراسات الإسلامية ، وأستاذ الدين المقارن في جامعة ماكجيل بكندا ، حصل على الدكتوراه في جامعة برينستون سنة ١٩٤٨ ، تحت إشراف المستشرق المعروف « ه . ا . ر . حب ،

العصر الحديث » ، حيث كان من هدفه في ذلك الكتاب بث هذه الفكرة :
أولا : « قطع صلة الإسلام في الوقت الراهن وفي المستقبل بالإسلام في الماضي ، أو
بعبارة أصح ، قطع التفكير والتشريع الإسلامى في الحال وفي المستقبل عن
الوحى ، وبذلك يفقد الإسلام صلابته وذاتيته المتميزة المستقلة ، ويصبح طوع
الأهواء والأغراض التى يوجهه إليها أصحاب المصالح » .

ثانيا : تفكيك الوحدة الإسلامية ، لأن الإسلام إذا فقد ارتباطه بذلك المصدر الأول
الثابت الذى يجمع المسلمين على أشكال موحدة ، لم يعد هناك ما يمنع من أن
يتشكل كل مجتمع إسلامى في تطوره بعوامل محلية ، يسيطر عليها الاستعمار الغربى
في كثير من الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وينتهى الأمر إلى تقطيع
المجتمع الإسلامى وامتصاصه في مناطق النفوذ المختلفة » ^(١).

ولاشك أن الإيحاء العام للثقافة الغربية قد أثر بدرجة متفاوتة في كثير من
الدارسين في ذلك الوقت ، وأخذ هذا الإيحاء يخرج على شكل آراء ووجهات نظر
وإعجاب ، سواء كان هذا الإعجاب بالغرب ، أو بشيء يلفت إليه الغرب ، فمثلا
نرى أن رفاعة الطهطاوى يلفت إلى حضارة القدماء المصريين ، ويلفت إلى التأسى بها
والاقتداء بخطواتها ، ويشيد بتقدم الفراعنة وامتيازهم في المعارف والعلوم والقوانين
والفضائل الخلقية والاجتماعية ، فيقول بعد أن يشيد بهم وبآثارهم : « ومنه يعلم أنه
كان لمصر إذ ذاك أحكام عادلة ، وقوانين مرتبة ، وحدود مشروعة خالية من الأغراض
والنفسيات ، وهى نتيجة التمدن العام .. ويقول : « فلا يبعد على مصر في هذا العصر
أن تستجلب السعادة ، وتكتسب من القوة المالية الحسنى وزيادة ، وتتحصل من
وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة ، لأن بنية أجسام أهل هذا الزمان هى
عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات ، والقرائح واحدة » ^(٢).

وكان موضوع بحثه في الدكتوراه : هو مجلة الأزهر . عرض ونقد بين عهدين . عهد حسين — ، وعهد محمد
فريد .

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية الدكتور محمد محمد حسين ص ١٦١ ، ص ١٦٢ ط المكتب الإسلامى .

(٢) انظر تخلص الإبريز ص ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ . مع المرجع السابق ص ٢٠

يعنى أن المصريين ينسبون إلى أحفادهم الفراعنة ، فيجب أن ينهجوا نهجهم ، ويسيروا على سننهم ، ويقول الدكتور محمد محمد حسين تعليقا على هذا : « ومن الواضح أن هذه الأمثال الكثيرة التى يتخذ فيها الطهطاوى القدوة والأسوة من تاريخ الفراعنة شيء جديد على الفكر الإسلامى ، جاء فى تصوره الجديد للوطنية الذى بدأ يأخذ اعتباره إلى جانب الإسلامية من ناحية ، وبما شاهده من اهتمام علماء الآثار فى فرنسا بتاريخ مصر القديم من ناحية أخرى ، فقد رأى هناك آثار الفراعنة التى نقلها علماء الحملة الفرنسية إلى بلادهم ، وطالب فى كتاب « تخلص الإبريز » بردها إلى مصر ؛ « لأن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها »^(١). وإذا كان الطهطاوى وخير الدين قد افتننا بالحرية الفرنسية وبما شاهده من عدل وقانون وإنصاف وحرية نشر ؛ فإننا نجد محمد فريد يعلق على تلك الحضارة ، وعلى ما فيها من عدل وحرية الخ ، فيقول « يعامل الفرنسيون المسلمين فى الجزائر بقوانين مخصوصة فى غاية الشدة والصرامة ، فهم محرومون من حرية الكتابة والاجتماع ، بل من حرية السفر والانتقال ، وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذى يعرف « ادعاء وحب الفرنسيين للحرية والمساواة ، ويرى هذه الألفاظ المنقوشة على أبواب جميع المصالح والإدارات الأميرية ، أن يصدق ذلك ، ولكن من يكلف نفسه مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز فى بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين فى المستعمرات ، وإن كان مباحا للفرنساويين أو المتفرنسيين »^(٢) ثم أكد محمد فريد أن الفرنسيين الذين ينتقدون ظلم الدولة العلية ليسوا بأقل استبدادا منها .

وقد رأى محمد فريد كذلك — وشاركه فى رأيه هذا المولى — « أن الغربيين يدعون هذه المبادئ فقط ليفتنوا الشرقيين ، فيتخلى هؤلاء عن مبادئ حضارتهم ليعتقدوا ما يظنونه أفضل وأرقى وأعدل ، وإذا بهم قد خسروا كل شيء : خسروا الحرية

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ ومن مصر إلى مصر ص ١٥٤ — ١٦٢ .

(٢) الرحالون العرب الدكتور نازل سبيارد ص ١٧٦ عن كتاب من مصر إلى مصر لمحمد فريد من ص ٦٦ الى ص ٧٦ .

والإخاء والمساواة التى خلبتهم فى الحضارة الغربية ، وخسروا القيم الإنسانية الكامنة فى الحضارة الشرقية ، والتى كانت سببا فى خلود هذه الحضارة عبر الأجيال »^(١) وإذا كان التأثير الثقافى قد ظهرت بعض ملامحه على رفاة وخير الدين ؛ فإنه قد وضع وارتفعت له راية عند جرجى زيدان ، وبطرس البستاني ، وسليم تقلا ، ومراس فرنسيس فتح الله ، وغيرهم . ثم خلف من بعد هؤلاء خلف خلصوا لهذا الفن ، وانقطعوا له ، وكشفوا عن وجوههم بغير حياء ولا خجل . نأخذ مثلا على هؤلاء .

قاسم أمين :

تجلى أثر الثقافة الغربية واضحا فى عقل قاسم أمين ، الذى دعا إلى نبذ كل العادات السابقة والانتهاء صراحة إلى الثقافة الأوربية . وتجلى ذلك بوضوح فى كتابه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ ، وكتابه الثانى « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ ، وأما الكتاب الأول ؛ فقد دعا فيه إلى سفور المرأة ، معللا لذلك بأنها تعاليم بالية ، وأن السفور ليس فيه خروج عن الدين ، ثم قرر أن الشريعة الإسلامية إنما هى كليات عامة ، لم تعرض إلى الجزئيات والفروع ، ولو عرضت إلى الكليات والفروع لما حق لها أن تكون شرعا عاما ، يمكن أن يحدد فى كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العادات والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة من الناس هى أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة^(٢) .

ثم تبنى الفكر الغربى فى كتابه هذا فى السفور ، وفى اشتغال المرأة وخروجها إلى الأعمال العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، تبنى مذهب الغربيين فى كل هذه القضايا ، زاعما بغير حياء أن هذا هو مذهب الإسلام ، وهو فهم الإسلام . وفى كتابه الثانى « المرأة الجديدة » رفض كل المسلمات والأعراف السابقة ، سواء جاءت من طريق الدين أم من غير طريقه ، وأوحى إلى الناس أنه لا يقبل إلا ما يأتى عن

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ ومن مصر إلى مصر ص ١٥٤ — ١٦٢

(٢) انظر بتصرف تحرير المرأة ص ١٦٩ .

طريق التجربة ، ويوافق العصر . وسمى هذا « الأسلوب العلمى » ، ثم دعا فى كتابه صراحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، ثم يهاجم المعجبين والمتمسكين بالإسلام وتعاليمه ، فيقول : « هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أننا نرى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين — ونرجوا أن لا يكون بعيدا — فقد انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا إلى أن يقول : هذا هو الذى جعلنا نضرب الأمثال بالأوروبيين ونشيد بتقاليدهم . وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية » (١)

وكان لقول هذا الداعى أثر فى نساء مصر ، فقامت بعض النساء فى مصر ، وتزعمت هذه الحركة النسوية ، هدى شعراوى ، حرم على باشا شعراوى وتجبرات هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة فى مصر من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لتدرس شئون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث المندوبى الصحف (٢) ، وهكذا تشبعت هذه الفئة بالأفكار المستوردة وكانوا صدى للمستشرقين ، وأبواقا للغزو الفكرى ، ينشرون ما يلى عليهم ، ويذيعون ما يراد منهم بكل إخلاص وتفانٍ وصدق .

٢ - التخلف المهلك :

تخلفت الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة والتقدم العلمى ، ونسيت تراثها ، ونهضتها ، وعزتها ، وعلمها ، بل عقلها ، وصاحبها مع هذا ضيق فى الفكر ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على تعاليم الإسلام ، وسوء تفسير لتعاليمه ، التى تحث على استخدام العقل ، والتفكر فى الكون ، واقتباس الصالح النافع ، وتطوير المفيد والحسن ، وإعداد القوى الممكنة للدفاع عن الدين والديار وإرهاب العدو ،

(١) انظر بتصرف المرأة الجديدة ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ٢٣٥ .

وتسخير كل شيء ، والاستفادة منه لنفع الإنسان وسعادته .

وواكب هذا انحطاط في القيم ، ودعوات إلى الركون إلى المتع والعبث بالأموال ، إلى حد السفه والجنون والترف والفجور ، حتى كان قواد هذا الركب من طبقة الأمراء والملوك والحكام ، الذين تروى قصصهم المضحكة المبكية في كل ناد وكل صحيفة ، مع جهل ضارب ، ونفاق ناشب أظفاره ، وفساد في كل مجتمع وناد ، وتصارع على كل تافه وخسيس من المادة ، وخراب للذمم ، وبيع للشرف ، وكره للقيم ، وضياح للحق ، وهضم للحقوق ، وذبح للفضيلة .

وكان وضع البلاد الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الإسلامي الكبير محمد عاكف في إحدى قصائده قائلاً :

« يسألني الناس : أنك كنت في الشرق مدة طويلة ، فما الذي شهدت ياترى ، وما عسى أن يكون جوابي ؟ إنني أقول لهم :

إنني رأيت الشرق من أقصاه ، فما رأيت إلا قرى مقفرة ، وشعوبا لاراعى لها ، وجسورا متهدمة ، وأنهارا معطلة ، وشوارع موحشة ، رأيت وجوها هزيلة متجعدة ، وظهورا منحنية ، ورؤوسا فارغة ، وقلوبا جامدة ، وعقولا منحرفة ، رأيت الظلم ، والعبودية ، والبؤس ، والشقاء ، والرياء ، والفواحش المنكرة المكروهة ، والأمراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة ، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة ، والصور المقززة ، والأيدى المعطلة ، والأرجل المشلولة ، رأيت أئمة لا تابع لهم ، ورأيت أخا يعادى أخاه ، ورأيت نهارا لا غاية له ولا هدف ، ورأيت ليالى حالكة طويلة لايعقبها صباح مسفر ونهار مشرق »^(١)

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس ، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق في الشعوب الإسلامية ، وجعلها تعتمد في كل شيء على غيرها ، خاصة في عصر انفتحت فيه المغاليق ، وظهرت فيه المخترعات من إذاعة وتلفاز وخيالى ، وتناقل الناس

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبى الحسن الندوى ص ٣٥ .

أخبارها ، وغزت تلك الأقطار والديار ، ودخلت بيوتهم ومخادعهم ، بل وقلدوا الغرب في تلك المخترعات ، وأخذوا عنهم ، فكل دولة لها إذاعة ولها تلفاز ، ولكنه صنع أجنبي ، وتركيب أجنبي ، بل وثقافة أجنبية ، فمعظم الدول التي تبث البرامج لا تصنع منها شيئا ، بل تستورده من غيرها ، إما شراء وإما إهداء أو معونة . ونظرت تلك الدول إلى الإغراء المادى نظرة الصِّدى إلى الماء ، أو نظرة الجائع إلى الشواء ، وقد عبر عن هذا الأستاذ محمد أسد الصحفى الأوربى ، الذى تجول فى الشرق والعالم الإسلامى ، وزار الجزيرة العربية وهى لا تزال متمسكة بتقاليدها العربية والإسلامية ، وكانت أشبه بالماضى منها بالحاضر ، ولم تغزها الأساليب الغربية والمصنوعات الحديثة بعد ، يقول سألت نفسى فجأة « إلى متى يستطيع العرب أن يحتفظوا بتماسكهم الروحى فى وجه الخطر الذى يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر ، وبصور لا تعرف الرحمة أو اللين ، نحن نعيش فى زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يكون سليبا فى وجه الغرب الآخذ بالانطباق عليه ، إن آفا من القوى — السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية — تطرق أبواب العالم الإسلامى ، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ، ويفقد خلال التفاعل ، لا أشكاله وأنظمته التقليدية فحسب ، بل جذوره الروحية أيضا »^(١)

ويقول الأستاذ الندوى معلقا على كلام الأستاذ محمد أسد فى تلك الفقرة : « نعم لم تطل هذه الفترة . لم تلبث هذه البلاد المقدسة « يقصد مكة » أن غزمتها الحضارة الغربية ، وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة والمستوردات الغربية ، أكثروا من أسباب الترف ومن الكماليات ، فشحنت الأسواق وملأت البيوت ، وقضت على التقشف فى الحياة ، وصفات الفتوة والفروسية التى عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم ، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة والثقافة والسياسة ، وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب فى مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ، من غير

(١) الطريق إلى مكة للأستاذ النسيم محمد أسد ص ١٤٠

تفكير هادىء وتصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام الذى تخوف منه الأستاذ محمد أسد أمرا واقعا ، وأصبحت الجذور الروحية — فضلا عن الأشكال والأنظمة التقليدية — مهددة ^(١)

ثم يستأنف الأستاذ أبو الحسن الندوى قوله : « ولن تطول هذه الفترة السلبية فى أى قطر من أقطار الشرق ؛ لأن التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعى أو الإدارى ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة ، وليس معه اللكاء والألمعية والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادئ الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجتها الجديدة ، والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلا فى وجه الحضارة العارمة ، وكل قطب أو قيادة تمنى نفسها بالاحتفاظ بالقديم ، والانحصار فى دائرته من غير إيمان جديد قوى وعقل واع منتج ، مهددة بالانحيار عاجلا أو آجلا . وإذا لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها عن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر أو المجتمع غصبا ، وعلى الرغم من قادته وولاة الأمر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين ، ورحب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الأبواب ، والتموها — بصالحها وفاسدها — فى نهامة وجشع ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية ، وغلب قادة البلاد أو ولايتهم على أمرهم ، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد » ^(٢)

إن التخلف العقلى لا يكمن فى عدم الذهاب إلى الجامعات واكتساب المعارف فقط ، بقدر ما يكمن فى التبلد ، والخمول ، والنوم ، والرضاء بالدون ، وموت الهمة . وموقف الإنسان من الحياة ومن الحضارة وأدوات الترف والزينة ، تحدده همته وتجاريه وذكاؤه وقواه العقلية والمعنوية ، كما تحدده كذلك تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية ، فمن المعروف أن من يولد فى مهاد النعمة وبيوت الحسب ثم تحسن تربيته يكون أبعد عن مضار استخدام الحضارة ووسائل الترف ، ولكن الذين

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٦ .

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٢١ ، ٢٢ .

لا يقيمون للتربية وزنا ، أو الشعوب التي أهملت تلك الخاصة نشأ فيها نوعان من الناس :

الأول :—

غنى مترف ، ما إن برز له المال حتى استعمله في إهلاك نفسه ومجتمعه ، والجناية على قيمه وخلقه ، وإتلاف صحته وبلده ، فبدد طاقته ، وأفسد أمته ، وأتلف قوته ، لا يفكر في غاية ، ولا يسعى إلى هدف .

الثاني :—

فقير كسول ، لا يكاد يحصل على قوت يومه ، ومع ذلك تجدهم كسالى مسترخين على الكراسي ، بل على الأرض ، يدخنون السجائر والخدرات ، ويتبعونها بأكواب الشاي الأسود ، ويتلفون المال الذي يحتاجه أولادهم للطعام في المكيفات وجلسات سوء ، هازلين مع من على شاكلتهم . وهذا أيضا لا يفكر في غاية ، ولا يسعى إلى هدف . ومع هذا تجد لهذه الأمم رعاة لا يريدون للغنى أن يرعوى ، ولا يحبون للفقير أن يفيق ، لأنهم يحبونهم ساكنين هادئين خاضعين . وهذه الشعوب يصبح من اليسير لفتها وتوجيهها باليسير من اللهو ، إلى أن تفقد شخصيتها وذاتيتها وتشرب الكأس حتى الثمالة . وتستطيع أن ترى ذلك على سبيل المثال في لوحة إخبارية من أفغانستان ، ينقلها الصحفي الأوربي الشهير Ritchieolder وقد حضر عيد الاستقلال الأفغانى ، الذى استمر أسبوعا في رقص ولعب ومجون ، في عام ١٩٦٣ ، يقول : « إن الألعاب النارية الواسعة النطاق (والتي لم أرها في أفغانستان قبل) كانت تثير هتاف وتصفيق نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها .

وقال لى وزير خارجية أفغانستان ، الذى كان بجوارى على المقاعد الملكية ، على شاطئ البحيرة ، حيث كانت الألعاب النارية مستمرة : إنك لم تحسن اختيار الوقت الذى تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ، ونحن في متعة وفرح ، لا نستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدمية لخمس سنوات

قلت : « لا ياصاحب المعالي ، إنها فرصة حسنة لائقة ، وهي أفضل مناسبة لاختيار مآثر بلادكم ومدى تقدمها ، إنني أريد أن أرى السيدات الأفغانيات باسمات . وهناك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت ، إن هذا يلقي ضوءا على مدى التطوير الذى نشأ فى أفغانستان ، أقوى من الأضواء التى تنير كابل ، ومن التخطيط الكهربائى ، ومن المباني كلها والصناعات الحديثة ، ومن الرقى المادى كله .^(١) »

لننظر قليلا فى تلك الكلمات . بلدة لا تملك شيئا ، تحتفل أسبوعا كاملا بعيد استقلال ، وزير خارجية مشغول بالفرح والسرور واللهو . وأخيرا صحفى يلفت وزير الخارجية إلى خير ، وإلى حضارة ، وإلى مكسب أفضل من كل تقدم أو نفع أو ازدهار وعمران ، ألا وهو رؤية النساء الأفغانيات حاسرات ، باسمات ، خارجات إلى اللهو والرقص ، ومخالطة الرجال ، والضحك للأجانب الأوربيين . ثم ننظر إلى آثار هذا الغزو فى هذا المجتمع الأفغانى على مستوى قاداته ، وعلى مستوى شعبه .

كره الملك احتشام النساء وخروجهن ساترات ، فأصدر منشورا ملكيا عام ١٩٥٩ م بإباحة السفور للنساء ، وسارع النساء إلى خلع الحجاب ، ووضع الزينة ، والتفنن فى إظهار المفاتن ، وتتبع الموضات العالمية ، وسارع كذلك أصحاب الأقلام وأرباب الصحافة ليباركوا هذا التقدم المبارك الزاهر . فسأل أحد الصحفيين امرأة وصفها بالظرف والخفة ، فقال : سألت السيدة معصومة الكاظمي ، وكانت قد تخرجت من جامعة كابل لشهادة الليسانس الداخلية ، وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح ، مليعة بالحياة ، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟

قالت : إننى وأختى طرحنا الملاءة وأردية القناع ، وسجرناها فى التنور ، وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبدا^(٢) .

(١) نصير بن الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٢٣ ، ٢٤ عن صحفية .

(٢) مرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ نصير .

ولنعرف مرامى هذا الاهتمام بالمرأة ، وبانحرافها التعليمى والمظهري فى العالم الإسلامى اليوم ، فقرأ ما يقوله « مرورجر » ، وهو يهودى أمريكى معاصر فى كتابه « العالم العربى اليوم » يقول : « إن المرأة المتعلمة هى أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين ، وأقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيدا عن الدين » (١). وجاء فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى : وينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتعليم النساء » (٢)

وغنى عن البيان أن الإسلام جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولم يكن ليقف فى سبيل تعليم المرأة ، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن يسمح بتعليم المرأة — ولا الرجل — تعليما ينفرهما من الله ، ومن منهج الله ، ومن القيم والفضيلة ، ويجعلها ذيلا للمستعمرين وأهوائهم . ألا ترى معنى أن ذلك الغزو كان لإفقاد الأمة شخصيتها ، ليسهل بعد ذلك ازديادها وابتلاعها عسكريا ، وقد كان ما نسمعه اليوم من غزو تلك البلاد وضياعها أولا على أيدي صنائع هذا الغزو ، ثم بتلك الجيوش المتربصة للقضاء على تلك الأمم القضاء النهاى ، ولكن أنى لهم ذلك ، فإن هناك فئة من الناس نبذوا هذا الغزو الفكرى ، واستعصوا عليه ، وهم الآن يستعصون على كل غزو عسكري ، بل وقاهروه إن شاء الله .

وهكذا يوحى هذا التخلف الفكرى والتخلف العقائدى والبعد عن الإسلام للصوص البشرية أن يسرقوا الأمم الغافلة اللاهية ، ويدمروا روح الرجولة والجد والإيمان ، ويقودوها طوعية إلى الهلاك كما تقاد الشاة إلى حتفها بظلفها .

٣ — الفراغ العقائدى . أو الخواء الروحى

لا شك أن العقائد فى الأمم تقف سدودا بينها وبين الأفكار الوافدة أو المذاهب المقتحمة ، وتعطى أعماقا للصروح والمجتمعات والأفراد ، كما تمنح استقرارا وثباتا للإنسان فى الحياة . وخاصة العقيدة الإسلامية ، لأنها عقيدة فطرية جامعة ،

(١) مجلة التربية الإسلامية سنة ١١ / ١٠ عدد ص ٣٦ عن كتاب الغارة على العالم الإسلامى ص ٤٨ .

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ص ٤٧ .

تحيط بكل صغيرة وكبيرة ، وصدق الله : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾^(١) . ولهذا كانت العقيدة في المجتمع الإسلامي ميزانا يزن به المسلم أعماله وأقواله ، يسير ويتصرف تحت ظلها وفي جنباتها ، ولهذا قلت أخطاؤه ، وندرت شطحاته ، وانطلقت قوته وبسرعة ، وظهرت موهبته ، واستعصى على كل شيطان رجيم ، وكل أفاك لعيم ، لأنه يدور مع الكتاب حيث دار ، وهكذا كانوا في الصدر الأول : قال عامر بن مطر : قال لي حذيفة في كلام : كيف أنت يا عامر بن مطر ، إذا أخذ الناس طريقا ، والقرآن طريقا ، مع أيهما تكون ؟ قال عامر : فقلت له : مع القرآن أحيا ، ومع القرآن أموت . قال له حذيفة : فأنت إذا أنت ، قال ابن حزم معلقا : اللهم إني أقول كما قال عامر : أكون والله مع القرآن أحيا متمسكا به ، وأموت إن شاء الله متمسكا به ، ولا أبالي بمن سلك غير القرآن ولو أنهم أهل الأرض غيري »^(٢) أما إذا تركت الأمم عقائدها ، وتخلت عن غذائها الروحي ، وعن عمقها الإيماني ، فإنها تصبح كريشة معلقة في مهب الرياح ، خاصة إذا كانت هذه الأمة هي أمة الإسلام ، فإنها تكون بذلك قد ضحت بكل شيء ، ولم يبق لها إلا الضياع . يقول غستاف لوبون « إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الإسلام ، وتشبثه بالعقائد الباطلة »^(٣)

لقد كان العرب أذل الناس فصاروا سادتهم بالإيمان ، وكانوا أبطل الناس عقائد فصاروا أهدى الناس إيمانا ، وكانوا شتاتا فكُونُوا أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ . يقول توماس كاريل : « خرجت جيوش رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقاً وغرباً ، وتفتح باسم الدين الجديد ، وفي خلال قرن من الزمان قضت على القوى العظمى ، وملكنت الأرض من تحت أرجلهم .

إنها معجزة ، ولولا أنها حقيقة تاريخية لقلت : إنها خرافة أو خيال . لقد كانت صحبة محمد أشبه ما تكون بشرارة ملتبة ، وقعت لا على كثران كسولة من رمال الصحراء ، ولكن على جبال من البارود ، وتفجرت مرة واحدة ، فعم نورها

(٣) مجلة حضارة الإسلام عدد شعبان ص ١٣٨٧ .

(١) الأعمام / ٢٨ .

(٢) معجم ابن حزم الظاهري ١ / ٣٥ ط دمشق .

الآفاق من هضاب الهند وحتى سهول الأندلس» (١)

وهذه العقيدة الشابة القوية ما زالت كما كانت ملتزمة ، تعمل عملها ، وهي على استعداد أن تعيد المعجزة وتصنع التاريخ . يقول « أميل ذرمتهم » في كتابه « القيم الخالدة في الإسلام : » إن قيمة الأمة الإسلامية ليست فقط في أثرها التاريخي ، وهو تغيير نظم الحكم على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، بل في أنهار لا تزال إلى اليوم حية قوية ، بل لقد كتب لها الخلود والبقاء أبد الدهر » (٢).

ولهذا حرص أعداء الإسلام أن يلبسوا على المسلمين دينهم ، وأن يسلبوا منهم فاعليته ويغتصبوا قوته ، بأن يدخلوا في روع الناس أن الإسلام عقيدة في القلب ، أو على أكثر التقديرات وأحسن الأحوال ، فهو إسلام يصلى له الإنسان ويصوم ، أما ما وراء ذلك فتعب وتعسف ليس له لزوم . إنهم يريدون ساعة لقلبك وساعة لربك . يريدون أن يتسلوا بالسينما والفيديو — ولو كانت فاضحة — وبالرقص والأغاني والفن ، وإن كان داعرا يريدون أن يكذبوا ، ويغتابوا ، ويضللوا ، ويغشوا ، ويدجلوا ، بحرية ، ولا رقيب ولا حسيب ولا حرام ولا حلال .

يريدون أن يستمتعوا بالجنس ، ويتسلوا بمفاتن المرأة في الطرقات والنوادي ، ولا أحد يتلفظ بالتبرج ، أو يتكلم عن الأعراض والحرمات أو يعكر الصفو الجميل .

يريدون النوم في وداعة ، والعيش في رغد ، والجلوس في استرخاء ، فإذا حذرهم أحد من خطر يهددهم ، أو دعاهم إلى عمل أو جلد أو تقشف أو عدل أو رحمة ، فإنما هو مخرب ، يجب أن يؤخذ على يديه . أما أن يدعو أحد إلى عقيدة يصلى لها الإنسان ويصوم ، وتصبح حقيقة تحكم سلوك الناس وتصرفهم ومجتمعهم ، وتكون حياة تعاش في الملبس والمأكل ، في البيت ، وفي المجتمع ، في التصور والسلوك ، في

(١) مجلة حضارة الإسلام عدد شعبان ص ١٣٨٧ .

(٢) الإسلام والثقافة العربية — عبد الفتاح الغنيمي ص ١٩١ .

الهدف والغاية ، فى الآلام والآمال ، فى الدنيا والآخرة ؛ فهذا هو البعد عن سماحة الإسلام ، وعن روح الدين ، وعن صفاء العقيدة ، وعن الصراط المستقيم ، بل هذا هو الفتنة ، وهو التعصب والتضليل والخطر المبين . يجب أن تحصن ضده الأمة ، وأن يضيق عليه الخناق ، ويجب أن تحرض ضده الشهوات والمنافع والأحقاد ، وأن يبارك هذا كله كهنة الحضارة الزائفة ، وأحبار المدنية المكدوبة .

يجب أن تدافع المرأة عن حقها ، وعن مكاسبها فى المساواة ، وفى الحرية والعرى والاختلاط .

يجب أن يدافع كتاب الجنس عن بضاعتهم وثقافتهم ودعاتهم وأسواقهم .
يجب أن يدافع الفن عن رسالته ، وعن إنجازاته ، وعن جمهوره ، وعن امتيازاته .

يجب أن يدافع أصحاب الجاه عن جاههم ، وأصحاب المنافع وأصحاب القصور عن جهلهم وبذرهم وحصادهم ولعبتهم . بل يجب أن يدافع المجتمع كله لأنها حياته ومسئوليته وتراثه وتقدمه وحضارته . بل يجب أن تساق الشاة إلى الجزار ، وهى تغنى ، وتسمع الأنغام ودقات الطبول وأهازيج العرس . كل هذا لا يكون إلا بفراغ روحى ، وهم عقائدى ، وغزو ثقافى منظم ومبرمج ، تسمعه الأذن وتطرب له وتراه العين وتسرب به ، ويستسيغه الفكر ويهيم به ، وتقبله الشفاه وتسكرب به ، وتحلم أحلام الغرور ، ولكنها ﴿ كسراب بقیعة یحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم یجده شیئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سریع الحساب ﴾ (١) .

٤ — العداء الصليبي للإسلام

أخذ العداء الصليبي للإسلام شكل الصغار الوبائي لدى الأمم الغربية ، فأخذوا مستميتين يوزعون السموم ذات اليمين وذات الشمال ، ويفترون الأكاذيب ،

(١) النور — ٣٩ .

ويطمسون الحقائق ، ويدبرون المكائد ، ويتصيدون السقطات . ثم يدخلون في روع أنفسهم وفي عاطفة بنى جلدتهم أنهم أرقى عنصرا ، وأفضل عقلا ، وأملح ديناً ، وأنهم أوصياء على البشرية ، وسادة الإنسانية ، وهداتها ، ومرشدها . ولهذا يقول الدكتور دربول : « إن الغربيين ربوا في عاطفة أن النصرانية أرقى بكثير من الإسلام ، وأن رسالتها أن تهدى المسلمين إلى دين المسيح ، وهذا أمر عسير ، وكَم من أناس بيننا يسمون ما يذكر من النعيم الذي وعد به المسلمون في الجنة ، ولما يرون من حركات العبادات الإسلامية ، ونحن ندعوا المسلمين بالكافرين ، فلهم الحق أن يردوا علينا هذا النعت ، وبهذا لا يرجى أن تقوم بيننا وبينهم صلات إخاء وحب » (١) .

وقال وليم غيفورد بلغراف الإنجليزي ، المسمى بالحرباء : - الكلمة المشهورة التي يلخص فيها عدااء الغربيين للإسلام : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج في سبيل الحضارة ، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » (٢)

ويوضح هذا العدااء ، ويذكر بعض أسبابه ، المستشرق بيكر ، فيقول : « إن هناك عدااء من النصرانية للإسلام ، بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه الاستعمار ، وانتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها » (٣) .

ويقول في هذا المعنى لورنس بروان : « إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربى » (٤)

(١) من بحث للأستاذ محمد حسن الندوى ، عنوانه حركة الاستشراق في ميزان العلم والتاريخ نشر في مجلة البعث مايو سنة ١٩٨٢ ط الهند ص ٧٢ .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٣٥ والمصدر السابق .

(٣) أخبار العالم الإسلامى ذو القعدة ١٣٩٩ هـ .

(٤) التبشير والاستعمار ص ١٨٤ لعمر فروغ والخالدى ط المكتبة العصرية بيروت .

ثم بين أن خطر المسلمين هو الخطر العالمى الوحيد فى هذا العصر الذى يجب أن تجتمع له القوى ، وتحيش له الجيوش ، وتلتفت إليه الأنظار ، فيقول — حاكيا آراء المبشرين — « إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية — إن المسلمين يختلفون عن اليهود فى دينهم ، إنه دين دعوة . إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم ، وبين غير النصارى ، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل فى أوربا ، فأخضعوها فى مناسبات كثيرة . على أن الفرق الأساسى بين المسلمين واليهود — كما يراه المبشرون — هو أن المسلمين لم يكونوا يوما ما أقلية موطوءة بالأقدام . ثم يقول : إننا من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين فى فلسطين .

ثم يعلن لورنس براون رأيه الخاص ، فيقول : لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر (باليابان وتزعّمها على الصين) ، وبالخطر البلشفي ، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ولم يتحقق) كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفر فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام » (١).

ولقد اشترك الاستعمار الغربى والجهد التبشيرى والحقد الصليبي فى حرب المسلمين ، وتشيت تراثهم ، ونهب ديارهم ، يحيم عليهم سحابة سوداء من البغضاء والكراهية ، يتمثل هذا فيما حدث فى عام ١٩١٨ ، عندما دخل اللورد اللنبى القدس وأعلن : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، وقد نجح اللنبى حيث أخفق (ريكارد قلب الأسد) ، (٢) ولولا انتصار الجنرال اللنبى لما كان زرع إسرائيل ممكنا فى قلب العالم الإسلامى والعربى ، وبنفس الطريقة وبنفس الحقد الذى صدر من الجنرال الإنجليزى ، كان مسلك الجنرال الفرنسى « غورو » — قائد الجيوش الفرنسيين فى دمشق — حين ذهب إلى قبر صلاح الدين ، بعد أن جاء راكبا سيارة

(١) التبشير والاستعمار لعمر فروخ ص ١٨٤ ط المكتبة المصرية .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ ، وشبهات التغريب ص ٢٧ .

مكشوفة ، وترجل إلى القبر ، وقال قولته المشهورة : « نحن هنا يا صلاح الدين » وفي اليوم التالي عمل الشيء نفسه في حمص ، حيث ذهب إلى قبر « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، وقال : « نحن هنا يا خالد »^(١).

إن جذور هذا الحقد قديمة ضاربة في أعماق التاريخ ، تظهر عند ضعف المسلمين وانكسارهم ، حقدًا يخرج من صدر واحد ولسان واحد ، وإن اختلفت الجنسيات والديار والمشارب ، كأنهم كما قال القرآن : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾^(٢) يقول « كيمون » المستشرق الفرنسي في كتابه « باثولوجيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمر ، ويجمع في القبائح . وما قبر محمد إلا عمود كهربائى ، يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظة « الله » إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة : ككراهة لحم الخنزير ، والنبذ ، والموسيقى ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات ... »^(٣)

وهذا الحقد والضغن والمقت كان سببا قويا في الإغارة على المسلمين ، بشتى الأساليب والطرق والأشكال والألوان . وما زالت تلك الموجة تعلو وتشتد وتمتد ، ثقافيا وفكريا ؛ تتمهد للجيوش والطائرات والصواريخ والأساطيل ، تتمهد للإبادة والانتقام وسفك دماء صنف واحد وأمة واحدة ، هي أمة المسلمين ودماء المؤمنين .

(١) المجتمع الكويتية العدد ٥٨٠ شوال ١٤٠٢ هـ .

(٢) الذاريات — ٥٣ .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى عن تاريخ الإمام : ج ٢ ص ٤٠٩ ط ربة ص ٥١ .

المبحث الثالث

أساليب الغزو الفكرى

الغزو الفكرى للشعوب ليست أشياء عفوية ، إنما هى مخططات وأفكار ومجامع وعلماء ومختصون ، يقننون ويبرمجون ، ويخترعون الخطط ، وينتقون الوسائل ، ويهيئون الظروف ، ويدربون الكوادر ، ويعدون الرجال ، ويطلقون الألسن والأقلام ، وغير ذلك من أفانين مختلفة ، وتكتيكات مدروسة ، وأساليب مجربة .

وهذه المخططات وتلك الأساليب كثيرة ومتنوعة ومعقدة ، ظاهرة وخفية ، طافية ومستترة ، براقة وقاسية ، كتبت فيها مجلدات ، ونشرات ، ومجلات ، على مدى قرون ، ولكنها كلها مجتمعة تهدف إلى غاية واحدة ، وهى إبعاد الشعوب عن شخصيتها وتراثها ، وخاصة الشعوب الإسلامية ، بل نكاد نقول : إنها هى الهدف الأول ، والغرض المقصود من تلك الأساليب .

وبحسن بنا أن نذكر بعض هذه الأساليب كأمثلة على ما تستهدف إليه الأمة الإسلامية من غزو، ومن تدمير لكل شئ له قيمة فى عقائدها وتراثها وحياتها الاجتماعية والثقافية .

أ — من أساليب الغزو فى العقيدة :

١ — ذم العقيدة الإسلامية بغير سند ولا دليل .

يقول رينان الفرنسى ، يصور عقيدة التوحيد فى الإسلام ، بأنها عقيدة تؤدى إلى حيرة المسلم ، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك » .

ويقول « كيمون » المستشرق الفرنسى فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » : « إن

الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمر . ويجمع فى القبائح . وما قبر محمد إلا عمود كهربائى ، يبعث الجنون فى رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظ « الله » إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى ، وترتيب ما يستيقظ من أفكار القسوة والفجور فى اللذات^(١) » .

ومن هذا يظهر مقدار الافتراء والكذب على عقيدة المسلمين ، ومحاولة تلويث العقيدة فى نفس المسلم ، وقلب الحقائق فى ذهنه ومخيلته .

٢ — محاولة تشويه القرآن :

ولعل من أخطر تلك المحاولات محاولتهم تشويه كتاب الله العزيز ، والافتراء عليه ، وادعاء أنه من صنع رسول الله ﷺ ، وأنه من وحى تفكيه . يقول «ماكدونالد» فى حديثه عن القرآن فى دائرة المعارف الإسلامية : « كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسبا وجعلوهم شركاء لله وقدما لهم قرابين وكانوا يتعوذون بهم . ولسنا نعلم علم اليقين هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله .. وربما كان هذا تفسيرا من عند محمد »^(٢) . ثم يقول فى موضع آخر فى نفس الدائرة ، عند الكلام على صفات الله سبحانه : « ينبغى أن نتبسط فى الكلام على هذه الذات كما تصورها محمد ﷺ ، ومن حسن التوفيق أن لزوم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات ، يتردد ذكرها فى القرآن ، وتبين شغف محمد ﷺ بهذه الصفات وشدة تمسكه بها . وكانت الفطرة السليمة هى التى دفعت المسلمين بعد محمد ﷺ إلى جمع هذه

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ص ٤ ، ص ٢٤٤ الى ص ٢٤٧ دار الشعب .

(٢) انظر فى ذلك الغزو الفكرى للدكتور على عبد الحليم ص ٣٦ — ٤٠ ط دار البحوث الكويت ، ومعالم تاريخ الإنسانية ٣ / ٦٢٦ وما بعدها .

الصفات وتقديسها»^(١). ثم ظل هذا المستشرق يلح على إلصاق صنع القرآن برسول الله ﷺ ، طوال أربع صفحات من ٢٤٤/٤ الى ٢٤٨ .
ويتكلم في هذا وحول المعنى نفسه — جب — و — ج — ويلز (٢)

٣ — محاولة تشويه السنة :

يقول « مكدونالد » ، متطاولا على حديث رسول الله ﷺ ، وعلى المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم :

« يجدر الآن أن نتكلم على الآراء التي أسندها الحديث إلى محمد ﷺ ، على أننا إذا حاولنا أن نجد في الحديث ما نستطيع أن نقطع بصحته نسبه إليه من الوجهة التاريخية ؛ فإن عملنا هذا يكون لا غناء فيه على الإطلاق ، فمن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه ، كما أننا لا نستطيع أبدا أن نعرف الأحاديث التي صدرت عنه حقا »^(٢) ثم يستشهد « بجولدزهر » على هذا الخلط والتشكيك ، فيقول « وقد بين لنا جولدزهر أن الأحاديث ليست في الواقع إلا سجلا للجدل الديني في القرون الأولى ، ومن ثم كانت قيمتها التاريخية . ولكن هذا السجل مضطرب ، كثير الأغلاط التاريخية ، وفيه معلومات مضللة لم تؤخذ من مصادرها الأولى »^(٣)

ومن هذا يظهر لنا مقدار الحق والمغالطة في الحقائق ، إذ كيف لا يستطيع هذا الباحث الهمام أن يقطع بصحة الأحاديث ، وهو يرى الجهد الخارق في تجميع تلك الأحاديث ، وتنقيتها ، ونسبتها ، وعنعتها ، وفحص رجالها ، ودرجتها ، بما كان هذا الجهد مفخرة علمية لتراث الإنسانية في فترة من الزمان كانت نورا للإنسانية كلها ، نعم لا يستطيع أن يقطع من الحق ، ومن البغض ، ومن الجهل العلمي ، وسوء النية ، وعدم النزاهة ، وكره المعرفة . وكيف لا يستطيع في هذا الأمر البين ، ويستطيع

(١) انظر في ذلك الغزو الفكري للدكتور على عبد الحليم ص ٣٦ — ٤٠ ط دار البحوث الكويت ومعلم تاريخ

الإنسانية ٣ / ٦٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر دائرة المعارف ص ٤ / ٢٥٥ دار الشعب .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

في أمر آخر ليس عليه دليل ولا حجة ولا بينة ، وهو نسبة الأناجيل إلى عيسى وإلى الحواريين ، وكيف يستطيع التصديق بحدوث التاريخ كلها ، أم هو وأمثاله من « اللأدرين » ، لا . بل من المستشرقين .

٤ — الهجوم على شخص الرسول ﷺ :

استهدفت شخصية قائد الدعوة الإسلامية ورسول العناية الإلهية ﷺ من قبل جموع الحاقدين وأصحاب الأغراض الملتوية بما لم تستهدف به شخصية ما ، على مدار التاريخ ، ظنا من هذا الكم اللاهث أن هذا يطفىء من وهج الحق ونور الرسالة ، وصدق الله : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾^(١) وقد حاولنا جمع طائفة من هؤلاء الكتاب الذين تجرءوا على رسول الله ﷺ ، وقد كان للأستاذ الدكتور على عبد الحليم جهد كبير في جمع عدد لا بأس به من أسماء هؤلاء الكتاب مع كتبهم التي تعرضوا فيها لرسول الله ﷺ وللإسلام^(٢) ، « من هؤلاء وليم موير — في كتابه حياة محمد ، هنري لامنس — في كتابه الإسلام ، الفرد جيوم — في كتابه/ الإسلام ، صمويل زويمر — في كتابه الإسلام نحو العقيدة ، كنيكرج — في كتابه : دعوة المذنة ، أ . ج . أريدى — في كتابه الإسلام اليوم ، جولد زهر — في كتابه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى .

ه . أ . ر . جب في كتبه

أ — طريق الإسلام .

ب — الاتجاهات الحديثة في الإسلام .

ج — المذهب المحمدى .

د — الإسلام والمجتمع الغربى

أ . ج . فينسك في كتابه

المستشرقون والإسلام .

(١) (٢) الغزو الفكرى ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

د. س. مرجليوث في كتبه

- أ — محمد ومطلع الإسلام .
- ب — التطورات المبكرة في الإسلام .
- ج — الجامعة الإسلامية .
- د — قنطرة إلى الإسلام .

ج . فون . جرونيانوم في كتبه

- أ — إسلام العصور الوسطى .
- ب — الإسلام .
- ج — الأعياد المحمدية .
- د — الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .
- هـ — دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية .

د . ب . مكدونالد في كتابه

تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام .

ر. أ. نيكلسون في كتابه

متصوفو الإسلام .

ر — بل في كتابيه

- أ — أصول الإسلام في بيئته المسيحية .
- ب — مقدمة القرآن .

أرثر جيفري في كتابه

مصادر تاريخ القرآن .

يوسف شاخث في كتابه

أصول الفقه الإسلامي .

فيلت حتى في كتابه

تاريخ العرب .

مجيد خورى فى كتابه

الحرب والسلام فى الإسلام .

إبراهيم كاشن فى كتابه

اليهودية فى الإسلام .

آدوارد فرمان فى كتابه

تاريخ المسلمين وفتوحاتهم .

ج . س . آرتر فى كتابه

العناصر الصوفية فى محمد .

ر . بلاشير فى كتابه

مقدمة القرآن .

سنوك هورج رويحه فى كتابه

الإسلام .

٥ — الدعوة إلى إنكار الغيب :

الدعوة إلى إنكار الغيب ، والإيغال فى الحسية ، وتفسير الجزاء عند المصدقين به أنه جزاء روحى ، والجنة والنار بأنها شعور نفسى . وهذا يراد منه تدمير الشعور النفسى ، والرقابة على النفس ، والتشكيك فى كل مالا تدركه الحواس ، وهذه خرافة تروج لتدمير العقائد وأصحابها والمتمسكين بأهدابها . ويترتب على ذلك :

٦ — الدعوة إلى سقوط التكليف .

٧ — الدعوة إلى عبادة قوى الطبيعة المنظورة .

٨ — طرح النظريات المادية المنكرة للوحدانية .

٩ — طرح مذاهب معينة تكون بديلا للعقائد ، وتملأ فراغا اجتماعيا وسط

المجتمعات ، ويمسك بزمامها أشخاص مشبهون بخدمون أهدافا معينة . — مثل الماسونية ، والروتارى وغيرهما .

١٠ — إحياء الدعوات الهدامة التى كان لها أثر سىء فى الوسط الإسلامى ،

وفي تدمير قوى المجتمعات الإسلامية ، مثل : القرامطة ، والباطنية ، واصطناع تاريخ لتلك الدعوات ، تصورها بأنها كانت دعوات صالحة تكافح في سبيل أهداف عليا نبيلة ، وتثور ضد الظلم والطغيان ، تحريضا على اتباع أسلوبها ، وتسفيها للفكر الصحيح الذي كان يخالفها ، وتلوينا للجهاد الإسلامى الصحيح في الشعوب الإسلامية .

١١ — دعاوى الروحية الحديثة ، ولفت الناس إلى تحضير الأرواح ، والانشغال بالضلالات ، ولفت الناس عن الجد والسير في الطريق الصحيح واتباع الأسباب^(١)

١٢ — ترويج دعوى انتشار الإسلام بالسيف ، وأن مبدأ الجهاد في سبيل الله إنما هو نزعة عدوانية ، تميل إلى سفك الدماء ، والاعتداء على الناس والغدر بهم^(٢)
١٣ — تشجيع الشيوعية والإلحاد في بلاد المسلمين ، لتقاوم العقيدة الصحيحة ، وتتصارع معها ، حتى يسهل بعد ذلك القضاء عليها .

١٤ — إشاعة أن فكرة الإسلام كدين ، يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه ، ويتعدد مصادره ..^(٣)

١٥ — إشاعة « أن الإسلام دين فردى وشخصى ، لا يصح أن يدخل في علاقات الأفراد بعضهم مع بعض »^(٤) . يراد من ذلك تفريق الأمة ، وعدم تجميعها حول هدف واحد ، حتى يسهل ابتلاعها .

ب — في الحياة الاجتماعية :

يتطرق الغزو الفكرى إلى الحياة الاجتماعية ، ويدخل إلى عادات الناس ، وإلى مجتمعاتهم ، ليبدل المفاهيم والأفكار ، ويصبغها بصبغته وتعاليمه .

١ — المرأة :

يركز الغزو الثقافى على إفساد المرأة ، إفسادها بالتعليم ، إفسادها بالأفكار

(١) انظر الروحية الحديثة دعوة هدامة للدكتور محمد محمد حسين ص ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٨ .

(٢) انظر في ذلك الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٤٨ ط وبة .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٤٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

التي تدعو إلى الحرية ونبد الأخلاق والمطالبة بالحقوق — أيا كانت هذه الحقوق — والمساواة مع الرجل في كل شيء ، خروجها إلى المجتمعات ، استقلالها اقتصاديا ، لتفعل ما تشاء ، لا لتتفع نفسها وأسرتها ومجتمعها ، تحريضا على تعاليم الإسلام ، ووصف تلك التعاليم بالجور والحيف ، وذلك بإثارة موضوعات مثل : تعدد الزوجات ، وموضوع تقييد الطلاق ، وإلغاء بيت الطاعة ، وتسهيل قوانين الانحراف ، وإلغاء عقوبة الزنا مادام ذلك يرضى الطرفين ، ولهذا تقول المادة ٢٦٨ — من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة ، فإذا أوجد الرضا فلا جريمة ولا عقاب ، مع توفر الإرادة والتمييز ^(١) .

وجاء في المادة ٢٧٣ : أن الزوجة إذا زنت ولم يحس الزوج بحرج من عمل زوجته ، أو أثر السكوت على فعلتها ، فإن القانون ليس له قبلها شيء ^(٢) .

كما يشيع الاستعمار أن عدم زواج المسلمة بغير المسلم فكرة عنصرية ، قائمة على التمييز بين الشعوب ، وقائمة على هضم الحقوق والغرور ^(٣) .

عرف المستعمرون أن أثر المرأة في التربية أكثر من الرجل ، فأولوها اهتماما عظيما ، حتى قال جب : « إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤى عيني ، لقد شعرت دائما أن مستقبل سورية إنما هو في التعليم لبناتها ونسائها » ^(٤) أى تعليمها استشرافيا تبشيريا . وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الأجنبية الداخلية للبنات اهتماما منقطع النظير ، وخاصة إذا كانت تحوى بنات السادة والقادة والعظماء ؛ لأنه يمكن التأثير عليهن بسهولة ويسر ، وتغيير ملامح حياتهن ^(٥) .

فلا بأس بالاختلاط ، ولا بأس بالرقص ، ولا بأس بالغناء ، ولا بأس بخدمة الرجل في الفنادق والمخادع ، ولا بأس بالصدقة .

٢ — الدعوة إلى تحديد النسل :

دعوة تحديد النسل ظهرت ونمت في الشعوب النامية ، وأشيع أنها لخوف

(١) كفاح دين للغزالي ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ط دار البيان الكويت . (٥) انظر المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٣) الفكر الإسلامي الحديث صلتته بالاستعمار الغربى يتصرف ص ٤٣ ، ص ٤٨ .

(٤) انظر التيسير والاستعمار فروخ ص ٨٦ ، ٨٧ .

الفقر والبعد عن الضوائق الاقتصادية والانفجار السكاني
ولسنا بصدد مناقشة تلك الفكرة ، وإنما نقول . إنها وجهت إلى تلك
الشعوب ؛ لتعمل عملها في الحد من خطرها ، أولاً على الأمم الراقية ، وثانياً لتوفر
الخامات والثروات التي بين يديها للاستغلال الاستعماري ، وثالثاً لإفساح المجال
للجنس الآري والنورماندي العظيم للسيادة والهيمنة والسيطرة ، وإلا فبماذا نعلل بث
هذه الفكرة بين شعوب مواردها كثيرة ، وتستورد العمالة مثل الكويت والخليج
العربي ، وبماذا نعلل منيع التكنولوجيا عن بلاد زراعية تسع رقعتها الزراعية معات الملايين
من البشر مثل السودان مثلاً ، ومعظم بلاد أفريقيا السوداء ، وعندها من الأنهار
والموارد ما يملأ الأرض خيراً ، وما زالت تعيش على البداوة في كل شيء للآن ، ولكن
الاستعمار يحنو عليها ويخاف على سعادتها ، فيأمرها بتحديد النسل . ألتكون مخازن
خير تظل مغلقة لحين استعمارها والاستفادة منها أم ماذا ؟

ولماذا دائماً تشغل بالحروب بين جاراتها ، وإنفاق ما بذات يدها على السلاح
وعلى القتال ؟ ألسعادتها وهنائها أم لماذا ؟

٣ — الدعوة إلى التحلل والإباحية :

استطاعت الدول المستعمرة أن تطعن الأمم في قيمتها وأخلاقيها بكل طريقة ،
مغرية كانت أم غير مغرية ، بتهوين الأعراض ، وإشاعة الموضات ، وإظهار المفاتن ،
وكشف العورات ، وتقليد النساء للرجال والرجال للنساء ، باختراع الأعياد المختلطة ،
من أعياد الميلاد ، وأعياد الأسرة ، وأعياد الربيع ، وأعياد رأس السنة .
بالصحافة والكتب الجنسية ، والصور العارية ، بالسينما والمسرح والأفلام
الداعرة والمسلسلات الهابطة المثيرة للغرائز ، بالرياضة والأندية المختلطة بالشواطىء
والبحار والمصايف .

بالفن الهابط وحماية أصحابه واعتبارهم سفراء ونجوم ومثلاً تقتدى بهم الأجيال
وتقلدهم وتسير وراءهم ، بالحاولات الجادة والقوانين المنحرفة ، التي تحاول طبع المجتمع
بطابع غربي أو شرقي .

٤ — المذاهب المنحرفة

المذاهب المنحرفة لتلفت المثقفين والمتعلمين والمفكرين إلى غشاء السيول السوداء ، وأعاصير العواصف الهوجاء ، وأفانين الشياطين الرعناء ، ولتطمس نور الفطرة ، وتبرز قتامة الشهوة ، لتبعد صفات الإنسانية وتبرز معالم الحيوانية . مذاهب ركبت خصيصاً لتدمير الإنسان عن تربص وسبق إصرار وترصد ، لتذبح الشعوب وتستولى على الأفكار والعقول / : من هذه المذاهب :

أ — الوجودية :

التي تقر أن الوجود كله عبث ، لا معنى له على الإطلاق ، ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخلق ، وأن الفرد هو الموجود الحقيقي ، فلا معنى إذاً للقول بالطبيعة البشرية ، والقول بالأخلاق التي تفرضها هذه الطبيعة ، أو بالأقدار التي رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود .^(١) ثم تدعو إلى الإباحية وتقويض القيم والآداب . وكان سارتر هو زعيمها في فرنسا ، وناشر رايتها ، وقد استقبل في مصر استقبال الأبطال شعبياً ورسمياً وإعلامياً .

ب — الفوضوية :

وهي تدعو إلى فلسفات هدامة معادية لكل نظام وقانون ، تنادى بضرورة مقاومة الدولة والأنظمة المنبثقة منها ، لأنها أداة للاستبداد وكبت الحريات . تنادى بإلغاء الملكية الفردية ، لأنها مبعث التسلط والظلم ، وإلغاء الدولة ، وإلغاء القانون وكل نظام ؛ لتحقيق الحرية . ويقررون أن العدالة المطلقة والحرية المطلقة لا يمكن أن تتوفر في ظل نظام يقوم على فكرة الدولة والملكية الفردية^(٢) . ألا ترى معنى أن هذه الفوضوية تفسح المجال لتفتيت الأمم وإباحة الأموال والأعراض ، وتوسع الطريق لوافد جديد ، أى وافد ، مادام لإهلاك الأمة وإضلالها والقضاء عليها .

(١) انظر في ذلك « بين الكتب والناس للعقاد ص ٢٦ ط بيروت ١٩٦٦ » .

(٢) انظر في ذلك الموسوعة العربية الميسرة : ص ١٣٣٤ .

جـ القديانية :

صنعة الإنجليز في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى — ، الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى — ذلك هو المذهب القديانى ، نسبة إلى غلام أحمد القديانى ، ذلك الرجل الذى رباه الإنجليز ؛ ليفسدوا به شبه القارة الهندية ، ويضربوا به الكفاح الإسلامى هناك ، الذى يتأنى عليهم وكان من تعاليمه : وتتلخص دعوته فى إسقاط الجهاد ، والدعوة إلى حب الإنجليز ، وفدائهم بالأرواح والمهج ، ثم التطاول على التعاليم الإسلامية ، ومسحها بما يوافق ما يريد منه أسياده^(١) ، ثم ادعى النبوة ، وحرف القرآن ، وأطلق لسانه فى تجريح^(٢) الرسول والرسالة ، وأضاف تعاليم جديدة إلى الإسلام ، مثل الحج إلى قاديان ، وما إلى ذلك .

د - البائية والبهائية :

فرق ضالة ، ظهرت لتضرب العقيدة الإسلامية ، وتشق صفوف المسلمين ، وتوهن كلمتهم . قامت على نفى صفات الله سبحانه ، وادعاء النبوة والرسالة للبهاء ، وأنه القيامة ومعناها ظهور البهاء ، لأنه المعنى بالقيامة والساعة الكبرى ، وهو وجه الله الأبهى ، ولا قيام إلا قيامه ، ولا دين إلا دينه ، ألغت الصلوات المعهودة لدى المسلمين ، قيامه هو البعث ، والانتماء إليه هو الجنة ، ومخالفته النار ، كل الأنبياء والرسول كانت مهمتها التبشير بسخافاته ومبا جاء به ، يدعو أتباعه « برنا » ألف كتاب (الإيقان) ، ونسب البهاء هذا إلى الوحي .

دعا إلى هدم لغة القرآن ومحاربتها ، وإنكار إعجاز القرآن ، وإنكار المعجزات المحمدية ، وينكرون أحاديث الرسول ﷺ فى الكتب الصحاح ، ولا يعبرون الأحاديث إلا بما يوافق مذهبهم^(٣) .

ويعرف — من أول وهلة — صلة هذا المذهب وهذه الفرقة بالاستعمار ، ولهذا خلع عليه الإنجليز لقب « سير » ، واتخذ من عكا محفلا ليكون فى حماية الإنجليز ،

(١) انظر فى ذلك القديانية ، حافظ إحسان البهى ظهير : ٦ ، ٧ ، ٣٦ .

(٢) انظر القديانى والقديانية لأبى الحسن الندوى ص ١١٩ إلى ١٤٢ ط الدار السعودية .

(٣) البهائية لمح الدين الخطيب بتصرف ص ٣ إلى ٢٧ ط المكتب الإسلامى دمشق .

بعد أن حكم على الباب الذى سبقه بالإعدام فى تيريز فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٦٦ ، وأكلت جثته الوحوش ، كما أنه يدعو إلى هدم الشريعة ولغتها وإعجازها ، وأحاديث الرسول .

وما هذا إلا ليهدم تلك الأمة الصامدة ، التى تتربص للباطل ، وتقاوم البهتان .

٥ — دعوة فصل الدين عن المجتمع

ويراد بذلك جعل الدين طقوسا وتراويل ومناسك ، لا صلة له بالحياة ، فيبطل بذلك قسم الشريعة ، ولا يبقى إلا العبادات ، والعبادات شىء اختياري تتولى هدمه المذاهب الهدامة المختلفة والرفاهية وعجلة الحياة .

٦ — ادعاء أن العربية تصادم الإسلام وتعارضه :

وهذه دعوى يراد منها إحياء النعرات ، والفصل بين الأمم المسلمة غير العربية والأمة العربية ، ويكفى للرد على هذه الفرية مارواه الترمذى عن سلمان الفارسي قال: قال لى رسول الله ﷺ : يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت :^(١) يا رسول الله كيف أبغضك وبك هانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضنى !! »

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى »^(٢) ومراد أعداء الإسلام بذلك القضاء على الإسلام ، وفى سبيل ذلك — ومقدمة له — يكون القضاء على العروبة ، وعلى قيمتها ، ولغتها ، وقوتها ، وتراثها^(٣) .

٧ — التفسير المادى للإسلام وحياة الرسول :

تجرى محاولات دائبة لتفسير الإسلام تفسيراً اقتصادياً أو مادياً ، وتصوير الرسالة الإسلامية بأنها جاءت لحالة ملحة ، تطلبها المجتمع العربى فى ذلك الوقت ،

(١) رواه الترمذى تحفة الاحوذى ١٠ / ٤٢٨ — ٤٢٩ .

(٢) رواه الترمذى التحفة ١٠ / ٤٢٩ .

(٣) كفاح دين للغزالي ص ٧ ط دار البيان الكويت .

وما كان عليه من جهالة وضياع ، وأن الرسول ﷺ بطل عربى ، أو بطل إقليمي ، أو عبقرى مفكر ، يدعو إلى الحرية والعدالة الاجتماعية ، ومحاولة تفسير جوانب الوحي وما يتصل به من خرق للنواميس ، تفسيراً مجازياً أو منامياً ، وملخص ذلك كله وما يرمى إليه هو : نفى الرسالة ، ونفى الاتصال بالسماء ، وأن هذه الظاهرة تتكرر كل يوم بين الأمم والشعوب ، ثم خرجت كتب تفسر تلك الطريقة ، وتؤيدها . من هذه الكتب وتلك المحاولات التى جرت فى تزيف السيرة :

- أولاً : بإضافة الأساطير القديمة فى (هامش السيرة) .
 - ثانياً : بإنكار الإسراء والمعراج بالجسد — (حياة محمد) .
 - ثالثاً : إنكار النبوة والوحي فى (محمد رسول الحرية) .
 - رابعاً : وصف النبى بالعبرية دون الرسالة (عبقرية محمد)
- هذه الكتب وغيرها اتخذت بهذه التفسيرات المادية للإسلام ولسيرة الرسول ﷺ (١)

٨ — الإسلام صفاء نفسى ونقاء روح :

حرص المستشرقون على لفت المسلمين إلى أن الإسلام عمله فى مجال النفس والروح والعلاقات بين الجسد والروح ، لإظهار أنه دين شخصى ، لا علاقة له بتنظيم الحياة ، ولا بالعلاقات الإنسانية ، ليوسع الطريق أمام الوافدات من الأنظمة المراد هيمنتها على المجتمعات .

ولهذا فإن هناك أفكاراً تنطلق من هذا المفهوم :

أ — فكرة إبعاد الإسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد ومعاملتهم فى الأسرة وفى المجتمع .

ب — فكرة توقيت الجهاد ، وقصره على عهد الرسول والصحابة ومحاربة المشركين والوثنيين فى الزمان الغابر .

ج — فكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى التساهل فى قيمه وتعاليمه ، كما تقضيه الولاء لغير المسلم ومجازاته .

(١) انظر فى ذلك شبهات التعريب ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

د — فكرة أن الإسلام نفسه يتجدد ، ويخضع لعامل الزمن في تطوره
هـ — فكرة أن الإسلام كدين يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه ، وأن لكل شعب من الشعوب الحرية في تلوينه وتشكيله ، رغم النصوص والمصادر الصحيحة^(١)

كل هذه المفاهيم وغيرها أراد الاستعمار زرعها في عقول المسلمين ؛ لينفذ منها إلى هدف واحد ، وإن تعددت أسبابه ، وهو بعثرة المسلمين ولقتهم عن دينهم القيم صراطهم المستقيم .

ج — في الحياة الثقافية :

للمستعمرين ومستشرقهم استراتيجية دقيقة ، يحاولون بها أن يصلوا إلى غايتهم بأى طريق ، ثم يقومون بتجميع المعلومات لها من كل حذب وصوب — سواء كانت هذه المعلومات معتمدة أم لا ، حقيقة أم مزيفة — وليس لها علاقة بالموضوع ، فمثلا يجمعون المعلومات التي يراد أن تكون حقائق علمية ، من كتب الديانات من التاريخ ، من الأدب ، من الشعر ، من الروايات والأقاصيص ، من كتب النوادر والفكاهة ، وإن كانت تلك المعلومات تافهة أو حقيرة ولا قيمة لها ، ولكنهم يقعدون لها ويقدمونها بكل تمويه وجراءة على أنها حقائق ، ويبننون عليها نظرية ذات صرح وعمد ، لا يكون لها وجود إلا في مخيلة من اخترعوها .

ثم أنهم يتبعون نظرية الخلط ، فيذكرون عيبا واحدا وعشرة محاسن — لا قيمة لها — بجانب هذا العيب ، بحيث ينخدع القارىء ، ويظن نزاهتهم وإنصافهم ، ثم يصدق هذا العيب المدسوس ، الذى يهدم كل المحاسن ، بل يقوض صرح العقيدة من أساسه .

وإليك بعضا من تلك المدسوسات على الثقافة الإسلامية ، وعلى المجتمع المسلم ، وأساليب ذلك :

١ — التشكيك في كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه .

٢ — التشكيك في صحة رسالة النبي محمد ﷺ .

(١) انظر في ذلك كله الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٤٧ ، ٤٨ ، بتصرف .

- ٣ — التشكيك في قيمة الفقه الإسلامي الذاتية .
- ٤ — التشكيك في قيمة التراث الإسلامي الحضارى .
- ٥ — إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية .
- ٦ — الدعوة إلى العامية ، وإلى تطوير اللغة العربية .
- ٧ — إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية ، والشعور بمركب النقص .
- ٨ — دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية .
- ٩ — توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية .
- ١٠ — تمجيد القيم الغربية ، وتسفيه القيم الإسلامية ، والدعوة إلى نبذها .
- ١١ — لفت المجتمعات إلى القشور ، وإلهائها عما يفيد وينفع .
- ١٢ — إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية ، والبعد عن الأساليب العلمية .
- ١٣ — إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية ، وبذر الشكوك ولّى الحقائق فيها .
- ١٤ — الحرص على تكوين جيل مثقف يحمل راية الاستشراق والدعوة إليها .

د — الأساليب العملية لهذا الغزو :

لم يقتصر عمل الغزو الفكرى على مجرد الأمانى أو الكلمات، وإنما كانت لهم خطوات ، وخطوات عملية محسوبة ومتعددة ، على كافة الجهات والطرق. من هذه المخططات :

- ١ — الإرساليات التبشيرية إلى العالم الإسلامى .
- ٢ — الإعداد الصهيونى ، والتنسيق بينها وبين الاستعمار .
- ٣ — التصنيف والتأليف فى المباحث الإسلامية ، واستغلال قصور المسلمين .
- ٤ — إلقاء المحاضرات فى الجامعات أو الجمعيات المسلمة .
- ٥ — المؤتمرات التى تعقد بأسماء مختلفة فى أنحاء العالم الإسلامى .
- ٦ — استغلال الأمم المتحدة ، والعمل تحت مؤسساتها الثقافية وغيرها .

٧ — إصدار المجالات العلمية ، ولعل أخطرهما في الوقت الحاضر مجلة MUSLIMWORLD من أمريكا ، ومجلة LEMOND MUSALMANS من فرنسا .

٨ — إنشاء دوائر المعارف الإسلامية ، والمعاجم العربية ، وغيرها .
٩ — تقديم التراث الإسلامى على العالم بالجمع والفهرسة والتنظيم والتبويب .
١٠ — القيام بأعمال اجتماعية معنية ، ينفذ من خلالها ، مثل التمريض والتطبيب والملاجىء .

١١ — إنشاء المدارس ودور العلم التى تدرس العلوم والعادات .
١٢ — استغلال البعثات العلمية والثقافية .
١٣ — الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها .
١٤ — استغلال الأقليات والطوائف والنعرات .
١٥ — التعاون بين التبشير والسياسة .
١٦ — استغلال الحركات الوطنية والتطلعات السياسية .
١٧ — استغلال فقر الشعوب وحاجتها وعريها ، وربط الإحسان بالتبشير .
١٨ — استغلال العواطف والجوع الجنسي ، واستخدامه فى خدمة الأهداف .

١٩ — الرحلات وجمعيات الصداقة ، والدعوة إلى العالمية ، والنخيمات الكشفية .
٢٠ — المساعدات الاقتصادية ، وربطها بتسهيلات وتنازلات معينة .
٢١ — الدعوة إلى الحوار الحر ، مع نبذ العقائد والأفكار ، والتجرد للوصول إلى الحقيقة^(١) .

(١) انظر فى ذلك الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة لأبى الأعلى المودودى ص٢٧١، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص٢٣ — ٢٨ ، ومعالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص٩٩ ، الإسلام على مفترق الطرق ص٢٩ ، التبشير والاستعمار ص٣٥ ، ٥١ ، ٦٥ ، ١١١ ، ١٣٢ ، ١٩٣ ، الفكر الإسلامى الحديث ص٤٢ .

تموين الحركات التبشيرية وحمايتها

ليست الحركات التبشيرية ومؤسسات الغزو الثقافى نشازا ، أو نبتا عفويا ، وإنما هى حركات تسندها حكومات ومؤسسات ، تملك الأموال الطائلة ، والأساطيل والسفن ، والطائرات ، والجيش والثقافية والعلمية المدربة .

تملك المدارس التى تعلم الأساليب واللغات واللهجات والمحاورات والمداورات ، تملك الأرصد الضخمة والميزانيات المهولة ، ويقوم على هذا كله :
١ — البلدان الغربية وفى مقدمتها الدول الاستعمارية .

٢ — الجمعيات التى أنشأت لأجل تشجيع الدراسات الشرقية .

٣ — الفاتيكان أكبر المدارس الدينية التى تهتم بالاستشراق .

٤ — الحركات التبشيرية فى العالم .

٥ — الجامعات الأوربية والأمريكية .

٦ — التبرعات والمساعدات التى ترصد لذلك .

وهذه الحكومات وتلك الدول تبذل على الغزو الفكرى وعلى الاستشراق بسخاء ؛ لأن ذلك طلائع الاستعمار وأظفاره ، فإذا حاد مستشرق أو عميل عن الخط المرسوم ، تخلى عنه ذلك الاستعمار وأعوانه وأذناؤه . إن الاستعمار هو الذى قتل « باتريس لوموبا » فى عام ١٩٦١ ، مع أن لوموبا صالئ من الوثنية إلى النصرانية بفعل التبشير ، ولكنه أراد أن يكون فى الكنفو استقلال صحيح .

ثم إن هؤلاء المبشرين يشتغلون أشياء أخرى غير هذه الأعمال الظاهرة ، ألا وهى الجاسوسية .

وقد وزعت وكالة تاس السوفياتية فى بيروت عام ١٩٥١ مقالا نشرته جريدة « برافدا » فى موسكو لمراسلها فى بكين عاصمة الصين ، وقد جاء فيه : « لقد أدخل الاستعماريون الأمريكيون إلى الصين مبشرين من مختلف المذاهب ، استخدموهم منذ أمد بعيد فى أعمال الجاسوسية ^(١) »

(١) انظر التبشير والاستعمار ص ٢ عن نشرة صادرة فى حزيران عان ١٩٥١ (واحد وخمسين فى العدد) (١١٣) .

ومن هذا يتبين أن هذه الحركات وهؤلاء المبشرين ما هم إلا طلائع زحف
على الأمم والشعوب ؛ لتحطيمها ، والقضاء عليها ، وتخريبها من داخلها ، لمصلحة
سدنة المدنية الحديثة ، التي تقوم على أشلاء الأمم والشعوب ، وتسحقهم بغير رحمة أو
!حساس بالذنب .



المبحث الرابع

هل تنحل الأمة الإسلامية ويعتريها توارث الحضارات

تقوم حضارة الأمم على مبادئ وأعراف وقيم وقوانين ودساتير ، يترى عليها جموع منهم ، تستطيع بما في هذه الحضارة من قوة أن تؤسس دولة ، وتبنى صرحاً متماسكاً قوياً ، قد يغزو ويستقطب ويستوعب حضارات أخرى كثيرة ، وبقدر ما تكون صلاحيات تلك الحضارة ، وبقدر فلاحها في التربة والإبداع تكون سيادتها وغلبتها وعزتها . فإذا فقدت هذه المبادئ وتلك الأعراف والقوانين والدساتير انهارت الحضارة بتحللها من الداخل ، قبل أن يأتيها غزو من الخارج ليجهز عليها .

ذلك أن الغزو الخارجى في مثل هذه الحالة يشبه — في كثير من أحيانه — الضربة القاضية في مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة .

فليس الانهيار في أمة الحضارة حدثاً عارضاً يقوم على مصادفة أو تدخل القضاء والقدر . كذلك فإن الانهيار لا يمكن أن يعزى إلى فقدان السيطرة على البيئة سياسياً ، أو الانحطاط في الأساليب الصناعية أو التكنولوجية ، أو حتى العدوان الخارجى فقط ، وإنما العامل الأصيل فيه هو الإنسان ، وتحلل هذا الإنسان ، وفقدانه لإنسانيته ، ورجولته وقيمته ، وهمته ، ومقدرته على فهم الحياة من حوله ، وعلى القيام برسائلته ، وهذا هو التولى الذى عناه القرآن الكريم في قوله « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »^(١)

وقد تكون الأمة المتولية فقيرة ضعيفة ، وقد تكون غنية وقوية ، ولكن العبرة بالتولى وفقدان صفات الإنسانية وخصائصها . فكم من أمة فقيرة ضعيفة تولت فبادت واندثرت ، وكم من أمة ضعيفة استجابت وعزمت وجاهدت فعزت . وما أمة

(١) محمد / ٣٨ .

العرب حين جاءها الإسلام عنا ببعيد ، عرفت قيمة الإنسان ، وعرفت رسالته ، وربت عليها مجتمعا ، آمن بمثل ، وترك أعرافا وعادات . ولتبيان ذلك الفرق واضحا نذكر وصف « جعفر بن أبي طالب » للنجاشي — : لحال الفترتين : فقال جعفر : « أيها الملك . كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأفئ الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرفه ، ونعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وأما به^(١) نعم سادت هذه الأمة بقيمها وصدقها ، رغم فقرها وضعفها .

وكم من أمة قوية فقدت عنصر بقائها ، وهى فى أوج حضارتها وعزتها ، فهلكت وبادت واندثرت ، ولم تنفعها ما جيشت من جند ، ومادججت من سلاح ، وما دربت من قادة ، وأماننا دولة الفرس والروم ، ذواتا الحول والطول ، وقد رأينا ما فعلت بهما الأيام على أيدي الأئمين التائهين فى الصحراء القاحلة .

وقد قرر علماء الحضارة أن هذه الثقافات التى تترى عليها الأمم لها أعمار وأطوار .

أطوار تتدرج فيها ، وأعمار تقضيها وتعيشها .

فابن خلدون فى تأملاته العديدة فى الحضارات ، وطبيعة العمران ، يقرر أن الحضارة تتعاقب على الأمم فى أربعة أطوار : هى طور البداوة ، ثم طور التحضر ، ثم طور الترف ، ثم طور التدهور الذى يؤدى إلى السقوط .^(٢)

(١) مختصر سيرة ابن هشام ص ٧٥ ط دار البحوث — لعبد السلام هارون .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٣٧ التجارية بتصرف .

وقد سار على رأى ابن خلدون الفيلسوف الاجتماعى الإيطالى « فيكو (vico) ، الذى عاش فى القرن السابع عشر وأوائل الثامن الميلادى .

« يقرر فيكو : أن المجتمعات تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والفناء ؛ لأن من طبيعة الظواهر أن تحدث فى ظل ملابسات محددة ، وفقا لطريقة معينة ، فحيثما وجدت هذه الملابس والظروف وجدت الظواهر » (١)

ويأتى فيلسوف التاريخ « أوزولد اشبنجلر المتوفى سنة ١٩٣٦ ، فيقرر « أن الحضارة كائن عضوى طبيعى ، ينشأ فينمو ، ثم يزدهر فيشيخ ، حتى يلحقه الفناء . وقد عرض اشبنجلر هذا التصور البيولوجى للحضارات عرضا مفصلا فى كتابه « انحلال الغرب » (٢)

إذا فالأهم ينتهى أمرها بالتصدع الحضارى ، وتذوب ثقافة وفكرها وشخصية فى حضارة أخرى جديدة ، إذا فقدت عناصر بقائها ، وذابت ثقافتها ، وأصبحت لا تستطيع مقاومة الأفكار الجديدة ، أو تستوعب الحياة المتطورة . فتأتى حضارة أخرى تستطيع استيعاب العقول والأفكار والثقافات ، وترث تلك الحضارة البائدة .

ولكن هل تنحل الأمة الإسلامية ، ويعتريها ما يعتري غيرها من توارث الحضارات ؟ يجب على هذا السؤال بعض الباحثين المتخصصين فى الحضارات ، فيقول الأستاذ / محمد أسد « ليوبولد فايس » فى كتابه القيم العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » : « يجبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية ، وجميع المدينيات ، أجسام عضوية ، تشبه الكائنات الحية ، إنها تمر فى جميع أدوار الحياة العضوية التى يجب أن تمر بها . إنها تولد ، ثم تثب وتنضج ، ثم يدركها الهل فى آخر الأمر . فالثقافات كاللبان الذى يذوى ، ثم يستحيل ترابا ، تموت فى أواخر أيامها ، وتفسح المجال لثقافات أخرى ولدت حديثا ، أهذه إذاً حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية ، مما لاشك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية د . عفت الشرقاوى ص ١٨٧ ، ١٨٨ ط دار النهضة العربية .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .

مجيدة ، وعهدا من الازدهار ، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية . ولقد غُيرت معالم الشعوب ، وتخلقت دول جديدة، ثم سكنت وركدت ، وأصبحت كلمة جوفاء ، وها نحن أولاد اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها !! ، ولكن هل هذا كل مافي الأمر ؟

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدينة من المدنات الأخرى ، وليس نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم ، بل شرع سنه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان ، فإن الموقف يتبدل تماما .

وإذا كانت الثقافة الإسلامية — في اعتقادنا — نتيجة لاتباعنا شرعا منزلا ؛ فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول بأنها كسائر الثقافات ، خاضعة لمرور الزمن ، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية ، — ثم إن ما يظهر انحلالا في الإسلام ليس في الحقيقة إلا موتا وخلاء ، يحلان في قلوبنا ، التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأول !! ، ثم ليس ثمت علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية — مع نموها الحاضر — قد استطاعت أن تشب عن الإسلام ، بل إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي ما ، كما استطاع الإسلام أن يفعل ، حينما أتى بفكرة القومية العليا : « الأمة » .. إنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا ، على مثال ما تم في النظام الاجتماعي الإسلامي إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ، ولا في رجائه الروحي وسعاده .

ففى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى في كل ما وصل إليه ، مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهج الإسلامى فأين ما يبرر القول إذاً بأن الإسلام قد ذهب أيامه ؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة ، والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟ ولكن إذا رأينا نظاما ما بنى على الدين ، قد استطاع أن يقدم منهاجاً عمليا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الإنسان من كل شئ آخر ، يمكن العقل البشرى أن يأتى به عن طريق الإصلاح والاقتراح !! ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة فى ميدان الاستشراق الدينى ؟

لقد تأيد الإسلام — ولدينا جميع الأدلة على ذلك — بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني ، لأن الإسلام كشف عنها ، وأشار إليها ، على أنها مستحبة ، قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

ولقد تأيد أيضا — على السواء — بما وقع في أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات ؛ لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها ، من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء ، وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد — من وجهة نظر عقلية محضة — كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامى ، بصورة عملية ، وبثقة تامة .

نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام — كما يظن بعض المسلمين — لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذى نحتاج إليه فعلا ، فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا ... إن الإسلام — كمؤسسة روحية واجتماعية — غنى عن كل تحسين ، وإن كل تغيير فى مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته ، وعلى تنظيمه الاجتماعى ، بافتحات من ثقافة أجنبية — ولو بإشراق ضئيل — سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتما علينا نحن ^(١) .

إذا فحضارة الإسلام على هذا لا يعترىها ما يعترى غيرها من توارث الحضارات ، وإذا فهى مستثناة من حركات التاريخ . يقرر هذا ويؤكداه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، فيقول بعد أن يبين عوامل توارث الحضارات : « وتستثنى من ذلك كله حضارة الإسلام ؛ لأن أساسها ليس عنصرا بشريا ، يناله الضعف والبلل ، ولكن أساسها العقيدة ، وهى لا تنزل تشجده وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال ، وأداتها هى اللغة العربية ، لغة القرآن ، وبفضله عاشت وقدّر لها أن تنجو من الضياع ، وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية ، لأن العقيدة لا تبلى مادام هناك من يؤمن بها ، ومادامت العقيدة حية فى عالم الإسلام ، فاللغة

(١) الإسلام على مفترق الطرق تأليف محمد أسد ترجمة : عمر فروخ ص ١١١ — ١١٤ ط السادسة دار العلم للملايين .

العربية حية ، أى أن عنصري الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان ، لا ينال منهما كرى الغداة وممر العشى ، وتعاقب الأجناس وتغير الظروف . وهذا مبحث واسع^(١) وهذا فى رأينا هو الرأى الذى لا يستطيع أى باحث منصف أن يجحد عنه . .

بل أقول : إن هذا رأى بدهى ، حجب عن الأنظار كثيراً من المسلمين؛ لبعدهم عن كتاب ربهم ، ولجفاء نفوسهم للهدى والنور ، ولجفاف قلوبهم من عاطفة الإيمان ، ولخمود جذوة الإيمان فى روع كل تقى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لنجاح الغزو الفكرى فى إبعاد المسلمين عن تراثهم وتاريخهم ، وإبهارهم بالثقافة الغربية ، وتزيينها لهم ، وإلباسها حللا قشبية على جسد أجرب مقروح نتن .

ويتلخص من ذلك أن الحضارة الإسلامية فريدة فى ثقافتها ، فريدة فى منهجها وقوتها وصلابتها ، ولا يعترىها البلى للأسباب الآتية :—

١— لأنها وحى من الله ، وليست صناعة بشرية ، بل هى ناموس ربانى للإنسان ، كما أن للحياة نواميس تصاحبها إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

٢— لأنها المثل الكامل الذى لن تستطيعه البشرية ، وإنما تقترب منه إذا هديت طريقها المستقيم ، وأخذت بشرعها الحكيم .

٣— لأنها رسالة الفطرة ، والفطرة البشرية لا تتغير ولا تتبدل ، وإذا تبدلت الفطرة كان ذلك دلالة على الانحراف الذى يجب أن تقلع البشرية عنه ، فلا صلاح لها ولا فلاح إلا بالرجوع إلى فطرتها ، وبالتالي إلى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

٤— لأنها مازالت لليوم المثل الكامل الذى ما استطاعته البشرية ، والنظام الباهر الذى سبق كل تفكير . وقد فرض واقعا معاشا فى كل قيمه العليا ، مازالت تحاوله الحضارات ولا تستطيعه . فرض مثلاً واقع الأخوة ، وواقع المساواة ، وواقع العدل ، وواقع الحرية ، وواقع التوازن بين الروحية والمادية فى الإنسان وفى المجتمع ، وواقع الطهر الروحى والجسدى ، الجنس والنفس ، واقع الكرامة الإنسانية والأخوة العالية ، واقع

(١) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٣ ط عالم المعرفة الكويت .

التعايش بين الأديان والنحل المختلفة ، بنفس الحقوق والواجبات ، بغير أحقاد ولا أطماع . وتحاول البشرية ذلك اليوم وتفشل ، بل تتردى وتنحط ، وتبعد عنه وتنهار .

٥ — لأنها النبع الصافي الذى لا يكدر ، وكل من قرب من ذلك النبع كان أكثر صفاء وأنقى شرابا ، ولأنها النموذج الذى يقاس عليه ، وينسج على منواله ، والأصل الذى يقلد ، ويحاول كل أن يتأسى به .

٦ — لأن الله تكفل بحفظ هذه الثقافة وهذا النظام ، فلا ينهار ولا يتحلل ولا ينزع كغيره من الثقافات ، ولا يندثر كغيره من الأعراف والتعاليم ، وإنما هو باق خالد عظيم شاخ ، عليه خاتم الخلود والبقاء .

فكيف إذاً يقاس الإسلام بغيره ، وتقاس ثقافته الربانية وقانونه الإلهى بالثقافة البشرية والتفكير الإنسانى القاصر ، الذى تثبت الأيام قصوره وفناءه كصاحبه ، دلالة على أن الفانى زائل فى كل شيء ، حتى فى فكره ونظامه ، أما الباقي فهو باق فى كل شيء ، وكذلك فى قانونه ودستوره ونظامه ، وصدق الله : ﴿ سنبهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(١) ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون^(٢) ﴿

(١) فصلت — ٥٣ .

(٢) المائدة — ٤٩ — ٥٠ .

الفصل الثاني

أمراض الحضارات وعصور الانتجار العلمي

المبحث الأول تدهور الحضارات

تَقْدُمُ العقل نعمة ، ونور البصيرة نعمة ، وسهولة الحياة نعمة ، وراحة البال نعمة ، والأمن ونزع الخوف نعمة ، وصدق الله : ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾^(١) ، ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾^(٢) ، ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ﴾^(٣) .

وحضارة الإنسان التى تبنى على العقل والقيم والحب وراحة البال وسعادة الإنسان لا شك تكون نعمة . وقد منَّ الله سبحانه على أهل سبأ بما أعطاهم من حضارة زاهرة ، وتقدم باهر ، وخير وفير ، فقال سبحانه : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾^(٤) .

ولكن لا تستمر هذه النعم ، ولا تربو هذه الحضارات ، إلا بأسباب معينة ، ونواميس محسوبة ، فإذا اختل مسارها ، أو تدرجت خطواتها ، تهدمت أركانها ، وتزلزلت قواعدها . فالحضارة علم ، ومعارف ، وذوق ، وخبرة ، وتجربة ، وجهد ،

(١) المؤمنون — ٧٨ .

(٢) الأحقاف — ٢٦ .

(٣) قريش — ٣ — ٤ .

(٤) سبأ — ١٥ .

وبحث ، وعقل . وكل هذا يزيد ملكات الإنسان إرهابا ، ويفجر في كيانه ينابيع جديدة من الإبداع والإحسان والتقدم ، فإذا انحرف العلم أو فسد ، وشردت المعارف أو ضلت ، وانحرف الخطو أو فسد العقل ، تدهورت الحضارة .

إساءة استخدام الحضارة :

إذن فرما أورث الحضارة غرورا وفتنة ، هذا إذا أساءت الأمم استخدامها ، وأفسدها ما تملكه من أسباب التمدن ، فأسرفوا في التمتع ، وخلدوا إلى التبطل والدعة ، وزهدوا في العمل والجهد والجِد ، ووكّلوا الأعمال والمتاعب لغيرهم ممن لا يحسنها ولا يصلح لها ، ومضوا في الاستمتاع والترفه بما أحاط بهم من نعيم العيش ولين المهاد ، وأسرفوا في الطعام وفي الشراب ، وانصرفوا بطاقتهم إلى التفتن في الاستمتاع ، وأكثروا من العريضة والسير وراء الشهوات ، وأغرقوا أنفسهم في الجنس ، ولعبت بهم أهواء النساء ، وضيعوا أوقاتهم بين الغواي ، وصاحب ذلك الإقبال على الخمر ، ومصاحبة رفقاء السوء ؛ وبعد الناصح ، فأصبحت الأوقات لا تتسع للجِد ، ولا لمباشرة أمور الأمم ، فضعفت قبضتهم على السلطان ، وتفلتت أزمة الأمور من أيديهم ، وهم لاهون في هذا المتاع ، فاضمحلت قواهم ، وتمهد الطريق لغيرهم ، للتغلب عليهم ، وانتزع الملك من أيديهم ، والسيادة من أمتهم ، وتتلخص هذه الظاهرة فيما يسميه المؤرخون بسيطرة أدوات الحضارة على الإنسان ، بدلا من سيطرته عليها .

ولكن إذا أراد الإنسان أو أرادت أى أمة الاستفادة من حضارتها ، أو أى ظاهرة حضارية ، ينبغى أن يكون الإنسان فيها قادرا على السيطرة على أدوات تلك الحضارة ، وعلى ما تنتج من أدوات ، وما تيسره من رفاه ، وإلا سيطرت عليه فأهلكته ، وأصبحت بالتالى ضرا عليه ، ووبالا على أمتة .

فكل شئ في الحياة مهما كان نافعا ، إذا فقد الإنسان السيطرة عليه كان مهلكا وكان ضارا له ، بل كان في معظم الأحيان ساحقا ومدمرا . ولنضرب لذلك الأمثال .

النار مثلاً ، كانت تحولا حضاريا هائلا ، في طهسى الطعام ، وفي الإنارة والاستصباح ، وفي الاستدفاء ، وفي غير ذلك من المنافع . ولكن إذا أسىء استعمالها ، وأهملت السيطرة عليها ، كانت خطرا على الكبير والصغير ، وعلى البيت والمتاع ، وعلى البلد والجيران ، وعلى إنتاج الأمة وعلى مقومات حياتها .

والسلاح ضرورى للإنسان ، لكى يدافع عن نفسه ، ويحمى به بلده وقومه وعشيرته . ولكن إذا فقد الإنسان السيطرة على نفسه في حيازة هذا السلاح وفي وجوده ، كان هذا السلاح وبالا على الفرد ، وعلى المجتمع ، وعلى الأمم ، بل وعلى البشرية جمعاء ، وقد ثبت بالفعل وبالتجربة وبالواقع المعاش ان السلاح يسيطر فى الغالب على الإنسان . الذى لا يملك من القوة العقلية والخلقية ما يمكنه من السيطرة على هذا السلاح ، فقد حرض هذا السلاح الإنسان وشجعه على أن يكون ذئبا ، فشرع يستعمله فى الاستيلاء على الأشياء بالقوة أو الانتقام والإرهاب وسفك الدماء .

وتسمى هذه الحقيقة من الحقائق « بالقبض » ، أى القدرة على القبض على الأشياء ، ومعرفة كيفية استعمالها . وبدون هذا القبض أو هذه القدرة على الأشياء ، ومعرفة كيفية استعمالها والتحكم فيها ، وبدون وجود قانون خلقى ونفسى واجتماعى يحكم تلك الأشياء ، لا يستطيع الإنسان ولا الأمم الاستفادة من أى ثمرة من ثمرات الحضارة .

وكذلك كل استمتاع بأطايب الحياة ومطالبها بغير تحكم فى الشهوات وبغير ضابط يصبح ضررا على المستمتع به . فالإسراف فى لين الفراش يؤذى العمود الفقري ، ويضر بالبدن ، والإسراف فى النوم فى الفراش الوثير يضعف الجسد ، ويدعو إلى الخمول ، وحتى الإسراف فى الشراب والطعام يصيب المعدة بأمراض شتى ، هذا فضلا عما يؤدى إليه من إتلاف وضياح وإهمال ، ولهذا نرى أن ربنا سبحانه ينهانا عن ذلك فى مواطن كثيرة .

فيقول عز من قائل : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾^(١)

(١) الأعراف — ٣١ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ . قُلْ أُوْنَبِّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ ﴾ (٣) .

العنصر الأخلاقي وأثره :

إن أبرز ما يميز الحضارات الناهضة من الحضارات الهابطة هو سيطرة العنصر الأخلاقي على تصرفات الفرد والمجتمع والدولة في الحياة ، في السلم والحرب على السواء ، والتجرد من الأنانية الصغيرة المحدودة ، والتخلي عن حب الذات حبا يبغي على الآخرين ، ويهضم حقوق الغير ، ويقضى عليه في بعض الأحيان . وترك عبادة الدولة وتقديسها وإعلائها فوق المبادئ والمثل والأخلاق .

فإذا سيطرت اللاأخلاقية على حضارة من الحضارات ، فسدت أجواء الحياة البشرية ، واستحوالت تلك الأجواء إلى حيوانية الذئاب في الغابة ، لا عهد ولا ميثاق ، ولا مجال فيها لغير الغدر والنفاق واقتناص الفرص للقضاء على الفرائس .

ولقد شهدت البشرية وتشهد اليوم في هذه الحقبة التي سيطرت فيها الحضارة الغربية مثلاً من حياة الغابة ، وصوراً من شرائع الذئاب ، شرائع الغدر والنفاق والخسة ونقض العهود وخيانة الوعود وتمزيق الاتفاقيات ، ووصف المعاهدات بأنها قصاصات من الورق ، كما شهدت من الدمار ومن وحشية الحروب ما تستنكف منه

(٣) آل عمران / ١٤ - ١٥ .

(١) الإسراء - ١٦ .

(٢) الإسراء - ٢٧ .

الوحوش الذئاب والثعالب .

وستشهد البشرية في مستقبلها — إذا استمرت هذه الحضارة اللاأخلاقية — ألوانا من الخيانة والغدر ، وصنوبا من الوحشية والبربرية والهمجية ، بما يتفق مع روح هذه الحضارة المادية الكافرة ، التي لا تؤمن بإنسانية ولادين ولا خلق ، ولا تقيد نفسها بمبدأ ولا ضمير ولا رقابة ، وهذا ما يلتبس مع الفكر المادى الملحد الغليظ الأناني الذى يسيطر على هذه الحضارة ، ويخلق في الفرد والمجتمع روح العداء والتحفز والصراع ، والسعى إلى المصلحة المباشرة والعنصرية البغيضة .

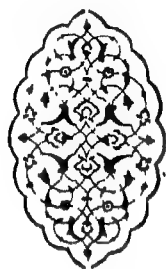
وستظل روح الشقاق والصراع والغلبة والقهر سائدة مهما نودى بالأخوة والتعايش السلمى والصدقة بين الشعوب والوحدة العالمية ، لأن أساس الحضارة وقاعدتها لا أخلاق ، ولا إنسانى ، ولا يقوم على عقيدة أدبية إنسانية تكيف الصلات المادية ، وتسير الآلات والمخترعات والأجهزة لبناء الحياة ورفع الإنسان ، لا لتحطيم الحياة وإذلال ذلك الإنسان .

وستظل أطماع الأقوياء ورغبات الدول الكبرى تتحكم على أساس النفعية العنصرية ، واستغلال الثروات وجهد الإنسان وعرقه ، وتبيح للقادة وللزعماء فيها كل منكر وكل وحشية ما دامت الغاية تبرر الوسيلة ، ومادامت قداسة الدولة هى السائدة وهى العقيدة — لاقداسة الأخلاق والمثل — هى التى تتحكم ، وهى القاعدة التى على أساسها يتعاملون ويتحركون فى المجتمعات وبين الأمم والشعوب .

ولن يكون إزاء هذا الفهم والانحراف رادع عن ارتكاب أخط الجرائم فى حق الآخرين ، مادام يعد المجرم بطلا عظيما ، والغادر سياسيا بارعا ، وارتكاب أفظع الجرائم وسفك الدماء وإذلال الشعوب واعتبار السطو والقهر والبطش عملا قوميا يضيف إلى صاحبه رصيда معينا .

إذن فالعنصر الأخلاقى مهم جدا فى بناء الحضارات وسعادة الأمم ، وفقدان هذا العنصر يدمر الحضارة ، ويجعلها تتصارع وتفقد إنسانيتها ، وإذا فقدت الحضارة إنسانيتها رجعت كما بدأت إلى عصر البداوة والهمجية والانحطاط ، ولكن لا ترجع إليه

إلا بإنسانية محطمة وركام تائه بائس مدمر بصنع الإنسان .
وصدق الله : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض
الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾^(١)



(١) الروم — ٤١ .

المبحث الثاني أمراض الحضارة

الحضارة كالأجسام والأعضاء ، تصح وتقرض ، وتقوى وتسقم ، وتشتد وتضعف ، لأنها مرتبطة بحياة الإنسان ، وفكره ، ونهجه ، وخطوه ، فإذا استقام الفكر واستقام النهج واعتدل الخطو وسعدت الحياة ، وإذا اعوج والتوى الدرب وفسد النهج وشقيت الحياة ، انعكس ذلك على الإنسان وعلى المجتمع .

وتاريخ الحضارات وتراث الأمم ، تظهر على محياه وفي جنباته هذه الأعراض أو تلك الملامح ، كما ينعكس ذلك على حياة الناس بما كسبت أيديهم واقترفت عقولهم : ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ (١) .

وحضارة الغرب اليوم تناولها المحللون من جميع جوانبها ، فوجدوا أن الحياة الإنسانية في ظل هذه الحضارة ، وفي رحاب تلك الأفكار والمناهج — كما هي سائرة اليوم ، وكما هي صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة — ، لا يمكن أن تستمر في طريقها هذا ، ولا بد لها من تغيير أساسي في القاعدة وفي الركائز التي تقوم عليها ، تغييرا يعصمها من تدمير الإنسان ذاته بتدمير خصائصه الأساسية ، فالحياة الإنسانية ، بل والدنيا كلها ، قد بلغت فيها اليوم عملية الهدم والتخريب ذروتها ، ولا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد ربهم رشدا .

لا ندري آله أراد من وراء هذه العملية أن يذيق الناس وبال ما عملوا ، أم هناك شيء صالح سيظهر بعد عملية الهدم والتخريب لتلك الحضارة ، وما كنا ننتدى إليه أو نفتتح به إلا بعد أن يذوق الناس وبال ما صنعوا .

(١) الكهف / ٤٩

والحقيقة الظاهرة للعيان أن خط الحياة للحضارة الحالية — وفي ظل منهجها — يمضى يوما بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان العليا ، وتحويله إلى آلة من ناحية أخرى ، وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ، وإذا كانت آثار ذلك الهلاك وتلك النهاية لم تضح اتضاحا كاملا لبعض المتعجلين أو اللاهين ، فإن حريقه في الأمم والشعوب الحضارية منها وغير الحضارية ، وهدم هذا الهلاك في الحياة العامة والخاصة للإنسان ، قد جعل المخلصين والباحثين يجأرون بالشكوى ، ويرفعون الصوت عاليا بالإنذار والتحذير من المصير البائس ، الذى ينتظر البشرية في ظل هذا الهدم والتدمير الإنسانى المتواصل .

إن السموم والأوبئة التى تنتشر من تلك الحضارة المريضة ، جعل الناس في هلع دائم ، وحرب ساخنة أو باردة ، وحياة ياهتة أو ضاجرة ، يتخلص الكثيرون منها بالانتحار السريع أو البطيء .

ومرد ذلك كله إلى علل وأمراض وأخطاء ، نشبت في جذور هذه الحضارة ، وفي حناياها وأحشائها . فهوى ذلك الصرح الشاهق ، وَخَرَّ سقفه على الناس من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وأمرض الحضارة اليوم وعللها عديدة ومتنوعة ، منها ما يختص بالأساس الذى تقوم عليه ، والأفكار التى تبنى عليها ، ومنها ما يتخلل المنهج ، ويتسرب إلى الأوصال ، ويسرى في الدماء والعروق ، ومنها ما يتعلق بالغاية والهدف والآمال والطموح .

معالم تلك العلل والأمراض :

يشخص الباحثون أمراض الحضارة ، ويرى كل واحد من وجهة نظره أمراضا معينة وعللا مخصوصة ، ولكنهم يجمعون على علل وأمراض كانت سببا في هدم تلك الحضارة ، وتحويلها إلى عكس ما يراد منها وما يرجى لها ، وأدل تلك الأسباب :

١ — الجهل المطبق بالإنسان وخصائصه :

على الرغم من كثرة معارفنا ، وعلمنا ، وسعة علمنا نسيبا بالمادة ، وطرق

استغلالها ، وتصنيعها ، والاستفادة منها على أصول فنية راقية ؛ إلا أننا مازلنا عاجزين عن فهم طبيعة الإنسان ، وتقدير خصائصه ، وتهذيب ميوله ورغباته وشهواته ، واختراع أو اكتشاف نظام شامل لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ويحتفظ بها جميعا في حالة تجدد ونمو وازدهار ، لتؤدى غرضها في الحياة في سعادة الإنسان وهنائه .

وقد أجاد الدكتور « الكسيس كاريل » في كتابه المشهور الإنسان ذلك المجهول ، في التعبير عن الفرق بين علوم الجماد وعلوم الإنسان ، وتقدم الحضارة في الأولى وتأخرها في الثانية ، فيقول :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية ، وقد أنشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة .

إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات ، بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى يبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار ، أو أنهم في قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ، فهم يريزحون تحت عبء أكداش من الحقائق ، التي يستطيعون أن يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية .

فمن الأشياء التي تراها عالم الماديات ، سواء كانت ذرات أم نجوما ، صخورا أم سحباً أم ماء ... أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد الاتساعية وتعلم سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على البسيطة ... فيما عدا أنفسنا

ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ، والإنسان بصفة خاصة ، لم يصب مثل هذا التقدم ..

إنه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالإنسان كل لا يتجزأ ، وفي غاية التعقيد ،

ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، وليس هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو أجزائه في وقت واحد .

كما توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى . ولكى نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة ، وإلى استخدام علوم عديدة .

ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى آراء مختلفة في غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط ، وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .. إلى أن يقول « وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة ، فنحن لا نعرف — حتى الآن — الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية » ؟

« كيف تقرر « الجينس » (ناقلات الوراثة) فى نواة البيضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة » ؟

« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء » ؟ (١)...

ثم يقرر كاريل حقيقة معينة لا بد لكل إنسان أن يعرفها وأن يعيها ويحسها ، بل ويلمسها لمسا .

فيقول : « إننا مازلنا بعيدين جدا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات والأعضاء ، ووجود النشاط العقلى والروحي .

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٥ — ١٦ .

ومازلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض .

إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبى ، وقوة الحكم ، والجرأة ، ولا ماهى الأهمية النسبية للنشاط العقلى والأدبى ، كذلك النشاط الدينى . أى شكل من أشكال النشاط مسئول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟ لاشك مطلقا فى أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هى التى تقرر السعادة أو التعاسة ، النجاح أو الفشل ، ولكننا لانعرف ما هى هذه العوامل .. إننا لا نستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية ، وحتى الآن فإننا لم نعرف ، أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدن وتقدمه هل فى الإمكان كبت الروح ، وكبت الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان ونخطاؤه فى المدنية العصرية ؟ وهناك أسئلة أخرى عديدة لا حد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر غاية فى الأهمية بالنسبة لنا .
ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ، مازال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا بدائية فى الغالب . » (١)

وهكذا يظهر من تقارير وتحليلات هذا العالم الكبير أن هناك فارقا أساسيا شاسعا بين علوم المادة وعلوم الإنسان ، وبين طبيعة وإمكانية موقف العقل بين هذه وتلك ، وأن هذا الفارق كامن فى أمرين ثابتين ، لا يتعلقا ببيئة ولا بزمان ، وهما :

١ — تعقيد الموضوع وتشابكه .

٢ — طبيعة تركيب عقولنا .

(١) المرجع السابق — ١٨ ، ١٩ .

كما أنه رغم تقدم علوم الجمام فى هذه الحضارة ، ورغم بلوغ الإنسان فى تلك العلوم شأواً بعيداً ؛ إلا أنه مازال بدائياً فى علوم الإنسان ، وفى حقيقة مشاعره ، وآماله ، وحقيقة دوره فى الأرض ، وغاية وجود الإنسان فى هذا الكون .

ولهذا عومل الإنسان فى تلك الحضارة معاملة الجمام بدون تقدير لمواهبه وإحساساته ، فكان هذا اللون من المعاملة ماحقاً له ، وناسفاً لطبيعته . يقول شفاتيرز : « ألبرت شفاتيرز » ، حين يعرض لأزمة الحضارة :

« إن تقدم الحضارة المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، لقد اختل توازنها . فالاكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض ، الجماعات والدول ، وأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن فى وسع أحد أن يتخيله ، نحن نعانى فى تقدير إنجازاتها المادية ، ولا نقدر أهمية العنصر الروحى فى الحياة حق قدره ، إن الحضارة التى لا تنمو فيها إلا النواحي المادية ، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ فى ميدان الروح ، هى أشبه ما يكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى ستقضى عليها ، ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد لكمال الإنسان ، وتحسين الأحوال المادية ^(١) »

ولهذا فالحضارة انطلقت كغول انسل من عقاله وأخذ يفترس هذا الإنسان ولا يعمل له أى حساب .

والإنسان هو سيد هذا الوجود ، وهو محور ومدار نشاطه ، فأى حضارة تسحق هذا الإنسان ، ولا تقدر مواهبه ، وتجهل خصائصه ، وتغفل شعوره فى قوانينها الاقتصادية والاجتماعية ، مقضى عليها بالفشل والخسران ، وهو ما وقعت فيه حضارتنا العصرية المسيطرة .

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى ص ١٣٠ ، ١٣١ ط دار الاعتصام .

يقول كاريل : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ؛ إلا أنها غير صالحة بالنسبة لنا ولحجمنا وشكلنا » (١)

هذا التصور العليل للإنسان في الحضارة الحديثة ، وهذا التيه الذي يقضى على أشرف عنصر على وجه الأرض ، لا يوجد في الحضارة الإسلامية .

حيث إن الإنسان في التصور الإسلامي هو سيد الوجود الأرضي بخلافته عن الله فيها . وكل ما في الأرض مسخر لخدمته وإسعاده وصدق الله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ (٢)

﴿ الله الذي سخر لكم البحر ؛ لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣) .

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرءوف رحيم ، والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والتخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٧ ط مؤسسة المعارف بيروت تعريب شفيق أسعد .

(٢) البقرة — ٢٩ .

(٣) الجاثية — ١٢ — ١٣ .

حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تَشْكُرُونَ .
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَاراً وَسَبَلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ
وَبِالْأَنْجُمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . ﴿١﴾

ولم يترك المنهج الإسلامى الإنسان لشقوته واضطرابه وشهواته وأهوائه ، ولم
يترك البشرية يبغي بعضها على بعض ، فليس لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع
منهج لحياتهم ؛ لأنهم يجهلون أنفسهم ، ويحارون فى فهم ملكاتهم وغرائزهم ،
ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم . وهذا الجهل وذاك الخضوع له إيجاء مؤثر يجعل من
الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم فى الحياة ، أن يتولوا وضع شريعتهم وتخطيط
منهج حياتهم .

ولهذا تولى الله وضع تلك الشريعة ، ورسم ذلك المنهج الإسلامى للبشرية ،
متخطيا الجهل الإنسانى والقصور البشرى ، وقد أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى
بقوله :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

وقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ،
يَرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ
يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ جَاءُوكَ
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَعْرَضَ
عَنْهُمْ ، وَعَظَّمَهُمْ ، وَقَلَّ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

(١) النحل - ٥ - ١٦ .

(٢) الجاثية - ١٨ .

بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »^(١)

فالإسلام جعل الإنسان سيداً على الأرض ، وسخر له كل شيء ، وأقدره على معرفة النواميس الكونية اللازمة للحياة . وفي الوقت نفسه عصمه من بغي شهواته ، وجهله بنفسه ، وطغيانه على طبيعته وبني جلدته ، فرسم له طريقا سويا وصراطاً مستقيماً لأن لا يضل ولا يشقى ، فمن أعرض عن هذا المنهج وسلك غير هذا الدرب جنى على نفسه ، وأوقعها في جهل وعنت وتيه ، وصدق الله : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى ، وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾^(٢) .

٢ — سيادة الحياة الصناعية لا الإنسانية :

كل الدلائل والإشارات تدل دلالة واضحة على أن الحضارة التي نعيشها اليوم ، والتي تهيمن على العالم ، تتأثر إلى حد كبير بجو الحياة الصناعية ، من ناحية الإنتاج والتسابق في كسب المال ، وترويج السلع بالدعاية ، بزيادة ساعات العمل ، بتلويث الأجواء ، بالاعتماد على الأشياء الصناعية غير الطبيعية ، بالإرهاق وكثرة التفكير والتنافس على المادة .

فمثلا ، تتأثر حياتنا بالإعلانات التجارية إلى حد كبير ، وبالأسواق التجارية ، فلقد أوهمت وأجبرت الدعاية كثيرا من الناس ، بل كثيرا من الدول ، على تغيير عاداتها وطبائعها ، بل توجيه وجهتها إلى غير الوجهة الصحيحة ، ولننظر إلى الكسيس كاريل ، يصف تلك الحالة وهذا التأثير ، فيقول :

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالا تاما

(١) النساء : ٦٤ — ٦٥ .

(٢) طه — ١٢٤ — ١٢٧ .

عند تنظيم الحياة الصناعية ، إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ « الحد الأعلى من الإنتاج بأقل التكاليف حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد الحصول على أكبر مبلغ مستطاع من المال ، وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية ، التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم ، لقد بنيت المدن الكبرى دون الاهتمام بأمرنا ... فأشكال ناطحات السحاب ، ومساحتها ، تتوقف تماما على الحد الأقصى من الدخل من كل متر مربع من الأرض ، وعلى تقديم المكاتب والمساكن التى ترضى السكان وأصحاب الأعمال ، وتوافق رغباتهم ..

ثم يقول : لقد أوهمت الدعاية الجمهور أن الخبز الأبيض افضل من الخبز الأسمر . وهكذا ينخل الدقيق مرة بعد أخرى بدقة ، ليتجرد من العناصر الغذائية النافعة .. إن مبالغ ضخمة تنفق على الدعاية ، ونتيجة لذلك أصبحت كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والطبية التى لافائدة منها على الأقل ، وغالبا ماتكون ضارة .

وأصبحت هذه المنتجات ضرورية للإنسان المتحضر ، وعلى هذا المنوال ؛ فإن شراهة للأفراد الذين وهبوا ذكاء كافيا ، يمكنهم من خلق تهافت الجمهور على طلب السلع التى لديهم ، وتلعب دورا رئيسيا فى الدنيا العصرية ...

ثم يختم كاريل ذلك بقوله : «وهكذا يبدو أن البيئة التى ننجح العلم والتكنولوجيا فى إيجادها للإنسان لا تلائمها ؛ لأنها أنشئت اعتباطا ، وكيفما اتفق ، دون أى اعتبار لذاته الحقيقية . » (١).

والحقيقة أن سيطرة الحياة الصناعية ، وشرها إلى الإنتاج ، وإلى المادة ، خلفت كثيرا من المآسى الاحتكارية والصحية والاجتماعية ، وما ذلك إلا لأنها لم يصحبها قانون أخلاقى ، أو عرف إنسانى ، أو شعور روحى . فخلفت بفقدانها هذه

(١) الإنسان ذلك المجهول — ص ٤٨ — ٤٠ .

الأمر جوا من التنافس والأحقاد ، وجعلت الناس حكرا على مناطق نفوذ معينة لدولة أو لأفراد ، وهذا علاوة على ماخلفت من جو آلى ، استعمل فيما بعد فى الإضرار بالإنسان نفسه فى سلمه وحرية . نعم إن الإبداع المادى فى هذه الحياة ضرورة لنمو الحياة ورقيا ، ولكن بشرط أن لا يضر ويناقض خصائص الإنسان ، أو يفسدها ، أو يقضى عليها ويدمرها ، وهذا ماتعانيه تلك الحضارة .

٣- ظهور نظريات معقدة ساعدت فى شقاء الإنسان :

فى جو الحياة الصناعية والآلية ، وفى غبار المادة الملتببة ، ظهرت نظريات اجتماعية وسياسية ، كان لها دور فى تمزق الإنسان ، وضياح الطريق من قدميه ، فالنظم التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم ودبجوها فى مكاتبهم عديمة القيمة .. فمبادئ الثورة الفرنسية الجوفاء ، وحقوق الإنسان ، وخیالات ماركس ، وأحلام لينين ، تنطبق على الرجال الجامدين غير الأحياء ، أو على الحيوان ، أو على قطع الشطرنج ، التى لاحس لها ، ولا تفكير ، ولا شعور ، ولا خصائص ، ولا غرائز ، ولا قيم .

إن قوانين العلاقات البشرية مازالت عند هؤلاء غير معروفة ، وكل هذه النظريات التى تدعى ، مجرد فروض وتخمين ، نتجت من الإحساس بالظلم أو الاضطهاد أو الإحباط ، فساعدت على ما فرت منه . وكانت — كما يقولون — كمن يستعجير من الرمضاء بالنار . وكل هذا لعدم العلم بطبيعة الإنسان ، أو ملكاته ، أو لإحساساته ، بل حتى تركيبه العضوى .

يقول العالم الأمريكى « أ. كريس موريسون » فى كتابه ، الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكى ، بعنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

« إن القائلين بنظرية التطور « النشوء والارتقاء » لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة « الجينات » ...^(١)

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ١ — كريس موريسون ترجمة محمود الفلكى ص ١٤٧ ط النهضة المصرية — الخامسة .

« لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية ، وهي تحتفظ بالتصميم ، وسجل السلف والخواص التي لكل شيء حى .

وهي تتحكم تفصيلا في الجذع ، والجذر ، والورق ، والزهر ، والثمر ، ولكل نبات تماما ، كما تقرر الشكل ، والقشرة ، والأجنحة ، والشعر ، لكل حيوان بما فيه الإنسان » (١)

ثم يقول : « إن ارتقاء الإنسان الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .

وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان — بوصفه هذا — قد يكون جهازا ، ولكن مالذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لافائدة منه . والعلم لا يعلم من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادى .

لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوافق بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره ، ولا يزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه « بالروح » ، وهو يرقى فى ببطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة » (٢).

ومذهب النشوء والارتقاء ، والوجودية ، والماركسية ، وغيرها من النظريات المعقدة ، التى بشت فى أجواء الحضارة ، أغرقت الإنسان فى المادية ، وأبعدته عن إرواء روحه وفكره ، وقادته معصوب العينين إلى حيث يشاء سماسرة الحضارة والمستفيدون من هذا السعار المادى الجارف .

ويعرض « كارل ياسيرز » لمستقبل الحضارة ، فيقول :

« إن بدعتين طغت من بدع العصر ، هى : الماركسية ، والفرويدية ، —

(١) المرجع السابق ص ٦٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) نفسه ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

وينسى دعوته المسمومة — « الوجودية » يقول :

« فى عالم محروم من الله ، ظهر كارل ماركس نيبا ، واتخذ القوالب التى يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها ، وأن يهمل لها . وكان طبيعيا أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته فى منهج مهزوز مجدود ، فى عالمنا المقلوب هذا .

قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء التحليل النفسى فزودهم بذلك الوهم ، إننا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتى ، الذى هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون ، والذى يسير جنبا إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويد ، التى استولت على عقول الناس »^(١).

نعم ظهرت هذه الدعوات فى غياب الروحانيات ، واستغلت نفور الناس من الكنيسة ، ومن استغلالها ومحاكمها التفتيشية ، واستغلت تلك الأجواء ، وأمطرت الناس بوابل من الأوهام والخيالات التى كانت جرثومة قوية فى جسد الحضارة المادية .

٤- الانصراف إلى الماديات :

أغرمت المدنية الغربية بالمادة ، وأعطتها كل شىء على حساب أى شىء ، حتى الإنسان وملكاته وخصائصه ، وأصبح الحديث عن المادة هو الحديث عن الحياة ، وعن السعادة ، وعن المستقبل والحاضر ، وعن الصداقة والعداوة . ولهذا نسمع عن الحروب الاقتصادية ، وعن مناطق النفوذ وعن الأسواق والمصالح الغربية ، حتى أصبحت الحضارة طوقاً وقيداً فى أعناق وأرجل الناس ، وضع من هذا التخريب الباحثون والعلماء ، وتكلموا فى تلك الحقائق المفزعة المقلوبة بازدراء .

يقول الأستاذ ليوبولد فايس « محمد أسد » :

« لقد أضافت الحضارة الغربية على الإرث الرومانى المادى عنصراً مادياً جديداً ، فقد أخذوا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل المسبوك ، الذى صنعه

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى ص ٨٥ ، ٨٦ ط دار الاعتصام .

لهم هارون في غياب موسى من حلى نسائهم» (١).

وهكذا أصبح المال إلها جديدا في الغرب ، يعبد من دون الله ، وقامت في عواصم أوربا أسواق المال والبورصة مثل « ريجنت ستريت في لندن — وول ستريت في نيويورك . ثم جعل كهان هذا الإله الجديد يستغلون الناس بكل سبيل ، يجمعون من شعوب الأرض درهماهم القليلة ، ليخزنوها ملايين في صناديقهم الحديدية .

ولما زاد شرهم إلى المال أخذوا يثيرون الحروب بين الأمم ، ثم يبيعون المتحاربين كلهم سلاحا . لا يهتم من مات ولا يهتم من قتل ، ولا من ضرت أرضه ودياره ، ولا من جاع أو عطش أو عرى ، أو ظل جاهلا ، ماداموا هم يجمعون المال في صناديقهم ، ليزيدوا به نفوذهم السياسي والعسكري في العالم ، ثم ليستخدموا هذا النفوذ من جديد في سبيل قناطر جديدة من الأموال وهكذا دواليك . » (٢).

وعن هذا المعنى نفسه يتكلم الأستاذ « يترم سوركن » ، رئيس دائرة علم الاجتماع بجامعة هارفارد ، حين يتعرض لأزمة الحضارة الغربية في كتابه الذي سماه (أزمة عصرنا) فيقول :

« أزمة الثقافة الغربية الراهنة سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة ، وقد سادت هذه الثقافة قرونا عدة ، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة ، فهي حينما يدركها الخلل ، ويدب فيها التسمم ، يسرى الداء إلى مختلف أجزائها ، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة .

فليست الأزمة الراهنة أزمة أوضاع وصور وأشكال ، وإنما هي أزمة انهيار عام وتحلل شامل . فهي أزمة مستحكمة عميقة ، أشد من سائر الأزمات . وفي خلال

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٥ ، ٤٦ وهذا التعبير الأخير غير مقبول إسلاميا .
راجع التوراة سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثين . ثم راجع القرآن الكريم ، سورة البقرة ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣ والنساء — ٥٢ « والأعراف — ١٤٧ ، ١٥١ ، وسورة طه — وقد نسبوا صنع العجل إلى هارون بدل السامري .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق محمد أسد ص ٤٥ ، ٤٦ ط دار العلم للملايين تعريب الدكتور عمر فروخ .

الثلاثين قرناً الأخيرة لم يحدث في تاريخ الثقافة (اليونانية — الرومانية — الغربية) سوى أربع أزمات من هذا القبيل ، والأزمة التي يواجهها المجتمع الغربي اليوم هي : أزمة انهيار الثقافة الحسية ، وستخلفها ثقافة أخرى ، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذي تنهار فيه الثقافة القديمة البالية ، وفيه تشتعل الحروب ، وتستعر الثورات ، وتشتد الأزمات ، وكل هذه الحروب والثورات ، إرهابات بالثقافة والحياة الجديدة^(١).

وهكذا نرى « سوركن » — رئيس دائرة علم الاجتماع — يقرر أن الثقافة الحسية للحضارة الغربية أصيلة الجنود في المجتمع الغربي ، وأن تلك الثقافة قد أدت إلى انهيار وتحلل شامل للحضارة ، وأن الحروب والثورات والأزمات — التي تأخذ بتلاييب الأمم وتصلبهم سعيراً — هي من نتائج هذه الماحقة ، وأن هذه الإرهابات وتلك الضوائق دليل على زوال تلك الحضارة مع ثقافتها ، وأن ذلك يبشر بظهور ثقافة جديدة وحضارة أخرى ، تختلف عن تلك الحضارة الحسية ، وتكون موائمة لطبيعة تلك البشرية وصداقة معها ، ترتاح في جنباتها النفوس وتقر .

ويؤيد ذلك ويقرره « ألبرت شفاتيرز » : إن الحضارة الأوربية المعاصرة تعاني من أعراض التحلل والانهيار . ثم يعدد الأسباب ويذكر منها .

١ — سيطرة الآلة على حياة الكثير منا ، حتى غدونا عبيدا لها ، تتحكم فينا ، وأصبحت حياتنا ضيقة مرهقة ، ولم تعد لنا فسحة من الوقت للتأمل والاستقرار الذهني ، وأصبحنا جميعاً بصورة متفاوتة في خطر من أن نستحيل إلى صور إنسانية ، بدلاً من كائنات لها شخصيتها الذاتية ، وبهذا أصاب الأذى المادي والروحي وجودنا الإنساني ، وشغلنا معركة العيش عن التفكير في المثل العليا للحضارة ، ونشأ تصور ضال للحضارة عندنا . والمعنى الحقيقي للحضارة ، وهي أن تظل إنسانية ، وأن تحتفظ بذخيرة حياتنا الروحية مع ظروف مدينتنا المادية الحديثة .

(١) انظر الإسلام والحضارة للجندي ص ١٢٦ ط الاعتصام .

٢ — العناصر الجمالية والتاريخية ، وعمق المعرفة المادية ، واتساعها ، لا يكون جوهر الحضارة ، فإن العناصر لا تسفر عن آثارها الحقيقية في نموها واكتناها ، مالم تستند في بقائها ونموها إلى استعداد نفسى أخلاقى ، ذلك أن الإنسان ليس له قيمة بوصفه شخصية إنسانية ؛ إلا عن طريق كفاحه ، ليكون على خلق وخلال حميدة .

٣ — إن تقدم الفيزياء والكيمياء والميكانيك وعلم النفس وعلم الحياة لم يقدم البشرية خطوة واحدة نحو الفضيلة ، ولم يعصم المجتمع من الرذائل والموبقات والأزمات الخلقية ، بل فتح العلم سبيل الشر في مجال التدمير والحرب وفي مجال التحلل من موجبات الدين .

٤ — إن الإنسان ليس ماديا إلى الدرجة التى يدعيها الغافلون المتشائمون ، فقد وجدت بعد حياة زاهرة بالتجارب ، شهدت فيها آلام البشرية . إن الإنسان يتلهف لبلوغ المثل العليا بإرادته ، ولو أنه على الأغلب لا يظهر هذا اللهف الذى يضطرم فى أعماقه . ومثل هذه الرغبة من الإنسان المعاصر فى نظري شفاثيرز — كمثال حياة الجداول والأنهار ، تكون جزءا غير ذى أهمية إذا قورنت بكميات المياه الجارفة تحت سطح الأرض ، وأن البشرية تتطلع نحو من يستطيع إظهار الخفى فى الأعماق ، والكشف عن التيارات المتضاربة فى الزوايا المظلمة فى النفس البشرية (١) .

ورؤية « شفاثيرز » هذه للحضارة وللإنسان تمثل رأى جمهور الباحثين ، سواء منهم الغربيين أو الشرقيين ، بل تمثل الحقيقة التى لا يستطيع إنكارها إلا مكابر ، أصم الأذن ، وأغمض العين ، وأغلق الفهم ، وطمس القلب . ونحن — الأمم النامية — ربما نشعر بوطأتها أكثر من غيرنا ، وخصوصا نحن المسلمين المستهدفين لكثير من حملات البغضاء والكراهية والظلم والعنت ، لأحقاد دفينه ، ليست لنا فيها من جريرة ، إلا أننا كنا أصحاب حق ساد يوما ، ويوشك أن يبرز إن شاء الله إلى الوجود . وإن غدا لناظره قريب .

(١) المرجع السابق ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

٥- الإلحاد والإباحية :

مما هو معروف وملاحظ على الحضارة الغربية أنها أوغلت في التحلل والإباحية ، وقد تكلمنا على مثل ذلك في فصول سابقة ، وهذا التخبط في الجنس وفي العلاقة بين الجنسين ، بين الغلو والتفريط ، انعكس على الحياة وعلى استقرارها ، وتسبب في مصادمة الفطرة ، وإتلاف الحياة الاجتماعية برمتها ؛ لأن العلاقة بين الجنسين ، واستعدادات الإنسان وميوله ورغباته ، تحكمها فطرة يستحيل أن تعتدل وتطمئن إذا كانت العلاقة بين الجنسين غير مستقرة ، أو إذا كانت تتأرجح تبعاً للشهوات والميول الحيوانية ، أو تستند إلى الجهل والضعف والهوى .

كما أن لتلك العلاقة دخل كبير في بناء صرح الأخلاق الإنسانية ، وضبط موازين العفة والكرامة ، التي تؤدي إلى الاستقرار والسعادة في تلك الحياة ، ففي الانحلال والإباحية يدب الفساد في أرواح الناس ، ويطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها تغيير جذري ، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة ، التي كانت تذخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري ، ثنائية في النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة ، ثنائية الشك والتعيين ، ثنائية الضيق والسعادة ، ثنائية الأهداف العليا والضيايق الحيوانية .

ولا يمكن لإنسان هذا شأنه أن يتحمل كثيراً هذه الضغوط ، وإذا تحملها لا يكون معها مبدعاً أو مستقراً أو حضارياً . وكل باحث وكل مفكر لا يملك نفسه إزاء هذه المفاصل إلا أن يحذر منها ويستنكر ..

ولهذا يقول الأستاذ كرد على : « عقلاء الغربيين يقبحون عادة التبدل التي صار إليها بعض النساء عندهم ، لما ينبعث عنها من المفاصل الاجتماعية ، التي لا يسع مكابر إنكارها ، وأى عقل سليم تجرد من المؤثرات يقول مثلاً بالرقص الغربي ، وما يتبعه من مخاصرة وضم وشم ؟ وإذا كان الرقص فناً من الفنون ، كما يقولون ، ليس فيه ما يدعو إلى مواقف التهم ، فلم لا يرقص الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة . على حين جعلوا من أمهات قواعده أن يرقص الرجل مع المرأة ، ولولا نزع الحجاب

ما التفتت المرأة إليه ، أو شغل الناس به ، وما كانت تبلغ الفتنة هذا الحد^(١) وقد أدرك علماء الغرب في أوروبا وأمريكا ما تصير إليه أممهم من دمار .

يقول الأستاذ بيترم ساروكين — مدير مركز البحوث بجامعة هارفرد — في كتاب له صدر أخيراً بعنوان : « الثورة الجنسية » : إن أمريكا سائرة بسرعة إلى كارثة الفوضوية الجنسية ، كما يقرر أنها متجهة إلى الاتجاه نفسه الذى أدى إلى سقوط الامبراطورية الإغريقية ، ثم الامبراطورية الرومانية فى الزمان القديم . ويقول فى ذلك الصدد (إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس ، يُغرق فى غرفة من بناء ثقافتنا وكل قطاع من حياتنا العامة » وهذه الثورة التى تعبر بنا ، آخذة فى تغيير الحياة كل رجل وكل امرأة فى أمريكا ، أكثر من أى ثورة أخرى فى هذا العصر »^(٢) ومن ذلك ماجاء فى صحيفة « الأخبار » (عدد ٢٦ محرم ١٣٧٧ ص ٢) تحت عنوان : عالم أمريكى يقول إن المرأة الأمريكية باردة « حيث نقلت الصحيفة ماصرح به الدكتور جون كيشلر — أحد علماء النفس الأمريكيين فى شيكاغو حين قال : « إن ٩٠ فى المائة من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسي ، وإن ٤٠ فى المائة من الرجال مصابون بالعقم . وقال الدكتور : إن الإعلانات التى تعتمد على صور الفتيات العارية هى السبب فى هبوط المستوى الجنسي للشعب الأمريكى .

ومن شاء المزيد فليرجع إلى تقرير لجنة الكونفرىست الأمريكية لتحقيق جرائم الأحداث فى أمريكا ، الذى نقلته مجلة « التحرير » العدد ٢٣٤ ، تحت عنوان : أخلاق المجتمع الأمريكى منهارة ، وهو يشير إلى ارتفاع نسبة تعاطى المخدرات بين الأحداث ، وانتشار الحانات التى تقدم الخمر ، وكتب الجنس ، وقصص الجنس ، وأفلام الجنس ، وانتشار نوادى العرا بكثرة مخيفة على الشواطىء الشرقية خاصة ، ومن شاء فليرجع إلى تقرير اللجنة التى شكلها مجلس العموم البريطانى ؛ للتحقيق فى مشكلة الشلوذ الجنسي ، فانتهدت من بحثها إلى اقتراح إباحتها بعد الواحد

(١) الإسلام والحد.مارة الغيبة كرد على ص ٩٢ .

(٢) المصور المصرى العدد ١٦٨٩ ص ٤ .

والعشرين « (١) .

وهذه الإباحية المطلقة نشأت من تركية الإلحاد . وإثارة نزعة الحيوانية في الإنسان ، ففي خلال القرن التاسع عشر ، عندما بدأت الحضارة الغربية تأخذ مجراها ، ظهر دارون وفرويد وكارل ماركس جميعا ، وكانت لإباحتهم وتوجيهاتهم المنصبة كلها على اغتيال عقيدته ، وإثارة حيوانيته ، فعل الشيطان في تلك المجتمعات ، في ثقافتها ، وفي غرورها ، وفي شرودها ، ولهذا نسمع البروفسور « أترنى » يقول تلك القولة المغرورة المجنونة : —

« لأى شئ يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحاق ؟ ينبغي أن يكون إلهنا أيضا ألمانيا » (٢) .

وماذا كانت عواقب هذا الغرور الألماني والصلف الآرى ، إنه كان الدمار والنازية والخراب والهلاك ، وكذلك من على الدرب سائرون .

٦ — ضياع الروحانية : —

بروز الحيوانية وضياع الروحانية كان سببا في بعد الحضارة عن الإنسان ، وعن تحقيق رغباته الحقيقية وموائمة فطرته البشرية ، والحقيقة أن الحضارة الغربية فقدت من أول يوم برزت فيه إلى الوجود النبع الصافى لهذه الروحانية الفعالة ، التى تعمل عملها في خلق حضارة سليمة للإنسان ، ولهذا نسمع المودودى يقول في ذلك بعد دراسة مستفيضة لتلك الحضارة :

« ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معين صاف ، ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح دينى ، لو حاول أن يسير بالنوع

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها د . محمد محمد حسين ص ١٠٤ ط دار الإرشاد .

(٢) ماذا خسّر العالم بالخطا المسلمين للندوى ص ٢١٣ ط دار القلم .

الإنسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له أن يكون حجر عثرة وسدا فى سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك ، أن الذين كانوا يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة ، والاختبار ، والقياس ، والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى فى حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها فى طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولكن ضلت خطواتهم الأولى فى كل جهة وفى كل مجال ، وانصرفت فتوحهم فى ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم فى سبيل الفكر والنظر ، إلى غاية لم تكن صحيحة .

إنهم بدءوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا فى الكون على أنه ليس له إله ، نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شئ .

إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختيار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومديريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنييتهم وتهذيبهم ، وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا لإلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلافة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك ^(١) .

وبهلاكها تهلك الإنسان معها ، بعد أن تعذبه ، وتستعبده ، وتضلله ضلالا بعيدا ، وفى هذا المجال يتكلم أستاذ الحضارة فى العصر الحديث : يقول أرنولد توينبى :

« إن منافسة الأيدولوجيات للأديان على اكتساب ولاء الجماهير يعنى العودة إلى عبادة الإنسان ، بعد أن حرته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ، ليتجه

(١) ماذا خسر العالم بالخطوات المسلمين ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ط دار القلم .

إلى الله وحده ، فإن الحضارة الغربية تعيد الإنسان مرة أخرى إلى سجن المجتمع . لقد استطاعت الأديان أن تفهم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واعتبار .

وقد أوجدت الأديان أساسا لتحرير الإنسان من آثار المجتمع ، ووضعت مباشرة أمام مسؤولياته في علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة ، واستطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجارها فيها الأيدلوجيات ، لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخلق بالطموح والراحة الروحية ، وحررته من سجن المجتمع ، ومن ثم فلا غنى للإنسان عن الأديان ، ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين ، لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلا من الجد والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي^(١) .

ولهذا فإن ضياع الروحانية جر معه ضياع الإنسان . ضياع حريته وكرامته ، ضياع قيمه ، ضياع فطرته ، ضياع سعادته .

فماذا يجنى الإنسان بعد ذلك ، وعلى ماذا يبقى أو يذر ، ولهذا نرى كثيرا من الناس إزاء هذا الحال يفضل في ساعات ضيقه الانتحار على البقاء في هذه الحياة ، ولو كان عنده ملء الأرض ذهباً .

٧ - الإخلاق إلى الترف والنعيم :

من أمراض الحضارات الترف والنعيم ، الذى يلفت الناس عن الجد والكفاح ، وعن مقارعة الخطوب وتخطى الصعاب .

فتضمّر في الإنسان اللاحضارى شهيته في الإبداع والإتقان والابتكار ، ويصيبه الترهل الفكرى والعقلى ، الذى ينعكس على تصرفه وحياته ومجتمعه وأمته .

إن صفات الإنسان الحضارى تحتاج إلى تربية ومغالبة وترويض ، كما تحتاج إلى

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى ص ٨٠ ، ٨١ ط الاعتصام .

صبر وتعود وكفاح ، وهذا كله لايتأتى إلا بالبعد عن ميوعة المترفين وتسبب المنعمين .
إن الإنسان الذى لايعرف الجهد المبذول ، أو المعاناة المطلوبة ، لإيجاد عظام
الأمور ، وبديع الاختراعات والمصنوعات ، لا يستطيع صيانتها ، فضلا عن إنشائها
ولإيجادها ، وإنما جل مايعيش فيه ، أو يفكر فى نطاقه ، هى أحلام اليقظة ، والعيش
على السراب والأمانى الكذاب .

كما أن الترف والإيغال فى النعيم لايعيش ولا ينمو إلا فى المفاسد والشهوات
وتفاحش العلاقات . وهذه الأشياء بذاتها تقضى على القوة النفسية والجسدية
والإبداعية ، بل والصحية للأمة .

وهذا ماحدث فعلا فى أتم الحضارة ، حيث نرى الأستاذ المودودى يقرر
هذا . فيقول :

« إن أول ما جره تمكّن الشهوات من الفرنسيين ، اضمحلال قواهم
الجسدية ، وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ،
وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد
أجحف بصحتهم ، فمن أوائل القرن العشرين لايزال حكام الجيش الفرنسى يحفضون
من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوبة فى المتطوعة للجندى الفرنسى على فترة كل
بصع سنين ، لأن عدد الشبان الوافدين بالمستوى السابق من القوة والصحة لايزال
يقل ويندر فى الأمة على مسيرة الأيام ، وهذا مقياس أمين يدلنا — كدلالة مقياس
الحرارة فى الصحة والتدقيق — على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة
الفرنسية (١) »

وكذلك يقرر « كندى » هذا المعنى نفسه فى الولايات المتحدة الأمريكية ،
فيقول فى تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢ : إن مستقبل أمريكا فى خطر ، لأن شبابها
مائع منحل غارق فى الشهوات ، لايقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، ولأنه من بين
كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين !! لأن الشهوات التى

(١) الحجاب ص ١١٣ .

غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية . ولننظر إلى ما هو أخطر وأبشع من ذلك .

اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية إلى فصل ٣٣ موظفا من موظفيها ، لأنهم مصابون بالشذوذ الجنسي ، ولأنهم — بهذه الصفة — غير مؤتمنين على أسرار الدولة ، وكذلك نرى في إنجلترا نفس الشيء . فنرى في قضية بروفيموا : تعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر ، لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات ، وكذلك نرى نفس الشيء في روسيا .

صرح خروشوف سنة ١٩٦٢ — كما صرح كندى — «بأن مستقبل روسيا في خطر !! وأن شباب روسيا لا يؤتمن على مستقبلها ، لأنه مائع منحل غارق في الشهوات^(١)». وكذلك نفس الشيء في دول أوربا ، التي نرى فيها عصابات الشباب المنحل الغارق في الشهوات ، الذي يدخن ويدمن الحشيش والأفيون ، ويغرق في الجنس إلى أم رأسه ، ويهيم في الطرقات تنتابه العلل النفسية التي يتخلص منها دائما أو غالبا بالانتحار .

وما هذا إلا للضياع الذي أورثه الترهل والترف والإيغال في النعيم ، والفراغ ، وفقدان الهدف ، والجري وراء الأهواء والشهوات .

٨ — الانحطاط الخلقي :

ولقد كان من مستلزمات الترف والنعيم الفساد الخلقي ، الذي يقضى على كل تقدم وكل طموح ، حيث عند فساد الأخلاق يصبح كل شيء مشروعا ، وكل أمر مباحا ، فالسرقة ، والرشوة ، والظلم ، والنهب ، والخسة ، والنفاق ، وهتك الأعراض ، وذبح الحرمات ، وفضح البيوت ، وتقطيع الأوصال ، والتأنيق ، والتخنث ، والعهر ، والفسق ، تكون بضاعة العصر الرائجة ، وتجارته النافقة ، وسلعته المقبولة ، وحينئذ تبلغ الأمم أو الحضارات هذا الدرك ، تكون قد تودع منها . وفي هذا يقول القائل :

(١) انظر في هذا جاهلية القرن العشرين ص ١٩٧ ، ١٩٨ ط وهبة .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويعصور داربر الأمريكي ضياع الحضارة الرومانية ، ويعزو ذلك إلى الترف ، وذهاب الأخلاق ، وفساد النظم السياسية والاجتماعية ، فيقول : « لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارا ، وكان مبدأهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن هو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهر بأواني الذهب والفضة المرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوانى عاريات كاسيات ، غير متعففات ، تدل دلالة ، ويريد في نعيمهم حمامات بازخة ، وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولايزالون يتصارعون حتى يجر الواحد منهم صريعا ، يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين روضوا العالم أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة ، التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساعة القتال بقوة ساعده ؛ فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأموال ، ويعين إيرادات الإقطاع ، وأن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعا كالذى نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها » (١).

وفي هذا المعنى ، وعلى هذا الرأي ، يؤكد جميع علماء الحضارات ، الذين كتبوا في أسباب نهوضها ونكوصها ، ولهذا يقولون جميعا ، ويحذرون من تدنس الأخلاق في الأمم ، ويعدون ذلك من كوارث الحضارات . كما يعدون التقدم الخلقي

(١) التاريخ القديم بين الحياة والعلم ٢ / ٣١ ط لندن سنة ١٩٢٧ ، مادا خسر العالم بانحطاط المسلمين للنندوى ص ١٨٢ ص ١٨٢ ط دار القلم .

علامة بارزة وقوة دافعة لبناء الحضارات واستمرارها . فيقول ألبرت شفايتزر : —

« التقدم الأخلاقي هو جوهر الحضارة ، حيث تتجه الإرادة الإنسانية نحو الخير المادى والروحي للأفراد ، والمجاميع التي تضم هؤلاء الأفراد ، أو الخير للجزء والكل ، بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية ، أما التقدم المادى فلا يعد الجوهر الخالص للحضارة ، إذ يحتمل الشر والخير على السواء^(١) » . وحول هذه الأسباب المتقدمة التي تؤدي إلى انهيار الحضارات توجد أسباب أخرى ، تتصل بتلك الأسباب ، وتؤدي إلى نفس النتيجة منها :

٩ — الإغراق في الجنس .

١٠ — إهدار القيم .

١١ — المساواة بين الرجل والمرأة .

١٢ — الظلم والعبودية .

١٣ — اختفاء الابتكار والروح الخلاقة .

١٤ — الانتحار الجماعي ، ويكون بشيئين :

أ — تحديد النسل وانخفاض نسبة المواليد .

ب — عدم الاستقرار النفسى .

١٥ — الغرور الإنسانى ، ويتمثل ذلك فى : —

أ — الظلم .

ب — الأنانية .

ج — تفضيل الجنس .

١٦ — الانحطاط الكامل ؛ لفقدان المؤهلات للتقدم .

١٧ — سير الحضارة اليوم على سنن الحضارة الوثنية اليونانية القديمة .

(١) الإسلام والحضارة للمجندى ص ١٣١ ط الاعتصام .

البحث الثالث الحضارة والانتحار العلمي

لابد أن يتساءل الذين يعيشون تلك الحضارة عن مدى ماتقدمه هذه الحضارة للإنسان ، في الحفاظ على حياته ، وعلى أمواله ، وعلى سعادته في الدنيا والآخرة .

وأن يتساءلوا عن اهتمامات تلك الحضارة وعن وجهتها ، ومن ثم فهل من الأفضل أن تبنى الحضارة المساكن والمرافق ، وتستغنى بذلك عن بناء الرجال . ونجد هذا التساؤل كذلك على لسان الغربيين أنفسهم ، أكثر من غيرهم ، فيقولون : « هل من الأفضل كثيرا أن نوجه اهتمامنا إلى أنفسنا ، أو أن نبني بواخر أكثر سرعة ، وسيارات تتوفر فيها أسباب الراحة ، وأجهزة راديو أقل ثمنا ، أو تلسكوبات لفحص هيكل النسيم الذي على بعد سحيق . وما هو مدى التقدم الحقيقي الذي نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين في ساعات قلائل ؟ هل من الضروري أن نزيد الإنتاج بلا توقف ، حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من الأشياء التي لاجدوى منها ؟

ليس هناك أى ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء ، والنظام الأخلاقي ، والصحة ، والتوازن العصبي ، والأمن ، والسلام » (١).

ولكن هل تقتصر سلبيات الحضارة على أحوال الإنسان ، أم أنها ألقت على كاهله أعباء جديدة ، وأثقلته بضغط ناء بها كلكله ، وعجزت عنها أعصابه .

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٥٧ ط مؤسسة المعارف بيروت .

يقول روجيه جارودى : « إن حضارتنا تقوم على أسس خاطئة ، فنحن فى المرحلة الأخيرة من الحضارة التى لا تكاد تبدأ مازلنا لانعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية ، ولا أن نسيطر على وسائلنا . إن حضارتنا تقوم على هذه الموضوعات الثلاث :

— تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك .

— تحيل الفكر إلى الذكاء .

— تحيل اللانهاى إلى الكم .

إنها حضارة مؤهلة للانتحار ، انتحار لفقدان الهدف ، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات ، وانتحار المراهقين بأعداد أكبر فى الأصقاع الأغنى .

انتحار ؛ لإفراط الوسائل ، يبرهن على ذلك مثلا المنظور الجائر لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث ، وذلك نتيجة لازمة لتصور لا يرى فى الطبيعة شيئا آخر ، سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة ، والمنظور يتصرف بوسائل هدم الحضارة بهذين الاعتبارين ^(١) .

انتحار ؛ لإفراط الوسائل الذى يؤدى إلى فقر الوسائل التى يحتاجها هذا الإنسان البائس فى الحياة . فكان كالغريق الذى يموت من العطش ، وهو فى بطن الماء ، لأن الماء العارق فيه مالح آسن عفن .

ظلم باسم الحضارة :

ما إن بزغت شمس الحضارة الأوربية حتى أطل معها قرن الشيطان ، وانطلق المغامرون بما صنعوا وما جيشوا واستعدوا لنهب الدول الآمنة والشعوب المسالمة ، التى تقبع فى أرضها ، لاتبغى على أحد ، ولا تتناول على إنسان فضلا عن أمة أو شعب ، فإذا بحظها العائر ، يوقعها فى قبضة هؤلاء المتحضرين ، ليسيموها الذل والهوان ، ويأخذوا اللقمة من فم الشيخ والضعيف والمريض والصغير ، ويستعبدوا من

(١) حوار الحضارات روجية غارودى ص ٤٢ ط منشورات عويدات بيروت .

يقدر على العمل ويأخذوا ثروات الأمم ويتركوها بقلعا .

وقد أفرد (ستورت مل) فصلا في كتابه ، لإيضاح أهداف المستعمرين الدخلاء من المتحضرين الذين نكبت بهم الدول الآمنة المطمئنة ، فكانوا قدرها العاثر وحظها المنكود .

يقول فيه : « إن الاستعمار بالنسبة للبلدان القديمة الغنية هو إحدى أفضل العمليات التجارية التي تستطيع ممارستها ،... وأنا أقول : إن فرنسا وهي جد غنية تفيد من النظر في هذا الجانب من المسألة الاستعمارية » .

ثم يسأل السيد كميل بلتان : ماهي هذه الحضارة التي تفرضها طلقات المدافع ؟ « يجيب (جول فرى) ... أيها السادة ، علينا أن نقول بصوت أعلى ، ويمزج من الحق ! يجب أن نعلن بصراحة أن للشعوب العليا حقا تجاه الشعوب الدنيا ... !! » (١)

حق الشعوب العليا ، كما يسمونها ، القهر ، والاستعباد ، وأخذ الثروات ، وهتك الحرمات ، والإذلال . والبغى ، والعريضة . حق الشعوب العليا شرب الدماء ، وأكل لحوم البشر ، والصلف ، والغرور بعد ذلك ، ولا رقيب ولا حسيب ولا ضمير . ونحن لا نحب أن نضيف شيئا على هذه الوثائق ، وإنما ندعها تتكلم ، وتنطق ، وتخطب دعاة الحضارة والمتشدين بها . ولنبدأ برسالة المارشال (سان أرنوا) الذي يقول فيها عن جولاته في المغرب العربي : « لقد اتسع النهب الذي بدأه أولادنا الجنود ، وامتد بعدئذ إلى الضباط ، وعندما أخليت « قسطنطينة » اتفق كما يحدث دوما ، أن آلت الحصاة الأغنى والأكبر إلى قيادة الجيش ، وإلى ضباط الأركان العامة » .

« الاستيلاء على « قسطنطينة » تشرين الأول ١٨٣٧ » : « إنهم يخربون ، ويحرقون ، ويهدمون البيوت ، ويقطعون الأشجار » .

« منطقة ميلانيا — حزيران ١٨٤٢ » . « لقد تركت بعد مروى حريقا

(١) هذه النصوص ينظر فيها حوار الحضارات ص ٦٤ .

هائلا . فقد كانت القرى كلها ، وهى قرابة مائتين ، قد احترقت ، وعاث الفساد فى بساتينها ، وقطعت أشجار زيتونها » .

« القبل الصغير — أيار ١٨٥١ » ^(١) .

وإليك ماكتبه الكولونيل « فوريه » سنة ١٨٤٣ : « انطلقت سبع كتائب من (ميلانا) و (تشرشل) ، بغية أن تعيث فى الأرض الفساد ، وتخطف أكثر ماتستطيع من القطعان ، ولا سيما من النساء والأطفال . فقد كان الحاكم ، وهو « بوجو » ، يريد بث الذعر بين السكان ، بإرسالهم إلى فرنسا » ^(٢) .

وفيما يل شهادة الكولونيل « منتياك » فى « رسائل جندى » : « يعيش « لامورسيير » يقول : « إن هذا الجنرال الشاب الذى لا يقف فى وجهه عائق ، هو الذى اخترق الموقع فى لحظة من الزمان ، واقتلع العرب من محابثهم فى دائرة من ٢٥ ميلا ، وسلبهم جميع ما يملكون ، من نساء وأطفال ، وقطعان وماشية الخ » (١) شباط ١٨٤١) .

وفى منطقة مسكرة فى السابع عشر من كانون الثانى « لاحقنا العدو ، وانترعنا منه النساء والأولاد والماشية والقمح والشعير » « تسألنى فى فقرة من رسالتك عما نفعل بالنساء التى نأخذهن . إننا نحتفظ بقسم منهن رهائن ونبادل قسما لقاء الخيول ، والباقي يباع بالمزاد بيع حيوانات الذبح » .

ونذكر بعد ذلك . شهادة كونت « دى هاريسون » ، فى كتابه بعنوان « صيد البشر » ص ١٣٣ ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٩ « فيصف عمل إحدى الكتائب التى شارك فيها ويبدو أنه شعر ببعض النفور : « صحيح أننا كنا نعود بملء برميل صغير من الآذان المقطوعة مثنى مثنى من أجساد الأسرى ، أصدقاء كانوا أم أعداء وكانت هناك دروب من القسوة لم يسمع بها أحد من قبل ، إعدامات أمر بها من أمر

(١) هذه النصوص يظر فيها فى رسائل المارشال « سان أرنو » الجزء ١ ص ١٤١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٦ ص ٢ ص ٨٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ — وهذه الحوادث كان مسرحها المغرب العربى الإسلامى فى فترة الاستعمار .
(٢) انظر محلات افريقية للكولونيل (فوره) ص ٣١٠ .

بيرودة ، ونفذهما الجلادون بيرودة ، بعبارات نارية ، أو بضربات سيف ، تنال أولئك المساكين ، الذين كان أعظم ذنب اقترفوه — أحيانا — أنهم أرشدوننا إلى مستودعات فارغة ... وقد أحرقنا القرى التى مررنا بها ، وكان أهلها قد هجروها ، وعشنا فيها سلبا وهدما ، وقد اقترفنا جميع هذه الأعمال الهمجية ، دون إطلاق لعيار نازى واحد ، لأن السكان كانوا يفرون قبل وصولنا ، وهم يبعدون قطعانهم ونسائهم ويهجرون قراهم . لقد أباد ثلاثة ضباط فرنسيون هم « كافياك » و « بيليسيه » و « سان أرنو » فى سنة واحدة ، وفى ثلاث نقاط مختلفة ، ثلاث قبائل عن بكرة أبيها « رجال ونساء وأطفال » ، حين التجأت إلى المغائر ، وذلك بإحراقهم وخنقهم بالغاز وهم أحياء .

وفى ١٩ حزيران ١٨٤٥ التجأت قبيلة (ولد رياح) ، بعد أن طردتها كتائب (بوجو) المحرقة من قراها إلى مغارة . فعمد الكولونيل « بيليسيه » إلى إشعال النار فى فوهة المغارة طوال الليل والنهار .

وإليكم رواية شاهد عيان : « من ذا الذى يستطيع وصف هذه اللوحة ؟ أن ترى فى منتصف الليل وفى ضوء القمر ، كتيبة من الجيوش الفرنسية تضرم نار جهنم كلما خبت . وأن تسمع الأنين الخافت لرجال ونساء وأطفال وحيوانات . تمزق الصخور المتكلسة التى تتشقق وتتهار ... وفى الصباح عندما عمدوا إلى تنظيف مدخل المغار ... كانت ثمت جنث الأبقار والحمر والخراف ... وبين البهائم كان يتكدس تحتها رجال ونساء وأطفال . وقد شاهدت جثة رجل يضع ركبته فى الأرض ، ويده تمسك متشنجة بقرن بقرة ، وأمامه كانت امرأة تحتضن طفلها بين ذراعيها . لقد اختنق هذا الرجل عندما كان يحاول حماية أسرته من غضب هذا الحيوان ... وقد عدوا ٧٦٠ جثة ... » (١) .

حضارة ، وأى حضارة ، وأية قلوب تلك ، وأية مشاعر ، إنها مشاعر الشياطين والأبالسة وقلوب الوحوش . بل الوحوش أكثر رحمة وأقل افتراسا من هؤلاء الغلاظ الشداد المتسلحين بالفتك والدمار والبغى والعلم .

(١) انظر حوار الحضارات روحه عاربدى ص ٧٢ — ٧٦ ط عويدات لبنان .

أين هذا من الحضارة الإنسانية الغامرة ، ومن قول رسولها الخاتم : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ^(١) ، وقوله « دخلت امرأة النار في قطرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » ^(٢) . وأين هذا من سيرة أصحاب الحضارة ودعاة الإنسانية الذين يذكرهم الكتاب قوله ﷺ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ ^(٣) ، وقوله ﷺ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﷺ ^(٤) ، وقوله ﷺ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ؛ لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﷺ ^(٥) .

إنها حضارة الإنسان ، وحضارة القيم ، وحضارة الرحمة ، لاحضارة الظلم والبغي والدمار .

حرب السموم :

لم يقتصر حرب هؤلاء المتحضرين على الأسلحة ، والجيش ، والمعارك ، وسفك دماء الأبرياء ، وحرق النساء والأطفال ، وإهلاك الحرت والنسل ، بل تفتق ذهن هؤلاء العباقرة عن حروب أخرى ، تستنزف قوى الشعوب ، وتريق الحياة من بين أرجلهم وأيديهم ، حرب السموم ، التي تخدر الناس وتسلب إدراكهم وعزائمهم ، وتهدي قواهم وحيويتهم . ولقد كانت سبيل المحتل الأوربي واحدة في كل مكان . إنها سبيل حرب الأفيون ، حيث اتخذها الفرنسيون والألمان والإنجليز ضد الصين ، ليفرضوا عليها تجارة المخدر . « وقد أعقبت ذلك حربان سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٤٤ ، أتاحتا للأوروبيين ألا يفرضوا على الصينيين حرب الأفيون وحسب ، بل انفتاحها أمام التجارة الأوربية كلها ..

وقد كانت جيوش الغزو المكلفة بفرض تجارة الأفيون تضم وحدات عسكرية ،

(٥) الحجرات / ١٣ .

(٣) التوبة / ١٢٨ .

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٤) آل عمران / ١٥٩ .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

أرسلها « بالمرستون » من إنجلترا ، يدعمها قسم من الأسطول الأمريكى ، وقد اهتبلت فرنسا فرصة المعاهدات غير المتكافئة المفروضة على الصين بعد حرب الأفيون الأولى ، للإسهام فى تجزئة الصين ، واقتسام التركة بمعاهدة « فامبو » سنة ١٨٤٤ . ثم وضعت يدها على مقاطعة صينية : شبه جزيرة الهند الصينية ، وأدخلت إليها تجارتها ومبشرها وجنودها . وقد منحت الإدارة الفرنسية نفسها حق احتكار صناعة الأفيون وتوزيعه .

وإليكُم مثلا البلاغ رقم ٨٧٥ « س . آ . أ » الصادر فى ٢٢ تموز ١٩٤٢ عن المقيم السامى فى « تون كين » إلى المقيمين فى المقاطعات المنتجة للأفيون : « يمكن تلخيص دوركم على النحو الآتى : تشجيع الزراعة ، ومراقبة المزارع ، ومعرفة دقيقة قدر المستطاع للمساحات المزروعة ، والقضاء على التجارة السرية » .

وقد نهض المستعمرون الفرنسيون بهذا العمل التمدنى بنجاح متميز ، تدل عليه الأرقام التالية ، وقد كان استعمال الأفيون نادرا تقريبا فى الهند الصينية قبل الغزو :

المبيع سنة ١٩٣٤	٢٩٣٢٦ كغ
المبيع سنة ١٩٤٠	٧١٧٣٦ كغ
الإنتاج المحلى سنة ١٩٤٠	٧٥٦٠ كغ
الإنتاج المحلى سنة ١٩٤٤	٦٠٦٣٣ كغ

ولم يتناول النسيان تجار الخمور الفرنسيين ، بل إن الإدارة الفرنسية فرضت استهلاك الكحول إجباريا فى الثامن من أيلول ١٩٣٤ ؛ لزيادة الواردات : « لقد قررت الإدارة أنه بدءا من اليوم يجب على كل دائرة أن تستهلك سبعة لترات من الكحول فى السنة . وكل قرية لا تشتري كمية الكحول التى تحددها الإدارة ستعتبر بمثابة من يمارس التهريب ، وسيعاقب أعيانها . وسيكون عدد اللترات التى ينبغى توزيعها على كل قرية متناسبا مع عدد الدوائر ، بمعدل ٧ لترات لكل نسمة فى الدائرة ولا مندوحة من دفع كامل المبلغ المتوجب ثمنا لكمية الكحول المسلمة ، سواء أبيع

كلها أم لا » (١).

ولقد كانت فرنسا قبل دخول الجزائر تستورد القمح من الجزائر ، وكانت جيوش الثورة والامبراطورية تتغذى بالقمح الجزائري .

وما إن وصلت فرنسا إلى الجزائر مستعمرة ، حتى أبادت القمح ، وفرضت على البلد الإسلامى الذى تحرم ديانتة الخمر ، زراعة الكروم بدلا من القمح لإنتاج الخمر ، وبذلك قضى على الاقتصاد الغذائى ، الذى كانت تنتجه الجزائر من قبل ، وأصبحت الجزائر تستورد القمح بعد أن كانت تصدره ، وربطت فرنسا مصير الجزائريين بالخمر وإنتاجها والارتزاق منها ، والشرب والسكر والعريضة ، والتخلى عن المهمة والكرامة ، إلى أن قاوم الشعب الجزائرى ذلك بعد جهاد مرير ، فقد فيه أكثر من مليونى شهيد ، وذاق الحرمان والتشريد على يد هؤلاء المتعلمين المتحضرين ، الذين تولوا الوصاية على البشرية والهيمنة على الإنسانية ، فأذاقوها عذاب الهون ، وآلام الاستعباد ، وشقاء النفس والجسد .

الانتحار العلمى :

العلم اليوم أصبح سلاحا ذو حدين ، يستطيع الإنسان أن يستعمله فى الخير ، ويستطيع كذلك أن يستعمله فى الشر والإفساد ، والضابط ذلك هو الإنسان نفسه ، الإنسان بما له من عقل أو شهوة ، بما له من نوازع ورغبات ، وأمانى وغايات ، فإذا فقد الإنسان الرغبة فى الخير والصلاح ، وافترق إلى المبادئ والمثل والأهداف العليا ، زاغت نفسه ، وانحرفت طبيعته ، واعتلت ملكاته ، وفسد ذوقه ، ولم تزده العلوم والمخترعات إلا ضررا ، كما أن السيف فى يد الأخرق لا يزيده إلا خبالا وإفسادا وبغيا .

وهذا ما حدث فعلا عند أمة الحضارة الغربية الحديثة ، التى لم تزدهم الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك ، واستعانة على الانتحار .

ولسنا وحدنا الذين نحس بهذا ، ونصلى ناره ، نحن وأمثالنا من الأمم التى

(١) انظر حوار الحضارات ص ٥٥ ، ٥٦ ط عويدات .

تسمى بالنامية ، بل شعر بهذا ، وحذر منه ، ولفت إليه ، أصحاب الحضارة الغربية أنفسهم ، فنرى رئيس وزراء بريطانيا السابق « مستر إيدن » يصف ذلك ، ويفصح عنه في بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م ، فيقول : « إن أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية . ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها ، وإنى أتعجب في بعض الأحيان ، وأقول : كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر ، وهبط إلينا ، فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا ، وتبادل الأنباء عنها ، ويخبر بعضنا بعضا كيف تستعمل هذه الآلات الجهنمية » (١).

ويقول الكاتب الإنجليزي المشهور « سيدنى لو » سنة ١٩١٢ ، يصف الاستعمار ، ويصف فظائع وانحرافات الدول المتحضرة إزاء الأمم الشرقية ، فيقول : « ما أشبه غالب الدول الأوربية في سلوكها هذا الذى ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات ، إزاء الأمم الشرقية ، بعصاة من اللصوص ، يهبطون على المحال الآمنة ، فيشخون فيها القتل ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب ، وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوى الشاكي السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة !! ففى خلال عشرين عاما ثارت نائرة الاستعمار فى أوروبا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء ، فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً » (٢). حضارة وعلم ، ولكنها لا تعرف التحضر ، ولا تأخذ منه إلا اسمه ، لاتعرف رقة الحاشية ، ولا تعرف نبل الغاية ، وسمو الهدف ، ويقظة الضمير .

إنما الذى تعرفه هو الاستفادة من التجارب ، واستثمار العلم ، والبحث فيما يعود عليهم بملء بطونهم ، وانتفاخ جيوبهم ، وزيادة أرصدتهم ، وإن كان على

(١) ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ص ٢٤١ .

(٢) الرسالة الخالدة لعزام ص ٢٠١ « عبد الرحمن عزام » ط .

حساب ضياع الحقوق ، ونهب الشعوب ، وضياع الحرمات ، وسفك الدماء .
وإنما الذى يسيل له اللعاب وتلهث وراءه المطامع ، هو المادة ، هو الذهب ،
وإن كان ملوثا بدماء الجياع والمحرومين ، وإن كان .

يقول الكاتب الأمريكى « لو ثروب ستوارد » ، فى كتابه « حاضر العالم
الإسلامى » : « إن مبادئ الحرية التى سادت فى العرب ، ونودى بها غالب القرن
التاسع عشر ، قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية ،
فمزقتها شر ممزق ، وبددت صورها كل مبدد ، إذ أخذ التزاحم يشتد ، والتنازع
يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل ، فاشتعلت الحرب الكونية العظمى ،
واشتد نهم أوروبا وجشعها ، للتوسع فى الفتح والاستعمار ، ومناطق السيطرة ، ونيل
الامتيازات ، وامتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثل » (١).

واشتعال الحرب ، وتسخير العلم فى تلك الحرب ، كان لإشباع النهم الاقتصادى
والسياسى ، ولإرضاء الغرور القاتل ، الذى يسيطر على أفهام هؤلاء الكهنة
المتسترين فى الحضارة ، وفى مظاهرها الخادعة .

وحروب اليوم ليست كحروب الأمس ، ومعارك المتحضرين لا تقاس بمعارك
المتخلفين فى الماضى السحيق ، لأن معارك اليوم عملية استخدمت فيها العقول
البشرية والإلكترونية ، والنظريات العلمية ، والاكتشافات الذرية والهيدروجينية
والنوترونية ، ومعارك الأمس كانت بدائية سطحية ، لأن الأهواء بالأمس كانت
محدودة ، وهى اليوم غير محدودة ولا محصورة .

ولأن الحضارة قد استعملت العلم فى اختراع آلات ، تبرز جميع الآلات
والمخترعات فى التدمير والقتل ، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله فى الهول والفظاعة . فمن
هذه الآلات والمخترعات القنبلة الذرية ، التى جربتها أمريكا على رؤوس البشر فى مدينة
هيروشيما ، وبعدها فى نجازاكي فى اليابان ، ففى صباح ٦ آب سنة ١٩٤٥ م
أغار ثلاث طائرات أمريكية على مدينة هيروشيما ، البالغ تعداد سكانها

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

٣٠٠ ألف نسمة ، وألقت عليها أول قنبلة ذرية ، وفي صباح ٩ آب سنة ١٩٤٥ م أغارت الطائرات الأمريكية على مدينة ناغازاكي ، البالغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة ، وألقت القنبلة الذرية الثانية وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) في ٢٠ أغسطس ١٩٤٩ أن الذين هلكوا في اليوم السادس من أغسطس ١٩٤٥ من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتي ألف وأربعين ألفا . وأن الذين هلكوا في القنبلة الثانية على ناغازاكي ٣٦ ألفا ، والذين جرحوا بلغوا ٤٠ ألفا ، وقد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الهول ، ولا هذا الحجم من الدمار والخراب وسفك الدماء ، الذى تسببه الحضارة ، ويسببه تقدمها العلمى فى هذا الجحيم المصوب صبا على هذه الإنسانية المسكينة ، التى كتب عليها أن تعيش هذا العصر النكد ، الذى فاق كل وحشية وحيوانية .

يقول المستر « استورت » فى مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيادة ، فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٥ م . يقول البروفوسور « بلسك » : « لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التى انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغى أن يفحص فحصا طبيا ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوما ، ويقرؤوا فى الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت فى الذين يسكنون على آلاف الأميال من اليابان » .

ويقول البروفوسور « م .ى .أولى فنيت » : معلم جامعة برمنجهام ، وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية : « من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية ، إن المبادئ التى قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل الدول . إن بريطانيا وأمريكا استفادت بتجارب السابقين ، وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولكنها لا تدوم سرا حربيا إلا لأجل معدود ، لأن كل بلاد صناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية فى مدة خمس سنوات ، وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها ، فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها فى سنتين » .

ويقول البروفوسور المذكور : « وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على

مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار ، وستلبيها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع في التوق منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل فقط من هذا القليل تكفى في تدمير انجلترا على بكرة أبيها ، وإن العلماء الروسيين ينجحون في إعداد القنابل في مدة قصيرة جدا .^(١)

وقد اخترعت أمريكا قنابل أخرى أشد هولاً من القنبلة الذرية ، في القوة ، والتدمير ، والفتاعة ، مثل القنابل الهيدروجينية ، والنترونية ، وغيرها . وقد اخترعت كذلك القنابل العنقودية والفراغية وغير ذلك من القنابل ، التي تتقدم كل يوم ، وتحقق إبلاها يفوق كل احتمال وتوقع وخيال .

وقد ذكر المستر شارلس — س — ولسن سكرتير وزارة الدفاع الأمريكية سنة ١٩٥٤ م ، أن نتائج تفجير القنبلة الهيدروجينية لا تكاد تصدق .

وقد ذكر مستر لويس استراس رئيس لجنة القوى الذرية في أمريكا سنة ١٩٥٤ م : « أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبديد مساحة مدينة نيويورك الواسعة .

وقال العالم الطبيعي الشهير ، ونائب رئيس الأمن ، اللواء صاحب « سنج » في دلهي الجديدة : إن أربع قنابل هيدروجينية ، وزن كل واحدة منها مائة طن ، تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض »^(٢). يتقدم دعاة الحضارة ، ولا ينامون الليل ، ولا يهدؤون بالنهار ، ليخترعوا آلات الدمار والهلاك ، ويطوروها ، ويحسنوها ، حتى تقضى على أكبر عدد ممكن من البشر .

وقد يسائل الإنسان نفسه : كيف أن العلم عند هؤلاء يؤدي إلى الانتحار ، وعند غيرهم كان رحمة وهداية وفتحاً ومنة ونعمة .

يجيب على تلك التساؤلات « اللورد لوثن » ، في خطبته التي ألقاها في حفل توزيع الشهادات بجامعة عليكر ، فيقول : « يطلع الإنسان بفعله على القوى السرية

(١) ماذا خسّر العالم بالمخطاط المسلمين ص ٢٤٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

لهذا العالم الطبيعى وبهىء الوسائل لاستخدامها . وهذه القوى الجديدة التى يمتلكها الإنسان برق هذه العلوم ، إذا أخذ يستعملها فى حياته العملية اليومية فذاك يقال له رقى المدنية ، ولكن هذين الأمرين فى ذاتهما لا يضمنان فلاح الإنسان وسعادته ، إذ أنهما كما يكونان سببا لفلاحه قد يكونان سببا لهلاكه ، لكن كان الإنسان قد صار يعمل بالميكنة بدل أن يعمل بيده ، ويقطع المسافات بالقطار الحديدى والسيارات والسفن البخارية والطائرات بدل أن يقطعها على ظهور الأنعام ، وصار نظام بريده يجرى بآلات البرق واللاسلكى بدل محطات البريد القديمة ، فليس معناه أن الإنسان قد عاد أسعد وأرضى مما كان فى الغابر ، لأن هذه الأمور كلها كما قد تزيد فى سعادته ورفائه ، قد تزيد أيضا فى نكبته وهلاكه ، وأن دور المدنية الذى لم يكن يملك فيه الإنسان من آلات الحرب إلا الرمح والسيف ، لم يكن يضمن من أسباب الهلاك والدمار ما يضمنه هذا التمدن الذى قد اخترع الإنسان فيه من تلك الآلات المدافع الرشاشة والغازات السامة والطائرات والغواصات . أما أن يكون رقى العلم والمدنية مبعث السعادة أو سبب النكبة والهلاك ؛ فالأمر موقوف على الحضارة السائدة ، التى يتم فى ظلها ارتقاء العلوم والفنون والمدنية والتحضير ، وإن الحضارة هى التى تبين فى الحقيقة طريقة الارتقاء ، وتحدد غاية أعمال الإنسان ، وتعين كيفية الانتفاع بما يكتشف الإنسان من القوى ، وهذه هى التى تقرر نوعية العلاقة بين الناس ، وهى التى تضع المبادئ للحياة الاجتماعية ، وتسن قوانين الأخلاق فى دائرة الشئون الفردية والقومية والدولية ، وبالجمله إن الحضارة هى التى تؤهل الذهن الإنسانى للحكم فى أمر القوى الحاصلة بفضل رقى العلم ، بأنه قد يدخلها فى نظام مدنيته ، ولأى غرض وبأية صورة يستخدمها ، وماذا يختار من وجوه استعمالها المختلفة ، وماذا يرفض^(١)

والحقيقة أن نكبة الحضارة المتسلحة بالعلم ليست نكبة هينة ، أو يمكن تجاوزها إذا وقعت ، وإنما هى نكبة ماحقة مدمرة ، لاتبقى ولا تذر ، ولم يكن العلم فى عصر من العصور ، ولا فى حضارة من الحضارات ، لعنة كما كان فى هذا العصر وتلك الحضارة ، ولم يكن الإنسان المتعلم أو المثقف فى كل حقبة التاريخ ومر الدهور

(١) نحن والحضارة الغربية ص ٨٧ ، ٨٨ ط دار الفكر . المودودى .

والأزمان لعنة ودمارا كما هو اليوم وفي ذلك الزمان ، وكأن العلم شيطان تقمص إبليس ، أو هلاك تلبس بقارعة .

ويوضح هذه الحقائق ، ويحذر منها ، بعد أن هالهم ما صنعه العلم — بل ما صنعه بأيديهم ، وتوصلوا إليه بعلمهم — بعض علماء الذرة . فمازالت الصيحة التى أطلقها « أونهايمر » العالم الأمريكى ، الألمانى الأصل ، الذى توصل إلى إنتاج القنبلة الذرية ، تدوى فى آذان كل عالم ذرة إلى اليوم ، ولكن ولات ساعة مندم . حينما وقف « أونهايمر » يرقب تجربة القنبلة الذرية من بعيد ، فى صحراء ترينيتى بولاية نيومكسيكو الأمريكية ، هاله مارأى ، فصرخ بأعلى صوته : « ياإلهى ماذا صنعت ؟ » لكثرة مارأى من الهول ومن الدمار والفرع .

وكذلك صرخ من جاء بعده ، من أمثال « جوناثان شيل » ، وغيره ، عند رؤيتهم هذا الهول الذى لا يتصور : « ياإلهى ماذا صنعوا بنا » ، وقد ألف « جوناثان شيل » فى ذلك الهول وتلك الطامة كتابا أسماه « مصير الأرض » ، شرح فيه كثيرا من الحقائق التى يجب أن يتوقف عندها الإنسان طويلا . وكان من تلك الحقائق قوله : « هذه القنابل الذرية صنعت لاستخدامها كسلاح جديد فى الحروب ، ولكن مغزاها أكبر من الحرب ، وكل أسبابها ونتائجها ، لقد نبتت هذه القنابل من التاريخ ، وهى تهدد اليوم بوضع نهاية لهذا التاريخ . لقد صنعها الإنسان ، ومع هذا فهى تهدد بإبادة الإنسان . لقد أصبحت قبرا كبيرا يمكن أن يسقط فيه العالم كله . إنها الخصم الرهيب الذى يقف فى وجه كل نوايا الإنسان وأعماله وآماله . الحياة وعددها التى تهددها القنابل الذرية بالابتلاع ، هى التى تستطيع أن تعطينا المقياس الصحيح لخطورة القنبلة الذرية ودلالاتها

وبعد أن يمضى المؤلف فى وصف الدمار والخراب والموت الذى يحدثه الانفجار النووى بعد ثوان معدودة للمنطقة التى تعرضت للانفجار ، ينتقل إلى الحديث عن الدمار الذى سيحل بالكرة الأرضية وما فيها ، وما عليها ، نتيجة الإشعاعات الذرية ، التى تنطلق بعد إلقاء قنبلة ذات قوة انفجارية توازن ٥٠٠ فيجرتون أو ٤٠ ألف مرة أكبر من قوة القنبلة الذرية ، التى ألقيت فوق هيروشيما فى

الحرب الثانية — وهذه الإشعاعات الذرية تنتشر بعد الانفجار في الأرض والجو والبحر ، وفي خلايا وجذوع وعظام وجذور وأوراق كل شيء حى ، وتظل تنفجر داخلها لأجل غير مسمى ومن بين الآثار التى ستنتج عن الانفجار الذرى ويتعرض لها العالم كله ، ارتفاع ملايين الأطنان من الأتربة إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى ، ومن المحتمل أن يؤدى هذا إلى انخفاض درجة الحرارة على سطح الأرض ، أما الأثر التالف من الآثار التى ستتعرض لها الأرض بعد الانفجار النووى ، فهو — طبقا لتوقعات العلماء — دمار جزئى لطبقة الأوزون ، التى تحيط بالكرة الأرضية فى طبقات الجو العليا ، وطبقة الأوزون التى تحيط بالكرة الأرضية ذات أهمية حيوية بالنسبة للحياة على الأرض ؛ لأنها تحمى سطح الأرض من المستويات المميتة المهلكة للإشعاعات فوق البنفسجية .

والسؤال الأول الذى يطرحه جوناثان ، وهو يمضى بنا فى حديثه عن المصير الذى ينتظر الأرض ، ونحن نحكم على الآثار الناتجة عن الاحتراق النووى ، لايمكن عنده فى تحديد عدد الذين تعرضوا للإشعاعات الذرية ، أو الذين احترقوا ، أو سحقهم اللهب حتى الموت ، نتيجة للآثار المباشرة للانفجار النووى ، ولكن السؤال هو عن مدى صمود الطبقة الحامية للأرض ، والتى تعتمد كل أنواع الحياة عليها فى وجودها واستمرارها ، فالقضية إذن هى قضية صلاحية الأرض للحياة . فى هذا الإطار ينبثق السؤال عن بقاء البشرية واستمرارها ، وليس الإطار أبدا المنبجحة ، التى سيروح ضحيتها مئات الملايين من البشر ، نتيجة للآثار المحلية للانفجار ، وإذا وقع هجوم نووى واسع النطاق على الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فسوف يحدث دمار ، شامل للبيئة الطبيعية على نطاق لم يعرف له مثيل منذ العصور الجولوجية الأولى ، وتتحول أمريكا إلى جمهورية للحشرات والأعشاب . وبالرغم من أنه قد يبدو من غير المناسب أن نتحدث عن « الحضارة » بنفس الروح التى نتحدث بها عن الموت لمئات الملايين من البشر ، إلا أنه لابد من الإشارة على الأقل إلى أنه فى حالة حدوث حريق نووى على نطاق واسع فى نصف الكرة الشمالى ، فسوف تنتهى حضارة أوروبا

والصين واليابان وروسيا وأمريكا ، وستزول تماما عن سطح الأرض » (١)

أى انتحار هذا ، وأى هلاك ودمار تتعرض له البشرية ، وتقع في حباله ، وما الذى جر على الإنسانية هذا الوبال ، أى جنون وخبال هذا ؟ إنه جنون جماعى .. جنون لا يتميز بالصرخ والثورة ، ولكنه واضح بالتحديد ، وجلّى بالأعمال ، نسيز به إلى الهاوية ، كما لو كانت الناس والأمم واقعة تحت مخدر . فنحن الذين نؤلف ، ونحن الذين نعانى من مصائرنا ، ونحن الذين نخترع ، ونحن الذين سنباد ونهلك ، ونحن الذين نحفر الهاوية ، ونصنع الخراب ، بدون إكراه ، ولا إرهاب ، أو تخويف . هل يصدق هذا عاقل ، وهل يفعل ذلك سَوَى ١٩ ولكنها هى الحقيقة التى تعيشها الحضارة الحديثة ، ويعيشها معها ساستها ومفكروها والقائمون عليها ، السائرون في جنباتها .

أى قيمة لحضارة إذا لم تنشئ سلاما ، أو محبة ، أو وئاما ، أو سعادة وجمالا ، وأى قيمة للعلم إذا أضل العقول ، وسلب الأفهام ، وورث الخبال والجنون والدمار ، وكان سببا في الانتحار ، والهلاك ، وصناعة الأهوال ، ونسف الحياة ، واجتثاث الحرث والنسل ١٩

إن الإنسان البدائى استطاع أن يحافظ على الحياة نقية هنية صالحة عامرة ، ثم أسلمها إلى من بعده ، بعد أن بذل جهده على طريقة تطويرها وتحسينها وتقديمها ، فما بال المتحضرين المتعلمين والمتمدين يفسدون الحياة ، ويقدمون الدمار والموت وزوال الحياة ، ويقطعون النسل منها ، بل ينسفونها بما عليها من نبات وحيوان وإنسان ، أليست هذه من أعاجيب الجهالات والضلالات ، بل من أعاجيب أعاجيب الحضارات ، أو تسمى بالحضارات .

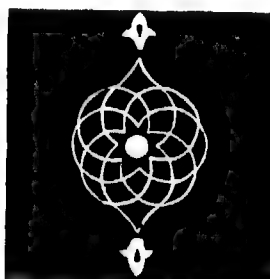
(١) مصير الأرض تأليف « جوناثان شيل » عرض وتلخيص : منير نصيف . العربى الكويتى ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ العدد ٢٨٦ سبتمبر ١٩٨٢ م .

في ١٨ من يونيو سنة ١٩١٦ ألقى (رايندرانات تاغور) محاضرة في جامعة طوكيو ، خاطب فيها الشبيبة بقوله : « إنكم لا تستطيعون أن تقبلوا الحضارة الحديثة كما هي . إن واجبكم أن تدخلوا عليها التغير الذي تتطلبه عبقريتنا الشرقية . وواجبكم أن تبثوا الحياة حيث لا يوجد إلا الماكينة ، وأن تستعوضوا بالقلب الإنساني عن حسابات المصلحة الباردة ، وأن تتوخوا الحق والجمال حيث لا سلطان إلا للقوة الغاشمة والنجاح اليسير . إن حضارة أوروبا حضارة نهمة ومسيطرة ، تلتهم الشعوب التي تغزوها ، إنها تبيد تفنى الأفراد والشعوب التي تعوق مسيرتها الفاتحة . إنها حضارة كلها سياسية ، تستسيغ لحوم الآدميين . إنها تقهر الضعفاء ، وتثرى على حسابهم . إنها آلة للطحن . إنها تبذر — أينما ذهبت — الحسد والغيرة والشقاق . إنها تصنع الفراغ حوها . إنها حضارة علمية لا إنسانية . ومصدر قوتها أنها تركز جميع قواها صوب غاية واحدة : الثروة ، وتحت اسم الوطنية لا تراعى كلمة الشرف . إنها تمد بلا خجل شباكهها ، ونسيجها الكاذب ، وتقيم للمعبود الهائل البشع المعابد المشيدة للكسب والمنفعة ، ونحن نتنبأ — دون تردد — بأن هذه الحضارة لن تدوم أبداً ؛ لأن في العالم قانوناً أخلاقياً مهيمناً ، ينطبق على الجماعات ، كما ينطبق على الأفراد ، وإهدار كل مثل أعلى في الأخلاق ينتهي بأن يؤثر في كل عضو من أعضاء الجماعة ، ويولد عدم الثقة والاستهتار ، ويحطم في الإنسان كل ما هو مقدس ، إنها تمرد على القوانين التي سنّها العليّ القدير . إنها لا تستطيع أن تنتهي إلا إلى « كارثة »^(١)

المجتمع المتحضر هو المجتمع الأخلاقي ، أو « المدنية الفاضلة » بتعبير الفارابي . وهي تلك التي يجعل أهلها أمور السياسة خاضعة لقانون الأخلاق ، ويدأبون في أفكارهم وأعمالهم على الإنصاف إلى صوت الضمير ، ولا يرب أن العلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية هي اليوم ألزم من علوم المادة ، التي هي أدنى إلى أن نكون خطراً يهدد الناس ، في مجتمع ما يزال أهله على جهل بأنفسهم . ومن البين ، كما يقول مالك بن نبي ، أن تربية إنسان متحضر وإعداده أصعب من صنع محرك ، أو تعويد قرد على أن يلبس رباط رقبة .

(١) المسلم المعاصر الكويت ص ١٥ العدد ٣ .

إن الروح هى التى تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم . وحيث تغيب الروح يكون السقوط والاضمحلال ، لأن ما يفقد القدرة على الصعود لا يمتلك إلا أن يهوى منجذبا بثقل لا سبيل إلى مقاومته . والدين هو « مجتمع » القيم الاجتماعية ، ولكنه يقوم بهذا الدور فى حال نشأته وانتشاره وحركته ، حين يعبر عن فكر الجماعة . أما حين يصبح الإيمان مطويا بغير إشعاع ، أعنى حين يصير إيمانا فرديا ، فإن رسالته التاريخية تنتهى على الأرض ، إذ يكون عاجزا عن تحريك دفعة الحضارة ، ويصبح إيمان متعبدين ، يعزلون أنفسهم عن الحياة ، ويهربون من واجباتهم ومسؤولياتهم .



الفصل الثالث

**أسباب انحطاط المسلمين
حضاريا**

أسباب انحطاط المسلمين حضاريا

على مدار التاريخ ، وعلى طول مسيرة الأمة الإسلامية ، لم يعهد لها انتصار إلا بالإسلام وحده ، وبالإيمان له ، والتطبيق الحسن لتعاليمه . ولقد أعطاه الإسلام دفعة ، ظلت تشق طريقها بتلك الشحنة ، إلى أن نفذ الوقود ، وقل الزاد ، ولم تحاول الأمة أن تزود أو تستقيم ، وبين يديها الوحي والرسالة ، وترفرف عليها السنة والهداية ، ثم خلف من بعد الهداة المهتدين خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وما أن جاء القرن الرابع عشر الهجري ، حتى كان الوجود الإسلامي يعاني من علل مبرحة وأسقام عظيمة ، وكان جسد الأمة الإسلامية يترنح ذات اليمين وذات الشمال ، ولم يُجد في علاجه بعض المسكنات التي كانت تعطى له بين الحين والحين .

وسقطت الدولة الإسلامية سقوطا مروعا ، وظهر واضحا أن العلل الداخلية والانحيار العقائدي هو الذي عجل بهذا الختام الكئيب المؤلم ، وهذه النهاية المفزعة .

ومع أن الدولة قضت إلا أن الأمة بقيت تواجه مستقبلها ، وشرعت الجماهير تتلمس الطريق إلى مستقبل أشرف ، وتتغلب بمجهود شديد على العقبات الكثيرة التي تسد أمامها المنافذ ، وتمنع عنها الهواء النقي والضوء الكاشف .

وإذا كان أغلب البلاء جاءنا من عند أنفسنا ، فيجب أن تتجه الجهود إلى الإصلاح الداخلي قبل أن تفكر في الوقوف أمام العدو الخارجي . فإنه إن ظلت أدواؤها الداخلية متمكنة على جسامتها ؛ فلن — ولم — يعد ذلك الجسم يصلح للحياة المستقيمة .

من أجل ذلك نريد إلقاء نظرة صريحة فاحصة على أسباب تخلفنا ، بعد أن

كنا طليعة معجبة رائدة ، ولا يجوز أن نخجل من إحصاء عيوبنا وأمراضنا وعللنا ؛ إذا كنا نريد الشفاء والرفعة والسيادة والريادة .

ويمكن أن نقول إجمالا : إنه كان هناك قصور متعمد في فهم الإسلام ، شمل عددا من المفاهيم والقضايا ، كما كان هناك إصرار واضح على إضاعة تعاليم تراثنا وعقيدتنا ، والخروج عليها ، ومخالفتها . وكان هناك لفت لهذه الأمة عن طريقها المستقيم ، حتى لا تستيقظ من سباتها العميق ونومها الطويل ، وتلتفت إلى الذئب والوحوش والثعابين ، التي تعيش في الدنيا فسادا ، وتتلأ بقاع الأرض بغيا وعدوانا وضلالا .

حقيقة إن الأمة الإسلامية تداوى عللها اليوم بالعلل ، وتشفى الداء بالداء ، وتروى عطشها وصددها بالحميم والزقوم ، حتى كثرت أمراضها ، وتضاعفت أسقامها ، وتفاوتت بلاياها ، وبيس الطبيب والنطاس ، إلا أن في جعبتها دواؤها السحرى ، وشفائها الربانى ، الذى يستطيع أن يحى العظام بإذن الله وهى رميم . ولم يبق أمامها إلا أن تؤمن به وتداوم عليه ، كما يلزمها أن تحدد تلك العلل ، وتشخص تلك الأمراض التى تنهك جسدها ، وتهلك قواها ؛ ليتم الشفاء ، وأول خطوات الشفاء تحديد المرض .

وقد حاولت جاهدا بعد تصفح عشرات ومئات الكتب أن أحصر تلك الأمراض ، وأشخص تلك العلل . فوجدتها تتلخص فى الآتى :

- ١ — التخلي عن تعاليم الكتاب ودستوره .
- ٢ — ترك السنة والافتداء بالرسول ﷺ .
- ٣ — حصر العبادة فى الشعائر والمناسك دون سائر الأعمال ، وإقامتها مقام الأسباب .
- ٤ — فقدان القوة الروحية .
- ٥ — موقف المسلمين من الدنيا والتزهيد فيها والتنفير منها
- ٦ — اعتبار الزهد بديلا عن الأعمال .
- ٧ — الاعتماد على التواكل وترك الأسباب وإهمالها .
- ٨ — الاهتمام بالجزئيات تفكيرا وعملا ، بدلا من الاهتمام بأهداف الإسلام العامة

ومقاصده وکلیاته .

- ٩ — فساد الأخلاق والانحطاط السلوكی .
- ١٠ — اعتماد العرف والاستغناء به عن التعالیم الدينية .
- ١١ — فصل الخلق عن الحياة العملية وعن مادیات الحياة .
- ١٢ — تخلى المسلمين عن تبلیغ الرسالة فی الداخل والخارج ودراسة أحوال الأمم والاهتمام بها .
- ١٣ — اعتبار الدعوة وظيفة لا رسالة أو عقيدة ملزمة .
- ١٤ — خطورة التسرع فی الإفتاء وإصدار الأحكام .
- ١٥ — الإسلام بین الجامدين والجاحدين .
- ١٦ — میل العلماء إلى الأمراء ، وحب الدنيا ، والعمل لها ، وترك المثل .
- ١٧ — مشاركة العلماء والقادة فی الانحطاط الخلقى والاجتماعی .
- ١٨ — توجيه الضعفاء وأصحاب العاهات والهمم الكلیلة إلى القيام بأمر الدين تعلیمًا وتعلُّمًا .
- ١٩ — الإسلام دين عمل ، لا دين خیال وركود .
- ٢٠ — التصوير الجزئى للإسلام .
- ٢١ — ذهاب الخلافة وتمزق المسلمين .
- ٢٢ — تحکیم العرف فی الشرع .
- ٢٣ — تفضیل العقل على النص .
- ٢٤ — الابتداع فی الدين ، والجمود فی الدنيا ، وترك العكس .
- ٢٥ — إعطاء الحق لغير الله فی التحريم والتحلیل .
- ٢٦ — الفصل بین العلم والدين ، والعلم والإيمان .
- ٢٧ — عدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنکر ، وترك التواصل بالحق .
- ٢٨ — اختلاف أخلاق الخاصة عن العامة .
- ٢٩ — شيوع مبدأ الجبر فی العالم الإسلامی .
- ٣٠ — فساد الأغنياء وتبديد أموال الدولة وقدراتها .
- ٣١ — تخريب وسائل الإعلام ، وعدم استغلالها فی نفع الأمة .

- ٣٢ — الغزو الفكرى الغربى والصهيونى .
- ٣٣ — إهمال الجهاد ومكافحة الظلم والبغى .
- ٣٤ — الجبن والهلوع ، وحب الدنيا ، وكراهية الموت .
- ٣٥ — إهمال الاستعداد واحترام القوة ، وعدم العمل على إيجادها .
- ٣٦ — إغفال الاهتمام بأمر المسلمين .
- ٣٧ — الشح على الخير ، والإسراف على الشهوات والشر .
- ٣٨ — اليأس والقنوط .
- ٣٩ — تقليد المسلمين للغرب والحياة الغربية .
- ٤٠ — إهمال الأعمال وإيقاظ الأمانى وأحلام اليقظة .
- ٤١ — ظهور العصبية ، وبذر المداوات ، وتفضيل الطبقات .
- ٤٢ — إحياء النعرات القومية والعنصرية .
- ٤٣ — غزو أوروبا للمسلمين عسكريا واقتصاديا وأخلاقيا .
- ٤٤ — فهم الاستسلام على أنه قضاء وقدر .
- ٤٥ — فقدان المثل فى نواحي الحياة المختلفة .
- ٤٦ — حب الرياسة وطلب الإمارة .
- ٤٧ — إهمال الشورى .
- ٤٨ — الاستبداد السياسى .
- ٤٩ — العجز الإدارى ، والتسيب ، والمحسوبية .
- ٥٠ — ظهور الإسلام الحكومى ، والإسلام الشعبى .
- ٥١ — بدعة فصل الدين عن الدولة .
- ٥٢ — ادعاء أن بعض أحكام الشريعة لا يصلح تطبيقها ، أو لا يستطيع .
- ٥٣ — إدعاء أن بعض أحكام الشريعة مؤقتة .
- ٥٤ — نقل القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية .
- ٥٥ — الفساد السياسى وتوسيد الأمر لغير أهله .
- ٥٦ — استعمال سلاح الدين للتضييق على أصحاب العقائد الصحيحة .
- ٥٧ — خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم وأمتهم .

- ٥٨ — شيوع الرياء والخنوع والمسكنة .
- ٥٩ — ركود الحركة الاقتصادية وجهل المسلمين بها .
- ٦٠ — فساد سياسة المال في المجتمعات الإسلامية .
- ٦١ — فقدان الإبداع ، وترك العلوم الدنيوية .
- ٦٢ — جمود التفكير العلمى الإسلامى ، وظهور التقليد .
- ٦٣ — قصور الثقافة الإسلامية ، وتلوّثها بينابيع مختلفة .
- ٦٤ — عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة ، وعدم إمكانية التنفيذ إن وجدت .
- ٦٥ — انقطاع نظم التعليم عن الحياة وعن العقيدة وعن المجتمع .
- ٦٦ — السير بالتعليم على النظم الغربية والوثنية الإباحية المناقضة للعقيدة .
- ٦٧ — التقعر في دراسة ما وراء المادة .
- ٦٨ — عدم معرفة مقتضى الحال ودراسة الأحوال والأوقات للبرامج والمناهج .
- ٦٩ — محاربة اللغة ومحاولة التجهيل بها .
- ٧٠ — قياس الإسلام بالأديان المحرفة كالمسيحية .
- ٧١ — ضعف الثقة بالنفس والإعجاب بالغالب .
- ٧٢ — ضعف الأسرة وعدم القيام بواجبها .
- ٧٣ — المعالجة الخاطئة لموضوع المرأة .
- ٧٤ — اعتبار عصور الضعف الإسلامى مقياساً إسلامياً .
- ٧٥ — السطحية في التفكير وفي تقدير الأمور وعدم الدربة فيها .^(١)

(١) انظر في ذلك على سبيل المثال . البداية والنهاية لابن كثير ط دار ابن كثير بيروت ١٤ مجلد وتاريخ الطبرى ١٠ مجلدات ط دار المعارف ، الكامل لابن الاثير ، الإسلام والحضارة العربية تأليف كرد على . لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٦٨ ، أثر العرب في الحضارة الأوربية عباس العقاد ط دار المعارف ، دور العرب في تكوين الفكر الأوربى تأليف عبد الرحمن بدوى ط دار الآداب بيروت ، مؤلفات الدكتور أحمد شلبى وخصوصاً في التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، مؤلفات الأستاذ الشيخ الغزلى ، ومنها كفاح دين ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرننا الخامس عشر ط السلاسل الكويت ، ومؤلفات الأستاذ الندوى ، ومنها ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين ط دار القلم الكويت ، وإلى الإسلام من جديد للندوى ط دار الإرشاد بيروت ، والدكتور محمد محمد حسين في مؤلفاته التى منها حصوننا مهددة من داخلها ط دار الإرشاد ، ومؤلفات الأستاذ المودودى ومنها ، واقع المسلمين وسبل النهوض بهم ط الكويت ، مؤلفات شكيب أرسلان ، ومنها ، لماذا تأخر المسلمون ط عيسى الحلبي ، =

نظرات :

علمتنا التجارب ، وعرفتنا الحوادث والأيام ، أن داء هذه الأمم الشرقية والإسلامية متشعب المناحي ، كثير الأغراض ، قد نال من كل مظاهر حياتها . فهي مصابة في ناحيتها السياسية بالتبعية وحب التقليد من جانب أعدائها ، والحزبية والخصومة والفرقة والشتات من جانب أبنائها ، وفي ناحيتها الاقتصادية بانتشار الربا بين كل طبقاتها ، واستيلاء الأمم الغالبة على أسواقهم . وموادها ، وخاماتها ، ووقوفها موقف المتفرج اللاهي . وفي ناحيتها الفكرية بالإلحاد الذى يهدم عقائدها ، ويحطم المثل العليا في نفوس أبنائها ، والتحلل من عقدة الفضائل الإنسانية التي ورثها عن الغر الميامين . وفي ناحيتها الاجتماعية ، بالإباحية ، والفوضى ، والمروق ، والتسيب ، وعدم المبالاة ، وحب النفس والذات ، وبالقوانين الوضعية التي لا تزجر مجرما ، ولا تؤدب معتديا ، ولا ترد ظالما ، ولا تغنى يوما من الأيام غناء قانون السماء ، وبالفوضى في سياسة التعليم والتربية التي تحول « دون التوجيه الصحيح للنشئ وللرجال والنساء في مستقبلهم ، لحمل أمانة النهوض والتقدم .

وفي ناحيتها النفسية بيأس قاتل ، وخمول مميت ، وجبن فاضح ، وذلة حقيرة ، وخنوثة فاشية ، وشح ، وأنانية تكف الأيدي عن البذل ، وتقف حجابا دون التضحية والإقدام ، وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى طريق اللاهين اللاعنين .

وفي ناحيتها الأسرية ، بالتقليد ، والجري وراء المظاهر والأهواء ، والبعد عن الجدد ، وعن البحث ، وعن تربية أصيلة مقنعة نافعة لخير الدين والدنيا .

وفي أهدافها العليا بترك المثل ، والقيم ، والجري وراء الشهوات واللذات ،

وحاضر العالم الإسلامي ٤ أجزاء ط عيسى الحلبي ، مؤلفات محمد أسد منها الإسلام على مفترق الطرق والطريق إلى مكة ط دار العلم للملايين ، المسؤولية لمحمد أمين المصري ط زهد بن ثابت ، مقالات الكوثري لمحمد زاهد الكوثري ط الأنوار بالقاهرة ، وموقف العقل لصبري ط الحلبي ، الصراع بين الفكر الإسلامي والغربى للندوى ط الدار الكويتية .

واستمرء الهبوط والتخبط .

وماذا يرجى أو ينتظر من أمة اجتمعت على غزوها كل هذه العلل بأقوى مظاهرها وأشد أعراضها ؟ والأعداء يترصدون بها ، ويرقبون حركاتها ، ويكيّدون لها كيدا ، ويمكرون بها مكر الليل والنهار ، فهناك الاستعمار ، وهناك الشيوعية ، وهناك المنظمات الصليبية واليهودية ، وهناك حركات التبشير . وهؤلاء لا يصطلحون على شيء إلا على القضاء على المسلمين ، والإجهاز عليهم ، والتكيل بهم ، إذاً فالمسلمون محاطون من الداخل بأمراضهم ، ومن الخارج بأعدائهم .

وإن داءً واحداً من هذه الأدواء يكفى لقتل أمة متظاهرة ، فكيف وقد تفشت جميعاً في كل الأمة ، لولا مناعة وحصانة وجلادة وشدة في هذه الأمة الإسلامية ، التي جاذبها خصومها جبل العداء من بعيد ، ودأبوا على تلقيحها بجراثيم هذه الأمراض زمناً طويلاً ، حتى باضت وأفرخت ، لولا ذلك لعفت آثارها ، ولبادت من الوجود ، ولكن يأتى الله ذلك والمؤمنون .

وبتتبع هذه العلل الكثيرة والأمراض المتعددة ، وجدنا أنها ترجع إلى عاملين اثنين . عامل داخلي ، وعامل خارجي . وكل له مجاله ومداره وفعله في جسد الأمة فالعامل الداخلي ، ينخر في أوصالها ، ويسرى في جنباتها ، يهلك شريانه وكل عصب وقوة والعامل الخارجي ؛ يمد الداء ، ويشجع العلة ، ويمنع الدواء ، وينهش الجسد العليل .

العوامل الداخلية :

لا شك أن النفوس الكبار ترى رجالاً كباراً ، وتفعل من الأعمال ما يتناسب مع تلك النفوس ، والنفوس الضعاف تدغدغ الرجال والأئم ، وتضعضع الهمم ، والعزائم ، وتلوث الأفعال والأعمال ، ولهذا وجهنا الله سبحانه وتعالى إلى إصلاح أنفسنا أولاً ، والالتفات إليها عند النازلة ، واتهامها عند الملمة : فقال تعالى : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ﴾ (١) .

(١) آل عمران — ١٦٥ .

ودائما أخطر الهزائم وأقوى الانكسارات تكون من الداخل ، وتأتى من الأعماق ، ولهذا لما أراد الله إهلاك بنى النضير ؛ أصابهم بزلزال فى نفوسهم ، ووهن فى قلوبهم ، فصاروا هم يهزمون أنفسهم ، ويهلكون ديارهم ، ويخربون بيوتهم . قال تعالى فى شأنهم وفى بيان حالهم : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ (١) . فلم يؤتوا من نقص فى ذخيرتهم ، أو عددهم ، أو حصونهم ، أو عدتهم ، وإنما أوتوا من قبل أنفسهم ، فصار الخراب عندهم إصلاحا ، وصار الرعب فى نفوسهم جيوشا وكتائب وصواعقا ورعودا . ولهذا حذر الرسول ﷺ المؤمنين من وهن القلوب ، وضعف النفوس ، ونتائج ذلك عليهم ، فقال : « ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) . وهذه قاعدة خطيرة فى ضياع الأمم وذهاب ريجها ، فإن الأسباب الحقيقية لكل سقوط واضمحلال تكون داخلية ، ولهذا قالوا فى الأمثال : ليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها . وكثيرا ما يوجه القرآن الكريم النفوس إلى ذلك بقوله وإشارات ودلالاته ، فيقول عن تلك الأمم البائدة : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣) . والأمم النخرة ، والشعوب الواهنة ، والمجتمعات العليا ، حينما تقع تتجمع عليها الذئاب والكلاب والهوام ؛ ليقضوا عليها القضاء المبرم ، وليجهزوا عليها الإجهاز الأخير .

ولقد بدا واضحا — بعد ضعف المسلمين وذهاب قوتهم — أن القوى المعادية للإسلام تقصد قصدا إلى القضاء عليه والخلاص من أمته ، وجاشت أمانى وأحلام ملوثة فى عقل أعدائها الباطن ، تنشد الويل والثبور والدمار لعقيدة المسلمين وثقافتهم الفكرية والاجتماعية !

(١) الحشر — ٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم رقم ٤١٢٩ .

(٣) هود — ١٠١ .

يقول « شاتليه » في مقدمة كتابه « الغارة على العالم الإسلامى » :

« ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيًا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية » ويشرح هذه الجملة فيقول : أى يجب التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم ، ثم يقول ، المؤلف : وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت إشراف الجامعة الفرنسية .

ويقول السيد جمال الدين الأفغانى في صحيفة العروة الوثقى ص ٥٦ :
« أقول ولا أخشى لوماً : أنه لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنجليز ؛ لما باروحها أبد الآبدين » ويريد بالطلائع الشبان الذين ربوا في أوروبا أو المدارس الحديثة ذات المناهج الغربية . ^(١) ولقد استأسد على المسلمين الجرزان والهوم واليوم والغربان ، وجاءوا إلى بلادهم يقتلون وينهبون ، ويدلون في كل حذب وصوب في البلاد الإسلامية ، وكأنهم ذاهبون إلى نزهة خلوية ، أو رحلة قمرية شاعرية .

انظر إلى نشيد الجند الطليان الذاهين للحرب في طرابلس بليبيا ، حيث يقولون : « أتمنى صلاتك ولا تبكى يا أماه ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين إن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى (طرابلس) فرحا مسرورا ، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان . سأقاتل بكل قوتي لحو القرآن ... يا أماه أنا مسافر ، ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء من بحرنا ستلقى سفائننا المراسى ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسرورا ؛ لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى ، وذلك القطر تحت ظلها » ^(٢) .

أقول : نعم منازل بنا من وهن إنما هو نتيجة فراغ النفوس من العقيدة ، ومن آى الكتاب ، وأنوار السنة ، فانطفأت مصابيح الإقدام والهداية ، وساد الظلام الدامس القلوب والنفوس والمجتمعات ، ونسى الناس المثل الأعلى في رسول الله ، ثم في

(١) المسئولية للدكتور أمين المصرى ص ١٧ .

(٢) لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان ص ٣١ ، ٣٢ ط عيسى الحلبى .

صحابته الأبرار الأنقياء الأنقياء ، وأخفوا دين الله مسكنة وخنوعا ، وقصروا أنفسهم على شعائر ميتة ، لا تحمى روحا ، ولا تزكى قلبا ، ولا تملأ عاطفة ، وأقاموها مقام الأسباب لبلوغ الأهداف ، واعتبروا أشكالها بدلا من روحها ومقاصدها . ففقدوا بذلك القوة الروحية لتلك الشعائر والعبادات ، والمدد الأصيل لكل همة وعزيمة ونهضة ، ولم تورثهم خلقا دينيا سليما ، ينبع من عقيدة صافية ، تسير في الحياة وفي دنيا الناس ، مصلحة عالية سامقة طيبة ، يشم الناس عبيرها ، ويستطعمون جناها ، ويرون رحيقها ، بل ظهرت الأخلاق كنبات شيطاني ، لا يتعهده أحد ، ولا يراعه إنسان يتبع رغبات الناس وشهواتهم ومصالحهم الدنيا ، ويمر تلك الفترة التي يعيشونها تمثيلا مطابقا صحيحا ، وعمت البلوى ، وشارك في هذا الانحطاط الخلقى ؛ العامة والخاصة والقادة والسادة ، والفرد والجماعة ، والمتعلم والجاهل ، حسن الفهم وحسن العمل .

لا شك أن حسن الفهم يورث حسن العمل ، ويوجه الإنسان إلى المسار الصحيح ، وإلى الغاية الراشدة .

فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، كما ورد في الحديث ، وهذه الشعب الإيمانية ليست كمألقى كيفما اتفق ، وإنما هي شعب متفاوتة الخطر والقيمة ، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة للعقيدة والشريعة الجامعة لا يعدوه .

والرسالة الإسلامية لها أركان ونوافل ، وأصول وفروع ، وأعمال قلبية وأعمال جسدية ، وفروض وسنن ، ومنذوبات ومستحبات . والخلط بين هذه الأشياء وعدم فهمها مرتبة ، أو عدم وضع كل في ميزانه وحجمه ، يخل بتوازن العقيدة وصلاحيات الرسالة واستقامتها ، كما يضر بأصحابها ، ويشوش مسارهم في الحياة ، فالسنة مثلا إذا اختلطت بالواجب يجب تركها ، والفرض إذا التبس بالسنة يجب إظهاره والتنبيه عليه ، وتأكيد الفرق بينهما ، وقد يترك الإنسان المندوب والمستحب ، ولا يحاسب عليه أو يعاقب ، بعكس الواجب والفرض .. بل قد تأتى ظروف معينة تخفف الفرض وتمنع السنة ، ففي السفر يخفف الفرض في الرابعة إلى النصف ، ويستبدل الوضوء بالتيميم عند فقد الماء والقعود بالقيام في الصلاة عند عدم الاستطاعة ،

وما إلى ذلك . فالإعنت أو المشقة في مثل هذه الحالات مضرة ومكروهة ومنوعة شرعا . كما أن للشعائر حكما وتكاليف وفوائد ، يجب أن يقف الإنسان عندها ، ويشعر بها .

وعلى هذا ، فكثيرا ما ترى من يحفظون نصوصا ولا يضعونها موضعها ، ولا يجيدون الاستنباط منها ، كما تجد أصحاب رأى يلمحون بالمصلحة ، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ .

وقد تجد حكاما يعملون لصالح الناس ، وإن كان باعهم في التقوى قصير ، وتجد عكس ذلك كثير .

وتجد عبادا يعكفون على العبادات الفردية ، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والنهي والتعرض لغضب الحكام أو ذوى السلطان لاذوا بالصمت الطويل ، والسكون العميق ، وتجد كثيرا من الناس يجولون بالإسلام — وهم قليلي الفقه ، قليلي الذكاء ، كثيرون النشاط — ينطلقون بعقولهم الكليية ، وزادهم القليل ، وفهمهم العليل ، فيسيئون ولا يحسنون . وفي هذا يقول الأستاذ الغزالي :

« ماذا يفيد الإسلام من شباب يغشون المجتمعات الأمريكية والأوربية ، يلبسون جلابيب بيضاء ، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم ، ثم يلعقونها ، أو يلعقون أطراف أصابعهم . وهذا في نظرهم هدى الإسلام ، وهدى الرسول في الأكل والشرب ، والسنة التي يبدوون — من عندها — عرض الإسلام على الغربيين . هل هذه آداب الإسلام في الطعام .

وعندما يرى الأوروبيون رجلا يبغي الشرب ، فيتناول الكأس ثم يقعد وكان واقفا ، ليتبع السنة في الشرب ، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام ؟ لماذا تجسم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله ، وبرز الإسلام على أنه دين ذميم الوجه . ثم إن الدعوة الإسلامية لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية ، مهما كانت مهمة عند أصحابها ، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية ، وليست عبادة .

ومن السماحة عرض الإسلام من خلالها . ووضع النقاب على وجه المرأة تناولته الأخذ والرد ، ولا يسوغ بحال من الأحوال تقديمه عند عرض دين الله على عباده .

وتدبر هذا الحديث الذى رواه البخارى فى أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة .

عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إذ جاءها عراقى فقال : أى الكفن خير ؟ قالت ويحك ! وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين أرينى مصحفك ! قالت : لم . قال : لعلى أولف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك آية قرأت قبله ؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء ، لاتشربوا الخمر لقالوا : لاندع الخمر أبدا . ولو نزل : لاتزنوا لقالوا : لاندع الزنا أبدا ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ - وإني لجارية لعوب : ﴿ بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾ ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السورة .

لكن أناسا يشتغلون بالدعوة لافقه لهم ولأدراية ، يسيئون إلى الدين ولا يحسنون ، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين .

ولقد تطور هذا القصور ، فرأيت بين أشباه المتعلمين ناسا يتصورون الإسلام يحد من جهاته الأربع بلحية فى وجه الرجل ، ونقاب على وجه المرأة ، ورفض للتصوير ، ولو على ورقة ، ورفض للغناء والموسيقى ، ولو فى مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة (!؟).

إن تصوير العادات والأعراف والمندوبات والمستحبات على أنها هى الإسلام ، وعلى أنها الغاية لرسالته ، والهدف من دعوته ، تصور يدعو إلى الشفقة والحزن معا ،

(١) انظر فى ذلك الدعوة الإسلامية تستقبل قربها الخامس عشر للشيوخ محمد الغزالي ص ٦٩ ، ٧٠ ط دار السلاسل الكويت .

تماما كتصور ظل الشجرة على أنه هو الشجرة ، وهو الثمرة ، وهو الجنود والسيقان والأوراق .

إن العقائد والفضائل والأهداف والغايات ، هي التي يجب أن تكون المحور الأساسى للدعوة ، وللنشاط الفكرى للدعاة ، وإن حقوق الإنسان ، وأسلوب حياته ، وطهارة مجتمعه ، وصلته بربه ، وعلاقته مع بنى جنسه ، وسعادته فى دنياه وأخراه ، يجب أن يكون هو المستحوز على اهتمام المسلم وقصده وعمله وطاقته .

ولا يجوز بأى حال إعطاء هذه العادات أكثر من حقها ، أو شغل الناس بها ، أو إلقاء المجتمعات بالجدل فيها والحوار حولها . إن ذلك يمثل جريمة فى حق الإسلام ، وحق رسالته ، وحق المجتمعات المسلمة ، يل فى حق العالم الذى يحتاج إلى نور الإسلام وهديه وسعادته .

شيوع الاستسلام ومبدأ الجبر :

اعتزى الفرد المسلم خاصة ، والأمة الإسلامية عامة ، استسلام غريب للنوازل والمصائب والأحزان ، حتى تحسب أن هذه الأجساد قد فقدت الحياة ، أو شلت التفكير ، أو خدرت بعقار . وإذا حدثت واحدا من هؤلاء قال لك : ماذا نفعل ؟ هذه إرادة الله . أو قال لك مايردده بعض الناس « أنا قلم والأقدار أصابع !! » إذا فالمرء لاحول له ولا قوة ، ولا طول ، ولا قدرة ، ولا إرادة . وإنما هو يحيا بتوجيه خفى أو جلى من مشيئة الله ، التى تدفع به ذات اليمين وذات الشمال ، والتى تهيب له حياة العسر أو حياة اليسر والرغد برغمه . وكما يقول الجبريون : الإنسان كريحانة فى مهب الرياح .

ونشأ عن هذا هدم مريع لقانون السببية ، وانطلق عدد كبير من الناس ، بل ومن الموجهين ، يقيسون الأمور على المعجزات والخواق ، ويشعرون الأمة بأن النار قد توجد ، ولا يوجد الإحراق ، وأن الماء قد يوجد ، ولا يوجد الرى ، وأن السكين قد توجد ، ولا يوجد القطع ، وأن الواجبات العادية قد تتخلف ، وجعلوا الدنيا لا تضبطها قاعدة ، وانطلقوا يقولون :

دع المقادير تجري فى أعنتها ولا تنامن إلا خالى البال

واستشهدوا بما ورد في عصور الضعف والهوان من أقوال وتفسير وأحكام .
وليس يقبل عقلا ولا فكرا ولا شرعا ما يقولون : أن يتزوج رجل في المشرق بامرأة في
المغرب ، ولا يلتقيان ، ثم تلد منه على بعد الشقة ، وينسب إليه الولد ، لأنه قد
يكون من أهل الخطوة ، أو ربما انتقل من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي في لحظة
من ليل أو نهار !!.. وهذا التصور الخبول التائه لا ينضج معه علم ، ولا يصح فيه
بحث ، ولا يملك أصحابه الفكر والأدوات التي يستطيعون بها قهر المادة ، أو يحققون
بها نجاحا عمليا في هذه الحياة . ومن المقرر في العلوم الإسلامية ، وكذلك في العلوم
الكونية ، والتجريبية والإنسانية ، أن قانون السببية قانون محترم .

بل قد أبنا قبل أن المسلمون هم أول من قادوا العالم إلى العلوم التجريبية ،
وكانوا هم رواد المنهج التجريبي ، وما تحضرت الدنيا إلا على أيديهم ، وإلا فبتحهم ،
وطرقهم للأسباب والمسببات التي دلهم عليها القرآن الكريم ، وحشهم على الأخذ بها ،
وقد قدمنا طرفا من ذلك قبل ، وأظهرنا مقدار إنتاج المسلمين في المجال العلمي
والكويني والإنساني . وجاءت عصور الضعف التي يحتاج المسلمون فيها إلى مزيد من
الجد ، ومزيد من النظر والفهم والعمل وطرق الأسباب ، ليجدوا أعدادا مهولة ،
تلفتهم عن دينهم وديناهم بفلسفات وآراء مشبوهة ، وأفكار مريضة مخدرة ، أشبهها
بحرب الأفيون ، الذي كان يستعمل ضد الصين في عصور الاستعمار الإنجليزي .
فها نحن اليوم نحارب بأفيون آخر ، ولكنه أفيون فكري عقائدي ، ولكنه يؤدي نفس
الغرض ، ويزيد عليه ويربو . وكان لذلك أثر مخزن في انهيار حضارتنا ، واختلال
ثقافتنا ، وإحباط عزيمتنا ، وقتل الإبداع والعبقرية والنظر الثاقب الذي امتازت به
الحضارة الإسلامية .

إهدار للشخصية يورث الرياء :

تعرض المسلمون في عصورهم الأخيرة لضغوط شتى ، ناءت بها كواهلهم ،
وانهدت بها عزماتهم ولم يجدوا منها عاصم من عقيدة أو عدالة أو قانون فطأطأوها رؤوسهم
وأحنوا لها أصلابهم وأخضعوا لها جباههم ، وعمت تقاليد الرياء وأساليب المواهنة ،
وانطلق المداحون يكيلون الثناء وينشدون الأهازيج في فضل جلاديهم وعبقريه القاهرين

لهم والآخذين لحقوقهم والراغمين لأنوفهم .

ففرخت الأمة علماء لهم سمت الجهلة ، ودهماء محصورين في طلب القوت والفتات ، ومساجد سامقة يعمرها من لاهم لهم ولا طموح ولا غاية ولا تزكية ولا رسالة . وكأن المسلمون هم الذين تحدث عنهم ذو القرنين ووجدهم دون السدين ﴿لايكادون يفقهون قولاً﴾^(١) .

وانقطع من الأمة الجندي الشجاع والقائد العبقري والعالم البارِع والمخترع المبدع ، والأديب اللامع والمفكر الحصيف وسادت الأجواء روائح الخمول والعجز ، وتصدر الركب المهازيل الكذبة الدجالون ، وانعدمت المثل ، وقل الناصح وعز الأمين وانعدم الشريف . وحر التقى بين ربه ودينه وطهره وشرفه وبين جلاليه ودينه وقوته وضغوط الحياة وزخرف الجاه والمال .

فنسفت الأمة نسفا وتبدلت الأعراف والأخلاق والعادات ، وخر السقف على الناس من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

التقعر في دراسة ما وراء المادة :

خاض المسلمون في عصورهم الواهنة بحورا مغرقة ومحيطات مهلكة في بحوث عقيمة كان لها أثر وخيم على العقل الإسلامي . كما تسببت في لفب الفكر عن البحوث المادية وعن النظر في الواقع المؤلم .

ومن المعروف أن هناك آيات محكمة هي أم الكتاب وهي مناط التكليف الاعتقادي . والعمل والعلمى ، وأنه بحسب المسلمين أن يعتمدوا عليها في حياتهم ومسارهم . وهناك ما تشابه من الحديث عن ذات الله تعالى ، وعن صفاته ، وعن الغيبات مما لا تحيط به عقولنا . فالعقل البشري أعجز أن يفقه حقيقة الروح التي بين جنبيه ، وحقيقة فرحه وحزنه ، وسعاده وشقائه ، فكيف به يريد أن يعرف كنه الألوهية وصفاتها ، ولكن المسلمين شغلوا بأشياء نهوا عنها ، وضل من كان قبلهم من

(١) الكهف / ٩٣ .

الفلاسفة بالخوض فيها ، وقد أوجدت في الأمة كثيرا من أساليب السفسطة والتشكيك والحيرة ، التي زادت المسلمين ضعفا على ضعف ، ووهنا على وهن .
وهذا وأمثاله هو الذى ضرب الأمة داخليا ، ومزقتها نفسيا وفكريا ، وسمح للأمراض والعلل أن تتمكن منها ، وأن تقضى على قواها المحركة ، ونحيوتها المنتجة ، ومثلها العليا .

العوامل الخارجية :

هناك بعض العوامل الخارجية ، عددناها في أسباب انحطاط المسلمين حضاريا ، كان لها أثر ما حق على الأمة الإسلامية ، وعلى حضارتها وتقدمها في شتى المجالات .

من هذه العوامل :

التقليد :

انحدر المسلمون إلى تقليد الأمم الغربية في حياتها ومبادئها وعاداتها ، وشمل هذا التقليد الفرد والأسرة والمجتمع ، وذلك يرجع إلى ما قبل بضعة عقود ، وقد تسبب في ذلك قنوط المسلمين ، وعجزهم ، وانكسارهم أمام قوى الغرب المادية والتقدمية الآلية ، فوازنوا بينها وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الخاصة ، تلك الحالة التي تسبب فيها بعدهم عن العلم والجد والبحث والتعب والنصب ، وساعد على الإيغال فيها ضيق التفكير والاستنتاج السطحي الخالص من أن النظام الإسلامى في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، فيجب أن يحور حسب الأسس الغربية ، أو أن يستبدل بما أنتجته تلك العقول الغربية المبدعة ، التي استطاعت أن تؤسس تلك الحضارة . وهؤلاء السطحيون الذين يدعون التنور ، لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى التبعية التي يتحملها الإسلام ، على أنه عقيدة في تأخر المسلمين ، وأن تلك المبادئ هي التي لا توافق التقدم أو التحضر ، وهل العيب يكمن في الإنسان الذى لا ينفذ ، وفي المريض الذى لم يتناول الدواء ، أم في المبادئ والدواء ؟ إنهم وكما — يبدون — فقراء حتى في تقليدهم ، عجزوا حتى فيما هو تحت أيديهم . ولم تتفتق أذهانهم إلا على الارتواء في أحضان المدنية الغربية ، التي ظنوها

— لعجزهم وقهرهم — أنها هى المخرج الوحيد من ورطتهم وقصورهم . فما زادتهم إلا خبالا ، وما وعدتهم إلا غرورا .

نقل القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية :

الشريعة الإسلامية — بشهادة الأفذاذ من علماء القانون — تمتاز بالكمال ، الذى يسد كل ثغرة فى المبادئ والنظريات التى تكفل سد حاجات الجماعة فى الحاضر القريب والمستقبل البعيد . كما تمتاز بالسمو الذى دائماً يقود الأفراد والجماعات إلى القيم العليا ، وإلى الرقى والاطمئنان والسعادة ، وتمتاز كذلك بالدوام حيث لا تقبل التعديل والتبديل والفصام بين الحاضر والماضى والمستقبل ، ومع ذلك ماتزال متجددة حية غضة ، تعطى كل يوم ، وتشرق كل وقت وحين .

رغم كل ذلك فإن فى الشريعة والفقه الإسلامى من المبادئ والنظريات والأحكام ما لو جمع فى مجموعات لكان مثلاً أعلى فى المجموعات التشريعية . لو وضع موضع التنفيذ فى البلاد الإسلامية لنقلت البلاد الإسلامية إلى آفاق وآفاق ، ولو وضع موضع التنفيذ فى البلاد غير الإسلامية لحل مشاكلهم ، وكفكف حيزتهم ، وردهم إلى فطرتهم ردا جميلا .

ومع كل ما تقدم نجد أن بعض المثقفين ثقافة غربية ، وبعض المقلدين ، وبعض المهزومين يرمون الشريعة بالنقائص ، ويلصقون بها العيوب ، فتراهم يدعون مفتريين عليها ادعاءات معينة منها :

أولاً — إن الدين علاقة بين الإنسان وربه ، ولا صلة له بالحكم ولا بالدولة ، وسندهم فى هذا هو الجهل بالشريعة الإسلامية ، وقياسهم الإسلام على المسيحية ، وتقليدهم للغرب الذى يفصل بين الكنيسة والدولة . والحقيقة التى لا مراء فيها ، التى يعرفها كل من قرأ القرآن والسنة ، أن النظام الإسلامى يجمع بين الدين والدنيا ، ويمزج العبادة بالقيادة ، ويحتضن المساجد والمصنع ، فادعائهم هذا مرفوض ، واختلافهم هذا باطل .

ثانياً — الادعاء بأن الشريعة لا تصلح للعصر الحاضر . يقولون هكذا بغير تعليل

ولا دراسة ولا حجة ، ولو أنهم قالوا إن مبدأ معيناً ، أو مبادئ بذاتها ، لاتصلح للعصر الحاضر ، وبينوا السبب في عدم صلاحيتها ، لكان لادعائهم قيمة ، ولكن من المنطق والمعقول مناقشتهم وإظهار أخطائهم . وصلاح الشريعة بل الشرائع تقرر على أساس صلاحية مبادئها ، وليس في الشريعة مبدأ واحد يمكن أن يوصم بعدم الصلاحية .

فالشريعة الإسلامية تقرر مبدأ المساواة ، كما تقرر مبدأ العدالة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ ، كما تقرر مبدأ الشورى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . كما تقرر مبدأ التكافل ، وتمنع الاحتكار وتحرم الخبائث والخمر ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتحض على التعاون والإخاء والصدق والأمانة وفعل الخيرات .

فكيف يقال إن الشريعة لاتصلح لهذا العصر ، اللهم إلا إذا أرادوا أن تخرج الناس من إنسانيتهم إلى حيوانيتهم ووحشيتهم ، إن الشريعة هي المنقذ الذي ينتظره الجميع ، والأمل الذي يرقبه الجميع ، خلاصاً من الحيوانية والهوان والضلال .

ثالثاً — الادعاء بأن أحكام الشريعة مؤقتة ، ويقولون : إنها نزلت لعصر مضى وذهب ، ونحن اليوم في عصر آخر ، انطلق فيه الإنسان بعقله وحرية وطاقته يفتح الأرض ويطوع العوالم ، وهذا قول يلزمه الحجة والدليل أيضاً . ولا حجة ولا دليل في الحقيقة إلا التقليد وترديد أقوال المستشرقين والطاعنين من الحاقدين على الإسلام والمسلمين .

رابعاً — الادعاء بأن بعض الأحكام لا يستطيع تطبيقها . ويعنون بذلك بعض أحكام الشريعة مثل القطع والرجم ، ويتعللون بأشياء معينة ، منها أنها تدل على شدة ، وأن عدداً من الأجانب موجود عندنا ، وبعض الأقليات غير الإسلامية لا يرتضون بها . وغير ذلك من الأقوال . والعلة الحقيقية تكمن في التهاون في الحقوق والواجبات ، وعدم الأخذ على يد الظالم والمعتدى ، والتخلص من الحق ، وعلة أخرى مهمة ، وهي أنهم يتأثرون بأقوال الغربيين وأفعالهم ونظرياتهم ، وليست لهم شخصية مستقلة .

خامسا — الادعاء بأن الفقه الإسلامى يرجع إلى آراء الفقهاء ، وهم بشر ، ونحن بشر . وهذا ادعاء باطل من أساسه ، فالفقه الإسلامى يرجع إلى نصوصه الثابتة الربانية من قرآن وسنة ، وعمل الفقهاء هو فهم جيد للقرآن والسنة ، وتفصيل لتلك الأحكام ، وتوضيح وبيان . وليس لأحد أن يشرع أو يكذب على الله ورسوله .

وبعد هذه الادعاءات والافتراءات ، رجع هؤلاء في مخلفات من افتنوا بهم من الغربيين ، فنقلوا القوانين الأوربية في البلاد الإسلامية ، وكانوا سدنتها وحمايتها . وترتب على إدخال القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية أن أنشئت في البلاد الإسلامية محاكم خاصة لتطبيق تلك القوانين ، وعين لها قضاة ومستشارون ، ومحاماة وكتب وشروح ، أدى ذلك إلى الجهل بالشرعية ، وترك نصوصها ، وهجر تعاليمها ، كما أدى إلى الاستهانة بالإسلام وراثته وتعاليمه ، ونشأت ثغرة وهوة بين الفرد المسلم وواقعه المعاش وحياته ومجتمعه ، وربطت المسلم بغير عقيدته ووطنه وبيئته ، فخرج جيل مشوه ممزق متهالك .

ذهاب الخلافة وتقطيع عرى التعاون بين المسلمين :

كانت دولة الخلافة في المدينة المنورة بعد رسول الله ﷺ المدد المتصل المتجدد للرسالة الإسلامية والدعوة الربانية ، وماعرفت الدنيا من قبل ولا من بعد أعدل ولا أنبل ولا أشرف من الرجال الأربعة الذين حكموا الأمة الإسلامية في هذه المدة القصيرة الأمد ، وماعرفت الدنيا كذلك مجتمعا يحمل من المثل والقيم والأهداف العليا مثل ما حمل هذا المجتمع الطاهر الذليل النقي الثوب .

ولقد نجحت دولة الخلافة نجاحا ساحقا في إسقاط الطواغيت ، التي كانت تسود العالم ، وتبسط نفوذها على الخافقين ، واستطاعت وأن تقيم للإسلام صرحا مهيبا وحكومة رشيدة ، تعد من الناحية السياسية الحكومة الأولى في العالم .

ولقد لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى ، والإسلام لم يتخط حلود الجزيرة العربية ، بيد أن الرجال الذين رباهم ، والذين يعرفون عالمية الدعوة شرّقوا بها وغربوا ، وذلّوا عقبات كان البصر يحكم باستحالتها وصعوبة تذليلها .

ذهبت دولة الفرس في أيام معدودة وأطفئت نارها ، واخترقها المسلمون إلى ما وراءها ، وسقطت راية الروم عن آسيا الصغرى ووادي النيل وشمال أفريقيا ، وكانت أملاكها ممتدة حتى شواطئ الأطلس غربا ، وآل كل ذلك إلى دولة الخلافة ، وبسطت يدها على هذا الميراث الضخم ، وتولت قيادة هذه الأمم بالإحسان والعدل ، وأخذت الأجهزة الدوارة في الكيان الإسلامي تعمل مجد في تنشئة أجيال مسلمة لحما ودما ، وهو عمل لا ينكره إلا قاصر ، فإن سقوط دولة الفرس والروم أعقبه فراغ نفسى وذهنى كبير ، استطاع المسلمون من أتباع محمد ﷺ أن يتلقفوا شباب وأجيال تلك الدول الذاهبة بالتعليم والتهديب الذكى ، فلم تمض خمسون سنة على اندياح موجة الفتوح ، حتى كانت المدن والقرى مليئة بالمساجد والمدارس ، وحتى كانت شعائر الإسلام بارزة ، وتقاليده موطدة ، وأحكامه مطبقة ، في الشام والعراق ومصر واليمن وأقطار أخرى كثيرة .

بل إن غير العرب سبق العرب أنفسهم في هذه الميادين ، فأصبحت أئمة الأمصار ورواد الفقه واللغة والحديث من الموالي .. وذلك نجاح ما بعده نجاح لتعاليم الإسلام وسماحته وهمة رجاله ، كما نجحت الدعوة الإسلامية والتعاليم القرآنية في إقامة كيان إسلامى ، ذابت فيه الفوارق بين الطبقات والأجناس ، وأعطت كل ذى حق حقه ، وتعاون الناس على البر والتقوى ، وامتنعت الجريئة ، وساد الأمن حتى كان الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . وقامت نهضة في طول تلك البلاد وعرضها ، فتحت مغاليق كل شئ في العلوم والفنون والآداب ، وأضاء العقل — الذى استنار بالإسلام — ظلمات العصور الوسطى ، وبدد جهالات الوثنية الإغريقية والرومانية .

وأعقبت الموجة الأولى للمد الإسلامى موجات وموجات ، ظهر من خلالها قواد عظام ، وجند بواسل ، وكتائب وجيوش ، ثم استداروا إلى الجزر التى تنتشر في البحر الأبيض ، وأخذوا يحرقونها واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغوا إلى عاصمة الروم نفسها ، فحاصروها ردحا من الزمن ولكن القسطنطينية استعصت عليهم ، فما دخلها المسلمون بعد ذلك إلا بعد مرور ستة قرون تقريبا ، لم تحمد خلالها نار

الحرب بين التوحيد والتثليث ، والعدل والظلم ، والحق والباطل ، ثم دخل المسلمون القارة الأوربية من أسبانيا ، وضموها إلى أرض الإسلام ، وبلغت جيوش المسلمين حدود النمسا وألمانيا .

أما في الشرق ؛ فإن المسلمين ولوا وجوههم شطر الصين والهند ، ووقفوا على حدود عالم يموج بالخرافات والترهات والأباطيل وعبادة الحيوان والجماد ، واستطاعوا أن يولوا وجوههم نحو خالفهم وشرط المسجد الحرام ، وامتد العملاق الإسلامى إلى أرجاء المعمورة ، حتى قال خليفة المسلمين مخاطبا السحابة التى تحمل الماء : « شرق أو غربى فسيأتينى خراجك » . وبعد هذا المد وهذه الرفعة وهذا الملك ماذا صار .

الخلفاء :

كان المسلمون فى شدة الشوق إلى الجهاد والفتح ، وفى قمة العبقرية والرجولة الفكرية والذهنية ، ولكن الجهاز الحاكم بدأ يعتريه الوهن والضعف ، وانحدر إلى المتاع الشخصى واللهو والعبث والمجون ، وتدنى إلى الهاوية ، وكان دون المستوى المرموق ، فلم يحسن الاستفادة من العبقرية التى تمهدت له ، والقيادات التى وضعت تحت إمرته ، فشلت همته ، وأبطل حركتها ، فكان مستوى الحاكمين فى دولة الخلافة فى فترة ما دون مستوى دولة الخلافة الراشدة . وقد كان لذلك آثار سيئة على الإسلام والمسلمين ، فكثرت المظالم ، وضاعت الحقوق ، ووهنت الجيوش ، واضطهدت القادة ، وتفرق الجند ، وطمع فى الرياسة والريادة أهل النفاق والعمالة والمجون ، وحرضوا على الإسلام والمسلمين ، وحاقت بالمسلمين الكوارث . يقول ابن كثير فى البداية والنهاية عن سنة ٦٥٦ : « استهلكت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار هولاكو خان ، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدهم على البغادة ، وميرته وهداياه وتحفه ، وكل ذلك خوفا على نفسه من التتار ، ومصانعة لهم ، قبجهم الله تعالى ، وقد سترت بغداد ، ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرهما من الآلات الممانعة ، التى لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئا ،... كما ورد فى الأثر « لا يغنى حذر من قدر » ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا

فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ^(١) ، وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب ، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه ، وكانت مولدة ، تسمى عرفة . جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها ، وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك ، وفزع فزعا شديدا ، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه ، فإذا عليه مكتوب « إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم » ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة ، وكان قدوم هولاكوخان بجنوده كلها ، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلى بغداد في الثاني عشر من المحرم في هذه السنة ، وهو شديد الحق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هولاكو لما كان من أول بروزه من همدان متوجها إلى العراق ، أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنوية ، ليكون ذلك مداراة له عما يريد من قصد بلادهم ، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أبيك وغيره ، وقالوا : إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال ، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير ، فأرسل شيئا من الهدايا ، فاحتقرها هولاكو خان ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور وسليمان شاه ، فلم يبعثهما إليه ولا ألقى بالا به ، حتى أزعج قدومه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية . وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة ، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم ، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ، ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي ^(٢) .

ثم كانت الكارثة التي تقشع منها الأبدان والأرواح ، وكانت المذابح التي لم يسمع التاريخ بمثلها . يقول ابن كثير : « كان أول من برز إلى التتار هو وزير الخليفة

(١) الرعد / ١١ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ص ١٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ط دار ابن كثير بيروت .

ابن العلقمي ، الذي كان على صلة بالتتار ، وكان صنيعه لهم ، خرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بالسلطان هولاكو لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو ، والمثل بين يديه ، لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فاحتاج الخليفة إلى أن يخرج في سبعمائة راكب ، في القضاة ، والفقهاء ، والصوفية ، ورعوس الأمراء والدولة ، والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت ، وقتلوا عن آخرهم ، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فسأله عن أشياء كثيرة ، فيقال : إنه اضطرب من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد ، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي ، والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، ... فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله . ويقال : إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ، والمولى نصير الدين الطوسي ، ... ثم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمناو كذلك أياما لا يظهرون ، وكان الجماعات من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار ، إما بالكسر ، وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطح ، حتى تجري الميازب من الدماء في الأزقة ، وكذلك في المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، أو إلى دار الوزير ابن العلقمي الراضى ... وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة ، فقيل : ثمانمائة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف^(١) .

وهكذا تسبب ضعف الخلفاء ، وخيانة الوزراء ، وطمع المنافقين ، في كارثة مروعة للمسلمين وللدولة وللخلافة ، كما تسببت الخلاعة والبعد عن الرجولة وترك

(١) المرجع السابق ١٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢ .

الجهاد والهوان في الذل والاستعباد المخزى . وهذا مثل من أمثلة المسلمين وعيرة من عبرهم التي تتكرر بتكرار أسبابها ، وكأنها تذكرهم بقوله تعالى : ﴿ وإن عدم عدنا ﴾ ، إلى أن جاءت العصور الأخيرة والعصور الحديثة ، فانفرط عقد الخلافة ، وتقطعت أوصال المسلمين وديارهم ، وأصبحت دولة الخلافة حوالى ٢٢ دولة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فهل يرجى من جسد تقطع ، وبدن تمزق ، ونفس تشتت ، قوة أو غلبة أو صمود في وجه عدو ، أو حتى دفاع عن النفس ، هيبات هيبات ، إلا إذا اجتمع الشمل ، وضم الشتات ، واتحدت الكلمة ، وساد الكتاب .

حب الرياسة وطلب الإمارة :

من الرذائل المنكرة التي انتشرت في تاريخنا في أيام الانحطاط : حب الرياسة ، وطلب الإمارة ، مع أن الإسلام رهب من هذه الرذيلة ، وبين أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ، أو يتوسل إليه بما أمكن ليناله ، وهو كليل الهمة ، قاصر المواهب ، قصير النظر ، مريض بحب الظهور ، مصاب بداء العظمة ، مطعم بمكروب الرياسة .

وقد رهب الإسلام من الإمارة والرياسة . فعن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » (١) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرزعة وثبتت الفاطمة » (٢) . وعن أنس « من طلب القضاء واستعان عليه بالشفاعة وكل إلى نفسه ، ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » . أخرجه ابن المنذر والترمذى وأبو داود وابن ماجه (٣) .

(١) أخرجه البخارى ومسلم ، البخارى ٨ / ١٠٠ ، عيني ١١ / ٣٧٩ مسلم ٢ / ٨١ .

(٢) رواه البخارى ٨ / ١٠٠ ، وعيني ١١ / ٣٧٩ ، عسقلانى ١٣ / ١١١ ، ١٠ / ٢٦٧ عسقلانى ١٠ / ٢٢١ .

(٣) إرشاد السارى ١٠ / ٢٢١ ط دار الفكر .

وعن أئى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يا أبأ ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تؤمرن على اثنين ، ولا تلين مال اليتيم » رواه مسلم وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرطهما (١).

رغم أن الرياسة أمانة وتبعة ومسئولية ؛ إلا أنها طلبت وسخرت فى سبيل المطامع الشخصية والشهوات والأهواء ، فأنتجت مردودا ماحقا على المجتمع والأمة ، وعلى الأفراد والجماعات ، وكانت نارا أحرقت كل نبت صالح ، وكل صرح سامق ، وبناء شاهق ، وأتت على كل خير وبر حتى جعلته كالرميم .

إهمال الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن الحق :

فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة حازمة ، لا فكاك منها ولا تفلت . ورغب الحق سبحانه فى الجهاد فى سبيله ، وحض عليه ، ووعد المجاهدين المقاتلين والشهداء الثواب العظيم والفوز المبين ، جزاء ما قدموا فى سبيل الحق سبحانه ، وما قاموا به من حفظ القيم ، والدفاع عن المثل ، ودحر الباطل ، وإزهاق الكفر ، وقد كان كل نصر عظيم وفتح مبين عربونه دماء الأبطال الزاكية الطاهرة ، نعم هى عربون كل عزة وكرامة وتأييد وسؤدد .

ولهذا توعده الله المخلفين القاعدين بأفطع العقوبات ، ورماهم بأبشع النعوت والصفات ، ووبخهم على الجبن والقعود ، ونعى عليهم الضعف والتخلف ، وأعد لهم فى الدنيا خزيا لا يرفعه إلا أن يغسلوا ذلك التخلف والقعود بدمائهم فى الجهاد وفى سبيله سبحانه ، وفى الآخرة عذابا لا يفلتون منه ، ولو كان لهم مثل أحد ذهابا .

ولقد تحدث القرآن عن الجهاد فى كثير من آياته وسوره ، فى جزالة لفظ ، ونصاعة بيان ، ووضوح غاية وهدف .

قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا

(١) مسلم ٢ / ٨١ نوى ٨ / ٢٨ الترغيب والترهيب ٣ / ٤٤٣ ط مصطفى الحسى باب الإدارة .

تعلمون ﴿١﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ ﴿٣﴾ .

التحذير من ترك الجهاد وعدم القيام به وتلبية الدعوة إليه :

﴿ فرح الخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر . قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا ، وليبكموا كثيرا ، جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبدا ، ولن تقاتلوا معي عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ الآية ﴿٤﴾ . ﴿ انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿٥﴾ . ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضره شيئا ، والله على كل شيء قدير ﴾ ﴿٦﴾ .

طلب الاستعداد ، والتهيؤ للحرب ماديا ومعنويا ، حتى يكون المقاتل المسلم على المستوى المطلوب للنصر في المعركة :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله

(١) البقرة — ٢١٦ .

(٢) آل عمران — ١٥٦ — ١٥٨ .

(٣) النساء — ٧١ — ٧٨ .

(٤) التوبة — ٨٠ — ٨١ .

(٥) التوبة — ٤١ .

(٦) التوبة — ٣٩ .

وعدوكم ﴿١﴾. ﴿٢﴾ يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴿٣﴾.

﴿٤﴾ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصرم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ﴿٥﴾.

﴿٦﴾ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿٧﴾.

وبعد /

فقد رأينا كيف أن القرآن الكريم يحض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، وممارسة القتال في جيوش أو عصابات أو فرادى ، كما يقتضيه الحال .

كما رأينا كيف يوبخ القاعدين والجناء والمخلفين والنفعيين ، وكيف يستثير الهمم لحماية الضعفاء وتخليص المظلومين ، وكيف يقرن القتال بالصلاة والصوم ، وكيف يفند شبهات المطرودين المنافقين اللاهين ، كما يحرض المقاتلين المدافعين الثابتين .

وكذلك نجد أن رسول الله ﷺ يسير على نفس النهج ، وبعد العدة ، ويحرض المؤمنين ، ويقود الجيوش والمجاهدين ، ويرفع السيف ، ويمتشق الحسام ، ويقارع الجيوش ، ويلقى الكتائب جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ويجرح في المعارك ، ويسيل دمه الشريف ، ويتمنى الشهادة في سبيل الله سبحانه .

(١) الأنفال — ٦٠ .

(٢) الأنفال — ٦٥ .

(٣) التوبة — ١٤ .

(٤) التوبة — ٢٩ .

عن أنى هزيمة رضى الله عنه قال : سمعت النبی ﷺ يقول : « والذى نفسى بيده ! لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله . والذى نفسى بيده ! لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » (١)

عن أم حارثة بنت سراقه أنها أتت النبی ﷺ ، فقالت : « يانبي الله ألا تحدثنى عن حارثة — وكان قبل يوم بدر أصابه سهم غرب — فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء . قال : يا أم حارثة : إنها جنت فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٢)

وعن عبد الله بن أنى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » (٣) .

عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازيا فى سبيل الله تعالى فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا » (٤) . هذا والأحاديث فى الجهاد وفضل المجاهدين كثيرة ، ألفت فيها الكتب المتعددة ، وتتبعها الشراح بالتفصيل والبيان ، بما لا يوجد فى أى دين أو تراث .

وقد فصل الفقهاء أحكام الجهاد فى سبيل الله تبارك وتعالى ، ووجوب الاستعداد والتجهز ، وحشد القوة لإرهاب العدو ، ونصرة الحق ، وخذلان الباطل . فأجمعت فقهاء الأمة فى مذاهبها الأربعة على وجوب الجهاد والاستعداد له . قال صاحب بلغة السالك لأقرب المسالك فى مذهب الإمام مالك : « الجهاد فى سبيل

(١) البخارى ٨ / ١٢٠ ، عنى ١١ / ٤٣٧ عسقلانى ١٣ / ١٨٧ ، قسطلانى ١٠ / ٣٣١ مسلم باب الإمارة النسائى جهاد ١٨ / ٣٠ ، والموطأ جهاد — أحمد ٢ / ٤٢٤ ، ٤٧٣ .
(٢) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٨٩ ، عنى ٦ / ٥٥٦ ، عسقلانى ٦ / ٢١ ، قسطلانى ٥ / ٥٧ .
(٣) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٩١ ، قسطلانى ٥ / ٦٣ .
(٤) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٩٦ ، عنى ٦ / ٥٨٧ ، عسقلانى ٦ / ٣٧ ، قسطلانى ٥ / ٧٩ ، مسلم الإمارة ٢ / ١٠٠ نووى ٨ / ١١٦ ،

الله لإعلاء كلمة الله تعالى كل سنة فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ويتعين (أى يصير فرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام ، وبهجوم العدو على محلة قوم ، فيتعين عليهم وعلى من بقرهم إن عجزوا ، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ، ولو منعهم الولي والزوج والسيد ورب الدّين إن كان مدينا ، ويتعين أيضا بالنذر ، وللوالدين المنع منه فى فرض الكفاية فقط . وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية على المسلمين ، وإن أتى على جميع أموالهم » وقال صاحب كتاب الاختيار من الحنفية . « الجهاد فرض عين عند النفير العام ، وكفاية عند عدمه . أما الأول فلقوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ — والنفير العام : أن يحتاج إلى المسلمين ، فلا يحصل المقصود — وهو إعزاز الدين وقهر المشركين — إلا بالجميع ، فيصير عليهم فرض عين كالصلاة . وإذا لم يكن كذلك فهو فرض كفاية ... وقاتل الكفار واجب على كل رجل عاقل صحيح حر قادر ، وإذا هجم العدو وجب على جميع الناس الدفع ، تخرج المرأة والعبد بغير إذن الزوج والسيد ؛ لأنه يصير فرض عين ، وحق الزوج والسيد لا يظهر فى مقابلة فرض الأعيان كالصلاة والصوم »

وقال الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى فى كتابه « شرح روض الطالب من أسنى المطالب » : « الجهاد فرض فى كل سنة على الأقل ، فإن زاد على مرة فهو أفضل . ولا يجب إلا على مسلم بالغ عاقل ذكر حر مستطيع له ، ولا يجب على صبي ومجنون ، ولا على امرأة ولا أعمى ويجب الجهاد على أعور وأعشى وضعيف نظر يبصر الشخص والسلاح ... ويتعين الجهاد بالشروع فى القتال ، وبدخول الكفار بلاد المسلمين ، حتى على العبيد والنساء ، فلا حجر للسيد على رقيقه ، ولا للزوج على زوجته ، ولا أصل على فرعه ، ولا دائن على مدينه ، وحتى يتعين على المعذورين بعمى وعرج ومرض ونحوها » .



وفي المغنى لابن قدامة الحنبلى : « الجهاد فرض كفاية ، إذا قام به قوم سقط
عن الباقيين . ويتعين في ثلاث مواضع » :

- ١ — إذا التقى الزحفان ، وتقابل الصفان ، حرم على من حضر الانصراف ، وتعين
عليه المقام .
- ٢ — إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم .
- ٣ — إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه ^(١) .

وأقل الجهاد مرة واحدة في كل عام ، وإن دعت الحاجة أكثر من مرة وجب
على المسلم القيام بذلك حتى يعز الإسلام ^(٢) .

وإذا وجب الجهاد خرج الكل ، معذور وغيره ، مدين وغيره ، امرأة وشاب
عبد أو سيد .

المسلمون والجهاد :

المتبوع لتاريخ المسلمين الطويل يجد أنه ما من عصر - من عصورهم — قبل
العصر المظلم ، الذى ماتت فيه نخوتهم — ترك فيه الجهاد أو فرط المسلمون فيه .
حتى إن علماءهم والمتصوفة منهم ، المنقطعون وغيرهم ، كانوا على أهبة الاستعداد .
كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعا في أكثر أوقاته للجهاد والذود عن
حياض الإسلام ، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد دائم الاستعداد والخروج
في سبيل الله تعالى ، وكذلك كان شقيق البلخي شيخ الصوفية في وقته ، يحمل نفسه
وتلامذته على الجهاد .

وكان البدر العيني شارح البخارى الفقيه المحدث يغزو سنة ، ويدرس العلم
سنة ، ويحج سنة . وكان القاضى أسد بن الفرات المالكي أميرا للبحر في وقته ،
وكذلك كان الإمام الشافعى رضوان الله عليه ، يرمى عشرة ولا يخطيء .

(١) المغنى لابن قدامة ١٠ / ٣٦٥ = ٨ / ٦٤٦ ، ٣٤٧ المعجم ١ / ٢٦ ط الكويت .

(٢) المغنى ١٠ / ٣٦٧ = ٨ / ٣٤٨ ط المنار والرياض .

طبيعة الجهاد في الإسلام :

الجهاد في الإسلام ليس أداة للعدوان ، إنما هو وسيلة لدفع الظلم والدفاع عن الحق ، ونشر دين الله ، وليس أداة للمطامع الشخصية ، أو الأطماع المادية ، أو المكاسب الإقليمية ، وإنما هو تبليغ للرسالة السماوية ، ونشر للهداية الربانية ، التي حملها المسلمون بتكليف من الله لهم .

كان المسلم يخرج للقتال وفي غايته أمر واحد : أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فإذا خلط مع تلك الغاية أمراً آخر من حب الجاه أو الظهور أو المال ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك . فعمله مردود ، وجهاده مدخول ، وغايته هابطة ، إنما الحلال في نظر الإسلام أمر واحد وغاية واحدة : أن يكون عمله خالصاً لوجهه سبحانه ، وهو أفرح بإيمان المؤمن وإقبال المشرك من الدنيا وما فيها ، لا يبغي إلا هذا ، أو أن يستشهد في سبيل ذلك .

عن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فلما بلغنا الغار استحثت فرسى ، فسبقت أصحابي ، فتلقاني أهل الحى بالرين ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا ، فقالوها ، فلامني أصحابي ، وقالوا : حرمتنا الغنيمة . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت ، فدعاني ، فحسن لي ما صنعت . ثم قال لي : ألا إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر ، وقال : أما إني سأكتب لك بالوصاية بعدى ، ففعل ، وختم عليه ، ودفعه إليّ (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد في سبيل الله ، وهو يبتغي عرضاً من الدنيا . فقال : لا أجر له . فأعادها عليه ثلاثاً ، كل ذلك يقول : لا أجر له » (٢)

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) أخرجه أبو داود .

شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (١)

ورغم وضوح أحكام الجهاد وأدلتها ، ورغم نبل الغاية وحسن الهدف ، ترك المسلمون الجهاد ، وولوا وجوههم شطر الدعة والخنوع والبعد عن معالى الأمور وسمو الغايات ، وشاع بين الناس أن قتال العدو هو الجهاد الأصغر ، وأن هناك جهاد أكبر هو جهاد النفس ، وكثير منهم يستدل بما يروى « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال جهاد القلب أو جهاد النفس » . وقد قال الحافظ بن حجر فى تسديد القوس « هو من كلام إبراهيم بن عبلة » ، وقيل : إنه من كلام أبى بكر الصديق ، وليس بحديث ، ولكن الذين يريدون تعطيل فريضة الجهاد يروجون لأمثال هذه الأقوال ؛ ليبرروا تخاذلهم عن نصره الإسلام والمسلمين ، رغم أن الأمة الإسلامية ما كانت فى وقت من الأوقات أحوج ما تكون إلى الجهاد من هذا الوقت .

ولكن الأمة التى تظفر بالموتة الكريمة ، وتعرف كيف تبذل أرواحها ودماءها ، وتضحى فى سبيل عقيدتها وكرامتها ، هى الأمة التى تستحق الحياة والمجد ، ويهبها الله الحياة العزيزة الكريمة الخالدة فى الدنيا على مر الأيام ، وفى الآخرة إلى ما شاء الله . وما الوهن الذى أصابنا ولوى أعناقنا ؛ إلا من القعود عن الجهاد ، وحب الدنيا وكراهية الموتة العزيزة ، التى تشوق إليها الكفاح المسلم والميدان المسلم والجهاد المسلم بينها وبين عدوها .

ويوم أن يعرف المسلمون — وهم يعلمون ذلك — أن الموت لا بد منه ، وأنه لا يكون إلا مرة واحدة ، وأنه يجب أن تكون تلك الموتة فى سبيل الله . يوم يعرفون ذلك وينفلونه يكون ربح الدنيا وسعادة الآخرة ، وتكون الحياة العزيزة التى يحبون ، والكريمة التى يرغبون ، وما يصيبهم إلا ما كتب لهم ، وما قدره الله عليهم . وقد أعطينا الدرس من قديم ، وما زالت آيات القرآن بين أيدينا وفى مخيلتنا وأفهامنا وعقولنا ،

(١) رواه الخمسة ، البخارى باب فرض الخمس ٤ / ٤٧ ، عيني ٧ / ١٤٨ ، عسقلانى ٦ / ١٥٩ قسطلانى ٥ / ٢٤٩ ، مسلم ٢ / ١٠٢ نووى ٨ / ١٢٨ .

وصدق الله : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً ناعسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليتلى الله ما في صدوركم ، ولمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ﴾ (١).

وما على هذه الأمة اليوم إلا أن تتدبر الآيات ، وتنطلق في الأرض رافعة الرأس ، لا تخاف ، ولا تهن ، ولا تحزن ، إذا هي أحسنت صناعة الموت في سبيل أهدافها ، في سبيل الله ، في عصر لا يحترم إلا القوى ، ولا يخاف ولا يرهب إلا من القوة ، ولا يعيد للمسلمين حقهم أو كرامتهم وهيبتهم إلا أن يكونوا أقوياء ، وفي هذا يقول محمد أسد « ليوبولد تابس » : « أما خير وسيلة يجب أن يلجأ إليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربي على احترامهم فهي أن يكونوا أقوياء » (٢).

وأى وسيلة أو سبيل يجعل المسلمين أقوياء غير الجهاد ؟ وهو فريضة لازمة على المسلمين إلى يوم القيامة ، والاستعداد إليه واجب ، فرضه عليهم قرآنهم ورسولهم وعقيدتهم . هل يؤدي المسلمون تلك الفريضة ، وهل يتنبهوا لها . ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله .



(١) آل عمران — ١٥٤ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٢ ط دار العلم للملايين .

خاتمة فـى نتيجة هذه الدراسات

مما لا شك فيه أن هذا البحث قد كشف عن أشياء كثيرة ، وأبان حقائق عدة منها :—

١— بيان معنى الحضارة ومدلولها ، حيث أن مدلول كلمة الحضارة فى هذه الأيام قد ائتماع فى مسميات كثيرة ودعاوى عدة ، بل انتقل معناها فى بعض الأحيان إلى مايدل على عكس الحضارة ، أو ما يتنافى معها ، مما جعل كلمة الحضارة أو اصطلاحها عند بعض الناس ، يعنى الضلال أو الخروج على القيم أو القهر والبغى والظلم ، وسندهم فى هذا الفهم وهذا التفسير أساليب المنتسبين إليها والمتشدين بها ، وقد أعطى معناها عند البعض الآخر مدلولاً باهتاً رجراجاً ، لايدل على فهم معين ، بقدر ما يلفت إلى خداع أو تمويه ، لبعض الأغراض الشخصية أو الحيوانية أو العنصرية .

وقد أبان البحث وجه الحق فى كلمة الحضارة ، وحقق مدلولها ، وميز مراميها ، وأظهر زيف المنتسبين والمستترين فى جنباتها .

وصاحب ذلك بيان للعلاقة بينها وبين ما يقاربها ، أو يختلط بها ، من مسميات وألفاظ ؛ لتكتمل الصورة ، وتظهر الإفادة . وقد أدى هذا البيان إلى حقائق علمية وأخلاقية وقيمية ، ترد كل شىء إلى أصله ، وكل فعل إلى قصده ، فامتازت الهمجية والحيوانية من الحضارية والإنسانية .

٢— كما أظهرت الدراسات أنه ليس للجنس ولا للبيئة اليد الطولى فى تأسيس الحضارات أو قيام النهضات ، وأنه ليس هناك مسوغ لأن توسم شعوب معينة بأنها

شعوب حضارية لعرقها أو لونها أو أرضها ، وأن عقولها عقول معينة مختارة ، حباها الله بما لم يعطه غيرها من الفهم والابتكار والتقدم والريادة ، وأن هذه المغالطة العنصرية أو العرقية لا يمكن إلا أن تكون وسيلة للسيطرة على الشعوب ، والتمايز عليها ، وأكل ثرواتها وخيراتنا ، وهضم حقوقها .

هذا الادعاء الباطل يكذبه التاريخ والواقع والبحث العلمى النزىه ، وقد أظهر البحث ذلك وجلاه وأبان وجه الحق فيه ، كما أوضح رأى النظرية الإسلامية فى المسألة ، وكيف أنها وضعت الأمور فى نصابها ، وقطعت الطريق على السارقين لحقوق الناس والمتسلطين عليهم ، وأن الناس من ذكر وأنثى يتمايزون بالتقوى والعمل الصالح .

٣- دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض ، أو بمعنى آخر دراسة التفسير الحضارى للتاريخ . وقد أظهر البحث مقدار الخلط الذى صاحب هذه النظرية ، بعد أن سرد أراء الباحثين ونظرياتهم فى دراسة التاريخ ، وفى استقاء أخباره وتقصى حقائقه ، وأظهر البحث أن مصادر التاريخ جلها نظرية تخريبية واستنتاجية ، أو خيالية ، ولهذا يجب وضع شروط معينة لإيضاح الرؤية التاريخية أمام الباحث ، حتى يستطيع أن يفسر التاريخ تفسيرا حضاريا ، وقد رسم البحث الخطوط العريضة لهذه الشروط الواجب اتباعها .

٤- كما أوضح البحث التحرك البشرى على ظهر الأرض ، وصلته بقيام الحضارات ، ورأى الباحثين فى ذلك ، ثم أبان رأى فى صحة هذا التحرك وتأثيره على الحياة الحضارية ، وعلى استمرار الحياة بالشكل والمضمون الطبيعى لبنى الإنسان .

٥- ثم بين البحث المفهوم الإسلامى للحضارة ، ومناهجه ، وتفسيره للتاريخ ، فقدم البحث تصورا كاملا للكون بحقائقه وتصورات ، وقدم تصورا للإنسان بجسده وروحه ونشاطه على وجه الأرض ، وحركته فيها ، وارتباطه بها ، وحث الإسلام له على الحركة وعلى الدأب مع نظام للإنسان يحكم سلوكه وتفكيره وطريقه فى الحياة ، وينمى مواهبه ، ويرضى أشواقه وتطلعاته وغاياته .

٦ — وقد تكلم البحث على المناهج العلمية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية ، وبين ماتركز عليه ، وتطرق البحث إلى اختلاف المناهج العلمية فى الحضارة الإسلامية عن غيرها فى الشكل والجوهر .
فقد كانت طبيعة المناهج العلمية فى الحضارات السابقة مبنية على الجدل اللفظى والتخيلات العقلية ، سواء كانت هذه المناهج نظرية أم مادية .
أما عن المناهج النظرية للحضارة الإسلامية ؛ فقد قامت على مصدرين نقلى وعقلى . وقد وضح البحث ذلك .

وأما عن المناهج المادية ؛ فقد اعتمدت الحضارة الإسلامية على المنهج التجريبي ، الذى شرح البحث خطواته بما وضع جوانبه ، وقد استطاع المسلمون بهذا المنهج أن يكتشفوا ما خفى على غيرهم ، وأن يتوصلوا إلى حقائق معينة ، وضعت الحضارات على سلم التقدم العلمى الصحيح ، وأن يميظوا اللثام عن الخرافات التى كانت تتوارثه فى أمم كثيرة ، وكل هذا قد انبثق من تعاليم كتابهم وسنة نبيهم .

٧ — تفسير الإسلام للتاريخ الحضارى على وجه الأرض ، وقد استقى المسلمون عمق هذا التاريخ الحضارى ومقاييسه من القرآن الكريم ، حيث يحكى ألوانا من سير الأمم الدابرة والشعوب الغابرة ، كونت عمقا أصيلا وجذورا غائرة لمدينته ، وتجربة حية على طريقة مسيرته ، حيث إن القرآن يعرض قصصا واقعيا عاش تجربة الحياة ومسيرة التاريخ ، وعلى هذا النهج ظهر فى التاريخ من كان نهجه صلاحا للأرض ، ومن كان سيره فسادا فيها ، وظهرت أصول الحضارات الحقبة التى تحكم الحياة متمثلة فى نماذج واضحة ، كما ظهر رواد الحضارات من خلال تلك المجتمعات ، متمثلا فى الصفوة المختارة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن سار على نهجهم ومثلهم .

٨ — أظهر البحث صلة الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات ، فقد قلبت حضارة الإسلام موازين المعتقدات العربية ، وكذلك النظم والتشريعات ، حيث كانت شريعة الإسلام ريبانية جامعة . وصدق الله : ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب

ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴿١﴾

وأما عن الحضارات العربية ؛ فإن الأصول الحضارية للحضارة الإسلامية تخالف أصول تلك الحضارات وتشريعاتها وأساليبها واجتماعياتها ، تخالفها جذريا وإن انتفع المسلمون بما وجد عند تلك الشعوب من علم نافع لا يصادم معتقدات أو أصول أو آداب الشريعة الإسلامية ، وقد وجه المسلمون هذه العلوم إلى وجهتها الصحيحة وغايتها النافعة ، حسب التعاليم الإسلامية السامية ، وبنوا عليها صرحا شامخا من التراث العلمى الذى أيقظ العالم من سبات طويل .

٩ — أظهر البحث عظم عمق الدور الذى اضطلع به المسلمون فى إنارة العالم ، وبعث الهمم ، وإذكاء العقول ، وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة والفسطقة ، وأبان مقدار الجهود التى بذلها المسلمون فى سبيل إحياء التراث القديم للأمم وتنقيته ، كما أظهر حجم التراث العلمى الذى اضطلع به المسلمون ، ومقدار ما بذلوه من جهد فى سبيل إنقاذ البشرية وإنارتها ، وقد اقتضى ذلك إعمال الفكر فى كل فن وعلم ، وإخراج كل مكنون ، وإظهار كل مستور ، والتنقيب عن كل شاردة ونائية ، حتى اجتمع لهم أطراف العلوم وأشتات الفنون ، وأوقفوا العالم على أسرار العالم وأخبار الكائنات . وكانت الأمة الإسلامية — من أقصاها إلى أقصاها — تمثل سوقا كبيرا للمعرفة والاختراع والبحث فى جميع المجالات والعلوم . وقد عبرت هذه الحضارة الإسلامية إلى جميع أنحاء المعمورة ، فكان لها فعل السحر فى تلك الأمم والشعوب .

١٠ — كما توصل البحث إلى تجلية المبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية ، وإظهار ما فيها من مواكبة للقيم العليا ، والأعمال الحضارية مع بيان مقدار ما فيها من ملاءمة للفطرة ، ثم مقارنة تلك المبادئ بنظائرها من الحضارة الغربية ، وبيان مقدار بُعد تلك الحضارة الغربية عن القيم وعن الفطرة ، وعن طبيعة السلوك الإنسانى السوى .

١١ — توصل البحث إلى إظهار مدى التحدى الحضارى الإسلامى ، وكيف أنه

(١) الشورى ٥٢ .

ناموس من نواميس الحياة ، ولا بد أن يؤدي دوره فيها ؛ لأسباب معينة منها :

- أ — أنه رصيد إنسانى واجتماعى فريد .
- ب — ملاءمته الإنسانية والفطرية لجميع البشر .
- ج — مرونة التكاليف والتعاليم .
- د — قوة الارتباط والانضباط التى تتميز بها تلك الحضارة .
- هـ — قوة عقائدية عملاقة فريدة فى تربية الروح وغذائها .

كما أظهر البحث مستقبل هذه الحضارة بالأدلة الواضحة ، وبالنصوص الموثقة ، التى تؤمن بها ، ونعهد فيها الصدق والنفاذ والتحقيق ، وبالحاجة الإنسانية الملحة ، خاصة فى هذا العصر إلى تلك الحضارة ، لأن طبيعة المنهج الإسلامى يحمل بين طياته الميزات الآتية :

* — منهج كامل لطبيعة الإنسان لجسده وروحه ، لحياته وآخرفته ، لربه وللناس كلهم ، فلا تمزق فيه ولا عَقد أو ضياع .

* — الحياة هى ميدان هذا المنهج ، فهو لا يزدريها أو يحتقرها ؛ بل يحترمها ويصلحها .

- * — منهج للقيم والإصلاح والمثل الحضارية .
- * — منهج المساواة والأخوة والرحمة .

لهذا ، فلا شفاء من الصراع ومن العذاب والقلق أو الفساد والخيرة ، التى تكتنف هذا العالم ، وتحيط به ، إلا بالإسلام وحضارة المثل الإسلامية التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

١٢ — كشف أساليب الهجوم والغزو الفكرى على الأمة الإسلامية ، وأسبابه ، وبيان تأثير ذلك على الأمة ، وعلى الحضارة الإسلامية ، وكيف أن هذا الغزو كان وبالا على الأمة وعلى الأفراد ، وقد فعل فيها الأفاعيل ، ونال منها بما لم تنله الحروب والجيوش والأساطيل ، وكانت بواعث هذا الغزو متعددة متشعبة ، تحتاج إلى خبرة وعمق وبقطة وتحري ، استطاع البحث أن يجلى ذلك ، وأن يقوم بدور مهم فى وضع العلامات على الطريق ، والأضواء على الدرب ، حتى يكشف المزالق التى تؤدى إلى

خداع الناس عن حضارتهم وتراثهم وشخصيتهم ، وتذبيهم في بوتقة الانهيار والتبعية .

١٣ — عمد البحث إلى كشف الحضارات ، وإلقاء الضوء عليها ، وإظهار الجوهر الحقيقي للحضارات ، كما عمد إلى بيان تدهورها وانحسارها ، وأسباب ذلك ، وكيف أن للحضارات خداعا تلفت الناس عن الجذ ، كما أن للسراب بريقا يشغل الإنسان عن الحقيقة . ثم سبر البحث غور الحضارات في الساحة الحاضرة ، وأظهر أنها لا تلائم طبيعة الإنسان ، ولا تلبى أشواقه ومثله وطموحاته واستقراره ، ولهذا فهي تذبل وتعتل وتمرض وتنهار ؛ لأنها ضد طبيعة الإنسان وضد الاستقرار والطمأنينة والسلام ؛ لأنها تقوم على الصراع والقهر والإذلال ، وأن العلم فيها اليوم يوجه إلى الإهلاك وتدمير الإنسان ؛ بل والحياة والأحياء ، ولهذا ، فإنه يطلق على تقدم تلك العلوم : الانتحار العلمي ، والإهلاك الحضارى ، وماآثار ذلك عن الناس منا بعيد .

١٤ — خاض البحث معركة التنقيب عن أسباب انحطاط المسلمين حضاريا ، وكان لابد أن يستقرىء التواريخ والحوادث والأسباب والعلل والآثار والنتائج ، ويعايش الرجال والأعمال والأفعال ، يتصفح الأيام ، ويستنطق الليالى ، يقف عند الآثار والرسوم ، ويبحث في الصحائف والعلوم ، ويشخص الأمراض والعلل ، ويفحص الأجساد والأرواح ، ويتعرف على الأدوية والعقاقير والمقويات والمنشطات ، حتى يستطيع أن يبين كيف انهد هذا الجسد الإسلامى الشاخص ، وكيف ضاعت هذه الحضارة العملاقة ، وكيف شرد هذا العقل ، فضل هذا الفكر ، الذى محص علوم الأولين ، وأنشأ ورفع علوم الآخرين ، كيف مات هذا المارد ، ونسف هذا الصرح ، واندكت هذه العمدة ، وصار المجد والعمران والجنان خرابا بلقعا ، وأحلها اليوم والغربان بدل الكروانات والبلابل .

وهكذا طوف البحث في هذه الممالك والأمم ، وفي الحضارات والمدنيات ، وفي العلوم والفنون والعادات والثقافات ، وأبان عوارها ، وفضح أسرارها ، وأظهر معدن الحضارة الإسلامية الكريم اللامع ، فكشف عن الشمس ، وعن الحياة ، وعن العظمة الحقيقية لتلك الرسالة الربانية ، التى جاءت رحمة للعالمين .

الفهارس

بسم الله الرحمن الرحيم المراجع

أولا : القرآن الكريم
ثانيا : من السنة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
إرشاد السار	أحمد بن محمد القسطلاني	ط القاهرة المنيرية
التاريخ الصغير	أبو عبد الله البخاري	ط دار التراث
التاريخ الكبير	أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري	المعارف العثمانية ١٣٦٠
تذكرة الحفاظ	شمس الدين الذهبي	المعارف النظامية ١٣٣٣ هـ
الترغيب والترهيب	زكي الدين عبد العظيم المنذري	عيسى الحلبي
تعجيل المنفعة	ابن حجر العسقلاني	ط بيروت دار الكتاب العربي
تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني	دار المعارف بيروت
تيسير المنفعة	فؤاد عبد الباقي	المنار بالقاهرة
جامع بيان العلم وفضله	يوسف بن عبد البر	المنيرية بالقاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الجامع الصحيح لسنن الترمذى	تحقيق أحمد شاكر	مصطفى الحلبي
الجرح والتعديل	عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي	بيروت دار الكتب العلمية
سنن ابن ماجه	ابن ماجه — عبد الباقي	عيسى الحلبي
سنن أبي داود	تحقيق محمد محي الدين	المكتبة التجارية
سنن الدارقطني	على بن عمر الدارقطني	ط المدينة المنورة
سنن الدارمي	عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي	دمشق — الاعتدال
سنن النسائي	أحمد بن شعيب النسائي	لاهور المكتبة السلفية
صحيح ابن خزيمة	محمد بن إسحاق بن خزيمة	ط المكتب الإسلامي
صحيح البخارى	أبو عبد الله بن إسماعيل البخارى	دمشق
صحيح مسلم بشرح النووي	مسلم بن الحجاج القشيري	ط بيروت المعرفة
عمدة القارىء	بدر الدين العيني	القاهرة المطبعة المصرية
عون المعبود شرح سنن أبي داود	أبو داود تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان	المطبعة المنيرية
فتح الباري	ابن حجر العسقلاني	ط السلفية
		ط البحوث العلمية بالرياض

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الفتح الرباني الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة	أحمد عبد الرحمن البنا	ط الإخوان المسلمين
فيض القدير شرح الجامع الصغير	محمد بن علي الشوكاني	ط المكتب الإسلامي دمشق
الآلء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة	المنادي	ط دمشق المكتب الإسلامي
مجمع الزوائد المستدرک علی الضحیحین	جلال الدين السيوطي نور الدين علي الهيثمي	ط دار المعرفة بيروت القاهرة مكتبة القدس
مسند الإمام أحمد مشكاة المصابيح	محمد بن عبد الله الحاكم	ط بيروت دار الكتاب العربي القاهرة المعارف
مصنف ابن أبي شيبة	تحقيق شاكر علي بن سلطان محمد القاري	ط الميمنية ط الدار السلفية بومباي
مصنف عبد الرزاق	عبد الله بن محمد بن أبي شعبة	ط دمشق المجلس العلمي
المطالب العالية بزوائد الثمانية	الحافظ أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني	وزارة الأوقاف . الكويت
	ابن حجر — تحقيق الأعظمي	

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المعجم الكبير للطبراني	سليمان بن أحمد الطبراني	بغداد . وزارة الأوقاف
موطأ الإمام مالك	تحقيق حمدي عبد المجيد	عيسى الحلبي ١٣٧٠ هـ
ميزان الاعتدال	تحقيق فؤاد عبد الباقي	القاهرة عيسى الحلبي
نيل الأوطار للشوكاني	محمد بن أحمد الذهبي الشوكاني	ط دار الجميل بيروت

ثبت بأهم المراجع - والمؤلفات

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الآثار الباقية عن القرون الخالية	أبو الريحان البيروني	مكتبة المثنى
الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر	محمد محمد حسين	ط الكويت
أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية	أحمد على الملا	دار الفكر
أحسن التقاسيم الأحكام السلطانية	المقديس	ط ليدن
والولايات	أبو الحسن الماوردي	ط القاهرة مصر
الأحكام للآمدي	أبو الحسن بن أبي على	١٩٠٩ م
إحياء علوم الدين	الآمدي	صبيح بالقاهرة
الاختيار لتعليل المختار	أبو حامد الغزالي	١٣٤٧ هـ
الأدب العربي وتاريخه	عبد الله بن محمود بن مودود	المعرفة بيروت
ارتقاء الإنسان	محمود مصطفى	المطبعة التعاونية
إرشاد الفحول	برونوفسكي	ط الرحمانية بالقاهرة
الاستعمار والمذاهب الاستعمارية	الشوكاني	ط المعرفة الكويت
أسد الغابة	محمد عوض محمد	مصطفى الحلبي
أسرار الماسونية	عز الدين بن الأثير	المعارف القاهرة
	جواد رفعت	١٩٥٧ م
		المطبعة الوهية
		١٢٨٠ هـ
		ط الكويت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الإسلام والثقافة العربية	عبد الفتاح مقلد	عالم الكتب القاهرة
الإسلام والحضارة الإنسانية	عبد المنعم خفاجة	ط القاهرة
الإسلام والحضارة	أنور الجندي	دار الاعتصام
الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد على	ط دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م
الإسلام والحضارة الغربية	محمد محمد حسين	المكتب الإسلامي دمشق
الإسلام على مفترق الطرق	محمد أسد — ترجمة فروخ	دار العلم للملايين لبنان
الإسلام في عصر العلم	محمد أحمد الغمراوي	دار الإنسان
الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة	أبو الأعلى المودودي	ط بيروت
الإسلام قوة الغد العالمية	ترجمة / الدكتور محمد عبد الغني شامة	ط وهبة
الإسلام والحياة	د — القرضاوي	دار السعودية
الإسلام ومشكلات الحضارة	الأستاذ سيد قطب	دار الشروق
الإسلام يتحدى الإرشادات والتنبهات	وحيد الدين خان	دار البحوث العلمية ط المعارف القاهرة
اشبينجلر	عبد الرحمن بدوي	١٩٥٥ م النهضة ١٩٤٥ م

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
أصالة الحضارة العربية أصول الفقه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام	د . ناجي معروف عبد الوهاب خلاف	الثقافة العربية دار القلم بالكويت
أطفال بلا أسر أعلام الموقعين الإعلام بالتويخ لمن ذم التاريخ الأغاني الإفادة والاعتبار	محمد الطاهر بن عشور أنا فرويد ودرني برمنجام ابن القيم السخاوي أبو الفرج الأصفهاني عبد اللطيف البغدادي	الطبعة الرسمية تونس ١٩٦٤ م ترجمة بدران ورمزي يس دار الجميل بيروت ط المثنى بغداد ١٩٦٣ م دار الكتب المصرية طبع مع الترجمة الإنجليزية ١٩٦٥ م
أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك الله في الفلسفة الحديثة	خير الدين التونسي جيمس كولنزرت فؤاد كامل أبو حيان التوحيدى جمال الدين أبو الحسن القفطى	مطبعة الدولة بتونس فرنكلين بالقاهرة ١٩٧٣ م مكتبة الحياة بيروت دار الكتب بالقاهرة ط الكتاب المقدس
الإنجيل الإنسان بين المادية والإسلام	محمد قطب	ط بيروت
الإنسان ذلك المجهول	ألكسيس كاريل	مؤسسة المعارف بيروت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الإنسان والحضارة	يوسف حوراني	المكتبة العصرية بيروت
الإيمان والحياة	القرضاوى	الدار السعودية
البدء والتاريخ	مظهر بن طاهر المقدس	ط باريس ١٩١٦ م
البداية والنهاية	ابن كثير	المعارف بيروت
بلغة السالك لأقرب	أحمد بن محمد الصاوى	
المسالك	المالكى	مصطفى الحلبي
بلوغ الأرب في معرفة		
أحوال العرب	محمود شكرى الألوسى	الرحمانية ١٩٢٥ م
البهائية	محب الدين الخطيب	المكتب الإسلامى
بين الدين والعلم	مظهر	ط الحلبي
بغية الملتمس	الضبي ، أحمد بن يحيى	دار الكتاب العربى
		القاهرة
بين الكتب والناس	عباس العقاد	ط بيروت ١٩٦٦ م
تاريخ ابن عساكر	ابن عساكر — على	
	بن الحسن	روضة الشام بدمشق
تاريخ الإسلام السياسى		
والدينى والثقافى والاجتماعى	الدكتور حسن إبراهيم	ط القاهرة ١٩٦٤ م
	حسن	
تاريخ التربية الإسلامية	د — أحمد شلبى	النهضة العربية
تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان	دار الهلال بالقاهرة
		١٩٥٨ م
تاريخ التشريع		
الإسلامى	د — محمد سلام مذكور	النهضة المصرية
تاريخ الحضارة الأوروبية	توفيق وهبه	الفكر الجامعى

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
تاريخ حكماء الإسلام	البيهقي — ظهير الدين	المجمع العلمي بدمشق
تاريخ الحضارة الإسلامية	بارتولد — ترجمة حمزة طاهر	دار المعارف بمصر ١٩٤٢
تاريخ الرسل والملوك	محمد بن جرير الطبري	ط دار المعارف
تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان	دار العلم بيروت
تاريخ العالم	هليز	النهضة بالقاهرة ، الأديب دمشق النهضة ١٩٤٨ م
تاريخ العالم	سيرجون هامرتين	
تاريخ العرب قبل الإسلام	د — جواد علي	المجمع العلمي العراقي بغداد
تاريخ الفكر العربي	عمر فروخ	بيروت ١٩٦٥ م
التاريخ القديم بين الحياة والعلم	بكل	ط لندن
تاريخ المدنية بالانجلترا	البان ويدجرى	دار صادر بيروت
التاريخ وكيف يفسرونه	عمر فروخ والخالدي	الهيئة المصرية ١٩٧٢
التبشير والاستعمار	ابن مسكويه المتوفى	المكتبة العصرية بيروت
عجائب الأمم	سنة ٤١٢	أمدروز التمدن
تجديد الفكر الديني	محمد إقبال ترجمة عباس محمود	الصناعي القاهرة
في الإسلام	للكمال بن الهمام	لجنة التأليف والنشر القاهرة
التجريب وشروحه	رفاعة الطهطاوى	مصطفى الحلبي
تخليص الإبريز	السيوطي	القاهرة
تدريب الراوى		ط القاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
تذكرة الحفاظ تراث العرب العلمي	شمس الدين الذهبي قدري حافظ طوقان	حيدرأباد دار القلم القاهرة ١٣٨٢ هـ
تطور الإنسان التطور والثبات التعبير الحضارى وتنمية المجتمع التعريفات	سير أرثركيت محمد قطب محي الدين عبد الحميد	بيروت وهبة سرس الليان
تفسير ابن كثير تفسير البيضاوى	الجرجاني أبو الفداء ابن كثير البيضاوى — ناصر الدين أبو سعيد	مصطفى الحلبي المعرفة بيروت المكتبة التجارية
التفسير العلمي للآيات الكونية	حنفي محمود	دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ م
تفسير القرطبي تفسير المنار التفسير الكبير تقييد العلم	القرطبي محمد رشيد رضا الرازي الخطيب البغدادي — ت د — العش ابن رشيد	دار الكتب المصرية ط المنار ط طهران دمشق
تهافت التهافت تهذيب اللغة التوضيح	تحقيق سليمان دنيا محمد بن أحمد الأزهرى لصدر الشريعة — عبد الله بن مسعود بن محمود	المعارف بالقاهرة بيروت المطبعة الجبرية ١٣٢٢ هـ

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
التوراة سفر الخروج التهديد في علم الاجتماع جاهلية القرن العشرين جمهورية أفلاطون حاضر العالم الإسلامي	الإصحاح ٣٢ اليافي محمد قطب فؤاد زكريا لو ثروب ستودارد تعليق الأمير شكيب أرسلان	الترجمة والنشر دار النور الكويت . المعرفة ترجمة عجاج نويهض القاهرة ١٣٥٢ هـ الكويت ط العالمية للطباعة القاهرة
الحجاب حرب أم سلام الحرب النفسية حصوننا مهددة من داخلها	أبو. الأعلى المودودي مستر دالاس صلاح نصر د . محمد محمد حسين	دار الإرشاد — الكويت عالم المعرفة — الكويت دار الثقافة دار القلم دمشق بيروت
الحضارة حضارة الإسلام الحضارة الإسلامية الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري	حسين مؤنس صلاح الدين خودا بخش حسن حبنكة ترجمة محمد عبد الهادي أبو رسدة	ط القاهرة النهضة المصرية الطباعة العربية ط بيروت عيسى الحلبي القاهرة ١٩٥٦
الحضارة الإسلامية الحضارة الإسلامية الحضارة العربية حضارة العرب	د — أحمد شلبي أبو الأعلى المودودي الخربوطلي غوستاف لوبون	

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
حقائق الإسلام وأبطل خصومه	عباس العقاد	مطبعة الكتاب العربى بيروت
حملات أفريقيا	الكلونيل فوره	ط بيروت
حوار الحضارات	روجيه غارودى	عويدات لبنان
حياة الحيوان	الدميرى	ط القاهرة
حياة الصحابة	محمد يوسف	دار القلم
حياة الوزان	محمد مهدى	العراق
دائرة المعارف الإسلامية	كتاب الشعب	دائرة الشعب
دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدى	دائرة المعارف
دراسات فى حضارة الإسلام	هملتون جب	بيروت ١٩٦٤ م
الدعوة الإسلامية	محمد الغزالى	دار السلاسل
تستقبل القرن ١٥	حسن إبراهيم	القاهرة ١٩٦٤ م
دعوة إلى الإسلام	ابن فرحون	القاهرة
الديباج المذهب	إيليا أبو ماضى	دار العلم للملايين
ديوان الجداول الدين	الدكتور محمد عبد الله	دار القلم كويت
الرحالون العرب	دراز	نوفل لبنان
	نازك سببا زده	

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
رسائل الجزال سان أرتو	ارتو	بيروت
الرسالة الخالدة	عبد الوهاب عزام	دار القلم ، كويت
الرسالة المستطرفة	محمد بن جعفر الكنانى	ط دمشق
رسالة المصلحة	للطوفى	مطبعة الأزهر
الدعاية لحقوق الله	الحارث بن أسد المحاسنى	دار الكتاب العربى القاهرة
الرق	الترمانينى	ط المعرفة بالكويت
روائع إقبال	أبو الحسن الندوى	ط الكويت
روح الجماعة	ترجمة عادل زعتر	دار المعرفة القاهرة
الروحية الحديثة دعوة		
هدامة	الدكتور محمد محمد حسين	الإرشاد بيروت
الروض الأنف	عبد الرحمن بن عبد الله السهيل	الكلية الأزهرية
الزرقانى على الموطأ	محمد الزرقانى	المكتبة التجارية القاهرة
الزمان الوجودى	عبد الرحمن بدوى	النهضة المصرية ١٩٥٥ م
الزمان فى الأدب	هانز مايرهوف	سجل العرب
السلام العالمى والإسلام	سيد قطب	١٩٧٢ م
السلوك فى معرفة دول الملوك	تقى الدين المقرئى	وهبة
السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى	مصطفى السباعى	القاهرة ١٩٣٩ م
سيرة عمر بن عبد العزيز	عبد الله بن عبد الحكم	المكتب الإسلامى
		دار الفكر دمشق

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
سيرة ابن هشام	ابن هشام	مطبعة الحجاز
سير النبلاء	الذهبي	دار المعارف
شبهات التغريب	أنور الجندى	المكتب الإسلامى
شجرة الحضارة	رالف لتون	الأنجلو المصرية
شذرات الذهب	ابن العماد	القاهرة
شرح الأدلة على الأحكام العدلية	محمد الأناس	حمص بالقاهرة
شرح روض الطالب من أسنى المطالب	زكريا الأنصارى	المكتب الإسلامى
شروط النهضة	مالك بن نبي	دار الفكر دمشق
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	تقى الدين الفاس المكي	دار إحياء الكتب العربية
شمس الله على الغرب الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية	سجريد هونكة	دار صادر بيروت
الصلة في أئمة تاريخ الأندلس	أبو الحسن الندوى	ط دار الندوة لبنان
الضوء الامع الطب الإسلامى طبقات الأطباء	ابن بشكوال السخاوى المؤتمر الطبى الإسلامى	نشر الثقافة بالقاهرة القدس بالقاهرة الكويت
والحكماء طبقات الأمم طبقات بن سعد	ابن جلجل صاعد الأندلسى ابن سعد	القاهرة ١٩٥٥ م بيروت ١٩١٢ م الشعب بمصر

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
طبقات الشافعية الطرق الحكمية في السياسة	السبكي	دار المعرفة بيروت
الطريق إلى مكة ظهر الإسلام	ابن القيم محمد أسد أحمد أمين	القاهرة ١٣١٧ بيروت النهضة المصرية ١٩٦٥ م
العبر وديوان المبتدأ والخير	ابن خلدون	ط بيروت
عبقريّة العرب في العلم والفلسفة	عمر فروخ	بيروت ١٩٦٩ م
العدالة الاجتماعية في الإسلام	سيد قطب	دار إحياء الكتب العربية
العصر الجاهلي	شوقي ضيف	دار المعارف ١٩٦١ م
العلم يدعو إلى الإيمان على هامش الأحداث	كريسي ميرسون بدر القاسمي	دار النهضة المصرية الهند ديربند
عيون الأنباء	ابن أبي أصيبعة	ط الوهيبية ١٢٩٩ هـ
عيون التواريخ	محمد بن شاعر الكتبي	النهضة بالقاهرة
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب بالقاهرة
غسيل الدماغ	الدكتور فخرى الدباغ	ط دمشق
الغزو الفكري	علي عبد الحليم	دار البحوث
فتح القدير	الشوكاني الغارة على العالم الإسلامي . محب الدين الخطيب	مصطفى الحلبي بيروت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
فتوح البلدان فجر الإسلام	البلاذرى أحمد أمين	القاهرة النهضة المصرية ١٩٦٦ م
الفروق في اللغة فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية	أبو هلال العسكري د — طه ندى	دار ط القاهرة
الفصل في الملل والنحل المدخل في الفقه الإسلامي الفكر الإسلامي الحديث فلسفة التاريخ	ابن حزم د — محمد سلام مذكور د — محمد البهي أحمد صبحي	القاهرة ط وهبة مؤسسة الثقافة الجامعية ط المعرفة بيروت
فلسفة التاريخ فلسفة الحضارة الإسلامية الفهرست فواتح الرحموت	غستاف لبون د — عفت الشرقاوى ابن النديم ابن عبد الشكور	النهضة العربية بيروت ملوك لايزك ١٨٧١ م الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ
في فلسفة التاريخ في معرفة التاريخ القانون في الطب	أحمد محمود صبحي أرنست كاسيرر ابن سينا	مؤسسة الثقافة الجامعية المؤسسة المصرية بولاقي

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
القتال في الإسلام	أحمد نار	الدار السعودية
القاديانية	الحافظ إحسان البهي	بيروت
القاديانية	أبو الحسن الندوي	الدار السعودية
قصة الملكية في العالم	د - علي عبد الواحد وافي	إحياء الكتاب بالقاهرة
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار	القاهرة التجارية
الكامل في التاريخ	ابن الأثير الجزري	دار صادر ١٣٨٥ هـ
الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي		
لاهن سيناء	الدكتور جمال الفندي	ط الكويت
كشاف اصطلاحات الفنون	التهانون	وزارة الثقافة القاهرة
كشف الأسرار	علي بن محجر	حسن حلمي الفيضوي
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	حاجي خليفة	استانبول ١٩٤١ م
كفاح دين	محمد الغزالي	دار البيان بالكويت
الكفاية في علم الرواية	الخطيب البغدادي	دائرة المعارف العثمانية
كليلة ودمنة	ابن المقفع	القاهرة
كيف تفهمت القرآن	ك . ك . ممرج	ط الكويت
لسان الميزان	ابن حجر	مؤسسة الأعلمي
لماذا تأخر المسلمون	شكيب أرسلان	عيسى الحلبي
ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي	دار القلم الكويت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المجتمع الإسلامى والتيارات المعاصرة	الدكتور محمد الببى	وهبة ط ، دار الفتح
المجتمع الإسلامى المجتمع الإسلامى	عمر بهاء الأميرى د — مصطفى عبد الواحد	الأمل بالكويت مكتبة القاهرة ط بيروت ١٨٩٠ ط جامعة الدولة العربية
المجددون فى الإسلام مختصر تاريخ الدولة مختصر دراسة للتاريخ مختصر سيرة ابن هشام	عبد المتعال الصعيدى ابن العبرى أرنولد توينبى	دار البحوث بالكويت السنة المحمدية
مدارج السالكين المدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية مدونة جستنيان	عبد السلام هارون ابن القيم	دار الأندلس بيروت
القانونية مرآة الجنان	أرنست كاسيرر	دار الكتب المصرية مؤسسة الأعلمى بيروت
المرشد الأمين للبنات والبنين	ترجمة عبد العزيز فهمى اليافعى	ط المدارس الملكية ١٢٩٢ هـ
مروج الذهب ومعادن الجوهر	رفاعة الطهطاوى	القاهرة المطبعة البهية القاهرة الحلى ١٩٥٨
المزهر	المسعودى السيوطى	

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المسؤولية	محمد أمين المصري	زيد بن ثابت
مسالك الثقافة	أوليري — تمام حسين	مطبعة القاهرة
المستصفى	أبو حامد الغزالي	الأميرية بالقاهرة
المستقبل لهذا الدين	سيد قطب	الكويت
المشكلة الأخلاقية		
والفلاسفة	أندريه كرسن	إحياء العربية
مشكلة الوجود	حسام محي الدين الألوسي	بغداد مكتبة الزهراء
مصادر للتشريع		
الإسلامي	عبد الوهاب خلاف	دار القلم الكويت
مصطلح التاريخ	أسد رستم	الأمريكية
مطابع اليهودية	محمد نمر الخطيب	ط الكويت
معارك العرب الحماسة	صبحي عبد الحميد	منشورات دار المنار
معالم تاريخ الإنسانية	ويلز	الترجمة والنشر
معالم تاريخ الإنسانية	هـ ج ويلز	لجنة التأليف والنشر
معالم تاريخ العصور		
الوسطى	محمد رفعت ومحمد أحمد	الرحمانية بالقاهرة
معالم الحضارة	علوان	بيروت
معالم السنن للخطابي	أبي سليمان محمد بن	
	أحمد	حلب راغب الطباخ
معالم القرية في أحكام		
الحسية	ابن الإخوة محمد بن محمد	كمبريدج ١٩٣٧ م
معجزة الإسلام التربوية	د — محمود سلطان	دار القلم
معجم الأدباء	ياقوت الحموي	عيسى الحلبي القاهرة
معجم الأطباء	أحمد عيسى	جامعة القاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
معجم المحلى	ابن حزم الظاهري	دمشق
معركة الحضارة	قسطنطين زريق	دار العلم للملايين
المغازي	موسى بن عقبة	القاهرة
مفاتيح العلوم	أبو عبد الله محمد الخوارزمي	القاهرة ١٣٤٢ هـ
الملل	الشهرستاني	الخطبة والحسين التجارية
مقالات الكوثري	محمد زاهر الكوثري	الأناور بالقاهرة
مقدمات ومباحث في حضارة العرب	عمر رضا كحالة	مطبعة الحجاز دمشق
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	التجارية بالقاهرة
مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي	د - فتنز رونتال	دار الثقافة بيروت
مناهج البحث العلمي	عبد الرحمن بدوي	دار النهضة العربية
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	تقى الدين المقرئ	القاهرة ١٣٢٦ هـ
الموافقات للشاطبي	الشاطبي	ط المعرفة بيروت
الموسوعة العربية الميسرة	القاهرة	القاهرة
موسوعة الفقه الإسلامي	المجلس الأعلى	القاهرة
موسوعة النظم الحضارية	د - أحمد شلبي	النهضة المصرية
موقف العقل	مصطفى صبري	الخطبة
النبوة والأنبياء في القرآن	أبو الحسن الندوي	دار السعودية ، جدة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
النجاة النجوم الزاهرة	ابن سينا ابن تغري بردى	إحلبى الثقافة — دار الكتب المصرية
نحن والتاريخ نشأة الحضارة	قسطنطين زريق ول ديورانت	دار العلم للملايين ط لجنة التأليف والترجمة
نظرية دارون النقد في عصر التنوير نهاية الأقدام في علم الكلام	السيد الكيلانى نازلى إسماعيل الشهرستانى	دار القلم الكويت دار النهضة مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٧ م
نهاية السؤل شرح المنهاج نيل الأوطار هدية العارفين الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية وفيات الأعيان	للإسنوى الشوكانى البغدادى كرنباوم شمس الدين بن خلكان	محمد على صبيح دار الجميل بيروت وكالة المعارف استنبول أسعد بغداد ١٩٦٦ م القاهرة ١٩٤٨ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أهمية الموضوع ودواعى اختياره	٧
الباب التمهيدي	
الحضارة والإنسان والتفسير الحضارى للتاريخ	
وكيفية قيام الحضارات .	١١
الفصل الأول	
الحضارة والإنسان وتأثير الجنس والبيئة	١٣
المبحث الأول :	
تعريف الحضارة لغة وبيان ما يقاربها من ألفاظ ومصطلحات	١٥
الثقافة عند الأوروبيين	٢٠
المبحث الثانى :	
التعريف الاصطلاحي للحضارة وما يقاربها	٢٥
صلة الحضارة بالمفهوم الإسلامى	٣٩
المبحث الثالث :	
الحضارة والنزعة العنصرية	٤٢
المبحث الرابع :	
آراء المحدثين فى دور الجنس فى الحضارة	٥١

الموضوع	الصفحة
المبحث الخامس :	
البيئة والإنسان — جغرافيا —	٦٦
الفصل الثاني	
التفسير الحضارى للتاريخ	٧٥
المبحث الأول :	
تعريف التاريخ	٧٧
المبحث الثانى :	
حقيقة التاريخ ومصادره	٨٤
نحجية التاريخ	٨٧
شروط البحث التاريخى ..	٩٠
المبحث الثالث :	
التفسير الحضارى	٩٥
المبحث الرابع :	
النظريات المطروحة لتفسير التاريخ ..	٩٩
الكتابة والتدوين للحوادث عند القدماء	١١١
الفصل الثالث	
التحرك الحضارى	١١٥
المبحث الأول :	
التحرك البشرى وخطوات هذا التحرك	١١٧
المبحث الثانى :	
الحياة الروحية فى التاريخ	١٢٤
المبحث الثالث :	
العوامل المؤثرة فى قيام الحضارات	١٢٨

الموضوع	الصفحة
المبحث الرابع :	
اتجاهات التحرك الحضارى	١٣٣
الدورات الحضارية للتاريخ	١٤٠
الباب الأول	
الفهم الإسلامى للحضارة ومناهجه وتفسيره للتاريخ	١٤٩
الفصل الأول	
المفهوم الحضارى فى الإسلام — أسسه ومظاهره	١٥١
المبحث الأول :	
تصور شامل للكون — التصور الإسلامى للكون	١٥٣ — ١٥٥
المبحث الثانى :	
المنهج الإسلامى فى النظر إلى الكون — شمول التصور الإسلامى للكون	١٦٤ — ١٨١
المبحث الثالث :	
التصور الإسلامى للإنسان	١٨٤
المبحث الرابع :	
التصور الإسلامى لغاية الحياة	٢٠٥
المبحث الخامس :	
أسس الحضارة الإسلامية	٢١١
الفصل الثانى	
المناهج العلمية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية	٢٤٥
المبحث الأول :	
تعريف المنهج وتحديد معنى الكلمة	٢٤٧

الموضوع الصفحة

المبحث الثاني :

أساس المناهج فى الحضارة الإسلامية ٢٥٠

المبحث الثالث :

المناهج العلمية للشريعة ٢٦٣

مقاصد الشريعة ٢٧٢

هدف المناهج الإسلامية ٢٧٧

المبحث الرابع :

مناهج التلقى ٢٨٠

جمع عثمان وكتابة المصاحف ٢٨٢

منهج الدراسات المختلفة ٢٨٩

المبحث الخامس :

المناهج المادية ٢٩١

الانطلاقة الإسلامية العلمية ٢٩٣

آثار التعاليم الإسلامية فى المنهج التجريبي ٢٩٨

آثار المنهج التجريبي فى تقدم علوم المسلمين ٣٠٠

حركة الترجمة ٣٠٤

الفصل الثالث

التفسير الإسلامى للتاريخ ٣٠٩

المبحث الأول :

نظرة الإسلام إلى التاريخ الحضارى ٣١١

مكانة الإنسان فى الحياة ٣١٨

فكرة الإسلام عن التاريخ الحضارى ٣٢٢

برنامج السير فى الأرض ٣٢٣

الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني :	
وجهة هذا التفسير الحضارى	٣٢٧
المبحث الثالث :	
الأنبياء رواد حضارات	٣٣٣
الباب الثانى	
صلة الحضارة الإسلامية بغيرها وخصائصها والدور الذى اضطلعت به	٣٤١
الفصل الأول	
صلة الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات	٣٤٣
المبحث الأول :	
صلة الحضارة الإسلامية بالحضارة العربية القديمة	٣٤٦
عطاء العرب للحضارة ..	٣٥٧
المبحث الثانى :	
صلة الحضارة الإسلامية بالحضارات غير العربية	٣٥٩
محاولات ربط الفكر الإسلامى بالتراث الإغريقى	٣٦٨
المبحث الثالث :	
الجهد الإسلامى فى البعث الحضارى لتلك الشعوب	٣٧٤
حجم النهضة العلمية	٣٧٦
المبحث الرابع :	
اتصال الحضارة الإسلامية بتراث الحضارات	٣٨٢
الفصل الثانى	
الدور الحضارى الذى اضطلع به المسلمون	٣٨٥
المبحث الأول :	
جهود المسلمين فى إحياء التراث العلمى للحضارات القديمة	٣٨٩

الموضوع الصفحة

المبحث الثاني :

تراث المسلمين العلمى	٤٠٤
نظرية الإسلام الطبية	٤٢٨
نظرية الإسلام الرياضية والفلكية	٤٣٣
أبرز الاختراعات لعلماء المسلمين	٤٣٨
العلوم النظرية عند المسلمين — التاريخ — الجغرافيا — الأدب	٤٤٨
سوق العلوم الإسلامية	٤٤٩

المبحث الثالث

معارب الحضارة الإسلامية إلى أوروبا	٤٥٢
النقلة من اللغة العربية إلى الأوروبية	٤٥٦

الفصل الثالث

٤٦٣ خصائص الحضارة الإسلامية وأهدافها مع المقارنة

المبحث الأول :

العقائد والمبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية ..	٤٦٨
--	-----

المبحث الثاني :

تصوير للحياة وغايتها	٤٩٣
نتاج الحضارة الغربية من المذاهب والنظريات	٥١٠

المبحث الثالث :

منهج تربوى	٥١٥
------------------	-----

المبحث الرابع :

النظام الاجتماعى فى الإسلام	٥٣٥
المساواة الإنسانية	٥٤٠
التكامل بين الأمة والأجيال المتعاقبة	٥٥٠

الموضوع	الصفحة
الفرق بين التصور الإسلامى والتصور الاشتراكى للحياة ..	٥٦٧
الباب الثالث	
التحدى الحضارى الإسلامى ومستقبله	٥٧٣
الفصل الأول	
التحدى الحضارى الإسلامى	٥٧٧
عقيدة تخالط الحياة ..	٥٨٤
الفصل الثانى	
مستقبل الحضارة الإسلامية	٦٠١
المبحث الأول :	
بشریات ..	٦٠٥
المبحث الثانى :	
حاجة الإنسانية إلى الرقى ..	٦٢٢
عناصر البقاء فى الحضارة الإسلامية ..	٦٢٦
الفصل الثالث	
حاجة الإنسانية إلى تلك الحضارة	٦٣٥
التطلع إلى الحضارة الإسلامية ..	٦٤٢
هيمنة القرآن وتأثيره ..	٦٤٨
المسلمون قادمون ..	٦٦١
الباب الرابع	
التدهور الحضارى وأسباب انحطاط المسلمين	٦٧٥
الفصل الأول	
الغزو الفكرى وأثره على الأمة الإسلامية	٦٧٧

الموضوع	الصفحة
المبحث الأول :	
أضواء على هذا المصطلح وما يقاربه	٦٧٩
المبحث الثاني :	
أسباب الغزو الفكري	٦٨٥
المبحث الثالث :	
أساليب الغزو الفكري	٧٠٨
المبحث الرابع :	
هل تنحل الأمة الإسلامية ويعتريها توارث الحضارات	٧٢٦
الفصل الثاني	
أمراض الحضارة وعصر الانتحار العلمي	٧٣٣
المبحث الأول :	
تدهور الحضارات	٧٣٥
المبحث الثاني :	
أمراض الحضارة	٧٤١
المبحث الثالث :	
الحضارة والانتحار العلمي	٧٦٦
الفصل الثالث	
أسباب انحطاط المسلمين حضاريا	٧٨٥
مبدأ الجبر وشيوعه	٧٩٩
ذهاب الخلافة	٨٠٥
المسلمون والجهاد	٧١٦
خاتمة في نتيجة هذه الدراسات ..	٨٢١
الفهرس	٨٥١

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٣٥ / ٨٦

الترقيم الدولي ٩٢ - ٥ - ١٤٢٠ - ٩٧٧

مطالع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس : ٢٤٠٠٢ DWFA UN



المعهد القومي لكتبة الإسكندرية

